

جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية
لجنة إحياء التراث الإسلامي

المُقْبِلُونَ

مِنْ أَنْبَاءِ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ

لِلْإِبْنِ حَيَّانِ الْقُرْطُبِيِّ

حَقَّقَهُ وَقَدَّمَ لَهُ وَعَلَّقَ عَلَيْهِ
الدكتور محمود علي مكي

القاهرة
١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تصدي

بقلم الأستاذ : محمد أبو الفضل إبراهيم

رئيس لجنة احياء التراث الاسلامي

تعدّ تلك الحقبة التي عاشها العرب في الأندلس ، وأظل الإسلام ربوع هذه البلاد ، ونشر فيها أعلامه وبسط سلطانه ، من أعظم الحقب في تاريخ الإسلام وأكملها حضارة ، وأحفلها بصنوف العلوم والفنون والآداب ؛ ازدهر فيها الشعر والنثر ، وتألّق الفن ، وغصّت قرطبة وطليلطة وإشبيلية بالمدارس والمعاهد وخزائن الكتب ، وزخرت هذه البلاد برجال العلم والفلسفة والغناء ؛ وهرع إليها العلماء من كل حدب وصوب ، يحملون كتبهم وأسفارهم ويحاضرون بمعارفهم وآدابهم ، وألّفت الكتب في التفسير والحديث والتصوف والفلسفة والطب والفلك والرياضة والنبات ، بما أثرت به المكتبة العربية ثراء لا يدانيه ثراء .

إلا أنه بجانب ذلك - وعلى مضيّ الزمن - تعاور على هذه البلاد كثير من الفتن والأحداث والخطوب ؛ وما زال يستفحل أمرها ، ويعظم شرّها وشررها ؛ ويفت في عضدها ؛ حتى انتهى الأمر بانحسار الإسلام عن هذه البلاد وخرست الألسن العربية فيها ؛ وانطفأت مشاعل حضارة دامت عدة قرون ، في مأساة حزينة مؤلمة . وتبع هذه المحنة ضياع كثير من الكتب والأسفار والدواوين ، وفيها أكرم ما نضحت به القرائح ، وأسمى ما أمثرت العقول .

وفي عصرنا الحديث أخذ العرب يتلفتون نحو تراثهم في هذه البلاد، ويبحثون عما بقي من الكتب في أمكنة وجودها شرقا وغربا ، وكلما عثروا على كتاب أقبلوا على دراسته ، أو تنافسوا في نشره وتحقيقه ؛ اعتزازا بذلك التراث المجيد ، وإحياء لذكرى هذا الفردوس الإسلامي المفقود ، كما كان يسميه بعض الباحثين .

ومن الكتب الأندلسية العتيقة التي امتدت إليها يد الحدثان؛ كتاب المقتبس من أنباء أهل الأندلس لشيخ مؤرخي الأندلس أبي مروان حيان بن خلف بن حسين بن حيان ، المعروف بابن حيان القرطبي ، إلا أن الأقدار شاءت أن تفلت أجزاء منه من الضياع ؛ قطعة منه عثر عليها المستشرق الفرنسي بروفنسال وقام بنشرها ، وأخرى عثر عليها الراهب الأسباني الأب ملنشور أنطونيا ونشرها في باريس ، و قطعة ثالثة قام بنشرها الأستاذ عبد الرحمن حجى في بيروت .

وقرأ كثير من العلماء والباحثين هذه الأجزاء المتفرقة ، فوجدوا فيها من صدق الحسّ وحسن التعبير وسموّ الأسلوب وأمانة المؤرخ ، ماتمّنوا معه المزيد من الكشف عن هذا الكنز الثمين .

وكان من نصيب العالم الفاضل الدكتور محمود علي مكى الحصول على قطعة مخطوطة أخرى مما لم ينشر من قبل ، تنتظم أحداث السنوات الأخيرة من إمارة عبد الرحمن الأوسط ابن الحكم ومعظم إمارة محمد بن عبد الرحمن ؛ فقام بتصويرها ثم تحقيقها وتقويم نصوصها ؛ حتى أمكن أن تبدو في هذه الصورة المشرقة الجميلة ؛ وقدم لها مقدمة مسهبة ، في التعريف بابن حيان وأسرته وثقافته وآثاره ، ومنزله بين مؤرخي الإسلام عامة ومؤرخي الأندلس خاصة ؛ ووشّاه بالمعارف الأندلسية النادرة ذات الطابع العلمي الأصيل ؛ ثم قام المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بنشر هذا المخطوط ، مشاركة منه في إحياء تراث الأندلس الخالد .

والدكتور محمود علي مكى من أفاضل العلماء الذين عنوا بتاريخ الأندلس وآدابه في العصر الحديث . وقد تهيأ له بفضل تلك المدة الطويلة التي قضاها في هذه البلاد ، باحثاً ودارساً ، وواقفاً على آثارها ، متجولاً في شتى جهاتها ، مطلعاً على مكتباتها - ما لم ينتهياً لغيره من العلماء والباحثين . ثم ألف ودرّس وحاضر ؛ وكتب البحوث الجليلة ، ونشر النصوص النادرة حتى إنه ليعدّ الآن مرجعاً في كل ما يتعلق بالأندلس وتاريخها وآدابه ورجالها .

وهذا القدر الذي بنى عليه التحقيق يقع في ثلاثة أجزاء ؛ نسأل الله أن يوفق لإتمامه ويعين .

ابن حَيَّان القَطِيبِي

٣٧٧-٤٦٩ هـ : ٩٩٧-١٠٧٦ م

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تمهيد

يتفق الكثيرون من الباحثين على أن أبا مروان حيان بن خلف بن حيان يعد من أعظم مؤرخي الإسلام ، وهو بغير شك أعظم مؤرخ أنجبته الأندلس ، بل والغرب كله — الإسلامى والمسيحى منه على السواء — طوال العصور الوسطى ، ولانستثنى من هذا الحكم إلا فيلسوف التاريخ أبا زيد عبد الرحمن بن خلدون الذى يعتبر فى تاريخ الفكر الإنسانى كله ظاهرة فذة غريبة .

ومع ذلك فإن الذى يتأمل ما وصل إلينا من أخباره يجده قليلا لا يتناسب مع هذه المكانة العالية التى اعترف بها لابن حيان أهل عصره ومطالعو كتبه من القدماء والمحدثين . فأصحاب معاجم التراجم من أمثال ابن بشكوال ومن نقل عنه ، كالعهد بهم لا يكادون يفردون لمن يترجمون له إلا سطوراً تنص على سنة مولده وسنة وفاته وعلى من قرأ عليه من الشيوخ ، ثم من تلمذ عليه وعناوين بعض كتبه ، ولا أكثر من ذلك . صحيح أن هذه الكتب قد حفظت لنا خلال تلك المسادة الجامدة الصماء بعض ما هو مفيد ، ولكنها لا تكاد تضيف شيئاً نعرف به المترجم له بوصفه إنسانا اضطرب فى الحياة ، وعرك تصاريدها ، وذاق حلوها ومرها ، وشارك فى نوع من النشاط الفكرى أهله له شخصيته وطبيعته وتكوينه . ومن أسف أن ابن حيان بمفهومه العميق النابض بالإحساس لما تعنيه كتابة التاريخ ؛ لم يترجم لنفسه كما فعل بعض المؤرخين قبله وبعده ، ولو أنه فعل لقدم لنا صورة حية صادقة لنفسه كما قدمها لمن عرفه واتصل به من شخصيات عصره ، ولكانت تلك وثيقة بالغة القيمة . ومن يدري ؟ فلعله كتب عن نفسه مثل التفصيل الذى كتب به عن أهل عصره ، ولكن تلك الصفحات ضاعت كما ضاع معظم ما كتبه هذا المؤرخ الفذ .

ولايبقى علينا بعد ذلك إلا أن تجمع من تلك السطور المتناثرة هنا وهناك فى كتب مؤلفين لم يفهموا معنى الكتابة التاريخية كما فهمها ابن حيان لكى نقيم منها بناء ترجمة تقريبية لحياته الحصبة الطويلة التى كادت تقارب قرنا من الزمان :

١ - خلف بن حسين كاتب المنصور والد بن حيان :

من حسن الحظ أن ابن بشكوال أقدم مترجم لابن حيان قد احتفظ لنا بنسبه كاملاً ، فقال إنه :
« أبو مروان حيان بن خلف بن حسين بن حيان بن محمد بن حيان بن وهب بن حيان مولى الأمير
عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان ؛ من أهل قرطبة ، وأضاف ابن بشكوال
إلى ذلك : « كذا قرأت نسبه وولاءه بخطه » (١) .

وكثيراً ما تفيدنا هذه الأنساب الكاملة بشئ* ، إذا تتبعنا ما يرد هنا وهناك في كتب التراجم
من سطر أو سطرين عن أحد أجداد المترجم له ، مما قد يلقي ضوءاً على حياته أو ما يحتمل أن يكون
قد ورثه عن بعض أجداده من صفات . ولكن المؤسف هنا هو أننا لم نجد شيئاً على الإطلاق عن
أحد من جدود ابن حيان المتقدمين . وكل ما يفيدنا به هذا النسب الذي قرأه ابن بشكوال مكتوباً
بخط ابن حيان نفسه هو أن جده الأعلى وهب بن حيان أو حياناً أباه كان مولى للأمير عبد الرحمن بن
معاوية مجدد الدولة مروانية في الأندلس ومؤسس ذلك الملك العتيد الذي أدرك مؤرخنا أوج
عظمته السياسية والعسكرية على عهد العامرين ، ثم رآه وهو يتمزق في أعقاب الفتنة البربرية ويموت
موتاً بطيئاً تحت وطأة الحرب الأهلية العاتية .

ولا يخلو هذا النسب من بعض فائدة ، فنحن نعرف منه أن أسرة ابن حيان قد ارتبطت منذ
قديم بالأسرة المالكة المروانية عن طريق هذا الولاء الذي كان يجمع بين وهب بن حيان والأمير
عبد الرحمن بن معاوية الداخل .

على أن الأندلس عرفت أنواعاً كثيرة مختلفة من الولاء ، ولانعرف إلى أيها تنتمي هذه العلاقة
بين أجداد ابن حيان والبيت الأموي الممالك ، وأغلب الظن أنه كان ولاء اصطناع ، وأن ابن
حيان كان من أسرة إسبانية قديمة من تلك الأسر التي قامت بتأييد الأمير الأموي « صقر قريش »
فاصطنعها هو وأبناؤه من بعد . فإن حيان إذ يؤكد هذا الولاء إنما يفخر به ويعتبره من دلائل
الشرف وكرم الأبوة ، لا كما يمكن أن يسبق إلى الوهم لأول وهلة من مظنة الغضاضة .

(١) ابن بشكوال : كتاب الصلة ، ط . القاهرة سنة ١٩٥٥ ، ترجمة رقم ٣٤٥ .

غير أن أسرة ابن حيان لم تكن مع ذلك من نوع تلك البيوتات الكبيرة من بيوت الموالى التي تردت فيها الحطط والمناصب ، فنحن لانعرف أن أحداً من أجداده قد ولى منصباً كبيراً في الدولة ، ولهذا فيغلب على ظننا أنهم - على الرغم من ولائهم الأموى - كانوا من طبقة صغار الموظفين ، لاهم إلى غنى ولا هم إلى فقر ، وإنما كانوا أقرب إلى أن يعيشوا ميسورى الحال في نطاق الطبقة الوسطى من طبقات الشعب الأندلسى .

وأول من نعرف أنه ولى منصباً ذا شأن في أسرة ابن حيان هو والده أبو القاسم خلف بن حسين بن حيان القرطبي ، فهو أول من نجد له ترجمة خاصة في بعض كتب الطبقات (١) .

ونعرف مما ذكره ابن الأبار في المسادين اللتين اختص بهما خلف بن حسين أنه ولد سنة ٣٤٠ هـ (٩٥١ - ٩٥٢ م) في قرطبة ودرس بها ، على أن الشيخ الوحيد الذى ينص ابن الأبار على أنه قرأ عليه هو عالم القراءات المشهور أبو الحسن الأنطاكي .

ويستحق هذا العالم منا وقفة مريثة ، إذ تبين لنا أنه قد ترك في نفس تلميذه والد ابن حيان أثراً عميقاً ، وباشر نفوذاً كبيراً في تشكيل شخصيته وصقلها حتى أبلغه مرتبة من أعلى مراتب الدولة كما سنرى .

كان أبو الحسن على بن محمد الأنطاكي - كما يقول عنه مترجمه وتلميذه ابن الفرضي (٢) - عالماً بالقراءات القرآنية رأساً فيها وفي علم الحديث ، فضلاً عن بصره بالعربية والحساب والفقهاء على مذهب الشافعي ، وكان مولده في سنة ٢٩٩ هـ (٩١١ - ٩١٢ م) بأنطاكية ، ودخل الأندلس في سنة ٣٥٢ هـ (٩٦٢ م) فنزل من الحكم المستنصر بالله ومن الناس منزلة رفيعة ، وكانت وفاته في سنة ٣٧٧ هـ (٩٨٧ م) .

وقد اتجه خلف بن حسين منذ شبابه إلى هذه العلوم القرآنية ، فدرسها على الشيخ أبي الحسن

(١) ابن الأبار : كتاب التكملة لكتاب الصلة ، نشر فرانسكو كوديرا ، مدريد سنة ١٨٨٩ ، ترجمة رقم ١٤٩ ، وإعتاب الكتاب ، بتحقيق الدكتور صالح الأشر ، دمشق سنة ١٩٦١ ، ص ١٩٨ .

(٢) ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، نشر فرانسكو كوديرا ، مدريد سنة ١٨٩٠ ، ترجمة رقم ٩٢٢ ، وانظر كذلك المقرئ : نفع العلي ، بتحقيق الشيخ محيى الدين عبد الحميد ، القاهرة سنة ١٩٤٩ ، ٤ - ١٤٠ .

الأنطاكيّ ، ويذكر ابن الأبار أنه كان حسن الصوت إلى حد أنه كان من بين من عينهم الشيخ للقراءة يوم زاره الخليفة نفسه الحكم المستنصر بالله . وهذه الإشارة مقتضبة إلى حد يجعلها غامضة بعض الشيء ، فلننا نعرف ظروف تلك الزيارة التي قام بها الخليفة نفسه لهذا الشيخ ، غير أنه يبدو لنا أن أبا الحسن الأنطاكي كان يقوم بتدريس العلوم القرآنية في مدرسة خاصة ، وأنه كان قد انتخب عدداً من شباب الطلبة ممن امتازوا بجمال الصوت وحسن الأداء أعدهم نماذج لإتقان القراءة . ولا بد أن هذه الزيارة المنوه بها تمت بين سنتي ٣٥٢هـ (٩٦٣م) وهي سنة قدوم الشيخ أبي الحسن إلى الأندلس و ٣٦٦هـ (٩٧٦م) سنة وفاة الحكم المستنصر ، أي وهو في سن تراوح بين اثني عشر عاماً وستة وعشرين .

كذلك يستوقف نظرنا ماجاء في ترجمة الأنطاكي من أنه كان بصيراً بالعربية والحساب والفقهاء على مذهب الشافعي ، فهو يدل على أن هذا العالم المجرّد لم تقتصر ثقافته على العلوم القرآنية بل كان متعدد جوانب المعرفة ، وكان لذلك أطيّب الأثر في تكوين شخصية تلميذه خلف ابن حسين وتفتيق روحه وحثه على أن تكون له ثقافة إنسانية عامة ، وسنرى كيف يرث مؤرخنا حيان عن أبيه ذلك التفتح والطموح إلى الأخذ من كل مورد من موارد الثقافة .

وللاشارة إلى بصر الأنطاكي بالحساب قيمة خاصة ، إذ يبدو لنا أنه أورث تلميذه هذا الاهتمام بالعلوم الرياضية ، فابن الأبار في ترجمته لخلف بن حسين ينص على أنه كان « ماهراً في الحساب بصيراً بالمساحة » (١) ، وقد كان هذا بالذات هو الذي أزلناه إلى المنصور بن أبي عامر حتى جعله من كتابه المقربين .

ولا بد أن أسرة خلف بن حسين كانت على قدر من الثروة حين عهدت بتأديبه إلى الشيخ أبي الحسن الأنطاكي القادم من المشرق والذي كان ذا حظوة من الخليفة نفسه، ويؤكد لنا ذلك ما نعرفه عن زميل من زملاء الدراسة لخلف بن حسين ، هو أبو مروان عبد الملك بن إدريس الجزيري الذي كان من أحد بيوت الشرف في الأندلس ، والذي قدر له أن يصبح رفيقاً لخلف بن حسين في الكتابة للمنصور بن أبي عامر وإن كان قد اتجه إلى كتابة الرسائل والأدب ، بينما اقتصرت خلف بكتابة « الحسابات » أي أعمال الإدارة والمال .

(١) التكلة ، ترجمة رقم ١٤٩ .

ولسنا نستبعد أن يكون الحكم المستنصر في زيارته تلك للشيخ أبي الحسن قد توسم في خلف بن حسين من المواهب ومخايل الذكاء ما حمله بعد على تقريبه ، ولعله عهد إليه بمنصب يتلاءم مع فتائه وصغر سنه . وليست لدينا أخبار مؤكدة عن حياة والد ابن حيان خلال هذه السنوات ، ولكن مانعرفه من حظوته لدى المنصور يحملنا على أن نعتقد أن يكون قد سبق ذلك تدرج منه في بعض وظائف الدولة على أيام الحكم المستنصر :

وقد مر المنصور بن أبي عامر نفسه بهذا الدور ، إذ أنه صعد السلم من أوله حتى أصبح بعد ذلك هو الحاكم بأمره في الأندلس كلها باسم الخليفة الطفل هشام المؤيد بن الحكم ، ولعل المنصور قد عرف خلف بن حسين أثناء عملهما في بعض مناصب الدولة خلال أيام الحكم ، وتوثقت صلة الرجلين ، فلما وصل المنصور إلى الحكم عمد إلى تقريبه وإحفظائه .

ولم يكن محمد بن أبي عامر من بيت الملك ، وإنما كان رجلا عصاميا تدرج في الوظائف بفضل ذكائه ومواهبه حتى استبد بكل شيء في الدولة ، ودعا ذلك إلى أن يستميل إلى حزبه من استطاع من رجال بيوتات الموالي صنائع بني مروان القدامى من أمثال : بني حزم ، وبني حدير ، وبني شهيد ، وكان شأن خلف بن حسين كشأن هؤلاء ، فإنه على الرغم من ولائه القديم لبني أمية لم يجد بأسا في الانتظام في خدمة المنصور العامري الذي لم يلبث أن استبد بالأمر وجمع في يده كل مقاليد الحكم .

وتوثقت علاقة خلف بن حسين بالمنصور بن أبي عامر توثقا تشهد به الحكايات الكثيرة التي رواها ابنه أبو مروان وضمها تأريخه للدولة العامرية ، ويبدو أن اختصاصه بالمنصور قد زاد في أواخر أيام الحاجب العامري ، فقد كان يلازمه في زوحاته وغدواته ولا يتخلف عن حملاته العسكرية الكثيرة التي وجهها إلى الممالك النصرانية في الشمال . وقد نقل لنا ابن الخطيب في كتابه « أعمال الأعلام » (١) وصفا رائعا لموقعة جربيرة (Cervera) كان مما رواه ابن حيان على لسان أبيه . وكانت هذه المعركة التي دارت في ٢٥ شعبان سنة ٥٣٩٠ هـ (٣٠ يولية سنة ١٠٠٠ م) من أقسى ما خاضه المنصور من معارك ، فقد واجه فيها ائتلافا نصرانيا كبيرا جمع بين كل ممالك الشمال المسيحي وإماراته ، وكادت الدائرة فيها تدور على المسلمين لولا خطة عسكرية اهتدى إليها المنصور في آخر الأمر فكان فيها الفتح والظفر :

(١) بتحقيق لين بروفنسال ، الطبعة الثانية ، بيروت سنة ١٩٥٦ ، ص ٧٠ - ٧٣ .

وتدلنا هذه الرواية المفصلة التي ينقلها ابن حيان عن أبيه على الكثير ، فنحن نستشف منها أن خلف بن حسين كان كاتم سر المنصور الأول الذي يوصيه بما يعرض له من مهام في مثل هذا الموقف الضنك الذي تعرض فيه مجد المنصور بل وحياته لأعظم الأخطار . كذلك نرى منه كيف كانت دقة ملاحظة خلف بن حسين وتسجيله لكل كبيرة وصغيرة من تفاصيل المعركة في موقف تزيف فيه الأبصار ، وتذهل الخلوم ، وشئ آخر هو أنه مع ما زراه في رواية خلف من إعجاب بمخدومه المنصور وصفاته النادرة فإن ذلك لم يمنعه من أن يسجل عليه جزعه واضطرابه بعد اشتداد الأمر عليه في ذلك المعترك الصعب ، وهذه نزاهة تقدر له ، ولو أن كثيرين غيره في مثل هذا المقام تعرضوا لوصفه لأقبلوا يكيلون المديح لمولاهم المنصور ويتحدثون عن بطولته وعبقريته المعجزة . فنحن نرى ابن أبي عامر هنا إنسانا قبل كل شئ يدب في نفسه الخوف والجزع كما يمكن أن يدب في نفس أى بشر .

وهاتان الصفتان اللتان تميزان خلف بن حسين هما أهم الصفات التي أورثها ابنه أبا مروان ، وهما مما سيرفع إنتاجه التاريخي كله إلى مقام لم يرق إليه أى كتاب من كتب التاريخ لمؤلف قبله .

وقد حفظ لنا ابن حيان في مواضع عن هذا الكتاب وغيره حكايات أخرى نقلها عن أبيه ، منها وصفه للمنصور وهو على فراش الموت ووصيته لابنه عبد الملك ، وهذه الوصية وثيقة تاريخية سياسية من الطراز الأول ، إذ نجد فيها تسجيلا لسياسة المنصور وخلاصة لأعماله ، وهي تكاد أن تكون حسابا ختاميا يقدمه الرجل للتاريخ ونصيحة لابنه ورسم للسياسة التي ينبغي أن يتبعها في الداخل والخارج (١) .

وكل هذا يدلنا على مدى الصلة الوثيقة التي جمعت بين خلف بن حسين والمنصور ، وهي التي مكنت والد أبي مروان من الاطلاع على دقائق أسرار الدولة حتى إنه لم تكن تغيب عنه كبيرة ولا صغيرة .

وكان خلف بن حسين رجلا خصينا كتوما جديراً بأن يحمل أمانة السر ، ويبدولنا في تعامله مع سيده حريصا على مرضاته دون إسراف في الملق ، متواضعا لا يتيه بنفسه ولا يزهو بمنزلته .

(١) احتفظ لنا بهذه الوثيقة المهمة ابن بسام في الذخيرة ، ط . القاهرة سنة ١٩٤٥ ، القسم الرابع ١ / ٥٦ - ٥٨ : فيما ينقله عن ابن حيان عن أبيه .

ولهذا فنحن لانسمع بأنه أقصى عن المنصور أو تعرض لنكبة من نكباته كما تعرض غيره من رجال الخدمة مثل أحمد بن سعيد بن حزم والد المفكر الكبير وصديق ابن حيان : أبي محمد ابن حزم (١) ، أو عبد الملك بن إدريس الجزيري صاحب خلف بن حسين وزميله في الدراسة (٢)

على أن خلف بن حسين نفسه يروي فيما نقله عنه ابنه أبو مروان في كتابه عن الدولة العامية ، أن المنصور غضب عليه مرة ، ولكنه كان رفيقا به موادًا له . ولتر كيف يقص هو نفسه هذا الخبر :

« بكتني المنصور يوما على بعض ما أنكره مني تبكيئا بعث من فرعى ما اضطرت منه ، فأشفق على ، وخفف عني ، وأنفذني للوجه الذي استنكر فيه بطئي ، فعدت بتمامه بعد أيام . فاستوقفني وأخلى مجلسه ، ثم أدنانى فقال : رأيت من ذهرك ما استنكرت ، ومن وثق بالله برى من الحول والقوة لله ، وإنما أنا آلة من آلاته : أسطو بقدرته ، وأعفو عن إذنه ، ولا أملك لنفسي إلا ما أملك من نفسي لسواى ، فطامن جأشك ، وإنما أنا ابن امرأة من تميم طالما تقوتت من غزلها ، أغدو به إلى السوق ، وأنا أفرح الناس بمكانه ، ثم جاء من أمر الله ماتراه . ومن أنا عند الله لولا عطفي على المستضعف المظلوم ، وقهرى للجبار الطاغى ؟ » (٣) .

وهى حكاية غريبة تصوّر جانباً آخر إنسانياً من شخصية المنصور بن أبي عامر وتدل في الوقت نفسه على مدى المكانة التي بلغها منه كاتبه خلف بن حسين حتى أصبح المنصور يفضي إليه بمثل هذه الاعترافات ! .

وقد ظل خلف بن حسين على مكانته وخطوته في ظل حجابة عبد الملك المظفر الذى خلف أباه المنصور بعد وفاته في سنة ٣٩٢هـ (١٠٠٢م) . ولا بد أن عبد الملك حفظ له ماتته بأبيه ، فنحن

(١) ابن الأبار : إعتاب الكتاب ص ١٩١ .

(٢) نفس المرجع ص ١٩٣ - ١٩٦ . ويستوقف نظرنا في ذكر أبي مروان الجزيري ما ذكره ابن الأبار فقلا من ابن حيان من أن غضب المنصور عليه كان بسبب إدلاله عليه « وكان أكثر من يشركه أعطالا من الآداب العربية لتوفرهم على علم العدد وانهماكهم في التعاليم الديوانية التي استدرروا بها الجباية وحصلوا بها المراتب العالية ، فكان الجزيري يزرى بهم ويحب الاشتغال على ابن أبي عامر ويتصور فرط حاجته إليه في الإنشاء » . ونحن نعتقد أن ابن حيان إنما أشار - وأحيا أو بغير وعى - إلى أبيه وأمثاله بحديثه عن كتاب المنصور « المتوفرين على علم العدد المهتمكين في التعاليم الديوانية المدرة للجباية » .

(٣) ابن الأبار : إعتاب الكتاب ص ١٩٨ .

نرى خلفاً لا يزال ووثيق الصلة برجال الحكم مطلعاً على أسرار الدولة . ونقل ابنه المؤرخ أبو مروان عنه بعض أخبار الأحداث الواقعة في هذه الفترة ، نشير من بينها بالذات إلى مصرع عبد الملك بن إدريس الجزيري زميل دراسته القديم لدى الشيخ الأنطاكي ، وكان قصر نظر ابن الجزيري ، وطيشه وتورطه في الدسائس والمؤامرات السياسية قد أدى به إلى الوقوع في نكبة عبد الملك المظفر ، وكان أشد الناس في التحريض عليه وزير المظفر : عيسى بن سعيد القطاع ، فأودع سجن المطبق بالزاهرة في خبر طويل ، ثم أدخل عليه عيسى في مطبقة قوما من السودان فخنقوه وأشيع موته ، وأخرج جسده بعد أيام ، فأسلم إلى أهله ، وكان ذلك في شوال سنة ٣٩٤هـ (أغسطس سنة ١٠٠٤م) :
ويقص علينا ابن حيان بكل تفصيل خبر المؤامرة التي انتهت بمصرع ابن الجزيري الفاجع نقلاً عن أبيه خلف بن حسين ، ويختم الخبر بقوله :

« أخبرني أبي خلف بن حسين قال : سألت الذي تولى قتل ابن الجزيري في محبسه ، فجعل يصف لي سهولة ما عاناه منه لقضافته وضعف أسره ويقول : ما كان الشقي إلا كالفروج في يدي ، دقت رقبته بركبتي ، فما زاد أن نفخ في وجهي . فعجبت من جهل هذا الأسود » (١) .

وإطلاع خلف بن حسين على حقيقة مصرع ابن الجزيري ووصفه على هذا النحو الدقيق الحافل بالتفاصيل يدل على أنه كان لا يزال قريباً من مراكز القوة والنفوذ في الدولة العامرية .

ولابد أن نهاية ابن الجزيري — رفيق صبا خلف بن حسين وزميله في الدراسة ثم في التدرج في مناصب الدولة حتى أصبح كلاهما من كتاب المنصور العامري ووزرائه — قد آثرت في نفس خلف كثيراً من الأسى ، نرى ذلك في رنة الحزن التي تغلب على روايته لتلك الواقعة ، وإن كان وفاؤه لذكرى صديقه ابن الجزيري لم يمنعه من الحكم عليه بما يستحقه ، فقد كان من « عقريية الطبع » والتهور بحيث تسرع في الانتساب في تلك الدسائس البلاطية التي جرّت عليه أخيراً نهايته الفاجعة . ونرى هنا شاهداً آخر على نزاهة خلف بن حسين في الحكم وتجرده من الهوى .

ولعل مصرع أبي مروان بن الجزيري كان درساً جديداً استفاد منه خلف بن حسين ، فعلمه أن يلتزم جانب الحذر في هذا الجو السياسي الموبوء الذي كانت أدنى هفوة فيه من قبيل أي وزير

(١) ابن بسام .: الذخيرة ، القسم الرابع / ١ / ٣٦ .

أو كاتب أو متلبس بخدمة السلطان كقبيلة بأن تهوى به من حائق ، وقد سبقت له في أيام المنصور بن أبي عامر تجربة كاد يفقد فيها حظوة مولاه ، ولكنها أنت سليمة العاقبة ، وهاهو ذا يرى كيف كان التورط في المنازعات والمنافسات السياسية التي كانت على أشدها في أواخر أيام العامرين أمراً قد يؤدي إلى التهلكة . وإذا كان خلف بن حسين قد سلم من مغبة هذا الجو المشحون فلا شك في أن ذلك يرجع إلى حصافته وحنكته وحذره . لقد كان خلف من رجال هذه الدولة العامرية ، ولكنه كان فيما يبدو لنا يحاول البعد عن كتلتها وأحزابها بقدر ما استطاع ، وكان موقفه منها أشبه بموقف المراقب عن كذب منه بموقف المتدخل في معمراتها ، فلسنا نعرف أن شراً ما أصابه خلال هذه السنوات التي كانت الأندلس تقرب فيها بسرعة من الفتنة الكبرى المبيرة التي لم تلبث أن انفجرت في سنة ٥٣٩٩ (١٠٠٩م) وسرى كيف أورث خلف ابنه أبا مروان هذا الحذر والتحرز من خوض عالم السياسة القلب ، فلم من حباله وأشراكه كما سلم أبوه .

كان خلف بن حسين قد أشرف على السنين من عمره حينما اندلعت نيران الفتنة البربرية ، ولكنه لم يغادر قرطبة كما غادرها الكثيرون من رجالات الدولة العامرية والمروانية هرباً من الحروب الأهلية ولسنا نعرف كيف كان خلف بن حسين وابنه أبو مروان يعيشان خلال هذه السنوات الثلاثين التي كتب عليهما خلالها أن يتجرعا غصصها في قرطبة بعد بدء الفتنة . على أنه على الرغم من المذابح التي خضبت أرض المدينة المنكوبة - عروس الغرب الإسلامي كله قبل ذلك بسنوات - ومن كل ما وقع فيها من أهوال وخراب وسفك دماء وانتهاك للحرم والأموال ، فليس هناك ما يدل على أنه قد أصاب خلف بن حسين هو ولا أسرته من كل ذلك شيء . ولعل خلفاً كان خلال عمله كاتباً ووزيراً قد ادخر ما يستعين به على هذه السنوات ، أو اكتسب من العقار أو المال ما يقيم أوده ، فلم يشعر هو ولا ابنه من بعد بالحاجة إلى هجر بلده ، فبقيا في قرطبة طوال تلك السنوات .

ولأنعلم من أخبار خلف بن حسين بعد ذلك إلا أنه كف بصره في سنة ٥٤١١ (١٠٢١م) ، فلزم بيته ولم يغادره إلى أن توفي سنة ٥٤٢٧ (١٠٣٦م) ، وكانت الخلافة المروانية قد أعلن إلغاؤها بصفة رسمية منذ خمس سنوات ، وقام بأمر قرطبة الوزير أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور فأعاد إليها بعض الصلاح والأمن . ونحن نأنس من ذلك أن خلف بن حسين قضى هذه السنوات الخمس الأخيرة من عمره في سلام وهدوء ، معتكفاً في داره بعد أن حكم عليه عماء وشيوخه بالإخلاء إلى السكينة ، وأغلب الظن أنه قضى تلك الفترة الوداعة على ابنه أبي مروان ما يشبه أن يكون

« مذكراته » عن حياته الماضية الغنية بالتجارب ، وعمما مر به خلال عمره الطويل (نحو خمس وثمانين سنة) شهد فيها من تقلب الدول وتصارييف الأحوال مايعتبر ذخرأ ثمينا لمؤرخ عميق الإحساس بتبعة الكتابة التاريخية مثل ولده أبى مروان . وقد أودع ابن حيان فى كتبه كل هذه المسادة الدسمة الخصبه التى أئرى بها محصوله من الأخبار سواء أشار إلى أبيه أم لم يشر .

ويظهر أن خلف بن حسين كان لايزال يتمتع باحترام الناس وتبجيلهم له ، وأنه كان على الرغم من التزامه داره وانطوائه عن ضجيج الحياة قد خلف فى عالم قرطبة ذكريات طيبة منذ كان كاتباً ووزيراً للعامريين ، فنحن نعرف مما أورده ابن الأبار فى ترجمته أن الذى قام بالصلاة عليه هو قاضى الجماعة يونس بن عبد الله بن مغيث المعروف بابن الصفار ، وشهد الجنازة جمع عظيم من أهل قرطبة ، وإن لم يخل الأمر من أن يكون فيه بعض المجاملة لولده أبى مروان .

٢ — أبو مروان ابن حيان :

حياته (٣٧٧ — ٤٢٢ هـ / ٩٨٧ — ١٠٣١ م)

ولنما أطلنا فى الحديث عن خلف بن حسين والذ ابن حيان لأنه قد تبين لنا من استقراء أخباره أنه كان أستاذاً حقيقياً لمؤرخنا العظيم ، بل لعله أعمق أساتذته أثراً فيه ، هذا فضلاً عن كونه مصدراً من أهم مصادر تاريخه .

لقد رزق خلف بابنه حيان وسنه فى نحو السادسة والثلاثين ، وكان قد بدأ يتدرج فى مناصب الحكم ، وكان له نصيب من ثروة قد تكون موروثه وقد يكون اكتسبها بفضل تبوئه بعض المناصب منذ شبابه المبكر ، وكان حيان على ما يبدو هو ولده الوحيد ، فنحن لانسمع فيما كتبه بأى إشارة إلى إخوة له ، فأفرغ فيه كل اهتمامه ، ووفر له منذ صباه أحسن المؤدبين ، وكان حيان بطبيعته غلاماً لماسحاً متوقداً الذكاء : تربة صالحة يثمر فيها التعليم الجيد والتعهد المستنير .

ولسنا نعرف من أساتذة ابن حيان ممن نص عليهم ابن بشكوال أقدم مترجميه إلا ثلاثة سنعرض لهم بالتفصيل بعد ، والحقيقة هى أن هذا العدد من الشيوخ قليل بالنسبة إلى فئى مثل ابن حيان كان فى وسعه أن يتردد على مجالس كثير من العلماء الذين كانت تعج بهم قرطبة فى أواخر القرن الرابع الهجرى . على أن اقتصار ابن بشكوال على ذكر أولئك الشيوخ الثلاثة لاينفى بطبيعة الحال أن يكون ابن حيان قد أخذ عن غيرهم ، ولكن ربما كان لذلك دلالة : وهى أن الاستكثار من

الشيوخ - وهو ما كان يحتفل له معاصروه من الفقهاء والمحدثين والأدباء - لم يكن ليعنى ابن حيان كثيراً ، وإنما كان أكثر اعتماده على نفسه وعلى الكتب ، ولا بد أن أباه الكاتب خلفاً كان قد جمع مكتبة متنوعة غنية تتفق وما أشرنا إليه من سعة اطلاعه وأخذ من مختلف ألوان العلوم بطرف . أما الشيوخ فإنه اجتزأ منهم بعدد قليل توثقت صلته بهم فتركوا في نفسه أثراً لم يمح طيلة حياته .

فقد كان خلف بن حسين من الجاه والثروة بحيث عرف كيف يختار لابنه حيان عدداً من الأساتذة يتلقى عنهم العلم لا كما يتلقاه غيره ، فيحضر حلقاتهم ومجالسهم العامة ، وإنما كان ينفرد بالشيخ منهم لكي يختصه بدروسه إما في داره أو دار الشيخ ، كما نرى في هذا النص الذي يتحدث فيه ابن حيان عن قراءته لكتاب « الفصوص » لصاعد البغدادي :

« وجمع أبو العلاء للمنصور محمد بن أبي عامر كتاباً سماه الفصوص في الآداب والأشعار والأخبار . . . وأمره [أي المنصور] بأن يسمعه الناس بالمسجد الجامع بالزاهرة في عقب سنة ٤٣٨٥ (أوائل ٩٩٦ م) ، واحتشد له من جماعة أهل الأدب ووجوه الناس أمة . قال ابن حيان : وقرأته عليه منفرداً في داره سنة ٤٣٩٩ (١٠٠٨ - ١٠٠٩ م) » (١) .

وفي اعتقادنا أن صاعداً وهو ما هو من علو المكانة والحظوة من المنصور بن أبي عامر ما كان ليستقبل في داره تلميذاً من تلاميذه لكي يقرأ عليه كتاباً سبق أن أسمعه عامة الناس في المسجد الجامع إلا إذا كان ذلك لقاء مال كثير لا يتوسع في إنفاقه إلا المقتدرون الوجهاء .

وشاهد ثان يتعلق بشيخ آخر من شيوخ ابن حيان هو ابن أبي الحباب ، الذي كان مؤدب عبد الملك (المظفر) بن المنصور بن أبي عامر (٢) . فإذا كان خلف بن حسين قد اختار لتأديب ابنه مثل هذا الشيخ الجليل الذي اختاره المنصور لإقراء ابنه ووارث دولته فهذا دليل كاف على مدى اقتدار والد ابن حيان واحتفاله بأن يوفر لابنه أرقى مستوى من التعلم .

أساتذة ابن حيان :

ولنر بعد ذلك هؤلاء الشيوخ الثلاثة الذين نص ابن بشكوال على قراءة ابن حيان عليهم .

(١) ابن بشكوال : الصلة ، ترجمة صاعد البغدادي ، رقم ٥٤٠ ، ١ / ٢٣٣ .

(٢) ابن بشكوال : الصلة ١ / ٢٥ .

أما الأول فهو الفقيه المحدث عمر بن حسين بن محمد بن نابل الأموي القرطبي (١) ، وكان من بيت علم وفضل ، فقد كان أبوه من جلة الفقهاء والمحدثين في عصره ، أما عمرُ شيخ ابن حيان فقد تفقه على أبيه وأخذ عنه كل رواياته ، وكان قد صحبه في رحلته إلى المشرق واشترك معه في أساتذته المشاركة فضلا عن الأندلسيين ، وكان فيما يذكر القاضي عياض « مسندا صدوقا ثقة عفيفا » ، وشهر بالحفظ الجيد ، وكان من الفقهاء المشاورين ، وكف بصره في آخر عمره ، ولكنه ظل يسمع الناس حتى وفاته في سنة ٤٠١ هـ (١٠١١م) ، وكان له ابن عالم كذلك روى عنه الناس ، ولحقته محنة البربرية لصداقة كانت بينه وبين بني ذكوان ، فلما وقع الاضطهاد على الذكوانة بسبب اتهامهم بملابسة البربر اشتد تأثيره بذلك فاختلف عقله ، ومات قبل وفاة أبيه بشهور في نفس السنة .

وثاني شيوخ ابن حيان هو ؛ اللغوي النحوي أبو عمر أحمد بن عبدالعزيز بن فرج المعروف بابن أبي الحباب القرطبي (٢) ، وأصله من البربر من مصمودة ، ولكنه كان ممن استقروا في الأندلس منذ زمن فأصبح في عداد الأندلسيين ، وولد سنة ٣١٠ هـ (٩٢٢ - ٩٢٣م) وتلمذ على شيخ محدثي الثغر ابن القاسم الثغري قاضي قلعة أيوب ، وعلى العالم الأشهر أبي علي القالي نزيل قرطبة ، وكان ابن أبي الحباب أخص أصحاب القالي به وأكثرهم أخذاً عنه ، وكان من جلة شيوخ الأدب ، عالماً باللغة والأخبار ، حافظاً صحيح الرواية جيد الضبط لكتبه . وعهد إليه المنصور ابن أبي عامر بتأديب ابنه عبد الملك المظفر . وكانت وفاته في أول سنة ٤٠٠ هـ (أواخر ١٠٠٩م) . ويعتبر ابن أبي الحباب حامل علم أبي علي القالي وأكثر تلاميذه نشاطاً في نشر مادة الثقافة المشرقية المسائلة التي قدم بها العالم البغدادي العظيم . ويكفي أن نلقى نظرة على الفصل الطويل الذي أفردته ابن خير في « فهرسته » لرواياته لكتب النحو واللغة والشروحات وأشعار العرب القدماء والمحدثين ، فسرى أن كثيراً من هذه المسادة كانت مما نقله القالي إلى الأندلس ، وأن ابن

(١) انظر في ترجمته ابن بشكوال : الصلة ، رقم ٨٤٩ ؛ الحميدى : جذوة المقتبس ، بتحقيق محمد بن تاويت الطنجي ، القاهرة سنة ١٩٥٢ ، رقم ٦٨٥ ؛ القاضي عياض : ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ، بتحقيق الدكتور أحمد بكير محمود ، ط . بيروت سنة ١٩٦٧ ، المجلد الثاني ص ٧٣١ / ٧٣٢ .

(٢) انظر في ترجمته ابن بشكوال : الصلة ، رقم ٣٥ ؛ مفاخر البربر ، بتحقيق ليلى بروفنسال ، ط . الرباط سنة ١٩٣٤ ص ٦٣ .

أبي الحباب يكاد يذكر في كل هذه المواضع بصفته صاحب الفضل الأكبر في إقراء تلك الكتب وإذاعتها في الأندلس (١) .

أما ثالث هؤلاء الشيوخ ؛ فهو العالم اللغوي الشاعر المشهور صاعد بن الحسن بن عيسى الربيعي البغدادي (٢) . وكان صاعد قد وفد على المنصور بن أبي عامر في سنة ٥٣٨٠ (٩٩٠م) وانتظم في خدمته وأصبح من ندمائه ومدّاحه ، ثم بقي في خدمة ابنه عبد الملك المظفر حتى وقعت الفتنة في سنة ٥٣٩٩ (١٠٠٩م) فخرج مستخفيا من قرطبة بعد أن التوى عليه رجال هشام المؤيد في الإذن بتسريحه خوفا من خبث لسانه ، فتوجه إلى جزيرة شلطيّش في سنة ٥٤٠٣ (١٠١٢ - ١٠١٣م) واتصل من هناك بصاحب جزيرة صقلية وفاوضه في الوفود إليه ، فرحب به ، وعزم صاعد على الرحلة إليه ولكنه عاد إلى قرطبة ليستخرج أهله وولده ، ومن هناك خرج إلى سرقسطة فعاش في كنف أميرها منذر بن يحيى التجيبي فترة ما ، ومنها اتجه إلى دانية ، فمضى وقتا آخر في كنف مجاهد العامري ، ثم خرج إلى صقلية حيث قضى السنوات الأخيرة من حياته حتى وفاته سنة ٥٤١٧ هـ (١٠٢٦م) .

هؤلاء هم الشيوخ الثلاثة الذين نص ابن بشكوال على أخذ ابن حيان عنهم . ويمكن أن نضيف إليهم أسماء أخرى قليلة مثل المؤرخ المحدث المشهور القاضي أبي الوليد عبد الله بن يوسف المعروف بابن الفرضي صاحب تاريخ علماء الأندلس ، وكان ممن استشهدوا في الفتنة البربرية سنة ٥٤٠٣ هـ

(١) أبو بكر ابن خير الإشبيلي : فهرسة ما رواه عن شيوخه ، بتحقيق فرانسكو كوديرا وخوليان ريبيرا ، ط . سرقسطة ١٧٩٤ ، ص ٣٠٥ - ٤٢٥ .

(٢) في ترجمة صاعد البغدادي انظر ابن بشكوال : الصلة ، رقم ٥٤٠ ؛ الحبيدي : جدوة ، رقم ٥٠٩ ؛ الضبي : بغية الملتبس ، بتحقيق كوديرا ، مدريد سنة ١٨٩٥ ، رقم ٨٥٢ ؛ ابن عذارى : البيان المغرب ، ط . بيروت سنة ١٩٥٠ ، ٤١٣ / ٢ ، ١٨ / ٣ ، ٢٠ - ٣٥ (بتحقيق لينى بروفنسال ، ط . باريس سنة ١٩٣٠) ؛ ابن بسام : الذخيرة ، القسم الرابع ، ١ / ٦ - ١٣ ، ٣٧ - ٣٩ ؛ ابن الأبار : الحلة السراء ، بتحقيق الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٦٣ ، ٢٨٢ / ١ - ٢٨٣ ؛ المقرئ : نفع الطيب ٤ / ٧٦ - ٨٤ ؛ ومن الدراسات الحديثة : بونس بويجس : المؤرخون والجغرافيون الأندلسيون ، ط . مدريد ١٨٩٨ ص ١١١ - ١١٣ ؛ جونثال بالنيشا : تاريخ الفكر الأندلسي ترجمة الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ٦٦-٦٨ ؛ بلاشير : الشاعر الكاتب الصاعد البغدادي مجلة اسبيريس الرباط ، المجلد العاشر سنة ١٩٣٠ :

R. Blachère : Un pionnier de la culture arabe orientale en Espagne au Xe siècle : Sàid de Bagdad, Hespèris, vol. X, 1930, pp. 15-36.

(١٠١٣م) ، وإنما أضفنا اسماً بعد أن رأينا أبا علي الغساني تلميذ ابن حيان ينقل عن شيخه نصاً يؤكد روايته عنه (١) .

كذلك نعرف أن ابن حيان قرأ على المحدث النسابة أبي القاسم عبدالرحمن بن محمد بن أبي يزيد المصري (٢) ، وكان قد قدم إلى الأندلس من مصر في سنة ٣٩٤هـ (١٠٠٤م) بعد أن أخذ عن جلة محدثيها وعلمائها ، وكان أديباً حافظاً للحديث وللأسماء والأنساب والأشعار ، وسكن قرطبة حتى وقعت الفتنة ، فخرج إلى إفريقية ثم إلى مصر ، فتوفي بها سنة ٤١٠هـ (١٠١٩ - ١٠٢٠م) .

ونلاحظ أن أخذ ابن حيان عن جميع هؤلاء الشيوخ ينبغي أن يكون قد تم في فترة مبكرة من حياته وهو في نحو العشرين من عمره أو دون ذلك ، فجميعهم ممن توفوا ما بين سنتي ٤٠٠ و ٤٠٣هـ ، أو أخرجوا من قرطبة ولم يعودوا إليها عودة استقرار .

وتأمل معارف هؤلاء الشيوخ يعطينا فكرة عن ثقافة ابن حيان في دور التكوين المبكر ، ويلقى ضوءاً على منهجه في كتابة التاريخ حينما نضجت شخصيته وتحددت معالمها ، فجميعهم كانوا من أصحاب الثقافة الإنسانية العامة كما كانت مفهومة في تلك العصور ، وإن كنا نلمس فيهم اتجاهات واضحة إلى علوم اللغة والأدب والأخبار ، ثم إلى علوم الحديث . وقد استفاد ابن حيان من ذلك فوائد جمة ، فأخذه منذ صباه عن أساتذة من طبقة ابن أبي الحباب صاحب أبي علي القالي وصاعد البغدادي هو الذي أعانه - فضلاً عن الملكة الطبيعية - على امتلاك زمام اللغة على نحو لا نعرفه أتيج لمؤرخ عربي قبله ، وسنرى كيف كانت كتابة ابن حيان - إلى جانب قيمتها التاريخية - من أرقى نماذج النثر الفني ، ولا بد أن جانباً كبيراً من الفضل في ذلك يرجع إلى هذه المرحلة التي درس فيها على شيوخ الأدب واللغة من أمثال هذين الأستاذين الجليلين : ابن أبي الحباب وصاعد . ومتأمل صفحات تاريخ ابن حيان يمكنه أن يظن لأول وهلة أنه تمثل الأدب العربي قديمه وحديثه ، شعره ونثره ، تمثلاً لا تيباً إلا لمن اقتصر عليه واتخذ حرفته وبضاعته .

أما الحديث وما يتصل به من علم الجرح والتعديل ومعرفة طبقات الرجال ونقد الأسانيد وغير

(١) ابن خير : فهرسة ص ١٢٥ .

(٢) نفس الموضوع السابق ، وقد جاءت نسبه في هذا الكتاب « القصرى » بدلا من « المصرى » ، وهو تحريف . وانظر في ترجمته ابن بشكوال : الصلح ، رقم ٧٥٦ ؛ والقاضي عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الثاني ص ٦١٥ - ٦١٦ .

ذلك من أدوات هذا العلم فإنه أفاد ابن حيان في منهجه النقدي للتاريخ ، وإن لم يكن علم الحديث بالذات من بضاعة أبي مروان ولا مما شارك فيه مشاركة مباشرة .

وعلى كل حال فإنه يبدو لنا من تأمل ما بقى من مؤلفات ابن حيان أنه كان رجلا واسع الإطلاع جماعا للكتب ، وهذا في نظرنا هو الذى صرف أبا مروان عن الاستكثار من الراوية عن الشيوخ فقد أغتته الكتب عن التردد على مجالس العلماء ، وهذا هو ما يفسر لنا أن كتبه التى تعرض فيها لتاريخ الأندلس السابق على عصره تكاد تخلو من الأسانيد والروايات ، فهو لا ينقل إلا عن أصول مكتوبة ، فلسنا نجد فيها لفظ « سمعت » أو « رويت » بقدر ما نجد « قرأت في كتاب فلان » . ولو جاز لنا أن نستعير أحد مصطلحات الحديث لقلنا إن ابن حيان كان « صحفيا » أى ممن ينقلون عن الصحف . حتى ابن الفرضى الذى نعلم علم اليقين أن ابن حيان سمع منه لا يكاد مؤرخنا يذكره إلا بقوله : « قرأت في كتاب أبي الوليد ابن الفرضى . . . » ، أما في كتابته عن تاريخ الفترة المعاصر له فقد كان يعتمد على مشاهداته أو ما يكتب به إليه بعض أصحابه حول أحداث المناطق التى يعيشون فيها .

والغريب عند تأمل هذا العدد القليل من شيوخ ابن حيان هو أننا لانعرف منهم أحداً يحتمل أنه وجهه إلى دراسة التاريخ بوجه خاص ، فليس منهم أحد قد تميز بشيء في هذا الميدان ، فيما عدا ابن الفرضى — وكان مفهومه للتاريخ على كل حال بعيداً عن مفهوم ابن حيان ، وإن كنا لاننكر فضلهم على أبي مروان في تكوينه الثقافى العام . فقد كان من الممكن أن يقرأ ابن حيان عليهم وعلى غيرهم دون أن يزيد بعد ذلك على كونه أحد علماء الأندلس المتوسطين الذين تحفل بهم معاجم التراجم والطبقات .

ولهذا فنحن نعتقد أن اتجاه ابن حيان إلى كتابة التاريخ إنما تولد من شخصيته هو : من دقة إحساسه ونفاذ نظره ، وقدرته الطبيعية على الاستيعاب ، وملكته النقدية المتأمله . وقد يكون في هذا الاتجاه عرق من الوراثة يصل بين أبي مروان ووالده خلف بن حسين الذى يبدو لنا هو موجهه الأول إلى علم التاريخ ، فإن تتبع الأخبار التى نقلها ابن حيان عن أبيه والتى أسلفنا الإشارة إليها يسمح لنا بأن نتوسم في خلف بن حيان من وراء كاتب الديوان وكاتم أسرار المنصور العامرى معدن مؤرخ حقيقى نافذ النظرة على الأمور ، منقر عن الأخبار تنقير من يشتغل بها حق الاشتغال . إن هذه الموهبة التاريخية التى تجلت بعد ذلك في أوضح صورها ومعالمها في أبي مروان ابن حيان إنما تعود في المقام

الأول - في نظرنا - إلى ماورثه مؤرخنا العظيم عن أبيه وإلى ماغرسه هذا في نفسه من اهتمام بتقصي الحقيقة والبحث عنها في تجرد ونزاهة أينما كانت ، ومهما أرضت أو أسخطت .

وقد زاد من إرهاف روح ابن حيان العصر الذي عاشه والأحداث الهائلة التي رواها واكتوى بها ، فقد انتقلت الأندلس تحت بصره نقلة مفاجئة من تلك العظمة التي وافقت أواخر أيام الدولة العامرية إلى هذه الفتنة الجائحة المدمرة التي انفجرت في سنة ٣٩٩ هـ (١٠٠٨م) على يد عبد الرحمن « شنجول » بن المنصور العامري ، ذلك الشاب الأحق المشوم الذي فتح على الأندلس بابا لم ينسد إلا بانهيار بنيان الدولة كلها وتمزقها ، وكان هذا الفتق الهائل هو المؤذن ببداية نهاية الإسلام في الأندلس .

كانت أزمة الأندلس جديرة بأن تشهد الأرواح المفتحة الذكية ، وتنتج مفكرين مخلصين يصطبغ تفكيرهم بالمرارة ، ويحاولون البحث عن علة ذلك الداء الذي أوتى منه بلدهم بعد أن كان بالأمس القريب نموذجا فذا في النظام والقوة والاستقرار . ومن هنا ظهر هذا الجيل من أبناء قرطبة من أمثال ابن حيان وابن حزم وابن شهيد وابن عبد البر ممن حاول كل منهم في ميدان علمه تقصي الحقيقة والبحث عن علاج لمحنة بلدهم . وكان جميعهم ممن شهدوا في مقتبل شبابهم عظمة الدولة ، ثم رأوا انتكاستها المفاجئة المذهلة .

وما أكثر ما ترهف أمثال هذه الأزمات من عبقریات المفكرين ، ويكفي أن نشير هنا إلى محنة كبرى وقعت في تاريخ أسبانيا نفسها بعد الفتنة البربرية بتسعة قرون ، ونعني بها كارثة سنة ١٨٩٨ التي أعقبت حرب أسبانيا مع الولايات المتحدة الأمريكية ، وانتهت بالكشف عن الإفلاس الكامل للسياسة الإسبانية ولقادة البلاد حينئذ . فقد تولد عن تلك المحنة طائفة من المفكرين عرفوا في تاريخ الأدب الإسباني باسم جيل ٩٨ ، وإليهم يرجع الفضل في وضع أسس النهضة الفكرية المعاصرة في أسبانيا .

على أنه ينبغي أن نكون على حذر في نظرنا إلى جيل ابن حيان ورفاقه ، فهم - وإن كانوا قد نبغوا في ظل ما يعرف باسم « عصر ملوك الطوائف - ليسوا في الحقيقة من رجال هذا العصر ، بل هم من نتاج تلك النهضة الفكرية الرائعة التي نضجت واكتملت في ظل خلافة بني مروان وإن لم تثور أكلها وثمراتها إلا بعد أن تصدعت هذه الخلافة وعصفت بها الفتنة البربرية الشنعاء .

ابن حيان والفتنة :

أبو مروان ابن حيان رجل اهتدى منذ شبابه المبكر إلى موهبته واتجاهه الحقيقي الذي رسم له دوره في الحياة ، وهو التوفر على كتابة التاريخ عملا فرغ له ، وكرس عمره من أجله ، ولم ير عنه معدلا ، ولا صرفه عنه غير ذلك من الشواغل .

يبدو لنا ذلك فيما سجله هو عن نفسه ، نقله بلفظه من مقدمة « تاريخه الكبير » :
« وبعد ، فاني امرؤ يسرت لطلب هذا الخبر ، واقتفاء هذا الأثر أحرس شارده ، وأقيد نافرته ، وأبيت بأبوابه ، وأنصب لطلابه ، فشغلت به دهرآ ، وفجرت منه نهراً ، صيرني ترابا لعدنان ، وزماما على الحدثان ، أقص أنباءه ، وأضرب أمثاله ، وأحصي وقائعه ، وأحترز مواعظه ، وأنسأبني المدة إلى أن لحقت بيدي منبعث هذه الفتنة البربرية الشنعاء المدهمة ، المفرقة للجماعة ، الهادمة للمملكة الموثلة ، المغربية الشأو على جميع ماضي من الفتن الإسلامية ، ففاضت أهوالها تعازلا أدلني عن تقييدها ، ووهمني ألا مخلص منها ، فعطلت التاريخ إلى أن خلا صدر منها نفس الخناق ، وبلل الرماق ، فاستأنفت من يومئذ تقييد ما استقبلته من أحداثها ، وأنعمت البحث عن ذلك عند من بقي يومئذ من أهل العلم والأدب لدينا ، فلم أظفر منه إلا بما لا قدر له ، لزهد من قبلنا قديما وحديثا في هذا الفن ، ونفيم له عن أنواع العلم . واثنيت خائبا خجلا ألوم نفسي على التقصير ، وأحدوها بالأمل ، وأعذر من قال « هممت ولم أفعل » ، وشرعت في التقييد(١) غب ذلك التفتيد ، غير مخل به ، ووصلت القول فيما فاتني من قبل من ذكر انبعث تلك الفتنة وأخبار ملوكها ومشهور حروبها مما أصبت به عندي تذكرة ، أو أخذته عن ثقة ، أو وصلتني به مشاهدة ، أو حاشته إلى مذاكرة ، حتى نظمت أخبارها إلى وقتي مكلمة(٢) . »

فنحن نفهم من هذا النص أن ابن حيان قد بدأ في كتابة تاريخه قبل وقوع الفتنة ، أي وسنه في نحو العشرين أو دونها ، فهو يسجل أسفه على أن أحداث قرطبة الهائلة قطعت عن مواصلة عمله في تقييد أخبارها حتى عاد بعد أن نفس خناقه ، فاستكمل عمله واستدرك ما فاتته ، ونشير بصفة

(١) في الأصل التفتيد وهو تحريف

(٢) ابن بسام : الذخيرة ، القسم الأول ٢ / ٨٦ - ٨٧ .

خاصة إلى قوله « مما أصبت به عندي تذكرة » فهذه العبارة تدل على أنه وإن كان قد « عطل التاريخ » أى انقطع عن الكتابة المنظمة فإنه لم يدع أبداً — حتى خلال تلك الأحداث — تسجيل ملاحظات أو « مذكرات » أعانته بعد ذلك على استدراك ما فاتته .

ونحن نرى في لوم ابن حيان نفسه على ما فرط فيه من تسجيل وقائع الفتنة تواضعاً كبيراً واشتطاطاً على نفسه ، فالحق أن الصفحات التي تركها لنا — أو التي بقيت من تاريخه حولها — من الدقة والتفصيل بحيث لا مزيد ، وليت شعري أى استقصاء كان ابن حيان يريد أن يكتب به عن تلك الأحداث أكثر مما فعل ، وهو الذى لم يدع كبيرة ولا صغيرة إلا أحصاها ؟

ولعل أول ما سجله لنا ابن حيان من مشاهداته لأحداث قرطبة وهو بعد في غضاضة الشباب ذلك النص الذى عقب به على مصرع الوزير عيسى بن سعيد إلیحصي القطاع على يد الحاجب عبد الملك المظفر بن المنصور بن أبي عامر في العاشر من ربيع الأول سنة ٣٩٧ هـ (٤ ديسمبر سنة ١٠٠٦ م) ، وما أعقب ذلك من رفع رأسه على باب الزاهرة :

« وأعظم الناس قتل عيسى لجلالة قدره ، وسار منهم إلى الزاهرة خلق عظيم ينظرون إلى رأسه قال ابن حيان : وكنت في جملة من نظر إليه ، واستبنت الضربة نحوه الأيمن » (١) .

ففي هذه الإشارة ما يصور لنا ملكة ابن حيان الاخبارية منذ هذه الفترة من حياته ، وكان في العشرين من عمره ، إذ هو يبدو لنا كما لو كان من رجال الصحافة في عصرنا الحاضر ، ممن يشعرون بأن واجبهم إذا وقع حدث أن يهرعوا إلى مكانه ويسجلوا ملاحظاتهم و« تحقيقاتهم » عنه في مكان وقوعه .

وموقف آخر يسجله لنا هذا النص الفريد الذى احتفظ لنا به ابن بسام أيضا في معرض الكلام عن موكب الحاجب عبد الملك المظفر وهو خارج إلى آخر غزواته إلى قشتالة ما بين صفر وربيع سنة ٣٩٨ هـ (خريف سنة ١٠٠٧ م) .

« عهدى به يوم فصوله لغزوته سنة ثمان وتسعين التي احتفل فيها لشانجه بن غرسية قومس قشتالة (Sancho Garcia) واستكثر فيها من العدة والعدد ، فرز على جواد من مقرباته المنسوبة ،

(١) ابن بسام : الذخيرة ، القسم الأول / ١٠٧ .

بأفخم تلك المراكب المسلسلة ، ولبوس درع فضية مطرزة بالذهب ، وعلى رأسه خوذة مثمثة الشكل ، محددة الرأس ، مرصعة الطرق بدر فاخر ، واسطته حجر ياقوت أحمر مرتفع القيمة ، قد لزم وسط الجيش ، وطرح الشعاع على سنة وجهه ، فأرأى الناس بعده ملكا يعدله في البهاء والبهجة» (١) .

فهذا الوصف — بما نرى فيه من دقة بالغة وحيوية نابضة حتى كأننا نرى المشهد بأعيننا — لا يصدر على هذا النحو من التفصيل الذي يكاد يكون تسجيلاً « فوتوغرافياً » إلا ممن كان يقيد مذكرات يومية بما يشاهده ويجرى بين يديه ، أو بفضل ذاكرة قوية تخترق المشاهد والأحداث بحيث لا يند عنها شيء . وإذا كنا نعتقد فعلاً أن ابن حيان كان يتمتع بهذه الذاكرة فإننا مع ذلك نكاد نقطع بأنه كان يسجل مذكرات يومية بما يقع في بلده منذ هذا التاريخ المبكر ، وهو في الواحدة والعشرين من عمره ، ولسنا في حاجة إلى الكثير من الأدلة على ذلك ، فقد سبق أن أشرنا إلى مانص عليه ابن حيان نفسه في مقدمة تاريخه إلى كتابته لمثل هذه « اليوميات » .

وقد كانت هذه المشاهدات هي آخر مارآه ابن حيان وسجله من أحداث الدولة العامية التي لم يكن أحد يقدر حينئذ أن نهايتها موشكة على الحلول في أقرب وقت ، وأن العاصفة الهائلة التي كانت تتجمع في الأفق حينئذ سوف تقتلع الخلافة المروانية من جذورها وتحطم وحدة الأندلس إلى الأبد ، وستخط أول فصل في كتاب نهاية الإسلام وانقراضه من أرض تلك البلاد .

وتتعاقب أحداث الفتنة البربرية في سرعة مذهلة منذ ثورة محمد بن هشام المهدي على عبدالرحمن شنجول في ربيع الأول سنة ٣٩٩ هـ (نوفبر ١٠٠٨ م) ، ولا تلبث الحروب الأهلية أن تأتي في غضون سنوات قليلة على عمران قرطبة ، ويكفيها في تصوير اضطراب الأمور في عاصمة الخلافة القديمة أن نذكر أن السنوات الثلاثة والعشرين التي انقضت بين ثورة محمد المهدي وإلغاء الخلافة المروانية بصفة نهائية في سنة ٤٢٢ هـ (١٠٣١ م) قد شهدت ولاية تسعة من الخلفاء : ستة منهم من البيت المرواني ، وثلاثة من البيت العلوي من بني حمود ، وأن أكثر هؤلاء تنصبوا على عرش الخلافة مرتين ، وانتهوا كلهم إلى ميتة فاجعة مقتولين غلى أبشع صورة .

ولسنا نرى ضرورة للكلام عن هذه الأحداث ، إذ تكفيها في تتبعها تلك الصفحات المريرة

(١) ابن بسام : الذخيرة ، القسم الرابع ٦٠/١-٦١ .

الحزينة التي ساق فيها ابن حيان نفسه أخبارها في تفصيل لا يكاد يعزب معه شيء منها . ولكن ما همنا هو أن نعرف كيف مضت حياة مؤرخنا خلال هذه الفترة .

ومن أسف أن ابن حيان وهو الذي كتب بهذا التفصيل عن أحداث قرطبة لم يترك لنا شيئاً عن حياته في هذه السنوات العصيبة السوداء ، ولكن الذي نعرفه على وجه اليقين هو أنه لم يغادر قرطبة أبداً حتى وفاته ، فلسنا نعلم له رحلة عن بلده ولا مقاما في أي مدينة أخرى من قواعد ملوك الطوائف . وهذا شيء غريب حقا ، إذ أن المقام في قرطبة ولاسيما في أولى سنوات الفتنة كان مغامرة لا تؤمن عواقبها ، وما أكثر ما نقرأ في كتب التراجم مما سجله قلم ابن حيان نفسه من أخبار علماء ما أجبوا ولا أوضعوا في هذه الفتنة ولكنهم لقوا مصرعهم فيها ، ونذكر من بينهم أحد شيوخ ابن حيان ، وهو القاضي أبو الوليد بن الفرصى . وأما أكثر العلماء والأدباء من طبقة شيوخ ابن حيان أو أقرانه فقد نجوا بأنفسهم خارجين من قرطبة إلى غيرها من مدن الأطراف والثغور حيث كانت الحياة أكثر أمنا وأقل مغبة .

ومع ذلك فلا نسمع أن ابن حيان ولا أباه كاتب المنصور السابق تعرضا لسوء ، ولا أنهما رزنا في مال أو حرمة (١) . ولا شك في أن ابن حيان كان أسعد حظا في ذلك من الكثيرين من أمثاله .

وقد سبق أن رجحنا أنه لا بد أن يكون ابن حيان وأبوه قد ركنا خلال هذه السنوات العجاف إلى مال مدخر استعانا به على معيشتهم ، لاسيما وأنا لانعلم أن أحداً منهما تولى أي منصب من مناصب الدولة على عهد سنوات الفتنة كما فعل بعض أصحاب أبي مروان مثل صاحبه أبي محمد ابن حزم وأبيه الوزير أحمد بن سعيد بن حزم . وكان ابن حيان بغير شك أبعد نظراً وأسد رأيا حين لم يتلبس طوال هذه الفترة بأي علاقة تربطه بأمراء الفتنة وحكوماتها ، ولكن ينبغي أن يكون لدى مؤرخنا من أسباب الحياة ما كان يغنيه عن التطلع إلى مثل تلك العلاقة أو الطمع في منصب من مناصب

(١) كانت السلامة من الفتنة البربرية أمراً من الندرة والغرابة بحيث يستحق التسجيل ، فالفقيه أبو محمد ابن حزم صديق ابن حيان والذي عانى من هذه الفتنة الكثير على ما نرى من صفحات كثيرة في كتابه « طوق الحمامة » - يذكر فيما نقله عنه ابن بشكوال في ترجمة أستاذه حماد بن أحمد القرطبي أنه « كان شديد الانقباض ، لا أدري أحداً سلم من الفتنة سلامته مع طول مدته فيها ، فشارك قط فيها بمحضر ولا بيد ولا بلسان ، مع ذكائه وحزمه وقياحه بكل ما يتولى » (الصلة ، رقم ٣٥٠ ص ١٥٣) .

الحكومة ، لاسيما بعد أن هانت تلك المناصب بانحطاط الدولة وأمرائها ، حتى لم يعد فيها ما يغري عاقلا بالسعى إليها أو الانتساب فيها .

ويصور لنا هذه الحقيقة ابن حيان نفسه إذ يقول في عقب الكلام عن دولة عبد الرحمن المستظهر الذي ولي الخلافة نحواً من شهر ونصف في سنة ٤١٤هـ (١٠٢٣م) .

« وكان قدم على جميع أشغاله وأعماله جماعة من بقايا بني مروان وجماعة من الأغمار كانوا يذهب بهم العجب ، قدمهم على سائر رجاله ، فأحقد بهم أهل السياسة ، فانتقضت دولته سريعاً » .

ويسوق ابن حيان بعد ذلك هذه الخطط والوظائف التي قدم إليها خاصته هؤلاء - وكان من بينهم بعض أصدقاء المؤرخ نفسه مثل أبي عامر بن شهيد ، وأبي محمد ابن حزم وابن عمه أبي المغيرة ابن حزم ، وأبي حفص ابن برد - ، ثم يعلق على ذلك فيقول :

« وهذا زخرف من التسطير وضع على غير حاصل ، ومراتب نصبت لغير طائل ، تنافسها طالبوها يومئذ بالأمل ، فلم يحلوا منها بنائل ، ولا قبضوا منها مرتزقا ، ولانالوا مرتفقا . وغرم بارق الطمع وسط بلد محصور ، وعمل مغصوب ، وخراب مستول ، ومع سلطان فقير ، لا يقع بيده درهم إلا من صباية مستغل جوف المدينة ، أو نهب مغلول ممن تقلقل عنها ، يقيم منها رمقة ، ويفرق جملته على من تكنفه من جنده ودائرتة ، ويتطرق إلى ما يقيح من ظلم رعيته ، فلم يلبث الأمر أن تفرى به ، فسفك دمه ، وانحسم الأمل من دولته » .

ولعل خير ما يمثل لنا هوان المناصب في ظل هذه الفتنة بيتان رواهما ابن حيان لأحد أدباء قرطبة يقولهما في حكم بن سعيد القزاز الذي ولي الوزارة لهشام المعتد آخر خلفاء الفتنة (ولي بين سنتي ٤٢٠ و ٤٢٢هـ = ١٠٣٠ - ١٠٣١م) (١) .

هيك كما تدعى وزيراً وزير من أنت يا وزير ؟
والله ما للأمير معنى فكيف من وزر الأمير ؟ (٢)

(١) انظر النص في ابن بسام : الذخيرة ، القسم الأول ٣٦/١ - ٣٧ ؛ وابن عذاري : البيان المغرب ٣ / ١٤٧

- ١٢٨ مع بعض فروق في الرواية .

(٢) ابن عذاري : البيان المغرب ٣ / ١٤٧ .

ولسنا نشك في أن ابن حيان لو كان خلال هذه السنوات يطمع في أحد مناصب الدولة الكبرى لوصل إليه ، ولكنه كان أحصاف من ذلك وأبعد نظراً ، وكان له أسوة بوالده الذي اعتزل السياسة منذ انهيار الدولة العامرية فلم يتورط في أشراكها من بعد قط .

وقد يكون في إصرار أبي مروان على ملازمة قرطبة مع كل ما كان يزهد في المقام بها وما كان يكتنف هذا المقام من مخاطر سبب آخر عاطفي ، فان للذين عرفوا هذه المدينة أيام عزها الذي بلغت أوجه في أواخر أيام العامريين وقضوا زهرة شبابهم في ربوعها - كان يعسر عليهم أن يفارقوها مهما حدث . . . كان سحر قرطبة طاغيا على من نعموا بالعيش فيها أيام كانت عروس مدن الغرب ومهد العمران وكرسى الجماعة . . . هو هذا السحر الذي عرف الشاعر الفذ أبو عامر بن شهيد كيف يصوره في قوله :

« . . . هو العشق : باطل يلعب بالحق ، ليبين ضعف البشر ، وتلوح قدرة مصرّف القدر ،
والذي أشكو منه أغرب الغرائب ، وأعجب العجائب : بث شاغل ، وبرح قاتل ، وصبر يفيض ،
ودمع يفيض ، لعجوز بخراء سهكة درداء ، تدعى قرطبة :

عجوز لعمر الصبا فانية لها في الحشا صورة الغانيه
فقد عنيت بهواها الحلو م فهي براحتها عانيه
ترديت من حزن عيشي بها غراماً ، فيا طول أحزانيه(١)

وهكذا شأن ابن حيان : ضرب من العشق والغرام ببلده ، فقد ظلت قرطبة وطنه الذي لم يكف أبداً عن الاعتزاز به حتى النهاية ، وإذا كان صاحباه ابن شهيد وابن حزم قد ألبأتهما الفتنة أخيراً إلى الاضطراب في أنحاء الأندلس ، فان ابن حيان ظل وفيًا لقرطبته لم يبيع بها بديلاً حتى وفاته .

* * *

ولكن ابن حيان لم يلزم كسر بيته ، وما كان له أن يفعل وهو المؤرخ الطلعة الباحث عن الحقيقة أينما وجدت ، ومهما حف الوصول إليها من المخاطر . وهو يسجل لنا خلال هذه الفتنة

(١) ابن بسام : الدخيرة ، القسم الأول / ١ / ١٧٥ .

مشاهداته بما هو معهود فيه من دقة ملاحظة وتوسع في التفاصيل وحيوية دافقة تجعلنا نشاطره حياته في خضم هذه الحياة المضطربة النكداء .

فقد كانت تربط ابن حيان صلة الصداقة ببعض من خاضوا في الفتنة واشتركوا في أحداثها ، ونعرف من هؤلاء أبا حفص ابن برد كاتب عبد الملك المظفر بن المنصور العامري ووزير سليمان بن الحكم المستعين وغيره من خلفاء الفتنة ، وكانت وفاته سنة ٤١٨ هـ (١٠٢٧ م) ، وقد نقل عنه ابن حيان كثيراً من الأخبار المتعلقة بأواخر أيام العامريين وبالفتنة ، نذكر منها خبر مقتل عيسى بن سعيد القطاع ، وفي رواية ابن حيان له من التفصيل والإيعاب ما لا يتوفر إلا لشاهد عيان (١) .

وقد أشرنا من قبل إلى الصداقة التي جمعت بين ابن حيان وبين أبي محمد ابن حزم وأبي عامر ابن شهيد ، وكان كلاهما ممن استوزرهم عبد الرحمن المستظهر في خلافته القصيرة التي لم تتجاوز شهراً ونصف شهر ، ويبدو أن مؤرخنا كان يعرف المستظهر معرفة شخصية ، وأنه كان يقدره ويعجب به ويتمنى عودة الخلافة المروانية على يديه ، وإن كان شاهد أحواله يدل على أن ذلك كان ضرباً من المحال ، ففي كلام ابن حيان عنه كثير مما يوحي بالميل إليه والأسف على فقدته حينما انتقض أمره .

ويسجل ابن حيان أنه كان ممن حضروا المقصورة في وجوه الناس يوم بويح لعبد الرحمن المستظهر ، وقد وصف لنا هذه البيعة بما عهدناه فيه من الدقة والإحاطة بكل التفاصيل (٢) .

أما ابن شهيد فقد كان أوثق صلة بمؤرخنا ، وقد روى لنا ابن حيان خبر أحد المجالس التي كانت تضمهما مع صديق ثالث من أمراء البيت العامري ، هو أبو عامر محمد بن الحاجب عبد الملك المظفر بن المنصور ، وكان بمن يأنس بالأدب ، وقد اقترح أبو عامر بن المظفر على ابن شهيد أن يرتجل شعراً في وصف ذلك المجلس ، فأسعده ابن شهيد بذلك وقال آياتاً بجلها ابن حيان بخطه (٣) .

(١) نفس المرجع ١ / ١٠٢ - ١٠٧ .

(٢) نفس المرجع ١ / ٣٥ .

(٣) انظر الخبر في ابن بسام : الذخيرة ، القسم الأول ١ / ٢٥٩ - ٢٦٠ . وقد كان أبو عامر ابن المظفر بدوره صديقاً حميماً لأبي محمد ابن حزم ، تحولاً إلى هذه الصداقة بعد كراهية وعداوة شديدة قص ابن حزم خبرها في كتاب طوق الحمامة ، ص ٢١ - ٢٢ .

ونمضى مع قلم ابن حيان وهو يسجل لنا أحداث تلك السنوات التي شهدت احتضار الخلافة الرومانية ، فراه مرة أخرى ينقل لنا طرفاً مما شهده بعينه ، من ذلك قوله عن محمد بن عبد الرحمن المستكفي الذي خلف المستظهر في سياق الكلام عن ضعته وفسوته وهوان شأنه قبل أن يلي الخلافة :

« عضته الفتنة فأملق حتى استجاز طلب الصدقة . رأته أيام الخسف بأهل بيته في الدولة الحمودية – ولم يكن ممن لحقه الاعتقال لتحقير أمره – يقصد أهل الفلاحة أو ان ضمهم لغلاتهم يسألهم من زكاتها تكلماً ومخاطبة » (١) . ولا بد أن ابن حيان رأى المستكفي على هذه الصورة المزرية قبل ولايته الخلافة في غضون السنوات السبع المنقضية بين ٤٠٧ و ٤١٤ ، وهي التي كان خلفاء بني حمود يتداولون فيها الملك بقرطبة .

ثم يدلي لنا ابن حيان من بين مشاهداته بوصف ذلك الموكب الرث المتواضع الذي دخل به هشام المعتد آخر خلفاء بني أمية قرطبة في ذي الحجة سنة ٨٤٢٠ (يناير سنة ١٠٣٠ م) :

« وركب جيش قرطبة لاستقباله ، فدخل في زى تقتحمه العين وهنا وقلة ، وعدم رواء وبهجة وعدد وعدة ، فوق فرس دون مراكب الملوك بحلية مختصرة ، سادلاً سهل غفارة إلى ماتحتها من كسوة رثة ، قدامه سبع جنائب من خيل الموالي العامرين صيروها معه للزينة ، دون علم ولا مطرد ، يسير هونا والناس يهنتونه ويصيحون بالدعاء في وجهه » (٢) .

ولنا أن نتصور المرارة الحزينة التي كان ابن حيان يتأمل بها هذا « الموكب » ، وما زالت في ذاكرته العجيبة التي كانت تحترق المشاهد وتستعيلها في اقتدار مذهل صور ذلك الموكب الآخر الذي رآه وسجله من قبل منذ اثنتين وعشرين سنة ، ونعني به موكب عبد الملك المظفر بن المنصور في سنة ٨٣٩٨ (١٠٠٧ م) ، وهو متوجه إلى غزوته الأخيرة ، بما اشتمل عليه من فخامة وهيبة وجيوش كثيفة محكمة النظام ، وسلاح وعدد وعدة وبنود وأعلام وطبول ، وغير ذلك من مظاهر عزة الإسلام الأندلسي ، تلك العزة التي بدد تراشها أمراء الفتنة التعسون ومزقوا شمل البلاد ، وانحدروا بها إلى درك من الخزي والخذلان لم تعرفه الأندلس من قبل قط . .

(١) ابن بسام : الذخيرة ، القسم الأول / ١ / ٣٠٨ .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب / ٣ / ١٤٧ .

ويختم ابن حيان هذه المشاهدات بوصف يكاد يكون المشهد الأخير في مسرحية فاجعة : هشام المعتد نفسه بعد أقل من سنتين من ولايته ، وهو نازل إلى ساباط الجامع المقضى إلى المقصورة طارحا نفسه على جماعة الوزراء وبقية رجال الدولة ينشد لهم الله في مهجته .

وينقل ابن حيان عن بعض سدنة الجامع أن « أول ما سأل الشيوخ الداخلين عليه إحضار كسيرة من خبز يسد بها جوع طفيلة له كان قد احتضنها ساتراً لها بكفه من قرّ ليلته تلك ، كانت تشكو الجوع ذاهلة عما أحاط بها ، فتزيد في همه ، وسأل سراجا يأنس بضوئه مع نسائه ، فأبكى من كلمه اعتباراً بعادية الدهر » (١) .

وتنقضى دولة بني مروان بن الأندلس إلى الأبد ، وينادي في الأسواق والأرباض بالألا يبقى أحد من بني أمية ولا يكتفهم أحد ، ويصدر قرار شيوخ قرطبة وعلى رأسهم أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور بإخراج هشام المعتد ، ونفيه من قرطبة ، وإعلان نهاية ذلك الملك الذي تداوله على طول ثلاثة قرون نفر من أعظم من رأى العالم الإسلامى من الحكام جلاله ومقدرة ، حتى أصبحت أسماؤهم مرتبطة بعزة الإسلام في تلك البلاد .

ويكتب على مؤرخنا أن يعيش في بلده قرطبة هذه السنوات البائسة التي يختم آخر فصولها في الثاني عشر من ذى الحجة سنة ٤٢٢ هـ (٣٠ نوفمبر ١٠٣١ م) . . . وإذا كان ابن حيان قد هلم خلال هذه الفترة العصبية في نفسه وماله ، فان الفاجعة التي رأى بعينيه أحداثها الدامية ، والتي كان وطنه معها يحتضر احتضاراً بطيئاً استمر قرابة ربع قرن كان لابد أن تخلف في نفسه قرحاً لا يندمل أبداً ، لاسيما أنه هو الذي رأت عيناه النور ودرجته سنوصباه في ظل تلك السنوات المشرقة التي وافقت آخر أيام المنصور بن أبي عامر وأيام ابنه المظفر .

ما أشد عنة ذوى الضمائر الحية المرهفة - ولبس هناك شك في أن ابن حيان كان من هؤلاء - وهم يشهدون كيف ينحدر وطنهم إلى هذه الهوة الرهيبة ، دون أن يستطيعوا القيام بأى شئ لتجنب وقوع الكارثة ! . . .

ولم يكن لدى أبي مروان - وهو الذى ناط به القدر أن يكون مؤرخ الأندلس - إلا أن ينتضى قلمه ليسجل لنا هذه الأحداث على قسوتها وضراوتها وإيلامها للنفس ، عسى أن يكون

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ٣ / ١٥١ .

في تسجيلها عبرة لو نفعت العبر . ولو أنه كان يعرف أن دروس هذه المحنة ستنسى كما نسي غيرها من قبل ؛

« لا الآخر بما انتهى إليه من الأول معتبر ، ولا الغابر بما مر على الماضي مزدجر ، حكمة بالغة فما تغني النثر ، إذ كل مقدر كائن ، وكل مربوب مسخر » (١)

ابن حيان في ظل بني جهور :

(٤٢٢ - ٤٦٢ هـ / ١٠٣١ - ١٠٧٠ م)

حينما أعلنت نهاية خلافة بني مروان في سنة ٤٢٢ هـ (١٠٣١) على أرياس القرطبيين من إعادة الروح إلى رفات الدولة النخرة كان ابن حيان ينتقل من الشباب إلى الكهولة ، فقد كانت سنه خمسا وأربعين سنة . ولسنا بحاجة إلى أن نكرر ما ذكرنا من قلة جدوى البحث في مظان ترجمته عما يمكن أن يلقي ضوءاً على حياته خلال هذا النصف الثاني من عمره الطويل الذي زاد على تسعين سنة ، ويكون علينا من جديد أن نستقرئ كتابات ابن حيان لتتصيد إشارة هنا وإشارة هناك في ثنايا هذه الكتابات مما يمكن أن يكشف لنا شيئاً عن نفسه وعن حياته .

وكان أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور بعد إلغاء الخلافة الأموية قد ابتكر لأهل قرطبة نظاماً جديداً للحكم أشبه ما يكون بالنظم الجمهورية ، فإنه لم يستبد بالسلطة استبداد غيره من ملوك الطوائف ، وإنما كون مجلساً للحكم من شيوخ أهل قرطبة وانتخب أميناً لهذا المجلس ، وكان لا يصرف أمراً إلا بعد الرجوع إلى جماعة الشيوخ هؤلاء . وسرعان ما عاد هذا النظام « الديمقراطي » المبتكر بخير النتائج على قرطبة المنكوبة ، فعاد إليها بعض الصلاح ، واستتب بها الأمن ، وورخت الأسعار . . . « فعجب ذوو التحصيل للذي أراه الله في صلاح الناس من القوة ، ولما تعطل حال ، أو يهلك عدو ، أو تقو جباية ، وأمر الله تعالى بن الكاف والنون » (٢) .

واستمر هذا الحكم المستنير طوال أيام أبي الحزم جهور حتى وفاته سنة ٤٣٥ هـ (١٠٤٣ م) ، فلما مات خلفه ابنه أبو الوليد محمد بن جهور ، فاقتنى خطى أبيه في السياسة من درج الحدود

(١) من مقدمة ابن حيان لتاريخه الكبير - ابن بسام : الذخيرة ، القسم الأول ٢ / ٨٦ .

(٢) ابن بسام : الذخيرة ، القسم الأول ٢ / ١١٧ .

والرفق بالرعية وبسط الأمن ، وحاول أبو الوليد بذل مساعيه للإصلاح بين ملوك الطوائف الذين كانوا قد أحالوا أرض الأندلس إلى مسرح للتناحر العقيم الذى لم يكن وراءه إلا سفك دماء الرعية وانتهاك الحرم والأموال . وحسن استقباله للملوك المخلوعين عن عروشهم ، حتى أصبحت قرطبة ملاذا لكل من أخرج من بلده .

وظلت قرطبة على هذا النحو من الاستقامة والإصلاح حتى بلغ الكبر مبلغه من أبي الوليد ابن جهور ، واشتد التنافس بين ولديه عبد الرحمن وعبد الملك ، فعمد فى أواخر أيامه إلى توزيع السلطة بينهما . ومن هنا بدأ الفساد يدب إلى الدولة الجمهورية من داخل ، بينما كانت مطامع جيرانها من ملوك الطوائف تهدد سلامها من خارج ، فقد كان المعتضد بن عباد ملك إشبيلية من ناحية والمأمون بن ذى النون ملك طليطلة من ناحية أخرى يشحذان أسلحتهما ويوجهان الحملة بعد الحملة للتغلب على عاصمة الخلافة القديمة ، وألح المأمون على قرطبة حتى ضرب عليها حصاراً شديداً فى سنة ٤٦٢هـ (١٠٧٠م) ، فاضطر عبد الملك بن محمد بن جهور - وكان قد أصبح الحاكم الفعلى للمدينة وأبوه أبو الوليد حى بعد - إلى الاستنجاد بغريم الملك الطليطلى العتيد : المعتمد بن عباد ، وكان هذا قد خلف أباه المعتضد الذى توفى فى السنة السابقة ، وأغتنمها المعتمد فرصة سانحة ، فوجه إلى قرطبة جيشاً نجح فى إرغام المأمون بن ذى النون على فك الحصار عن قرطبة والانسحاب إلى بلده ، ولكن المعتمد بن عباد لم يلبث أن غدر ببنى جهور المستصرخين به - وما أكثر قصص الغدر فى العلاقات بين ملوك الطوائف - فاذا به يحتل قرطبة ويقبض قائد جيشه على بنى جهور ويزيل رسم دولتهم ، ويأمر المعتمد بن عباد ببنى آل جهور جميعاً بما فيهم الشيخ أبو الوليد إلى جزيرة شلطيث حيث يقضون آخر أيامهم ، وبهذا توول قرطبة إلى ملك المعتمد صاحب إشبيلية بعد أن استعصى أمرها على أبيه المعتضد طيلة حياته .

وبقيت قرطبة منذ هذا التاريخ حتى سنة ٤٨٤هـ (١٠٩١م) حينما فتحها المرابطون تحت حكم المعتمد بن عباد ، ولم تخرج من ملكه إلا عدة أشهر من سنة ٤٦٧هـ (١٠٧٥م) آلت خلالها إلى حوزة المأمون بن ذى النون .

فى السطور السابقة حاولنا أن نرسم صورة تقريبية للأوضاع السياسية التى عاشتها قرطبة خلال هذه الحقبة الطويلة الممتدة على طول نحو نصف قرن ما بين سنتى ٤٢٢هـ (١٠٣١م) و٤٦٩هـ (١٠٧٧م) وهى التى تضم ما بقى من حياة مؤرخنا ابن حيان .

في هذا العصر كتب علي أبي مروان أن يعيش مجتراً آلامه وأحزانه وهو يرى بناء أمتة الأندلسية ينتقض ركنها ركنها . وفي ظل هؤلاء الأمراء « الحمل » - على حد تعبيره - كان عليه أن يسجل تاريخ بلده الذي كان يحبه ويعتز به ، وإن كان يشهده وهو ينزلق قليلاً إلى مصير كان ابن حيان بحسه المرهف وضميره الواعي مدى نهايته ومنتهى مآله .

وقد اختار ابن حيان المقام في قرطبة في ظل الجهاورة ، ولعل هؤلاء كانوا أقل أمراء الطوائف سوءاً ، فقد نالت عاصمة الخلافة القديمة على أيديهم من الاستقرار والأمن وصلاح الأحوال مالم تنله أى إمارة أخرى من إمارات الطوائف . ولهذا فلعلها كانت خير بيئة يستطيع فيها أن يسجل أحداث عصره . ثم إن قرطبة كانت في مركز متوسط من الأندلس يسمح بأن يتابع منها أخبار جميع أطراف شبه الجزيرة ، فضلاً عن أنها كانت لم تفقد بعد مكانتها الروحية القديمة بين مدن الأندلس ، فظلت هي العاصمة العلمية والثقافية نحو خمسين سنة قضاها ابن حيان في بلده ومسقط رأسه ، وهي في النهاية جعاع هذا العصر المشؤم المعروف باسم عصر الطوائف ، وإذا كنا قد عرفنا الآن طرفاً من حياة قرطبة خلال هذه السنوات فلنر ما الذي حفظته لنا صحائف التاريخ من حياة ابن حيان نفسه ، ومدى صلواته بالبيئة الصغيرة التي عاش منذ سنة ٨٤٢٢ (١٠٣١م) وهو في سن الكهولة حتى أتاه أجله وقد جاوز التسعين سنة .

الذي نستنتجه من الأخبار الزرة التي جاءتنا عن ابن حيان هو أنه واصل سلوكه الذي تحدثنا عنه فيما سبق في تجنبه الانتساب في الحياة السياسية في بلده ، وأن الله وقاه ذل الحاجة فلم يتزام على أعتاب ملوك الطوائف ، كما فعل معظم كتاب عصره وشعرائه ممن لم يجدوا مفراً - في سبيل لقمة العيش - من التثبث بخدمة السلطان . ومع ذلك فقد بلغ أبو مروان مكانة كبيرة بين هؤلاء الملوك ، وبث الله هيئته في نفوسهم ، ولكن ذلك أتيح له بالصفة الوحيدة التي لم يشأ أبداً أن يتلبس بغيرها ، وهي كونه مؤرخاً .

يقول ابن بسام : « ولما تحدث بتاريخه في ملوك الطوائف بأفئنا استشرفت طائفة منهم إلى مطالعة غرره ، وعدوها من فرص العمر وغرره ، واهتزوا لقطف زهره ، واستهدوه إياه ، وأجزلوا على ذلك قراه » (١) .

(١) الذخيرة ، القسم الأول ٢ / ٨٤ .

والحقيقة هي أن هذا الذي يذكره ابن بسام في معرض الثناء على ابن حيان والإشادة بذكوره كان من الممكن أن يجر مؤرخنا إلى خيانة ضميره ، والجناية على ما ألزم به نفسه في الكتابة من الحياد والنزاهة ، فان ملوك الطوائف ما كانوا ليجزوا القرى لكاتب لا يعرف المحاملة ولا الملق مثل ابن حيان ، ومع ذلك فقد سلم أبو مروان من معرفتهم : سلم من بيع قلمه لهم من ناحية ، ومن ناحية أخرى - وهذا أغرب وأعجب - سلم من غضبتهم على ماسطر في تاريخه من هجوم عنيف عليهم كلهم بلا استثناء . « فرب شامخ بأنفه ، ثان من عطفه ، قد مر في كتابه بفصل جرده لوضع حسبه ، وخلده أهدوثة باقية في عقبه ، فبرده ورد الظمان الرنق ، ويلبسه لبس العريان الخلق » (١) : ويذكر ابن بسام أنه لم يسلم من لسان ابن حيان إلا أمير بلده أبو الحزم ابن جهور وابنه أبو الوليد ، فلم يعرض لذكرهما إلا بخير (٢) . وهذا صحيح إلى حد ما ، فقد أحسن الثناء عليهما وإن لم يبعد عن الصدق فيما قال ، والمقارنة بين ابني جهور وغيرهما من ملوك الطوائف تدل على أنهما جديران فعلا بتلك العبارات التي أضفاها عليهما المؤرخ ، ولكن ابن حيان كان كالعهد به مقتصداً في ثنائه ، بل إنه لم يخل أميرى بنى جهور من بعض نقده في عدة مواضع من تاريخه (٣) .

ابن حيان ووظائف الدولة :

جاء في إشارتين عارضتين لأبى بكر ابن خير الإشبيلي وللمقرى وصف لابن حيان بأنه « صاحب الشرطة » (٤) ، وهو شئ لم نجد عليه أى دليل فيما كتبه من ترجم لابن حيان من المؤرخين المتقدمين الجديرين بقدر أكبر من الثقة مما يستحق ابن خير والمقرى . ثم إن هذه الخطة بطبيعتها بعيدة كل البعد عن مجال عمل ابن حيان ونشاطه الفكرى . ولو صحّت نسبتها إليه - وهو ما نستبعده -

(١) ابن بسام : الذخيرة ، القسم الأول ٢ / ٨٥ .

(٢) نفس المرجع ، ٢ / ١١٤ .

(٣) نجد أمثلة على هذا النقد في الذخيرة لابن بسام : القسم الأول ٢ / ١١٦ ، والحلة السيرة لابن الأبار ٣١/٢

والبيان المغرب لابن عذارى ٣ / ١٩٨ - ١٩٩ ، وأعمال الأعلام لابن الخطيب ص ١٤٨ - ١٤٩ .

(٤) ابن خير فهرسة : ص ٣٢٦ ، المقرى : نفع ٢ / ١٠٢ . وانظر مناقشة الراهب ملتشور أنطونيا كوالاستاذ فرسيه

غومس هذه المسألة في بحث هذا الأخير : « حول ابن حيان » ، مجلة الأندلس ، المجلد الحادى عشر ، سنة ١٩٤٦ :

E. Garcia Gomez : A proposite de Ibn Hayyan, Al-Andalus, vol. XI, 1946, pp. 401-402

(= 7-8)

وقد أحسن كلا الباحثين صنما حينما شكنا في صحة هذا الخبر .

فاننا لا نجد لها إلا تفسيراً واحداً ، وهو أن يكون قد أضفى عليه هذا اللقب على نحو تشريني أو « فخرى » كما نقول الآن ، لا على أنه خطة بمعنى الكلمة . وكان منح هذه الألقاب النظرية قد أصبح تقليداً جارياً منذ أيام الحكم المستنصر ، واستمر طوال الدولة العامية ، ولا نستبعد أن يكون قد بقي في ظل حكومة الجهاورة . وقد كان من بين من حملوا لقب « صاحب الشرطة » على سبيل المثال دون تفرس بالخطة نفسها وتحمل أعبائها عالم لغوى كبير هو أحمد بن أبان بن سيد صاحب أبي على القالى والمتوفى أيام العامين سنة ٣٨٢هـ (٩٩٢م) (١) .

على أننا نعرف من تلك الصفحات القيمة التي أمدنا بها ابن بسام أن ابن حيان لم يبق بمعزل تماماً عن وظائف الدولة في ظل بني جهور ، فهو يقول نقلاً عن أبي مروان نفسه في معرض الحديث عن أبي الوليد محمد بن جهور :

« وكنت ممن جادته سماء هذا الرئيس أبي الوليد الثرة ، وكرم في فعله ابتداء من غير مسألة ، فأقحمني في زمرة العصابة المبرزة الحصل ، مع كلال الحد ، وضعف الآلة ، واهتدى لمكان خلتي ، وقد أرتشف الدهر بلائتي ، بأن قلدني إملاء الذكر في ديوان السلطان ، المطابق لصناعتي ، اللائق بتحرفي ، براتب واسع » (٢) .

ولعل هذا هو العمل الوحيد الذي أسند إلى ابن حيان في سنة لا نستطيع تحديدها ، ولكنها واقعة على كل حال خلال حكم أبي الوليد ابن جهور (٤٣٥ - ٤٦٢) وإن كنا نرجح أن ذلك كان في أوائل عهد أبي الوليد . أما « إملاء الذكر في ديوان السلطان » وهو العمل الذي يصرح ابن حيان بأنه المطابق لصناعته اللائق بتحرفه فلا يمكن أن يكون إلا إملاء التاريخ . ويبدو أن هذه الخطة الجديدة الغربية إنما اخترعت اختراعاً لكي يتولاها ابن حيان ، فهذه هي أول مرة نسمع فيها عن مؤرخ يملئ ما يكتبه في ديوان السلطان وراتب واسع توظفه له الدولة ، وهذا شيء أشبه بما نراه في إسبانيا حتى اليوم في مختلف مدنها من وظيفة من يعرف باسم « المؤرخ الرسمي للمدينة » (Cronista Oficial)

ولسنا نعرف إلى متى ظل أبو مروان في هذا العمل بذلك « الراتب الواسع » ، فهو لا يعود للحديث عنه بعد ذلك ، ولا يشير أحد ممن ترجم له إليه .

(١) انظر ترجمته في ابن بشكوال : الصلة ، رقم ٦ ؛ الحميدى : جلدوة ، رقم ١٩٦ .

(٢) ابن بسام : الذخيرة ق ١ - ١١٨/٢ .

على أنه لا هذه الوظيفة ولا « الراتب الواسع » معنا ابن حيان من أن يمضى في كتابة تاريخه بما كان يمليه عليه ضميره ونزاهته ، فابن حيان لم يتحول أبداً إلى مؤرخ « بلاطى » من طراز من سبقوه مثل ابن القوطية أو عيسى بن أحمد الرازى ، ولا من تلوهم مثل ابن الصيرفى بالنسبة للمرابطين أو ابن صاحب الصلاة وابن القطان بالنسبة للموحدين .

محنة ابن حيان :

والدليل على ما نقول هو أن حياة أبي مروان في ظل الجهاورة لم تمض وادعة مطمئنة كما كانت توحى بذلك علاقته الطيبة بهم ، وأغلب الظن أن صراحته واحترامه لقلمه وكبريائه على ذوى السلطان — كل ذلك أدى إلى تكدير صفو العلاقات بينه وبين بنى جهور ، بل إن أبا مروان تعرض من جراء ذلك لمحنة كادت تؤدى به إلى التهلكة . ولسنا نعرف الكثير من تفاصيل هذه المحنة ، فالنص الوحيد الذى يقص علينا خبرها — وهو بقلم ابن سعيد — مبتور الأول لسوء الحظ . ونورد فيما يلى ما بقى منه :

« . . . أبا الحزم ، فقال : والله لقد صدق ، وإنى والله ما أصلح لهذا الأمر ، ولكن مكرها لزمته . وحلف عبد الملك بن جهور أن يسفك دمه ، فأحضره أبو الوليد وقال : والله لئن طرأ على ابن حيان أمر لا آخذن فيه سواك ! أتريد أن يضرب بنا المثل فى سائر البلدان بأننا قتلنا شيخ الأدب والمؤرخين ببلدنا تحت كنفنا ، مع أن ملوك البلاد القاصية تداريه وتهاديه ١٩ « (١) » »

ويدل هذا النص على أن ابن حيان تعرض لأبى الوليد ابن جهور بنقده لاذع شديد ذكر فيه أنه ما كان يصلح لولاية الأمر فى قرطبة ، وأن الحمية ثارت بابنه عبد الملك ، وكان على ما نعرفه من صفة المؤرخين ولاسيما ابن حيان لشخصيته شديد العجب بنفسه متهورا سريعا إلى الشر — ولندكر مثلا على جسراته المنكرة سطوه بوزير أبيه ابن السقاء وإقدامه على قتله دون أن يعبا بتحذير والده وإنذاره — . وأقسم عبد الملك على الفتك بابن حيان . غير أن أبا الوليد — وهو السياسى الحصيف المحنك — بادر بحماية ابن حيان والوقوف دونه . وإن كنا نحس فى العبارات التى وصفه بها أن شعوره نحو مؤرخنا كان أقرب إلى الاحترام المشوب بالخوف منه إلى الحب أو المودة .

(١) ابن سعيد : المغرب ١ / ١١٧ .

والحديث عن مداراة ملوك الطوائف لابن حيان ومهاداتهم إياه يدل على أن هذا الشعور كان لديهم أعمق وأوضح ، فالحق أن ابن حيان لم يكن يتردد كثيراً في صك مسامعهم بما يكرهون وبما يعرب عن إحتقاره إياهم واشتمزازه منهم ، ومع ذلك فلم نسمع عن أحد منهم أنه تعرض بسوء لأبي مروان ، مع كون القسوة المفرطة والفظاظة العمياء هي الصفة الغالبة على كثيرتهم . ولا يفسر هذا إلا أن ابن حيان إنما كان لساناً ينطق بما كان يجيش في نفوس رعاياهم : يعلن إذ يسرون ، وبصرح إذ ينافقون . وهكذا لانظننا بعيدين عن الصواب إذا قلنا إن ابن حيان الذي دمج سياسة ملوك الطوائف جميعاً بأحكامه الصريحة الخشنة قد تحول في نظر الأمة الأندلسية إلى « بطل » شعبي تحف به هالة من الإجلال والإكبار ، فلم يقدم أحد من أمراء الفتنة – فيما عدا هذا الخبر المنسوب إلى عبد الملك بن جهور – على التعرض له بسوء ، ووقاه الله غائلتهم لحسن حفظه وحظ التاريخ الأندلسي ، ولو أننا لا نشك في أنهم كانوا يضيقون به ، ويستثقلون طلعتة ، ويودون لو نجوا من عارضة قلمه .

هترات في سلوك ابن حيان :

لعل خير ما يصور محنة رجال القلم في عصر ملوك الطوائف بيتان رواهما أحد أدباء قرطبة :

الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَىٰ أَنِّي كَضِفْدَعٍ فِي لُجَّةِ الْيَمِّ
إِنَّ هِيَ قَالَتْ مَلَأَتْ حَلْقَهَا أَوْ سَكَتَتْ مَاتَتْ مِنَ الْغَمِّ (١)

ولم يكن ابن حيان ممن يخلدون إلى السكوت ، بل قال وأكثر ، ووصف ملوك عصره بما هم أهل له ، وخاض لجة هذا اليم راكباً مخاطرته ، فوقاه الله مغبة هذه الصراحة التي لم تكن دائماً مأمونة العواقب .

ولكن لكل قاعدة استثناء . وإذا كان ابن حيان قد حاول السلامة من كل صلة تربطه بملوك الطوائف ، فاننا نقدر ظروف هذا العصر الذي كان يجعل من المستحيل على مفكر أو كاتب أو شاعر أن ينجو من ذلك . حتى أجلة الفقهاء والمحدثين لم يستطيعوا تنكب الأمراء أو تجنب الانتشاب في خدمتهم . ويكفي أن نشير في هذا المقام إلى اثنين من أئمة الفقه والحديث من جيل ابن حيان

(١) ابن بشكوال : الصلة ص ٥٩٣ .

ومعاصريه : هما أبو عمر بن عبد البر النمرى (ت ٤٦٣-١٠٧١) الذى طرحته به الفتنة ، فضى
بجوب الأندلس من شرقها إلى غربها متصلا بسلاطينها متوليا القضاء على كورهم ، مداريا لهم على
جلالته وفضله ، وأبو الوليد الباجى (ت ٤٧٤-١٠٨٢) الذى « كثرت القالة فيه لمداخلته الرؤساء ،
وولى قضاء أماكن تصغر عن قدره » ، وعوتب على صحبة السلطان فقال : « لولا السلطان لنقلتنى
الدر من الظل إلى الشمس(١) » .

وقد اجتهد ابن حيان فى التمسك بمبدئه فى تجنب السلاطين وتحرير قلمه من كل ربة ، ولكنه
اضطر راغما فيما يبدو لنا إلى الإغضاء عن هذا المبدأ فى مناسبات قليلة على كل حال . فنحن نرى
فى حفظه لنا ابن بسام من أخباره مظاهر لهذا التناقض فى سلوك ابن حيان .

وأول هذه المظاهر اهداؤه تاريخه الكبير إلى المأمون بن ذى النون ملك طليطلة ، وهو يصور
فى مفتتح هذا التاريخ ما يشبه أن يكون شعوراً بالإثم والمهانة من أجل ذلك ، فيقول :

« وكنت اعتقدت الاستئثار به لنفسى ، وخبأه لولدى ، والفضن بفوائده الجمة على من تنكب
إحدى به إلى ذى ومنقصتى ، طويت على ذلك كشحا وأمضيته عزما ، إلى أن رأيت زفاهه إلى ذى
خطبة سنية أتنى على بعد الدار : أكرم خاطب ، وأسنى ذى همة ، الأمير الموثل الإمارة المأمون
ذى المجدين ، الكريم الطرفين ، يحيى بن ذى النون »(٢) .

والحق أننا لا نعرف كيف فعل ابن حيان لى يقدم إلى المأمون هذه « الهدية » من تاريخه ،
وهو الذى وصف من مساوئ أسلاف ابن ذى النون ومفاسد حكمهم مالا نعتقد أنه يعجب هذا
الأمير أو ينال منه أدنى قبول .

والأعجب من ذلك فى هذا التناقض هو ما نراه فى فقرات أخرى ينقلها ابن بسام من رقعة
كتبها أبو مروان إلى المعتمد بن عباد يهنته بفتح قرطبة وظهوره على المأمون بن ذى النون الذى
كان قد بعث بجنوده لحصار قرطبة فى الأحداث التى سبق لنا أن أشرنا إليها فى سنة ٤٦٢ (١٠٧٠)
والغريب هنا هو أن ابن حيان يرمى المأمون بن ذى النون بأسوأ التهم ، مع أنه هو الذى أهدى إليه من
قبل تاريخه وطرزه باسمه .

(١) المقرئ : نفع الطيب ٢ / ٢٧٣ ، ٢٧٨

(٢) ابن بسام : اللخيرة ق ١ - ٢ / ٨٨

والحق أن هذه سقطلة من ابن حيان لا يتأتى له فيها عذر ، ولا تتوجه حجة . وقد كنا نتمنى أن يسمو ابن حيان بقلمه عن التزل إليها . ولكن ألم يكن في ذلك تكليف له ولأمثاله بما لا يطيقون ؟ وهل كان في وسع مؤرخنا أن يتجرد تجرداً خالصاً من كل ما يربطه بملوك هذا العصر الذين هانت عليهم دماء الناس وحرماهم إلى أبعد حد يمكن تصوره ؟

وقد وقع أبو مروان أيضاً في مثل ذلك التناقض في حديثه عن أبي الحسن إبراهيم بن محمد بن يحيى المعروف بابن السقاء وزير أبي الوليد محمد بن جهور ، وتصيد ابن بسام هذه العثرة من مؤرخنا الكبير ، فعقب على فصل له في ذم ابن السقاء بقوله :

« وقد رأيت ابن حيان مدح ابن السقاء في غير ما موضع من كتابه » (١) ، ثم أورد نصوص هذا المدح وقارن بينها وبين ما كتبه ابن حيان بعد مقتله على يد عبد الملك بن جهور (٢) .

وفطن ابن حيان إلى ما قد يلاحظه القارئ من تناقض ، فأقبل يعتذر عن ذلك بقوله :

« وقد كنت كتبت من وصف ظاهر محاسنه أو ان اعتلاقه بقهرمة أميرنا محمد بن جهور ، وعددت من محاسن خصاله ما لم يبعد عن الصدق عنه ، لأخذنا بظاهر ما تموه في العيون وقت بنائه لنفسه ، وتنفيقه لكساده ، من طأة الخلق ، وحسن الاحتمال ، ولين الجانب ، وخفة المواطأة ، وجودة الوساطة ، معرضين فيه عن ذكر ما لم يكن لنا التفات (في الأصل : نفت ؟) عنه مما في باطنه من ندالة الخيم ، ونطف الصحبة ، وتهمة الخلوة . . . وأغرى بذوى الهيئات ، وحملة المروات ، فأزال صوتهم . . . وحط أقدارهم . . . فارتفع الأمر بالمعروف جملة ، ووسع أهل السلامة الدخول تحت التقية ، فصرنا ممن أخذ بذلك في ذكره فيما كتبناه من ظاهر أخباره مدة ستر الله عليه ، إلى أن ارتفعت بزوال سلطانه ، وأمان عدوانه ، ففارقنا الحزم في ذكره ، ولزمتنا العذر عنه بالنقض لما أسلفناه من تقرظه » (٣) .

(١) نفس المرجع ، القسم الرابع / ١ / ١٨٦ .

(٢) فصل ابن حيان واقعة مقتل ابن السقاء القرطبي فيما ينقله عنه ابن بسام : الذخيرة ق ٤ - ١٨٦/١ - ١٩١ ؛ ابن عذارى : البيان المغرب ٣ / ٢٥٥ - ٢٥٧ ؛ ابن الخطيب : أعلام الأعلام ص ١٤٩ ؛ وانظر كذلك ابن الأبار : الحلة السيرة ٢ / ١٨٦ حيث ينقل عن ابن حيان أبياتاً قالها أبو عبيد البكري في مدح ابن السقاء .

(٣) ابن بسام : الذخيرة ق ٤ - ١ / ١٨٧ - ١٨٨ .

ولا يسعنا نحن أن نلتمس هذا العذر لابن حيان ، ولكننا نجد في عصره وسلوك رجاله على عهد ملوك الطوائف ما يفسر مسلكه هذا إن لم يبرره أو يقره بعذره . . .

ورحم الله أبا مروان ، فقد كان قائل الحق في أيامه كالسائر على جمر الغضى ! . . .

أخبار عن صداقات ابن حيان وحياته الخاصة :

وإذا كان ما نعرفه عن حياة ابن حيان العامة قليلا فإن ما نعرفه عن دائرة صداقاته وحياته الخاصة أقل .

أما أصدقاؤه فقد أشرنا من قبل إلى نفر من أهل الفكر عرفهم واتصل بهم في عالم الفتنة البربرية المضطرب ، أو ممن كانت صلته بهم ترجع إلى شبابه المبكر حينما كان أبوه واحداً من رجالات الدولة العامرية . وذكرنا من هؤلاء أبا محمد بن حزم ، وأبا عامر بن شهيد الذي كان مؤرخنا أوثق صلة به وإخلاصاً لمودته .

ولسنا نعرف من صداقات ابن حيان على عهد دولة بني جهور التي استغرقت الشطر الأعظم من عمره إلا غدداً آخر بالغ القلة . ويبدو لنا أن ابن حيان كان بطبيعته رجلاً كثر المعجبون به ولكن قل أصدقاؤه . ومن هؤلاء القلة الشاعر الكبير أبو الوليد أحمد بن عبدالله بن زيدون (٣٩٤ - ٤٦٣ / ١٠٠٣ - ١٠٧١) ، وكان ابن زيدون يقيم في كنف بني جهور حتى سنة ٤٤١ (١٠٤٩ - ١٠٥٠) حينما اجتذبه بلاط المعتضد ابن عباد في إشبيلية « فخلا بالحضرة مكانه وكثر الأسف عليه » (١) . والفقرات التي أفردتها ابن حيان للحديث عن أبي الوليد بن زيدون تدل على إعجاب متبادل بين الرجلين ، وعلى تقدير كبير من ابن حيان لبلديه الذي لم يلبث أن أصبح وزير إشبيلية المشار إليه بالبنان المقرب إلى ملكها المعتضد ثم إلى ابنه المعتمد من بعده . وقد أمد أبو الوليد مؤرخنا ببعض الأخبار التي تضمنها كتابه كما سنرى عند الحديث عن مصادره (٢) .

(١) ابن بسام : الذخيرة ق ١ - ١ / ٢٩١ .

(٢) نذكر بهذه المناسبة أن أبا الوليد بن زيدون كان إلى جانب شهرته في ميدان الشعر ذا مساهمة في علم التاريخ ، فقد ألف كتاب « التبيين في خلفاء بني أمية بالأندلس » على غرار كتاب « التعمين » في خلفاء المشرق للمسعودي « انظر رسالة ابن سعيد في التذييل على رسالة ابن حزم في فضل الأندلس ، في المقرئ : فصح الطيب ٤ / ١٧٣ ، وكتاب بونس بويجس : المؤرخون والجغرافيون الأندلسيون ، ص ١٤٧) .

وقد استمرت هذه الصلة بعد ذلك بين ابن حيان وابن صديقه أبي بكر محمد بن أبي الوليد ابن زيدون على الرغم من فارق السن بين الرجلين ، وكان أبو بكر قد خلف أباه على وزارة المعتمد ابن عباد ، ثم رافق أميره العبادي إلى قرطبة حينما فتحها في سنة ٤٦٢ (١٠٧٠) ، واستقر في موطن أبيه وزيراً للفتح بن المعتمد الملقب بالمأمون (١) . وكان أبو بكر وفيا لصديق أبيه مواصلاً له ، وينص ابن حيان على ذلك إذ ينص في الحديث عنه أنه كان على « . . . اشتداد في رعاية متقدم الدمة ، لم يفقد إخوان أبيه معها إلا عينه » (٢) .

وتشهد بذلك رسالة من أبي بكر بن زيدون إلى أبي مروان مع هدية وجه بها إليه ، مع اعتذار عن نزارة الهدية وضآلتها ، ومراجعة ابن حيان له عن رسالته . ومنها نعرف أن الهدية كانت تشتمل على أحمال من القمح والزيت والدهن . ويبدى ابن حيان فرحه بهذه الصلة التي أتته في وقت وافق عدما من القوات والزراد . ويستخلص غرسية غومس من هذه الرسالة أن ابن حيان كان فقيراً (٣) ، ولسنا نزعم أنه كان ذا مال وثروة ، فالذين من طراز ابن حيان لم يكن من الممكن أن يتمولوا ويغتنوا ، ولكن التعبير عن الشكر على الهدية والفرح بوصولها لا يقتضى بالضرورة أن يكون الفقر هو مولى تلك العبارات .

(١) عهد إليه المعتمد بن عباد بعد ذلك بمهمة سياسية بالغة الخطر ، هي السفارة التي وجهها إلى يوسف بن تاشفين لاستصراخه ودعوته إلى نجدة ملوك الطوائف الذين كان الأذفوش (ألفونسو السادس) قد ألح عليهم بالغزوات والمغارم منذ أن استولى على طليطلة سنة ٤٧٨ (١٠٨٥) . ولكن أبا بكر بن زيدون كان من رجال المعتمد أولاً وأخيراً ، فلما قرر يوسف ابن تاشفين خلع ملوك الطوائف جميعاً كان أبو بكر ممن حرضوا المعتمد على المقاومة ، وأرسل ابن تاشفين جيشاً إلى قرطبة بقيادة جرور الحشبي فحاربه على أبوابها الفتح بن المعتمد الملقب بالمأمون وكان يقوم بأمره الوزير أبو بكر ، فلما اقتحم المرابطون قرطبة قتل الفتح ووزيره ابن زيدون هذا في سنة ٤٨٤ (١٠٩١) . انظر في ترجمته ابن بسام : الذخيرة ، ق ١ - ١ / ٣٥٦ - ٣٥٧ ؛ ابن الأبار : الحلة ٢ / ٥٣ ، ٩٩ ؛ ابن سعيد : المغرب ١ / ٦٩ ؛ عبد الله بن بلقين الزيري : التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري ، بتحقيق الأستاذ ليلى بروفنسال ، القاهرة سنة ١٩٥٥ ، ص ١٧٠ ؛ القاضي عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الثاني ص ٧٢٣ - ٧٢٤ ؛ ابن عبد المنعم الحميري الروض المطار في خبر الأقطار ، ط . القاهرة سنة ١٩٣٧ ، بتحقيق ليلى بروفنسال ص ٨٦ .

(٢) ابن بسام : الذخيرة ق ١ - ١ / ٣٥٦ .

(٣) غرسية غومس : حول ابن حيان ، ص ٤٠٣ (٩ من الفصل) . ونلاحظ بهذه المناسبة أن صاحب المقال ظن أن موجه الهدية هو الشاعر أبو الوليد بينما هو في الحقيقة ابنه أبو بكر .

ويعرف من إحدى هذه القطع من رسائل ابن حيان التي احتفظ بها ابن بسام صداقته لدى الوزارتين أبي القاسم بن عبد الغفور (١) ، وقد نقل صاحب « الذخيرة » فقرات من رسالتين إليه يذكره في إحداهما بحاجة لدى سلطانه - ولا بد أنه يعنى المعتمد بن عباد - (٢) ، ويرجوه في الأخرى أن يرد له سفراً من تاريخه كان قد أعاره إياه (٣) ، ونرى ابن حيان ينص في هذه الرسالة الأخيرة على أن هذا السفر هو ختام « تاريخه » ، ونعتقد أن تاريخ هذه الرسالة - مثل سابقها - ينبغي أن يكون بعد سنة ٤٦٢ (١٠٧٠) وهي التي استولى فيها المعتمد على قرطبة ، وأبو مروان قد بلغ نحو خمس وثمانين سنة . وكان في هذا الوقت يشعر بأنه أدى رسالته وختم حياته العلمية بعد أن فرغ من كتابة تاريخه حتى وقته . ففي ذلك تفسير لهذا « السفر الأخير » الذي أنهى به مؤرخنا مدونته الكبرى ، وأعاره إلى أحد أصدقائه لكي يؤنسه برأيه فيه .

كذلك نعرف من أصدقاء ابن حيان فقيهاً نبيها مؤرخاً أورد ابن بسام فصلاً لأبي مروان في نعيه وتأيينه (٤) ، وهو أبو القاسم سوار بن أحمد بن سوار القرطبي . ونعرف مما احتفظ لنا ابن بشكوال والقاضي عياض - وكلاهما يعتمد على ابن حيان - أنه كان فقيهاً حافظاً للمسائل فصيح اللسان محبباً إلى الناس معظماً لديهم ، وأنه كان « حافظاً لأخبار قرطبة وسير ملوكها المروانيين » ، ويذكر عنه أن كان « لا يلتق السلطان ولا يتصرف له ولا يأتي الحكم ولا يشهد عندهم لعله أوجبت ذلك » . وكان مولده سنة ٣٦٩ (٩٧٩ - ٩٨٠) وتوفي سنة ٤٤٤ (١٠٥٢ - ١٠٥٣) (٥) . ونرى من

(١) أبو القاسم محمد بن عبد الغفور الكلاعي الإشبيلي ، كان صاحباً للمعتمد بن عباد قبل أن يخلف أباه على ملك إشبيلية ، ثم تولى له الوزارة بعد ملكة . وتوفي في أيامه . وهو في عنوان شبابه في سنة لم يحددها من ترجموا له . وكان من أسرة توارثت الوزارة والكتابة في إشبيلية ، فقد ولي الكتابة كذلك ابنه أبو محمد وحفيده أبو القاسم . وهذا الأخير هو صاحب كتاب « أحكام صناعة الكلام » الذي وقف على تحقيقه ونشره الأستاذ محمد رضوان الداية ، ، بيروت سنة ١٩٦٦ . وانظر حول أبي القاسم بن عبد الغفور المذكور هنا ابن سعيد : المغرب ١ / ٢٤١ ، ومقدمة كتاب « الأحكام » المشار إليه ص ٧ والمصادر المثبتة في هذين الموضعين .

(٢) ابن بسام : الذخيرة ق ١ - ٩٣/٢ .

(٣) نفس المرجع ٩٧/٢ .

(٤) الذخيرة ق ١ - ١٠٩ / ٢ .

(٥) انظر ترجمة سوار بن أحمد في الصلة لابن بشكوال ، رقم ٥٢٣ ، وترتيب المدارك للقاضي عياض ، المجلد

الثاني ص ٧٨٦ .

هذه الأخبار أن هذا التعفف عن ملاسة السلطان فضلا عن الإشتراك في الإهتمام بالأخبار التاريخية كان مما وثق أواصر الصداقة بين الرجلين .

إلى ابن بسام يرجع الفضل في الاحتفاظ بهذه القطع القليلة من مكاتبات ابن حيان أوردها المؤلف نماذج لنثره ورسائله ، ولكنها لا تهمننا من هذه الناحية ، فان أروع نماذج نثر ابن حيان إنما هي صفحات تاريخه كله ، أما هذه الرسائل التي وجهها إلى هذا أو ذاك من السلاطين أو الوزراء والكتاب حتى إلى أصدقائه الأثيرين لديه فإنها نازلة عن طبقة نثره الجزل القوي الرائع الذي أودعه كل مادته التاريخية ، وإنما قيمتها في أنها تتضمن أخباراً تلتقى أضواء على حياة مؤرخنا وصلاته بأهل عصره .

ونلحق في النهاية بهذه الطائفة من الأخبار رسالة نقلها صاحب « الذخيرة » أيضا كان مؤرخنا قد بعث بها إلى صاحب الصلاة ابن زياد(١) . والرسالة طريفة حقا ، فنحن نعرف منها أن ابن حيان كان قد ضاق أشد الضيق بجارية له « فلت غربه ، وفرت كبده ، ونظمت أشتات المصائب في سلكه » ، فقد دأبت على سرقة ما اشتملت عليه دار أبي مروان متواطئة مع جارتين لها خبيثتين هما ابنتا قباط الحناط ، وكانتا تسكنان في الدار الواقعة في ظهر دار ابن حيان ، فازالت خادم مؤرخنا « تناولها ما تسله في الفلتات والخرجات حتى استأصلت متاع البيت » .

وكان أبو مروان قد شكى جاريته إلى صاحب المدينة ، فعزم هذا على اعتقال هاتين الجارتين وثقافهما ، لولا أن ابن زياد — ربما لفضل طبيته فيه وسلامة نية — بادر فتشفع فيهما واستنقذهما ، ويبدو أنه كان يحسب السلطان (ولا بد أن المقصود هنا أبو الوليد ابن جهور أو ابنه عبد الملك) منحرفا عن ابن حيان ، فتدخل في الأمر على هذا النحو ، على أن أبا مروان ينفي عن خاطر ابن زياد هذا الوهم ، ويعاتبه أشد العتاب على ما كايده به في شأن الجارتين الخبيثتين ، ثم يدعو إلى أن يترك لصاحب المدينة تنفيذ ما تقضى به العدالة .

(١) ابن بسام : الذخيرة ق ١ - ٩١/٢ - ٩٣ . ولا بد أن ابن زياد المقصود هنا هو الفقيه أبو عبد الله زياد بن عبد الله بن محمد بن زياد الأنصاري الذي ترجم له ابن بشكوال في الصلة ، فقال إنه كان الخطيب بالمسجد الجامع بقرطبة وصاحب صلاة الفريضة به ، ولد سنة ٣٩٢ (١٠٠٢) وروى في الأندلس عن القاضي يونس بن عبد الله بن مغيث ، وكانت له رحلة إلى المشرق . وكان فاضلا فاسكا تهبها إلى الناس زفيع المنزلة عندهم معظما لدى السلطان وتوفى سنة ٤٧٨ (١٠٨٥) . انظر الصلة ٤٣١ .

ولسنا نعرف إلام انتهت هذه القضية ، ولكن ما نقله ابن بسام من رسالة أبي مروان يسمع لنا على الأقل بأن نطلع من هذه الكوة الصغيرة على دار ابن حيان ، ونتعرف على بعض أسرار بيته وحياته اليومية .

السنوات الاخيرة :

(٤٦٢ - ٤٦٩ / ١٠٧٠ - ١٠٧٦)

إلى هنا ينتهى ما جمعناه من أخبار ابن حيان ، ويبدو لنا أن هذه الأخبار تنقطع - كما ينقطع عنا تاريخه - فى نحو سنة ٤٦٣ (١٠٧١) ، وهو قد شارف الخامسة والثمانين . على أن الذى نعرفه هو أن أبا مروان ظل قويا ممتعا بحواسه كلها حتى هذه السن . أما السنوات الست أو السبع الباقية من عمره فيلوح لنا أنه قضاها آمن السرب فى كسر داره القرطبية راضيا عن العمل الكبير الهائل الذى حققه على طول السنوات الماضية فى نشاط وحيوية لم يعرفها النصب أبداً .

لقد أدى أبو مروان الرسالة كخير ما يكون الأداء ، وحقق الغاية من حياة أملت عليه منذ البداية أن يصبح « حامل لواء التاريخ فى الأندلس » كما قال عنه أحد تلاميذه . ولم يبق عليه بعد هذه الحياة الخصب الطويلة إلا أن ينتظر النهاية فى سكينه وطمأنينة ، شأن كل من أدى الواجب وبلغ الأمانة .

وأخيراً تأتى هذه النهاية يوم الأحد لثلاث بقين من ربيع الأول سنة ٤٦٩ (٣٠ أكتوبر ١٠٧٦) . . . فى يوم من أيام الخريف القرطبي الدافئ . وتنطفئ شعلة هذا القلم الفذ الذى حمله أعظم مؤرخ عرفته أرض الأندلس . . .

ثقافة ابن حيان العامة :

أبو مروان بن حيان من النماذج الفذة على سعة الثقافة وحسن الإدراك ، والاستفادة الحقة من محصوله فن القراءات . والذى يتأمل ما بقى لنا من إنتاجه الهائل يزداد اقتناعاً بأنه كان من أجمع علماء العصور الوسطى لعلوم الإسلام ، ولكن الذى يلاحظ لأول وهلة هو أنه كان عميق الإدراك لرسالة حياته الحقيقية ، وهى كتابة التاريخ ، فهو لم يفتح على نفسه باب التنويع والتفريع ، أو

الإستطالة بسعة العلم ليكتب « في غير ما فن » كما نسمع عن كثير من علماء عصره ، جانين بذلك على النوع الذي كان يمكن أن يجيدوه من التأليف لو فرغوا له وانقطعوا إليه . لا . . . كان ابن حيان ممن فطنوا إلى قيمة « التخصص » الدقيق بالمفهوم الحديث لهذا اللفظ . فقد كان يحسبه أن يفرغ لكتابة التاريخ ، وحتى في هذا الفن لم يوسع على نفسه الخرق ، فلم يخطر بباله أن يكتب تاريخ الشرق والغرب أو الأمم القديمة والحديثة ، وإنما اقتصر على تاريخ بلده منذ الفتح الإسلامي حتى عصره ، دون أن يتجاوز ذلك إلى غيره .

ومن هنا نرى أن مشاركة ابن حيان في غير التاريخ من العلوم كانت جانبية ثانوية ، وحتى فروع الثقافة الأخرى لم تكن إلا جداول أو روافد تمد تيار علمه الحقيقي الذي كرس له حياته ، وهو علم التاريخ . وهكذا نرى أن مفهوم ابن حيان لمادة كتابته كان أشبه ما يكون بمفهومنا الحديث للتخصص العلمي الحق .

ومع ذلك فإن معاصري ابن حيان ومن أتى بعده حتى من تلاميذه والمعجبين به لم يدركوا هذه الحقيقة ، ويبدو لنا ذلك مثلاً في فهرسة أبي بكر بن خير الإشبيلي التي يخرج قارئ الفقرات الخاصة بابن حيان فيها بنتيجة غريبة : وهي أن أبا مروان كان مجرد راوية لبعض كتب اللغة أو لبعض مسانيد الحديث ، أما ابن حيان المؤرخ فلا نرى له وجوداً هناك .

وقد شارك ابن حيان حقاً في هذين الميدانين ، فروى بعض الكتب في اللغة والأدب والحديث ، وأدلى بآراء قيمة في تلك الميادين وفي النقد الأدبي وفي المسائل الفقهية ، نراها مبثوثة في ثنايا ما كتب ولكننا نحسب ابن حيان نفسه لم يعر كل ذلك إلا قيمة ضئيلة ، ولعله فعل لمجرد « الإحاض » أو ترويح النفس من عناء عمله المتواصل الدؤوب في الميدان الذي لم يكده يخرج عنه إلى غيره ، وهو ميدان التاريخ .

ولنر الآن هذه المشاركة الضئيلة المتواضعة لابن حيان في غير مجال الكتابة التاريخية :

نجد أولاً من مظاهر اهتمامه بالأدب روايته لكتاب « الفصوص » لصاعد البغدادي . وقد سبق أن أشرنا إلى أن ابن حيان نص على قراءة هذا الكتاب على مؤلفه صاعد منفرداً في داره سنة ٣٩٩ (١٠٠٨) ، (١) ، وكان ابن حيان آنذاك يناهز العشرين ، ومع ذلك فإن هذه الرواية

(١) ابن بشكوال : الصلة ، ترجمة صاعد البغدادي ، رقم ٥٤٠ ، ص ٢٣٣ .

كفلت لابن حيان مكانا بارزا بين رواة اللغة والأخبار . ولعل ذلك يرجع إلى ندرة كتاب الفصوص بعد أن ألح في نقده والمهجوم عليه كثير من أدباء قرطبة ، وأمر المنصور بن أبي عامر بتغريقه في النهر حينما أخذ الناس يتندرون بأكاذيب صاعد ومخرقاته .

وقد روى ابن خير هذا الكتاب عن أبي محمد بن عتاب عن ابن حيان عن صاعد ، وهي الرواية الوحيدة التي يسجلها المؤلف للكتاب (١) ، مما يدل على أن ابن حيان قد أصبح المستودع الوحيد له في عصره . وقد استفاد أبو مروان من « الفصوص » في تاريخه « المقتبس » ، إذ اقتطف منه بعض الحكايات يذكرها استطرادا في التعليق على نادرة وقعت في الأندلس (٢) . وقد كان من المعتقد أن هذا الكتاب ضاع واندثر إلى الأبد ، ولكن البحث قد أثبت أن هناك الآن منه نسختين مخطوطتين في المغرب الأقصى ، وأغلب الظن أن كليهما من رواية ابن حيان الذي لم يعد في الأندلس من يقرئ هذا الكتاب سواه (١) .

ولم تكن هذه هي مشاركة ابن حيان الوحيدة في رواية كتب اللغة ، فنحن نجد في فهرسة ابن خير أيضا أن روايته لكتابين من كتب يعقوب بن السكيت (٢) كانت عن طريق ابن حيان :

(١) فهرسة ابن خير ص ٣٢٦ .

(٢) القسم الثالث من المقتبس ، بتحقيق الراهب ملتشور أنطونيا ، ط . باريس سنة ١٩٣٧ ص ١٤ .

(٣) إحدى هاتين النسختين محفوظة في مجموعة من الكتب النادرة كانت ملكا للعالم المحدث المغربي الشيخ عبد الحى الكتاني - غفر الله له - وقد ضمت هذه المجموعة إلى الخزانة العامة في الرباط . وقد كان من حظي أن اطلمت على هذه المخطوطة في رحلة لي إلى المغرب ما بين ١٤ و ٣٠ يولية سنة ١٩٦١ من أجل البحث عن بعض المخطوطات الأندلسية الجديدة ، وكانت تلك النسخة تحمل رقما مؤقتا هو ١٦٦٨ ك . أما الأخرى فهي محفوظة في مكتبة جامع القرويين بمدينة فاس تحت رقم ٤٠/٥٨٧ . والحقيقة أن الكتاب على الرغم من كل ما اتهم به صاعد ذخيرة بالغة القيمة ، ويستحق أن تتضافر الجهود على نشره . (انظر حول هذا الكتاب تقريرا كتبه عن الرحلة المذكورة ونشر في صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، المجلدين التاسع والعاشر ، ١٩٦١ - ١٩٦٢ ص ٤٥٠ ، ٤٥٨ من القسم العربي) .

(٤) أبو إسحاق يعقوب بن إسحاق بن السكيت من كبار علماء اللغة ، أخذ عن الأصمعي وأبي عبيدة من البصريين وعن الكسائي والفراء من الكوفيين ، ونادم الخليفة العباس المتوكل غير أن هذا الخليفة أمر بقتله لتشييع كان يظهره في سنة ٢٤٤ (٨٥٨) . انظر في ترجمته بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار ، ط . دار المعارف ، القاهرة سنة ١٩٦١ ، ٢/٢٠٥ - ٢٠٩ ؛ والزبيدي طبقات اللغويين والنحويين ، بتحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة سنة ١٩٥٤ ، ص ٢٢١ - ٢٢٣ .

— أولها كتاب « الألفاظ » الذي رواه أبو مروان بن حيان عن أبي عمر أحمد بن عبد العزيز
ابن أبي الحباب عن أبي علي القالي (١) ؛

— والثاني كتاب « إصلاح المنطق » ، وقد رواه أيضا بنفس السند (٢) .

كذلك نقل ابن خبير تعليقا لابن حيان على أحد كتب العالم اللغوي الأندلسي الكبير أبي غالب
تمام بن غالب المعروف بابن التبانى (المتوفى سنة ٤٣٦-١٠٤٤) (٣) يدل على تضلع ابن حيان في
علوم اللغة وممارسته لها . ونجد مثل هذه التعليقات في مواضع مختلفة من « المقتبس » .

أما علم الحديث فلم يؤثر عن ابن حيان فيه إلا تعليق ينقله تلميذه أبو علي الغساني شيخ محدثي
الأندلس عنه عن أبي الوليد بن الفرضي حول مصنف أبي علي بن السكن ، ثم خبراً عن ابن السكن
يرويه ابن حيان عن شيخه المحدث النسابة أبي القاسم بن أبي يزيد المصري (٤) . وربما دلنا اهتمام
ابن حيان بإيراد ثناء شيخه ابن الفرضي على مصنف ابن السكن ونقله بعض أخباره على أن هذا
الكتاب كان من بين مرويات مؤرخنا وإن لم نجد نصاً صريحاً على ذلك .

وناحية أخرى من ثقافة ابن حيان تستحق منا الإشارة هي كتاباته في ميدان الجغرافية الأندلسية ،
وقد أفرد الدكتور حسين مؤنس هذا الجانب بالدراسة في محثه القيم عن « تاريخ الجغرافية

(١) تمام السند : أبو بكر بن خبير ← عبد الرحمن بن أحمد بن رضا المقرئ ← أبو الوليد مالك بن عبد الله
العتبي ← ابن حيان ← ابن أبي الحباب ← أبو علي القالي ← محمد بن القاسم بن بشار الأنباري ← أبوه
القاسم بن بشار ← عبد الله بن محمد بن رستم مستمل يعقوب بن السكيت ← ابن السكيت . انظر الفهرسة ص ٣٢٩ .
(٢) تمام السند : ابن خبير ← الشريف بن الأحمر القرشي ← أبو عبيد البكري ← ابن حيان ←
ابن أبي الحباب ← أبو علي القالي ، ثم بقية السند كما هو في الحاشية السابقة حتى ينتهي إلى ابن السكيت . انظر الفهرسة
ص ٣٣٢ . هذا وقد نشرت دار المعارف كتاب « إصلاح المنطق » في سنة ١٩٤٩ بتحقيق الأستاذين عبد السلام هارون
والشيخ أحمد شاكر .

(٣) ابن خبير : فهرسة ص ٣٦٠ - ٣٦١ .

(٤) ابن خبير : فهرسة ص ١٢٥ . وقد وردت نسبة ابن أبي يزيد في هذا النص « القصري » بدلا من « المصري » ،
وهي تحريف . وقد اعتمدنا على هذا النص في إثبات تلمذة ابن حيان على هذا المحدث الذي كان قد قدم من مصر إلى الأندلس في
سنة ٣٩٤ (١٠٠٤) وبقي في قرطبة حتى الفتنة القرطبية ثم عاد إلى مصر فتوفى بها . أنظر ما سبق أن كتبناه في الحديث
عن شيوخ ابن حيان .

والجغرافيين في الأندلس» (١) ، وقد كان التاريخ بطبيعته متصلا بالجغرافية ، وكان التقليد الجارى بين مؤرخى الإسلام في العصور الوسطى أن يبدأوا مؤلفاتهم التاريخية بمقدمات جغرافية طويلة . ويظن الدكتور مؤنس أن ابن حيان نقل بالفعل في مقدمة كتاب « المقتبس » الجزء الجغرافى الذى صدر به أحمد بن موسى الرازى تاريخه ، بدليل أن هناك قطعا كثيرة من هذا القسم قد وصلت إلينا منسوبة إلى ابن حيان ، أو مما نص ابن حيان على نقلها عن الرازى . هذا فضلا عن الفوائد الجغرافية الكثيرة التى يضيفها ابن حيان فى ثنايا تاريخه شرحا أو تعليقا أو تحديدا للمواضع وخطط المدن والحصون والقرى والكور ، حتى إن هذه الفوائد الجغرافية التى يمكن استخراجها من تاريخ ابن حيان تكاد تؤلف كتابا صغيراً . وهذا صحيح ، على أنه لا يكفى لعد ابن حيان من المشتغلين بالجغرافية ، وإن كان يكفيه فضلا أنه قد تخرج على يده واحد من أعظم الجغرافيين المسلمين فى العصور الوسطى ، وهو أبو عبيد البكرى .

ولا يبقى علينا بعد ذلك فى معالجة إسهام ابن حيان فى غير ميدان الكتابة التاريخية إلا ما نسب إليه من الضرب بسهم فى قول الشعر ، والإشارة الوحيدة إلى ذلك هى التى وجدناها فى كتاب « المغرب » لابن سعيد (٢) حيث يقول فى ترجمته المبتورة الأولى ؛

« وأنشد له نظما وقال : سبحان من جعله إذا نثر فى السماء ، وإذا نظم تحت تخوم الماء . »

ولم تحدثنا الترجمة عن صاحب هذا الحكم النقدى الذى يعنى أن شعر ابن حيان كان نازلا كثيراً عن طبقة نثره ، ولا يسهل علينا التحقق من صحة هذا النقد إذ لم يبق لنا من نظم ابن حيان بيت واحد ، ولو أننا نرجح صواب الحكم . وعلى كل حال فإن ابن حيان لم يفقد شيئاً بفقد ما قد يكون نظمه من شعر ، فإن ذلك لم يكن من أدواته ، وما كان ليضيف إلى فضله قليلا ولا كثيرا .

• • •

على كل حال كانت هذه هى « الحملات » الوحيدة لأبى مروان بن حيان خارج ميدان تخصصه الحقيقى ، وهو كتابة التاريخ . ولكنها على تواضعها وقلتها نالت من اهتمام كتاب التراجم والطبقات والبرامج أكثر مما استحقه جهده التاريخى الهائل ، فقد كان هؤلاء بطبيعة عملهم وتكوينهم الثقافى أكثر تهما برواية الحديث منهم بتتبع كتب التاريخ .

(١) نشر معهد الدراسات الإسلامية بمدريد سنة ١٩٦٧ ، ص ١٠١ - ١٠٢ .

(٢) ١١٧/١ .

تلاميذ ابن حيان :

أما تلاميذ ابن حيان فإننا نعرف منهم عددا غير قليل ، ولكنه لا يقارن بعدد من كان يتردد على مجالس شيوخ الفقه والحديث ، ويظهر لنا أن هذا العدد من خاصة تلاميذه كان يتردد عليه في داره ، إذ لا نعلم أن أبا مروان تحلق في أحد المساجد حيث تكتظ المجالس بطلبة العلم .

وأهم ثبت بأسماء تلاميذ ابن حيان وتراجمهم هو الذي استطعنا استخراجها من « صلة » ابن بشكوال . ونورد فيما يلي أسماء هؤلاء التلاميذ :

١ - طاهر بن مفوز المعافري الشاطبي (٤٢٧ - ١٠٣٦/٤٨٤ - ١٠٩١) وكان تلميذاً لأبي عمر بن عبد البر النمري مختصاً به ، كما روى كذلك عن العذري وأبي الوليد الباجي فضلاً عن أخذه عن ابن حيان (١) .

٢ - أحمد بن سليمان بن خلف الباجي (ت ١١٠٠/٤٩٣) ، وهو ابن الفقيه المالكي المشهور أبي الوليد الباجي وخليفته في حلقة بعد وفاته (٢) .

٣ - مالك بن عبدالله العتيبي السهلي (نسبة إلى سهلة المدور) ٤٣٧ - ١٠٤٥/٥٠٧ - ١١١٣ (٣) ، وقد أشرنا إليه من قبل بصفته من رواة كتاب « الألفاظ » لابن السكيت عن ابن حيان .

٤ - عبدالله بن محمد بن دري التجيبي الركلي (ت ١١١٩/٥١٣ - ١١٢٠) . وكان من أصحاب الفقيه أبي الوليد الباجي وابن حيان (٤) .

٥ - عبد الرحمن بن محمد بن عتاب (٤٣٣ - ١٠٤١/٥٣١ - ١١٣٧) ، وهو من أجل الشيوخ المحدثين . وكان ممن أجاز لهم ابن حيان رواية « الفصوص » لصاعد البغدادي (٥) .

(١) ابن بشكوال : الصلة ، رقم ٥٤٥ .

(٢) صلة ، رقم ١٥٣ .

(٣) صلة ، رقم ١٣٩٤ .

(٤) صلة ، رقم ٦٤٠ .

(٥) صلة ، رقم ٧٤٧ .

٦ - أبو الوليد أحمد بن عبدالله بن طريف بن سعد (ت ١١٢٦/٥٢٠) ، ولعله من أهم هؤلاء التلاميذ ، إذ ينص ابن بشكوال على أنه من رواة تاريخ ابن حيان الكبير ، كتبه بخطه . وعن هذه النسخة أثبت ابن بشكوال معظم نقوله عن ابن حيان . وهي بحكم طبيعة اهتمام مؤلف الصلة لاتكاد تتجاوز تلك الأخبار الموجزة العارية ، إذ هي متصلة بأسماء الرجال ومواليدهم ووفياتهم وشيوخهم وتلاميذهم . ومن أسف أن ابن بشكوال لم يستخرج لنا من تاريخ ابن حيان - وكان بين يديه - مادة أوفر كان من شأنها أن تثرى كتابه وتضفي عليه قيمة كبيرة - كما أضفت النقول عن ابن حيان على الذخيرة ، بل إنه في تدينه البسيط رأى لزاما على نفسه أن يحذف كل ما من شأنه أن يتعرض فيه ابن حيان بالنقد لسلوك المترجم له . ونحتم هذا الثبت بثلاثة نعتبرهم أهم تلاميذ ابن حيان (١) :

٧ - أما الأول فهو ابنه عمر بن حيان بن خلف ، وقد قدمنا ذكره لتمييز خاص في هذا الباب من الناحية العلمية ، وإنما لكونه ابن مؤرخنا العظيم من ناحية ، ثم بسبب الظروف الفاجعة التي وقع فيها مصرعه . ولسنا نعرف الكثير عن عمر هذا ، إذ تقتصر السطور القليلة التي كتبها عنه ابن بشكوال والضبي (٢) أنه تلمذ على أبيه وعلى الفقيه أبي محمد بن حزم والمحدثين ابن عتاب وحاتم ابن محمد المعروف بابن الطرابلسي . ويذكر الضبي أنه رأى بخط يد هذا الشيخ الأخير إجازة له مؤرخة في سنة ٤٤٨ (١٠٥٦) ، ووصفه أبو الحسن بن مغيث شيخ ابن بشكوال بأنه كان من أهل النبل والدكاء والفصاحة الكاملة ، ثم يضيف إلى ذلك قوله : « وقتله المأمون الفتح بن محمد بن عباد بالمدر سنة ٤٧٤ (١٠٨١) ومثل به » . وكان الفتح بن محمد (المعتمد) بن عباد عاملا لأبيه على قرطبة ، ولسنا نعرف الأسباب التي حملته على الفتك بعمر بن حيان ، فإن بشكوال لا يضيف شيئا إلى ما ذكره في ذلك النص المقتضب ، ولكنها على كل حال جريمة أخرى شنعاء توضع في حساب هؤلاء الأمراء الجائرين المرخصين لدماء الناس وحرمتهم من أمراء الطوائف . وقد كان تاريخ بني عباد في ذلك أحفل تواريخهم بالجرائم السود : شرعها المعتضد بن عباد وواصلها ابنه المعتمد - الذي نال من عطف الناس والمؤرخين ومن رثائهم بعد ذلك ما لا يستحق - ، ثم

(١) انظر مقدمة الصلة ، ص ٨ ، وترجمة ابن طريف رقم ١٧٠

(٢) الصلة ، رقم ٨٦٦ ؛ البنية ، رقم ١١٦٣ .

أبناؤه من بعده ، على أن الفتح « المأمون » هذا دفع ثمن جريمته وغيرها مما ارتكبه بعد ذلك بعشر سنوات ، إذ قتله المرابطون عند محاصرتهم وفتحهم قرطبة سنة ٤٨٤ (١٠٩١) . بعد أن خان هو وأبوه قضية الإسلام في الأندلس . ورحم الله عمر بن حيان ، فلعله دفع بدمه ثمن تلك العبارات القاسية — مع أنها لم تخرج قط عن الصدق والعدل — التي دفع بها أبوه حكم أولئك الأمراء الجبناء ممن خضعوا وذلوا أمام أعداء دينهم وأمتهم ، وصبوا بأسهم كله على رعاياهم ، حتى أدال الله دولهم ، وظهر المرابطون من رجسهم أرض الأندلس .

٨ — والثاني هو المحدث الكبير أبو علي الغساني حسين بن محمد المعروف بالجياي (٤٢٧ — ١٠٣٦/٤٩٨ — ١١٠٥) ، وكان رأس المحدثين بقرطبة ، فضلا عن علمه الواسع بكتب اللغة ورواية الأشعار وكتب التواريخ . وإلى أبي علي الغساني المذكور ترجع الأخبار القليلة التي أوردها ابن بشكوال حول ابن حيان ، وبعض عبارات الثناء التي تدل على وفائه لذكرى أستاذه وتقديره العميق له (١) .

٩ — وآخر من نذكره من هؤلاء هو الجغرافي اللغوي العظيم أبو عبيد البكري (ت ٤٨٧ / ١٠٩٤) (٢) . وقد كان لعبد الله بن عبد العزيز البكري — وهذا هو اسمه — مكانة خاصة في نفس ابن حيان . يوسم فيه الذكاء والنجابة منذ شبابه الغض حينما قدم إلى قرطبة مع أبيه الذي كان المعتضد بن عباد قد خلعه عن إماراته في ولبة وشلطيش سنة ٤٤٣ (١٠٥١ — ١٠٥٢) ، فقد أنى عليه ابن حيان حينئذ قائلا إنه « بئد الأقران جمالا وبهاء وسروا وأدبا ومعرفة » (٣) . ويبدو أن أبا عبيد البكري لازم ابن حيان خلال إقامته في قرطبة ، بل لعل شيخه أبا مروان هو الذي وجهه إلى الاشتغال بعلم الجغرافية الذي كان وثيق الارتباط بكتابة التاريخ (٤) . ونحن نعرف أن لأبي عبيد

(١) الصلة ، رقم ٢٢٩ .

(٢) الصلة ، رقم ٦٣٢ .

(٣) ابن الأبار : الحلة السيرة ١٨٢/٢ ، ابن عذاري : البيان المغرب ٢٤٢/٣ . وقد قدر الدكتور حسين مؤنس سن أبي عبيد في ذلك الوقت بما يتراوح بين عشرين وخمس وعشرين سنة . انظر تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ، ص ١١٥ .

(٤) أشار الدكتور حسين مؤنس في بحثه الذي أشرنا إليه (ص ١١٦) إلى ما ذكره ابن بشكوال من تلمذة البكري على ابن حيان ، ولكنه شك في صحة هذا الخبر محتجا بأن ابن حيان لم يختصه إلا بمادة قليلة لا تغني كثيرا في التعريف به . ولسنا نجد في ذلك أي غرابة ، فقد كان أبو عبيد آنذاك شابا في سن الطلب ، ولم يكن قد بلغ من السن ولا العلم ولا المكانة =

كتابين في الجغرافية أحدهما « معجم ما استعجم » ، والآخر هو « المسالك والممالك » الذي يعتبر - على حد تعبير الدكتور مؤنس صاحب خير دراسة صدرت عن الجغرافيين الأندلسيين حتى اليوم - « قمة من قمم التأليف الجغرافي في هذا النوع عند المسلمين » (١) . ولا شك عندنا في أن إحاطة البكري الواسعة باللغة والأدب ، واهتمامه في سياق جغرافيته بالأخبار التاريخية ، وما اتسم به من شمول النظرة ودقة التحقيق - كل ذلك مما نرى فيه أثر ابن حيان العميق في تلميذه ماثلا لاخفاء به (٢)

كتب ابن حيان :

كان المستشرق الإسباني الأستاذ غرسية غومس على حق حينما نبه في سنة ١٩٤٦ إلى خطر الاهتمام المبالغ فيه من جانب الباحثين المحدثين بالكتب الضائعة أو المفقودة للمؤلفين القدامى على حساب كتبهم التي سلمت لنا من غائلة الزمان (٣) . وليس هناك شك في قيمة البحث حول ما ضاع أو اندثر من كتب ، فهو لازم لبحث شخصية المؤلف في مجموعها ، وهو ألزم لتتبع ما يمكن أن يكشف عنه أو يعثر عليه من هذه الكتب كلها أو أجزاء منها ، ولكن الخوف هو من أن يجرى مثل هذا البحث على دراسة ما هو موجود فعلا ويمسر بين الأيدي من الكتب ، ثم إن من الأجدي على البحث العلمي بغير شك توجيه العناية إلى هذه الطائفة الأخيرة من الكتب ، وتعمق تحليلها واستصفاء فوائدها .

وقد عني كثير من الباحثين السابقين بتعداد مؤلفات ابن حيان ، وحملتهم رغبة ساذجة في إعلاء شأن مؤرخنا وتضخيم شخصيته على أن ينسبوا إليه عددا هائلا من الكتب دون تحقيق ولا تمحيص ،

= ما يستحق معه أن يفرد له ابن حيان أكثر مما أفرد ، بل إن ثناء أبي مروان عليه في العبارة التي ذكرناها ، وهو بعد في صغيرا إنما يدل على نفوذ نظر ابن حيان وصواب حكمه على تلاميذه وتمييزه للناهين منهم . وعلى كل حال فإن تلميذة أبي صبيد على شيخ مؤرخي الأندلس ثابتة تؤكدها - فضلا عن نص ابن بشكوال في ترجمته - تلك الإشارة الواردة في فهرسة ابن خير الإشبيل عن سندر وايت لكتاب « إصلاح المنطق » ليعقوب بن السكيت (ص ٣٣٢) ، إذ جاء فيها : « . . . وقرأته أيضا على الشيخ الوزير أبي عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري ، قال : حدثني به الشيخ أبو مروان حيان بن خلف بن حيان . . . » (ويبدو أن الدكتور حسين مؤنس لم يطلع على هذا النص) .

(١) ص ١٤٨ .

(٢) عن البكري ومراجع ترجمته وقيمة مؤلفاته الجغرافية أنظر هذا البحث القيم الذي أشرنا إليه للدكتور مؤنس

ص ١٠٨ - ١٤٨ .

(٣) انظر مقاله « حول ابن حيان » ص ٤٠٦ (= ص ١٢ من الفصلة) .

فنحن نرى بونس بويجس مثلاً يقول إنه « نظم شعراً كثيراً (١٢) وألف كتباً كثيرة في علوم الدين ومباحث الكلام (علم اللاهوت) وفي غير ذلك من المعارف ، حتى إن ما ينسب إليه من كتب لا يقل عن خمسين » (١) . فهذا حكم خاطئ من أوله إلى آخره . إذ لم يعرف لابن حيان شعر كثير ولا قليل ، ولا حفظ عنه أنه كتب في أى مبحث ديني أو كلامي . وأما عدد كتبه فإنه لا يكاد يجاوز أصابع اليد الواحدة كما سنرى .

ولنر الآن كتب ابن حيان كما وصلت إلينا أخبارها في المراجع المتأخرة :

١ - المقتبس :

وهو الكتاب الذى نقدم بهذه الصفحات لإحدى القطع التى وصلت إلينا من أصله المخطوط . وليس هناك إجماع على صورة لعنوان هذا الكتاب ، فعنوان القطعة المخطوطة التى نشرها الراهب الإسباني ملتشور أنطونيا فى باريس سنة ١٩٣٧ عن أصل محفوظ فى المكتبة البودلية بأوكسفورد هو « المقتبس فى تاريخ رجال الأندلس » ، بينما عنوان القطعة التى كانت محفوظة فى مكتبة ورثة سيدى حمودة بقسنطينة (الجزائر) والتى استنسخ منها المستشرق الإسباني فرانسيسكو كوديرا المخطوطة المحفوظة فى مكتبة المجمع التاريخى الملكى بمدريد هو « المقتبس فى أخبار بلد الأندلس » . أما ابن الأبار فإنه يذكر الاسم فى هذه الصورة : « المقتبس من أنباء أهل الأندلس » ، وهكذا جاء فى موضعين من كتابين له (٢) . أما القطعة التى نقدم لها بهذه الصفحات فلا تحمل عنواناً ، إذ هى مبتورة الأول .

والحقيقة أن المثونة هينة فى هذا الخلاف ، فالكتاب قد اشتهر باسم « المقتبس » فحسب ، بل إن الشائع فى كتابات المؤرخين عنه هو الحديث عنه باعتباره قسماً من « التاريخ الكبير » لابن حيان ، وأما الصيغ المختلفة لعنوان الكتاب فهى لا تغير من جوهر الأمر شيئاً .

وأما لفظ « المقتبس » فقد أطبق المستشرقون الذين سبقوا إلى الاهتمام بالكتاب مثل دوزى وبونس بويجس وملتشور أنطونيا ولينى بروفنسال وغرسية غومس على نطقه بكسر الباء ، أى بصيغة اسم الفاعل ، وليس لنا اعتراض على تسمية الكتاب بهذه الصورة ، فهى تحتمل وجهاً من

(١) المؤرخون والجغرافيون الأندلسيون ، ص ١٥٢ .

(٢) ابن الأبار : الحلة السراء ٢٩٠/١ ، إعتاب الكتاب ص ١٧٢ .

التأويل لا يبعد عن الصواب ، ولكننا نؤثر أن ندعوه « المقتبس » بفتح الباء بصيغة اسم المفعول ، فهذا هو الأشيع في عناوين الكتب (١) . والحطب هين على كل حال .

وموضوع « المقتبس » هو تاريخ الأندلس منذ الفتح العربي في سنة ٩١ (٧١١) حتى قريب من عصر المؤلف ، وقد انتهينا من بحث هذه المسألة — كما سنرى — إلى أنه في الواقع ينتهي بنهاية خلافة الحكم المستنصر على وجه التقريب . وقد كان كتاب المقتبس من بين الكتب التي افتخر بها الفقيه أبو محمد بن حزم في رسالته في فضل الأندلس ، إذ يقول :

« ومنها كتاب التاريخ الكبير في أخبار أهل الأندلس تأليف أبي مروان بن حيان ، نحو عشرة أسفار ، من أجل كتاب ألف في هذا المعنى ، وهو في الحياة بعد ، لم يتجاوز الاكتهال » (٢) .
ويعلق ابن سعيد على هذا النص فيقول :

« وأما التواريخ فكتاب ابن حيان الكبير المعروف بالمتين في نحو ستين مجلدة . وإنما ذكر ابن حزم كتاب « المقتبس » وهو في عشر مجلدات ، والمتين يذكر فيه أخبار عصره ، ويعن فيها مما شاهده ، ومنه ينقل صاحب الذخيرة » (٣) .

هذا وسوف نتحدث بمزيد من التفصيل عن كتاب « المقتبس » ، وعن المشكلات التي يثيرها النصان السابقان حول تحديد موضوعات كل من كتابي ابن حيان الرئيسيين في موضع ملامح من هذا التقديم .

(١) يذكرنا هذا بالخلاف حول نطق عنوان كتاب آخر في تاريخ الأندلس ، هو « المسهب في أخبار المغرب » للحجاري ، فقد أشكل المقطع الأول من الاسم على القراء إلى حد جعل المعتمد بن عباد ملك إشبيلية يرسل إلى اللغوي الكبير أبي الحجاج الأعمى الشنتمرى يستفسره عن صحة قراءة الاسم ، وهل هو بفتح الهاء أم بكسرها . وأجاب الأعمى برد طويل يحتاج لقراءته بالكسر (انظر المقرئ : نفح الطيب ٥/٢١٦ - ٢١٩) ، ولو أن الكثيرين قبلوا في الاسم القراءتين معا واعتبروهما صوابا . ورجح المقرئ أن يكون بكسر الهاء لما يقتضيه المقطع الثاني من السجمة ، إذ ينتهي بلفظ « المغرب » بكسر الراء . على أن هذا لا ينطبق على عنوان « المقتبس » ، فأخر المقطع الثاني ، وهو الأندلس ينطق بضم اللام ، وهكذا لا يوائم اللفظة الأولى سواء أكانت بفتح الباء أم بكسرها .

(٢) المقرئ : نفح الطيب ٤/١٦٧ .

(٣) نفس المرجع ٤/١٧٢ .

٢ - المتين :

وهو الذى وصفه ابن سعيد فى النص الذى أوردناه بأنه الكتاب الذى يذكر ابن حيان فيه أخبار عصره ويعنى فيه مما شاهده ، وأنه كان يتألف من ستين مجلدة . وقد ضاع هذا الكتاب ، ولكن فى كتب المؤلفين التالين لعصر ابن حيان نقولا كثيرة منه أهمها وأوفرها ما نجده فى كتاب « الذخيرة » لابن بسام الشنترينى ، حتى إنه لو استخرجت تلك النقول من مختلف أقسام الذخيرة المطبوعة والمخطوطة ومن بعض المراجع الأخرى مثل الجزء الثالث من البيان المغرب لابن عذارى وكتب ابن الأبار ومغرب بن سعيد وصلة بن بشكوال وترتيب المدارك للقاضى عياض - لا يمكن « إعادة بناء » جزء كبير من « المتين » .

ويبدأ التأريخ فى « المتين » على ما نرجح بأحداث الفتنة البربرية التى انفجرت فى الأندلس - على بصر ابن حيان وبين يديه - فى سنة ٣٩٩ (١٠٠٨) ، وينتهى قبل موت مؤرخنا بسنوات قليلة - فى نحو سنة ٤٦٣ (١٠٧١) ، فهذا على الأقل هو التاريخ الذى تنقطع فيه نقول ابن بسام من كتاب « المتين » ، أى أنه يتناول تأريخ نحو أربع وستين سنة من حياة الأندلس المعاصرة لابن حيان ، وهى معظم هذا العصر الذى يعرف باسم « عصر ملوك الطوائف » .

وهناك مسألتان تعرض لهما الباحثون قبلنا عند الحديث عن التمييز بين كتابى المقتبس والمتين - ولنصرف النظر الآن عن كتاب « أخبار الدولة العامرية » الذى سنفرده بالبحث بعد ذلك - :

أما الأولى فقد كان المستشرق الهولندى العظيم راينهاردت دوزى هو أول من تعرض لها ، فقطع فيها برأى تلقفه جميع الباحثين من بعده وتبعوه عليه ، وهو أن « المقتبس » كان أول كتب ابن حيان فى الظهور ، وهو شئ يبدو منطقيا بعد أن رأينا نص ابن حزم السابق حول « تاريخ » ابن حيان ، وتفسير ابن سعيد لهذا النص بأنه لا يقصد إلا « المقتبس » دون غيره ، لاسيما وأن ابن حزم يصف فيه ابن حيان بأنه لم يجاوز الاكتهال . واستنتج دوزى من ذلك أن « المقتبس » هو كتاب ابن حيان وهو فى طور الشباب ، بينما كان « المتين » هو ثمرة إنتاجه إبان شيخوخته ونضجه (١)

(١) انظر مقدمة دوزى لنشرته لكتاب البيان المغرب .

Reinhardt Dozy : Histoire de l'Afrique et de l'Espagne intitulée Albayano l-mo-grib, ed. Leyde, 1848, intrd., p. 73.

وردد هذا الحكم كل من مورينو نيتو Moreno Nieto في بحثه : « دراسة نقدية للمؤرخين الأندلسيين » ، (وهو الخطاب الذي ألقاه عند استقباله عضوا في المجمع الملكي التاريخي الإسباني في ٢٩ مايو ١٨٦٤) (١) ، ثم بونس بويجس (٢) ، وملتشور أنطونيا (٣) .

وقد يكون صحيحا إلى حد ما أن ابن حيان أخرج « المقتبس » إلى الناس قبل أن يخرج المتن ، فالكتاب الأول بحكم موضوعه الذي يتناول تاريخ الأندلس حتى آخر خلافة الحكم المستنصر كان من الممكن استيفاؤه واستكماله دون أن تكون هناك مئونة على المؤلف في إخراجه ، ولا ضرورة لإعادة النظر وتكراره فيه ، بينما كان « المتن » بحكم معالجته للتاريخ المعاصر محتاجا إلى تنقيح مستمر وإضافات يقتضيها تتابع الأحداث الواقعة تحت بصر ابن حيان وبين يديه .

ولكن الذي لا نراه مقبولا هو أن يفرق بين الكتابين على أساس أن « المقتبس » نتاج شباب و « المتن » نتاج شيخوخة . فالذي نتصوره هو أن ابن حيان لم يسر حسب خطة موضوعة تقضى بتأليف « المقتبس » أولا ، حتى إذا فرغ منه بدأ بكتابة المتن ، بل كان شروعه في العملين في وقت واحد . أما المقتبس فهو في جملته يعتمد على المدونات التاريخية السابقة ، أي أنه كان يتطلب جهداً من البحث في مختلف المراجع والمقارنة بين رواياتها وتسجيل نتائج هذه الأبحاث ، فهو جهد أشبه بما يبذله الباحث منا اليوم حينما يجمع مادة موضوعه من مختلف المراجع القديمة ، واضعاً إياها أمامه ، ومرتباً مادتها ، وراجعا إلى هذا الكتاب مرة ، وإلى ذلك مرة أخرى . وهو عمل لا يكاد يعوز ابن حيان فيه إلا مكتبة غنية بالمصادر ، ولحظات هدوء ، وعكوف على القراءة والتقييد . وأما « المتن » فهو كتاب يختلف منهج كتابته عن ذلك كل الاختلاف ، فهو تسجيل للتاريخ المعاصر الذي يعيشه المؤلف وتتلاحق أحداثه بين يديه ، وكان لذلك لا يقتضى من أبي مروان

Moreno Nieto : Estudio critico sobre los distoriadores aràbigo-españoles, ed.(١)
Madrid, 1882.

(٢) الجغرافيون والمؤرخون الأندلسيون ص ١٥٤ .

(٣) في الرسالة التي تقدم بها لنيل الدكتوراه من جامعة مدريد في سنة ١٩٣٣ بعنوان « ابن حيان القرطبي وتاريخه للأندلس » ص ٣٣ . وقد نشرت هذه الرسالة بعد مقتل مؤلفها الراهب الإسباني في سنة ١٩٣٧ (في الحرب الأهلية الإسبانية) وذلك في مجلة « دفاتر تاريخ اسبانيا » التي يصدرها « معهد تاريخ الثقافة الإسبانية في العصور الوسطى والحديثة » التابع لكلية الفلسفة والآداب بجامعة بوينوس آيرس (الأرجنتين) ، المجلد الرابع ، سنة ١٩٤٦ ، ص ٥ - ٧٢ .

Melchor Antuña : Ibn Hayyan de Cordoba y su Historia de la España musulmana, en
Cusdernos de Historia de España, vol. IV, 1946, Buenos Aires, pp. 5-72.

الرجوع إلى كتاب ، وإنما يحتاج إلى استقاعها الأخر من مصادر أخرى : منها النزول إلى الشوارع والأسواق ، والتجول في أنحاء المدينة لكي يرى ويشاهد ما يقع ، ثم يسجل ما رآه ، ويجتمع بالناس في المجالس العامة والخاصة ، فيسمع منهم ما يروي من أخبار ، وما يتناقل من إشاعات ، وما يأتي به القادمون من هذه المدينة أو تلك إلى قرطبة - فهو لم يغادر بلده أبداً طيلة حياته - ، ثم يعود المؤرخ إلى داره ، فيقيد كل ما شهده وما سمعه ، فاذا أعوزه خبر من مكان بعيد من بلاد الأندلس كتب إلى نفر من أصدقائه أو « مكاتبيه » كما يسميهم - ضرب من « المراسلين الخاصين » كما يقال اليوم بلغة الصحافة - ، لكي ينبئوه بما جد لديهم من أخبار ، ويتلقى رسائلهم فينعم النظر فيها ، وينتقى منها في كتابه ما يراه متفقاً مع مهجه في الكتابة بعد أن يصوغها بأسلوبه ويسمها بميسمه الخاص الذي لا يجارى .

« المقتبس » إذن جهد باحث مخلص إلى العمل في هدوء مكتبته بعيداً عن ضجبات المدينة وضجيجها ، وأما « المتين » فهو ثمرة تسجيل هذا الصخب والضجيج نفسه لا في قرطبة فحسب بل وفي كل أنحاء الأندلس . . . هو أشبه بجهد رجل من رجال صحافة اليوم يتشمم الأخبار و « يبحث عن المتاعب » جرياً وراء الحقيقة أينما كانت ! . . .

والذي نكاد نقطع به - وهو الذي يقتضيه منطق الأمور - هو أن ابن حيان - في جهده « لتغطية » تاريخ الأندلس كله حتى وقته - إنما كان يقوم بالعملين معا وفي وقت واحد ، بل إننا نعرف مما سبق أن ذكرناه أنه كان يسجل مشاهداته وذكريات أبيه خلف كاتب المنصور منذ أواخر أيام الدولة العامرية وهو دون العشرين ، ورجح أنه كان يكتب « يوميات » يقيد فيها كل ما يرى ويسمع أو يبلغه عن ثقة . وظل على ذلك طوال سنوات الفتنة وما بعدها . ولا بد أنه كان كلما تجمعت له مادة عن تاريخ الأندلس الذي كان يعيشه يوماً بيوم رتبها وهدبها وأعدّها لتألف منها بعد فصول « المتين » ، فاذا أتيج له وقت فراغ عاد إلى كتاب « المقتبس » الذي كان أخف مثونة عليه ، إذ هو التاريخ الذي لا خشية من ضياعه ولا نسيانه ، بحكم أن مراجعته من الكتب السابقة متوفرة بين يديه . وهكذا مضى أبو مروان في كتابيه معا ، ولعله يكون قد فرغ من « المقتبس » قبل أن تكتمل له من « المتين » مادة يرتضيها لإخراج أول « طبعة » منه إلى الجمهور ، وإن كنا نعتقد أن الفارق الزمني بين الكتابين ليس طويلاً على كل حال .

ونقول أول « طبعة » كما نقول اليوم لأن « المتين » باعتباره التاريخ الحى المتحرك كان فى حاجة دائماً إلى تكرار النظر والإضافة أو الحذف والاستدراك . وقد تبيننا من الأخبار التى جمعناها عن هذا الكتاب أن ابن حيان أخرج نسخاً منه مختلفة بمضى الزمن .

ويبدو أن إحدى هذه « الطبعات » - وليست أولها بغير شك - كانت متداولة فى الأندلس قبل سنة ٤٥٥ (١٠٦٣) ، وذلك لأننا نرى ابن بسام - فيما ينقل عنه ابن عذارى (١) - يقول عن واقعة بطرنة (Paterna) التى هزم المسلمون فيها فى تلك السنة :

« لم يقع إلى خبر واقعة بطرنة فى كتاب ابن حيان ، فكنت أوليه حكمه ، وأعتمد فيه وصفه الرائق ونظمه » .

وما كانت هذه الواقعة الشنيعة لتفوت قلم ابن حيان ، ولهذا فإن التفسير الوحيد الممكن لذلك هو أن ابن بسام إنما رجع إلى إحدى نسخ المتين التى كتبت قبل سنة ٤٥٥ .

وفى « المغرب » لابن سعيد (٢) نص آخر له دلالة . فى ترجمة أبى القاسم سراج بن عبد الله ابن سراج قاضى الجماعة بقرطبة بعد أبى بكر يحيى بن محمد بن يتي بن زرب ينقل ابن سعيد عن ابن حيان قوله بعد ذكر ولايته القضاء سنة ٤٤٨ (١٠٥٦) ؛ « وهو مقيم على حاله إلى وقت إملاء هذا الكتاب وقد نيف على الثمانين » . فإذا عرفنا أن سراج بن عبد الله المذكور توفى سنة ٤٥٦ (١٠٦٤) عن ٨٦ سنة (٣) كان معنى ذلك أن ابن حيان قد أخرج هذه النسخة التى اطلع عليها ابن سعيد من « المتين » بعد سنة ٤٥٠ وقبل ٤٥٦ .

ويبدو أن ابن بسام بعد ما كتب ما ذكرناه وقعت له نسخة أخرى من « المتين » تناول فيها أخبار سنة ٤٥٦ ، ومنها نقل خبر خوض أهل قرطبة فى الذى رأوه من تنافس ولدى أبى الوليد محمد بن جهور : عبد الرحمن وعبد الملك إلى آخر الخبر (٤) . ويعقب ابن بسام على ذلك بقوله :

« إلى هذا الموضع انتهى ما وجدته من أخبار الدولة الجمهورية من كتاب ابن حيان وقت

(١) البيان المغرب ٢٥٣/٣ .

(٢) المغرب ١٦٢/١ .

(٣) انظر ترجمته فى ابن بشكوال : الصلة ، رقم ٥١٧ ؛ والضبى : البنية ، رقم ٧٨٠ .

(٤) الذخيرة ق ١ - ١٢٠/٢ - ١٢١ .

تجرى للفراغ من تميم هذا الديوان ، واستعجلت لإخراج هذه النسخة المقررة منه ، وأعيان
تبعه لآثارهم ، وشرده على وجود لفظه ونظمه لبقية أخبارهم ، ولم أجد بدا من نظامها ، لتجئ
أخبارهم بتمامها ، فرقعت الضحى بالغاز ، وجمعت بين حافر العبر وجبهة الفرس» (١) .

ومع ذلك فنحن نرى في الذخيرة أخباراً تلى ما يذكره هنا ، منها كائنة بربشتر التي استولى
عليها المحوس (النورمانديون) في سنة ٤٥٦ (١٠٦٤) (٢) ، وقضية اغتيال الأديب أبي مروان
عبد الملك بن زيادة الله الطنبلي سنة ٤٥٧ (١٠٦٥) (٣) ، ويظهر أنها مستمدة من نسخة أخرى تلى
التي تقدمتها .

ثم وقعت لابن بسام مخطوطة تبدو هي الأخيرة ، إذ نجد فيها تسجيل أحداث سنتي ٤٦٢
و٤٦٣ (١٠٧٠ - ١٠٧١) نذكر منها حدثاً وقع في سوق إشبيلية بسبب نزاع بين يهودي ومسلم
في ١٣ من ذي الحجة سنة ٤٦٢ (٥ نوفمبر ١٠٧٠) ، وتنتهي هذه الأخبار بذكر وفاة الشاعر أبي
الوليد ابن زيدون في رجب سنة ٤٦٣ (أبريل ١٠٧١) (٤) . وهذا هو آخر ما نعلم أن ابن حيان
قد سجله في تاريخه ، إذ أن وفاته لم تتأخر بعد ذلك إلا ست سنوات . ولعل ابن حيان كان آنذاك
يضع اللمسات الأخيرة لآخر « طبعات » المتين ، وإلى هذا التاريخ ترجع إعارته « السفر الأخير »
من الكتاب لصديقه الأديب أبي القاسم بن عبد الغفور كما سبق أن أشرنا إلى ذلك (٥) . وكان
ابن حيان آنذاك في نحو الخامسة والثمانين . وإنما نرجح ذلك لأننا لم نر في الذخيرة ولا غيرها من
الكتب نقولاً حول أحداث تلى تاريخ سنة ٤٦٣ (١٠٧١) .

أما المسألة الثانية المتعلقة بالتمييز بين كتابي « المقتبس » و « المتين » فإننا نقصد بها ما افترضه
دوزي ومن تابعه على رأيه من الباحثين من وجود « فروق جوهرية » بين أسلوب ابن حيان في هذا
الكتاب وفي ذلك ، وقد أرجع دوزي هذه الفروق إلى ما سبق أن ذكره من أن « المقتبس » هو

(١) الذخيرة ق ١ - ١٢٢/٢ - ١٢٣ .

(٢) الذخيرة ، القسم الثالث ، مخطوطة معهد الدراسات الإسلامية بمديرية ، ورقة ٢٢ ب - ١٢٤ ؛ والبيان المغرب

٢٥٤/٣ - ٢٥٥ ؛ والمقرى : نفع الطيب ١٩١/٦ - ١٩٨ (وكلاهما ينقل عن ابن بسام) .

(٣) الذخيرة ، ق ١ - ٥٢/٢ - ٥٧ .

(٤) الذخيرة ق ١ - ٣٥٤/١ - ٣٥٦ .

(٥) الذخيرة ق ١ - ٩٧/٢ ؛ وانظر ما سبق أن كتبناه عن ذلك في ص ٣٦ .

كتاب ابن حيان الناشئ الحديث العهد بالكتابة التاريخية ، بينما المتين هو كتاب مؤرخنا حينما تقدمت به السن وحككته التجارب فبلغ مرحلة النضوج . فهذه المسألة إذن كما يرى مترتبة على الأولى متفرعة عنها .

وإذا كنا قد أثبتنا أنه لا أساس لذلك التفریق الزمني بين الكتابين فإننا نرى أن هذه « الفروق » لا وجود لها في الحقيقة ، وإنما هناك طريقتان استخدمهما ابن حيان في كتابة شطري تاريخه نتيجة لاختلاف طبيعة الموضوع هنا عنه هناك واختلاف المصادر التي اعتمد عليها المؤرخ في كتابة كل منهما تبعاً لذلك .

ويصل دوزي في توهم تلك « الفروق » إلى حد القول بأنه « مهما كانت مميزات « المقتبس » فإن هذا الكتاب لا يزيد على كونه واحداً من « التقايد التاريخية » (chronique) ، صحيح أنه خير من كل ما ألفه المؤرخون السابقون عليه ، ولكنه ينتمي إلى هذه الطائفة من الكتابات ، أما « المتين » الذي سجل ابن حيان فيه تاريخ بلده المعاصر فهو الذي يعتبر « تاريخاً » (histoire) حقيقياً بمعنى الكلمة « (١) .

وكرر من أتى بعد دوزي من المستشرقين هذا الرأي بغير مناقشة فيما عدا الأستاذ غرسية غومس الذي تنبه بحسه المرهف وذوقه الأدبي خطأ ذلك الحكم المتواتر ، ففطن إلى أنه ليست هناك فروق أسلوبية بين « المقتبس » و « المتين » ، وإنما نجمت هذه الفروق المزعومة من « أن ابن حيان كان يعتمد في « المقتبس » على مؤرخين سابقين له فيأتي في معظم صفحاته بنصوصهم وكلامهم ، بينما المتين كله من إنشائه هو . أما المواضع التي ينص فيها ابن حيان على كلامه - وهي في الغالب تعليقات أو تلخيص للآراء السابقة وإعطاء خلاصة لها مع الإدلاء برأيه - فأسلوب ابن حيان فيها هو نفس أسلوبه في المتين دون أدنى فارق « (٢) .

(١) دوزي : مقدمة البيان المغرب ص ٧٣ . والباحث يفرق بين « التقايد التاريخية » أي الكتاب الذي يكتب بمجرد التسجيل البارد للأحداث وبين « التاريخ » الذي تبرز فيه شخصية الكاتب وآراؤه وفلسفته .

(٢) انظر مناقشة غرسية لآراء أولئك الباحثين السابقين ورأيه الذي أوردنا هنا خلاصة في مقاله « حول ابن حيان » ص ٤١٢ - ٤١٨ (= ١٨ - ٢٤ من الفصل) .

ونحن نوافق غرسية غومس على هذا الرأي في خطوطه العامة ، ولكننا لا نسلم له بأن « المقتبس » ليس إلا نسيجاً من الكتب التاريخية السابقة وأن ابن حيان اقتصر فيه على مجرد النقل عن سبقه من المؤرخين . على أننا سنعود إلى بحث هذه النقطة فيما بعد .

٣ — أخبار الدولة العامرية :

يشهد بوجود هذا الكتاب بين مؤلفات ابن حيان معظم من كتب عنه كابن الأبار(١) وعبد الواحد المراكشي(٢) وابن سعيد(٣) وابن الخطيب(٤) والمقرئ(٥) . ويزيدنا ابن الخطيب بياناً بهذا الكتاب في موضع آخر ، فيقدم لنا فائدة طيبة عن حجم الكتاب وأجزائه ، إذ يقول : « ذكر أبو مروان حيان بن خلف في كتابه الذي أنافت على المائة أسفاره المسمى بأخبار الدولة العامرية المنسوخة بالفتنة البربرية ، وما جرى فيها من الأحداث الشنيعة »(٦) . أما هذه الأسفار المائة فهو شيء يتوقف على ما يفهمه ابن الخطيب من لفظ سفر ، فهو شيء نسبي يرجع إلى التقدير ، وقد يكون السفر كراسة أو ملزمة(٧) ، هذا مع التسليم بأن الكتاب لا بد أن يكون بالفعل بالغ الضخامة ..

أما عنوان الكتاب فلم يحدده بدقة إلا ابن الخطيب في نفس النص السالف ، ونظن فعلاً أن العنوان الطويل الذي ساقه هو عنوان الكتاب كما وضعه ابن حيان ، فقد كان مؤرخنا يميل إلى هذه العناوين الطويلة المفصلة ، أما العنوان الذي يفينا بنا به عبد الواحد المراكشي وهو « المتأثر العامرية » فيبدو أن عبد الواحد إنما خلط فيه بين هذا الكتاب وكتاب آخر بهذا العنوان لحسين

(١) الحلة السیراء ٢٢٧/١ ، ٢٦٩ .

(٢) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، بتحقيق الأستاذين محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي ، القاهرة ١٩٤٩ ص ٣٨ .

(٣) المغرب ١٩٩/١ حيث يقول في ترجمة المنصور بن أبي عامر إن لابن حيان فيه « كتاباً مفرداً » .

(٤) أعمال الأعلام ص ٤٨ .

(٥) نفع الطيب ٣٧٦/١ حيث يذكر لابن حيان « كتاباً مخصوصاً بالدولة العامرية » .

(٦) أعمال الأعلام ص ٩٨ .

(٧) كتاب « جذوة المقتبس » للحميدى ، الذي نشر في مجلد واحد في ٣٩٠ صفحة مقسم في الأصل إلى عشرة أجزاء . وهذا مثل واحد يمكن أن نضيف إليه الكثير ، وهو يحملنا على أن نلزم جانب الحذر في تقدير ما يذكره المؤلفون القدامى حول أجزاء الكتب التي يشيرون إليها وأسفارها .

ابن عاصم(١) ، ومثل هذه الأخطاء كثيرة في كتاب « المعجب » الذي وضعه مؤلفه وهو في المشرق معتمداً فيه على ذاكرته بعيداً عن كتبه وأدوات عمله .

وتواجهنا مشكلة بشأن هذا الكتاب : لقد اصطلح من كتبوا عن ابن حيان على أن تاريخه الكبير يتألف من « المقتبس » و « المتين » ، فما مكان هذا الكتاب بينهما ؟ وهل يعتبر عصر الدولة العامرية من الفترة السابقة على ابن حيان فيكون أقرب إلى اللحاق بالمقتبس ؟ أو من الفترة التي عاشها المؤلف وعاصرها فيكون أشبه بأن يدرج في المتين ؟ فإن حيان قد ولد في ظل الدولة العامرية وقضى صباه وأولى سني شبابه في ظلها (بين ٣٧٧ و ٣٩٩) .

ولهذا فقد تتبعنا النقول المحتملة عن هذا الكتاب في المصادر المتأخرة ، فوجدنا ابن الخطيب مثلاً - وهو الذي نقل عنوان الكتاب كاملاً وقدم لنا وصفاً له - ينقل عنه كما يغلب على ظننا في موضعين : أحدهما قطعة كبيرة حول أيام عبد الملك المظفر بن المنصور العامري(٢) ، والآخر هو الذي يعلق فيه ابن حيان على القران الفلكي الواقع في سنة ٣٩٧ (١٠٠٦ - ١٠٠٧) وإرجاف الناس به وتطيرهم منه وتأويلاتهم له بقرب وقوع فتنة مدمرة(٣) . غير أن الغريب في الأمر هو أن ابن الخطيب في كلا الموضعين ينص على أنه ينقل عن « المتين » بينما الأولى أن تكون هذه النصوص مستخرجة من كتاب « أخبار الدولة العامرية » . كذلك نلاحظ أن ابن بسام أورد كثيراً من الأخبار الخاصة بالعامريين دون أن يشير إلى عنوان كتاب ابن حيان الذي ينقل منه ، ولكن لابن سعيد نصاً صريحاً في أن كل ما أورده ابن بسام في كتابه من تاريخ ابن حيان فإنه من كتاب « المتين » . وابن سعيد نفسه يورد ترجمة لابن دراج القسطلي (ت ٤٢١-١٠٣٠) ناصاً على أنه ينقلها عن « المتين »(٤) مع أن المفروض هو أن تكون هذه الترجمة مأخوذة من « أخبار الدولة العامرية » إذ أن ابن دراج وإن كان قد لحق الفتنة وعاش بعدها نحواً من عشرين سنة فهو شاعر العامريين الأكبر وربيب دولتهم ومكانه أقرب إلى أن يوضع في الكتاب الخاص

(١) عن كتاب المسائر العامرية لحسين بن عاصم انظر رسالة ابن حزم في فضل أهل الأندلس ، في نفع الطيب للمقرئ ١٦٧/٤ ؛ ابن بشكوال : صلة ، رقم ٣٢٤ ؛ الحميدى جدوة ، رقم ٣٧٥ ؛ الضبي : بغية ، رقم ٦٥٠ ؛ ابن الأبار : تكلية ، رقم ٧٣ ؛ وانظر كذلك كتاب بونس بويجس عن المؤرخين والجغرافيين الأندلسيين ص ١٢٢ .

(٢) أعمال الأعلام ص ٨٤ - ٨٩ .

(٣) نفس المرجع ص ١٢٧ - ١٢٨ .

(٤) المغرب ٦٠/٢ .

بهذه الدولة من أن يجعل في كتاب « المتين » . وكل هذا يوحى بأن « أخبار الدولة العامرية » كان أقرب صلة إلى « المتين » وأشبه بأن يكون قسما منه . ولكننا مع ذلك نجد المقرئ ينقل عن ابن حيان ترجمة للشيخ أبي الوليد الفرضي وفيها قصة استشهاده على أيدي البربر سنة ٤٠٣ (١٠١٣) (١) والغريب في الأمر هو نص المقرئ على أنه ينقل هذا الخبر عن « المقتبس » ، مع أن ابن الفرضي قضى الشطر الأعظم من حياته في ظل الدولة العامرية وكان مصرعه في الفتنة التي أعقبت سقوط دولتهم .

على أن ابن الأبار يوفر علينا مثونة البحث والتخمين ، فهو يدلي لنا بإيضاح عظيم القيمة فيه تفسيرا لهذا الإضطراب الواقع بين المؤرخين ، وذلك إذ يقول في معرض الكلام عن غزوات المنصور بن أبي عامر :

« وغزواته في كل صائفة متصلة أزيد من خمسين ، عدما ابن حيان في كتابه الموضوع في أخبار الدولة العامرية ، وجعله لمن شاء خزله عن تاريخه الكبير أوضمه إليه » (٢) .

وقد يكون ابن حيان نفسه اضطرب في تحديد مكان تاريخه للدولة العامرية ، وذلك بحكم كون هذا التاريخ في مركز وسط بين تاريخ دولة بني أمية والفتنة التي أسفرت عن قيام ملوك الطوائف ، وباعتباره يعالج فترة تاريخية مستقلة قائمة بذاتها ، فاعتبره مرة نهاية للمقتبس ، ومرة أخرى بداية أو مقدمة للمتین ، ثم أفردته بذاته وجعل لقارئه الخيار في أن يضمه إلى حيث شاء من « تاريخه الكبير » .

أما الفترة التي يعالجها كتاب « أخبار الدولة العامرية » فن رأينا أنها تنحصر بين ولاية هشام المؤيد الخلافة سنة ٣٦٦ (٩٧٦) ثورة محمد بن هشام المهدي على العامريين في سنة ٣٩٩ (١٠٠٨) وإطاحته بهذه الأسرة التي ظلت خلال ثلث القرن الماضي مستبدة بالسلطة حاجبة عنها الخليفة الشرعي . وربما دل على صواب هذا التحديد أن ابن الخطيب يدرج فيما نقله عن كتاب « الدولة العامرية » ذكر بيعة هشام المؤيد وجلوسه على عرش الخلافة بعد وفاة أبيه الحكم المستنصر سنة ٣٦٦ (٣) .

(١) نفع الطيب ٣٣١/٢ .

(٢) الحلة السيرة ٢٦٩/١ .

(٣) أعمال الأعلام ص ٤٨ .

فإذا صح استنتاجنا هذا فإنه يكشف لنا بالضبط عن مادة الكتب الثلاثة التي تحدثنا عنها حتى الآن :

١ - « المقتبس » : ويتناول تاريخ الأندلس منذ الفتح العربي حتى آخر خلافه الحكم المستنصر (٩١ - ٣٦٦ - ٧١١ - ٩٧٦) .

٢ - « أخبار الدولة العامية » : منذ تولى هشام المؤيد الخلافة حتى ثورة المهدي ومصرع عبد الرحمن شنجول بن المنصور (٣٦٦ - ٣٩٩ - ٩٧٦ - ١٠٠٨) .

٣ - « المتين » : منذ الفتنة حتى قرب وفاة ابن حيان (٣٩٩ - ٤٦٣ - ١٠٠٨ - ١٠٧١) .

٤ - البطشة الكبرى :

في يوم الأحد لتسع بقين من شعبان سنة ٤٦٢ (أول يونية ١٠٧٠) وقع في قرطبة حدث ارتجت له الأندلس كلها . فإن المعتمد بن عباد - ولم يمض على تولية ملك إشبيلية إلا عدة شهور بعد وفاة أبيه المعتضد - استطاع أخيراً أن يستولى على قرطبة ، وأن تخطب منارها باسمه ، بعد أن استعصت على أبيه مع ضراوته وصرامته وتكرر محاولاته لافتتاحها . وكان ذلك بعد خدعة غادرة اعتدناها من أولئك الأمراء الصغار الذين لم يكن لهم هم في ضالة مطامعهم وضعة نفوسهم إلا أن يثب كل منهم بجيرانه محاولاً أن يقطع من مملكته ما يستطيع ، مع أن خطر الممالك المسيحية في الشمال كان يزداد ويستفحل مهدداً جميعهم بمحو سلطانهم وبمحسر ظل الإسلام عن الأندلس كلها ، وهم في معاركهم الصغيرة سادرون ، يظن كل منهم إذا انتزع من أحد جيرانه قرية أو حصناً أنه البطل المغوار الذي لا كفاء له . وكان هذا أمر قرطبة ، فقد كانت تعرضت لغزو المأمون ابن ذى النون الذي ضرب عليها حصاراً كثيفاً ، فبادر عبد الملك بن جهور إلى الاستنجاد بالمعتمد ابن عباد ، كما سبق أن ذكرنا عند الكلام عن أخبار الدولة الجمهورية ، ولكن جيش المعتمد لم يلبث أن غدر بابن جهور وخلعه عن رياسة قرطبة ، وأعلنت في المدينة الدعوة للمعتمد ، وتقرر نفي من بقي من بني جهور إلى شلطيث حيث مات عميدهم أبو الوليد بعد نكبتهم بأربعين يوماً .

وما كان هذا الحادث الجلل الواقع في قرطبة ليفوت قلم ابن حيان الذي سجل حتى الآن في كتاب « المتين » كل أحداث ملوك الطوائف . وهكذا قرر أن يختصه بكتاب مفرد اتخذ له هذا العنوان الروائي المعبر : « البطشة الكبرى » . ولا بد أن هذا الكتاب الذي ألفه ابن حيان وسنه تناهز الخامسة والثمانين هو آخر ما خطه قلم مؤرخنا الدؤوب الذي لم يعرف الراحة ولا الكلال .

ويقول ابن الخطيب في وصف هذا الكتاب : « وقد أفرد أبو مروان ابن حيان لهذه النكبة الجمهورية كتابا سماه « البطشة الكبرى » ، وكلامه فيه من لباب بلاغته » (١) ؛ أما ابن بسام فإنه يقول : « فصح عندي أنه وصف كيفية خلعهم وإخراجهم من قرطبة في جزء كبير سماه « البطشة الكبرى » في مجلد كبير لم يقع إلى وقت هذا التحرير » (٢) .

* * *

من هذه الكتب الأربعة التي تحدثنا عنها يتألف ما يعرف باسم « التاريخ الكبير » لابن حيان ، وهذا هو ما فهمه ابن حيان وفهمه معاصروه حين وضع هذه المجموعة من الكتب التي تضم بين أربعتها تاريخ الأندلس كله منذ الفتح العربي حتى قرب وفاة ابن حيان ، أي على طول أكثر من ثلاثة قرون ونصف قرن . وهذا هو الذي يفسر لنا أن معظم المؤرخين حينما ينقلون عن ابن حيان لا يهتمون كثيراً بأن يثبتوا أن النص المنقول ينتمي إلى هذا الكتاب أو ذاك ، وإنما حسبهم أن يقولوا إنه من « تاريخ » ابن حيان أو « تاريخه الكبير » .

ونحن نعتقد أن إنتاج ابن حيان يقف عند حد هذه الكتب التي يمكن أن يجمعها مؤلف واحد حافل كبير . ولا يضير ابن حيان في شيء ألا يكون قد كتب غيره .

أما الكتب الأخرى التي مازال كثير من الباحثين يصرون على نسبتها إلى ابن حيان فهي لا تخرج عن كونها أجزاء أو مقتطفات من « تاريخه الكبير » ، سواء أكانت من هذا أم من ذاك من الكتب الأربعة التي يتألف منها هذا التاريخ :

(١) أعمال الأعلام ص ١٥١ .

(٢) الذخيرة ق ١ - ١٢٩/٢ . وقد أضاف بروكلمان هذا الكتاب إلى ذيل تاريخه للأدب العربي في الحديث عن ابن حيان . انظر الجزء الأول ص ٥٧٨ . وهذه المناسبة نذكر أن الدكتور حسين مؤنس - في حاشية له تعليقا على النص الوارد في الحلة السيرة (٢٦٩/١) عن كتاب الدولة العامية لابن حيان - قال إن هذا الكتاب هو الذي يحمل عنوان « البطشة الكبرى » وإنه هو الكتاب الذي ينقل عنه ابن بسام في الذخيرة . وهذا غير صحيح من وجهين : أن كتاب « البطشة الكبرى » لا يمت بصلة إلى الدولة العامية ، إذ موضوعه هو نكبة بني جهور كما رأينا ، ثم إن ابن بسام يعترف صراحة بأنه لم يطلع على هذا الكتاب ، وقد كرر الأستاذ عبد الرحمن الحجي في تقديمه للقطعة التي نشرها من المقتبس هذا الخطأ (ص ١٤) ثم نسب إلى مغرب ابن سعيد وإلى كتاب تاريخ الفكر الأندلسي لجونثالث بالثيا - ترجمة الدكتور حسين مؤنس ، ولم يرد في هذين المرجعين أي شيء عن كتاب « البطشة الكبرى » ، ويقول الأستاذ الحجي في موضع آخر (ص ٩٥ حاشية ٢) إن « البطشة الكبرى » يمكن أن يكون أحد أجزاء المقتبس أو ملخصا له (كذا ١١) .

- (أ) فدوزى مثلاً ينسب إلى ابن حيان كتاباً بعنوان « تاريخ فقهاء قرطبة » (١) ، ونحن نجد فعلاً لدى المؤرخين التاليين لابن حيان ذكراً لهذا العنوان منسوباً إلى ابن حيان (٢) . وقد سلم لدوزى بهذا الرأي كل من جونثال بالثيا (٣) . وخرسية غومس (٤) ؛
- (ب) وينسب بونس بويجس (٥) إليه كتاب « انتخاب من أخبار القضاة » مستنداً إلى إشارات لابن الأبار في التكملة (٦) .
- (ج) وينسب بونس إليه أيضاً كتاب « الجمع بين كتابي القبشي وابن عفيف » معتمداً على إشارة لابن الأبار (٧) . وقد وافق خرسية غومس على إدراج هذين الكتابين الأخيرين في قائمة مؤلفات ابن حيان .
- (د) وينسب إليه بونس تهديداً لتاريخ أبي عمر بن عفيف من الواضح أنه هو نفسه الذي يدعى عند ابن الأبار (٨) « الجمع بين كتابي القبشي وابن عفيف » .
- (هـ) وسنضرب صفحاً عن كتب أخرى ثبت بطلان نسبتها إلى ابن حيان مثل كتاب « معرفة التابعين » الذي وضعه بونس بين مؤلفاته ونبه ملتشور أنطونيا من قبل إلى أن هذا خطأ مصدره ميخائيل الغزيري مفرس مخطوطات الإسكوريال العربية ، إذ اختلط عليه اسم المؤلف الحقيقي وهو ابن حبان البستي ، فصحف الاسم إلى ابن حيان (٩)

(١) انظر كتابه الجامع « الجامع لأخبار بني عباد » :

R. Dozy : Scriptorum Arabum Loci di Abbadidis, Leyden, 1846, I, p. 218.

- (٢) انظر ابن الخطيب : الإحاطة في أخبار غرناطة ، ط . القاهرة سنة ١٣١٩ هـ ، ١-٧ ؛ والطبعة المحققة بعناية الأستاذ محمد عبد الله عنان ٩١/١ ؛ السخاوي : الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ ، ضمن مجموعة الدراسات التي قام بها فرانز روزنتال Franz Rosenthal حول « علم التاريخ عند المسلمين » ، ترجمة الدكتور صالح أحمد العلي ، ط . بغداد سنة ١٩٦٣ ، ص ٦٣٧ من نص « الإعلان » الملحق بالدراسة .
- (٣) تاريخ الفكر الأندلسي ، ترجمة الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ٢٠٨ .
- (٤) في مقاله « حول ابن حيان » ص ٤٠٧ (= ١٣ من الفصل) .
- (٥) في كتابه عن المؤرخين والجغرافيين ص ١٥٣ .
- (٦) التكملة ، ط . كوديرا ، ص ٩١ ، و ط . ألكون وبالثيا ، مدرية ١٩١٥ ، ص ١٦٨ و ١٩١ .
- (٧) التكملة ، ط . كوديرا ، ص ٥٤٦ .
- (٨) الحلة السيرة ٢٠٦/١ .
- (٩) خرسية غومس : حول ابن حيان ص ٤٠٨ (= ١٤ من الفصل) .

ومن الواضح أن جميع الكتب السابقة التي تبدو حقاً لابن حيان مثل « تاريخ فقهاء قرطبة » أو « أخبار القضاة » أو « تهذيب تاريخ ابن عفيف » أو « الجمع بين كتابي القبشى وابن عفيف » كتب يمكن أن تكون شيئاً واحداً ، ونحن نقطع بأنها ليست كتباً مستقلة ، وإنما هي ما كان المؤلفون المتأخرون يستخرجونه من « تاريخ ابن حيان الكبير » الذى يتألف من الكتب الأربعة الرئيسية التى أشرنا إليها . وفات كثيراً من الباحثين أنه حينما يورد مؤلف مثل ابن الأبار عبارة مثل هذه فى سياق الترجمة لأحد الفقهاء أو القضاة : « . . . ذكره ابن حيان فى أخبار القضاة » أو « . . . فى تاريخ فقهاء قرطبة » فإنه لا يعنى كتاباً مفرداً لابن حيان يحمل هذا الاسم أو ذلك ، وإنما يقصد أنه تحدث عنه فى الفصول الخاصة بالقضاة أو الفقهاء فى ثنايا كتابه . كذلك الحديث عن تهذيب ابن حيان لكتاب ابن عفيف أو جمعه بين كتابي القبشى وابن عفيف ، فهذان ليسا كتابين مستقلين بذاتهما ، وإنما المقصود هو استضافة ابن حيان فى تاريخه الكبير لما دتاهما وتهذيبه أو تنقيحه لهما فى الفصول التى أفردتها مؤرخنا للفقهاء والقضاة من كتاب التاريخ سواء كان ذلك فى المقتبس أو المتين أو غيره .

ويكفي أن نضرب على ذلك مثلاً واحداً : يورد ابن الأبار ترجمة لأحد قضاة الجماعة بقرطبة هو على بن أبى بكر الكلابى المعروف بيوانش والمتوفى سنة ٢٣١ هـ ، ويختم هذه الترجمة بقوله « من كتاب ابن حيان فى أخبار القضاة » (١) ، وقد فهم بعض الباحثين من ظاهر النص - ولعل لهم عذراً فى ذلك - أن هذا عنوان كتاب ابن حيان ، غير أنه فى الحقيقة لا يعنى به إلا ما كتبه أبو مروان فى سيافه لأخبار القضاة من تاريخه . وكلام ابن الأبار هنا منقول برمته من الفصل الخاص بقضاة قرطبة أيام عبد الرحمن الأوسط بن الحكم من القطعة التى نقدم لها بهذه الصفحات من كتاب « المقتبس » . ومثل ذلك يمكن أن يقال عن بقية المواضع التى جاء فيها ذكر لما يوحى لأول وهلة بأنه « كتب » مستقلة لابن حيان .

والكتاب الوحيد الذى يمكن أن نقبل نسبته - مع بعض التحفظ - إلى ابن حيان فضلاً عن

(١) التكملة ، ط . الأراكون وبالنشيا ، رقم ٢٢٦٤ ص ١٩١ . وجدير بالذكر أن هذا النص بالذات كان من بين النصوص التى اعتمد عليها بونس بويجس وغرسية غومس فى الظن بأن لابن حيان كتاباً بعنوان « أخبار القضاة » أو « انتخاب من أخبار القضاة » .

« تاريخه الكبير » هو « الانتخاب الجامع لماثر بني خطاب » (١). وحتى هذا لا تقطع به ، إذ أن تعبير « الانتخاب الجامع » الوارد في العنوان يلقى ظللا من الشك على كونه كتابا مستقلا منفردا بذاته ، وهو يوحي بأن الأمر لا يخرج عن كونه مستخرجا من تاريخ ابن حيان الكبير قد يكون نفس المؤلف قام به ليهديه إلى أحد أعلام هذه الأسرة الشريفة التي توارثت الرياسة في مرسية . وقد يكون مؤلف آخر استصفى من تاريخ ابن حيان المواضيع الخاصة بأسرة بني خطاب ، فجمع بعضها إلى بعض ولفق منها كتابا صغيرا في مآثرهم وقدمه إلى بعضهم تقريبا وزلفى .

منهج ابن حيان في كتابة التاريخ :

حينما شرع ابن حيان في كتابة « تاريخه الكبير » بشطريه القديم والمعاصر تأمل مناهج الكتابة التاريخية التي اتبعها المؤلفون من قبله في المشرق والأندلس . فرأى بينها خلافا أدى إليه لإختلافهم في الثقافات أو ضروب الاهتمام : كان من بينهم من اتبعوا طريقة الحوليات أى الكتابة على ترتيب السنين ، وهو المنهج الذى سار عليه محمد بن جرير الطبرى في المشرق ، وفي الأندلس عريب ابن سعد والرازيان أحمد بن محمد بن موسى وابنه عيسى وغيرهم ، وهى طريقة لها مزاياها بغير شك ، إذ هى تضمن تسلسل الترتيب الزمنى ، ولكنها كثيرا ما تقطع وحدة الأخبار والأحداث ، وكان هناك من عاجلوا تاريخ الملوك والخلفاء على أساس أن يكتب عن دولة كل منهم على حدة ، وهو ما نلاحظه في تاريخ ابن القوطية ، وإلى حد ما في كتاب « أخبار مجموعة » ؛ وكان من بينهم من اهتموا بالتاريخ الثقافى مكتفين بمقدمات موجزة عن التاريخ السياسى ، وإلى هذا النوع تنتمى كتب الطبقات والتراجم مثل كتاب تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى ومن وصله أو ذيل عليه ، أو الذين قصروا اهتمامهم على الفقهاء أو القضاة ، مثل الحسن بن مفرج القبشى وابن عفيف وابن عبد البر والحشى ، أو على الشعراء والكتاب مثل عبادة الشاعر ابن ماء السماء أو سكن بن إبراهيم الكاتب .

وأنى ابن حيان فكرر نظره في كل هذه المناهج المختلفة ، فرأى أن بعضها يكمل بعضها ، وهكذا قرر - في طموحه النبيل إلى أن يكون أعظم مؤرخى الأندلس وأجمعهم - أن يستفيد من كل هذه المناهج ، حتى يصبح « تاريخه الكبير » أو عب ما كتب عن بلده حتى عصره .

(١) نص على هذا الكتاب ابن الأبار في التكلة ، ط . كوديرا ص ٢٨٠ ، وأشار إليه مرة أخرى إشارة هابرة

في الحلة السيرة ١١٨ / ٢ . .

ونظرة فاحصة إلى القطعة التي بين أيدينا اليوم تؤكد ما نقول ، وهي تتضمن آخر سنوات حكم الأمير عبد الرحمن الأوسط والجزء الأكبر من إمارة ابنه محمد ، وسنورد فيما يلي على ضوء استعراض هذه القطعة الخطوط العامة لمنهج ابن حيان في الكتابة :

يبدأ بعرض للأحداث المحيطة بتولى الأمير الحكم عرضاً مفصلاً ، ثم يعقبه بأحكام عامة على شخصيته وسيرته وأخلاقه وقيمة عمله ، مع ملاحظات دقيقة ثابتة تكشف عن قدرة عجيبة على التحليل النفسى العميق وعلى النظرة الشاملة . وبعد ذلك تأتي فصول طويلة يترجم فيها لرجال الدولة في عصر هذا الأمير من حجاب ووزراء ، ويورد في سياق ذلك حكايات وأخباراً طريفة تلتف من جفاف السرد التاريخي ، فضلاً عما تتضمنه من أخبار بالغة القيمة حول الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والعمرائية للبلاد . ثم يتكلم عن أفراد أسرة الأمير وعلاقاتهم به ويترجم لأعلامهم تراجم مفصلة يورد في أثنائها طائفة كبيرة من الرسائل والأشعار . وتلى ذلك أخبار عن العمران في عصر هذا الأمير وأهم منشآته المدنية والعسكرية ، وفي غضون ذلك ترد أخبار كثيرة تلتقى أضواء كاشفة على الطرز المعمارية والحياة الفنية . ثم يفرد فصولاً لأخبار العلم والعلماء في عصر الأمير المذكور موضحاً في لمسات قوية عامة حياة البلاد الثقافية خلال ذلك العصر ، ويترجم لأهم العلماء في مختلف ألوان الفكر ، ويختتم هذه المقدمات بقصص ونوادير مختلفة حول الأحداث الكبرى في عصر الأمير أو الدقائق الصغرى من حياة الناس اليومية .

وبعد هذه المقدمات التي كثيراً ما تحتل جزءاً كبيراً من الكتاب – وهي في القطعة التي بين أيدينا تصل إلى نصف الكتاب كله – يفصل الكلام عن الأحداث على نسق السنين ، فيسوقها حسب منهج الحوليات المعروف سنة بعد سنة ، فإذا رأى أن هذا التقسيم سوف يقطع وحدة الأحداث فلا بأس في أن يعدل عنه ، ويستطرد حتى يستكمل الموضوع الذي شرع في معالجته بصرف النظر عن التقسيم الزمني .

فإذا فرغ من ذلك أتى بنبد عامة يترجم فيها لأعيان أهل الدولة من حجاب ووزراء وكتاب وقواد وقضاة ، وهو يفصل هذه التراجم إلى حد يمكن معه أن يستخرج من كتابه التاريخي الكبير أجزاء كاملة خاصة بهذه الموضوعات الفرعية التي تدخل في باب تاريخ الطبقات .

ويتهى ابن حيان عمله بذكر الوفيات على ترتيب السنين سنة فسنة ، والنزاجم هنا متفاوت

طولا وقصرا ، فإذا عرض لشخصية سبق أن تحدث عنها بالتفصيل فإنه يكتب فيها بإشارة عابرة مقتضبة اعتماداً على ما سبق أن ذكره في الفصول السابقة ، وإذا لم يكن قد فعل فإن التراجم تكون في نهاية من الإسهاب والاستقصاء .

وهكذا نرى ابن حيان يستعين في تاريخه بكل المناهج التي استخدمها المؤرخون من قبله : ففيه النظرة الشاملة إلى كل أمير ، وفيه التاريخ « الداخلي » الذي لا يقتصر على كبريات الأحداث السياسية والعسكرية المرتبطة بالحكم ، وإنما يلقى ضوءاً على حياة الشعب العامة والخاصة وعلى أحواله الاجتماعية والاقتصادية ، وفيه التاريخ الثقافي والفكري ، وفيه سرد الأحداث بترتيب السنين ، وفيه التراجم المفصلة لرجال الدولة وطبقاتهم من حجاب ووزراء وكتاب وقضاة ، فضلاً عن أن فيه فصلاً تعتبر معاجم لتراجم العلماء من كل صنف .

على أن ابن حيان لم يخضع كتابته التاريخية لمنهج واحد يطبقه على كل ما يكتب ، بل كان من المرونة وسعة الأفق بحيث يستخدم لكل حقبة ما يلائمها . فنحن نجد مثلاً أنه في الجزء الذي أفرده للأمير عبدالله بن محمد يختص الثوار والمنزّين في النواحي والأطراف بأخبار مفصلة عن أولياتهم وسير حياتهم وأحداث ثوراتهم . وقد اقتضت ذلك طبيعة الموضوع نفسه ، ونجده في الجزء الخاص ببعض سنوات خلافة الحكم المستنصر يفيض إفاضة واسعة في أخبار السفارات القادمة إلى سدة هذا الخليفة والحفلات والعروض المقامة لاستقبال أولئك على نحو أولاه عناية عظيمة ، وهذا يرجع إلى الاهتمام الخاص الذي كانت الخلافة الأموية في هذا العصر تنظر به إلى هذه السفارات ، ثم إلى المادة الوافرة الخصبية التي تهبأت لابن حيان حول هذا الموضوع وحول تلك السنوات بصفة خاصة ، حتى إن التاريخ هنا يصبح مرتباً لا على السنين ، وإنما على الشهور ، بل كثيراً ما نراه يتابع السرد للأحداث يوماً بيوم .

وهذا الكلام الذي تحدثنا به عن منهج ابن حيان في الكتابة ينسحب أكثر ما ينسحب على كتابي المقتبس وتاريخ الدولة العامرية ، حينما كانت هناك سلطة مركزية واحدة تخضع لها البلاد ، ويمكن أن تتخذ محوراً ثابتاً يجرى الحديث حوله ، حتى مع وجود بعض الثورات ومظاهر التمرد الداخلية . أما في تاريخ ابن حيان لعصر ملوك الطوائف حينما زالت تلك السلطة المركزية وخلفتها حكومات دويلات صغيرة متناثرة هنا وهناك فقد رأى ابن حيان نفسه مضطراً إلى استخدام

منهج مفاير . ولسنا نعرف هذا المنهج على وجه التحديد ، إذ لا تسمح بذلك القطع التي وصلتنا من هذا الكتاب بفضل المؤرخين المتأخرين ، ولا سيما ابن بسام في « الذخيرة » . ولكن الخطوط العامة توحى بأن ابن حيان قد جرى فيه على أن يطبق على الأندلس تقسيماً إقليمياً سياسياً ، فيفرد لكل دولة من دول الطوائف فصلاً يتبع فيه تاريخ الدولة منذ نشأتها حتى عصره مرتباً الأحداث ترتيباً زمنياً ، مع الاهتمام — كشأنه في سائر كتابته التاريخية — ببيان الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والعلاقات المتشابكة بين تلك الدويلات بعضها ببعض ، والترجمة لرجال كل دولة وطبقات علماء وفقهائها وقضاها وكتابها وشعراها .

مصادر ابن حيان :

كان ابن حيان عميق الشعور برسائله ، مدركاً لقيمة عمله تمام الإدراك ، واعياً للمنهج السليم الذي ينبغي لمؤرخ من مستواه أن يتبعه . ولهذا فقد اجتهد في أن يجمع أكبر عدد من المصادر ، تنوعت بتنوع الموضوعات التي عاجلها في تاريخه منذ الفتح الإسلامي للأندلس حتى عصره .

(١) مصادر « المقتبس » :

ونلاحظ بوجه عام أن مصادر ابن حيان خلال العصور التي لم يدركها أي منذ الفتح العربي للأندلس حتى الدولة العامرية — وهي موضوع كتاب « المقتبس » — كانت تقوم قبل كل شيء على كتب من سبقه من المؤرخين .

ولن نعني أنفسنا هنا باستعراض الكتب التي رجع إليها ابن حيان في « المقتبس » ، فقد سبق لغيرنا من الباحثين أن اجتهدوا في دراسة مصادر القطعتين اللتين كانتا معروفتين من هذا الكتاب قبل أن نوفق إلى العثور على القطعة الثالثة التي نقدمها بهذه الصفحات . ونعني بهما مخطوطة أوكسفورد الخاصة بعصر الأمير عبدالله بن محمد ، ومخطوطة المجمع التاريخي الملكي بمديرية التي تتناول بضعة سنوات من خلافة الحكم المستنصر . فقد عنى الراهب الإسباني ملتشور أنطونيا في رسالته التي أسلفنا الإشارة إليها بتقديم عرض مفصل لمصادر ابن حيان في القطعتين المذكورتين (١) صحيح أن هذا البحث قد قدم به العهد ، ثم إن الدراسات الأندلسية أحرزت تقدماً كبيراً منذ أن

(١) ابن حيان القرطبي وتاريخه ص ٣٤ - ٦٣ ، وقد أورد أنطونيا موجزاً للفصل الخاص بمصادره وضمت المقدمة

الفرنسية التي صدر بها طبعته لمخطوطة أوكسفورد المتعلقة بالأمير عبد الله ، باريس سنة ١٩٣٧ ، ص ١٤ - ١٨ .

أعد أنطونيا رسالته في سنة ١٩٣٣ وإن كان نشرها قد تأخر حتى سنة ١٩٤٦ ، فأصبحنا نعرف عن أولئك المؤلفين أضعاف ما كان يعرف الراهب الإسباني ، مما يجعل بحثه كله مستحقا لإعادة النظر (١) . غير أننا نرى قلة الجدوى من مثل هذا البحث ، فهو لن يزيدنا شيئا على النتيجة التي نجمل خلاصتها هنا ، وهي أن ابن حيان بحسه التاريخي الدقيق قد عرف كيف يستفيد من جميع الكتب السابقة مستصفا أقيم ما فيها من مادة تاريخية .

ويكنى هنا أن نعرض - مجرد عرض - أسماء المؤلفين أو الرواة الذين رجع إليهم ابن حيان في القطع الثلاث التي نشرت حتى الآن من المقتبس - بما فيها قطعنا - :
من الأندلسيين : محمد بن وضاح ، فرج بن سلام البزاز ، ابن الأشعث القرشي الإشبيلي ، يحيى بن إسحاق الطيب ، ابن عبد ربه ، إسحاق بن سلمة القيني ، ابن النظام ، سكن بن إبراهيم الكاتب ، محمد بن موسى الأقيشتين الكاتب ، ابن عبد البر ، منذر بن سعيد البلوطي ، معاوية ابن هشام الشيبيني ، عريب بن سعد ، أحمد بن موسى الرازي وابنه عيسى ، الحكم المستنصر ، ابن القوطية ، الزبيدي ، محمد بن حارث الحشني ، ابن الفرضي ، صاعد البغدادي ، عبادة بن ماء السماء الشاعر ، الحسن بن محمد بن مفرج القبشي ، الفقيه أبو محمد ابن حزم .

ومن الغرباء : محمد بن يوسف الوراق القيرواني (وإن كان ابن حزم يعده أندلسيا لمولده بالأندلس ووفاته بها) ، وأبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الجزار القيرواني .

ومعظم كتب هؤلاء الذين ذكرنا في عداد المفقودة اليوم ، فلا بن حيان إذن فضل الاحتفاظ لنا بكثير من مادتها التاريخية المندثرة .

على أن ابن حيان في استقصائه لكل المصادر الممكنة كان يجتهد في الإطلاع على بعض وثائق الدولة . نرى ذلك مثلا في تسجيله للبيان الذي أصدره الحكم بن هشام بعد ثورة الربض المشهورة

(١) هذا فيما يتعلق بمصادر القطعتين المذكورتين ، أما مصادر ابن حيان في القطعة التي نقدمها هنا فقد استوفينا في تعليقاتنا الملحقة بالنص دراسة مفصلة للمؤلفين الذين رجع إليهم صاحب « المقتبس » ولكتبهم ومطاب ترحماتهم بما يفنى من تكراره هنا .

سنة ٢٠٢ (٨١٨) (١) ، ولتفاصيل الهدية التي رفعها ابن شهيد للخليفة عبد الرحمن الناصر (٢) ، والهدية التي أهديت للحكم المستنصر يوم ولايته (٣) ، والمعلومات الإحصائية الدقيقة التي أوردتها عن بناء الناصر لمدينة الزهراء سنة ٣٢٥ (٩٣٧) (٤) . غير أنه من المحتمل جدا أن يكون ابن حيان قد نقل هذه الوثائق عن كتب المؤرخين الذين سبقوه ، وإن كان من الجائز أيضا أن يكون أبوه خلف بن حسين كاتب المنصور قد احتفظ لنفسه بنسخ من بعض الوثائق القديمة من سجلات الدولة تهيأت له بصورة أو بأخرى أثناء عمله في ديوان السلطان (٥) . ففى الكلام عن بناء مدينة الزهراء نجد ابن حيان - فيما ينقله عنه المقرئ - يقول : « ألفت بحظ ابن دحون الفقيه : قال مسلمة ابن عبد الله العريف المهندس : بدأ عبد الرحمن الناصر بعمارة الزهراء سنة ٣٢٥ . . . » ، ثم يمضى فى ذكر معلومات إحصائية دقيقة عما كان ينفق فى هذه العمارة من مواد البناء ، وما كان يستخدم من الدواب ، وغير ذلك . فنحن لا نعلم إن كانت هذه الوثيقة التي نقلها ابن دحون عن أحد مهندسى الزهراء مما ضمن فى بعض الكتب التي رجع إليها ابن حيان أو كانت مفردة قائمة بذاتها ثم اطلع عليها ابن حيان بشكل أو بآخر .

(ب) مصادر « أخبار الدولة العامية » و « المتين » :

أما فى هذين الكتابين - ويمكن أن نلحق بهما كتاب « البطشة الكبرى » الذى فقد ولم يبق له أثر - فإن مصادر ابن حيان قد اختلفت تماما عن مصادره فى « المقتبس » ، فنحن هنا لا نكاد

(١) أشار لى بروفنسال فى تاريخه للأندلس (١٦٥/١ - ١٦٦) ، والهاشية رقم ١ (إلى هذا البيان قائلا إنه ورد فى القطعة التي كانت لديه من « المقتبس » والتي لا تعرف لها اليوم مستقرا .
E. Lévi-Provençal : Histoire de l'Espagne Musulmane, ed. Paris-Leiden, 1950, I, pp. 165-166.

(٢) المقرئ : نفع الطيب ٣٣٣/١ وما بعدها .

(٣) نفس المرجع ٢٥٨/١ - ٣٥٩ .

(٤) نفس المرجع ٦٧/٢ - ٦٨ .

(٥) نظن أن هذا هو السبيل الممكن لكى يطلع ابن حيان على بعض وثائق الدولة ، لا كما ذكر ملتشور أنطونيا فى دراسته عن ابن حيان (ص ٢٧) من أنه كان « يكف على وثائق دار المحفوظات فى القصر الملكى خلفاء بنى أمية » . وقد سبق لغرسية غومس أن أنكر هذا الرأي (حول ابن حيان ص ٤١٤ = ٢٠ من الفصل) . والحق أن رأى أنطونيا يبدو لنا ضربا من الإغراق فى الخيال ، وإلا فيعلم الله أين ذهبت « دار المحفوظات » هذه وما فيها من وثائق أثناء موجات التدمير العارمة التي عصفت بقرطبة وقصورها الملكية منذ سنة ٣٩٩ (١٠٠٨) وسن ابن حيان حينئذ فوق العشرين بقليل .

نجده يرجع إلى كتاب . وما كان في حاجة إلى ذلك ، فذكريات الدولة العامرية كانت لا تزال طرية في الأذهان ، بل إنه هو نفسه قد أدرك طرفا من الدولة التي كان أبوه أحد رجالاتها ، ولهذا فلعل أهم مراجع ابن حيان في تسجيل أخبار العامريين إنما كان أبوه خلف بن حسين كاتب المنصور المقرب إليه الخطي لديه . وقد أمدّه أبوه فعلا - كما سبق أن رأينا عند الحديث عنه في أول هذا التقديم - بطائفة كبيرة من الذكريات التي كان يملئها عليه . ولكن ابن حيان لم يكتف بما نقله عن أبيه ، بل استعان أيضا بغيره من كتاب المنصور . فنحن نجد فيما ينقله ابن الخطيب في « أعمال الأعلام » مجموعة من أقيم الوثائق كتب بها إليه بعض زملاء أبيه في العمل . فنحن نقرأ في بعض هذه المواضع : « كتب إلى أبو القاسم محمد بن مرشد أحد بقايا وجوه الكتاب المستأخرين المتمتعين بالنظر والمعرفة على كبر السن معرّفا بأشياء سألته عنها من هذا الباب سنة ٤٣٦ هـ أثبتنا نقلا من كتابه ، وهي : . . . الخ (١) » ، ثم يثبت معلومات دقيقة عن مبلغ الجباية في أيام المنصور ابن أبي عامر ووجوه النفقات . وينقل ابن حيان وثائق أخرى مما كتب به إليه أبو محمد عبدالله ابن مروان « آخر حذاق كتاب المحاسبة اليوم ومن لحق طرفا من تلك الدولة (٢) » حول حاصل الأطعمة في الأهرام عند شروع المنصور في غزوة برشلونة سنة ٣٧٤ (٩٨٤ - ٩٨٥) ؛ وكذلك أبو عبد الله بن سعيد التجاني (٣) حول عدد صنوف الجنود العامريين من مختلف طبقاتهم وأنواع عددهم وأسلحتهم . . . الخ ؛ والميزاني الكاتب (٤) حول أحوال الخطب التي كانت تدخل قرطبة وقيمة ما كان يباع بها من السمك المملوح المسمى بالسردن خاصة . . . الخ .

وأما كتاب المتين فقد تعددت فيه مصادر ابن حيان وتنوعت تنوعا كبيرا ، فكان من أولها مشاهداته هو التي سبق أن عرضنا لها في الكلام عن سيرة حياته ، فإذا غاب عليه شيء عمد إلى استكمالها ممن رأوا الأحداث وشهدوها ، بل واشتركوا فيها في كثير من الأحيان . وقد تبين لنا أن من أهم من أمدوا ابن حيان بكثير من أخبار الفتنة البربرية ورأوا رأي العين الفقيه أبو المطرف عبد الرحمن بن محمد بن عون الله بن حدير القرطبي الذي تكرر نقل ابن حيان عنه على طول سرده الغني بالتفاصيل خلال السنوات القليلة الحافلة بالأحداث والمنحصرة بين سنة ٣٩٤ (١٠٠٤)

(١) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ص ٩٨ .

(٢) نفس المرجع ص ٩٩ .

(٣) نفس المرجع ، ص ٩٩ - ١٠٤ .

(٤) نفس المرجع ص ١٠٤ .

و ٣٩٩ (١٠٠٩) ، وهي التي انتهت بمصرع عبد الرحمن (شنجول) بن المنصور العامري (١) .
وقد كان هذا الفقيه على ما نرى مسجلاً دقيقاً للأخبار قوى الملاحظة ، وكان قد لحق هذه الفتنة
وسلم منها وطال عمره بعدها (٢) . كذلك نقل ابن حيان كثيراً من أخبار الفتنة عن صديقه وصديق
أبيه الكاتب أحمد بن برد الذي عمل لكثير من خلفاء الفتنة المتعاقبين (٣) ، وعن صديقه الشاعر
الوزير أبي الوليد بن زيدون الذي أمده بخبر قصة وقعت بين حبوس بن ماكسن الصنهاجي ملك
غرناطة ومحمد بن عبد الله البرزالي (٤) ، وبخبر آخر يروي عن ابن زيدون عن ابن الباجي كاتب الرسائل
في تصوير شخصية أبي جعفر أحمد بن عباس وزير زهير الصقلبي صاحب المرية (٥) .

وكانت لابن حيان صداقات متينة تربطه ببعض العلماء والوجهاء الذين كانوا يعيشون في مختلف
مدن الأندلس ، ويبدو أنه كان يكلفهم بتتبع الأخبار الواقعة في بلدانهم ، فإذا قدموا إلى قرطبة لبعض
شؤونهم اجتمع بهم وأخذ من أحاديثهم ما يستكمل به تاريخه حول أمصار الأندلس وأخبارها .
وقد احتفظ لنا ابن حيان بأسماء الكثيرين من هؤلاء ، نذكر منهم أبا بكر الرشتشاني الفقيه الذي
عنه أخباراً مهمة حول باديس بن حبوس الصنهاجي ملك غرناطة (المتوفى سنة ١٠٧٣/٤٦٥) (٦) ،
وذلك بمناسبة فتك المعتضد بن عباد بأبي نصر بن أبي نور القرطبي أمير رندة ، واهتياج عصبية

(١) انظر ابن عذاري : البيان المغرب ١٠/٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ٣٢ ، ٣٩ ، ٤٦ ، ٦٢ ، ٦٦ ، ٦٨ ، ٦٩ .
وقد ورد الاسم في بعض المواضع محمد بن عون الله ، ويبدو أنه خطأ من ابن عذاري .
(٢) انظر ترجمة ابن عون الله في ابن بشكوال : الصلة ، رقم ٧٠٧ (وهو يعتمد فيها على ابن حيان) ، وقد جاء
فيها أنه ولد سنة ٣٥٧ ورحل إلى المشرق في سنة ٣٧٨ ، فلق عدداً كبيراً من الشيوخ في القيروان ومصر ومكة ، ثم عاد
إلى قرطبة فأصبح أحد العدول المشاورين . وكان فاضلاً ناسكاً ، وولى إمامة الصلاة في مسجد عبد الله البلنسي ، وتوفى
سنة ٤٤١ عن أربعة وثمانين عاماً .

(٣) ابن بسام : الذخيرة ق ١ - ١٠٥/١ .

(٤) نفس المرجع ق ١ - ١٠٤/١ - ٤٠٥ .

(٥) نفس المرجع ق ١ - ١٧٦/٢ - ١٧٧ .

(٦) ابن الخطيب : الإحاطة بتحقيق الأستاذ عنان ، ص ٤٤٥ وما بعدها . أما أبو بكر الرشتشاني - وقد ورد
في نص الإحاطة المذكور « الوسنشاني » وهو تحريف - فقد ترجم له ابن بشكوال في الصلة (رقم ١٤٧٧) فقال إنه يحيى
ابن عبد الله بن أحمد النافق القرطبي ، رحل إلى المشرق ، وأخذ عن شيوخ مصر ، ثم عاد فكتب لبعض قضاة قرطبة ، وتوفى
سنة ٤٧٤ (١٠٩١) .

باديس لعشيرته من البربر وعزمه على الإيقاع برعيته من أهل الأندلس . وينقل الرشتشاني هذا الخبر عن « ثقة له من أصادقة التجار » كان حضر مدينة غرناطة عند وقوع تلك الحادثة .

ومن هؤلاء الذين اعتمد عليهم ابن حيان شخصيات لم تتمكن من التعرف عليها . ولكنهم كانوا على كل حال في غاية من دقة التصوير لما يشاهدونه . نذكر منهم القرشي المعروف بالقط (ويبدو أنه كان من سلالة الأسرة الروانية التي انقرض ملكها (١)) ، وينقل عنه ابن حيان خبراً يرويه بدوره عن بلقين بن حبوس الصنهاجي أخى باديس ملك غرناطة حول مصرع الوزير أبي جعفر أحمد بن عباس ومخدومه زهير الفتي صاحب المرية على يد باديس وبرارته الصنهاجين سنة ٤٢٧ (١٠٣٦) (٢) . ومنهم أبو الفتح البرزالي الذي يروي عنه ابن حيان خبر مقتل يحيى المعتلى بن علي بن حمود . وجدير بالذكر أن أبا الفتح هذا هو ابن عم محمد بن عبدالله البرزالي صاحب قرمونة وحليف إسماعيل بن عباد ، وكان كلاهما قد اشترك في إلحاق الهزيمة بيحيى المعتلى على باب قرمونة سنة ٤٢٧ (١٠٣٦) . ولنا أن نتصور مدى دقة هذه الرواية التي يثبتها ابن حيان إذا ذكرنا أن أبا الفتح البرزالي صاحبها كان شاهد عيان لكل ما وقع ، بل إنه اشترك بنفسه في أحداث المعركة التي انتهت بمقتل يحيى الحمودي (٣) . ومنهم أبو أمية بن هاشم القرطبي الذي يصفه ابن حيان بأنه « كان من وجوه من خرج عنا أيام الفتنة واستوطن ثغر تطيلة ، وما رأيت مثله في أولى البيوتات فضلا » . وقد أمد أبو أمية هذا مؤرخنا بخبر بالغ القيمة حول اجتياز شانجه ابن غرسية قومس قشتالة (Sancho García, Conde de Castilla) بباب تطيلة في أول أيام منذر بن يحيى التجيبي صاحب سرقسطة للاجتماع بالقومس ريمند ، صاحب برشلونة (Ramón Berenguer, Conde de Barcelona) لعقد المصاهرة بينهما (٤) . وكان شانجه

(١) إنما نقول ذلك لأن لقب « القط » كاهه شائعاً على بعض الروانيين لقب به أكثر من واحد (انظر ابن حزم : جهرة أنساب العرب ، بتحقيق الأستاذ عبد السلام هارون ، الطبعة الثانية ص ٩٧ ، ٩٩) . أما نسبه « القرشي » فإننا نلاحظ أن الروانيين بعد انهيار خلافتهم وإعلان الناس بالكراهية لهم قد عملوا على تسمية نسبهم المرواني أو الأموي ، وأصبحوا لذلك يدعون أنفسهم بالقرشين .

(٢) ابن بسام : الذخيرة ق ١ - ١٧١/٢ وما بعدها .

(٣) ابن بسام : الذخيرة ق ١ - ٢٧١/١ وما بعدها ؛ ابن عذاري : البيان المغرب ٣/١٨٨ .

(٤) ابن بسام : الذخيرة ق ١ - ١٥٤/١ - ١٥٦ .

عند اجتيازه بتطيلة قد أرسل يستدعى قوما من أعيانها لكي يشرح لهم سبب مروره ويسألهم تأمين مسيرته عبر بلاد المسلمين ، فكان أبو أمية نفسه من بين أعضاء الوفد الذي توجه للاجتماع به ومخاطبته . وفي الخبر تصوير شاهد عيان حريص على تسجيل كل شيء ، فهو يصف مضرب شانجه وعدة عساكره ومجلسه « وهو جالس على مرتبته عليه ثياب من ثياب المسلمين ورأسه مكشوف أصلع كهل لم يغلب عليه الشعب . . . الخ » ، بل إن فيه معلومات في نهاية الدقة عن صفات القومس المسيحي وخلالها بحيث تعين على رسم جوانب شخصيته بما يتفق مع ما انتهت إليه الأبحاث الطويلة التي قام بها المؤرخون الإسبان المدققون لهذا الأمير وعصره .

وفي بعض الأحيان لا يذكر ابن حيان اسم راوى الخبر ، غير أن لنا أن نثق في صدقه وتحريه الحقيقة . فمن ذلك قوله في الكلام عن موكب مبارك ومظفر الصقليين المنتزين على بلنسية بعد الفتنة : « حدث من رأى مركب هذين العبدین الزلمتين في بعض أيام الجمع للمسجد الجامع ببلنسية بما أنسى مركب المظفر عبد الملك بن أبي عامر مولاهما » ، ثم يفصل وصف هذا الموكب ، ويختم الخبر بقوله : « قال لي المحدث : وكنيت أعرفها عبدي مهنة لمولاهما مفرج العامرى . . . » إلى آخر الخبر (١) .

ويأتى بعد ذلك نوع آخر من مصادر ابن حيان ، وهو المكاتبات التي كانت ترد إليه من أصدقائه و « مكاتبيه » في هذه المدينة أو تلك من مدن الأندلس . ومن أمثلة هذه المكاتبات ذلك الخطاب الطويل الذي وجه به إلى ابن حيان صديقه ابن جابر الأديب في وصف الإعدار الذنوني المشهور في طليطلة سنة ٤٥٥ (١٠٦٣) . ويبدو أن ابن حيان كان يطلب إلى من يكاتبه أن يستبلغ في الوصف ويورد كل التفاصيل الممكنة ، وذلك حتى يتفق ما يورده من مخاطباتهم مع متهمه في الاستقصاء إلى أبعد درجة . وفي خطاب الأديب ابن جابر الذي اعتمد عليه أبو مروان مثل طيب على ذلك ، إذ فيه وصف للحفل من التفصيل بحيث نكاد نراه (٢) .

على أننا نلاحظ أن ابن حيان في كل ما ينقله إما شفاها أو كتابة من أصدقائه ومكاتبيه

(١) ابن بسام : الذخيرة ق ٣ (مخطوطة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد) ورقة ١١٤ ؛ ابن عذارى : البيان المغرب ١٦١/٣ - ١٦٢

(٢) ابن بسام : الذخيرة ق ٤ - ١ - ٩٩ - ١٠٦ .

حول هذه الأخبار لم يكن يثبت ما يقولون بحرفه - كما لم يثبت نصوص من سبقه من المؤرخين بلفظها في «المقتبس» - ، بل كان يعيد كتابته بأسلوبه ، ولهذا فإننا نجد الأسلوب على طول تلك الروايات وتعدد مصادرها مستويا متسقا يتفق مع خصائص كتابة ابن حيان ونثره الذي لم يقلد فيه أحداً ولا استطاع أحد أن يقلده . وكان أبو مروان لا يشترط على محدثيه أو مكاتبه إلا صدق الرواية وتحري الحقيقة ، أما الباقي فن شأنه هو . ولا يمكن أن نتصور أن النصوص المنسوبة إلى أولئك الرواة - وكان بينهم فقهاء متوسطو العلم وتجار وقواد من البرابرة وأصحاب شرطة وغيرهم ممن لا يفترض فيهم سمو ثقافة ولا جودة أسلوب - نقول إن هذه النصوص لا يمكن أن تكون من صنع أولئك الرواة ، وإنما أخذ ابن حيان رواياتهم فأعاد صياغتها وفقاً لأسلوبه هو ومنهجه ، تماماً كما تفعل اليوم دور الصحف الكبرى حينما يقوم فيها كتاب مجيدون بإعادة تحرير ما يكلف باعداده المحققون الصحفيون والمراسلون ممن لا يشترط في عملهم إلا تحري الحقيقة والتدقيق في التفاصيل . ولدينا على ما نقول عن ابن حيان نص صريح يعلق به هو نفسه على خطاب الأديب ابن جابر المذكور ، فيقول :

« هذا آخر خطاب ابن جابر إلى بوصف ذلك الإعدار ، وجمله التي بسطتها من إدماجه وسبكتها من نقده » (١) .

فهو إذن لا ينقل رسائل مكاتبه كما ترد إليه ، بل يتخير منها و « يبسط من مدجها ويسبك من نقدها » أي أنه يجرى قلمه فيها بتصرف كثير ، فيحتفظ منها بكل ما هو مفيد من التفاصيل التي يعرف بحسه التاريخي المرفه أنها مفيدة ويحذف منها ما يراه ، كما سينص بعد ذكر رسالة ابن جابر على أنه حذف مما اشتملت عليه من الأشعار ما رأى ألا قيمة له . وهكذا يقدم ابن حيان لنا بعد ذلك من كل هذه الروايات . . . نصوصاً « حيانية » خالصة .

* * *

ونأتي أخيراً إلى مناقشة مسألة كان المستشرق الكبير راينهارت دوزي أيضاً أول من أثارها . ومجملها أن متأمل الأخبار التي يوردها ابن حيان سواء في «المقتبس» أو في «المتين» يهوله ما يرى فيها من معرفة مؤرخنا الدقيقة بكل ما يتعلق بإسبانيا المسيحية وممالكها وأمرائها وأنسابهم وسنوات

(١) نفس المرجع ، ص ١٠٦ .

حكيمهم ووفياتهم وأحوال بلادهم الداخلية . بل هو يقدم لنا أحيانا بعض الأخبار عن تاريخ إسبانيا على عهد الرومان ، مثل كلامه عن أكتيانيان Octavianus ثانياً قياصرة الروم ومبانيه في الأندلس (١) ؛ وتاريخ قنطرة قرطبة التي بنيت قبل الفتح العربي بنحو مائتي سنة (٢) ؛ وعن المائة المنسوبة إلى سليمان النبي بن داود ، ونذكر بهذه المناسبة أنه يبدو هذه الخرافة الشائعة ويورد التفسير المنطقي التاريخي الوحيد الذي يمكن قبوله حول هذه المائة ؛ وعن لذريق آخر ملوك القوط ونسبه ، وأنه لم يكن من أبناء الملوك ولا صحيح النسب في القوط (٣) ، وعن قصة بنت يليان ، وغدر أصحاب لذريق به في موقعة وادي بكة التي هزم فيها أمام المسلمين (٤) ، وعن فتوح المسلمين في شمال الأندلس وامتدادهم إلى الأرض الكبيرة (فرنسا) ، كل ذلك مسجلاً في دقة بالغة (٥) ؛ وفي ذكر ما استرده الملك النصراني فرويله (Frúela) من المسلمين في الفتنة التي سبقت ووافقت مقدم عبد الرحمن بن معاوية الداخل وحروبه مع يوسف بن عبد الرحمن الفهري (٦) .

وفي القطعتين المنشورتين من كتاب «المقتبس» من التفاصيل الدقيقة حول أخبار إسبانيا المسيحية ما جعل مؤرخي إسبانيا في العصور الوسطى يعكفون عليهما عكوف من عثر على كنز ثمين ، فيستخرجون منهما ما صحح كثيراً من الأخطاء الشائعة المتناقلة في التواريخ القديمة ويزيد صورة التاريخ الإسباني بشطريه الإسلامي والمسيحي جلاء وبيانا .

أما القطعة التي نقدمها الآن من المقتبس فسيري القارئ فيها من التأريخ الدقيق لإسبانيا المسيحية بمختلف ممالكها ، بل وكذلك لجوانب من التاريخ الفرنسي القديم ، ما يعتبر اكتشافاً جديداً لا كفاء لقيمته . بل إننا نقدم من الآن حكماً علينا تبعته ولا نظننا نبعده فيه عن الصواب ، وهو أن ابن حيان ينبغي أن يجعل في طليعة من يرجع إليهم عند الحديث عن تاريخ إسبانيا المسيحية حتى أواخر القرن العاشر الميلادي ، ولا مناص أبداً من جمع أخباره وتفصيلها ودراستها قبل إصدار أحكام قاطعة حول ذلك التاريخ . وأذكر بهذه المناسبة أن صديقي العالم الإسباني الكبير الأستاذ كلاوديو سانتش ألبرنوث (Claudio Sánchez Albornoz) عميد الاستشراق في الأرجنتين ومدير «معهد تاريخ الثقافة الإسبانية في العصور الوسطى» كان قد علم بأنني أزمع نشر هذه القطعة

(١) المقتبس كما ينقل عنه المقرئ في النسخ ٢/٢٦ ؛ (٢) نفس المرجع والصفحة .

(٣) نفع الطيب ١/٢٣٢-٢٣٣ . (٤) نفس المرجع ١/٢١٦-٢١٧ .

(٥) نفس المرجع ١/٢٥٥-٢٥٦ . (٦) نفس المرجع ١/٣٠٩ ؛

من المقتبس وطلب إلى أن أبعث إليه ببعض ما تضمنته من أخبار حول إسبانيا المسيحية ، فبعثت إليه ما طلب ، وكان يقوم بإعداد دراسة جديدة شاملة حول إسبانيا في القرن التاسع الميلادي ، فلما تلقى ما بعثت به إليه من مادة كتب إلى يقول : إنه رأى من التسرع أن يصدر دراسته الموعودة قبل أن تصدر هذه القطعة من المقتبس ، وهكذا قرر أن يؤجلها حتى تتاح له الفرصة لقراءتها والاستبلاغ في تقصي فوائدها واعتصار مادتها .

أما المتين فان القطع التي عرفت منه عن طريق « الذخيرة » لابن بسام قد أعانت كذلك على تصحيح كثير من أخطاء كتاب المدونات المسيحية واستنتاجات الباحثين المحدثين حول بعض الأحداث الواقعة خلال القرن الحادي عشر الميلادي . ويكفي أن نشير إلى مثلين نجزيهما للدلالة على ما نقول : الأول هو خبر المصاهرة التي تمت بين ابن ريمند قومن برشلونة (Ramón Borrell III) وابن شانجه قومن قشتالة (Sancho García I) ، وذلك بزواج ابن الأول وولي عهده برنجار بن ريمند (Berenguer Ramón) من شانجه Sancha ابنة الثاني . وقد أعدت هذه المصاهرة - كما تبين من نص ابن حيان المنقول في « الذخيرة » (١) - في سرقسطة وبتدبير من منذر بن يحيى التجيبي ملك الثغر الأعلى . وكان الذي استقر في أذهان الباحثين منذ قديم أن هذا الزواج تم بين ابن قومن برشلونة وابنة قومن غشقونية Gascogne (في جنوب غربي فرنسا) ، حتى اكتشف دوزي نص ابن بسام في مخطوطة الذخيرة (ولم تكن قد نشرت بعد) ، فصحح ذلك الخطأ الشائع (٢) ، وأنت بعد ذلك شواهد جديدة تؤكد رأى دوزي بعد اكتشاف مزيد من النصوص الأندلسية (٣) .

(١) الذخيرة ق ١ - ١٥٤/١ - ١٥٥ .

(٢) دوزي : أبحاث حول تاريخ إسبانيا وأدبها في العصور الوسطى :

R. Dozy : Recherches sur l'histoire et la litterature de l'Espagne pendant le Moyen Age, ed. Leiden, 3^e ed., 1889, I, pp. 203-210.

(٣) من الطريف أن هذا الشاهد أتى في ديوان شعر ، ونعني به ديوان ابن دراج القسطل الذي قمت بتحقيقه ونشره في دمشق سنة ١٩٦١ (انظر القصيدتين رقمي ٤٣ و ٤٤ ص ١٥١ - ١٦٦ في مدح منذر بن يحيى التجيبي وتهنئته ، وتعليقنا على أبيات القصيدة الأولى في ص ١٥١ - ١٥٢ من الديوان وكذلك في مقالنا عن « إسبانيا المسيحية في ديوان ابن دراج القسطل » :

Mahmud A. Makki : La Espana cristiana en el diwan de Ibn Darray, Boletin de la Real Academia de Buenas Letras de Barcelona, n°. XXX, 1963-1964, pp. 88-93 = (20-31).

والمثل الثاني هو تفصيل ابن حيان لسكانة بربشتر التي احتل فيها المحوس (النورمند) هذه المدينة الأندلسية الواقعة في أقصى الشمال على سفوح جبال البرتات (البيرينية) في سنة ٤٥٦ (١٠٦٤) ، ثم استردها المسلمون في السنة التالية (١). فأخبار هذه الواقعة مفصلة لدى ابن حيان على نحو يدل على معرفة دقيقة بأوضاع الممالك المسيحية لا في شبه الجزيرة فحسب ، بل كذلك فيما وراء جبال البرتات إلى الشمال .

هذا الإطلاع الواسع من ابن حيان على كل ما يتصل بالممالك المسيحية في أوروبا كان مثار دهشة الباحثين الأوروبيين المحدثين ، وعلى رأسهم دوزي أول من أكتشف تلك النصوص ونبه إلى قيمتها . وهكذا مضوا يبحثون عن تفسير لهذه الظاهرة الغريبة التي يتضح منها أن ابن حيان كان أكثر معرفة بأحوال إسبانيا وأوروبا المسيحية من كثير من المؤرخين المسيحيين المعاصرين له ، بل وحتى التالين لعصره . وكان مما قاله دوزي في تفسير ذلك أنه لا بد أن ابن حيان كان يعرف « عجمية الأندلس » (أى اللغة اللاتينية الدارجة التي تولدت عنها اللغة الإسبانية الحديثة) وأن ذلك مكنته من الاطلاع على أحوال إسبانيا المسيحية عن طريق الاتصال ببعض المستعربين (المسيحيين الذين كانوا يعيشون في ظل الحكومة الإسلامية) ، ورأى دوزي أن هذا نفسه لا يكتفى لإمداد ابن حيان بمعلومات على تلك الدرجة من الدقة والتفصيل ، فقال : إن مؤرخنا لم يكتف بذلك بل إنه اطلع على مدونات مسيحية قديمة فقدت اليوم ولم يبق لها أثر . (٢) وأخذ ملتشور أنطونيا بهذا الرأي في رسالته عن ابن حيان (٣) .

(١) ابن بسم : الذخيرة ، القسم الثالث ، مخطوطة معهد الدراسات الإسلامية بمديرد ، ورقة ٢٢ ب - ١٢٤ ، وقد نقل مقتطفات من هذا النص ابن عذارى : البيان المغرب ٢٢٥ - ٢٢٨ ، ٢٥٤ - ٢٥٥ ؛ المقرئ : نفتح ١٩١/٦ - ١٩٨ وانظر كذلك ابن عبد المنعم الحميري : الروض المعطار ، بتحقيق ليلى بروفنسال ، ط . القاهرة ١٩٣٧ ، ص ٤٠ - ٤١ أبو عبيد البكري : المسالك والممالك ، قطعة خاصة بجغرافية الأندلس وأوروبا ؛ بتحقيق الأستاذ عبد الرحمن حل الحمي ، ط . بيروت سنة ١٩٦٨ ، ص ٩٢ - ٩٥ ؛ وانظر دراسة دوزي لهذه الواقعة في الجزء الثاني من « أبحاثه » ص ٣٣٢ وما بعدها .

(٢) دوزي : أبحاث ، الطبعة الثالثة ، ٨٧/١ .

(٣) ملتشور أنطونيا : ابن حيان القرطبي ص ٣٥ - ٣٧ ، وقد قرر أنطونيا هذا الرأي في مقدمة نشره لمخطوطة

أو كسفورد من المقتبس ص ١٥ - ١٦ .

وأتى بعد ذلك غرسية غومس ، فأعاد نظر هذه القضية ، فقال: إن الحجج التي اعتمد عليها عليها دوزى وأنطونيا في إثبات معرفة ابن حيان اللاتينية الدارجة. وفي افتراض نقله عن مدونات مسيحية ضاعت اليوم - كلها مبنية على الأخبار الواردة في « المقتبس » . وهذا نفسه يضعف تلك الحجج ، بل وينقضها من أساسها ، إذ أن مادة المقتبس مأخوذة في جملتها عن المؤرخين السابقين على ابن حيان . فإذا كانت هناك معرفة بلغة عجم الأندلس أو نقل عن مدونات مسيحية فإن ذلك ينبغي أن ينسب لا إلى ابن حيان ، وإنما إلى المؤرخين الذين نقل عنهم . وكان غرسية غومس حذراً في تعليقه على رأى دوزى وأنطونيا ، فقال: إن اعتراضه ليس على الرأى نفسه ، فهو لا يملك أن ينكر على ابن حيان معرفته لعجمية الأندلس أو استطاعته بشكل أو بآخر استخدام مدونات مسيحية مكتوبة ، وإنما الاعتراض على الأدلة التي ساقها الباحثان في البرهنة على ذلك الرأى(١) .

والحقيقة أن المسألة من العسر بحيث لا نستطيع القطع فيها برأى ، على أننا نوافق غرسية غومس على قوله إن ما ذكره دوزى وأنطونيا لا ينهض حجة على إثبات ما زعماه من معرفة ابن حيان بلغة عجم الأندلس أو نقله عن مدونات مسيحية مكتوبة ، فنصوص المقتبس وحدها لا تكفي لذلك .

غير أن بين أيدينا ما ذكره ابن حيان في « المتين » حول الممالك المسيحية في شمال إسبانيا ، وهو حافل بما يدل على معرفته الدقيقة بأخبارها إلى حد لا يقل عما يصوره كتاب المقتبس ، والذي نتصوره نحن أن ابن حيان كان يعرف عجمية الأندلس فعلا ، فقد كانت هذه اللغة شائعة بين جميع معاصريه كما ثبت الآن بالأدلة القاطعة ، حتى أصبح من القضايا المسلمة . وأى غرابة في أن تعرف روح طلعة كابن حيان ما لم تكن هناك مثونة في معرفته ، ولا استعصت عليه وسائله وأدواته ؟ ولكن رجوعه إلى مصادر مسيحية مكتوبة هو الذى نستبعده حتى يقوم عليه دليل ملموس(٢) . وإذا كانت المدونات المسيحية التي وصلت إلينا لا تكاد تقارن في الضبط

(١) غرسية غومس : حول ابن حيان ص ٤١٧ - ٤١٨ = (٢٣ - ٢٤ من الفصل) .

(٢) لا يشير ابن حيان إشارة صريحة واضحة إلى « رواة العجم » إلا في النص الذى ينقله المقرئ عن المقتبس حول المسألة المنسوبة إلى سليمان (نفتح الطيب ٢٥٤/١ - ٢٥٥ ، ٢٧٠ - ٢٧١) ولكن لا يظهر من هذه الإشارة ما إذا كان المقصود بها مصدرا مكتوبا أو شفويا .

وصحة الأخبار وتفصيلها بما جاء في تاريخ ابن حيان، فكيف يسوغ أن ننسب تميز مؤرخنا بهذه الصفات إلى اعتماده على مثلها مما لم يحفظه لنا الزمن؟ وربما كان المعقول هو أن يكون ابن حيان في شرهه إلى الأخبار وتحريه مع ذلك ضبطها وصحتها كما هي عادته قد رجع إلى ثقات له من مستعربى أهل قرطبة العارفين بأخبار الممالك المسيحية في الشمال، كما كان يفعل بالنسبة لتاريخ الأندلس الإسلامية بالنسبة للثغور ومدن الأطراف القصية التي لم يغب عنه من أخبارها شيء. على أنه كان لا يقيد من هذه الأخبار إلا ما يتحقق من صحته ويعرضه على حسه التاريخي كشأنه في كل ما أثبت في تاريخه.

مكانة ابن حيان مؤرخاً ، وخصائص كتابته التاريخية :

يعتبر ابن حيان بحق « صاحب لواء التاريخ بالأندلس » كما وصفه بذلك تلميذه أبو علي الجياني، وهو في الحقيقة بالفعل قمة الكتابة التاريخية في هذا القطر، ويتمثل فيه نضوج هذا اللون من ألوان الثقافة الأندلسية.

والذي يتتبع تطور الكتابة التاريخية في الأندلس يمكنه أن يقدر الوثبة العظيمة التي أتاحت لهذا العلم من عبد الملك بن حبيب الإلبيري أول مؤرخي الأندلس (ت ٨٥٢/٢٣٨) حتى ابن حيان أي على طول نحو قرنين ونصف من الزمان. وكانت بداية علم التاريخ على يد ابن حبيب طموحة متواضعة في الوقت نفسه: طموحة في نبل الغاية الذي دفع بهذا المؤلف الأندلسي في مثل ذلك الوقت المبكر من مولد الثقافة العربية في الأندلس إلى أن يقوم بكتابة تاريخ عام للعالم قبل أن يكتب الطبري تاريخه بأكثر من نصف قرن، أما تواضعها فهو في النتيجة الذي انتهت إليها هذه المحاولة إذ أتى تاريخ ابن حبيب من الفجاجة والنقص بحيث كان ينتظر، على أن جرأة الفقيه الإلبيري في إقدامه على هذا التأليف تدعو في ذاتها إلى الإعجاب بهذا العالم المتوسط الثقافة الذي أراد أن يؤكد قوميته الأندلسية منذ ذلك الوقت المبكر في ميدان العمل الثقافي والفكري (١).

(١) سبق أن قمنا بدراسة مفصلة لتاريخ ابن حبيب ونشر الفصول الخاصة منه بالأندلس حسب النسخة المخطوطة الوحيدة المحفوظة في المكتبة البودلية بأوكسفورد رقم ١٢٧ مع بحث المصادر الأولى لتاريخ الأندلس وارتباطها بنفوذ الثقافة المصرية وذلك في مقالنا عن « مصر والمصادر الأولى لتاريخ الأندلس » في صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمديري:

(Mahmud A. Makki : Egipto y los orígenes de la historiografía arabigo- española, 'en Revista del Instituto de Estudios Islámicos en Madrid, vol. V, 1957, pp. 157-248).

وكنا ننتظر من أول مؤرخ تنجبه أرض الأندلس أن يفيض في الحديث عن أخبار الفتح العربي لبلده وفي تاريخها بعد الفتح ، ولكن ابن حبيب مضى يفتح على نفسه باب الحديث الواسع عن قصة العالم وتاريخ الأنبياء والرسل وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين وغير ذلك مما لم يكن بوسع أن يجيده أو يقدم فيه شيئاً له قيمته ، فلما وصل إلى الفصول التي اختص بها الأندلس إذا به يخيب الأمل فيه فيملأ كتابه بمجموعة من الأحاديث الخرافية مما نقله عن شيوخه المدنيين والمصريين . وهكذا بدأت كتابة التاريخ الأندلسي في ظل ما يشبه أن يكون « وصاية » للفقهاء والمحدثين والقصاص المصريين .

ولكن الكتابة في هذا الميدان لا تلبث أن تسير في طريق النضوج بسرعة ملحوظة ، ولا يأتي القرن الرابع حتى ترتفع تلك « الوصاية » المصرية ، ويظهر بين الأندلسيين من يوصلون هذا اللون من الكتابة إلى مستوى رفيع من الإجادة والتنوع في الوقت نفسه . أما التنوع فقد ظهرت مؤلفات تعنى بتسجيل جوانب معينة من حياة الأندلس ، فبعضها خاص بتراجم رجال الأندلس وفقهاؤها وعلمائها مثل كتاب ابن الفرضي ، وبعضها أكثر تحديداً ، إذ لم يتجاوز تاريخ قضاة قرطبة مثلاً كما نرى في كتاب الحشني ، أو طبقات اللغويين والنحويين كما هو شأن كتاب الزبيدي ، هذا فضلاً عن جمع الأخبار التاريخية بمعنى الكلمة على نحو ما نرى في عديد من كتب هذا العصر ، مثل تاريخ عريب بن سعد وكتاب « أخبار مجموعة » المجهول المؤلف و « تاريخ افتتاح الأندلس » لابن القوطية . وأما الإجادة فإنها تتمثل في بني الرازي الذين توارثوا الاهتمام بتسجيل الأندلس منذ جدهم محمد بن موسى الرازي (ت ٨٨٦/٢٧٣) وتقدمت الكتابة التاريخية بعد ذلك على يد ابنه المؤرخ الجغرافي أحمد بن محمد (ت ٩٥٥/٣٤٤) ، ثم على يد عيسى بن أحمد الرازي (ت ٣٧٩/٩٨٩ - ٩٩٠) (١) .

(١) اقتصرنا في هذا العرض الموجز السريع على الإشارة إلى الكتب التي سلمت من غائلة الزمن فبقيت حتى الآن كلها أو أجزاء كبيرة منها تصلح لتكون فكرة سليمة عنها ، وإلا فإن إنتاج الأندلسيين في ميدان الكتابة التاريخية مما ضاع معظمه أكثر من هذا بكثير . ولئن يريد الإلمام بتاريخ « التأريخ » الأندلسي حتى عصر ابن حيان أن يرجع إلى المقدمة الشاملة حول هذا الموضوع والتي صدر بها راينهارت دوزي نشرته لكتاب « البيان المغرب » (ليدن ١٨٤٨ - ١٨٥١) ثم الفصل الطويل الذي يؤلف القسم الأول من كتاب بونس بويجس عن « المؤرخين والجغرافيين الأندلسيين » (ص ٢٧ - ١٢٥) ، وقد أحصى المؤلف فيه أكثر من مائة اسم من أسماء هؤلاء المؤرخين .

وبصور ابن سعيد هذا الاهتمام بالتاريخ لدى الأندلسيين فيقول وإن كان كلامه غير مرتبط بعصر معين : « وعلم الأدب المنثور من حفظ التاريخ والنظم والنثر ومستظرفات الحكايات أنبل علم عندهم » (١) .

وقد أتى ابن حيان أخيراً في القرن الخامس الهجري ، فكان تنويجاً لهذه الحركة التاريخية الأندلسية التي تقدمت بسرعة مطردة خلال القرن السابق ، فاعتبر بحق « أمير مؤرخي الأندلس » ، إذ فاق كل من مضوا قبله ، ولم يتح لهذا القطر أن يخرج قريباً له بعده .

* * *

وأول ما نلاحظه من خصائص الكتابة التاريخية عند ابن حيان الاستبلاغ في الدقة والضبط ، فقد فاق في هاتين الصفتين كل مؤرخ قبله ، ونحن نرى في ابن حيان دائماً كاتباً يخضع كل ما يقرأه أو يشاهده أو يبلغه لميزان نقدي علمي يبدو سابقاً لعصره في تلك الأيام حتى كأنه من نتاج عصرنا الحديث .

ولم يكن لابن حيان بد في تأريخه للعصور السابقة عليه من الرجوع إلى الكتب التي ألفت قبله ، ولكنه - على عكس ما تصور الكثيرون - لم يكن مجرد ناقل ، بل إن شخصيته القوية تهيمن على كل ما يورده ونحس بها تطل علينا من جميع صفحات تأريخه التي يسندها إلى هذا المؤرخ أو ذلك ، سواء في أسلوب الكتابة أو في الميزان النقدي الصارم الذي حقق به الروايات المختلفة ومحصها وقارن فيما بينها على نحو جدير بالإعجاب . أما في تأريخ ما عاصره - وهو موضوع كتاب « المئين » - فإن هذه الروح أكثر بروزاً ، إذ كان ابن حيان مطلق اليد فيما يكتب غير مازم بأن يرجع إلى أي كتاب يقيد انطلاقه .

وتبدو دقة ابن حيان في مظاهر شتى منها احتفاله في تحديد التواريخ بالأيام في كثير من الأحيان ، بل إنه يوفر على الباحث المعاصر الجهد ، فيثبت ما يقابل التقويم الهجري من « التاريخ العجمي » (أي التقويم الميلادي) ، وهو في ذلك دائماً مصيب لا يخطئ ؛ ومنها مقابله بين الروايات وتحكيم المنطق التاريخي والعقلي في المفاضلة بينها إذا تعددت ، ومنها نبذه للأساطير والأحاديث الخرافية ولا سيما ما نسج منها حول فتح العرب للأندلس مما ملا كتب المؤرخين قبله ومما نرى له مثلاً صارخاً

(١) ابن سعيد ، حسبما ينقل عنه المقرئ في نفع الطيب ٢٠٦/١ .

في كتاب ابن حبيب . وقد سبق أن ضربنا مثلاً لهذا التدقيق في نبذه للتفسير الأسطوري لأصل « مائدة سليمان » وإثباته تفسيراً آخر له يتفق مع المنطق العقلي والتاريخي .

ومن الخصائص التي تستوقف النظر وتستأثر بالإعجاب في تاريخ ابن حيان التفصيل الواسع الذي لا يكاد يعزب عنه شيء مهما دق أو صغر ، مع الإدراك الواعي لقيمة هذه الأشياء الصغيرة أو الدقيقة ، فهناك فرق كبير في الكتابة التاريخية بين ماهو صغير وماهو تافه . فالتفاصيل الصغيرة كثيراً ما تكمل الصورة الكبرى للأحداث أو الشخصيات ، ولهذا فإن لها من القيمة ما لا يقل عن تسجيل عظام الأمور ، وانحط الواهي الدقيق الذي يفصل بين الأمرين شيء لا يفتن إليه إلا ذو الحاسة التاريخية الدقيقة التي تشبه الإلهام في الشعر : لا تتأني بكثرة العناء ولا تكتسب بالانكباب على القراءة ولا بكثرة التسطير في الورق ، بل هي شيء أشبه ما يكون بما قاله مهيار الديلمي في ميدان الشعر :

رحمت قوما وما مالت رقابهم تحت القريض فظنوا أنهم حملوا
وقعقروا دونه الأبواب فاعتقدوا لطول ما قرعوها أنهم وصلوا
وحظهم منه حظ الناقيات رجت أن يجتني من هبيد الحنظل العسل

و ما أكثر ما قعقع كثير من المتلبسين بمهنة التاريخ قبل ابن حيان وبعده الأبواب ، فسطروا الكثير ، ولكنهم لم يصلوا إلى شيء ، إذا استعصت عليهم هذه « الحاسة التاريخية » التي فطن إليها ابن خلدون في قلة من المؤرخين . وهذه الحاسة هي التي كانت تهدي ابن حيان حينما كان يسجل لنا وصف موكب عبد الملك المظفر في آخر غزواته إلى بلاد الشمال بما في هذا الوصف من تفاصيل تكون تكون « فوتوغرافية » ، وحينما كان يصف لنا في تلك الأقاليم والنوادر الصغيرة حياة الأمير محمد بن عبد الرحمن حتى في نزعه ومجالسه مع حجابه ووزرائه ، وحينما رسم لنا تلك الصورة الرائعة للحصار الذي ضربه الأمير محمد على « قلعة الحنش » التي اعتصم بها ابن مروان الجليقي . . . إلى غير ذلك مما سنراه على طول هذه القطعة التي نقدمها اليوم من كتاب « المقتبس » ، وهو يكتب بهدي هذه الحاسة حينما يسجل لنا في دقة « صحفية » خبر تلك الجريمة الغامضة الغريبة التي راح ضحيتها الأديب الأندلسي أبو مروان عبد الملك بن زيادة الله الطنبلي في جوف داره (١) ،

(١) نقل ابن بسام هذا الوصف بطوله في اللخيرة في ١ - ٥٣/٢ - ٥٧ . وقد وقعت هذه الجريمة في سنة ٤٥٧ (١٠٦٥)

أو خبر ذلك الاكتشاف الأثرى الكبير الذى وقع فى مجريط (مدريد) وعثر فيه - أثناء احتفار أحد الخنادق - على عظام حيوان هائل من حيوانات ما قبل التاريخ (١) .

وفضلا عن هذا التفصيل والتوسع فإن ابن حيان فى إحاطته الشاملة بالتاريخ الإسلامى فى المشرق والمغرب كان سريع الإدراك والتنبه للمشابهات والمفارقات بين المشرق والأندلس . نرى ذلك فى مقارناته الدقيقة بين أحداث الأندلس وما مائلها أو خالفها مما كان يدور فى مختلف أقطار المشرق أو بين الشخصيات الموجهة للتاريخ هنا وهناك : نذكر من أمثلة ذلك مقارنته بين الفتنة البربرية الواقعة فى الأندلس والمفرقة لشمل الجماعة والفتنة الحادثة بالمشرق ، وهو ينص فى سياق ذلك على أنه تنسى فى كتابة تاريخ هذه الفتنة بمسأخرى أصحاب التاريخ بالمشرق مثل أبى محمد الحصنى وأبى بكر بن القواس القاضى والفرغانى (٢) ، ومن هذه المقارنات ما عقده بين تلقيب الحكم المستنصر مولاه غالباً بلقب « ذى السيفين » امثالاً لما فعله الأمير أبو أحمد الموفق باسحاق بن كنداج الخزرى حامله على الجزيرة (٣) .

وفى معرض المقارنة بين شخصيات الأندلس والمشرق نذكر هذه الفقرات الرائعة التى تحدث فيها عن عبد الرحمن بن معاوية الداخلى « صقر قريش » وأبى جعفر المنصور العباسى (٤) ، والتى

(١) ابن حيان حسبما ينقل عنه ابن عبد المنعم الحميرى فى الروض المعمار ص ١٨٠ ، وقد بحث صديق المستشرق الكبير الاستاذ خايمى أوليفر أسين مدير مدرسة الأبحاث العربية فى مدريد هذا الاكتشاف فى كتابه عن « تاريخ اسم مجريط » (Historia del nombre de Madrid, Madrid, 1958) ص ١٣٥ ، حاشية ٢ وص ٢٧٦ ، حاشية ١ ، ويبدو أن العظام المذكورة كانت لحيوان من عائلة « الماموث » جذ الفيل الحالى (Elephas antiquus) كما يدعى باللاتينية) . ومن غريب المواقفات أنه تم فى سنة ١٩٥٦ اكتشاف آخر مماثل للذى سجله ابن حيان هنا فى إحدى ضواحي مدريد لمظام حيوان هائل من حيوانات ما قبل التاريخ كانت شغل المتخصصين فى هذا النوع من الدراسات .

(٢) ابن بسام : الذخيرة ق ١ - ٨٧/٢ - ٨٨ ؛ ولم نهند إلى ما يزيدنا بياناً عن المؤرخين الأولين . أما الثالث فلا بد أنه عبد الله بن أحمد بن جعفر الفرغانى (ولد سنة ٨٩٥/٢٨٢ وتوفى سنة ٩٧٢/٣٦٢ / ٩٧٣) وهو صاحب « صلة تاريخ الطبرى » الذى نقل عنه ياقوت الرومى كثيراً فى كتاب « إرشاد الأريب » (معجم الأدباء) ، وقد أثنى عليه ابن القفطى وامتدح ما فيه من تفصيل وبسط . (انظر فرانز روزنتال : علم التاريخ عند المسلمين ، ترجمة الدكتور صالح أحد العل ، ط . بغداد سنة ١٩٦٣ ، ص ١١٧ - ١١٨) .

(٣) المقتبس ، نشر عبد الرحمن الحجى ص ٢٢١ - ٢٢٢ .

(٤) ابن حيان حسبما نقل عنه المقرئ : نفع الطيب ١/٣١٠ - ٣١١ .

قارن فيها بين شخصيتي محمد بن عبد الرحمن المستكني مرواني وسميه العباسي (١) وبين المعتضد ابن عباد ملك إشبيلية وأحمد المعتضد بن أبي أحمد بن المتوكل العباسي (٢) .

وإذا كان ابن حيان منذ البدء قد عرف حدود عمله فلم يتجاوز الأندلس إلى غيرها فإن هذه الملاحظات تصور طرفاً من إطلاعه الكامل على أخبار المشرق وكثرة استقرائه لها . أما المغرب فإن علمه بتاريخ الشمال الإفريقي كله كان لا يقل عن علمه بالأندلس ، ولكنه لم يقصده لذاته ، بل اقتصر منه على ما لا غنى عنه في تأريخ العلاقات المتصلة المتشابكة بين الأندلس ودول المغرب العربي على امتداد السواحل الإفريقية . وقد نص ابن حيان في إحدى قطع المقتبس - وهي الخاصة بسنوات من خلافة الحكم المستنصر - على أخذه عن اثنين من المؤرخين الإفريقيين هما ابن الوراق وابن الجزائر القيروانيين ، وصفحات هذه القطعة من المقتبس حافلة بالأخبار القيمة عن المغرب ، وفي القطعة التي تقدمها اليوم من نفس هذا الكتاب أخبار أخرى جديدة تماماً عن العلاقات بين أمراء فرطية المروانيين وإمارتي الأغالبة في القيروان والمدرارين في سجلماسة خلال القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) . كذلك نشير إلى قطعة كبيرة من تاريخ ابن حيان احتفظ لنا بها صاحب كتاب «مفاخر البربر» حول سياسة المنصور بن أبي عامر في المغرب ، وهذه القطعة وحدها تبلغ نصف الكتاب كله (٣) .

وأهم ما يميز كتابة ابن حيان التاريخية - فضلاً عن الدقة والتفصيل - نزاهته وصدقه وتجرده من الهوى ، وهي صفة كثيراً ما ألح على بيانها من كتبوا عن ابن حيان أو نقلوا من تاريخه سواء من القدماء أو المحدثين ، ولعلها بالفعل أعظم صفاته وأكثرها استحواذاً على اهتمام القارئ وإعجابه . فهو يعرف تبعاً الكتابة التاريخية ، ويدرك ما تعنيه ، ويحترم قلمه فلا يضعه في خدمة أحد . ولسنا في حاجة إلى ضرب أمثلة على هذه الصفة ، فهي تظل من جميع صفحات تاريخه ، حيث نرى كيف يرتفع المؤرخ على المداهنة والمجاملة ، بل يخضع الأحداث والشخصيات لميزانه النقدي

(١) ابن بسام : الذخيرة ق ١ - ٣٧٩/١ - ٣٨٠ ؛ ابن عذاري ؛ البيان المغرب ٣/١٤١ .

(٢) ابن الأبار : الحلة السراء ٤١/٢ .

(٣) نبد تاريخية في أخبار البربر في القرون الوسطى ، منتخبة من المجموع المسمى «مفاخر البربر» لمؤرخ مجهول

الاسم ألفه سنة ٧١٠٢ ، بتحقيق الأستاذ لين بروفسال ، ط . الرباط سنة ١٩٣٤ ، ص ٣ - ٣٧ .

والخلقي الصارم ، فيعطى لكل حقه دون إسراف في الثناء ، ولا خروج إلى ضد ذلك من التجنى أو الظلم . وقد كادت هذه الصراحة تؤدى بابن حيان إلى ما لا تحمد عقباه في ظل بنى جمهور كما سبق أن ذكرنا في الحديث عن سيرة حياته ، ولكنه مع ذلك بقي وفيًا لمبادئه ، حريصا على الصدق ، لم يحد عن ذلك الخط إلا في مناسبات قليلة قد تكون الظروف أو التسرع في الحكم قد ألبأته إليها . ولولاها « لكمل لو أن بشرأ يكمل » — على حد تعبيره هو . وقد سبق أن نهينا على هذه الاستثناءات القليلة في سياق كلامنا عن حياته .

عقيدة ابن حيان وآراؤه السياسية :

غير أن نزاهة ابن حيان وصدقه لا يعنيان أنه كان مجرد مسجل للأخبار يلتزم فيها أقصى ما يستطيع من الدقة والضبط . لا . . . فابن حيان كان قبل كل شيء رجلا له مثله الخلقية وعقيدته السياسية ، ووجهة نظره التي كانت تتفق مع تلك العقيدة والمثل . وقارئ تاريخه يحس بهذه العقيدة دائما في خلفية ما يكتبه سواء عن تاريخ الأندلس القديم أو المعاصر .

وأول العناصر التي كانت تتألفها من جماعها عقيدة ابن حيان — أو تفكيره الإيديولوجي كما يقال بلغة اليوم — هو عصبية لقوميته الأندلسية ، واعتداده بها أشد الاعتداد ، واعتقاده بأن الأندلس ينبغي أن تحتل مكانا من أمكنة الصدارة في العالم الإسلامي ، وتشيع هذه الروح في كل كتابات ابن حيان ، إذ يستشف القارئ من وراء كل سطر يكتبه في تاريخه ذلك الحب الذي أشربه لوطنه (١) . وهو يتفق في تلك العصبية مع هذا الجيل من الكتاب والمفكرين الذين أدركوا أواخر أيام خلافة بنى مروان وعاشوا في ظل ملوك الطوائف ، وأبرزهم صديقه أبو عامر بن شهيد وأبو محمد بن حزم صاحب الرسالة المشهورة في فضل الأندلس ، وهي تعتبر من أروع نماذج العصبية الفكرية للقومية الأندلسية (٢) .

(١) كان على ابن حيان جل اعتماد ابن سعيد في كتابه « الشهب الثابتة في الإنصاف بين المشاركة والمغاربة » الذي رد فيه على الفصول الخاصة بالأندلس من كتاب بن حوقل النصيبى الجغرافى الرحالة « صورة الأرض » حيث نرى فقرات كثيرة في تنقص الأندلسيين والهجوم عليهم . وقد نقل المقرئ في نفع الطيب صفحات عديدة من كتاب ابن سعيد المذكور (انظر النسخ ١٩٦/١ وما بعدها) .

(٢) لابن حزم بيت ركز فيه عصارة هذه العصبية القومية وأورده في كتابه طوق الحمامة (بتحقيق الاستاذ حسن كامل الصيرفى ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص ٦١) . :

ويا جوهر الصين سمحا فقد غنيت يساقوتة الأندلس

· والمفارقة الصارخة التي تبدو عجيبة لأول وهلة هو أن هذا الجيل الذي أشرنا إلى مدى اعتداده بقوميته وبوطنه(١) ، والذي يمكن أن نطلق عليه اسم « جيل الفتنة البربرية » - كان أكثر كتاب الأندلس ومفكرها إلحاحا على نقد شعبهم، ووحدة في إظهار عيوبه ، وصراحة في الحديث عن وجوه النقص في طبائعه ومقومات شخصيته . ومرة أخرى نعود إلى تذكّر هذا الجيل من مفكرى إسبانيا - « جيل ٩٨ » - الذي ظهر في أعقاب كارثة سنة ١٨٩٨ بعد الحرب الإسبانية الأمريكية واستمر أثره خلال النصف الأول من القرن العشرين . وكانت هذه الحرب قد عصفت بالبقية الباقية من أمجاد إسبانيا وجردتها من ثياب امبراطوريتها القديمة ، وكشفت عن عوامل الفساد التي أدت بإسبانيا إلى هزيمتها الفاجعة . ومن هنا ظهرت هذه الطائفة من المفكرين الذين كانوا يجنون بلدهم ويعتزون ، ولكن ذلك لم يمنعهم من نقد شعبهم أمر النقد وأوجعه ، بل لعل ذلك الحب هو الذي حملهم على الإبلاغ في النقد إلى أبعد حد ممكن .

وهذا هو ما نجده لدى هؤلاء المفكرين الأندلسيين الذين ظهوروا في أندلس القرن الخامس ، وعلى رأسهم ابن حزم وابن حيان ممن حاولوا أن يضعوا أصابعهم على موطن الداء ، والتعرف على الأسباب الباطنة الخفية التي أدت إلى الانهيار المفاجئ المذهل لذلك البناء العتيد الذي كان يبدو منذ سنوات قليلة نموذجا للحكم الصالح والدولة المستنيرة - أو إذا استعرنا أحد مصطلحات الفلسفة « للمدينة الفاضلة » .

وما أكثر ما ترد في ثنايا تاريخ ابن حيان ملاحظات وتعليقات نفذ بها إلى الكشف عن العيوب الدفينة في نظام الدولة الأندلسية ، هذه العيوب التي أدت شيئا فشيئا إلى تحللها وتصدعها ، وكأنه السرطان الخفي يستشري في باطن جسد ظاهره الصحة والقوة . وهي عيوب بدأت منذ أيام الحكم المستنصر ، ثم استفحل داؤها على عهد الدولة العامرية . غير أن الأمجاد العسكرية والقوة الظاهرية كانت تلي عليها حجبا كثيفا سترها عن الأنظار . لقد كانت الفتنة تجثم تحت هذه القشرة الظاهرة من القوة والعظمة ، فلما تصدعت واجهة الدولة بعد وفاة المظفر بن المنصور

(١) للمستشرق الإسباني غرسيه غومس صفحات بديعة في تحديد مبادئ هذه الطائفة من الأدباء والكتاب القرطبيين وقد وفق هذا الباحث في بيان الخصائص العامة التي كانت تجمع بينهم . انظر مقدمته للترجمة الإسبانية لكتاب طوق الحمامة لابن حزم ص ٢٦ - ٢٧ :

E. Garcia Gomez : El collar de la paloma, Madrid, 1952.

ابن أبي عامر إذا بهذا البنيان الشامخ ينهار في لحظات ، وإذا بنيران الفتنة المبيرة تندلع معلنة بداية نهاية الإسلام في الأندلس .

ونضرب مثلا على ملاحظات ابن حيان بعبارة يوردها ابن حيان على لسان ابن مامه دونه (وهو يعنى شانجه بن غرسية قومنس قشتالة (Sancho Garcia, Conde de Castilla) الذى كان حليفا لسليمان بن الحكم المستعين وبرابرة أثناء الحرب الأهلية ، وهي عبارة تركزت فيها محنة الشعب الأندلسي : « كنا نظن أن الدين والشجاعة والحق عند أهل قرطبة ، فإذا القوم لا دين لهم ولا شجاعة فيهم ولا عقول معهم ، وإنما اتفق لهم ما اتفق من الظهور والنصر بفضل ملوكهم ، فلما ذهبوا انكشف أمرهم » (١) .

وروح القومية الأندلسية عند ابن حيان هي التي جعلته يكن للبربر كراهية شديدة تشيع على ظاهر صفحات تاريخه ، فهو يندد بقسوتهم وحقدهم اللذين على الدولة الأندلسية ورغبتهم المسعورة في نقض بناء الحضارة الأندلسية منذ أول لحظة يتبها لهم فيها ذلك (٢) .

ولكن ابن حيان كان دائما حريصا على التزام النزاهة ، فهو إذ يدين القسوة من جانب البربر لا يتردد في إدانتها كذلك من جانب الأندلسيين ، نرى ذلك في حملته العنيفة على جن عشيرته أهل قرطبة وفي تعبيره عن النفور الشديد مما ارتكبه من التمثيل بجثة حباسة بن ماكسن الصنهاجى الذى قتل في معركة أرملاط في أثناء الحروب الأهلية بين الأندلسيين والبربر سنة ٤٠٢ (١٠١٢) :

« فركبوه بكل عظيمة ، واجتمعوا إليه اجتماع البغاث على كبير الصقورة ، فجروه في الطرق وطافوا به الأسواق . . . جريا على ذميم عادتهم في قبح المثلة ولؤم القدرة » (٣) .

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ٩٠/٣ .

(٢) انظر على سبيل المثال تعليقه على ما كان باديس بن حبوس الصنهاجى ملك غرناطة قد اعترمه من استئصال رعيت الأندلسية بعد أن بلغة لإيقاع المتضد بن عباد أبي نصر القرى (ابن الخطيب : الإحاطة ، نشر الأستاذ عنان ص ٤٤٤ - ٤٤٦) وحديثه عن جسارة البربر على الاغتصاب حتى اغتصاب الموقى في قبورهم في معرض الكلام عن مصرع الأديب أبي الفتح ثابت بن محمد الجرجاني على يد باديس (الإحاطة ص ٤٦٦) وكذلك كلامه عن زاوى بن زيرى الصنهاجى بمناسبة نعيه (ابن بسام : الذخيرة ق ١ - ٩٩/٢) .

(٣) ابن الخطيب : الإحاطة (ط . الأستاذ عنان) ص ٤٩٤ - ٤٩٥ .

وعلى الرغم من هذه الكراهية للبربر - وهي كراهية لا ترجع إلى أى سبب عنصري وإنما بسبب ما أحدثوه من الفتنة - فإننا نلمح دائماً في كتابات ابن حيان عن حروبهم إعجاباً عميقاً ببسالتهم وقدرتهم على الجلاء ، كما رأينا في نفس هذا النص السابق حول مصرع حباسة بن ماكسن وفي أحاديث كثيرة عن وقائع أمراء البربر المتغلبين على عديد من مدن الأندلس . ونلمس من وراء كل ذلك أسف ابن حيان على أن تبديد هذه الطاقة العظيمة التي اختص بها البربر على خوض المعارك ، وأن تنصب على إخوانهم في الدين والوطن من أهل الأندلس . فهو لا يكف أبداً عن التنديد بأهل قرطبة لرفضهم كل صلح مع البربر وللجأجتهم في ذلك مع العجز والضعف . ويلوح لنا أن ابن حيان كان يتمنى أن تعود الأمة إلى الائتلاف بربرها وأندلسيوها وأن توجه تلك الطاقة البربرية إلى الأعداء الخارجيين الذين كانوا يتربصون بالإسلام الدوائر بدلا من أن يكون بأسهم فيما بينهم .

فالحقيقة هي أن أبرز معالم تفكير ابن حيان السياسي هو الاعتداد « بالجماعة » أو وحدة الأندلس التي اكتملت في ظل خلافة بني أمية ثم أطاحت بها الفتنة البربرية إلى الأبد . فقارئ تاريخ ابن حيان سواء منه المقتبس أو المتين يحس دائماً بإيمان ابن حيان بقضية الوحدة الأندلسية ، وبالمرارة العميقة التي ولدها في نفسه انفصام عرى هذه الوحدة على عهد ملوك الطوائف . وقد كانت هذه العقيدة هي التي أملت على ابن حيان ما كتبه عن أمراء بني أمية وخلفائهم من صفحات مشبعة بالتقدير والإعجاب والثناء الخالص .

وقد يبدو إلى الظن أن الولاء الذي ربط بين أجداد ابن حيان وبين عبد الرحمن الداخل مجدد دولة بني أمية في الأندلس كان له أثر في تأكيد النزعة الأموية لدى أبي مروان ، وهي صلة عاطفية روحية ربما لم ينج منها ابن حيان ، غير أنه من الخطأ أن ننسب إليها حبه للمروانية وإشادته بأمرائهم وخلفائهم ، فهي لا تزيد عن كونها عاملاً ثانوياً صغيراً ، ثم علينا أن نقدر أن أول من ولى منصبا كبيرا في ظل الدولة الأموية كان أباه خلف بن حسين ، ولكن صلة خلف وارتباطه إنما كانا بالمنصور بن أبي عامر ، وهو أول من حجر على الخليفة الأموي ونزع عنه كل سلطة فعلية . وأهم من ذلك أن مؤرخنا إنما عاش معظم عمره في عصر ملوك الطوائف بعد انقضاء دولة المروانيين وحينما أصبح موالى بني أمية وصنائعهم القدماء يجتهدون في التبرؤ منهم ، والانتفاء من ولائهم ، والتنكر

لتلك الأسرة التي قلب الدهر لها ظهر المحن فذلت بعد عز (١) . فأى فائدة لابن حيان إذن في الإشادة بماثر هذه الدولة المروانية المنقرضة إن لم يكن الإيمان العميق بقضية لم يعد من يجروا على الدفاع عنها إلا القليل ؟ الحقيقة أن هذا الموقف من ابن حيان دليل جديد على نزاهته وجرأته في الحق .

والشواهد كثيرة على هذه النزعة الأموية عند ابن حيان ، نرى منها بعض النماذج في نفس القطعة التي تقدمها اليوم من « المقتبس » ، لعل أوضحها فيما نحن بصدده تعليقه على فقرات ساقها أبو بكر عبادة بن ماء السماء الشاعر يشتم منها الطعن على الأمير محمد بن عبد الرحمن :

« ومن دواهي أصحاب الخبر القاذفين بالغيب ، المتحمسين على الريب ، ما أصبته لأبي بكر عبادة بن عبدالله الخزرجي الشاعر ونخطة في غض هذا الأمير الجزل محمد بن عبد الرحمن يعزوه إلى كثير من ثقات دولته ، على أنه هو (أي عبادة) وسلفه لم يزالوا أظناء في بني مروان ناكبين عنهم قد جاهروا لهم بالخلاف عليهم ، فما إن يؤمن مع ذلك على الاختلاق لمعايهم والتنبث (أي التنبس) « عن مساويهم » (٢) .

فأبن حيان كما نرى هنا يشك في كل ما يورده عبادة ، ويضع أيدينا على السر في تهجمه على بني أمية ، فقد كان هو وسلفه يتهمون بالتشيع والتعصب على بني مروان .

والأسلوب الذي كتب به ابن حيان عن الثوار والمنزيرين على أمراء بني مروان وخلفائهم في جميع قطع المقتبس المعروفة حتى الآن بما فيها قطعتنا الحالية يكشف عن إنكار ابن حيان على هؤلاء المتمردين الذين نزعوا إلى الفرقة وصدعوا وحدة الدولة .

ولابن حيان في « المتين » صفحات مليئة بالحزن المرير كتبها عن خراب قصور الزهراء التي مازالت أطلالها قائمة حتى اليوم تشهد بعبقرية منشئها عبد الرحمن الناصر وبعظمة الخلافة المروانية . يقول ابن حيان :

(١) انظر مثلا لذلك في أسرة بني سراج القرطبيين ، وكانوا من بيت شهير في موالى بني أمية ، ذكر ابن حيان عن جدهم سراج بن عبد الله أنه كان يصرح بولائهم لبني أمية ويفخر بكتاب عثق جدهم الأكبر سراج من عبد الرحمن بن معاوية الداخل ، أما الوزير سراج بن عبد الملك بن سراج العالم اللغوي المشهور فقد « كان ينتق مواليه بني أمية » ويدعى أن جدهم هو سراج بن قررة الكلابي الوافد على رسول الله صلى الله عليه وسلم . انظر مناقشة القاضي عياض لهذه القضية في « ترتيب المدارك » ، المجلد الثاني ص ٨١٥ - ٨١٦ .

(٢) المقتبس ، مخطوطة جامع القرويين ، ورقة ٥٨ ب .

« . . . وطمست أعلام قصر الزهراء . . . فطوى بخرابها بساط الدنيا وتغير حسنها ، إذ كانت جنة الأرض ، فعدا عليها قبل تمام المائة من كان أضعف قوة من فارة المسك ، وأوهن بنية من بعوضة النروذ ، والله يسلط جنوده على من يشاء ، له العزة والجبروت »(١) .

ونشعر بمثل هذا الأسف في حديث ابن حيان عن المحاويلتين الفاشلتين اللتين حاول فيهما أنصار مروانية تنصيب عبد الرحمن المرتضى خليفة علي الأندلس في سنة ٤٠٩ (١٠١٨) (٢) ، ثم عبد الرحمن المستظهر في سنة ٤١٤ (١٠٢٣) (٣) . فابن حيان في تعليقه على هذين الحديثين لم يُخفِ حزنه لفشل هذه المحاولات الأخيرة المستيثة لإعادة ملك بني أمية .

ولكن تعصب أبي مروان للأمويين لم يمنعه أبداً من نقد أمراءهم وخلفائهم حيثما رآهم يستحقون النقد ، فهو لم يتردد في التنديد ببعض معايب الأمير عبد الله بن محمد ، وأهمها البخل والإسراع إلى سفك الدماء(٤) . وهو على الرغم من إعجابه الكبير بشخصية الخليفة العالم الحكم المستنصر لم يخله من نقد عنيف ، وذلك في أمرين فطن مؤرخنا - في قدرته الفائقة على الربط بين الأسباب والنتائج - إلى أنهما كانا من أكبر العوامل التي قدر لها أن تؤدي إلى انهيار الدولة المروانية كلها :

الأول هو توليته العهد ابنه هشاماً المؤيد وهو لا يزال غلاماً لم يبلغ الحلم بعد :

« إلا أنه - تغمد الله خطاياها - مع ما وصف من رجачته كان ممن استهواه حب الولد وأفرط فيه وخالف الحزم في توريثه الملك بعده في سن الصبا ، دون مشيخة الإخوة ، وفتيان العشيرة ، ومن يكمل للإمامة بلا محاباة ، فرط هوى ووهلة ، انتقدها الناس على الحكم وعدوها الجانية على دولته ، وقد كان يعيها على ولد العباس قبله ، فأناها هو مختاراً ، ولا مرد لأمر الله »(٥) .

والثاني هو استكثاره من استجلاب فرسان البرابرة العدويين :

« فكان ذلك سبباً لتقدمهم طوائف الجند الأندلسي وهدمهم للملك العادي (أي القديم الموثل)

(١) ابن بسام : الذخيرة ق ١ - ٣٨٢/١ .

(٢) ابن بسام : الذخيرة ق ١ - ٣٩٧/١ - ٤٠٠ ؛ ابن عذارى : البيان المغرب ٣/١٢٥ - ١٢٨ .

(٣) ابن بسام : الذخيرة ق ١ - ٣٦/١ ؛ ابن الأبار : الحلة السراء ٢/١٣ .

(٤) المقتبس ، نشر أنطونيا ص ٣٩ - ٤١ .

(٥) ابن بسام : الذخيرة ق ٤ - ٤٠/١ ؛ المقرئ : نفع ٤/٨٥ .

وإلحاقهم للفتنة البربرية الخالقة ، قضاء من المهمين لم تكن لديه من دونه كاشفة «(١) . ويشير ابن حيان بعد ذلك إلى أن المنصور بن أبي عامر لما استولى على مقاليد الأمر وحجر على الخليفة هشام استظهر بهؤلاء البرابرة وعلاهم على طبقات أجناده ، وانتهى الأمر بهم « إلى ما هم الآن بصدده : من إبطال الخلافة ، وتفريق الجماعة ، والتمهيد للفتنة ، والإشراف بالجزيرة على الهلكة »(٢) .

وقد كان خلف بن حسين والد ابن حيان كما نعرف أحد كتاب المنصور بن أبي عامر ، ولعله كان أخف هؤلاء الكتاب على قلبه وأكثرهم حظوة لديه ، وكان المنتظر لذلك هو أن يستبlich أبو مروان في الثناء على العامريين الذين أفرد لدولتهم كتابا خاصا . وقد احتفظ لنا المؤرخون الناقلون عن ابن حيان بقطع كثيرة من هذا الكتاب يبدو منها بالفعل إعجاب مؤرخنا بشخصية المنصور ولاسيما بآثاره في الجهاد وفي إعزاز كلمة الأندلس في شبه الجزيرة . ولكن ذلك لم يحل بين ابن حيان وبين توجيه النقد للمنصور واعتبار حجره على الخليفة أول عوامل انتقاض الدولة وانشقاق كلمة الجماعة . على أنه مع ذلك رأى في العامريين أهون الشرين ، فقد ظلت الدولة على الأقل خلال أيام المنصور وابنه المظفر متماسكة موحدة ، وكانت وحدة الأمة كما ذكرنا أعظم ما دافع عنه ابن حيان من مثل . ولهذا فقد أغضى عن بعض خطايا العامريين مقدرآ ما كان لهم من فضل الجهاد والحفاظ على قوة الدولة ما لا يسع أحداً إنكاره وما يشفع لهم ما ارتكبوا من أخطاء . وهذا هو ما يجمله ابن حيان في حكمه على عشيرته أهل قرطبة الذين وثبوا بالدولة العامرية فهدموا بناءها وأزالوا معها رسوم الخلافة الأموية :

« وكان أهل قرطبة من قلة الرضا عن أملاكهم العامريين بحال من الجور عظيمة ، إلى أن وثبوا عليهم ، فأهلكوا الدولة ، وبها حان حينهم . والله يحكم لا معقب لحكمه »(٣) .

وقد كان هذا الاعتداد بالجماعة وبوحدة الأندلس التي حافظ عليها الأمويون دائماً هو الذي جعل ابن حيان ينفر كل النفور من ملوك الطوائف الذين مزقوا تراث الخلافة ثم لم يحسن أحد منهم الحفاظ على ما وقع في سهمه ، بل أدى تفريطهم وأنانيتهم وتناحرهم الأخرق إلى تضييع ما في أيديهم وتضييع الأمة الأندلسية كلها معهم .

(١) المقتبس ، نشر الحجي ، ص ١٨٩ .

(٢) نفس المرجع ، ص ١٩٣ .

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب ١٣/٣ .

ولهذا فقد كان ابن حيان سيئ الرأي في جميع هؤلاء الملوك بغير استثناء ، وأحكامه عليهم جميعا جملة وأفراداً تنسم بهذه القسوة التي لا نظن أحداً ينكرها عليه أو يستكثرها من مؤرخ نزيه جعل شعاره قول الحق مهما ألم وأغضب .

ويكفينا أن نشير هنا إلى الفصل الذي كتبه ابن حيان عن محنة مدينة بربشتر التي اقتحمها الأردمانيون (النورمند) في سنة ٤٥٦ (١٠٦٤) ، ففيه إجمال لرأى ابن حيان في ملوك الطوائف جميعهم :

« إلى أن طرق الناعي بها قرطبتنا فجأة من صدر شهر رمضان من العام ، فصك الأسماع وأطار الأفتدة ، وزلزل أرض الأندلس قاطبة ، وصير لكل شغلا تسكح الناس في التحدث به والتسأل عنه والتصور لحلول مثله ، إذا لم يفارقوا فيها عاداتهم من استبعاد الوجل ، والاعتزاز بالأمل ، والإسناد إلى أمراء الفتنة الحمل ، الذين هم منهم ما بين فشل ووكل : يصدونهم عن سواء السبيل ، ويلبسون عليهم وضوح الدليل . ولم تزل آفة الناس منذ خلقوا في صنفين منهم هم كالملاح ، فيهم الأمراء والفقهاء ، قل ما تنافر أشكالمهم : بصلاحهم يصلحون ، وبفسادهم يردوون ، فقد خص الله تعالى هذا القرن الذي نحن فيه من إعوجاج صنفهم لدينا هذين بما لا كفاية له ، ولا تخلص منه . فالأمراء القاسطون قد نكبوا بهم عن نهج الطريق ذيادة عن الجاعة ، وجريا إلى الفرقة ، والفقهاء أتهمهم صموت عنهم ، صدوف عما أكد الله عليهم في التبيين لهم ، قد أصبحوا بين آكل من حلوائهم خابط في أهوائهم ، وبين مستشعر مخافتهم ، آخذ بالتقية في صرفهم ، وأولئك هم الأقلون فيهم . فما أقول في أرض فسد ملحها الذي هو المصلح لجميع أغذيتها ؟ هل هي إلا مشفية على بوارها واستئصالها ؟ ولقد طمى العجب من أفعال هؤلاء الأمراء أن لم يكن عندهم لهذه الحادثة النكراء في بربشتر إلا الفرع إلى حفر الخنادق ، وتعلية الأسوار ، وشد الأركان ، وتوثيق البنيان ، كاشفين لعدوهم عن السوأة السوأة من إلقاءهم بأيديهم إليهم : أمور قبيحات العصور ، مؤذونات الصدور بأعجاز تحمل الغير :

أمور لو تدبرها حكيم إذن لنهى وهب ما استطاعا

... وقد أفشينا في شرح هذه الفادحة مصائب جليلة مؤذنة بوشك القلعة ، طالما حذر عليها أسلافنا لحاقها بما احتملوه عن قبلهم من آثاره . ولأشد مما أفشينا عند أولى الأبواب ما أخفيناه مما دهانا

من داء التقاطع ، وقد أمرنا بالتواصل والألفة ، وأصبحنا من استشعار ذلك والتماهى عليه على شفا جرف يؤدي إلى الهلكة لا محالة» (١) .

ونحن نرى في هذه العبارات نبوءة صادقة بمصير الإسلام في الأندلس . صحيح أن هذه النهاية تأخرت بعد صدور هذه الكلمات أكثر من أربعة قرون ، ولكنها كانت نتيجة منطقية لما يقوله ابن حيان في هذه الصفحة الرائعة النابضة بالإحساس بهول المأساة التي كانت تشرف البلاد عليها وأمراؤها في غيهم سادرون .

ويكاد رأى ابن حيان في ملوك الطوائف وفي المتلبسين بخدمتهم من الفقهاء والعلماء يكون هو رأى صديقه ابن حزم الذى يقول فى إحدى رسائله :

« وأما ما سألتك عنه من أمر هذه الفتنة وملابسة الناس بها مع ما ظهر من تريبص بعضهم ببعض فهذا أمر امتحننا به ، نسأل الله السلامة ، وهى فتنة سوء أهلكت الأديان إلا من وقى الله تعالى . . . وعمدة ذلك أن كل مدبر مدينة أو حصن فى شئ من أندلسنا هذه - أولها عن آخرها - محارب لله تعالى ورسوله وساع فى الأرض بفساد . . . فلا تغالطوا أنفسكم ولا يغرنكم الفساق والمنتسبون إلى الفقه واللابسون جلود الضأن على قلوب السباع ، المزينون لأهل الشر شرهم ، الناصرون لهم على فسقهم ، فالخلص لنا فيها الإمساك للألسنة جملة واحدة ، إلا عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وذم جميعهم . فن عجز منا عن ذلك رجوت أن تكون التقية تسعه» (٢) .

وجانب أخير من جوانب عقيدة ابن حيان وتفكيره السياسى هو نزعتة « الأرستقراطية » . وينبغى أن نكون على حرص وحذر فى فهم هذا اللفظ ، فهو لا يعنى التعالى على الشعب أو احتقاره وإنما هو يعنى البعد عن الابتذال ودعوات التهريج السياسى التى شاعت فى الأندلس بعد ثورة محمد ابن هشام المهدي على دولة العامرين . وما أكثر ما نجد فى كتابة ابن حيان عن أحداث الفتنة من سخرية مريرة من توثب الغوغاء على رسوم الدولة وخططها منذ أن فتح المهدي باب الفتنة ، كما

(١) ابن بسام : الذخيرة ، مخطوطة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، ورقة ٢٢ ب - ٢٤ ا . وقد نقل مقتطفات من هذا النص ابن عذارى فى البيان المغرب ٣/٢٥٤ - ٢٥٥ ؛ والمقرئ : نفح ١٩١/٦ - ١٩٨ .

(٢) ابن حزم : رسالة التلخيص لوجوه التلخيص ، ضمن مجموعة رسائل ابن حزم بعنوان « الرد على ابن النفريلة اليهودى ورسائل أخرى ، بتحقيق الدكتور إحسان عباس ، بيروت ١٩٦٠ ، ص ١٧٣ - ١٧٤ .

نقرأ في وصفه لاقتحامه قصور الزاهرة بمن كان معه « من العنازين والجزارين والسفلة وسائر غوغاء الأسواق » (١) . وفي موضع آخر يتحدث عن تقديم يحيى بن علي بن حمود الملقب بالمعتل إلى الوزارة محمد بن الفرضي الكاتب : « فكان أعدي من الجرب على دولته ، وارتقب أهل اللب حلول المحنة ، فقدموا استعاذوا بالله من وزارة السفلة » (٢) . ويتحدث عن ابن السقاء مدير ملك بني جهور فيقول : « ثم خلط لأول ترقية في الرياسة بأن اتخذ لنفسه جنود سوء مال به طبعه الرذل إلى الاستظهار بهم على أقدم الجند بقرطبة ممن مرن على الاستقامة ، فتخير هو من أراذل الطبقات ومصاص شرار الناس ، وانتقام من أصناف الذعرة والدائرة والأساود والرقاصة ، نخل من كل طبقة مرفوضة ما بعث على الناس منهم ذئابا عادية ، وأعدهم ليوم الكريهة فلم يغنوا عنه شيئا لما حاق به قضاؤه » (٣) . وقد كانت هذه الظاهرة الناجمة عن الفتنة موضعا لسخرية بعض كتاب ذلك الجيل الذي ينتمى إليه ابن حيان مثل ابن شهيد في رسالة « التوابع والزوابع » (٤) .

وفي وسعنا أن نتفهم وجهة نظر ابن حيان في هذه الحملة على ما يبدو في ظاهره من علائم ما يمكن أن يسمى في اصطلاحنا الحديث بالروح الديمقراطية . فالواقع هو أن الدولة المروانية ظلت خلال القرون الثلاثة الماضية تضع ثقها في عدد من البيوتات القرطبية ذات الأصول العريقة سواء منها العربية أو البربرية أو من الموالي . فترددت المناصب والخطط في تلك البيوتات يتوارثونها كابراً عن كابر ، وكان منهم حقا عدد من أكفأ رجال الدولة وقوادها ووزرائها وحجابه ، وارتبطت دولة بني أمية بهذه الأسر حتى أصبحوا جزءاً لا يتجزأ منها ، بل تحولوا إلى أوتاد الدولة الراسخة . ولكن المنصور بن أبي عامر حينما استبد بالسلطة وحجر على الخليفة رأى في هذه الأسر ذات الولاء القديم لبني أمية خطراً يهدد نظامه ، فبدأ تحطيم كتلتها إما باستمالة رجالها إلى الدخول في حزبه أو بإذلالهم وكسر شوكتهم والقضاء على كرامتهم . ومن هنا بدأ اختلال نظام الدولة الذي انتهى بانهيارها كلها . ولم يعن استخدام محمد المهدي ولا غيره من خلفاء الفتنة لأمثال

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ٥٦/٣ ؛ وانظر كذلك ص ٧٥ .

(٢) ابن بسام : الذخيرة ق ١ - ١٥/٢ ؛ وابن عذارى : بيان ١٣٣/٣ .

(٣) ابن بسام : الذخيرة ق ٤ - ١٨٨/١ - ١٨٩ .

(٤) انظر محاوراة ابن شهيد في رحلته الخيالية إلى الجنة لبغلة صاحبه أبي عيسى وقوله لما حينما سأله عن عهده بأصحابها في قرطبة : « . . ومن إخوانك من بلغ الإمارة وانتهى إلى الوزارة » - ابن بسام : الذخيرة ق ١ - ٢٥٤/١ .

أولئك العنازين والجزارين وغيرهم من سواد أهل السوق أى إصلاح « ديمقراطى » حقيقى ، وإنما كان مظهراً من مظاهر انحطاط الدولة وابتذال خططها واستشراء الفساد فيها .

وهذا هو ما جعل ابن حيان وأمثاله من الغيورين على صلاح بلدهم يحملون بشدة على هذا المظهر . بل إن ابن حيان يبالغ فى التنديد به إلى درجة السخرية من أبى الحزم بن جهور من أجل احتفاله فى حضور جنازة لامرأة من العامة(١) .

ابن حيسان وقضية الثلب :

كانت صراحة ابن حيان الحسنة والمرارة التى تطل من كتابته عن تاريخ بلده على عهد الفتنة البربرية وعن ملوك الطوائف مما ألحق بمؤرخنا تهمة ظل كل من تعرض له يرددها واحداً عن واحد ، وهى تهمة الثلب والوقوع فى الأعراض .

فإن بشكوال الذى اعتمد فى كثير من تراجم صلته على تاريخ ابن حيان يتنقل فى ضرب من التدوين الساذج خلال ترجمته للمؤرخ قول أبى عبد الله محمد بن أحمد بن عون أنه رأى أبا مروان فى النوم بعد وفاته فسأله : ما فعل الله بك ؟ فقال : غفر الله لى . « فقلت له : فالتاريخ الذى صنعت ، ندمت عليه ؟ فقال : أما والله لقد ندمت عليه ، إلا أن الله بلطفه عفا عني وغفر لى »(٢) .

وغفر الله لابن بشكوال تصوره لندم ابن حيان على تاريخه ! وإلا فعلام يندم ؟ أعلى أنه كتب عن معاصريه ما لعله أصدق ما عرفه التاريخ الإسلامى على الإطلاق ؟ أم على أنه دمع أمراء عصره بما هم أهل له ؟ أم على أنه خلص كتابته من ربة « البلاطية » التى طالما زيفت حقائق التاريخ إذ أخضعتها لمقتضيات الملق الرخيص والنفاق المهين ؟

إن أكثر ما يشكو منه مطالع كتب المؤرخين فى العصور الوسطى - وسواء فى ذلك المسلمون وغيرهم - هو أن كثيراً منها كتب فى ظل الرغبة أو الرهبة ، فلم تخل من شر آفة يمكن أن تلحق

(١) ابن بسام : الذخيرة ق ١ - ١٠٦/٢ - ١٠٧ .

(٢) ابن بشكوال فى ترجمة ابن حيان ، رقم ٣٤٥ . أما أبو عبد الله بن عون المعافى فهو فقيه روى عن ابن عتاب وغيره من كبار المحدثين وأجاز له أبو عمر ابن عبد البر والمذرى . وكان فقيهاً فاضلاً ورعاً منقبضاً عن الناس مواظباً على الصلاة بالمسجد الجامع كثير الكتب جامعاً لها . ولد سنة ٤٤٠ وتوفى فى آخر سنة ٥١٢ . (انظر ابن بشكوال : الصلة رقم ١٢٦٠ .

بمدون التاريخ ، وهي الكذب والتزوير . ولو أننا استعرضنا التاريخ الأندلسي قبل ابن حيان وبعده لرأينا أن أكثر كتبه لم تنج من هذه الآفة . فابن عبد ربه وآل الرازي وابن القوطية وعريب بن سعد وغيرهم في ظل دولة بني أمية ، فجاءت كتبهم محشوة بالتمدح بأمراء هذه الدولة وخلفائها . والذين تلوا ابن حيان ممن كتبوا عن عصور المرابطين والموحدين وبني الأحمر كانوا واقعين تحت تأثير صلتهم بتلك الدول . فابن الصيرفي هو مؤرخ دولة المرابطين ، وأما الموحدون فقد كتب عنهم — ولهم — مؤرخون مثل البيدق وابن صاحب الصلاة وابن القطان ، لم يروا في الدنيا فضيلة إلا نسبوها إليهم ، ولا نقيصة إلا وألصقوها بأعدائهم . وبلغ بعضهم في ذلك إلى ما هو ضرب من الكذب الصريح والتزلف الصفيق والقحة في مجافاة الحقيقة (١) .

أما ابن حيان فلعله واحد من عدد بالغ القلة من المؤرخين حرروا أقلامهم من ربة الخوف والطمع ، وهكذا خلف لنا ذخيرة من المادة التاريخية لا نكاد نعرف لها مثيلا في الصدق والنزاهة .

وقد بدا ابن حيان بدعا في ذلك ، فلم يفهمه الكثيرون حتى من معاصريه والمعجبين به ، فابن بسام الذي تورك عليه في « ذخيرته » والذي اعتبره « خاتمة المحسنين » يقول : « وأكثر ما وجدت من كلام هذا الشيخ الباقعة في هذا الباب أعنى الذم » (٢) ، ولهذا فإنه حينما نقل فصولا لابن حيان في الحديث عن بعض معاصريه رأى من « التعفف » أن يحذف أسماء الأشخاص المعنيين « رغبة بكتابي عن الشين ، وبنفسى عن أن أكون أحد الهاجين » (٣) على حد قوله : وأضاع علينا بذلك الفائدة التاريخية التي كان يمكننا استخلاصها من التعرف على من قصدهم ابن حيان بقوله في تلك الفصول الرائعة التي تعد من أجمل ما عرفناه في باب تصوير طائفة من النماذج البشرية المختلفة ، والتحليل النفسى الدقيق لها (٤) .

(١) من أمثلة ذلك القطعة التي سبق لي تحقيقها ونشرها من كتاب « نظم الجمان » لترتيب ما سلف من أخبار الزمان « لابن القطان المراكشي ، ط . تطوان (المغرب) ١٩٦٤ . انظر تقديمنا لهذا الكتاب .

(٢) ابن بسام : الذخيرة ، ق ١ - ١١٤/٢ .

(٣) نفس المرجع ٩٧/٢ .

(٤) توصلنا مع ذلك بفضل المقارنات التاريخية إلى التعرف على بعض هؤلاء ، فالقطعة التي نقلها ابن بسام في الذخيرة (ق ١ - ٩٧/٢ - ٩٨) في الكلام عن أحد الفقهاء الموثقين إنما يقصد بها بغير شك الفقيه المعروف بابن الهندي ، وهو أبو عمر أحمد بن سعيد الهمداني المتوفى سنة ٣٩٩ (١٠٠٩) . انظر في ترجمته ابن بشكوال : الصلة ، رقم ٢١ ؛ ابن سعيد المغرب ٢١٧/١ ؛ القاضى عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الثاني ص ٦٤٩ ؛ ابن فرحون : الديباج المذهب ص ٣٨ .

ومثل هذا نجد عند الحجارى صاحب كتاب المسهب فيما ينقل عنه ابن سعيد ، وذلك فى معرض ترجمة الشاعر عبدالله بن خليفة المعروف بالمصرى ، وكان أحد شعراء المأمون ابن ذى النون ملك طليطلة ، وكان ابن حيان قد ذكر هذا الشاعر وأساء الثناء عليه وعلى شعره ، وكان ابن جبار له من التجار فى قرطبة رحل إلى العدو فظل سنوات هناك ، ثم عاد مدعيا أنه مصرى . فقد نقل الحجارى حكم ابن حيان على ابن خليفة هذا ، وعقب عليه بقوله : « ما كان عنده ذنب إلا جواره فبئس الدمام » (١) . والغريب بعد ذلك أن ابن سعيد ينقل بعد ذلك عن الحجارى نفسه وعن أبى بكر ابن اللبانة الدانى فى كتابه « سقيط الدرر » عن الشاعر المذكور من الدم والثلب ما هو أشنع بكثير مما قال ابن حيان .

ويبدو أن كل ذلك أكد فى أذهان الأدباء الأندلسيين صورة ابن حيان بصفته الطعانة الثلاثة الذى لم يكن لكتابة التاريخ عنده معنى إلا النيل من الحرم والوقوع فى الأعراض ، حتى إن ابن سعيد فى ترجمته للأديب أبى عبد الله محمد بن الصفار الزمن الأعمى (المتوفى سنة ٦٣٩-١٢٤٢) يقول : « وكان هذا الشيخ باقعة قد أخذ نفسه بالوقوع فى الأعراض مأخذ ابن حيان » (٢) . ثم ينقل ابن سعيد فصولا من نثر هذا الشيخ تدليلا على قوله ، فاذا بها كلها هجاء قبيح سقيم الذوق تردد فيه الكلمات النابية وعبارات الأدب المكشوف ، فى أسلوب يمجج السمع ، ويأباه كل ذى حس سليم ، وقد يكون ابن حيان شديد العارضة حديد اللسان ، ولكن فى مقارنته بهذا المتأدب صاحب الهجاء البذى والذوق الغليظ ظلما ما بعده ظلم لشخصية أبى مروان .

وواقع الأمر هو أن الأدباء والمؤرخين الأندلسيين كانوا قد جروا على أن يكتبوا تراجم من طراز ما نراه فى كتابى الفتح بن خاقان من فصول تبدأ بمثل هذه العبارات المسجعة : « غرة الأوان ، وإنسان عين الزمان ، وصاحب البيان الذى يسمع الصم ، ويستنزل العصم » إلى ما أشبه هذا الهراء الذى أصبح معه كل متلبس بحرفة أدب هو علمه المفرد ، وعبقريه الأوحى . وما أكثر ما جنى هؤلاء المتحدلقون المنتطعون من أمثال ابن خاقان على التاريخ والأدب بمثل هذه الأماديع التى لا تفيدنا بشئ فى التعرف على شخصية المترجم له ، فضلا عن أننا نعرف قلة ما فيها من صدق

(١) ابن سعيد : المغرب ١/١٣١ .

(٢) نفس المرجع ١/١١٨ .

وإخلاص ، إذ هي لا تخرج عن كونها قوالب محفوظة تردد بشكل أو بآخر في كل ترجمة . أما عن أثر أمثال هذه الكتب في الأدب فإن أسوأ ما في الأمر هو أنها أصبحت تعد المثل الأعلى للتعبير الأدبي ، بما يعنيه ذلك من إفساد للأذواق ، وإحالة للأدب إلى نوع من التمارين اللفظية المبنية على القعاقع الجوفاء الحالية من كل روح وإحساس . وهذه هي محنة الأدب في عصور تخلفه منذ تربع على عرشه أمثال الفتح بن خاقان هذا ، ومنذ عكف المتأدبون على تدارس كتبه والعناية بها حتى إن أحد أدباء المغرب المتأخرين رأى كتاب « قلائد العقيان » جدير بأن يصنع له شرحا طويلا مع أن هذا الكتاب من أسوأ نماذج الأدب العربي وأنفها .

وقد درج كتاب التراجم على تسطير مثل ذلك النفاق حتى أصبح الصدق لديهم شيئا مستغربا ، فإذا جاءهم مثل ابن حيان بكلام يبدو منه أن المترجم له ليس « بغرة الأوان » ولا « إنسان عين الزمان » ، بل هو بشر له ما له وعليه ما عليه فإن هذا في نظرهم هو عين الثلب وغاية الوقوع في الأعراض .

بل إننا حينما نتأمل ما بقي لنا مما كتبه ابن حيان عن معاصريه ونقارنه بما كتبه غيره من معاصريه لنكبر أكثر ما نكبر هذا الكاتب الذي كان يعرف معنى الكرامة ، فلم يمتن قلمه في تسطير زخرف من القول يعرف أنه زور وكذب ، ولنأسف أشد الأسف على ما ضاع من تاريخ ابن حيان ، وعلى أن ابن بشكوال في تورعه الساذج الذي يقارب الغفلة قد اقتضب تراجم ابن حيان ، فلم يثبت منها إلا المدح وجردها من كل ما اشم منه رائحة النقد أو الطعن (١) ، مع أننا حينما تفحصنا أخبار هؤلاء المترجم لهم في المصادر التاريخية الأخرى تبين لنا أن ابن حيان لم يبعد أبداً عن الصدق في كل ما أخذه عليهم وذكره من معايهم .

(١) تبين لنا تصرف ابن بشكوال فيما نقله عن ابن حيان عند مقارنة تراجم بعض قضاة قرطبة التي اعتمد فيها على مؤرخنا بمثلاتها في المغرب لابن سعيد عن هؤلاء الأشخاص أنفسهم ، وقد كان ابن سعيد أكثر أمانة من ابن بشكوال ، إذ نقل نصوص ابن حيان بما فيها من مدح وقدح . قارن مثلا ترجمة القاضي عبد الرحمن بن بشر المعروف بابن الحصار في الصلة رقم ٦٩٨ وفي المغرب ١/١٥٨ ؛ وترجمة يونس بن عبد الله بن مغيث المعروف بابن الصفار في الصلة رقم ١٥١٢ وفي المغرب ١/١٥٩ ، وترجمة أبي محمد عبد الله بن أحمد المعروف بابن المكوي في الصلة رقم ٦٠٦ وفي المغرب ١/١٦٠ ؛ وترجمة أبي علي الحسن بن محمد بن ذكوان في الصلة رقم ٣١٢ وفي المغرب ١/١٦٠ - ١٦١ ؛ وترجمة أبي بكر يحيى بن محمد ابن يتيق بن زرب في الصلة رقم ١٤٧٢ وفي المغرب ١/١٦١ .

والذى لا نغلى ابن حيان منه على كل حال هو تلك السخرية المريرة اللاذعة التى تشيع فى كتاباته ، وهى التى أضفت عليها توهجا وحيوية بعدا بها عن مجرد التسجيل التاريخى البارد . والأمثلة على هذه السخرية كثيرة يحفل بها تاريخه ، غير أننا سنتخبط منها مثلا واحدا فى تصوير الخليفة المسكين هشام المؤيد بن الحكم المستنصر الذى جرت بلاهته وتخلفه العقلى على الأندلس أوخم العواقب . يقول ابن حيان بعد أن ذكر إخلاده إلى الدعة وانهماكه فى نزعه وانقطاعه إلى مظاهر تدينه التى هى أقرب إلى العته :

« ونال فى مدة هذا الانهماك والدعة أهل الاحتيال من الناس عندهم [أى عند حاشية المؤيد] الرغائب النفيسة ، بما ازدلفوا به من أثر كريم ، أو زخرفوه من كذب صريح ، حتى لقد اجتمع عند نساء القصر ثمانية حوافر عزي جميعها إلى حمار عزيز المستحي بالآية الباهرة ، واجتمع عندهن من خشب سفينة نوح عليه السلام وألواحها قطعة جليلة ، وظفرن من نسل غم شعيب عليه السلام بثلاث ، وكلفن من هذا ومثله لعفتن وزهد صاحبهن بأشياء توجّهت على أموالهن من قبلها أعظم حيلة ، ولهجه مع ذلك بطلب ذوى الأسماء الغريبة من الناس الموافقة أسماءهم لمن اجتباه الله من خلقه مثل عبد النور وعبد السميع وعبد اللطيف وعبد المؤمن وحزب الله ونصر الله وفضل الله ، ومثل ياسين واليسع ومن جانشه ، يصير الرجل من هؤلاء فى الحاشية ، ويستعمل على وكالة جهة ، ولا يبعد أن يتمول فى أقرب مدة ، وإن اتفق مع ذلك أن يكون ذا لحية عثلوية ، وصاحب سبال وهامة ، فقد تمت له السعادة ، ولاسيما إن كانت لحيته حمراء قانية ، فإنها أجدى عليه من دار البطيخ غلة ، ثم لا يسأل عما وراءه من أصل ولا فضيلة ، ولو كان مردداً فى بنى اللخناء . . . » (١) .

ابن حيان أدبيا :

لعل أعظم ما ميز ابن حيان المؤرخ وجعله نموذجاً فريداً فى التاريخ الإسلامى هو كونه أدبيا فى الوقت نفسه ، والأدب والتاريخ يمتزجان فى كل ما سطره قلمه مزاجا غريبا لا نعرف فيه أين يبدأ هذا ولا أين ينتهى ذاك . وكل صفحات تاريخه الكبير ، ولاسيما كتابه « المتين » ، تعتبر من أروع نماذج النثر الأندلسى على الإطلاق . وهذا شئ لم يتح ولا يتاح للكثير من المؤرخين ، لا سيما إذا التزموا مع ذلك التسجيل الدقيق المفصل ، فالتاريخ معدود من العلوم ، غير أنه تحول على يد ابن حيان إلى أدب خالص محض .

(١) ابن بسام : الذخيرة ق ٤ - ٦٣/١ .

وقد أعان ابن حيان على ذلك امتلاكه لخاصية اللغة على نحو لا نراه توفر لمؤرخ قبله ولا بعده ،
وثرورة عظيمة من مفردات اللغة يستخدمها في سهولة وانسياب ، وقدرة عجيبة على الربط بين
المعاني ، وملكة قصصية كانت تؤهل أبا مروان لكي يصبح كاتباً روائياً من الطراز الأول .

وتبدو قوة شخصية ابن حيان في تفردته بأسلوب لم يتبع فيه نأثرى عصره الذين كان تكلف
السجع والمحسنات البديعية اللفظية قد طغى عليهم ، فبرئ من التصنع ، وأصبح نثره محكما لكل
لفظ فيه قيمته ، بحيث لا يكاد المرء يملك إزاءه تصرفاً من حذف أو إضافة ، فكل شيء فيه مقدر
بحساب ، وإن كان القارئ يمتضى فيه فيظنه لقوة الطبع أسلوباً جرى به قلم الكاتب دون
عناء ولا احتفال ، هذا مع الإيجاز الذي يبدو معه أنه هو نفسه المعنى بعبارة قالها في الكلام عن بلاغة
صديقه أبي عامر ابن شهيد : « يبلغ المعنى ولا يطيل سفر الكلام » (١) .

ويحفل نثر ابن حيان بالصور التي تبهز النظر ترد بسيطة بلا افتعال ، ولا تصنع بلاغى ،
ولا قعقعة رنانة . وكثيراً ما يستخدم التشبيه والاستعارة والكناية وغيرها من أدوات البيانين في غير
حذلقة ولا تعالم . ولننظر مثلاً إلى هذه القطعة التي يتحدث فيها عن أولية ابن السقاء القرطبي مدبر
ملك بنى جهور ووزيرهم :

« كان أبو الحسن إبراهيم بن محمد بن يحيى المعروف بابن السقاء قد كابد من شظف العيش
في فتاه سنه ما لا شيء فوقه ، إذ كان يعالج السقط بسويقة ابن أبي سفيان في قرطبة ببضاعة نزره ،
وأعلى ما انتقل إليه عند إكداء تلك الحرفة الاستخراج في جهة الأحباس ، وإرثه عن والده محمد
السقاء ، وبأسبابها خدم القضاة وتمرن مع الفقهاء ، وهو يقاتل معيشته مياومة ، وبأوى ليله إلى بيت
في دويرة والده محمد بجوفى المسجد الجامع يحاضر فيه جماعة إخوة لا يجد بينهم إلى مد ساقه سبيلاً ،
وما هو إلا أن حمل الأمانة على كاهله ، فوضعها أسفل رجله ، وتذكر عض الكلاب لعصاه ،
فتحول جرذاً للسرقة والخيانة ، وابتنى القصور المنيعة ، واقتنى الضياع المغلة ، إلى أملاك لا تحصى
كثيرة » (٢) .

فلنتأمل هنا ما أودعه ابن حيان من معان في قوله وهو يصور شظف عيش ابن السقاء وضيق

(١) نفس المرجع ، ق ١ - ١٦١/١ .

(٢) ابن بسام : الذخيرة ق ٤ - ١٨٦/١ .

تلك « الدويرة » التي كان يأوى إليها مع جماعة إخوته : « لا يجد بينهم إلى مد ساقه سبيلا » ، وكذلك إشارته إلى « عض الكلاب لعصاه » ، ثم قوله في الكلام عن خيائته الأمانة واحتجانه الأموال بعد اعتلائه إلى الوزارة : « فتحول جرذاً للسرقة والخيانة » . فهو يركز في تلك الكلمات القليلة ما لا يسع غيره التعبير عنه إلا بمطاوله الكلام .

ولننظر إلى قوله في الحديث عن وثوب عبد الله بن حكيم بابن عمه مندر بن يحيى التجيبي ملك سرقسطة واغتياله إياه في صميم قصره :

« فجاء بفتكة أسقطت كل من فتك في الإسلام قبله ، ولم يفكر في ابن ذى النون خال مندر لمادنا إليه ، وفعل ذلك بسليمان بن هود وقد جاء ناشراً أذنيه ، فحاربه ودافعه » (١) .

فنحن نرى في هذه الكناية « ناشراً أذنيه » صورة حسية مركزة تغنى عن كثير من الكلام . وانظر كذلك إلى قوله عن سليمان بن الحكم المستعين والتفاف شعراء قرطبة حوله يرجون منه ما لم تكن تسعف به المقادير :

« واغتنمته شعراء العامرية والدولة الأموية ، وقد نسجت على أفواههم ومحاريبهم العناكب أيام الحرب والفتنة ، واشتدت فاقمهم ، وحميت طباعهم . وكانوا كالبزاة الفذة الجياح ، انقضت لفرط الضرورة على الجرادة ، فلم يبيل (في الأصل : يبال) صدهم ، ولا سند (في الأصل : شد) خلهم ، لاشتغاله بشأنه ، واشتداد حاجة سلطانه » (٢) .

ففي هذه السطور من التصوير الحى ما يغنى عن الإسهاب في الوصف ، فالكناية عن دخول الشعراء بنسج العناكب على أفواههم ومحاريبهم ، وتشبيههم بالبزاة الفذة الجياح انقضت على الجرادة مما لا يتأتى إلا لقلم مفتح يمدده خيال خضب ، في غير إبعاد ولا إحاطة في توليد الصور .

فالحقيقة هي أن أجمل ما يتميز به أسلوب ابن حيان هو مزجه بين الوصف الدقيق الواقعى الذى يصور لك الحدث فكأنك في صميمه ، أو يحلل لك الشخصية ، فيكشف عن باطن سرها تراها كما ترى راحتك ، وخطرات الخيال التي تعين على إبراز الألوان والظلال ، فتزيد التصوير

(١) ابن بسام : الذخيرة ق ١ - ١٥٧/١ ؛ وابن عذارى : البيان المغرب ٣/١٧٩ - ١٨٠ .

(٢) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ١٢٢ .

واقعية وصدقا ، تماما كما عرف كيف يمزج بين الكتابة التاريخية والنثر الفني مزجا لم ينهيا ولا نظنه ينهيا لكثير من المشتغلين بصناعة التاريخ .

والمملكة القصصية لدى ابن حيان جديرة بأن نمنع في تأملها ، والواقع أن ابن حيان لو لم يكن مؤرخا لكان من أعلام فن كتابة الرواية والقصة ، هذا دون أن يخل بالسرد التاريخي الصحيح الصادق . وما أكثر ما نجد في كتابته التاريخية من أخبار تتألف منها قصص متكاملة بعضها يمكن أن يتحول إلى رواية طويلة ، وأخرى فيها من تصوير النماذج البشرية وتحليل نفسياتها في لهات ولمسات خاطفة ما يبدو تخطيطاً لمجموعة من أروع نماذج القصة القصيرة .

وهو كثيراً ما يلجأ إلى الحوار ، فيزيد روايته التاريخية حيوية وتوهجا ، ونكاد نرى أنفسنا أمام مشهد تكتمل فيه عناصر العمل المسرحي لولا أنه مأخوذ من صميم الحياة الواقعة . وفي القطعة التي تقدم بين يديها بهذه الصفحات من كتاب المقتبس أمثلة كثيرة لذلك ، منها قصة مهلك نصر الحصى المؤتمر بمولاه عبد الرحمن الأوسط ، وبعض الحكايات عن هذا الأمير نفسه في علته التي مات فيها نراه فيها لا سلطانا جباراً وحاكما من أعظم من شهدتهم أرض الأندلس ، وإنما إنسانا رقيقا ضعيفا يسأل خدمه أن يطلعوه على مرقبة يتملى بها جمال الدنيا ويسرح بصره في الحقول المحيطة بقصره ، فإذا رأى راعي غنم مخلداً إلى نومه المطئن دمعت عيناه وتمنى ألا يكون قد انتشب في أمور الحكم والسلطة لقاء أن ينعم بتلك اللحظات الغافية الوداعة التي كان يتمتع بها أقل رعاياه شأنا .

وترى مثل ذلك في القصة المفصلة التي يرويها عن تولى محمد بن عبد الرحمن الخلافة ، وكثيرا من النوادر التي ترد في عرض تراجمه لحجاب الأمير محمد ووزرائه ورجال دولته ، مما يبدو لإعداداً لقصص جديرة بأن تأخذ سبيلها إلى دفقة كتاب مستقل أو روايات قصد بها أن تمثل على خشبة مسرح .

وابن حيان في ذلك كله نسيج وحده ، لم يقلد أحداً من قبله ، وقيلده بعض من أتى بعده فلم يلحقوا غباره ، واضطر أحدهم مثل ابن بسام الشنتريني إلى الاعتراف في تواضع حينما ألجأه شرود لفظ ابن حيان عنه فاستكمل بعض رواياته التاريخية بفقرات من نتاج قلمه بأنه « رقع الضحى بالفلس وجمع بين حافر العير وجبهة الفرس » (١) .

(١) دوزى في مقدمته لنشرته لكتاب البيان المغرب لابن عذارى ص ٧٣ وانظر كذلك كتابه اللاتيني « الجامع

لأخبار بني عباد » ٢١٨/١ - ٢١٩ .

وقد كان المستشرق الهولندي الكبير راينهاردت دوزي ، بحسه الأدبي المرفه وذوقه السليم ، أول باحث محدث تنبه إلى هذا الكنز التاريخي الأدبي الذي يتمثل فيما بقي من تاريخ كاتبنا القرطبي ، فأشاد بأسلوب ابن حيان وأفاض في الثناء عليه ومدح فيه الفحولة والجزالة مع الدقة والإحكام والإيجاز ، على أنه أتبع هذا الحكم بقوله إنه أسلوب « مشبع بالروح الأوربية » (١) .

وإذا كنا قد امتدحنا في دوزي دائماً هذه الحساسية الدقيقة حين فطن إلى تميز ابن حيان على غيره من المؤرخين وإلى اختصاصه دونهم بهذا الأسلوب الأدبي الذي جعله في مصاف أكر الناثرين العرب فإننا لا نملك إلا العجب من هذه العبارة الأخيرة التي أراد أن ينسب تميز ابن حيان فيها إلى « تشبعه بالروح الأوربية »

فنحن نرى هنا كيف تلحق بهذا الباحث العظيم ذيول العصبية الأوربية التي لا تكاد ترى مفكراً أو أديباً منقطع القرين في عالم الإسلام أو العروبة حتى تحاول أن تستأثر به وتحرم منه أمته بجرة قلم . وإلا فلم لا يعد ابن حيان — كما كان فعلاً — مؤرخاً خالص العروبة مسلماً شديداً الاعتزاز بقوميته وعروبته ودينه ولغته ؟ وأين مظاهر هذه « الروح الأوربية » في كتابته ؟ ولقد كان كتاب المدونات المسيحية في العصور الوسطى سواء في إسبانيا أو في غيرها من بلاد القارة أكثر تشبهاً بالروح الأوربية من ابن حيان بغير شك . فلم لم يظهر من بينهم من يستحق أن يقرن بابن حيان من قريب ولا من بعيد ؟

الحقيقة أن هذه إحدى شطحات دوزي ، نفس فيها على الفكر التاريخي العربي أن ينبج مثل ابن حيان ، فاستكثره على أمته . وكنا نتمنى أن يكون هذا الباحث صاحب الفضل الكبير على التراث العربي أكثر تجرداً ونزاهة .

ابن حيان ناقداً :

ولعل مما يكمل لنا صورة ابن حيان الكاتب الأديب تتبع أحكام ابن حيان الناقد الأدبي . فالنقد عند أبي مروان جانب جدير بأن نوليه بعض العناية . بل إننا نزم أن تلك الأحكام التي أصدرها على أدباء الأندلس في ثنايا تاريخه ترفعه إلى مكان بارز في الصف الأول من النقاد . وابن حيان ينبج فيها عن نفس الروح التي كانت تمد دائماً كتاباته التاريخية ، فكما لم يكن أبو مروان

(١) ابن بسام : الذخيرة ق ١ - ١٢٢/٢ .

مجرد سارد للأحداث ، بل هو دائماً يتخلل هذا السرد هنا وهناك بأحكام تدل على نفاذ النظرة واستشفاف أعماق الأحداث والشخصيات – فكذلك كان عند حديثه عن الأدب والأدباء : لم يقتصر على الترجمة لهم أو الاختيار من قولهم ، وإنما شفع ذلك بالحكم لهم أو عليهم معطياً لكل حقه .
ولسنا نستطيع هنا تقصي هذه الأحكام الأدبية ، فهي منتشرة في كل كتاباته سواء في القطع التي بقيت لنا من « المقتبس » أو فيما حفظه لنا ابن بسام وابن الخطيب وغيره من كتاب « المتين » .
ولو أن هذه الأحكام كلها جمعت – على كونها جزءاً صغيراً مما بقي لنا من إنتاج ابن حيان الغزير –
لأمكن أن تصبح مادة لدراسة طيبة عن النقد الأدبي في الأندلس كما يمثلها هذا الكاتب الفذ الذي ملك عناني الأدب والتاريخ .

على أننا سوف نختار من أحكام ابن حيان الأدبية مجموعة قليلة نرى منها كيف نفذ عن طريق قليل الكلام إلى ما يعتبر خلاصة لدراسة تحليلية عميقة :
يقول عن أبي محمد ابن حزم :

« كان أبو محمد حامل فنون من حديث وفقه وجدل ونسب وما يتعلق بأذيال الأدب ، مع المشاركة في كثير من أنواع التعاليم القديمة من المنطق والفلسفة ، وله في بعض تلك الفنون كتب كثيرة . . . وكان يحمل علمه هذا ويجادل من خالفه فيه على استرسال في طباعه ، ومذل بأسراره ، واستناد إلى العهد الذي أخذه الله على العلماء من عباده لبيئته للناس ولا يكتمونونه ، فلم يك يلفظ صدعه بما عنده بتعريض ، ولا يرفه بتدريج ، بل يصك به معارضه صك الجنادل ، وينشقه متلقيه إنشاق الخردل ، فينفر عنه القلوب . . . وأكثر معايبه – زعموا – عند المنصف له جهله بسياسة العلم التي هي أعرض من إيعابه ، وتخلفه عن ذلك على قوة سبحة في غماره ، وعلى ذلك فلم يكن بالسليم من اضطراب رأيه ، ومعيب شاهد علمه عند لقائه ، إلى أن يحرك بالسؤال ، فيفجر منه بحر علم لا تكدره الدلاء . . . وعلى ذلك فليس ببدع فيما أضحى منه ، فأزهد الناس في عالم أهله وقبله أردى العلماء تبريزهم على من يقصر عنهم . والحسد داء لا دواء له » (١) .

ولسنا نعلم أحداً عرف كيف يغوص على حقيقة ابن حزم وقيمة جهده العلمي وماله وما عليه كما فعل ابن حيان في تلك الصفحات الدسمة التي ترجم فيها لابن حزم التي اقتطفنا منها العبارات السالفة .

(١) ابن بسام : الذخيرة ق ١ - ١٤٠/١ - ١٤٤

ويقول عن أبي عامر ابن شهيد :

« كان أبو عامر يبلغ المعنى ولا يطيل سفر الكلام . . . والعجب منه أنه كان يدعو قريحته إلى ما شاء من نثره ونظمه في بديهته ورويته ، فيقود الكلام كما يريد من غير اقتناء للكتب ، ولا اعتناء بالطلب ، ولا رسوخ في الأدب ، فإنه لم يوجد له - رحمه الله - فيما بلغني بعد موته كتاب يستعين به على صناعته ، ويشحذ من طبعه إلا ما لا قدر له ، فزاد ذلك من عجائبه وإعجاز بدائعه . وكان في تنميق الهزل والنادرة الحارة أقدر منه على سائر ذلك . وشعره حسن عند أهل النقد ، وتصرف فيه تصرف المطبوعين ، فلم يقصر عن غايتهم » (١) .

وفي موضع آخر يشير ابن حيان إلى الكاتب أبي جعفر أحمد بن عباس وزير زهير الفتي صاحب المرية ، فيقول :

« ومن عجبه أنه . . . تنقص أديبهم (أديب قرطبة) أبا عامر ابن شهيد ، ولم يك يصلح مستملياً له » (٢) .

ولعل ما نقلناه عن ابن حيان حول انقياد الكلام لابن شهيد شعره ونثره دون عناية بالطلب من أوضح الأدلة على إرهاف حسن ابن حيان الأدبي وجودة تذوقه وفطنته إلى عنصر الإلهام في فن الأديب المبدع . وإشارة ابن حيان إلى قلة ما وجد لدى أبي عامر من الكتب ملاحظة نافذة تدل على إدراك ثاقب لذلك العنصر الذي كان قوام إنتاج ابن شهيد الأدبي .

ولنقرن هذا الحكم بكلام ابن حيان عن أحد علماء اللغة المبرزين ذوى الصيت الطائر والمكانة المشهود بها ، وهو أبو القاسم ابن الإفليلي :

« وكان أبو القاسم . . . قد بذ أهل زمانه بقرطبة في علم اللسان العربي والضبط لغريب اللغة في ألفاظ الأشعار الجاهلية والإسلامية ، والمشاركة في بعض بيانها . وكان غيوراً على ما يحمل من ذلك الفن . . . راكبا رأسه في الخطأ البين إذا تقلده أو نشب فيه . . . واستكتبه محمد بن عبد الرحمن المستكني بعد ابن برد ، فوقع كلامه جانبا من البلاغة ، لأنه كان على طريقة المعلمين المتكلفين ، فلم يجر في أساليب الكتاب المطبوعين ، فزهد فيه » (٣) .

(١) ابن بسام : الذخيرة ق ١ - ١٦١/١ - ١٦٢ .

(٢) نفس المرجع : ق ١ - ١٧٦/٢ .

(٣) نفس المرجع : ق ١ - ١ - ٢٤٠/١ - ٢٤١ .

فإن حيان يتنبه بحسه الأدبي إلى أن العلم باللغة وغريبها وحفظ الأشعار قديمها ومحدثها لا يخلق الأديب ولا الشاعر ، كما لم يضر أبا عامر ابن شهيد في شيء قلة عنايته بالطلب ولا بعده عن استظهار الكتب .

وهذا هو ما جعل ابن حيان حريصا فيما يختاره في ثنايا تاريخه من المنظوم والمنثور ، مدققا فيه ، متقرا عن قيمته الفنية ، فهو لا يورد النصوص الأدبية جزافا ، بل يمعن النظر فيما يأتي به على نحو قد يبدو غريباً من مؤرخ لم يكن عليه في ذلك من مثونة ، مع أن مؤلفي المنتخبات الأدبية الذين وقفوا تأليفهم على هذا الجانب كثيراً ما يعنون الباحث في الأدب بما يسوقونه من غث النظم ومرذول النثر . وحتى إذا اضطر ابن حيان إلى إيراد ما لا يرضاه من النصوص الأدبية وإنما أثبتته لمكانة قائله أو لدلالة خاصة فإنه لا بد أن يتبعه برأيه فيه .

وذكر من أمثلة ذلك أبياتا أثبتها ابن حيان في القطعة التي نشرها اليوم من « المقتبس » نقلا عن معاوية بن هشام الشيبينسي لأبي قصى يعقوب بن الأمير عبد الرحمن بن الحكم . فهو يعقب عليها بقوله : « وصفه بالشعر ثم لم ينشد له منه ما يصدق وصفه » ويدلل ابن حيان على رأيه بالتنبيه على إحالة بعيدة ألجأت القافية إليها ذلك الأمير المنسوب إلى الشعر في أحد أبيات قطعته (١) .

ومثل آخر يقدمه لنا في معرض اختياره لأبيات أحد ملوك الطوائف ، هو جبر الدولة ذو الرياستين أبو مروان عبد الملك بن هذيل بن خلف بن لب بن رزين ملك سهلة بني رزين . فقد رأى ابن حيان بعد إيراد تلك الأبيات أنها من الضعف والتفاهة بحيث لا تستحق منه كبير نقد ، وإنما أجمل وصفها بقوله بعد أن سخر بفرور هذا الأمير المتعالم الذي أراد أن يقحم نفسه في زمرة الشعراء : « وشعره . . . جسم بلا روح ، وليل بلا صبح » ، ثم يقول بعد إيراده تلك القطع : « . . . إلى غير هذا من مخفه » (٢) .

(١) انظر هذه القطعة من « المقتبس » ، ورقة ١٩٥ من الأصل المخطوط . وقد نقل ابن الأبار هذه الأبيات وتعليق ابن حيان عليها في الحلة السراء ١٢٥/١ .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ٣/٣٠٩ - ٣١٠ . ويستوقف النظر أن الأمير المشار إليه ولي حكم سهلة بني رزين (التي مازالت تعرف إلى اليوم باسمها العربي Albarracin) فيما بين سنتي ٤٢٦ و ٤٩٦ (١٠٤٤/١٠٤٥ - ١١٠٣) ، أي أن الحياة امتدت به بعد ابن حيان أكثر من ربع قرن . وكان ابن حيان يعرف بغير شك أن حكمه عليه لا بد أن يبلغه ، فلم يمنعه ذلك من أن يعبر عن رأيه فيه بما هو معهود من صراحة خشنة لا تعرف الجاملة ولا المواربة .

ونذكر بهذه المناسبة أن مؤلفين أفردا كتابهما للمختارات الأدبية هما ابن بسام الشنتريني والفتح بن خاقان عرضا لهذا الأمير المتشاعر فكان مذهبهما إزاءه أبعد ما يكون عن مذهب ابن حيان.

أما ابن بسام فقد ساق لنا من غث شعره ما سود به صفحات كثيرة من كتابه بعد أن قدم له بقوله : « وأما ذو الرياستين فكان له طبع يدعو فيجيب ، ويرى ثغره الصواب عن قوسه فيصيب » ، على أنه مع ذلك كان مقتصدآ في مدحه ، ولم يخله من نقد لمذهبه في شعره (١) .

وأما ابن خاقان فقد أفرد له أحد فصوله المعهودة . . . من نوع تلك التراجم التي لا يظهر المرء فيها إلا بسجمات يصبك السمع رنين ألفاظها الأجوف ، اللهم إلا ما حشاها به من الملق والكذب ، فقد بدأ بأن جعل ابن رزين هذا « غيثا للندى ، وليثا على العدى » كذا ! ، مع أنه لم تعلم عن هذا « الليث » غزوة على عدو ، ولا أثر عنه انتصار في معترك ! () ، وبدراً في المحفل ، وصدراً في الجحفل . . . ثم مضى يورد قطعاً له من نوع ذلك الهذر الذي لم يتردد ابن حيان في وصفه بالسخف ، مقدماً لها بقوله : « وله نظم ونثر ما قصرنا عن الغاية ، ولا أقصرنا عن تلتى الراية ، وقد أثبت منهما نبذا تروق شهوسا ، وتكاد تشرب كووسا » (٢) .

وهذه المقارنة بين ابن حيان وهو رجل صناعته التاريخ وابن بسام وابن خاقان وهما أديبان كان يفترض فيهما أن يكونا أدق اختياراً وأشد احترازاً بحكم طابع كتابيهما — إنما تدلنا على أن أبا مروان كان أجود منهما ذوقاً وأعمق إحساساً بتبعة الاختيار الأدنى . أما الصدق في المقال والقصد في الوصف فلا مجال لأي مقارنة بين ابن حيان وأمثال ابن خاقان من ذوى التحذلق والرقاعة . . .

وإن إحساسنا بمدى تحمى ابن حيان في اختياراته الأدبية ليزداد عمقا وتأكداً ونحن نتأمل الفصل الطويل الذى ساقه للحديث عن شعراء الإعدار الذنوتى الذى ضرب به المثل فى الأندلس فى الفخامة والإسراف . وكان المأمون يحيى بن ذى النون ملك طليطلة قد أقام هذا الإعدار فى سنة ٤٥٥ (١٠٦٣) واستدعى له مبرزى شعراء حضرته . وبدأ ابن حيان فساق وصف الإعدار نقلا عن خطاب كتب به إليه الأديب ابن جابر ، يقول بعد الفراغ منه :

(١) ابن بسام : الذخيرة ، القسم الثالث ، مخطوطة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، ورقة ١٣ ب - ١١٦ ، وقد نقل ابن عذارى عنه بعض عباراته حول ابن رزين فى البيان المغرب ٣ / ١٨٤ .

(٢) الفتح بن خاقان : فلانذ المقيان ، ط . يولاق سنة ١٢٨٣ هـ . ص ٥١ وما بعدها .

« هذا أخبر خطاب ابن جابر إلى بوصف الإعدار . . . خلا أنه سامنى ذكر مقطوعات حشا بها كتابه إلى من صنعة صديقه عبد الله بن خليفة المصرى تعاور المغنون فى تلك الليلة الغناء بها وجميعها عندى فى نهاية من الضعف والتخلف ، والتبرؤ من صنعة الشعر ، يبغى بها توشيح هذا المشهد الجليل الذى قيلت فيه بنظمها فى عقده ، فلم أسعده على ذلك ترفيعا به عن هجنتها ، وتبرئة لنقدى على استجادة سبكها ، ومذمة لزمن غفل أقحم قائلها فى زمرة الشعراء » .

ثم يتبع ابن حيان كلامه بأحكام مفصلة على شعراء ذلك المشهد : فيتحدث عن ابن خليفة « المصرى » الذى حقق ابن حيان أصله ، فإذا به لا يمت إلى مصر بصلة ، وإنما كان ابن جابر له من تجار الخفافين رمت به النوى إلى بلاد العدو ، فتردد بها ، ثم « عاد على زعمه مصرىا صليبية ، وأديبا باقرا ، وشاعرا باقعة » ، وقد أوردنا ما ذكر ابن حيان فى نقده لشعره . ثم يتحدث عن ابن شرف القيروانى الذى أنشد قصيدة « أطال فيها التشيب فخلص إلى التهنئة وقد استفرغ القريحة وطول فما أتى بطائل » ، وقام بعده محمد بن زكى الأشبونى فأنشده شعرا ركب فيه سنن من قبله . ويحتم ابن حيان هذا الفصل بأسفه على أن لم يكن فى هذا المشهد إدريس بن ايمان اليايسى الذى يعتبره ابن حيان فحل شعراء الأندلس فى ذلك العصر .

ومع ذلك فقد أورد ابن حيان على عادته فى الإيعاب بعض ما اختاره من قصائد هؤلاء الشعراء « لئلا يخلو جيد التأليف من مخشلبها » (١) .

وأغرب ما نقرأ لابن بسام بعد أن نقل هذا الفصل عن ابن حيان هو قوله : « وأثبت ابن حيان فى كتابه لتلك الطائفة المنشدة يومئذ عدة قصائد ، ولم يسلك فيها سبيل ناقد » (١) وليت شعرى أى نقد كان يريد ابن بسام أحكم ولا أصدق مما قدم به ابن حيان بين يدي ما اختاره ؟ مع أنه لو كان ابن بسام فى هذا المشهد لأقبل يكيل لنا من ذلك « المخشلب » ما لا يطيق قراءته ولا سماعه إلا أولو الحول والقوة بعد أن بصوغ فى مدحه ما رأينا مثله من قبل فى كلامه عن « سنف » ذى الرياستين ابن رزين . . .

(١) انظر هذا الفصل بطوله فى ابن بسام : الذخيرة ق ٤ - ١٠٦/١ - ١٠٩ .

ابن حيان في نظر المتأخرين :

ربما كان من عيوب الاستكثار في التأليف أن تداول الكتب المطولة في العصور الوسطى - مع عدم الطباعة وثقل مؤونة الاستنساخ - كان أمراً بالغ العسر ، وأخطر ما فيه هو تعرض تلك الكتب للضياع . وقد كان ذلك بالفعل هو ما وقع لكتب المؤلفين ذوى النفس الطويل من أمثال ابن حزم وابن حيان في الأندلس . إذ لم يصل إلينا من إنتاجها الهائل الغزير إلا ما لا يكاد يذكر قلة . ونحن من أجل ذلك نشعر بعميق الامتنان لمؤلف مثل ابن بسام ، فقد حفظ لنا في « ذخيرته » من تاريخ ابن حيان ما يعد وحده ذخيرة لا تقدر بثمن .

وقد كان ابن حيان في عصره وبعد ذلك بوقت طويل موضع إعجاب الأدباء والمؤرخين ، ولكننا لا نجروء مع ذلك على أن نقول إنه كان صاحب « مدرسة » في كتابة التاريخ ، فهو شخصية متفردة بذاتها ، ولم يكن لعمله من يواصله على نفس مستواه . وإذا كان هناك عدد معروف لا بأس به من تلاميذه فإن الحذر يقتضينا ألا نتسرع في اعتبارهم من رجال مذهبه أو مدرسته . حتى أولئك الذين نعرف عنهم أنهم كتبوا صلوات أو ذيولاً على تاريخه لايسهل اعتبارهم من هذا الضرب . وأما الذين استكثروا في النقل عنه فإن تأملنا لما كتبوه يدل على أن تأثرهم بابن حيان قد وقف عند حد النقل الجرفي ، وليس هذا في الحقيقة من التأثر في شيء .

ولهذا فإن الإطالة في بحث ما دعاه بعض من تعرضوا لدراسة مؤرخنا « بنفوذ ابن حيان في المؤرخين المتأخرين » أمر يبدو لنا فيه كثير من المبالغة ، فضلاً عن أنه قليل الجدوى .

ولسنا نعلم ممن كتبوا صلوات لتاريخ ابن حيان إلا اثنين :

أولهما القاضى ابن حبيش ، وهو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن يوسف ، وكان من أهل المرية ، ولد فيها سنة ٥٠٤ (١١١٠) ودرس فيها وفي قرطبة ، ثم عاد إلى المرية وأدرك محنتها حينما احتلها ملك قشتالة السليطين (ألفونسو السابع الملقب بالامبراطور Alfonso VII, el Emperador) سنة ٥٤٢ (١١٤٧) ، ويذكر عنه أن علمه بالتاريخ نجاه من المكروه ، إذ حمل إلى الملك المسيحي ، فقال له ابن حبيش إنه يعرف نسبه إلى هرقل (كذا ١) ، ثم ساق له ذلك النسب كاملاً ، فأعجب به الملك وخلق سبيله ، فانتقل من المرية مع أهله وعياله إلى جزيرة شقر حيث ولى الصلاة ، ثم إلى مرسية فولى هناك القضاء والصلاة . وكانت وفاته سنة ٥٨٤ (١١٨٨) .

وتلمذ عليه الكثيرون من علماء الأندلس ، منهم الضبي صاحب « بغية الملتبس » وابن دحية صاحب « المطرب » وابن حوط الله المحدث وغيرهم (١) . ويذكر ابن الأبار أن له تعليقات على تاريخ ابن حيان رآها بخطه ونقل منها في عدة مواضع من كتابه (٢).

والآخر هو أبو الحجاج يوسف بن محمد البياسي ، ولد في بياسة سنة ٥٧٣ (١١٧٧) ، وجاب أنحاء الأندلس ، ثم انتقل إلى تونس حضرة الحفصيين ، فحظي لديهم وقربه سلاطينهم حتى وفاته سنة ٦٥٣ (١٢٥٥) ، وقد عرفه ابن سعيد وتلمذ عليه ووصفه بأنه من أشياخ المؤرخين حافظا لنكت تواريخ الأندلس حديثا وقديما (٣) .

وقد ذكر ابن سعيد أن لأبي الحجاج البياسي تاريخا ذيل به على « المتين » ووصله إلى عصره (٤) . ولم يصلنا شيء من تعليقات ابن حبيش ولا من تذييل البياسي حتى نستطيع أن نحكم على هذين الكتابين أو نتبين مدى جدارتهما بأن يعدا تكملة حقيقية لتاريخ ابن حيان ، ولكن ما عرفناه من كتابات هذين العالمين في غير هذا الميدان يجعلنا في شك من ذلك ، فهو لا يرقى إلى أسلوب ابن حيان ، بل لا يكاد يقاربه في شيء .

وقد أشار غرسية غومس (٥) إلى ناحية من نواحي تأثر المؤرخين الأندلسيين المتأخرين بابن حيان ، وهي أكثر تعلقا بالشكل منها بالمضمون ، واستشهد على ذلك بما يقدمه لنا تاريخ ابن صاحب الصلاة (ت ١١٩٨/٥٩٤) (٦) من وصف مفصل لحياة البلاط الموحدى وفخامة استقبالاته

(١) انظر في ترجمة ابن حبيش الضبي : بغية رقم ٩٨٨ ؛ ابن الأبار : التكملة رقم ١٦١٧ ؛ وبولس بويجس : المؤرخون والجغرافيون الأندلسيون ص ٢٥٣ - ٢٥٤ والمراجع المذكورة .

(٢) ابن الأبار : الحلة السيرة ١١٦/٢ - ١١٧ ، ٣١١ .

(٣) انظر في ترجمته ابن سعيد : المغرب ٧٣/٢ ؛ واختصار القدر الممل لابن خليل ، بتحقيق الأستاذ إبراهيم الإبيارى ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ٩٤ ؛ السيوطى : بغية الوعاة ، ط . القاهرة ١٣٢٦ هـ . ، ص ٣٢٤ ؛ المقرئ : نفع الطيب ١٧٢/٤ ؛ وانظر كذلك بولس بويجس : المؤرخون والجغرافيون الأندلسيون ص ٢٩٠ والمراجع الواردة هناك

(٤) ابن سعيد : المغرب ٧٣/٣ ؛ المقرئ : نفع ١٧٢/٤ .

(٥) في مقاله : بول ابن حيان ص ٤٢٢ (= ٢٨ من الفصلة) .

(٦) يقصد السفر الثانى من كتاب « المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أممة وجعلهم الوارثين » . . وقد كان الكتاب حينما تحدث عنه غرسية غومس في سنة ١٩٤٦ لا يزال مخطوطا بعد ، والأصل الخطى الوحيد منه هو المحفوظ في المكتبة البودلية بأوكسفورد . على أنه قد نشر أخيرا بعناية الباحث المغربى الأستاذ عبد الهادى التازى ، وطبع في بيروت سنة ١٩٦٤ .

واحتفالاته وأخبار الوفود والسفارات وغير ذلك مما ساقه مؤرخ الموحدون في دقة متناهية ، فقد رأى غرسية غومس في ذلك احتذاء لما فعله ابن حيان - أو بتعبير أصح : عيسى بن أحمد الرازي - حين استبلغ في وصف هذه المظاهر « البلاطية » في قرطبة على عهد الخليفة الأموي الحكم المستنصر ، مما حفظه لنا مخطوط المجمع التاريخي الملكي بمديرية .

وعلينا كذلك أن نشير في النهاية إلى لسان الدين ابن الخطيب اللوشي الغرناطي (ت ٧٧٦ / ١٣٧٤) الذي كان بالنسبة لأندلس عصره - بعد أن تضاءلت وانحصرت في مملكة غرناطة الصغيرة - كابن حيان في محيط بيئته وزمانه . وقد ترسم ابن الخطيب في كثير من جوانب كتاباته التاريخية خطوات ابن حيان ، وهو يعتبر بحق أعظم مؤرخي عصره وواحداً من أعظم كتاب الأندلس على أن بين الرجلين من الفرق ما بين أندلس القرنين الرابع والخامس مما كانت تحفل به من التفتح والنضج الفكري والثقافي الموروث عن عصر الخلافة المروانية وأندلس القرن الثامن التي كانت قدما في طريق الاضمحلال والانهيار . وإن كان الحق يقضى علينا بأن نقول إن ابن الخطيب كان بارقة من العبقرية في ذلك العصر تشبه ومضة الذبالة المتوهجة قبل أن ينطفئ المصباح ويلف الظلام كل شيء

* * *

أما الذين نقلوا من تاريخ ابن حيان والذين يمكن أن يعينونا بنقولهم هذه على « إعادة بناء » جزء كبير من هذا التاريخ فإن تتبعهم أمر ليس له كبير جدوى إلا إذ قصدنا إلى هذا الهدف على وجه الخصوص . وقد سبق للباحث الإسباني ملتشور أنطونيا أن أفرد هذه المسألة بالدراسة في بحثه عن ابن حيان (١) . فأورد قائمة طويلة بأسماء المؤرخين الذين نقلوا عنه ذكر منهم : ابن بسام وابن بشكوال وابن الأبار وابن سعيد وابن عذارى وابن الخطيب وابن خلدون والمقرئ والناصرى السلاوى . غير أن ملتشور أنطونيا كان قد أنجز دراسته المذكورة قبل أن تظهر إلى النور كتب ونصوص أندلسية كثيرة وتكتشف مخطوطات عديدة ، ولهذا فإن قائمته تبدو اليوم ناقصة محتاجة إلى إعادة النظر . وعلى كل حال فلسنا في حاجة إلى التذليل على أن كل المؤرخين التاليين لابن حيان كانوا عالة على تاريخه : ينهلون من مورده كلما تهيأ لهم ذلك . ونحن نحمد الله على ما فعلوا ، فقد حفظوا لنا من كتبه المفقودة ما يعتبر ذخيرة ثمينة لا كفاء لها .

* * *

(١) ابن حيان القرطبي وتاريخه ، ص ٤٠ وما بعدها .

وأما أحكام المؤرخين المتأخرين عليه ففيما عدا اتهامه بالثلب والوقوع في الأعراس - وهي القضية التي ناقشناها من قبل - فإننا نجد إجماعاً على التسليم لابن حيان بإمارة علم التاريخ في الأندلس ويكفيها هنا أن تأتي بشاهدين نجتزئ بهما في الحديث عن مكانة ابن حيان :

أولها لفيلسوف التاريخ العربي ابن خلدون الذي يقول في مقدمته :

« وجاء من بعدهم (بعد الجيل الأول من كبار المؤرخين المسلمين مثل الطبري والمسعودي وغيرهما) من عدل عن الإطلاق إلى التقييد . . . فقيده شوارد عصره ، واستوعب أخبار أقطاره ، واقتصر على تاريخ دولته ومصره ، كما فعل ابن حيان (في الأصل : أبو حيان وهو خطأ) مؤرخ الأندلس والدولة الأموية بها وابن الرقيق مؤرخ إفريقية والدولة التي كانت بالقبروان ، ثم لم يأت من بعد هؤلاء إلا مقلد ، وبليد الطبع والعقل أو متبلد ، ينسج على ذلك المنوال ، ويحتذى منه بالمثال ، ويذهل عما أحالته الأيام من الأحوال ، واستبدلت به من عوائد الأمم والأجيال فيجلبون الأخبار عن الدول ، وحكايات الوقائع في العصور الأول : صوراً قد تجردت من موادها ، وصفاحاً انتضيت من أغمارها » (١) .

والشاهد الآخر مما كتبه المستشرق الهولندي العظيم دوزي أول من وجه النظر إلى ابن حيان ونشر قطعاً من تاريخه :

« إن كتاب العرب يمتدحون في كتب ابن حيان صدق الرواية بقدر ما يعجبون بجزالة لغته ورنين عباراته . وأنا أويدهم في ذلك كل التأييد ، ولا أتردد في القول بأن كتبه لوبقيت لألفت على تاريخ الأندلس الغامض ضياء باهرة ولصورته لنا أحسن تصوير ، ولوجدنا أنها تبلغ من الامتياز مبلغاً يجعلنا نستغني بها عن غيرها من الكتب التي تتناول تاريخ هذه العصور . إن ابن حيان سيال الأسلوب ، ولكنه مع ذلك لا يتعثر في الإطناب والتعمقة اللفظية ، كما فعل غيره من أصحاب الروايات المسهبة التي لا تنهى . إنه ليسوق التاريخ مساق من يبدى رأيه وحكمه فيما يعرض من القضايا ، ويبحث عن أسباب الأشياء ، ويناقشها عن علم وفهم وذكاء ، كما سيفعل من بعده مؤرخون نقادون كابن سعيد وابن خلدون . ويمتاز ابن حيان إلى ذلك بأسلوب صاف ناصع ، لا يهبط إلى الركاكة التي تثير السخط ، ولا يقع كذلك في التفتيح والإسراف في قعاقع الألفاظ .

(١) مقدمة تاريخ ابن خلدون ، ط . المكتبة التجارية ، القاهرة بدون تاريخ ص ٥ .

رغم التزامه هذه السهولة لا يهمل جانب الجمال في أسلوبه ، ويبعث في كلامه دائماً حماساً وغنى وطابعاً غالباً من الجدل . نعم ، إنه يلجأ في بعض الأحيان إلى التشبيهات وضرب الأمثلة . ولكنه — رغم امتيازه بفصاحة القدماء — لا يولع بما أولع به معاصروه . ونخرج من هذا كله بأننا لا نجد من بين مؤرخي العرب إلا القليلين ممن نستطيع أن نقارنهم به ، ولن نجد بينهم من تقدمه عليه « (١) » .

المقتبس — مخطوطاته وما نشر منه :

كان كتاب « المقتبس » لابن حيان يتألف — كما سبق أن ذكرنا — من عشرة أسفار ، وقد كرر المؤرخون المتأخرون هذه العبارة في كل ما كتبه عن ابن حيان من ابن سعيد إلى حاجي خليفة . وقد كان من حسن الحظ أن قطعاً من هذا الكتاب الجليل قد وصلت إلينا في مخطوطات تتفاوت جودة وضبطاً ، فضلاً عن النقول الكثيرة التي يوردها مؤرخو الأندلس بعد ابن حيان من هذا الكتاب . وسنورد فيما يلي بياناً بهذه القطع ما نشر منها وما لا يزال مخطوطاً ، مرتبة ترتيباً زمنياً :

١ — الأولى قطعة مخطوطة كبيرة حصل عليها المستشرق الفرنسي الأستاذ ليني بروفنسال من الخزانة العامة لجامع القرويين في فاس بالمغرب الأقصى . وهي تضم كل إمارة الحكم بن هشام الربضي (١٨٠ — ٢٠٦) والشطر الأعظم من إمارة ابنه عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ — ٢٣٢) ، وكانت تقع في ١٨٨ ورقة . وقد انتفع ليني بروفنسال كثيراً من هذه القطعة في عديد من أبحاثه ولاسيما كتابه الجامع عن « تاريخ إسبانيا الإسلامية » الذي نشره في باريس بين سنتي ١٩٥٠ و ١٩٥٥ في ثلاثة أجزاء .

ولم يترك لنا المستشرق الفرنسي وصفاً مفصلاً لهذه القطعة ، ولكننا تأخذ من بعض إشاراته إليها في تاريخه أنه كان قد حققها تحقيقاً كاملاً وأعدّها للنشر منذ سنة ١٩٣٨ ، وأنه أرسلها إلى إحدى الجامعات المصرية لكي تنشر هناك ولكن الجامعة المذكورة لم تعتن بإخراجها على الرغم

(١) دوزي : جامع أخبار بني عياد ١٩٠/١ ، ٢١٧ ، وقد اعتمدنا على الترجمة العربية التي قام بها الدكتور حسين مؤنس لكتاب تاريخ الفكر الأندلسي لأنخل جونثالث بالثيا . إذ كان النص من بين ما أورده المؤلف في سياق ترجمة ابن حيان . (انظر ص ٢١١) .

من مضي اثني عشر عاما على الفراغ منها وإرسالها(١) . ولا شك في أن ليني بروفنسال يعني بذلك جامعة الإسكندرية ، فالمعروف أنه كان قد فاوض الأستاذ عبد الحميد العبادي رحمه الله في أن تقوم تلك الجامعة بنشر المقتبس ، وأنه بعث إليه بصورة للمخطوط ، ولكن الذي نعرفه هو أن ليني بروفنسال لم يكن قد أتم تحقيق المخطوط ، وإلا فإنه لم يكن ليعدم الوسائل لنشر مثل هذا الكتاب الجليل في أى مكان آخر بدلا من هذا الانتظار الطويل . ويبدو أن ليني بروفنسال كان يريد أن يشرك معه الأستاذ العبادي أو غيره من المشتغلين بالأندلسيات في تحقيق الكتاب ، ولكن ذلك لم يتيسر واسترد المستشرق الفرنسي مصورة المخطوطة ، وظلت في حوزته حتى وفاته سنة ١٩٥٧ .

ومنذ هذا الوقت لم يعرف أحد لهذه القطعة مستقراً ، وقد اجتهدنا في البحث عنها لدى من يمكن أن تكون لديه ، فسألنا عنه أرملة الأستاذ بروفنسال وأصدقاءه من المستشرقين فلم يهتد أحد إلى مآلها . ولو انتهى أمرها إلى الضياع لكان ذلك خسارة كبيرة لتراث الأندلس وتاريخها . على أننا لم نفقد الأمل بعد في إمكان العثور على هذه القطعة الجلييلة أو الاطمئنان إلى أنها ستقع في أيدي أمينة تحرص على أن تنشر بما هي جديرة به من عناية أو تعرف على الأقل مدى قيمتها ونفاسها .

٢ - القطعة الثانية هي التي تلى السابقة مباشرة ، وكانت تؤلف معها مخطوطا واحدا . وقد عرفنا بنبأ وجودها في مكتبة جامع القرويين بفاس من الأستاذ ليني بروفنسال نفسه ، فقد اطلع عليها واستفاد من بعض نصوصها في كتابه عن تاريخ الأندلس . وكنا في خوف من أن تكون قد اندثرت أو ضاعت حتى أكد لنا وجودها هناك الأستاذ الجليل محمد عبد الله عنان صاحب الفضل الكبير . على الدراسات الأندلسية بما نشر من كتب قيمة في هذا الميدان ، ثم سنحت لي الفرصة للاطلاع على هذه المخطوطة في فاس في إحدى رحلاتي إلى هذه المدينة الجميلة عاصمة المغرب الثقافية والروحية . وتفضل القائمون على أمر المكتبة بالسماح لنا بتصوير هذه القطعة . وأنا أقدم خالص الشكر بهذه المناسبة إلى الأستاذ الجليل الفاضل محمد العابد الفاسي أمين خزانة جامع القرويين على ما أبداه من كرم ومروعة واهتمام بإعانة الباحثين على أداء رسالتهم . والحقيقة أن هذه لم تكن المرة الأولى التي يبذل الأستاذ العابد الفاسي مثل هذا العون الكريم النبيل لكاتب هذه السطور . فقد سبق أن تفضل بمثله حينما كنت أشرع في تحقيق ديوان ابن دراج القسطلي ، إذ تكرم بإهدائي

(١) انظر ليني بروفنسال : تاريخ إسبانيا الإسلامية ١٥١/١ ، حاشية رقم ١ .

مصورة لقطعة من هذا الديوان كانت محفوظة في تلك الخزانة في حوافظ الأوراق المتفرقة (الذشت) ، وأعانتني هذه القطعة على استكمال بعض الفجوات والخروم في الديوان . وأنا أسجل شكري من جديد للعالمين الفاضلين الأستاذين عبدالله عنان والعايد الفاسي على ما أولياني به من كريم العناية .

وقد كانت هذه القطعة في إحدى حوافظ الأوراق المتفرقة في خزانة القرويين ، وهي تبدأ من حيث تنتهي القطعة السابقة أي من سنة ٢٣٢ حتى ٢٦٧ ، فهي تاريخ الأندلس خلال السنوات الأخيرة من إمارة عبدالرحمن الأوسط بن الحكم (٢٣٢ - ٢٣٨) ثم معظم إمارة محمد بن عبد الرحمن (ولى بين سنتي ٢٣٨ و ٢٧٣) . وترقيم الأوراق متصل بترقيمها في القطعة السابقة ، فهو يبدأ برقم ١٨٩ وينتهي ب ٢٨٤ ، أي أنها تشتمل على خمس وتسعين ورقة .

٣ - القطعة الثالثة هي التي نشرها الراهب الإسباني الأب ملتشور أنطونيا في باريس سنة ١٩٣٧ عن الأصل المخطوط المحفوظ في المكتبة البودلية تحت رقم ٥٠٩ ، وتتناول إمارة عبدالله بن محمد (٢٧٥ - ٣٠٠) ، وتضم مائة وسبع ورقات .

٤ - القطعة الرابعة هي التي عثر عليها مؤخرآ في خزانة القصر الملكي في الرباط عاصمة المغرب . والحقيقة أن نبأ وجودها في تلك الخزانة ليس جديداً تماماً . فقد عرف ملتشور أنطونيا نفسه بذلك ، إذ أشار إلى أنه اطلع في قائمة لكتب الخزانة السلطانية في مكناس (حينما كان ملوك المغرب يتخذون هذه المدينة عاصمة للبلاد) على مخطوط كان يحمل رقم ١٢٨٣ أثبت أمامه أنه القسم الخامس من كتاب « المقتبس » وأنه متعلق بسنوات من خلافة عبد الرحمن الناصر . ولم يسعدنا الحظ برؤية هذه النسخة مما لا يسمح لنا بالحكم عليها .

٥ - القطعة الخامسة هي مخطوطة المجمع التاريخي الملكي بمدريد ، وهي مخطوطة حديثة كان المستشرق الإسباني فرانسيسكو كوديرا قد قام باستنساخها عن أصل قديم كان محفوظا في مكتبة ورثة سيدي حمودة في قسنطينة (الجزائر) تحمل رقم ٣٣٩ . وفي سنة ١٩٤٢ تبين أن المخطوط الأصلي قد فقد وذهب أثره ، وهكذا أصبحت نسخة كوديرا هي الأصل الوحيد لهذه القطعة من الكتاب . وقد اضطلع بنشر هذه القطعة في بيروت أخيراً (في سنة ١٩٦٥) - الأستاذ عبد الرحمن الحجى . وهي تعالج أحداث خمس سنوات غير كاملة من خلافة الحكم المستنصر بالله (٣٦٠ - ٣٦٤) .

* * *

ولتر الآن مدى اتساق ما نعرفه من قطع المقتبس التي وصلت إلينا مع ما يردده من ترجموا لابن حيان أو تحدثوا عن كتبه من أمر تلك الأسفار العشرة التي كان يتألف منها « المقتبس » .

ف نجد أولاً أن القطعتين الأولى والثانية وتتألف من كليهما مخطوطة جامع القرويين بفاس كانتا مؤلفان - على ما يبدو - السفر الثاني كاملاً من الكتاب . وإذا كنا لم نستطع الاطلاع على القطعة الأولى التي كانت في حوزة ليني بروفنسال فإن القطعة الثانية التي نقدمها اليوم تنص صراحة على ذلك ، فهي تنهى - بعد الفراغ من ذكر أحداث سنة ٢٦٧ بهذه العبارة : « كمل السفر الثاني بحمد الله تعالى ، يتلوه في الثالث مبتدأ نجوم عمر بن حفصون كبير الثوار في الأندلس » فإذا كان هذا السفر الثاني هو المتضمن لأحداث الأندلس من مبتدأ خلافة الحكم بن هشام حتى قرب نهاية محمد بن عبد الرحمن (من سنة ١٨٠ حتى ٢٦٧) (١) فإن السفر الأول من المقتبس لابد أنه كان يتناول المقدمة الجغرافية التي يرجع أن ابن حيان صدر بها تاريخه (٢) ، ثم فتح العرب للأندلس ، وعهد الأمراء التابعين لخلافة بني أمية في دمشق إلى يوسف بن عبد الرحمن الفهري (من سنة ٩١ حتى سنة ١٣٨) ثم إمارتي عبد الرحمن بن معاوية الداخل وابنه هشام (١٣٨ - ١٨٠) . أي أن

(١) وفيما يلي أقسام هذا السفر الثاني الذي يضم قطعة ليني بروفنسال وقطعتنا الحالية ، وقد رجعتنا في معلوماتنا عن القطعة الأولى إلى ما أورده المستشرق الفرنسي في تاريخه عنها :

١ - القسم الأول عن خلافة الحكم بن هشام الربضي (ولي بين سنتي ١٨٠ و ٢٠٦) وهو يشغل في المخطوطة من الورقة الأولى حتى رقم ١٠٣ . (انظر ليني بروفنسال : تاريخ اسبانيا الإسلامية ١٥٠/١ ، حاشية ٢) .

٢ - القسم الثاني عن إمارة عبد الرحمن الأوسط بن الحكم (ولي بين سنتي ٢٠٦ و ٢٣٨) ، ويشغل في المخطوطة من الورقة ١٠٣ حتى ٢١٥ . (انظر ليني بروفنسال : تاريخ ١٩٣/١ ، حاشية ٢) . وقد توزع هذا القسم بين قطعة بروفنسال وقطعتنا . فبقى لديه الجزء الأكبر منه (من ١٠٣ حتى ١٨٨) ، ووقع إلينا باقية (من ١٨٩ إلى ٢٠٣) . الغريب أن المستشرق الفرنسي يقول في الموضع الذي أشرنا إليه قبل في وصف هذا القسم إن المخطوط يبدأ بمقدمات عامة حول حكم عبد الرحمن الأوسط ثم يأخذ في سرد الأحداث مرتبة على السنين حتى يصل إلى سنة ٢٣٢ فينقطع السرد عند الورقة ٢٠٣ . وليس هذا صحيحاً فإن السرد إنما ينقطع عند الورقة ١٨٨ التي ينتهي بها الجزء الذي كان في حوزته فقط ، وإلا فإنه يستمر بعد ذلك في قطعتنا حتى الورقة ٢٠٣ . ويدلنا هذا على أن بروفنسال - وإن كان قد اطلع على قطعتنا - لم يفحصها بمنأى ولم يستفد منها في تاريخه على ما كان ينتظر .

٣ - القسم الثالث عن إمارة محمد بن عبد الرحمن ، وهو يبدأ بالورقة ٢١٥ حتى نهاية المخطوطة في الورقة ٢٨٤ بأحداث سنة ٢٦٧ كما ذكرنا .

(٢) انظر الدكتور حسين مؤنس : تاريخ الجغرافية والجغرافيين ، ص ١٠١ ، وما سبق أن ذكرنا .

هذا السفر الأول كان يضم تاريخنا لنحو تسعين سنة من حياة الأندلس . وليس هذا السفر مجهولاً لنا تماماً ، فقد أورد المقرئ في « نفع الطيب » نقولاً كثيرة منه ، ولاسيما في الجزأين الأول والرابع (من طبعة الشيخ محيي الدين عبد الحميد) .

أما القطعة الثالثة وهي التي نشرها ملتشور أنطونيا عن مخطوطة أوكسفورد فإن ظاهر ما ذكره الناشر أنها تضم القسم (أو السفر) الثالث من الكتاب كاملاً . ولكن الحقيقة هي أن ما نشر ليس إلا جزءاً من هذا السفر . فنهاية القطعة التي نشرها اليوم تنص على أن السفر المذكور يبدأ بنجوم عمر بن حفصون وأحداث ثورته . كما أنه لا بد أن يكون قد تضمن سرد الأحداث بين سنتي ٢٦٧ التي ينتهي بها مخطوطنا و ٢٧٥ التي يبدأ بها السرد في مخطوطة أوكسفورد . وإذا كان المتوقع من ابن حيان التفصيل الواسع في أحداث ثورة ابن حفصون وغيره ممن قد يكون ابن حيان أشار إليهم من الثوار في أواخر أيام الأمير محمد فإن هذه الفجوة بين قطعتنا وقطعة أنطونيا – وتدخل فيها كذلك إمارة المنذر بن محمد (بين سنتي ٢٧٣ و ٢٧٥) – لا بد أن تكون كبيرة وأن السفر الثالث كان يبلغ ضعف ما نشر أو نحو ذلك .

ونأتي بعد ذلك إلى القطعة الرابعة ، وهي مخطوطة القصر الملكي في الرباط آخر ما اكتشف من قطع « المقتبس » ، ولم تتح لنا معرفة شيء عنها إلا أنها تواريخ لسنوات من خلافة عبد الرحمن الناصر الطويلة التي امتدت على طول خمسين سنة (٣٠٠ – ٣٥٠) . وقد ذكر أنطونيا فيما نقله عن الفهرس القديم لمكتبة القصر السلطاني في مكناس أن هذه المخطوطة تؤلف القسم (أو السفر) الخامس من الكتاب . وربما كان لنا أن نفهم من ذلك أن خلافة عبد الرحمن الناصر قد تكون استغرقت القسمين الرابع والخامس ، بل وربما السادس أيضاً من الكتاب ، فهي من أجل عهود التاريخ الأندلسي وأحفله بالأحداث . ولا بد أن ابن حيان قد أسهب في الحديث عنها كل الإسهاب .

وأخيراً نصل إلى القطعة الأخيرة ، وهي مخطوطة المجمع التاريخي الملكي بمدير المستنسخة عن مخطوطة قسنطينة بالجزائر ، والمنشورة مؤخرأ بعناية الأستاذ الحجى . ولم يسجل عليها إلى أي أسفار المقتبس تنتمي . وإذا كان كتاب « أخبار الدولة العامرية » يبدأ بولاية هشام بن الحكم المؤيد في سنة ٣٦٦ كما سبق أن رجحنا فإن هذا يجدد لنا مشكلة توزيع « المقتبس » على الأسفار العشرة التي يذكرها من تحدثوا عن تاريخ ابن حيان . فقد استنتجنا أن خلافة عبد الرحمن الناصر ربما استغرقت سفرين أو ثلاثة على أكثر تقدير أي حتى السفر السادس . فلا يبقى إذن من سياق التاريخ

إلا خلافة الحكم المستنصر . فهل تستحق هذه الخلافة التي لم تتجاوز أكثر من ستة عشر عاماً أن يخصص لها ما بقي من أسفار « المقتبس » ، وهي أربعة على الأقل ، حتى ولو افترضنا أن ابن حيان يكتب عنها بأقصى تفصيل ؟

لا . . . لستنا نظن الأمر كذلك ، فنحن نعتقد أن قصارى ما يكون المؤرخ قد أفردَه لخلافة الحكم لا يتجاوز سफراً واحداً . وبذلك لا نجد تفسيراً للمسألة إلا بأن ابن حيان كان قد جعل كتابه في « أخبار الدولة العامرية » في أول الأمر جزءاً من « المقتبس » ، ونحن نعرف مما يذكره المؤرخون حول هذا الكتاب ومدى ما فصل ابن حيان فيه الحديث عن العامرين أنه ربما استحق أن يشغل ثلاثة أسفار أو أربعة من « المقتبس » . ثم بدا لابن حيان بعد ذلك أن يجعل له عنواناً خاصاً تاركاً الأمر بالخيار لقارئه « فن شاء خزله عن تاريخه الكبير أو ضمه إليه » كما قال ابن الأبار في عبارة سبق لنا أن علقنا عليها في موضعها (١) . ولا عبرة هنا بما يقوله ابن الخطيب من أن كتاب « أخبار الدولة العامرية » قد « أنافت على المائة أسفاره » (٢) ، فإن مثل هذه التجزئة لو صححت لكانت شيئاً لم يقصده ابن حيان ، وإنما من عمل النساخ أو الوراقين ، وربما كان السفر لديهم لا يتجاوز عشرين أو ثلاثين ورقة .

المخطوط :

القطعة التي نقدمها اليوم من « المقتبس » هي ثلاثة القطع التي تنشر منه ، بعد مخطوطة أوكسفورد ومخطوطة المجمع التاريخي الملكي بمدريد . وكانت تؤلف مع تلك التي كانت في حوزة ليني بروفسال سافراً واحداً محفوظاً في خزانة جامع القرويين بفاس . على أن قطعنا لم تكن تبلغ إلا نحو ثلث هذا السفر ، إذ تبدأ من الورقة ١٨٩ وتنتهي بنهاية السفر المذكور في الورقة ٢٨٤ ، فهي تشمل على أربع وتسعين ورقة (إذ ضاعت مئة ورقة واحدة) . وليس على المخطوط عنوان ولا تاريخ ولا اسم ناسخ . وربما ورد شيء من ذلك على أول أوراق الأصل في القطعة التي لم نعر على أثرها بعد وفاة ليني بروفسال .

(١) ابن الأبار : الحلة السيرة ٢٦٩/١ . وانظر ما سبق أن كتبناه عن ذلك في كلامنا عن كتب ابن حيان في الفقرات الخاصة بكتاب « أخبار الدولة العامرية » ص ٦٢ .

(٢) أعمال الأعلام : ص ٩٨ ، وقد سبق أن علقنا كذلك على هذه العبارة .

والطريف في شأن قطعنا هذه أنها ليست بقلم ناسخ واحد ، بل تنقسم أوراقها إلى مجموعتين متميزتين :

– المجموعة الأولى بخط أندلسي دقيق يميل إلى اللين والتدوير ، وهي الأوراق ما بين رقمي ١٨٩ و ٢٣٥ . ثم تنقطع هذه المجموعة بعد ذهاب ورقة واحدة هي رقم ٢٣٦ . وتلي ذلك أوراق المجموعة الأخرى المكتوبة بخط مختلف حتى نهاية الورقة ٢٧٥ . ونعود ابتداء من الورقة ٢٧٦ حتى نهاية المخطوط في الورقة ٢٨٤ إلى رؤية خط الناسخ الأول .

– والمجموعة الثانية هي الواقعة في الفاصل الذي أشرنا إليه ، وتنظم الأوراق بين رقمي ٢٣٧ و ٢٧٥ ، والخط بقلم ناسخ آخر مختلف عن الأول ، وهو بحرف أغلظ قليلاً من حرف المجموعة الأولى ، كما أنه أكثر ميلاً إلى تحديد الزوايا ، وهو على العموم أجمل من خط المجموعة الأولى وأوضح .

فالقطة التي بين أيدينا ليست مخطوطاً واحداً ، وإنما هي نسخة ملفقة من مخطوطتين مختلفتين للكتاب . ولكن بعض الاضطراب لحق عمل من قام بهذا التلفيق أو لم يسعفه تتابع الأوراق وهو يملأ فجوة المخطوط الأول بأوراق من الثاني . فقد وضع رقم ٢٦٧ مثلاً على ورقة كان حقها أن تتأخر ، فنحن نجد فيها جزءاً كبيراً من نفس النص الوارد في أولى ورقات الحلقة الثانية من المجموعة الأولى بعد الفجوة التي أشرنا إليها .

وقد حملنا هذا الاضطراب على إعادة ترتيب الأوراق في بعض المواضع . أما النص الوارد في الورقة رقم ٢٧٦ والمكرر في رقم ٢٦٧ فقد توفر لنا بذلك منه أصلان قابلنا أحدهما على الآخر . وسرى القارئ تفاصيل ذلك كله في الحواشي الخاصة بتحرير النص والملحقة في ذيول الصفحات . كذلك قمنا في أحد المواضع ببعض التقديم والتأخير حرصاً على اتساق السياق .

ويبلغ عدد السطور في الصفحة من أوراق المجموعة الأولى ما بين ٢٧ و ٢٨ سطراً . أما أوراق المجموعة الثانية ففي الصفحة نحو اثنين وعشرين سطراً على ما نقدر . وإنما نقول ذلك لأنه لم تسلم لنا من هذه المجموعة ورقة واحدة كاملة ، فتقديرنا افتراض مبني على أساس حجم الصفحة ومساحات الهوامش .

منهجنا في العمل :

والحقيقة هي أن العمل في نشر مثل هذه المخطوطة على أصل وحيد كان من أشق ما يمكن أن يقاسيه محقق . فقد لحق هذا الأصل من التشويه والقطع ما جعل الإقدام على نشره أشبه بمخاطرة غير مأمونة العواقب . وذلك لأن عدد الأوراق التي سلمت - إلى حد ما - من أوراقه الأربع والتسعين لا يعدو ثمانى ورفات (١٨٩ - ١٩٦) . أما الباقية فقد أتت الرطوبة والأرضة على الجزء الأسفل من كل ورقة حتى نهاية المخطوط . فذهبت سطور برمتها ، ولم تسلم من سطور أخرى لإبقايا كلمات وحروف متناثرة لا تتركب منها جمل ولا حتى ألفاظ مفيدة . وهذا هو ما جعل ليني بروفنسال ، وهو أول من اهتم بهذه القطعة وحاول أن يستفيد منها ، يقلع تماما عن مجرد التفكير في نشرها ، حتى إنه يقول في التعليق عليها :

« وقد فحصت أوراق هذه المخطوطة بعناية ، وانتهيت من دراسي لها إلى هذه النتيجة : وهي أنها - لسوء الحظ - من التلف بفعل الرطوبة والأرضة بحيث يعد من المستحيل من الناحية العملية الخروج منها بأدنى فائدة » (١) .

وقد كانت النية في أول الأمر معقودة على أن يشترك في إخراج هذه القطعة الدكتور حسين مؤنس مع كاتب هذه السطور ، وأعلنا عن ذلك فعلا ، وذلك حينما كنا نعمل معا في معهد الدراسات الإسلامية بمدريد . على أن شواغل الدكتور مؤنس الكثيرة حالت بينه وبين العمل فيه ، فاضطلعت به وحدي . وكثيراً ما هممت بالعدول عنه جملة بسبب ما كان يحف به من مشقات مضية ، غير أن قيمة النص وفائدته الكبيرة كانت تدفع بي إلى المواصلة والمثابرة ، فضلاً عن أنني أعترف بأن هذه المشقات نفسها كانت من المغريات بالمضى في العمل حتى أتمته على خير ما استطعت وبقدر ما سمحت معرفتي .

وقد كان العمل في مثل هذا المخطوط الذي أفسدته القطوع وناله التشويه البالغ ولم تكذب تبقئ منه ورقة سليمة كان أشبه بترميم أثر معماري تحطمت أحجاره وتناثرت وذهب بعضها إلى غير رجعة . واقتضى ذلك مني الاستعانة بكل المصادر الممكنة وباعتصار السطور المشوهة واستخلاص

(١) ليني بروفنسال : تاريخ اسبانيا الإسلامية ٢٨١/١ ، حاشية ١ .

أقصى ما يمكن أن تدل عليه بقايا الكلمات . واستطعت بالفعل أن أصل إلى استكمال النص في كثير من المواضع . وإن كنت قد التزمت الحذر ، فلم أثبت إلا ما اطمأنتت إلى أنه من كلام ابن حيان إذا كان الاعتماد على مصدر ينص على النقل منه ، أو إذا كان ابن حيان نفسه ينقل عن مصدر سابق تيسر لنا وجوده مطبوعاً أو مخطوطاً .

وهذا مع ملاحظة شيء كشف لنا عنه هذا النص وغيره مما نشر لابن حيان : وهو أن مؤرخنا حينما كان يعتمد على مؤرخ سابق له لم يكن ينقل عنه نقلاً حرفياً ، فهو — وإن احتفظ بجوهر النص — يؤثر التعبير عنه بأسلوبه هو . ولهذا فقد كان يدهشنا في أول الأمر أن نجد نصوصاً منسوبة إلى ابن القوطية أو ابن الفرضي أو غيرهما ، فإذا قابلناها على الأصول المطبوعة لأمثال هذه الكتب وجدنا أن النصين لا يتفقان تماماً . صحيح أنه يمكن تعليل ذلك بأن الأصول التي رجع إليها ابن حيان كانت أكمل وأكثر تفصيلاً مما وصل إلينا . ولكن هذا لا يكفي في التفسير ، إذ أننا نلاحظ أن ما ينقله ابن حيان عن أولئك المؤرخين أشبه بأسلوبه هو وأقرب إلى روح كتابته ، مما يجعلنا على ثقة من أن أبا مروان تصرف في النصوص التي يوردها لغيره تصرفاً واسعاً .

وهذا هو ما جعل مهمتنا تزداد عسراً ومشقة . ولم يكن هناك بد في المواضع التي لم يكن من الممكن فيها استيفاء نص ابن حيان بلفظه أن نثبت في الحواشي ما تراءى لنا في إكماله بما بدا أن السياق يقتضيه ، وذلك معونة للقارئ على فهم النص ، واستعنا في ذلك بالمصادر الأخرى التي وجدنا فيها ما يلقي ضوءاً على تلك النصوص . وبقيت بعد ذلك مواضع أعجزتنا تماماً إذ لم نر في بقايا السطور والكلمات ولا في المراجع الأخرى ما يمكن أن يستدل به على شيء في إيضاح النص ، فركنا تلك المواضع بياضاً . ومع ذلك فيمكنني أن أقول إن نص ابن حيان قد استقام في الجزء الأكبر من الكتاب وإن ما ذهب منه لا يتجاوز نسبة ضئيلة منه .

على أن عيوب الأصل المخطوط لم تكن تنتهي عند ما ذكرنا ، فقد تعرض لكثير من ألوان التحريف والتصحيح والخطأ ، وهي عيوب ترجع إلى الناسخ — أو إلى الناسخين بتعبير أصح — ، وأكثر ما وقع هذا في أسماء الأعلام والمواضع الإسبانية والأوربية . فقد حرف الكثير منها أو ترك بلا إعجام . وقد اجتهدت في رد كل تلك الكلمات إلى ما أعتقد أنني لم أحد به عن الصواب بعد بحث طويل ومقابلات كثيرة على المظان المختلفة ولاسيما الإسبانية واللاتينية القديمة .

هذا عن إخراج النص محرراً محققاً ، وبقيت بعد ذلك على خدمته على أساس من الاستقصاء العلمى الواسع . وكان ذلك – فيما أعتقد – أمراً ضرورياً بالنسبة لنص مثل هذا يعد أكمل وأوثق ما كتبه مؤرخ أندلسى . فلم أترك فيه اسم علم أو موضع جغرافى أو مناسبة تاريخية إلا علقت عليه شارحاً أو موضحاً أو مستدركا أو مقابلاً بين نص ابن حيان وغيره من المراجع . وكان ذلك – فضلاً عن قيمته لذاته – جزءاً من توثيق النص وتحريره . واجتهدت فى هذا العمل على قدر الطاقة واستقصيت إلى أبعد حد ممكن ، ولاسيما فى تحقيق أسماء الأعلام والمواضع الجغرافية التى ترد فى النص لأول مرة ، وهى كثيرة جداً . وكان قدر كبير منها قد ورد فى الأصل محرفاً أو بغير إعجام ، وقد يكون النساخ معذورين فى ذلك فهى أسماء لم يتعودوا عليها فرسموها كما اتفق لهم . وكانت تلك الأسماء عناء جديداً ، فقد اقتضت منى الرجوع إلى المدونات القديمة المسيحية الإسبانية والبرتغالية واللاتينية وإلى المعاجم الجغرافية والخرائط حتى أتمكن من تحديد أعلام المواضع . وأعتقد أنى وفقت إلى حل كثير من المشكلات فى هذا الباب .

ولما كانت هذه التعليقات من الطول بحيث لا تحتملها هوامش الصفحات فقد قسمت عملى فى كل ما أضفته حول النص إلى قسمين : حواشى تحقيق النص وتقويمه فقط ، وهى التى أثبتت فى ذيل كل صفحة مرقمة بطراز أوربى من الأرقام ؛ وتعليقات توضيحية جعلت لها أرقاماً متسلسلة لكل مجلد من مجلدات الكتاب ، ووضعت هذه التعليقات بعد النص ملحقة به .

ولم يكن هناك مفر من إخراج الكتاب على مجلدات ثلاثة :

١ – المجلد الأول : يضم المقدمة وهى هذه الدراسة عن ابن حيان وعن مخطوطة المقتبس ، ثم بقية النص الخاص بإمارة عبد الرحمن الأوسط بن الحكم مع تعليقاته .

٢ – المجلد الثانى : يضم المقدمات العامة التى استهل بها ابن حيان كلامه عن إمارة محمد ، وهى تشمل أحكاماً عامة حول عصره وسيرته فى مملكته وتراجم مفصلة لرجال دولته من حجاب ووزراء وكتاب وشعراء وعلماء وغير ذلك ، على منهج ابن حيان المعهود فى الكتابة .

٣ – والمجلد الثالث يشتمل على الجزء الثانى من إمارة محمد ، وفيه سرد الأحداث على نسق السنين من ٢٣٨ حتى ٢٦٧ التى تنهى بها هذه القطعة المخطوطة ، وتلى ذلك التعليقات ، وتنهى بالفهارس المفصلة للكتاب والخرائط التى رأيت أنها لازمة لفهم النص وتتبعه .

* * *

وقد بذلت في العمل أقصى ما استطعت من جهد . وأنا أشكر في النهاية كل من أعانوني بعلمهم وتشجيعهم الكريم على إنجاز هذا العمل الذي أرجو أن ينفع الله به المشتغلين في ميدان الدراسات الأندلسية ، وأنخص بالذكر أستاذي الكريم الدكتور شوقي ضيف الذي تعلمت منه وعلى يديه ما أرجو أن أكون قد أحسنت الإنتفاع به في إخراج هذا الكتاب ، والأستاذ أبو الفضل إبراهيم أستاذ تحقيق النصوص وصاحب الفضل العظيم على التراث الفكري العربي ، وأستاذي الدكتور حسين مؤنس الذي قوى عزمي وأكد بصيرتي فيه في أول العهد به ، والأخ الكريم الدكتور إحسان عباس الذي أفادني ببعض الملاحظات الصائبة ، والأخ العزيز الأستاذ رشاد عبد المطلب الذي أولاني من التفاني في العون وإمحاء النصيحة والود ما لا أظن اللسان يني بشكره .

ويلي هذا نماذج من مخطوطات هذا الكتاب . .

سنة اثنتين وثلاثين ومائتين

فيها تقلب موسى بن موسى القسوي^(١) عن الطاعة ، وأعد بتحاميل عبد الله بن كليب^(٢) عامل الثغر عليه ، ومد يده إلى بعض أمواله ، فأحفظه ذلك ، وهاج^(١) / حَمَيْتِه ، وتحرك إلى تُطَيْلَةَ^(٣) ، وابن كليب داخلها ، فطمع أن ينتهز منه [١٨٩] فرصة ، فاحتجز عنه عبد الله بِحَصَانَتِهَا ، ولم يُؤْتِه حرباً ، واستغاث بالأمير عبد الرحمن ، فأخرج إليه ابنه محمداً بالصائفة ، وقاد معه محمد بن يحيى بن خالد^(٤) ، فاحتل عليه محمد بالجيوش ، فأذعن موسى ، واعترف بالذنب ، وسأل العفو ، فسارع الولد محمد إلى إجابته وتطمينه وإقراره على حاله ، وتقدم بالصائفة إلى بَنبُلُونَه^(٢) ^(٥) فجال بأرضها وأداخها^(٣) ، ونكأ العنق أبرح نكابة .

وفيها عزله الأمير عبد الرحمن حارث بن بزيع^(٦) عن طَلَيْطَلَةَ في شوال منها ، وولاها محمد بن السليم^(٤) ^(٧) .

وفيها كان القحط الذي عم الأندلس ، فهلكت المواشي ، واحترقت الكروم ، وكثر الجراد ، فزاد^(٥) في المجاعة وضيق المعيشة .

(١) استكلنا هذه المبارة من النص الذي نشره ليني يروفنسال وغرسيه غومس من مجلة مقتطفات انتخابها من «المقتبس» وترجمها إلى الإسبانية تحت عنوان «نصوص مخطوطة من المقتبس لابن حيان حول أصول مملكة بنبلونة» في مجلة «الأندلس»، المجلد التاسع عشر ، الجزء الثاني ، سنة ١٩٥٤ :

E.LEVIPROVENCAL, E. GARCIA GOMEZ; Textos del «Muqtabis» de Ibn Hayyan sobre los origenes del reino de Pamplona, AL-ANDALUS, Madrid Granada, vol. XIX, fasc. 3, p. 304

(٢) ص : بلبونة .

(٣) ص : وأداخلها ، وقد تحمل أيضا « وداخلها » ، عل أن ما أثبتناه أصح وأشبه بأسلوب ابن حيان ، فهو كثيراً ما يستخدم هذا اللفظ (انظر على سبيل المثال القطعة التي نشرها الأستاذ عبد الرحمن الحجي من «المقتبس» ، ط . بيروت ١٩٦٥ ، ص ٢٣٦ حيث يقول : « أداخ بسيطة ») .

(٤) ص : السلم ، وقد أصلحناها بما سيرد بعد ذلك في النص .

(٥) ص : فرادا .

وفيها استأمن غُليَّالمُ بن بَرْنَاط^(١) بن غُليَّالمِ (٨) ، أحد عظماء قَوَامِسِ إِفْرَنْجَةِ على الأمير عبد الرحمن بقرطبة ، فأكرمه وأحسن إليه وإلى أصحابه ، وصرفه معهم إلى الشجر لغاورة الملك لُدُوَيْقِ بن قَارْلَةَ بن بِيَيْن^(٢) (٩) صاحب الفِرَنْجَةِ ، وكانت بينه وبين قواد لُدُوَيْقِ وقائع ظهر عليهم فيها ، وأعانه عُمَالُ الشجر ، فَأَخَذَ^(٣) العدو ، وأقام بمكانه ظاهراً على من انتقض عليهم من أمته مدة ، وكتبه إلى الأمير متصلة .

سنة ثلاث وثلاثين ومائتين

فيها في شعبان منها عزل الأمير عبد الرحمن محمد بن السليم عن طَلَيْطَلَةَ^(٤) ، وولاها بعده أيوب بن السليم (١٠) .

سنة أربع وثلاثين ومائتين

فيها غزا^(٥) بالصائفة المنذر بن الأمير عبد الرحمن (١١) ، وقاد عبد الواحد بن يزيد الإسكندراني (١٢) ، ودبّرًا الوزير يحيى بن خالد .

وفيها أغزى الأمير عبد الرحمن أسطولا من ثلاثمائة مركب إلى أهل جزيرتي^(٦) مَيُورَقَةَ ومَيُورَقَةَ (١٣) ، لنقضهم العهد ، وإضرارهم بمن يمر إليهم من مراكب المسلمين ، ففتح الله للمسلمين عليهم ، وأظفرهم بهم ، فأصابوا سباياهم ، وفتحوا أكثر جزائرهم ، وأنفذ الأمير فتاة^(٧) شَنْظِيرَ الخَصِيِّ إلى ابن ميمون عامل بَلَنْسِيَّةِ ، لِيَحْضُرَ تحصيل الغنائم ويقبض الخمس ، وكان قد صالح بعض أهل تلك الحصون على ثلث أموالهم وأنفسهم ، وأحصيت رُبْعُهُمْ وأموالهم^(٨) ، وقُبِضَ ما عليه صُولِحُوا (١٤) .

(١) ص : برباط .

(٢) ص : لدريق بن قارلة بن س ، والاسم الأخير ورد بغير إعجام . انظر تعليقنا على هذا الموضع .

(٣) ص : فاحى ، بغير إعجام .

(٤) ص : طليلة .

(٥) هذه الكلمة ساقطة من الأصل مثبتة في الحاشية .

(٦) ص : جزيرتي .

(٧) ص : ساه .

(٨) ص : وأموالهم

وفيها ظهر غُليّالمُ بن بَرْنَاط⁽¹⁾ بن غُليّالمِ⁽²⁾ النَّازِعُ إلى الأمير عبد الرحمن ، القادم إلى باب سُدَّتِهِ / في سنة اثنتين وثلاثين ومائتين على من حَادَهُ من أُمته أهل إفرنجة ، [١٨٩ ب] الذي نصبه الأمير عبد الرحمن لغاورتهم وأمدَّهُ بقوته ، فاقتحم عليهم بلده في جمعه ، فقتلَ وسبى ، وحرقت وخرَّب ، وحاصر بَرَشْلُونَةَ (١٥) حتى أضرَّها ، وتقدم إلى جِرُنْدَةَ (١٦) ، فشارفها ، وورد كتابه على الأمير عبد الرحمن يعترف بما كان منه ، ويذكر تماديه عليه ، فأجيبَ بالإحْمَادِ لِفَعْلِهِ ، والإِرْصَادِ لِمَكَاْفَاتِهِ ، وكتب إلى عُبَيْدِ اللَّهِ بن يحيى (١٧) عامل طَرُوشَةَ (١٨) وإلى عبد الله بن كُليِّبِ عامل سَرَقُسْطَةَ في إمداده ومعونته وتحريضه على شقاق قومه وتأييد عزمته .

وفي شهر رمضان منها عَزَلَ أَيُّوبُ بن السُّلَيْمِ عن طليطلة ووليَّهَا يوسُفُ بن بَسِيْلِ (١٩) .
وفيها عَزَلَ الأمير عبد الرحمن مُعَاذَ بن عثمان عن القضاء بقرطبة ، ووليَّ مكانه محمد ابن زياد (٢٠) .

وفيها خرج فَرَجُ بن خَيْرِ الطُّوْطَالِقِيِّ^(٢١) بدنهكة (٢٢) وأرؤش (٢٣) ، فأظهر المعصية ، وجمع أهل الفساد ، فعالجه⁽³⁾ الأمير عبد الرحمن بالخييل ، فحوصر حتى أذعن بالطاعة ، وعاد إلى الجماعة ، فاصطنعه الأمير ورفع مرتبته ، وولاه كُورَةَ بَاجَةَ (٢٤) ، فلم يلبث أن انتقض عليه إلى مُدَيْدَةَ ، وجرت منه خطوب أفسدت الصنوعة ؛ ومن وُلْدِهِ بَكْرُ بن سَلَمَةَ (٢٥) المُسْتَنْزَلُ من ناحية الغُرب⁽⁴⁾ أيامَ الخليفة النَّاصِرِ لدين الله .

سنة خمس وثلاثين ومائتين

فيها ورد كتاب أهل مَبُورَقَةَ على الأمير عبد الرحمن بن الحكم ، مستغيثين مِمَّا دهمهم من سُخْطِهِ ، مستقيلين لِعَثْرَاتِهِمْ لديه ، راغبين في صفحه وإقالتة ، فعطف عليهم وأقالهم زَلَّتَهُمْ ، وأجابهم إلى مسألتهم ، وأعطاهم ذِمَّتَهُ ، وجَدَّدَ لهم عَهْدَهُ .

(1) ص : برباط .

(2) ص : فلنارم .

(3) ربما كانت : فعاجله .

(4) ص : المغرب .

وفي آخرها عاد موسى بن موسى القَسَوِيُّ إلى الخلاف ، وكشف وجهه بالمعصية ، فأفسد ما حوالى مدينة تُطَيْلَه ، وعاث حَوْزَ طَرْسُونَةَ (٢٦) وِبُرْجَةَ (٢٧) ، وظاهره أخوه لِأُمِّهِ العَلِجُ ابن وَنْقَةَ (٢٨) بِبَنْبِلُونَةَ (١) ، فخرج إليه بالصائفة (٢) عَبَّاسُ بن الوليد المعروف بالطَّبِي (٢٩) ، فعاد إلى الطاعة ، واستقال الزَّلَّة ، وبذل اسماعيل (٣٠) ابْنَهُ رَهِينَةً ، فعاد الأمير إلى القَبُولِ منه ، والاستظهارِ عليه ، وأخرج / بَيْعَتَهُ وَالتَّوْتُقَ منه وَقَبَضَ رَهِينَتَهُ خالدين يحيى (٣١) ومحمد بن الوليد (٣٢) ومُطَرِّفُ بن نُصَيْرٍ (٣٣) ، فَتَمَّمُوا سَلْمَهُ ، وتوثقوا من عهده ، وجدد له الأمير الولاية على تُطَيْلَةَ ، ودخل أخوه العَلِجُ ابن وَنْقَةَ صاحب بنبلونة معه في الأمان ، وَقَبَضَ الأَمْنَاءَ المُخْرَجُونَ (٣) إلى موسى رهينته التي كانت ولده اسماعيل الذي هو لابنة عمه مَيْمُونَةَ (٣٤) ، فأقبل عَبَّاسُ الطَّلَبِيُّ (٤) بالسكر إلى الحضرة لتأخر الوقت عن دخول أرض الحرب ، وماتولى اسماعيلُ بن موسى رهينة أبيه موسى في يد الأمير عبد الرحمن أن هرب من يده عن قرطبة حاناً (٥) إلى ما فارقه من الشقاق ، ذاهلاً عما كان فيه من غضارة المعيشة ، لتوسعه في القطائع المُنِيفَةَ والصلوات الجزلة ، فرفض ذلك كُلَّهُ ، وَسَمَّا للمعصية ، وأمر الأمير بقص أثره ، فلم يَبْعُدْ أن جِيءَ به إليه من طريق الثغر ، وقد انتهى إلى وادي آنة (٣٥) فَقبَضَ عليه هناك بَعْضُ من عرف خَبْرَهُ ، وردّه للأمير عبد الرحمن بقرطبة ، فعفا عنه ، وأغضى عن زَلَّتِهِ ، وخلاه على ما كان عليه من سَعَةِ قَطَائِعِهِ .

وفيهما سَيْلَانُ عَظِيمَانِ بنهر قرطبة في شهر رجب القَمَرِيِّ الموافق لشهر يَنبُرِ الشَّمْسِيِّ (٣٦) رأس سنة العَجَمِ بالأندلس ، عُدًّا في أمهات السيول ، وحمل وادي شَنِيلِ أيضاً ، وَطَفَى مَدَّةً ، وأخرب حَنِيتَيْنِ من بنطرة مدينة إِسْتِجَةَ (٣٧) ، وَأَبْطَلَ عدداً من أرجائها ، وطمى السيل أيضاً بكورة إشبيلية التي بها قراره ، فذهب مَدَّةً في مُجْتَمَعِهِ هناك بست عشرة قرية ما بين البحر وحاضرة إشبيلية (٦) .

(١) ص : بنبلونة .

(٢) ص : الصائفة .

(٣) ص : الأبناء المخرجون .

(٤) كذا ، وستجى بعد في النص على هذه الصورة أيضاً ، وقد سبق أن وردت هذه النسبة هكذا : الطبل .

(٥) ص : حانا ، بلا إعجام ، وربما احتملت أن تكون أيضاً : « خافا » أى مسرعاً .

(٦) كلمتان مطبوستان في الأصل ، لعلهما « هلك كل ما » أو شيء في هذا المعنى .

فيها من ناس وبهائم وأمتعة ، فكان ذلك حَدَثًا عَظِيمًا تَحَدَّثَ النَّاسُ عَنْهُ زَمَانًا (٣٨) .
وفيها هلك الطاغية رُذْمِيرُ بنِ أَرْدَمِيس (١) مَلِكُ الْجَلَالِيَّةِ (٣٩) ، فَوَلِيَ ابْنُهُ أَرْدُون ، وَكَانَتْ
وَلَايَةُ رُذْمِير (٢) ثَمَانِيَةَ أَعْوَامٍ .

سنة ست وثلاثين ومائتين

فيها ورد كتاب للأمير [من] (٣) عُبَيْدِ اللَّهِ بنِ يَحْيَى من الشَّغْرِ الأَعْلَى ، يَذْكَرُ اسْتِغْنَاءَهُ
عَنِ العِدَّةِ الَّتِي قَدْ أَمَرَ بِاحْتِبَاسِهَا قَبْلَهُ مِنَ الحَرَسِ (٤) (٤٠) ، وَاسْتِغْنَاءَهُ (٥) بِمِائَةِ وَثَلَاثِينَ غَلَامًا
ذَكَرَ أَنَّهُمْ مَعَهُ مِنْ مَوَالِيهِ وَغُلَمَانِهِ ، يَرْضَى بِسَالَتِهِمْ ، وَيَحْمَدُ مَذَاهِبَهُمْ ، وَيَسْكُنُ إِلَيْهِمْ ،
وَيَجْتَزِي بِخِدْمَتِهِمْ ، لَمَّا أَصْبَحَ الشَّغْرُ بِحَمْدِ اللَّهِ مِنَ السُّكُونِ وَالهُدُوءِ ، وَوَقَّعَ العَدُوَّ
بِحُرُوبِ (٦) ، بَارْتِضَاءَ رَأْيِهِ ، وَإِحْمَادَ نَظَرِهِ ، وَقَدِمَ مِقْنَبًا (٧) مِنْ قَبْلِهِ مِنْ فَرَسَانَ الحُرْسِ
إِلَى مِرَابِطِهِمْ بِالمَاءِ ، وَأَجْرَى القَطَائِعَ / عَلَى عِدَّتِهِ تِلْكَ الَّتِي اقْتَصَرَ عَلَيْهَا مِنَ الرُّوَاتِبِ [١٩٠ ب]
وَالنَّفَقَاتِ وَالْعُلُوقَاتِ عَلَيْهِمْ مِمَّا فِي يَدِهِ مِنْ مَالِ السُّلْطَانِ ، وَأَنْ يَصْرِفَ جَمِيعَ مَا يَقْبِضُهُ
بِالشَّغْرِ مِنَ الجِزَاءِ وَالْعُشُورِ وَجَمِيعِ الوُظَائِفِ بَعْدَ إِقَامَةِ سَائِرِ النَّفَقَاتِ الرَّائِبَةِ إِلَى فَكَاكِ
أَسْرَاهِمَ ، وَحَمَلِ مُرْجَلِيهِمْ ، وَمَرْمَةِ حِصُونِهِمْ ، وَمِصَالِحِ ثُغُورِهِمْ ، وَكُلِّ مَا فِيهِ تَقْوِيَتُهُمْ عَلَى
عَدُوِّهِمْ ، وَسَوْغَهُ أَنْ يَرْتَزِقَ فِي كُلِّ شَهْرٍ لِعِمَالَتِهِ مِمَّا يَجْتَبِيهِ مِائَتِي دِينَارٍ دِرَاهِمَ ، وَيَنْهَضُ
مَعْرُوفَهُ لِلبَعَامِ إِلَى أَلْفِ دِينَارٍ مِمَّا يَتَقَاضَاهُ مِنْ جَبَايَةِ عَمَلِهِ ، فَكَانَ عَمَلُ الأَمِيرِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ
ذَلِكَ بِالشَّغْرِ وَأَهْلِهِ مِنْ جَلَائِلِ مَنَاقِبِهِ .

وفيها أَدَالَ (٨) الأَمِيرُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ابْنَهُ الحَكَمَ بنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ (٤١) عَنْ وِلَايَةِ كُورَةِ

(١) كذا في الأصل ، وانظر تعليقنا على هذا الموضع وتحقيقنا لاسم هذا الملك المسيحي .

(٢) ص : ولايته أدمير .

(٣) زيادة يقتضها السياق .

(٤) كذا في الأصل ، ونرجح أن تكون « الحرس » ، وسرى أنها سترد هكذا بعد ذلك بسطور .

(٥) ص : واكتفاؤه .

(٦) يبدو أن كلمات سقطت في هذا الموضع مؤداها : فكتب إليه الأمير بارتضاء رأيه . الخ .

(٧) ص : مقلب ، ولعلها كما أثبتنا ، والمقنب جماعة الفرسان .

(٨) ص : أذال ، وقد تكون أيضا « أزال » .

إلبيرة (٤٢) بأخيه عبد الله بن عبد الرحمن ، وولى الحكم كورة تدمير (٤٣) ومعه سعد أخو خزر (١) لا يفارقه (٤٤) . ثم عزل عبد الله بن عبد الرحمن عن كورة إلبيرة فيها ، فأعاد أخاه الحكم إليها .

ولم يُخرج إلى كورة تدمير في هذه السنة ولداً له على عادته لإمحال ناهيا في هذا العام . وفيها صرف الأمير عبد الرحمن (٢) عن كورة رية (٤٥) ، وصرف خزر (٤٦) المولى الملازم له معه .

وفيهما ثار حبيب البرنسي بجبال الجزيرة الخضراء (٤٧) ، واجتمع له خلق من أهل الفساد في الأرض ، فشن بهم الغارة على قرى رية وغيرها ، فأشاع الأذى ، ونهب وقتل وسبي ، فأخرج الأمير عبد الرحمن عند ذلك الخيل مع عباس بن مضا ، فألفى أضداده قد قصدوا حبيبا وأصحابه ، فأوقعوا بهم وقصوهم ، وقتلوا خلقا منهم ، وتفرقت بقيتهم ، فأنخنس حبيب رئيسهم في غمار الناس ، وطفت نائرتة ، وطلب دهرأ فلم يُظفر به (٤٨) .

(١) ص : أخزر ، ولعل الصواب ما أثبتنا ، وسيأتي الاسم على هذه الصورة بعد سطور .

(٢) يبدو أن اسم عامل عبد الرحمن على كورة رية الذي عزل عنها في هذه السنة قد سقط من هذا الموضع .

ذِكْرُ مَهْلِكِ نَصْرِ الْخَصِيِّ الْكَبِيرِ

خَلِيفَةَ الْأَمِيرِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَكَمِ رَحِمَهُ اللَّهُ

وفي هذه السنة هلك أبو الفتح نصر الخصي (٤٩) ، خليفة الأمير عبد الرحمن بن الحكم ،
المُقدَّم على جميع خاصته ، المُدبِّر لأمر داره ، المُشارِكُ لأكابر وُزرائِه في تصرِيف مُلكه ،
وكان هُلكُه شبيه الفجأة في عَقِبِ شعبان من هذه السنة ، أرقى ما كان في غلوائه ، وأطمع
ما هو بالاحتواء على أمر سلطانه ، أزهب ما كان الناس له ، وأخوفهم لعدوانه ، إذ نال
من أثره مولاة الأمير عبد الرحمن واصطفائه وإشراكه له في الرأي مع جلة وزرائه ،
وطوعه كثيراً إلى ما يخالفهم فيه ، فوق ماناله / خادم خاص مع أمير رشيد سُمِعَ عنه ، [١٩١]
وله بذلك أخبار في الناس تُصدِّق دلائل تحقِّقه ، سماها - زعموا - في باطنه إلى غاية
كرهها الله ، إخترمه دونها حمامه ، فقضى ذمياً مُستراحاً منه .

وكثر القول في السبب الذي أراده ، والخوض فيما أتاه ، فكان من أوضح ذلك ما ذكره
أبو بكر بن القوطية (٥٠) ، قال :

كان نصر الخصي الجريء المُقدَّم الوساع الفهم قد غلب على قلب مولاة الأمير
عبد الرحمن بن الحكم واستظهر على (١) حراصة مكانه لديه بانقطاعه إلى حظيته^٢ طروب
أم عبد الله ، الغالبة عليه من بين جميع نساؤه (٥١) ، وحظه في شعبها ، وممالاته إياها على
ما تسعى له من تقديم ولدها عبد الله للأمر بعد الأمير أبيه على جميع الأراجيح الأكبرين
من ولده متى حان حينه ، فخالص السيدة شديداً (٣) ، وأخلصت له ، واستوى له بذلك
أمره ، وأصبح ملك عبد الرحمن في يده ، يدبره كيف يشاء ، فلا يرد أمره ، قد أجهد
سعيه آخر أمده في جهره وسره ، بالتنويه بعبد الله بن سته طروب ، والإشادة بذكره ،

(١) هذا اللفظ مكرر في الأصل .

(٢) ص : خطيته .

(٣) كذا ، ولعلها شديداً .

واسمالة طبقات الناس بالرغبة والرغبة إليه ، والعمل على اختزان الخلافة عن أخيه محمد ،
يُكْرِ والده الأمير عبد الرحمن ومُفَضِّلِهِم المُنْشَارِ إليه إلى خالِفَتِهِم ابن طروب هذا ، وسوقها
إليه ، يتأتى لذلك ويأتيه من جميع أبوابه ، والقضاء يُبعده عنه ، ويسدُّ دونه طُرُقَه ،
وهو يَرُصِدُ لِوَجِبَةِ الأمير عبد الرحمن مَوْلَاهُ ، ليقضى في عبد الله قضاءه ، فيُملَى لعبد الرحمن
ويستأخِرُ يومه ، فيشقُّ ذلك على الخصى وَيَرَهَبُ قوتَه ، حتى سَوَّلت له نفسه اغتيالَ
مولاه عبد الرحمن ، وإلطفَ التدبير عليه ، كما يتمكن من تقديم عبد الله مكانه ، ولا يرهب
الخُلْفَ عليه ، لكثرة أنصاره من أهل الدار وغيرهم ، وفُشُو صنائعه فيهم ، فيتم له بابن
طروب الاحتواء على الملك ويُوخَّرُ عنه محمد المرشَّحُ له وغيره مِمَّن (1) يَطْمَعُ فيه .

فوثقَ في ذلك بِالْحَرَائِي (٥٢) الطبيب ، وكان في عِدَادِ صنائعه وَقَدَّرَ منه - مع الوفاء -
الشَّرَّهَ إلى ما يبذله له ، فخلا به ، وذكره أياديه لديه ، وتدارسا (2) فما ينويه له ،
وقال له :

- هل لك في إحراز حُسْنِ رأيٍ للأبد ، وحوَزِ جَزِيلِ صِلْتِي (3) للآخر ؟
فقال له الحَرَائِي :

- هذه هي المُنِيَّةُ التي لا وراءها طَلَبَةٌ ! فَمَنْ لِي بِنَيْلِهَا ؟
فقال له :

- هذه ألف دينار مُعَجَّلَةٌ بين يَدَيِ الجَرِيِّ بالحاجة ، واعْمَلْ لِي سُورَ (٥٣) الملوك الذي
يُدْنِي الأَجَلَ (4) ، ويقلب الدُّوَل ، ودَعْنِي لمكافَأَتِكَ إن انقضت حاجتي . فوالله لأتجاوزنَّ
بها ظَنُّكَ !

فأراه القبول لما بَدَّلَه ، والقيام بما كَلَّفَه .

وخرج عنه وقد عَدَلَّتِ البَدْرَتَانِ جناحيه ، فَعَمَلَ ذلك الخُلْطَ باسم الدَّوَاءِ المُسَهِّلِ
[١٩١ ب] كما رسمه له ، وأجهد رأيه في تقويته ، واحتال في أن دَسَّ في خفية إلى « فَجْر » (٥٤) خَطِيئَةً

(1) ص : ما .

(2) ص : وتدارسا .

(3) ص : صليتي .

(4) ص : مدني الأصل .

الأمير عبد الرحمن ضرة طروب مع بعض من كان يستطب لها عنده من ثقات قهارمتها⁽¹⁾ يشير لها على ما دبر على الأمير من طريق العلاج ، ويأمرها أن تحذره من شرب ما يأتيه نصر به أو يرسله ، فوفاه جده بذلك ، وسقى الخصى معيناً له⁽²⁾ .

وقد كان الأمير شكا إلى نصر خلال ذلك خلطاً تحرك به عدل له عن أخذ الدواء الذي من عادته وإعداده ليوم فارقه على التوحش أمامه ، فكان من توطئة نصر لذلك ما قدر أنه واقع به لا محالة⁽³⁾ . وبكر بذلك الخلط المسموم إلى الأمير في اليوم الذي ربط فيه موعده ، فأصابه حذراً للذي سبق إليه ، فتعلل على نصر ، ووصف وعكاً طاف به ليلته ، فنكت⁽⁴⁾ مرته⁽⁵⁾ ، فلا فضل فيها للدواء ، وأشار عليه بشربه ، إذ لم يزل كثيراً يسعده في مثله ، فذ يعتذر بعدم التوحش له ، فزجره وقال :

- سبحان الله ! شيء اجتهدت لي فيه وألظفت تركيبه تخاف غائلته ؟ عزمتم لتشربنه !
فعلم نصر أن خلافة لا يمكنه ، فشربه بين يديه ، واستأذنه في الخروج إلى منزله ، فأمره ، فانطلق يركض وركضه يزيد شرا ، واستغاث بالحراني ، فعرفه بما جرى عليه ، والسم يجد به ، فقال له :

- عليك بلبن المعز ، فإن شربه يفتتر عنك !

ففرق غلماناً في طلبه ، فعوجل قبل أن يوتى به ، ومضى لسبيله .

فسر الناس بحتفه ، وأطبقوا على ذمه ، وقال يحيى الغزال^(٥٥) عدوه الموتور من لدنه عند موته : [من البسيط] .

(1) ص : قهارمتها .

(2) كذا ، والجملة مضطربة بمعنى الشيء ، ولو أن المعنى المراد مفهوم ، فالمقصود أن الحراني أوحى إلى الأمير عن طريق هذه القهرماننة ألا يتناول أي دواء يأتيه به نصر أو يرسله إليه وأن يعمل على أن يبدأ بسق نصر من هذا الدواء مشاركاً له وممينا قبل أن يدوقه الأمير ، فكان في هذه النصيحة وقاية لعبد الرحمن واستبقاء لحياته .

(3) ص : لا محالة به .

(4) ص : فكت .

(5) ص : مرة والتصويب في الحاشية .

أَغْنَى أَبَا الْفَتْحِ مَا قَدْ كَانَ يَأْمُلُهُ
 مِنَ التَّصَانُعِ وَالتَّشْرِيفِ (1) لِلدُّورِ
 وَكُلِّ عَرَضٍ وَقَرَضٍ كَانَ يَجْمَعُهُ
 حُفَيْرَةٌ (2) حُفِرَتْ بَيْنَ الْمَقَابِيرِ
 لَمْ يَأْلَهَا الْقَوْمُ تَضْيِيقاً وَلَا وَقَعَتْ
 فِيهَا الْكَرَازِينُ إِلَّا بَعْدَ تَقْدِيرِ
 فَصَارَ فِيهَا كَأَشَقَى الْعَالَمِينَ وَإِنْ
 لَفُوهُ (3) بِالنَّفْحِ فِي مِسْكِ وَكَافُورِ
 مَا الْعَرَفُ لَوْ أَخْبَرُونَا بَعْدَ ثَالِثَةِ
 إِلَّا كَعَرَفٍ سِوَاهُ الْمَنَاخِيرِ
 وَكَانَ أَرْمَعٌ (4) شَيْئاً لَمْ تَكُنْ سَبَقَتْ
 بِهِ مِنَ اللَّهِ أَحْكَامُ الْمَقَادِيرِ
 إِذَا أَرَادَ الْآلَهُ الشَّيْءَ كَوْنَهُ
 فَلَنْ يَضُرَّكَ فِيهِ سُوءٌ تَهْدِيرِ

وَذَكَرَ أَنَّ الْغَزَالَ أَنْذَرَ بِهَلِكِ نَصْرٍ هَذَا مِنْ طَرِيقِ النَّجْمِ قَبْلَ وَقُوعِهِ بِمَدَّةٍ ، فَقَالَ :
 [مِنْ الْكَامِلِ ، الضَّرْبُ الْأَحَدُ الْمَضْمَرُ] .

قُلْ لِفَتَى نَصْرِ أَبِي الْفَتْحِ
 وَأَرَاهُ قَهَقَرَ فِيهِ ثُمَّ مَضَى
 وَأَرَى النَّحُوسَ لَهُ مُسَاعِدَةٌ
 وَوَجَدْتُ ذَلِكَ إِذْ (6) حَسَبْتُ لَهُ
 إِنْ الْمُقَاتِلَ حَلَّ بِالنَّطْحِ
 قُدُّمًا وَمُدْبِرًا (5) إِلَى الرُّمْحِ
 فَانظُرْ لِنَفْسِكَ وَأَقْبَلْنَ نُصْحِي
 مِمَّا يَدُلُّ عَلَى غَلَا الْقَمْحِ

(1) ص : التَّشْرِيفُ .

(2) ص : حَفْرَةٌ ، وَلَا يَسْتَقِيمُ بِهَا الْوِزْنُ .

(3) ص : لَفُوهُ .

(4) ص : رَمَعٌ .

(5) إِذَا .

(6) كَذَا ، وَقَدْ تَكُونُ : وَمُدْبِرَةٌ .

[١٩٢]

وَنُزُولَ أَمْرٍ لَا أَفْوَهُ بِهِ لَوْ كَانَ يَبْلُغُ بِي إِلَى الرَّبْحِ
وَإِذَا رَأَيْتَ الْبَدْرَ فِي بُلْعٍ نَزَلَ الْقِضَاءُ بِأَبْرَحِ الْبَرْحِ
/ يَارُبُّ [طَالِعَةٍ] (١) الْعِشَاءِ أَتَتْ بِخِلَافِ ذَلِكَ (٢) طَوَالِعِ فِي الصُّبْحِ
وَلَرُبُّ رَافِلَةٍ عَشِيَّتِهَا فِي الْوَشْيِ أَضْحَتْ وَهِيَ الْمِسْحِ
تَبْكِي عَلَى مَنْ كَانَ يُكْرِمُهَا نَحَاءَ بَيْنَ نَوَادِبِ نُحِّ

وليجي الغزال في نصر - وذكر مسكنه بمُنِيَّتِهِ (٥٦) إلى جانب مقابر الرَبَضِ (٥٧) والنهر - [من الطويل] .

أَيَا لَاهِيًا فِي الْقَصْرِ قُرْبَ الْمَقَابِرِ
يَرَى كُلَّ يَوْمٍ وَارِدًا غَيْرَ صَادِرٍ
كَأَنَّكَ قَدْ أَيَقَنْتَ أَنْ لَسْتَ صَائِرًا
غَدًا بَيْنَهُمْ فِي بَعْضِ تِلْكَ الْحَفَائِرِ
تَرَاهُمْ فَتَلْهُو بِالشَّرَابِ وَبَعْضُ مَا
تَلَدُّ بِهِ مِنْ نَقْرِ تِلْكَ الْمَزَاهِرِ
وَمَا أَنْتَ بِالْمَغْبُوتِ عَقْلًا وَلَا حِجَى
وَلَا بِقَلِيلِ الْعِلْمِ عِنْدَ التَّخَابُرِ
وَفِي ذَلِكَ مَا أَغْنَاكَ عَنْ كُلِّ وَاعِظٍ
شَفِيقٍ وَمَا أَغْنَاكَ عَنْ كُلِّ زَاجِرٍ
وَكَمْ نِعْمَةٍ يَعْصِي بِهَا الْعَبْدُ رَبَّهُ
وَبَلَوَى عَدْتَهُ عَنْ رُكُوبِ الْكِبَائِرِ
سَتَّرَحَلُ عَنْ هَذَا وَإِنَّكَ قَسَادِمٌ
وَمَا أَنْتَ فِي شَكٍّ عَلَى غَيْرِ عَادِرٍ (٣)

(٢) ص : ذلك ، ولا يستقيم بها الوزن .

(١) زيادة يقتضيهما الوزن والمعنى .

(٣) ص : غادر . وقد تكون أيضا « غافر » .

وقال يحيى الغزال عند ذِكْرِ الناس لإنزال السلطان زُرِّيَاباً (٥٨) مُغْنِيَهُ فِي مُنِيَةِ نَصْرِ
الخصي أثيره بعد موته ، يذكر تَقَلُّبَ الدنيا بأهلها : [من الخفيف] .

ذَكَرَ النَّاسُ ... (1) نَصْرٍ لَزْرِيَا ب وَأَهْلٌ لِنَيْلِهَا زُرِّيَابُ
هكذا قَدَّرَ الإلهُ وقد تَجَسَّرِي بما لا تَظُنُّهُ الأَسْبَابُ
أَخْرَجُوهُ مِنْهَا إِلَى مَسْكِنٍ لَيْسَ عَلَيْهِ إِلَّا التُّرَابُ حِجَابُ
لَا يُجِيبُ الدَّاعِيَةَ فِيهِ وَلَا يَزُجُّ جِعُ مِنْ عِنْدِهِ إِلَيْهِ جَوَابُ
وَتَغَانَتْ تِلْكَ المَرَاكِبُ عَنْهُ وَأَمِيلَتْ إِلَى سِوَاهُ الرُّكَّابُ
لَيْسَ مَعَهُ مِنْ كُلِّ مَا كَانَ قَدْ جَمَّعَ إِلَّا ثَلَاثَةٌ أَثْوَابُ
وَتَلَاثِي جَمِيعُ ذَاكَ فَلَمَّا يَبْقَى إِلَّا ثَوَابُهُ أَوْ عِقَابُ
عَسْكَرٍ جُنُّدُوا فَلَيْسَ بِمَا ذُو نِ لَهُمْ عَنْهُ أَنْ يَكُونَ الحِسَابُ
فَرَأَيْتُ الرُّقَابَ مِنْ أَهْلِهِ ذَلَّتْ وَعَزَّتْ مِنْ آخِرِينَ رِقَابُ
وكذلك الزمانُ يَحْدُثُ فِي تَصَدُّ رِيفِهِ الذُّلُّ والبَلَاءُ والخَرَابُ
لَتَعَجَّبْتُ وَالَّذِي مِنْهُ أَعْجِبْتُ إِذَا مَا نَظَرْتُ شَيْءٌ عَجَابُ
لَكَأَنَّ الَّذِي تَوَلَّى الَّذِي كَانَتْ عَلَيْهِ مُخَلَّدٌ لَا يُرَابُ
فِعْلُهُ بَعْدَهُ كَفِعْلِ أَمْرٍ لَيْسَ عَلَيْهِ بَعْدَ المَمَاتِ حِسَابُ
وَلَعَقْلُ الفَتَى صَحِيحٌ وَلَكِنْ حَيْرَتُهُ الأَوْزَاقُ والأَذْهَابُ

وحكى الحَسَنُ بن محمد بن مُفَرِّح (٥٩) فِي كِتَابِهِ قِصَّةَ مَهْلِكِ نَصْرِ هَذَا ، فَقَالَ :

كَانَ السَّبَبُ فِي مَهْلِكِ نَصْرِ الفَتَى الكَبِيرِ الغَالِبِ عَلَى الأَمِيرِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الحَكَمِ
[١٩٢ب] المَظَاهِرِ لِسَيِّدَتِهِ طَرُوبِ حَظِيَّةِ الأَمِيرِ / عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَلَى سَوَاقِ المَلِكِ إِلَى وَلَدِهَا مِنْهُ عَبْدِ اللهِ
المَعزُوفِ إِلَيْهَا أَنَّ عَبْدِ الرَّحْمَنِ التَّوَيَّ - بِهَمَا مَعاً فِي تَقْدِيمِ عَبْدِ اللهِ عَلَى مُحَمَّدِ أَخِيهِ أَكْبَرَ وَلَدِهِ ،

(1) لم يترك الناسخ هنا بياضاً ، ولكن هناك ينبغي أن تكون قد سقطت من هذا الموضع وإلا اختل الوزن والمعنى ،
ونرجح أنها « دار » ويدل على ذلك ضمير المؤنث الغائب في الشطر الثاني من البيت وفي البيت الثالث .

المُرَّشَح من بينهم للأمر ، لصدق نفسه على كون ما بينهما في الرِّجَاحَة والفضل ، وتغليبهِ لرأيه فيه على هواه ، لِمَعَصِيَّتِهِ لحظيته طروب . فلما أعيأ عليها وعلى نصر ظهيرها لَفْتُهُ⁽¹⁾ عن ذلك شقَّ ذلك على نصر ، وفكر في سوء عاقبته مع محمد إن خَلَصَ له الأمرُ ، وقد كشف وجهه في صَدِّهِ عنه ، فذهب إلى احتيال الأمير مولاه كيما يتمكن من نَصْبِ عبد الله وَدَحْرٍ⁽²⁾ محمد ، فَأَتَى الأمر من باب طبيب المعروف بالحراني ، وكان يثق به ، فخلا معه ، وقال له :

- ماترى رأيك في شئٍ تحوز به حُسنَ رأيي ، وتعجيلَ العطاء الرغيبِ مني ، وتعتقد المِنَّةَ عَلَيَّ ؟ .

فقال :

- ياسيدي . بَعْضُ هذا غاية أُملي ! فكيف لي ببلوغه ؟ !

فقال له :

- فقد أمكنك ! فَخُذْ هذه الألف دينار ابتداءً ، فأصلحْ بها من شأنك ، واغْمَلْ لي سُنُونِ الملوك ، من أَجَلٍ ما تقدرُ عَلَيْهِ وَأَوْحَاهُ فِعْلاً ، فَيَدُكَ فيما عندي منطلقاً ! فَأَعِدَّهُ لميقاتك الذي أعرَّفَكَ به .

فلم يخطر على عسيانه . وأراه الرغبة في صِلَتِهِ ، والحرص على قضاء حاجته ، وقَبَضَ الألفَ منه ، وعمل له السُّنُونُ كما أَرَادَهُ .

واتفق أن شكا الأمير إلى نصر فُتوراً يَجِدُهُ ، فأشار عليه بالدواء المُسهل ، وكان من عادته ، فذَكَرَهُ بإدخاله ، وأوصل إليه طبيبه الحراني ، فوافقهُ على إدخال الدواء ، وَحَدَّهُ له تقديمه ، ورسم له التَّوَحُّشَ لإدخاله ليوم سَمَاءُ ، فتقدم الأمير إلى نصر بإدخال الحراني إلى خزانة الطب ، وتمكينه مما يريد من أخلاط دوائه ليقيمه على حَدِّهِ ، فشرع الحراني في ذلك ، وفَجَّرَ ثقة الأمير تطالعه بوصاياه ، فأمكن الحراني منها فرصةً أوحى إليها

(1) ص : لفته عنى عن . وكلمة عنى هنا مقحمة لا موضع لها ولا معنى .

(2) ص : ودحو .

بشأن الدواء ، وسألها أن تُحذِّرَ الأمير من شرب الدواء ، ففعلت ذلك خفيةً ، فحذِرَ الأمير ، وطار بجناح الإشفاق عليه .

فلما غَدَا به نصر في اليوم الذي فارقه عليه أظهر الأمير الانكسار عنه ، ووصف عائقاً يمنعُه منه ، وأمر لِجِينِهِ (1) نصراً بشربه ، فكأنه تواني إذ لم يَسْتَعِدُّ له ، فأكرهه عليه ، وأسرع الخروج إلى داره ، وبادر الإرسال في الطبيب الحراني ، فَعَرَفَهُ ماجرى عليه ، واستغاثه ، فأمره أن يشرب لَبَنَ المَعِزِ ، فأل (2) إلى أن طُلِبَ له وجيء به ، فأعجل عليه السُّم ، فمات ، ولم يشربه .

وذكر الفقيه أبو محمد علي بن أحمد بن حزم (٦٠) أن نصراً هذا الذي إليه تُنَسَبُ مُنِيَّةُ نصر - الأثير كان - عند الأمير عبد الرحمن بن الحكم ، وكان من الفتيان المُنتَقِينَ الذين خَصَّاهُمْ (3) أبوه الأمير الحكم من أبناء الناس الأحرار الذين تُعَبَّدُوا ليستخدمهم داخل قصره وأبوه المعروف بابي الشمول من أسالمة أهل الذمة (٦١) من أهل قرمونة (٦٢) ، نال (4) بابنه نصر دُنيا عريضة ، وكان موته قُبَيْلَ مهلك نصر ابنه بأيام . وأخبار نصر كثيرة .

سنة سبع وثلاثين ومائتين

١٩٣] / فيها كانت وقعة البيضاء (٦٣) ، والبيضاء مجاورة لمدينة بَقِيرَةَ (٦٤) من بَلَدِ بَنِي لُؤْنَةَ بين المسلمين والكفرة الجاشقيين (٦٥) ، فكان اليوم الأول منها على المسلمين ، فاستشهد منهم جماعة ، ونالت فيه موسى بن موسى خمس وثلاثون وخزة تخللت حلق درعه ، واليوم الثاني كافحهم المسلمون ، وقد أخذ المقدمة موسى بن موسى مُتَحاملاً لآلم جراحه ، فحامى (5) على المسلمين ، وحسن غناؤه ، فهزم الجاشقيون أعداء الله أفحش هزيمة ، وفُرِشَتِ الأَرْضُ بِصَرَ عَاهِم (٦٦) .

(1) ص : الحنية .

(2) ص : قال .

(3) ص : حظام .

(4) ص : زال .

(5) ص : مجابة ، وقد قرأها ليني بروفنسال : محاميا (وذلك في نشره لهذه الفقرة فيما قام بانتخابه من نصوص

« المقتبس » هو والمستشرق الإسباني غرسيه غومس في مقالهما الذي سبق أن أشرنا إليه في مجلة الأندلس ، سنة ١٩٥٤ ، ص ٣٠٦)

وفيه هلك يَنْقُهُ بن يَنْقُهُ أخو موسى بن موسى لأمه وظهيره على أمره ، وكان قد أصابه فالجُ عطَّله إلى أن مضى لسبيله (٦٧) ، فَوَلِيَ مكانه ابنه غَرْسِيَّة ، واستمَلَكْتَ (1) له إمارةً بنبلونة (٦٨) .

وفيه في أيام ولاية عبيد الله بن يحيى للشَّجر قام بناحيته رجلٌ من المعلمين ، فادَّعى النبوة ، وألحد في القرآن ، فأحاله عن وجوده ، وأوله على غير تأويله ، وقام معه خلقٌ كثير . وكان ينهى عن قصِّ الشارب والأظفار ، ويقول « لاتغيير لخلقِ الله » ، فأرسل عبيد الله مَنْ جاء به ، فلما دخل عليه وكاشفه كان أولَ ما ابتدأه به أن دعاه إلى أتباعه ، فاستشار فيه عبيدُ الله أهل العلم عنده ، فأشاروا باستتابته ثلاثة أيام ، فإن تاب وإلا قتل ، ففعل به ذلك ، فلم يَتُبْ ، فأسَلَمَهُ للقتل صلباً ، فجعل يقول : « أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله » ؟ فأمضى عبيد الله قتله بالفتوى ، وكتب إلى الأمير بأمره ، فأحمدَ فعله (٦٩) .

وفيه ابتُدِيَ بعذاب عَبَّاسِ الطَّلَبِيِّ وأخيه ، ووليد بن أبي لُحَمَةَ في استخراج الأموال التي غلَّوها بدفاع نصر الخصى عنهم ، إذا كانوا صنائعه وبطانته ، فلجَّوا (2) بالمال ، وشُدَّ عليهم العقاب .

وفيه أيضاً قُبِضَ على مَسْرَةِ الخصى الفتي الكبير وعباس أخيه ، فسجنا ، وذلك في صفر منها ، وصيِّرَ مكان مسرة قاسمِ الخصى الصَّقَلِيِّ (3) ، وذكرَ أنه وُجِدَ لمسرة ثمانية آلاف دينار دراهم (4) .

وفيه عَزَلَ الأميرُ عبدُ الرحمن محمدَ بَنَ زياد عن القضاء بقرطبة وولى مكانه سعيد (5) ابن سليمان بن حبيب الغافقي مجموعاً له إلى الصلاة ، وذلك في ربيع الآخر منها ، فكان آخر قضاة الأمير عبد الرحمن .

(1) ص : واستفلكت ، وهكذا قرأها ليني بروفنسال ، ونظن أن الصواب ما أثبتناه .
(2) ص : فلموا . (3) يحتمل أيضاً ان تكون « الصقل » .
(4) ص : درهم . (5) ص : محمد ، وهو خطأ من الناسخ صوابه ما أثبتنا .

سنة ثمان وثلاثين ومائتين

وفيهما تُوفِّي الأمير عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية ابن هشام بن عبد الملك/ بن مروان ليلة الخميس لثلاث خلونَ من ربيع الآخر من هذه السنة ، فدُفِنَ يوم الخميس في تُرْبَةِ الخُلَفَاءِ (٧١) بقصر قرطبة . وأدلاه في قبره أَخَوَاهُ المغيرةُ وأمّيةُ (٧٢) ، وصلى عليه ابنه الخليفة محمد بن عبد الرحمن .

مولده بُطْلَيْطَلَه في شعبان سنة ست وسبعين ومائة ، وأبوه الحكم يومئذ واليها لوالده (1) الأمير هشام ، فكانت سنة اثنتين وستين سنة . وكانت خلافته إحدى (2) وثلاثين سنة وثلاثة أشهر وستة أيام .

وقال الحسن بن محمد بن مُفَرِّج :

قال ابن عبد البر (٧٣) : توفي الأمير عبد الرحمن ليلة الخميس لليلتين بقيتا من شهر ربيع الأول سنة ثمان وثلاثين ومائتين .

وقيل : بل هي لثلاث خلون منه ، فكانت خلافته إحدى وثلاثين سنة وثمانية وعشرين يوماً . وقيل : بل خمسة أشهر وقيل : ثلاثة أشهر وأربعة أيام . وقيل : ستة أيام .

فدفن يوم الخميس من غد لَيْلَةَ موته في روضة الخلفاء سَلَفِهِ بقصر قرطبة ، وصلى عليه ابنه الأمير محمد بن عبد الرحمن الوالي مكانه . وكانت سنة اثنتين وستين سنة . ومولده بطليطلة من الثَّغْرِ الأَدْنَى أيامَ كان والده الحكم بن هشام والياً عليها لجدّه هشام ، وذلك في شعبان سنة ست وسبعين ومائة .

قال الفقيه محمد بن وَضَّاح (٧٤) :

اِحْتَجَبَ الأمير عبد الرحمن بن الحكم عن الناس قبل موته مُدَّةً من ثلاثة أعوام أو نحوها من أجل عِلَّةٍ أصابته طالت به واشتدت عليه ، فَحَمَّتُهُ الحركة ، وَهَدَّتْ قوته ،

(1) هذا اللفظ مكرر في الأصل .

(2) ص : أحد .

وأحدثت عليه رقعة في (1) نفسه ، ووخشة في خاطره ، وشدة أسفٍ على ما نُغص عليه من عَصارة ملكه .

فذكر أنه قال يوماً لأكابر خَدَمَتِهِ الخاصة ، وقد حَفُوهُ في مرضه ، وفيهم سَعْدُون زعيمهم الذي اختصه بعد مهلك حَظِيَّه نَصْرٍ ومن يليه :

- يابني ١ - وبذلك كان يخاطبهم مُستَلْطِفاً لهم ومُرفِقاً بهم - لقد اشتقتُ أن أعينَ ضَوْءَ الدنيا وفُسْحَةَ الأَرْضِ ، إذ قد حُيِّتُ عن الخروج إليها ، فَلَعَلَّنِي أَعْلُو مَرْقِبَةٍ يسافر بصري فيها ، فَأَتَسَلَّى بالنظر إلى بسيطها ، وجِسْمِي مُنَزَّعٌ ، فَهَلْ سَبِيلٌ إلى ذلك ؟

فقالوا له : نعم يا مولانا .

وابتدر أكابره إنفاذ أمره ، فأخذوا سرير خَيْرَانَ لطيفاً ، وثيق الصنعة من أسرة الخلافة ، ووضعوا فوقه فراشاً خفيفاً وثيراً حَشْوُهُ الريش ، أجلسوه فوقه ، واحتملوه على أعناقهم ، فصعدوا به إلى العلية على هيئته التي كانت من بنيان الأمير على باب الجنان (٧٥) من أبواب القصر القبليَّة ، ثم هبطوا كذلك ، فعانوا ذلك مرات يسوقون به (2) الأمير في تعاريج دَرَجِهِ الدائرة ، حتى استوى لهم ذلك كما أرادوه ، وأمنوا على الأمير المشقة فيه .

فوضَّعوا الأمير عبد الرحمن عند ذلك فوق ذلك الفراش ، وشدُّوه من جهاته ، واستوثقوا من اضطرابه ، وصعدوا به هَوْنًا ؛ حتى صيرُّوه بأعلى تلك العلية ، فأجلسوه صَدْرَهَا ، وأذنوه إلى الباب الأوسط منها ، فأشرف على صحراء الرِّبِضِ قُدَّامَ باب القصر ؛ [١٩٤] وَسَرَحَ (3) بَصْرَهُ فيها ، وراها إلى كُدَى القنْبَانِيَّة (٧٦) ، ونظر إلى النهر أمامه ، والسُّفُنُ تجري فيه صاعدةً ونازلةً .

فأشترِوحت نفسه ، وانشرح صدره ، وشكَّرَ لخدَمِهِ ما تجشموه من إدنائِهِ من مَسْرَتِهِ وقال لهم :

(1) هذا اللفظ مكرر في الأصل .

(2) كلمة غير واضحة في الأصل ، وربما كانت « فراش » ، أو شيئاً بمعنى « واحداً منهم مكان » .

(3) ص : وشرح .

- يا أولادى ! اجلسوا الآن حولى ، وأنسوني بكلامكم ، ومتعوني بأحاديثكم ، ولا تنقبضوا عني بشئ مما تتحدثون به بينكم إذا انفردتم ، كما اشتغل بذلك عما أقاسيه من علي .
 ففعلوا ، وأنس هو بذلك وانبسط ، وقطع أكثر نهاره في تلك العلية . ودنا المساء ، فدعوه إلى النزول إلى مجلسه ، فبيناه يتهيأ لذلك ، إذ وقعت عينه في الصحراء قدامه على قطيع شاء وهي ترعى في منحدرها ، ولم ير معها راع يسوقها ، فقال لهم :
 - يا أولادى ! ما بال هذه الغنم مهملة ولا راعي لها ؟ فتأملوا فقالوا :
 - يا مولانا هاك راعيها قاعد إلى جانبها مستريح في فيء جنان طروب تجاهه ، يتملى (1) في انحدارها .

فقال :

- لعاً (2) !

ثم أثبت بصره في تلك الغنم ، فتنفس الصعداء ، وأرسل عبرته يبكى (3) حتى أخضل لحيته ، وقال :

- وددت والله أن أكون مكان ذلك الراعى ولا أنشب فيما نشبت من الدنيا ولا أتقلد من أمور الناس ما تقلدت !

ثم استغفر الله كثيراً ودعاه . ونزلوا به إلى مهاده ، فلم تطل فيما بعد نهاره هنا حياته .

وذكر أحمد بن الأمير محمد بن عبد الرحمن (٧٧) قال :

اعتل جدى الأمير عبد الرحمن علته التي توفى فيها ، فطاوَلته ونهكته ، وماطلته مدة :
 تارة تخف عنه ، وتارة تُثقله (4) ، فيركس ويضعف ، وينيبوا العلاج عنه على اجتهاد أطبائه في التماس شفائه ، فنعى (5) عليهم وقت سقامه . فلما كان قبل وفاته بأربعة أيام أو نحوها انحط مرضه ، وتحركت له قوة (6) خال بها أنه ميل من ضناه ، فأمر بأن

(1) كلمة مطبوسة في الأصل تحتمل أن تكون « يتأمل » أو ما أثبتناه ومعناها يتمتع بالنظر إليها .

(2) ص : له ، والتصويب في الحاشية ، ولما دعاه له بأن يستقل من عثرته .

(3) ص : تبكى . (4) ص : لقله .

(5) كذا ، وقد تكون « فعى » أى خنى عليهم وغمض .

(6) ص : قوته .

بصلح له الحَمَام ، وَيُعَدِّل مِزَاجُهُ ، فَاحْتَمَ فِيهِ ، وَأَجَدَّ خِضَابَهُ ، وَكَانَ يُوَالِيهِ وَيُجَمِّلُ بِهِ ، وَحَدَّثَتْهُ نَفْسُهُ بِالرُّكُوبِ مَعَ عِيَالِهِ طَلِبَ النِّزْمَةَ ، وَهُوَ يَأْمَلُ الْإِنْظَارَ ، وَالْمَوْتَ أَدْنَى إِلَيْهِ مِنْ وَرِيدِهِ .

فلما عزم على إتيان مَسَوِّكَتٍ له نفسه من ذلك دعا حاجِبَهُ عيسى بن شَهَيْدٍ (٧٨) ، وكان خفيفاً على قلبه ، فَأَوْصَلَهُ إِلَى نَفْسِهِ صَبِيحَةَ الْيَوْمِ الَّذِي قَضَى نَجْبَهُ فِي آخِرِهِ ، فَبَشَّرَهُ بِتَخْفِيفِ مَرَضِهِ وَانْبِعَاثِ نَشَاطِهِ ، وَقَالَ لَهُ :

– كَيْفَ تَرَى خِضَابَنَا يَا عَيْسَى ؟

[فَقَالَ لَهُ] (١) :

– أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ سَيِّدِي ! أَحْسَنُ خِضَابٍ رَأَيْتُ قَطُّ ، وَأَدْلُهُ عَلَى انْتِعَاشِ سَيِّدِي وَاقْتِيَامِهِ (٢) الْبَقَاءِ بِخُلُوصِ الْقَمَرِ مِنْ انْكَسَافِهِ بِفَضْلِ اللَّهِ عَلَيْهِ وَعَلَى رَعِيَّتِهِ .
فَسَرَّهُ قَوْلُهُ وَقَالَ لَهُ :

– إِنَّ بَعْضَ كَرَائِمِنَا سَأَلَنَنَا تَجْدِيدَ الْعَهْدِ لِدَيْهِنَ بِالرُّكُوبِ مَعَهُنَّ لِلنِّزْمَةِ عَلَى مَقْتَضَى (٣) الْعَادَةِ ، فَاخْرُجْ مِنْ فُورِكَ ، فَانظُرْ فِي إِقَامَةِ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ لِنَزْمَتِنَا عَلَى أْتَمِّ رَسُومِهَا (٤) ، وَاعْجَلْ بِذَلِكَ ، فَإِنَّا مَتَحَرِّكُونَ صَبِيحَةَ غَدٍ (٥) بِحَوْلِ اللَّهِ .

فَمَضَى عَيْسَى لَشَأْنِهِ ، وَقَالَ الْأَمِيرُ لِلرَّاشِدَةِ (٧٩) الْقَائِمَةَ عَلَى رَأْسِهِ :

– أَدْخُلِي إِلَى خَزَانَةِ الْكِسْوَةِ ، فَمَزِيهَا أَنْ تَتَخَيَّرَ لَنَا مِمَّا عِنْدَنَا مِنَ الْوَشِيِّ رِدَاءً يُوسُفِيًّا مِنْ أَفْخَرِ نَوْعِهِ ، فَجِئِينَا بِهِ .

فَمَضَتْ الرَّاشِدَةُ وَجَاءَتْهُ بِرِدَاءِ يُوسُفَى مُعَمَّرٍ ، لَمْ تَرَ الْعَيُونَ أَنْتَقَ مِنْهُ / ، فَأَمَرَ بَعْضَ [١٩٤ب]

(١) زيادة يقتضيا السياق .

(٢) كذا ، وقد تكون « واعتيامه » أى اختياره وإيثاره .

(٣) ص : مصى . . .

(٤) ص : رسوخها .

(٥) ص : غدا .

أكابر الخدم أن تُخرجهُ إلى عَريف الخياطين (٨٠) بالقصر ، فليقطعهُ ثوباً لللبوسه ، ويتخذ منه قلنسوةً لحاجبه عيسى كما يلبسها جميعاً لركوبيهما صبيحةً غدٍهما ، ويجمع الصنّاع على إتمامهما لللبوسهما ، فعاد إليه الخادم بجواب عَريف الخياطين ، فذكر أن خياطة الجلد لا تُمكنُهُم في مثل الوقت الذي حدّه ، لدقّة صنعة الثوب والأناة لنقشه ، وتعذر جمع (١) الأيدي عليه ، فضلاً عن عمَل القلنسوة التي يستأنف تجسيدها لحاجبه من فضل الثوب ، ولا بُد من الاستيناء بها .

فشق ذلك على الأمير وكسر منه حتى ثناه حاجبه عيسى عن ذلك بلطفه ، وهون عليه الخطب ، وقال له .

– في الذي تحويه خزانة الأمير من الثياب ورفيع القلائس ما فيه مندوحة عن اشتكاد هذا الثوب الذي لا يؤمن الخطأ في حته ، ولن يفوته نيل ما قام في خاطره منه ، لأقرب مداه (٢) بحول الله ، وتجاوزة بالإبلاء إلى ما سواه ، كما أن عندي من جليل (٣) خلع ورفيع قلائس ما أسره بالتجمل به في خدمته . فليضع عن نفسه العريزة كلفة هذا في مثل هذا الوقت الضيق ، ولينفذ عزمه في تفريح نفسه بنزهته .

فوضع ذلك الرداء على كُرسي في المجلس (٤) . . . الإضراب عنه ، والعمل على الحركة صبيحة غد . فنظر عيسى فيما أمره به ، وهياً على رؤسومه ، وانقضى نهارهم ، فما هو إلا (٥) أن صلى الأمير المغرب ، فانتكثت مريرتة ، وثارَت عِلته ، وحضرة حمامه ، فتهوَّع ، ودعا بالطست ، فقاء دماً غبيطاً ، وعاود ذلك مراراً ، فلم يقلع عنه وجعه حتى لفظ نفسه ، وقضى نَحبه . وقعد الأمير محمد من ليلته مكانه ، فتتنظر إلى ذلك الثوب الموشى المرَجى قطعهُ موضوعاً على الكرسي ، فعرف شأنه مع والده مساء ليلته ، فعجب وقال :

(١) ص : جميع .

(٢) بعدها في الأصل كلمة « الله » ، ولفظ الجلالة هنا زائد لا موضع له .

(٣) « من جليل » مكررة في الأصل .

(٤) يبدو أن شيئاً سقط هنا مؤداه : « وعزم على الإضراب عنه . . . الخ » .

(٥) ص : إلى .

- لِيَصِرَ كَفَنَ الْأَمِيرِ نَضَرَ اللَّهُ وَجْهَهُ !

فَعَمِلَ ذَلِكَ بِهِ وَأَصْبَحَ حَدِيثَهُ مَوْعِظَةً لِمَنْ سَمِعَ بِهِ .

صفة الأمير عبد الرحمن

عن أحمد بن محمد الرازي (٨١) :

كان أشمٌ أفنى أعينَ أسود العينين ، طوَالٌ فخمٌ ، مُسْبِلٌ ، عظيمُ اللحية ، يَخْضِبُ بِالْحِنَاءِ .

نَقُشُ خَاتَمِهِ : « عبد الرحمن بقضاء الله راضٍ » . وهو أول من استنقشه (٨٢) ، وقد مضى خبره .

تسمية ذكور أولاده

وهم في عدد الرازي أربعون (٨٣) .

أولهم الأمير محمد الوالي بعده ، أبو العاصي الحكم الاشثياق^(١) (٨٤) ، أبو أيوب سليمان ، أبو القاسم المطرف (٨٥) ، أبو الحكم المنذر (٨٦) ، أبو الوليد هشام (٨٧) ، أبو بكر يحيى ، أبو عبد الملك مروان ، أبو عثمان ، (٨٨) ، أبو سعيد مسلمة ، أمية ، عبد الملك ، الأصبغ ، أبو مروان عبیدالله ، [أبو] معاوية سعيد (٨٩) ، أبو العاصي بكر أبو الأصبغ عبد العزيز ، أبو أمية العاصي ، أبو محمد عبد الله (٩٠) ، أبو حفص عمر ، الأعرج طريف ، أبو العباس الوليد ، أبو العاصي عبد الجبار ، أبو عبد الله أحمد ، أب (٢) (٩١) ، أبو القاسم العباس ، أبو محمد موسى ، القاسم ، أبو القاسم اسماعيل ، أبو خالد يزيد ، أبو الوليد / [١٩٥] إسحاق ، والعمُرُ شقيقه ، أبو القاسم عبد الواحد ، أبو اسحاق ابراهيم ، أبو القاسم عمرو ، يعقوب ، أبو عبد الملك المغيرة ، أبو الأصبغ عثمان ، الغريض (٩٢) .

وفي كتاب معاوية بن هشام الشيبينسي (٩٣) قال :

(١) كذا ، ولعل « الاشثياق » لقب نيز به .

(٢) بقية هذه الكلمة مطبوسة ، ونرجح أنها « أبان » إذ أن هذا هو اسم واحد من أبناء عبد الرحمن بن الحكم نص عليه ابن الأبار في « الحلة السراء » ، بتحقيق الدكتور حسين مؤنس ، نشر الشركة العربية للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٣ / ١ ، ١٢٦ / ٢ ، ٣٦٦ . ولم يذكر أبان المشار إليه هنا ، ولعله هو الذي بقى الحرفان الأولان من اسمه .

من نُبَهَاءَ وَلَدَ الأمير عبد الرحمن أبو قُصَيٍّ يعقوبُ ، وكان أديبا شاعرا كَلِفًا بالعلوم
جامعا للآداب مطبوعا في الشعر ، وكان جوادا لا يُليقُ شيئا ، ويسرف حتى يُخِلُّ بنفسه .
وأخباره كثيرة .

قال حَيَّان :

وصفه بالشعر ، ثم لم يُنشدْ له منه ما يَصْدُقُ وَصْفَهُ ، بل أنشد ثلاثة أبيات من قصيدة
مدح بها ابن أخيه العاصي بن الأمير محمد بن عبد الرحمن (٩٤) ليست بطائل ، والأبيات :
[من الوافر]

يُنَادِي ماجِدًا مِنْ عَبْدِ شَمْسٍ كَرِيمَ الْفَرْعِ مِفْضَالَ الْبَدِينِ
سَمًا لِلْمَكْرُمَاتِ فَقَدْ حَوَاهَا بَهْدِي وَخَطَّارِ رُدَيْنِي
وغيثًا حين يَسْكُبُ لا الثَّرِيًّا به حَازَتْ ولا نَوْءَ الْبُطِينِ

اضطرته القافية إلى أن قرَنَ بين أغزر الأنواء وأنزرها ، فأحال جدا (٩٥).

والإناث في عدد الرازي ثلاث وأربعون ، وهن :

أسماء ، وعاتكة ، وعائشة الغالب عليها عَيْشُونَة ، أم الأصبغ ، وأم هشام ، وفاطمة
الغالب عليها فُطَيْمَة ، وَعَبْدَة ، وعبدة أخرى ، وأمة العزيز ، وأم كلثوم ، وأم عمرو ،
زينب ، وأم هشام ، وَعُبَيْدَة ، وناشدة ، وقسيمة ، عتيكة ، وكَنْزَة ، وعزيزة ، وأم حكيم
كلهن (٩٦) (١) ، وميَّة ، ولأدة ، وأم أبين ، ولأدة ، أمة الوهاب ، ظَبْي (٢) ، وأمة الرحيم ،
رقية ، أم عثمان ، أم موسى ، وأمة الرحمن ، رَحِيمة ، هُشَيْمَة ، أمة الرحيم (٩٧) ، أمة
الملك ، والسيدة بُرَيْهَة ، تَمَلَّل ، والمثى ، حكيمة ، أم سلمة ، آمنة ، والسيدة عَلِيَة (٩٨) .
وزاد في عددهن معاوية بن هشام الشيبينسي نسبة أهل البيت بنتين : أمية (٣) ، ومهابة ،
فَرَقِي عددهن خمسا وأربعين بنتا .

(١) كذا في الأصل ، وانظر ما كتبناه في تحقيق هذه الكلمة .

(٢) ص : لظبي .

(٣) كذا وردها كانت أمينة أو آمنة .

حجاب الأمير عبد الرحمن

قال الرازي :

ألقى الأمير عبد الرحمن على حِجَابَةِ والده الأمير الحكم عبد الكريم بن عبد الواحد ابن مغيث (٩٩) أَكْمَلَ مِنْ حَمَلَ هَذَا الْاسْمِ وَأَجْمَعَهُمْ لِكُلِّ جَمَلِهِ (١) حَسَنَةً ، فَأَقْرَهُ (٢) عَلَيْهَا إِلَى أَنْ تَوَفَّى عَبْدَ الْكَرِيمِ حَمِيداً فَقِيداً ، فَوَلَّى بَعْدَهُ حِجَابَتَهُ سُفْيَانَ بْنَ عَبْدِ رَبِّهِ ، وَبَعْدَ سُفْيَانَ عَيْسَى بْنَ شُهَيْدٍ ، ثُمَّ عَزَلَهُ بَعْدَ الرَّحْمَنِ بْنِ رُسْتَمٍ ، ثُمَّ عَزَلَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ رُسْتَمٍ ، فَأَعَادَ عَيْسَى بْنَ شُهَيْدٍ إِلَى حِجَابَتِهِ ، فَتَوَلَّاهَا لَهُ إِلَى أَنْ هَلَكَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ لِسَبِيلِهِ .

سفيان بن عبد ربه (١٠٠)

وافق الرازي فيما ذكره من أسماء هؤلاء الحُجَابِ الحَسَنُ بن محمد بن مُفَرِّجٍ فِي كِتَابِهِ ، وَذَكَرَ سُفْيَانَ بْنَ عَبْدِ رَبِّهِ فَقَالَ :

كَانَ مِنْ أَكْبَارِ رِجَالِ أَهْلِ الْخِدْمَةِ الْكِفَاةِ الْمُسْتَقْلِينَ بِأَعْبَائِهَا مِنْ جَمْعِ إِلَى الْغَنَاءِ وَالْكَفَايَةِ الْعَفَّةِ (٣) وَالْأَمَانَةِ ، قَدْ تَوَلَّى خِدْمَةَ الْخِزَانَةِ الْكُبْرَى (١٠١) أَيَّامَ الْأَمِيرِ الْحَكَمِ ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ اسْتَخْرَجَ بِالْأَنْدَلُسِ ، وَحَمَلَ (٤) هَذَا الْاسْمَ الَّذِي اعْتَوَرَ مِنْ عَمَلِ عَمَلِهِ إِلَى الْيَوْمِ ، شَرَكَهُ فِي ذَلِكَ مَرْتَبِلَ الْمَعْرُوفِ بِابْنِ عَفَّانَ (١٠٢) جَدُّهُ هُوَ الْبَاقِيْنَ الْيَوْمِ إِلَى جَانِبِ بَابِ الْقَصْرِ الْأَكْبَرِ الْمَدْعُوبِ بَابِ السُّدَّةِ (١٠٣) / وَلَمْ يَزَلْ يَتَنَقَّلُ فِي مَرَاتِبِ الْخِدْمَةِ إِلَى أَنْ نَالَ الْحِجَابَةَ وَمِنْ وَلَدِهِ الْأَدِيبُ أَبُو الْأَسْوَدِ ، وَكَانَ ذَا وَجَاهَةٍ عِنْدَ النَّاسِ ، حَدَّثَنَا (٥) مُؤَنَسُ الْجَلِيسِ مِمَّنْ ، تُوُفِّيَ فِي أَيَّامِ الْخَلِيفَةِ النَّاصِرِ لِدِينِ اللَّهِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى .

[١٩٥ب]

(١) كذا في الأصل ، وهي تحتل وجها من التأويل ، وربما كانت « خصلة » .

(٢) ص : فآقره .

(٣) ص : والعفة .

(٤) ص : وجمل .

(٥) ص : حدثنا ، ومعنى الحدث الذي يجيد الكلام في المجالس .

عيسى بن شهيد (١٠٤)

مولى معاوية بن مروان بن الحكم .

قال :

كان عيسى هذا منقطعاً إلى الأمير عبد الرحمن بعهد والده الأمير الحكم مؤملاً له ، فلما أفضى الأمر إليه أزلفه به ، وقدمه في عليّة خاصته ، وصرفه في عليّ مراتبها ، فولاه خُطّة الخيل (١٠٥) ، ثم استوزرّه ، وولاه النظر في المظالم (١٠٦) وتنفيذ الأحكام على طبقات أهل المملكة ، ثم استحجبه مكان سفيان بن عبد ربه ، واشتخصه دون أصحابه ، وكان أهلاً لإيثاره ، إذ كان من أعيان رجال الموالى في الدولة ، وهم متوافرون ، ومن أشهرهم بالحلم والوقار والحصافة والعلم^(١) والمعرفة والحزم والجزالة . وقد قاد بالصوائف (١٠٧) ، فأخذت سياسته ، وكانت له في التدبير آراء صائبة ، وفي الحروب مقاومٌ كريمٌ ، وتبيّات له على العدو وقائع مشخنة .

وكان نصر الخصى خليفة الأمير عبد الرحمن الغالب عليه من بين سائر أكابر خدّمه - المظاهر لحظّيه طروب الغالبة عليه من بين نسائه - قد اشتمل على قصر الأمير عبد الرحمن ومن فيه ، وشرك في تدبير سلطانه وهو شاحنٌ لحاجبه عيسى عاملٌ في إقصائه ، فتسنى له ذلك عندما اعتلّ الأمير عله الطويلة التي حجبه فيها نصر ، وأنفذ عليه أموراً منكراً ، منها صرفه لعيسى . هذا عن الحجابة ، وذلك بأن أخرج الأمر عن مولاة بصرف عيسى عن الحجابة (١٠٨) وإقراره على خُطّة الوزارة ، وتقليد عبد الرحمن بن رستم (١٠٩) الحجابة مكانه .

فجرى الأمر بذلك إلى أن استقلّ الأمير عبد الرحمن من علته ، وقعد لأهلٍ خطّطه^(٢) ، فدخلوا عليه بقدّمهم الوزراء ، وعيسى في عرضهم ، فتقدم عبد الرحمن بن رستم جماعتهم في التسليم على الأمير ، ثم قعد فوق ابن شهيد ، فاستنكر الأمير ذلك ، فلما استقرّ بهم

(١) ص : والحلم .

(٢) موضع هذا اللفظ متآكل في الأصل ، ولعله كما أثبتنا ، وهو يحتمل أيضا أن يكون « ملكته » .

المجلس قال لعيسى بن شهيد فما يخاطبه به : ما شأن كذا ؟ - لأمرٍ سأله عنه - ، فقال له : يامولاي ، لست بحاجب ، وهذا هو الحاجب . وأشار إلى ابن رستم . فَعَلَّتِ الأَمِيرَ عبد الرحمن كَبْرَةً ، وعرف من حيث أتى (١) ، فكظم غيظَهُ واصطبر .

فلما خرج الوزراء دعا بنصر ، فسأله عن عزل ابن شهيد ، وولاية ابن رستم ، فلم يُمكنه إنكاره ، وادّعى أن وصيةً خرّجتُ إليه من لدنهُ صدرَ علته ، فكذّبهُ الأمير ، وعَلِمَ أنها من تحاملِهِ وجَسْرَاتِهِ ، فسبّه وأغلظَ له ، وهمَّ به ، ثم عفا عنه ، وأعاد عيسى بن شهيد⁽²⁾ إلى الحجابة ، وعزّل عنها عبد الرحمن بن رستم ، وتَرَكَهُ على الوزارة ، فلم يزل عيسى بن شهيد⁽²⁾ حاجباً للأمير عبد الرحمن بن الحكم إلى أن توفى الأمير عبد الرحمن ، فأمضاه عليها محمد ولدُهُ الرّاقِي بعده على الحجابة خمسة أعوام⁽³⁾ إلى أن هلك عيسى صدر/دولة الأمير محمد سنة ثلاث وأربعين ومائتين ، وقد استكمل في ولايته في الدولتين [١٩٦] عشرين سنة .

وقال أبو بكر بن القوطية :

لما توفى الحاجب عبد الكريم بن عبد الواحد مُغيث صدرَ دولة الأمير عبد الرحمن تنافس الوزراء كلُّهم في خُطّة الحِجَابَةِ بَعْدَهُ ، وكَدُّوا بالوسائل والشِّفَاعَاتِ حتى أضجروه ، فأقسم أو اعتقد ألا يُؤلِّيها واحداً منهم ، وعَطَّلَهَا مَدَّةً ، ثم صَيَّرَهَا إلى رجل⁽⁴⁾ من أقادِمِ صنائِعِهِ كان له اتصالٌ به قَبْلَ الخِلافةِ أَحْظَاهُ⁽⁵⁾ لَدَيْهِ اسمه سُفْيَانُ بن عبد رَبِّهِ ، أَضْلُهُ من بَرَابِرِ بَيَّانَةَ (١١٠) ، لم يكن له قِدْمٌ ، وكانت له يَقْضَةٌ ومعرفة ، فتولّى حِجَابَتَهُ أعواماً إلى أن مات ، فَوَلَّى عبده عبد الرحمن بن غانم (١١١) ، [ثم مات بن غانم]⁽⁶⁾ أيضاً ، فصارت الحِجَابَةُ إلى عيسى بن شُهَيْدٍ ، ثم إلى عبد الرحمن بن رستم يداوُلُ الأمرَ بينهما ، إلى أن

(1) ص : أرق . (2) ص : شبيب . (3) ص : أيام .

(4) ص : راجل . (5) ص : أحضاه .

(6) يبدو من السياق أن كلمات سقطت من الأصل في هذا الموضع ، ولعلها ما أثبتنا بين الحاصرتين أو شيء في هذا المعنى . ويؤكد لنا ذلك نص ابن القوطية في تاريخ افتتاح الأندلس ، ص ٦٢ .

مات ابن رستم ، فاتصلت الحجابة لعيسى بن شهيد بَقِيَّةَ (1) أيام الأمير عبد الرحمن . فلما ولى
ابنه الأمير محمد أقرَّ ابنَ شهيد خمسة أعوام (١١٢) إلى أن تُوفِّي سنة ثلاث وأربعين ومائتين .

وزراء الامير عبد الرحمن

قال أحمد بن محمد (١١٣) :

كان وزراء الأمير عبد الرحمن : العباس بن عبد الله القرشي (١١٤) ، الوليد بن عبد الله
القرشي (١١٥) ، عبيد الله بن يحيى بن خالد ، عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث الحاجب
القائد الكاتب ، عبد الرؤوف بن عبد السلام (١١٦) ، عيسى بن شهيد الحاجب ، عبد الرحمن
ابن رستم الحاجب ، محمد بن السليم (١١٧) ، وكانت له مع الوزارة خِطَطٌ يرتزق عليها في
كل شهر ثلاثمائة دينار ، محمد بن عبد السلام (2) بن بسيل (١١٨) ، وكانت تلك سبيله ،
عبد الواحد بن يزيد الإسكندراني (١١٩) ، وكانت أرزاقه تنتهي إلى العدد المذكور ، عبدالعزيز
ابن هاشم بن خالد (١٢٠) ، وكانت أرزاقه أيضا عظيمة ، عبد الرحمن بن عبد الحميد بن
عبد الحميد بن غانم ، محمد بن كُليب بن ثعلبة ، وكان قبل وزارته على الشرطة ، يوسف
ابن بُخت (١٢١) ، عبد الله بن أمية بن يزيد (١٢٢) ، حسن بن عبد الغافر بن أبي عبدة (١٢٣) .

قال ابن القوطية :

والأمير عبد الرحمن أولٌ من أُلزِمَ هؤلاء الوزراء الاختلافَ إلى القصر كُلِّ يوم ،
والتكلمَ معهم في الرأي ، والمشورة لهم في التَّوَاذِلِ ، وأفردهم ببيتٍ رفيعٍ داخلَ قَصْرِهِ مخصوِّصٍ
بهم يقصدون إليه ويجلسون فيه فوق أرائكٍ قد نُضِدَتْ لهم ، يستدعيهم إذا شاء إلى مجلسه
جماعةً وأشتاتا ، يخوض معهم فيما يُطالِعُ به من أمور مملكته ، ويفحص معهم الرأي فيما
يُبرِّمُهُ/ من أحكامه . وإذا قعدوا في بيتهم أخرج رقاعَهُ ورهائله إليهم بأمره ونهيه فينظرون
فيما يصدُرُ إليهم من عَزَائِمِهِ . جرى على [ذلك] (3) من تلامهم إلى اليوم (١٢٤) .

(1) بعداً كلمة الأمير ، وهي زائدة مقحمة بلاشك

(2) ص: محمد بن السليم بن بسيل ، ويبدو ذلك سهواً من الناسخ، وإنما الصواب ما أثبتنا . وقد ذكر ابن الأبار
محمد بن عبد السلام بن بسيل هذا في «الحلة السيرة» وترجم له ونص على أنه ولي الوزارة لعبد الرحمن الأوسط (٣٧١/٢-٣٧٢)

(3) زيادة يقتضها السياق .

قال ابن مُفَرَّج :

وكان قد اجتمع للأمير عبد الرحمن من سَرَاةِ الوزراءِ أُولىِ الحلومِ والنهىِ والمعرفةِ والذكاءِ عصابةً لم يجتمعَ مثلها عند أحدٍ من الخلفاءِ قَبْلَهُمْ ولا بَعْدَهُمْ . وَسَمَاهُمْ حَسْبَمَا تَقَدَّمَ ، فزادَ فيهم ابن [مُفَرَّج]⁽¹⁾ عبدَ العزيزِ بنِ هاشمِ الملقبِ سَعَادٍ (١٢٥) من غيرِ تسميةِ ابنِ شهيد .

قال أبو بكر :

لم يختلف أحد من شيوخ الأندلس في أنه ما خدم ملوك بني أمية فيها أحد أكرم من عيسى بن شهيد غايةً ، ولا أكرم اصطناعاً ، ولا أرعى لذيمة . ولقد كان الحاجب قبله عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث بهذه الصفة ، على زيادة خصاله وأدواته على عيسى إلا في باب كرم الصنعة واستتمامها ، فلم يك يفضله درجة ، بل كان عبد الكريم يقصر عن عيسى في باب قبول الهدية وتجويز المكافأة على قضاء الحاجة ، فإنه كان يقبل ذلك ولا يابأه ، وكان عيسى على الضد منه في هذا الباب : لا يقبل شيئاً منه البتة ، وكان يهجر من عرضه إليه ، ولا يرضى فيمن يتقلده من صنائعه ويشمله⁽²⁾ بنعمته إلا بغاية التشريف والإنهاض ، والتخويل والإمداد .

/ فمن مشهور ذلك فعله في عبد الواحد بن يزيد الإسكندراني ، فإنه قدم إلى الأندلس [١١٩٧] وهو فتى متأدب ظريف ، كان يشدو شيئاً من الغناء على مذاهب الفتيان ، فاعتلق بحبل ابن شهيد وهو صاحب الأمير عبد الرحمن بن الحكم ، فبلا منه فضلاً وحجياً .

فقال له : أمسك عن الغناء البتة ، فإنه يريبك لدينا ، وتحقق بأدبك ، وتنبه لحظك ، فلك خصال تجذب بفضبك !

ف فعل عبد الواحد ذلك ، ولزم عيسى ، فألقى ذكره إلى الأمير عبد الرحمن ، وأوصله إليه ، فأصابه على ما وصفه له عيسى ، فقبلته نفسه ، وحركه عنده حفظه ، فأذنى

(1) زيادة يقتضها السياق .

(2) ص : ينسله .

منزلته ، ومكّن خصوصيته ، حتى نادته وأنس به ، ثم استخذه ونقله في (1) منازل
الخدمة حتى نحو له (2) المدينة (١٢٦) ، ثم رقاؤه إلى الوزارة والقيادة (١٢٧) .

كتاب الأمير عبد الرحمن

كتب له الحاجب عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث ، مع ما كان إليه من الحجابة
والقيادة ،

وعبد الله بن محمد بن أمية بن يزيد بن أبي حوثرّة مولى معاوية بن يزيد بن عبد الملك
ابن مروان ، بيئت الكتابة لبني مروان بالأندلس ، تناسق بعبد الله هذا ثلاثة منهم ما بيئته
وبين جدّه أمية بن يزيد كاتب الأمير الداخل عبد الرحمن بن معاوية . وكان مهلك جدّه
أمية سنة أربع وخمسين ومائة ، ومهلك [أبيه محمد سنة (3)] ست وعشرين ومائتين ،
ومهلك عبد الله [هذا المذكور سنة مائتين (3)] و [وأربعين (١٢٨)] . [وكانوا أهل] (3)
بيت نجابة (4) ...

[ب] [وكتب له أيضا محمد بن سعيد الزجالي ، مؤسس بيت من (5)] / بيوت الشرف
بقرطبة من غير قدم في الدولة ؛ ومحمد بن موسى بن محمد (١٢٩) ؛ وكان يخاطب عنه
في بعض الأوقات كليب الكاتب (١٣٠) من غير أن يرتسم بالخط .

(1) ص : من .

(2) ص : مد له ، وإرهما كانت تحريفا لما أثبتنا ، وقد تكون « ولاء » ، وهكذا وردت في تاريخ ابن القوطية
ص ٧٥ .

(3) زيادة يقتضها السياق .

(4) يأتي بعد هذا اللفظ قطع ذهب فيه بقية ما كتب في الورقة ، وهو قطع سيتكرر بعد ذلك في جميع أوراق المخطوط
حتى نهايته .

(5) زيادة يقتضها إكمال النص ، وسنعمل على إضافة هذه الزيادات في مواضع قطوع النص بطراز مختلف من
الحروف إعانة للقارئ على متابعة السياق بقدر ما أدى إليه اجتهادنا ، وذلك حرصا على ألا يبدو النص مقطعا خاليا من الترابط
على أن هذا لم يكن مجرد اجتهاد ، وإنما استعنا دائما باستخلاص أقصى ما استطعنا من بقايا الكلمات والحروف . ولم نملأ
الفراغات إلا بما تحققناه مستعينين إما بسياق الكتاب نفسه أو بالمراجع الأخرى التي تعين على استيفاء نصوصه ، ولا سيما ما نعرف
منها يقينا أن أصحابها اعتمدوا على ابن حيان أو نقلوا عنه ، أو بالمراجع التي وصلت إلينا مما نعرف أن ابن حيان نقل عنها .
أماما لم نعلمنا عليه المصادر الأخرى فقد تركناه بياضا أو أثبتنا في الحواشي ما بدا لنا في أمر استكمالها .^٣

خبرُ الزَّجَالِيِّ

قال أبو بكر محمد بن عمر بن القوطية (١٣١) :

هو محمد بن سعيد بن أبي سليمان (١٣٢)، واسمه وأرشكين ، من بني يَطْفُتَ من نَفْزَةِ (١٣٣)؛ وهو المعروف بِحَمْدُون ، والملقب بـ «الْأَصْمَعِيُّ» (١٣٤) ، لُقِّبَ بذلك لذكائه وقوة حفظه ، وكان أول من اصطنعه فاستكتبه الأمير عبد الرحمن بن الحكم ، وكتب لابنه محمد بعده (١٣٥)، وأنجبت ولادته لابنَيْهِ عبد الله وحامدِ ابني (١) محمد بن سعيد ، فكانا كاتبينِ نَحْرِيْرَيْنِ ، كِلَاهِمَا كَتَبَ لِلسُّلْطَانِ ، خلا أن عَبْدَ اللَّهِ مِنْهُمَا لم يَطُلْ أمدُهُ في الكتابة ، وكتب نحو سِتَّةِ أشهرٍ ، فَأَعَجَلَتْهُ المنيَّةُ .

وأما حامد أخوه فلزِمَتْهُ الكتابةُ وشهَرَ إلى أن مات سنة ثمان وستين ومائتين (١٣٦) .

وكتب منهم أيضا عبدُ الله بن محمد بن عبد الله بن محمد بن سعيد الزَّجَالِيُّ [سنة] (٢) سبعٍ وثمانين ومائتين ، ثم إنه نالَتْهُ عِلَّةٌ عظيمةٌ مُدَّةً ، وتخفَّفَ ، فأعاده الأمير [عبد الله] (٢) في دولته إلى الكتابة مراراً ، واتصلت كتابته من بعده صدرَ دولة حفيده عبد الرحمن النَّاصِرِ لدين الله إلى أن هلك في العسكر سنة ثِنْتَيْنِ وثلاثمائة (١٣٧) .

فَقَوَّضَتْ الكتابةُ عن بيت هؤلاء الزَّجَالِيِّينَ مُدَّةً إلى أن عادت عليهم بعبد الرحمن ابن عبد الله بن محمد الزجالي متقدما للناصر لدين الله في مِهْمَاتِ سنة تسع وعشرين وثلاثمائة آخر دولة الناصر (١٣٨) ، ثم لم يَنْجُمْ في بيتهم كاتبٌ [بَعْدَهُ] (٣) إلى آخر الدولة (١٣٩) .

وقرأتُ (٤) :

/ بالأدبِ أيامَ كانت سوقُهُ نافقةً ، فارتقى به إلى معرفة الخلفاء ، فبنى البيتَ المُنِيفَ ، [١٩٨] ١ ونالَ ذِرْوَةَ المنزلةِ الرفيعةِ ، وكانوا قَدَمًا من عامَّةِ البُثْرِ من البرابِرِ ، أصولهم من ناحية

(١) في الأصل : أبناء . (٢) زيادة يقضيها السياق .

(٣) كلمة مطبوسة في الأصل ، ولعلها كما أثبتنا أو شيء في معناها .

(٤) يلى هذه الكلمة قطع في الورقة يستمر حتى نهايتها ، ومن الواضح أن ابن حيان ينقل عن كتاب لبعض من سبقه من المؤرخين مثل الرازي أو ابن مفرج أو ابن القوطية ، والحديث كما يدل على ذلك أول الصفحة التالية عن مؤسس بيت هؤلاء الزجاليين محمد بن سعيد المذكور .

تَاكْرُونَا (١٤٠) ، لم يُحْفَظْ لِأَوْلِيهِمْ نِبَاهَةٌ ، فَسَبَقَ الْأَمِيرُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَكْمِ إِلَى اصْطِنَاعِ جَدِّهِمْ مُحَمَّدِ بْنِ سَعِيدٍ هَذَا ، وَبَلَا مِنْهُ فِهْمًا وَمَعْرِفَةً وَصِنَانَةً وَجَزَالَةً اسْتَعْدَمَهُهَا ، فَرَقَّاهُ فِي مَنَازِلِ خِدْمَتِهِ ، وَاسْتَكْتَبَهُ وَاسْتَخَصَّهُ ، فَسَمَّا بَيْتَهُ (١) ، وَلَحِقَ بِأَشْرَافِ الدَّوْلَةِ .

[وقرأت في كتاب القاضي] (٢) أبي الوليد ابن الفرّضي (١٤١) المؤلف في طبقات أهل الدولة والأدب بالأندلس ، قال :

هو أبو عبد الله محمد بن سعيد بن موسى بن عيسى الزجالي - هو فخذٌ من بئر البرابر بالأندلس - ، وكان يُلقَّبُ بـ «الأصمعي» لعنايته بالأدب وحفظه للغة ، وكان من أقوم أهل زمانه بها ، وكان له حظٌ وافرٌ من البلاغة ، ونصيبٌ حسنٌ من صنوغ القريض ، ولم يكن لهؤلاء الزجاليين المُقْحَمِينَ فِي بِيوت الشَّرَفِ بِقَرْطَبَةِ (١٤٢) قَبْلَ جَدِّهِمْ مُحَمَّدٍ هَذَا قَدَمٌ رِيَاسَةٍ ، وَلَا سَالِفٌ صُحْبَةٍ لِلسُّلْطَانِ ، وَلَا تَشْبِثٌ (٣) بِخِدْمَتِهِ ، فَهُوَ أَوَّلُ مَنْ نَجَمَ (٤) فِيهِمْ وَصَارَتْ لَهُ مَنْزِلَةٌ لَدَيْهِمْ ، كَانَ سَبَبُهَا - زَعَمُوا - أَنَّ الْأَمِيرَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَكْمِ عَثَرَتْ بِهِ دَابَّتُهُ وَهُوَ سَائِرٌ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ ، وَتَطَاطَأَتْ ، فَكَادَ يَكْبُو لِفِيهِ ، فَلَحِقَهُ جَزَعٌ تَمَثَّلَ إِثْرُهُ لَمَّا اسْتَقَلَّتْ بِهِ مَطِيئَتُهُ بِقَسِيمِ بَيْتِ جَرَى فِيهِ ، وَهُوَ : [من الطويل] .

* وما لا يرى مما يقى الله أكثر *

وطلب صدر البيت ، فعزب (٥) عنه ، وتعلق بأله به ، فسأل عنه أصحابه ، فأصلوه وأمر بسؤال كل من تسمى بمعرفة في عسكره (٦) ، فلم يكن أحدٌ يقفُ عليه غير محمد بن سعيد هذا الزجالي ، لِمَا أَرَادَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ تَحْرِيكِهِ ، فَقَالَ لِسَائِلِهِ ؛ حَاجَةُ الْأَمِيرِ عِنْدِي ، فَلْيُذِنِّي أُنِمَّاهُ . فَأَذْنَاهُ ، فَقَالَ لَهُ أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ ، أَوَّلَ هَذَا الْبَيْتِ :

تَرَى الشَّيْءَ مِمَّا يُتَّقَى فَتَهَابُهُ

وما لا نرى مما يقى الله أكثر

(١) ص : ما يلكه

(٢) يياض في الأصل بقدر نصف سطر ، وقد وضعنا في مكانه هذه الكلمات استكمالاً للساق .

(٣) ص : فثبت .

(٤) ص : نجم .

(٥) ص : كلمة غير واضحة في الأصل .

(٦) ص : مكر .

تمام البيت . فَأَعْجَبَ الْأَمِيرَ مَا كَانَ مِنْهُ ، وَرَاقَةً بَيَّانَةً ، وَأَعْجَبَهُ شَكْلُهُ ، فَقَالَ لَهُ : الْزَمِ
السُّرَادِقَ . فَلَمَّا جَالَسَهُ وَحَدَّثَهُ إِزْدَادَ قَبُولًا لَهُ وَرَغْبَةً فِيهِ ، فَاسْتَخْدَمَهُ وَاسْتَخَصَّهُ ، ثُمَّ
اسْتَكْتَبَهُ بَعْدَ حِينٍ لِسِرِّهِ .

وكان قبل هذا اتَّخَذَهُ كَاتِبًا [لوزرائه إشرافًا لهم فيه] ⁽¹⁾ على رَسْمٍ مِنْ تَقَدُّمِهِ ، فَحَدَّثَتْ
مُحَمَّدًا هِمَّتَهُ عَلَى التَّرْفَعِ عَنْ ذَلِكَ لِلتَّفَرُّدِ بِأَعْلَى [المنازل] ⁽²⁾ ، وَكَتَبَ إِلَى الْأَمِيرِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ
يَسْتَعْفِيهِ مِنْ قَصْدِ وُزَرَائِهِ كِتَابًا يَقُولُ [فِيهِ] :

[إِنْ مَنْ] ⁽³⁾ وَوَيْمَ بِمَيْمِ كِتَابَتِهِ - أَعَزَّهُ اللَّهُ - وَشُرِّفَ بِأَسْمِهَا لِجَدِيرٍ أَنْ [يَغْتَلِبَنِي عَنْ
كِتَابَةِ وُزَرَائِي] ، وَيَزِدَّهِيَ بِجِصَّانَةِ أَسْرَارِهِ ⁽⁴⁾ ،

/ تنبيهه إِيَّاهُ ، فَأَفْرَدَهُ بِكِتَابَتِهِ ، وَاتَّخَذَ لِلْوُزَرَائِ كَاتِبًا مُفْرَدًا لِكِتَابَتِهِمْ ، فَجَرَى الْأَمْرُ عَلَى [١٩٨ب]
ذَلِكَ مِنْ بَعْدِ الْأَمِيرِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ إِلَى آخِرِ الدَّوْلَةِ .

وكان محمد بن سعيد هذا من أحد عجائب الدنيا في قوة الحفظ ، يُضْرَبُ بِحِفْظِهِ
الْأُمِّيَّةُ ⁽⁵⁾ ، عَلَى تَصْدِيقِ مَا يُؤَثَّرُ مِنْ ذَلِكَ مِنْ مَشْهُورِ الْحِفَاطِ مِنْ صَدْرِ هَذِهِ الْأُمَّةِ .

فَذَكَرَ عَنْهُ ابْنُهُ حَامِدُ بْنُ مُحَمَّدٍ قَالَ :

« جَاءَهُ يَوْمًا مُسْتَجِدٌّ تَوَسَّلَ إِلَيْهِ بِشِعْرِ امْتَدَّحَهُ بِهِ سَأَلَهُ أَنْ يَأْذَنَ لَهُ فِي إِنْشَادِهِ ، فَفَعَلَ ،
وَجَمَلَ الشَّاعِرُ يَنْشُدُهُ لَهُ مُسَحَّنَفِرًا فِي نَشِيدِهِ ، وَمُحَمَّدٌ مُطْرِقٌ . فَلَمَّا فَرَّغَ مِنْ شِعْرِهِ ذَهَبَ
إِلَى مُعَالِطَتِهِ لَهُ ، فَقَالَ لَهُ : يَا هَذَا ، مَا الَّذِي دَعَاكَ أَنْ تَنْتَحِلَ شِعْرًا لغيرِكَ ، فَتَقْلِبُهُ فِينَا ؟
وَكَوْنَتْ فِي غِنَى عَنْ ذَلِكَ ، فَقَدْ كَانَ فِي قَصْدِكَ لَنَا وَمَاتَةَ أَدَبِكَ إِلَيْنَا مَا نَقْضِي بِهِ ذِمَامَكَ ،

(1) كلمات مملوسة في الأصل لم تبق منها إلا حروف اعتمدنا عليها في إعادة تركيبها .

(2) قطع بقدر كلمتين .

(3) قتلوع في الأصل ، استعنا في استكمال فجوات النص فيها بما نقله عن ابن حيان صاحب كتاب المغرب (١ / ٣٣٠ -

٣٣١) .

(4) استكلنا النص عن المغرب لابن سعيد في الموضوع المذكور في الحاشية السابقة ، ولكن نص ابن حيان أكمل وأكثر
تفصيلاً ، إذ يبدو أنه أورد الرسالة التي كتبها الزجاجي كلها أو أكثر فقراتها بدليل أن القطع الذي أصاب أسفل الورقة -
وقد ذهبت فيه عدة سلطور - يشتمل على جزء لم يشته ابن سعيد فيما نقل .

(5) ص : الأدلة .

وَنُعِينُكَ عَلَى شَأْنِكَ ! فقال له : سُبْحَانَ اللَّهِ يَا سَيِّدِي ! تقول ذلك في شِعْرٍ كَدَدْتُ فِيهِ
خَاطِرِي ، وَأَتَعَبْتُ فِيهِ ذَهْنِي ؟ فلا والله ما أخذته من أحدٍ ، ولا سَوَّيْتُهُ إِلَّا مِنْ نَظْمِي !
فقال له محمد : باطلٌ ! إنه لشعر قد رَوَيْتُهُ قَدِيمًا وَحَفِظْتُهُ ، فإن شئت فاستمع إليه أَنشِدْكَه
وبدأ فأعاد الشعر عليه أو أكثره . فبقي حائراً لِمَا فَجَأَهُ بِهِ ، وقد زالَ طمَعُهُ ، وانقطعت
حُجَّتُهُ ، واشتدَّتْ فَجَعَتُهُ . فلما رأى محمد سوءَ مقامِهِ قال له : خَفِّضْ عَلَيْكَ ، فَإِنِّي مَرَّخْتُ
مَعَكَ ، وَإِنَّكَ الصَّادِقُ فِيمَا قُلْتَ ، الحَقِيقُ بِالثَّوَابِ عَلَى مَا قَرَضْتَ ، وَإِنَّمَا أَعَانِي عَلَيْكَ قُوَّةُ
حِفْظِي الَّذِي ذَهَبْتُ إِلَى اخْتِبَارِهِ مَعَكَ . ولا والله ما سَمِعْتُ بهذا الشعرِ قَبْلَ يَوْمِي . فَسَرَى
عَنِ الشَّاعِرِ هَمَّهُ ، وَأَجْزَلَ صِلَتَهُ « (١٤٥) .

قال :

وتوفى محمد بن سعيد هذا « الأَصْمَعِيُّ » سنة اثنتين وثلاثين ومائتين ، وأَعْقَبَ ابْنًا
نَجِيبًا يُسَمَّى حَامِدَ بْنَ مُحَمَّدٍ وَرِثَ مَكَانَهُ مِنَ الأَدَبِ وَالمَعْرِفَةِ وَالمَكْتَابَةِ وَالمَبْلَاغَةِ ،
فَسَلَكَ سَبِيلَهُ فِي خِدْمَةِ السُّلْطَانِ ، وَارْتَقَى فَوْقَ ذِرْوَةِ أَبِيهِ بِخِطَّةِ الوِزَارَةِ ، بِحَضْرَةِ الأَمِيرِ
مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ . وَقد كَانَ أَدِيبًا حَلِيمًا عَفَا [جَمِيلٌ] ^(١) الخِصَالِ ، خَلَا أَنَّهُ كَانَ
يُعَابُ بِالبِخْلِ وَالاقتِصَادِ ، فَيُضْحِي لِلذَّمِّ فِي عَرِضِهِ ذَرِيعَةً .

قيل لمؤمن بن سعيد (١٤٦) الشاعِرِ البَدِيعِ : [مَا بَالُكَ لَا تَسَامِرُ] ^(١) الوَازِرِ حَامِدًا أَوْ
تَرَائِكِيَةً حَسْبًا نَرَاكَ [تَفَعَّلُهُ مَعَ الوِزَرَاءِ مِنْ أَصْحَابِهِ مَعَ قَدِيمٍ] ^(١) اتِّصَالِكَ بِهِ وَسَبَبِكَ إِلَيْهِ ؟
[١٩٩] [فقال مؤمن بن سعيد : هذه :] / جِنَازَةٌ غَرِيبٍ لَا يَصْحَبُهَا مِنْ صَحْبِهَا إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى !
وَنُمِيَّتْ كَلِمَتُهُ إِلَى حَامِدٍ ، فَحَقَّقَهَا عَلَيْهِ . وَشِيعَهُ مُؤْمِنٌ بَعِيدَ أَيَّامٍ فِي خُرُوجِهِ مِنَ القَصْرِ
إِلَى دَارِهِ لَا يَنْكُرُ مَا عَرَفَهُ مِنْ أَنْسِهِ بِهِ وَمَذَاكَرَتِهِ ، فَلَمَّا أَرَادَ مُؤْمِنٌ الانصِرَافَ قَالَ لَهُ حَامِدٌ :
أَعْظَمَ اللَّهُ أَجْرَكَ أبا مروان ! وَكَتَبَ خُطَاكَ ! - دُعَاءُ مُشَبِّعِ المَوْتَى - ، تَعْرِيفًا لَهُ بِقَوْلِهِ (١٤٧)

وَمِنْ نَوَادِرِ حَامِدِ بْنِ مُحَمَّدِ الرَّجَالِيِّ مَا حَكَاهُ مُحَمَّدُ بْنُ نُصْرٍ ، قَالَ (١٤٨) :

غَلِطَ إِمَامُ الوَازِرِ حَامِدُ بْنُ مُحَمَّدٍ لَيْلَةً فِي بَعْضِ قِرَائَتِهِ فِي صَلَاةِ التَّرَاوِيحِ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ

(١) كلمات مطموسة استعنا في استكمالها بما نقله ابن سعيد في المغرب (١ / ٣٣١) عن ابن حيان .

بمسجد حامد ، وحامد حاضر ، فقرأ مكان قوله تعالى : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ﴾⁽¹⁾ ، فقرأ : « . . . فَاذْكُرُوهُمَا » ، فلما انصرف حامد قال لبعض من يَخُصُّه من جيرانه : « أَمَا سَمِعْتَ مَا أَتَى بِهِ إِمَامُنَا مِنْ تَبْدِيلِ حَدُودِنَا ؟ » وتضحك ، فقال له حامد : فقد سَنَحْتُ لِي فِيهِ بَدِيهَةٌ فَاسْمَعُهَا ، وأنشده : [من مجزوء الرمل]

أَبْدَعَ الْقَارِيُ مَعْنَى لَمْ يَكُنْ فِي الثَّقَلَيْنِ
أَمَرَ النَّاسَ جَمِيعًا بِنِكَاحِ الزَّانِيَيْنِ

وأنشد لأحمد بن محمد بن فرج البلوي المعروف بالبلساري⁽¹⁴⁹⁾ يهجو حامد بن محمد ويكثر بخله في اتخاذه لصنيع عنده قتر فيه على من شهده ، وناقض مروءته ، من أبيات فيها⁽²⁾ : [من الكامل]

فَعَلَ اللَّثِيمُ وَلَيْتَهُ لَمْ يَفْعَلِ
وَأَتَى بِفَعْلٍ مِثْلُهُ⁽³⁾ لَمْ يَجْمُلِ
ذَبَحَ⁽⁴⁾ الضَّفَادِعَ فِي الصَّنِيعِ وَلَمْ يَدْعُ
لِلنَّمْلِ جَارِحَةً⁽⁵⁾ وَلَا لِلْقُمَّلِ
وَضَعَ الطَّعَامَ فَلَوْ⁽⁶⁾ عَلَتْهُ ذُبَابَةٌ
وَقَعَتْ لِتُكْمِلَ شَبْعَةٌ لَمْ تُكْمِلِ
وَكَأَنَّمَا خُرِطَتْ صِحَافُ طَعَامِهِ
- مِنْ دِقَّةٍ وَدَمَامَةٍ⁽⁷⁾ - مِنْ خَرْدَلٍ

(1) سورة النور ، آية ٢ .

(2) قابلنا هذه الأبيات على الرواية التي يوردها أبو عبد الله محمد بن الكتاني الطيب في « كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس » ، بتحقيق الدكتور إحسان عباس ، ط. بيروت ١٩٦٦ ، ص ٢٥٤-٢٥٥ ، ولو أن المؤلف ينسبها إلى من يسميه محمد بن فرج ، وينقص منها البيت الأول .

(3) ص : فعله ، وواضح أنها محرفة عما أثبتنا .

(4) في « التشبيهات » نحر .

(5) في « التشبيهات » دارجة .

(6) في « التشبيهات » ولو .

(7) في « التشبيهات » : وجفانه ، ولكن المحقق ذكر في هذا الموضع أنها رسمت هكذا : « وبيانه » ، بغير إتمام . ورواية ابن حيان أصوب .

وَكَانَ فِتْرَةَ صَحْفَةٍ عَنْ صَحْفَةٍ (1)

فِي الْبُعْدِ وَالْإِبْطَاءِ فِتْرَةٌ مُرْسَلٍ

أُرْسِلَ هَذَا الشَّاعِرَ آفَةً عَلَى أَهْلِ هَذَا الْبَيْتِ لِأَمْرِ أُودِيَ بِهِ مِنْ بَعْضِهِمْ ، فَعَمَّ بِهَجَائِهِ ،
وَأَفْحَشَ لَهُمْ .

وَمِنْ قَوْلِهِ فِي شَعْرٍ لَهُ فِيهِمْ : [مِنْ الطَّوِيلِ]

هُمْ عَلَّمُونِي اللَّوْمَ حَتَّى كَانَنِي

لِغَيْرِ أَبِي أَوْ مُعْرِقٍ فِي الرَّجَاجِلَةِ (١٥٠)

أَصْحَابِ شَرْطَةِ

الْأَمِيرِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَكَمِ

[قَالَ أَحْمَدُ] (2) بِنِ مُحَمَّدِ الرَّازِيِّ :

أَلْفَى الْأَمِيرُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَلَى الشَّرْطَةِ (١٥١) لِأَبِيهِ الْحَكَمِ [مُحَمَّدَ بْنَ كَلَيْبٍ] (3) بِنِ
ثَعْلَبَةَ (١٥٢) ، فَأَمَّضَاهُ عَلَيْهَا ، ثُمَّ رَقَّاهُ إِلَى الْوِزَارَةِ

[١٩٩] / وَقَتًا تَفَرَّعَتْ فِيهِ أَيَّامُهُ شَرْطَةُ الْعُدُوِّ (4) ، ثُمَّ اسْتَعْفَى الشَّرْطَةَ إِذْ كَرِهَ النَّظَرَ ، وَوَلَّى
مَكَانَهُ الشَّرْطَةَ سَعِيدَ بْنَ عِيَاضِ الْقَيْسِيِّ (١٥٣) . وَكَانَ عَلَى الشَّرْطَةِ وَالرَّدِّ (١٥٤) حَارِثُ
ابْنِ أَبِي سَعْدٍ (5) (١٥٥) :

(1) فِي « التَّشْبِيهَاتِ » : وَكَانَ صَحْفَتَهُ عَلَى أَضْيَافِهِ ، وَمَا رَوَاهُ ابْنُ حِيَانَ أَصَحَّ .

(2) قَطَعَ فِي الْوَرَقَةِ بِقَدْرِ كَلِمَتَيْنِ لَا يَخْرُجَانِ عَمَّا أَثْبَتْنَا .

(3) لَمْ يَبْقَ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ فِي الْوَرَقَةِ مِنْ خِلَالِ الْقَطْعِ إِلَّا حُرُوفُ أَعَانَتِنَا بِقَايَاهَا عَلَى اسْتِكْمَالِهِ ، لَا سِيَّمَا وَأَنَّ ابْنَ حِيَانَ
نَفْسَهُ ذَكَرَ ابْنَ كَلَيْبٍ هَذَا مِنْ قَبْلِ فِي عِدَادِ وَرِثَةِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَكَمِ وَقَالَ أَنَّهُ كَانَ عَلَى الشَّرْطَةِ قَبْلَ وَلايَتِهِ الْوِزَارَةَ .

(4) كَذَا فِي الْأَصْلِ ، وَلَمْ نَهْتَدِ إِلَى وَجْهِ مَقْبُولٍ فِي تَأْوِيلِ هَذِهِ الْعِبَارَةِ ، لَا سِيَّمَا وَأَنَّهَا أَتَتْ بَعْدَ الْقَطْعِ الْمَعْتَادِ فِي آخِرِ
الصَّفْحَةِ السَّابِقَةِ وَالَّذِي ذَهَبَ فِيهِ آخِرُ سَطُورِهَا ، وَلَا بَدَّ أَنَّهُ وَقَعَ فِي أَلْفَاظِهَا تَحْرِيفٌ أَوْ سَقَطَ مِنْهَا شَيْءٌ .

(5) فِي الْأَصْلِ : ابْنُ أَبِي سَعِيدٍ ، وَالصَّوَابُ مَا أَثْبَتْنَا ، وَحَارِثُ بْنُ أَبِي سَعْدٍ هَذَا هُوَ الَّذِي سَيَذْكُرُهُ ابْنُ حِيَانَ بَعْدَ

ذَلِكَ فِي وَفِيَّاتِ سَنَةِ ٢٢١ .

قَوَادِه

عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث الحاجب الكاتب ، وقاد لثلاثة من الخلفاء : هشام والحكم وعبد الرحمن ؛ عبد الرحمن بن رستم ، عبد الواحد بن يزيد الإسكندراني ؛ عباس بن الوليد الطلبي ، وكان كثير التردّد بالصوائف (1) .

قضاة قرطبة للأمير عبد الرحمن بن الحكم

على اختلاف الرواة في عددهم وترتيب دولهم

قال أحمد بن محمد الرازي :

كان له أحد عشر قاضيا : أولهم مَسْرُورُ بن محمد ، على اختلافهم في نَسَبِهِ أيضا ، إذ يقول محمد بن حارث في كتابه : هو مسرور بن محمد بن سعيد بن شراحيل المعافري ، ويقول ابنُ عبد البرُّ : بل هو من موالى الأمير عبد الرحمن بن معاوية ، يكنى [بـ] (2) أبى نُجَيْحٍ ، وذا من اختلافهم قبيح ؛ ثم سعيد بن محمد بن بشير ؛ ثم يحيى بن مَعْمَرِ ابنِ عِمْرَانَ الألهانيّ الإشبيليّ (3) ؛ ثم الأسوار بن عُقْبَةَ ؛ ثم إبراهيم بن العباس بن عيسى ابن عمر بن الوليد بن عبد الملك بن مروان ، ثم يُخَاوِرُ بن عثمان المعافريّ ؛ ثم عَلِيُّ ابن أبي بكر القيسيّ ؛ ثم مُعَاذُ بن عثمان الشَّعْبَانِيّ ؛ ثم محمد بن زياد اللَّخْمِيّ ؛ ثم سعيد ابن سليمان بن أسودَ عَمَّ سليمانَ بن أسود (4) ؛ ثم محمد بن سعيد .

وقال الحسن بن محمد بن مُفَرَّجٍ :

قال ابنُ عبد البرِّ في تاريخه :

لما وَلى الأمير عبد الرحمن بن الحكم استقضى على قرطبة مَسْرُورَ بن محمد سنة سبع ومائتين ؛ ثم سعيدَ بن سليمان سنة ثمان ومائتين ، [ثم يحيى بن مَعْمَرِ الألهانيّ سنة تسع

(2) زيادة يقتضيا السياق .

(4) ص . الأورد .

(1) ص : بالصوائف .

(3) ص : الاسبيل .

ومائتين [1] ، ثم الأنوار⁽²⁾ بن عُبَّبة سنة عشر ومائتين وما بعدها ؛ ثم إبراهيم بن العباس القرشي المرواني جد بني [أبي]⁽³⁾ صَفْوَان هُوَ القُرَشِيُّين الوُجُوهُ بقرطبة سنة ثلاث عشرة ومائتين ؛ ثم محمد بن سعيد سنة أربع عشرة وما بعدها ؛ ثم يُخَامِرَ بن عثمان سنة عشرين ومائتين أيضا ، فَقَضَى أَعْوَامًا ؛ ثم عَلِيُّ بن أبي بكر سنة سبع وعشرين ومائتين وما بعدها ؛ ثم مُعَاذَ بن عُمَانَ [الشعباني سنة]⁽⁴⁾ إحدى وثلاثين ومائتين ؛ ثم محمد بن زياد اللخمي سنة أربع وثلاثين [ثين ومائتين ؛ فَبَلَغَتْ عِدَّةُ قُضَايِهِ]⁽⁵⁾ عشرة رجال ، [وإنما كان سبب استكثار عبد الرحمن بن الحكم من القضاة وكثرة توليته وعزله] / لهم أتباعه فيهم رضا كبير الفقهاء المشاورين الأثير عنده يحيى بن يحيى ، إذ كان لا يزال يشير عليه بقاض ، فيؤليه الأمير عبد الرحمن مقتصرًا فيه على رأيه ، فإذا أنكر عليه يحيى شيئا رَفَعَ عليه إلى الأمير ، فلا يُؤَخَّرُ عَزْلَهُ ، ولا يَحِيدُ عن مشورته ، [وكان]⁽⁶⁾ يحيى الذي يُؤَلَّى مكانه (١٥٦) .

[١٧٥٥]

وكان الشيخ يحيى شديد التمكن⁽⁷⁾ من حُسنِ رأيِ الأمير عبد الرحمن ، وكان قد أثره على جميع الفقهاء أصحابه ، وجعل تورُّكه عليه ، فمن أجل ذلك كَثُرَ عَدَدُ قُضَايِهِ .
قال الحسن :

وقد خالف أبو بكر ابن القوطية ابن عبد البر في عدد هؤلاء القضاة وترتيب دُولهم ، فقال (١٥٧) :

(1) هذه زيادة أضفناها لأن الأصل يقتضيها بغير شك ، إذ بدونها لا تستقيم عدة القضاة الذين ذكر ابن عبد البر أنهم عشرة ، ثم إننا رأينا ابن عبد البر الذي ينقل ابن حبان عنه هنا - عن طريق الحسن بن مفرج - قد نص على تولية يحيى بن معبر هذا القضاء كما سيرد عند كلامه المفصل عن القضاة واحداً واحداً . كذلك أشار إلى ولايته القضاء ابن الفرضي في تاريخ علماء الأندلس (ترجمة رقم ١٥٥٣) وابن سعيد في المغرب (١٤٧/١) ، وكلاهما ينقل الخبر عن أحمد بن محمد بن عبد البر ، مما يدل على أن اسم يحيى بن معمر سقط سهواً من الناسخ في هذا الموضع .

(2) ص : الأسود ، وهو تحريف واضح .

(3) زيادة يقتضيها صواب التسمية .

(4) موضع هاتين الكلمتين مطموس في الأصل ، لا يبدو فيه إلا بعض حروفهما .

(5) قَطُوعٌ في الأصل في هذا الموضع ، وقد اعتمدنا في استكمال العبارة لاستقامته السياق على ما سيورده ابن حبان نفسه

بعد قليل ، فضلاً عما تؤكد المصادر الأخرى .

(6) زيادة يقتضيها السياق .

(7) ص : التسكين ، وهي معرفة عما أثبتنا .

ألقى الأمير عبد الرحمن بن الحكم على قضاء والده الأمير الحكم سعيد بن محمد بن بشير المعافري ، [وَجَدَهُ عَلَى الْقَضَاءِ لِأَبِيهِ ، فَأَمْضَاهُ بَعْدَهُ . وَمُحَمَّدُ بْنُ شَرَّاحِيلَ الْمَعَاوِرِيُّ] (1) جَدُّ بَنِي شَرَّاحِيلَ هُوَ لَاءِ الَّذِينَ يُنْسَبُ إِلَيْهِمُ الْمَسْجِدُ وَالذَّرْبُ بِالرَّبْرِ الْغَرْبِيِّ : ثُمَّ الْفَرَجُ ابْنُ كِنَانَةَ الْكِنَانِيُّ الشُّدُونِيُّ ؛ ثُمَّ يَحْيَى بْنُ مَعْمَرِ الْأَهْلَانِيِّ الْإِسْبِيلِيِّ ، ثُمَّ عَزَلَهُ لِرَفْعِ الْفَقِيهِ يَحْيَى بْنِ يَحْيَى عَلَيْهِ ؛ ثُمَّ الْأَسْوَارُ بْنُ عُقْبَةَ الْجَبَّانِيِّ ، ثُمَّ إِبْرَاهِيمَ بْنَ الْعَبَّاسِ الْمُرَوَّانِيَّ جَدُّ بَنِي أَبِي صَفْوَانَ هُوَ لَاءِ الْقُرَشِيِّينَ الْوُجُوهَ بِقَرْطَبَةَ ، ثُمَّ عَزَلَهُ - زَعَمُوا - لِكَلِمَةِ خَاطَبَتِهِ بِهَا امْرَأَةٌ تَخَاصَمَتْ إِلَيْهِ بِمَجْلِسٍ نَظَرِهِ ، فَلَمْ يُنْكِرْهَا ، وَذَلِكَ أَنْ قَالَتْ لَهُ : « يَا بَنَ الْخَلَائِفِ ! أَنْظُرْ إِلَيَّ نَظَرَ اللَّهِ إِلَيْكَ ! » ، فَلَمْ يُغَيِّرْ عَلَيْهَا ، فَتَمَّهَا إِلَى الْأَمِيرِ مُوسَى بْنِ حُدَيْرٍ (2) الْخَازِنُ الْأَكْبَرُ ، وَرَفَعَ إِلَيْهِ صَفْحَةً يَقُولُ فِيهَا : « مَا يَنْبَغِي لِلْأَمِيرِ أَنْ يَشْرَكَهُ فِي سُلْطَانِهِ مَنْ يُخَاطَبُ بِمِثْلِ مَا يُخَاطَبُ بِهِ ، وَيُحَلَّى تَحْلِيَّتَهُ » ، فَذَلِكَ الَّذِي أَوْجَبَ عَزْلَهُ ، وَقِيلَ إِنَّ تِلْكَ الْمَرْأَةَ دُسَّتْ لِتَقُولَ ذَلِكَ الْقَوْلَ ، فَعَزَلَهُ الْأَمِيرُ سَرِيعًا ؛ ثُمَّ اسْتَقْفَضَى بَعْدَهُ مُحَمَّدُ بْنُ زِيَادٍ (3) جَدُّ بَنِي زِيَادٍ هُوَ لَاءِ الرُّكْنِيِّينَ ، ثُمَّ عَزَلَهُ وَأَعَادَ يَحْيَى بْنُ مَعْمَرٍ إِلَى الْقَضَاءِ ثَانِيَةً ؛ ثُمَّ يُخَامِرُ ابْنُ عَثْمَانَ الْجَبَّانِيَّ ، وَاسْتَعْفَاهُ مِنَ الْوَلَايَةِ فَأَعْفَاهُ ؛ وَوَلَّى أَخَاهُ مُعَاذَ (4) بَنِ عَثْمَانَ ؛ ثُمَّ سَعِيدُ ابْنِ سُلَيْمَانَ الْغَافِقِيُّ الْبَلُوطِيُّ [آخِرَ] قَضَائِهِ ، فَصَارَتْ [عِدَّةُ الْقَضَاءِ فِي أَيَّامِهِ عَشْرَةٌ] رِجَالٌ [قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ فِي تَارِيخِهِ :

وَكَانَتْ الْفُتْيَا فِي أَيَّامِ الْأَمِيرِ الْحَكَمِ وَأَيَّامِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ] (5) / وَوَلَدِهِ نَدْوَرُ عَلَى عَيْسَى [٢٠٠ ب]
ابن دينار ؛ وَزَوْنَانَ بْنَ الْحَسَنِ (6) ، وَمُحَمَّدُ بْنُ عَيْسَى الْإِعْشِيُّ رَاوِيَةٌ (7) وَكَيْعُ بْنُ الْجَرَّاحِ ،

(1) زيادة عن تاريخ ابن القوطية ص ٥٨ .

(2) ص : حوثر ، والتصويب عن الخشني (كتاب القضاة ص ٩٢ - ٩٤) وابن القوطية (تاريخ ص ٥٩) ولو أن الاسم ورد هنا « بن جدير » بالهميم ، وهو خطأ كذلك .

(3) في الأصل : أحمد بن زياد ، والتصويب عن ابن القوطية (نفس الموضوع السابق) والخشني (قضاة ص ١٠٠ - ١٠١) وابن سعيد (مغرب ١ / ١٥٠) ، فضلا عن أنه ورد من قبل في نص ابن حيان كما أثبتنا ، وسيرد كذلك في هذا الكتاب .

(4) ص : خالد ، وهو تحريف ، والصواب ما أثبتنا ، وهو أيضا ما جاء في ابن القوطية (نفس الموضوع السابق) وسائر المراجع التي تعرضت لقضاة قرطبة مثل كتب الخشني والنباهي وابن سعيد .

(5) أعدنا كتابة هذه العبارة - وموضعها مطبوس طمسا شديداً - اعتماداً على ما جاء في المغرب لابن سعيد (١٤٩ / ١) وهو ينقله عن ابن عبد البر ، ولو أن نص ابن سعيد شديد الاختصار .

(6) ص : الحسين . (7) ص : رواية .

ويحيى بن يحيى الليثي ، وسعيد بن حسان ، وعبد الملك بن حبيب ، ومحمد بن خالد الأشج .
وغالب يحيى بن يحيى جميعهم على رأي الأمير عبد الرحمن ، وألوى بإيثاره ، فصار يلتزم من إعظامه وتكريمه وتنفيذ أموره ما يلتزمه الولد لأبيه ، فلا يستقضى قاضياً ولا يعقد عقداً ولا يمضي في الديانة أمراً إلا عن رأيه وبعد مشورته ، ويحيى بن يحيى في طي ذلك يعترف للأمير عبد الرحمن بجميل ذلك ، فلا يأتي في ذكر إحماد سيرته ، ووصف معدلاته وتزيين آثاره لدى رعيته ، وتحضيضهم على طاعته ، واستنهاضهم لتكاليفه ، يتأني لذلك بلطف تناوله وسلامة جانبه ، وكأنه لا يقصده ، ويرى⁽¹⁾ السلطان منفعته ، فيزداد في إعظام قدر الشيخ يحيى بصيرة ، ولا ينقض لرياسته مريرة .

قرأت في كتاب معاوية بن هشام الشيبيني قال :

حدثني أبي هشام (١٥٨) قال :

سمعت الفقيه أصف بن خليل (١٥٩) يقول :

خرج الأمير عبد الرحمن بن الحكم غازياً إلى بعض أهل الخلاف بالغرب الأقصى ، وعقده على أن لا يدخل إلى دار الحرب سنته ، فلم يستنفر أهل الوسطة (١٦٠) ، واقتصر على مدونته (١٦١) ، فلما تهيأ له مراد في عصاة أهل الغرب وأصلحه بدا له في القبول إلى الحضرة ، ورأى الدخول إلى بلد العدو ، وإتمام غزوته بالصمد إلى نكايته ، فتقدم في تهيئة ذلك ، ووافى كتابه على البريد إلى ولده محمد بن عبد الرحمن ، وهو مخلصه على قرطبة ، يلتزم للكون بالسطح على باب السدة من قصر الخلافة مبيت الأمير على العادة (١٦٢) فأمره باستنفار الناس نحوه ، وأخذ بتعجيل الخروج إليه واللحاق به بمكان رسمه

(2) لهم وجه عزيمة ، وأمره أن يحضر

. ويقرى

الناس [كتاب الأمير] .

(1) ص : يثرى ، ولعلها تحريف عما أثبتنا .

(2) ذهبت في قلع أسفل الورقة العبارات التي تركنا مكانها بيضاء ، ولو أن المعنى في مجمله واضح ، إذ يؤخذ من السياق أن محمداً بن الأمير عبد الرحمن أمر بجمع وجوه الناس ليبين لهم رغبة والده في استنفار الناس للجهاد وليقرأ عليهم كتاب الأمير في ذلك .

[فوافقنا محمدًا ، وهو] / يومئذ أمرد ، ما في وجهه شعرة ، فسلمنا عليه ، وقضينا حقه [١٢٠١] وجلسنا على منازلنا بين يديه ، وأبطأ الشيخ يحيى بن يحيى ، والعيون تتطلع نحوه ، فكان آخر القوم مجيئًا ، وصار الولد أشد عليه منه على جميعهم إقبالاً ، وإليه انعطافاً ، وبه بشاً ، فأجلسه معه على فراشه ، وأخفى يحيى سؤاله ، ودعا له (1) .

ثم [أمر] (2) محمد عند ذلك بقراءة كتاب الأمير عبد الرحمن علينا بالاستئنفار ، فأضغينا إليه . فلما فرغ بدر يحيى بن يحيى فقال :

نعم ، أصلح الله الأمير . الواجب علينا الخُفوفُ إلى الإمام أصلحه الله وأيده ، والبدارُ إلى اللحاقِ به ، وألا يعتذر في ذلك مِنَّا [إلا] (2) معتذراً قد أنزل الله في كتابه عُذْرَهُ . لا سواه .

فقيل للناس : قد سمعتم ، فقوموا فانظروا في جهازكم على بركة الله . وعجلوا للخروج ، فاتخير مواقيتكم يوم كذا .

فقام الناس ، ولم يتحرك الشيخ يحيى بن يحيى في ذلك عن مكانه .

قال أصبغ :

وروي على منهم النفير بما (3) لا قبل لي به ، إذ كنت مُقِلاً لاهال لي ، ولا نهوض بي ، فاشتد علي (4) ، وخببت فصاحتي (5) . ولما رأيت يحيى لا يُشير إلى القيام . وكنت على ظن أن له خبراً أرذت الوقوف عليه ، وكانت لي مكانة من صاحب المدينة المتولى للقصة انبسطت من أجلها بالجلوس .

فلما لم يبق غيري أقبل يحيى على الولد محمد ، فقال :

قد يرى الأمير ضغفي على النفر ليشيخي ووهني وأن مثل لا يستطيع الغزو ، ولكني أبعث ابني عبد الله (6) (١٦٣) في مثل العدة التي كنت أغزوها ، فإنه - إن شاء الله - أغنى

(2) زيادة يقتضها السياق .

(4) ص : ص ، بغير إجماع .

(1) ص : وادعا له .

(3) ص : ما ، ولعلها كما أثبتنا .

(5) ص : وخفت بصاحتي .

(6) كذا في الأصل ، ولعل الصواب « عبد الله » . انظر تعليقنا على هذا الموضع .

وَأَجْدَى مِنِّي . فَإِنْ رَأَى الْأَمِيرَ سَيِّدِي أَنْ يَكْتُبَ إِلَى الْإِمَامِ - أَيَّدَهُ اللَّهُ - بِعُذْرِي وَمَكَانِ طَوْبِي فَقَلَّ . فَقَدْ كَرِهْتُ أَنْ أَعْتَذِرَ بِمُخْضَرِ الْمَلَأُ ، لِثَلَا أَوْجَدَ لِي مَنْ لَيْسَ لَهُ عُذْرِي سَبِيلًا إِلَى الْإِعْتِذَارِ .

فشكر له محمد فعله ، واستحسن فيه رأيه ، ووعده بتجديد المخاطبة في شأنه .

فقام يحيى ، وذهبت إلى القيام ، وقد هبت الكلام ، فقال لي صاحب المدينة :

قد علمت الذي تذهب إليه والذي تستحي الكلام من أجله . وحقك لازم لي ، فأنت مخير بين أن تنفذ لرأي الإمام فتلحق به مستريحا لئلا يفتك عن قلبك ، وبين أن تدخل بيتك ، وتعلق بابك عليك ، فلا تخرج عنه لشيء من الأشياء إلى أن يقفل الإمام أضالحة⁽¹⁾ الله ، وأنا من وراء الحفظ لك بحول الله .

قال :

فاخترت [لزوم⁽¹⁾] بيتي ، فلم أخرج منه إلى أن قفل الأمير ، فلم [أهج] بإغضائه صاحب المدينة ، [وأقام على⁽¹⁾] بيئته من أمرى ، إذ [تبين له عذري⁽¹⁾] .

قال ابن عبد البر :

[وكانت فتيا القضاة في مدة عبد الرحمن بن الحكم تدور على نفر من⁽²⁾] / الجلة [٧٥١ ب]
ماتوا⁽³⁾ في أيام الأمير عبد الرحمن⁽⁴⁾ في مدة مختلفة ، إلا عبد الملك بن حبيب ، فإنه استأخر بعد آخرهم موتاً إلى أن هلك الأمير عبد الرحمن ، فلحق عبد الملك من أيام ولده

(1) كلمات لم تبق منها إلا بقايا وأطراف حروف أعدنا على أساسها تركيبها .

(2) أكلنا هذه الجملة معتمدين - فضلا عن السياق - على ما نقله ابن سعيد المغربي عن أحمد بن محمد بن عبد البر مرجع ابن حيان في هذا الموضع ، إذ يقول : « وكانت فتيا (في الأصل : فيها ، ونظنها محرقة عما ذكرنا) القضاة في مدة عبد الرحمن تدور على عيسى بن دينار ويحيى [بن يحيى] وعبد الملك [بن حبيب] ، وكلهم مات في مدته إلا عبد الملك فإنه أدرك في مدة محمد ستة شهور » (المغرب ١ / ١٤٩) ، والخبر في جملته يتفق مع ما نقله ابن حيان ، لولا ما نلاحظه دائماً من ميل ابن سعيد إلى الاختصار الشديد .

(3) ص : مانسرا .

(4) ص : الأمير [محمد بن] عبد الرحمن . والاسم بهذه الصورة لا يتفق مع بقية الخبر ، ولهذا فقد صوبناه

بما يرى في المتن .

الأمير محمد بن عبد الرحمن ستة أشهر أو نحوها ، ثم تبع أصحابه - رحمة الله تعالى عليهم - ، ففُرِضَتْ زُمْرَتُهُمْ ، وانقلبت رياسة الفتوى إلى من تلاهم .

وكان من مشاهير من رَحَلَ إلى المشرق في طلب العلم وابتغاء الرواية من أهل قرطبة فأدرك الغاية : محمد بن يوسف بن مطروح (١٦٤) ، ومحمد بن حارث (١٦٥) ، وأبو زيد عبد الرحمن ابن إبراهيم^(١) (١٦٦) ، وعبد الأعلى بن وهب (١٦٧) ، وبقى بن مخلد (١٦٨) رضى الله تعالى عنه ، ومحمد بن وضاح (١٦٩) ، ويحيى بن إبراهيم بن مزين (١٧٠) ، وأبان بن عيسى بن دينار (١٧١) ، وعبيد الله بن يحيى بن يحيى (١٧٢) ، وكان من آخرهم رحلة في أخريات الأمير عبد الرحمن فتشور من أعيان هؤلاء اللاحقين في أيام الأمير عبد الرحمن : عبد الأعلى بن وهب ، وأصبغ ابن خليل .

قال :

واعتلت منزلة عبد الملك بن حبيب (١٧٣) عند الأمير عبد الرحمن ، ولا سيما من بعد وفاة الشيخ يحيى بن يحيى ، فإنه تفرّد بأثرته ، وحلّ منزلته ، فلم يكن يُقدّم أحداً من أصحابه عليه ، ولا يعدل بمشورته عنه .
وذكر معاوية بن هشام الشبائسي قال :

كانت في أيام الأمير عبد الرحمن مخارج للناس إلى الاستسقاء (١٧٤) في زمن الجُتوب ، وكان البروز في أكثرها إلى مصلى الربض بعدوة نهر قرطبة الدنيا ، أسفلها معهداً مصلى الأعياد . فحضرهم مخرج استسقاء آخر أيام الأمير عبد الرحمن بعد مهلك نصر الخصى خليفة الغالب على رأيه ، أنذر الناس به ليوم يعينه إلى الربض على عادتهم ، فأنكر ذلك الفقيه عبد الملك بن حبيب ، وكتب إلى الأمير عبد الرحمن يذكر أن نصراً هو الذى عاق الناس عن مصلى المصاراة ، وتولّع بصرف بروزهم إلى مصلى الربض لقربه من قصره هناك ، وقد دفعه^(٢) مشيه نحوه ، ويذكر أن البروز إلى مصلى المصاراة المتصل بالبلد

(١) ص : عبد الرحيم بن هارون إبراهيم . وقد وضع الناسخ على لفظ هارون خطأ يشير به إلى شطب هذه الكلمة مستبدلاً لها باسم إبراهيم المذكور بعد ذلك ، غير أن هذا التصويب غير كاف ، فصحة الاسم ما أثبتنا ، وهكذا ورد في تاريخ ابن الفرضى ، رقم ٧٧٩ ؛ وجلوة الحيدى ، رقم ٥٩١ ؛ والديباج المذهب لابن فرحون ص ١٤٧ - ١٤٨ .
(٢) كلمات مطبوعة تماماً لم نستطع تبين شيء منها .

[أَرْفَقُ بِالنَّاسِ] وَأَحْوَطُ ، عَلَى إِزْدِحَامِهِمْ فِي الْقَنْطَرَةِ ، فَقَدْ صَحَّ عِنْدَهُ أَنَّ جَمَاعَةً مِنْهُمْ هَلَكُوا يَوْمَ الْإِسْتِسْقَاءِ غَرَقًا (1) فِي النَّهْرِ فَأَثْقَلُوا قَارِبًا [وَنَزَلُوا فِيهِ لِيَاذًا] مِنْ ضَيْقِ الْقَنْطَرَةِ ، [فَرَسَبَ بِهِمْ ، وَهَلَكَ مِنْهُمْ جَمَاعَةٌ ، وَأَنَّ مِنْ آفَاتِ إِزْدِحَامِ النَّاسِ فِي الْقَنْطَرَةِ مَا بَلَغَهُ مِنْ أَنَّ أَحَدًا] .

[٢٠٢] / وَالْمُزْعِجُ لِلْخَوْفِ (2) فَمُصَلِّي الْمَصَارَةِ أَرْفَقَ بِالنَّاسِ كَافَّةً ، فَإِنَّ مَنْ حَرَّكَتُهُ مِنْهُمْ (3) إِرَاقَةً أَوْ انْتَقَضَتْ بِهِ طَهَارَتُهُ تَقَارَبَ عَلَيْهِ شَطُّ النَّهْرِ ، فَدَبَّ النَّاسُ مِنْ قُرْبٍ ، وَنَالَ حَاجَتَهُ بِسُرْعَةٍ ، وَمَنْ طَلَبَ مِنْهُمْ التَّسْتُرَ لِشَأْنِهِ أَمَكَّنَهُ الْإِسْتِجْنَانَ بِدَاخِلِ الْجَنَاتِ الْمَلَاقِيَةِ (4) لِلْمَصَارَةِ فَتَبَرَّى (5) فِيهَا مِنْ غَيْرِ بُعْدٍ عَنِ مُصَلَّاهُ . فَصُوبَ الْأَمِيرُ رَأْيَهُ ، وَانصَرَفَ الْبُرُوزُ لِلْإِسْتِسْقَاءِ إِلَى مُصَلَّى الْمَصَارَةِ الَّذِي اخْتَارَهُ عَبْدُ الْمَلِكِ .

وَذَكَرَ الْقَاضِي أَبُو الْوَلِيدِ ابْنُ الْفَرَضِيِّ قَالَ :

بَلَغَ مِنْ انبِسَاطِ الْفَقِيهِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ حَبِيبٍ عَلَى الْأَمِيرِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَنَّ كَتَبَ إِلَيْهِ فِي يَوْمِ عَاشُورَاءَ (١٧٥) : [مِنَ الْبَسِيطِ]

لَا تَنْسَ - لَا يُنْسِكُ الرَّحْمَنُ - عَاشُورَاءَ

وَإِذْ كُرُهُ - لَا زَلْتِ فِي الْأَحْيَاءِ مَذْكَورًا -

قَالَ الرَّسُولُ - صَلَاةُ اللَّهِ تُشْمَلُهُ -

قَوْلًا وَجَدْنَا عَلَيْهِ الْحَقَّ وَالنُّورَا :

مَنْ بَاتَ فِي لَيْلِ عَاشُورَاءَ ذَا سَعَةٍ

يَكُنْ بِعَيْشَتِهِ فِي الْحَوْلِ مَخْبُورًا

(1) كلمات مطبوعة تملأ لم نستطع تبين شيء منها .

(2) ص : والمنديج العوف . ولعل الصنواب ما أثبتنا ، أي المثير للخوف وهو بلا شك يصف بهذه الصفة مثل الريفص الذي صرف نصر إليه الناس لقربه من قصره .

(3) ص : منه

(4) في الأصل كلمة غير واضحة تحتمل قراءتها ما ذكرنا ، ويمكن أن تقرأ أيضا « الملحله » .

(5) ص : فجري .

فَارْغَبَ - فَدَيْتُكَ - فَمَا فِيهِ رَغَبْنَا
خَيْرُ السُّورَى كُلِّهِمْ حَيًّا وَمَقْبُورًا

وقرأت بخط عبادة الشاعر (١٧٦) قال :

كان يحيى بن يحيى وأصحابه الفقهاء يحسدون عبد الملك بن حبيب لتقدمه عليهم
يعلم لم يكونوا يعلمونها ولا يشرعون فيها ، إذ كان مع تقدمه في الفقه والحديث عالماً
بالإعراب واللغة ، مُفْتَنًا في العلوم القديمة ، متصرفاً في الآداب الناصعة ، له تواليف جمة
في أكثر هذه الفنون ، منها كتابه في إعراب القرآن ، وفي شرح الحديث ، وفي الأنساب
وفي النجوم ، وغيرها (١٧٧) .

وله بيت شعر في التعريض ببعض قضاة الأمير عبد الرحمن ضمنه كتاباً خاطبه به
في شأنه : [من الخفيف] :

كَانَ بِالْقَاسِطِينَ مِنَّا رَوُوفًا وَعَلَى الْمُتَقَسِّطِينَ سَوُوطَ عَذَابِ (١٧٨)

نوادِرُ من أخبار قضاة الأمير
عبد الرحمن

مستخرجة من كتاب « الاحتفال » (١٧٩)

مسرور بن محمد (١٨٠):

قال محمد بن حارث [الخشني (1)] :

[هو مسرور بن محمد] بن سعيد بن بشير (2) بن شراحيل المعاقري ، ووالده محمد [قاضي الجماعة بقرطبة] الشهير فضله (١٨١) ، ولأه الأمه [ير عبد الرحمن بن الحكم رحمهما الله قضاء الجماعة بقرطبة ، و] كان من الصالحين الفاضلين .

[حدثني من وثقت به من أهل العلم ، قال : حدثني محمد بن أحمد بن عبد الملك المعروف بابن الزرّاد (١٨٢) ، قال :

كان عندنا بقرطبة قاض يعرف بمسرور ، وكان من الزهاد ، استأذن من حفصة من الخصوم يوماً في أن يقوم لحاجة [يقضيها فأذنوا له ، فقام عنهم نحو منزله ، ولم يلبث أن خرج (3) وفي يده خبزة نية ، فذهب بها إلى الفرن ، فقال له بعض من رآه : أنا أكفيك أيها القاضي ! فقال له : فإذا أنا عُرِيتُ عن القضاء - قربة الله تعالى مني - تُراني أجذك كل يوم تكفيني حملها ؟ ما أراك تنشط (4) لذلك ! بل الذي حملها قبل القضاء يحملها (5) بعد القضاء .

(1) اعتمدنا فيما استكلناه من هذا النص على ما بق فيه من حروف خلال القطوع التي أصابت أسفل الورقة ، وعلى كتاب القضاء بقرطبة للخشني ص ٧٨ - ٧٩ .

(2) ص : بكير ، وهو تحريف .

(3) ص : ضر .

(4) ص : نشط ، وقد تكون « نشطا » (بفتح النون وكسر الشين) .

(5) ص : يحملنا .

وقال ابن عبد البر

مسرور⁽¹⁾ بن محمد هذا من موالى الأمير عبد الرحمن بن معاوية الداخل ، يكنى أبا نُجَيْع ، استنفضاه الأميرُ عبدُ الرحمن بن الحكم بعد حامد بن يحيى (١٨٣) الذى كان آخر قضاة والده الحكم وأول قضاة هو ، وذلك سنة سبع ومائتين ، فلم تَطُلْ ولايته ، وتُوفى سنة ثمان ومائتين فى آخرها ..

وقال القاضى أسلمُ بن عبد العزيز (١٨٤) .

سمعتُ أبى (١٨٥) يذكر أنه تَسَمَّى جماعةً من موالى الخلفاء بأسماء العرب ، فأُنكر ذلك عليهم الأميرُ بفضلي أنفتِهِ ، وأكَّدَ فيه نَهْيَهُ (١٨٦) ، وكان له مولى من عِتاقَةِ أبيه يسمى بمحمد (١٨٧) ، ووُلِدَ له وَلَدٌ سماه مسرورا ، سُمِّيَ به على⁽²⁾ حَدِّ الأمير ، فَحَسُنَتْ نَشَأَتُهُ ، واستقامت طريقته ، وتفقَّه وتعبَّد ، وشهَرَ فضلُهُ إلى أن وُلِدَ الأمير عبد الرحمن القضاء بقرطبة ، فاستقلَّ بالعمل ، وأحسن وسَلَكَ الطريقة ، فاغْتَبَطَ به الناس ، إلا أنه عُوجِلَ ، فتُوفى من عامِهِ الذى فيه استنفضاه .

سعيد بن سليمان (١٨٨) :

قال ابن عبد البر :

هو⁽³⁾ سعيد بن سليمان ، يكنى أبا عثمان ، أصْلُهُ من فَحْصِ البَلُوطِ (١٨٩) ، وكان عمُّ سليمان بن أسود (١٩٠) القاضى فيما بلفنى .

ذكر محمد بن مسرور⁽⁴⁾ عن أبيه قال :

سمعتُ سليمانَ بنَ أسود القاضى يقول : كان سعيد بن سليمان يخطب بخطبة واحدة لصلاة الجمعة طولَ مُدَّتِهِ لم يُبدِّلْهَا .. ولقد برز الناس للاستسقاء فى بعض أيامِهِ ، فلما ابتداء خَنَقَتُهُ العَبْرَةُ ، وَأَشْكَلَتْ عَلَيْهِ الخُطْبَةُ ، فاخترها ، وكَثُرَ من الاستخفاف ، والضَّرَاعَةُ ، ثم صَلَّى ، وانصرف ، فسُقِيَ الناسَ ليومِهِمْ .

(٢) ص : قى . . عل .

(٤) ص : سروق .

(١) ص : سروق .

(٣) ص : أبو .

قال :

وتولى القضاء للأمير عبد الرحمن مرتين .

وقال محمد بن حارث :

هو سعيد بن سليمان بن حبيب الغافقي ، يكنى أبا خالد ، أصله من مدينة [غافق]⁽¹⁾ [(١٩١)]
وولاد الأمير عبد الرحمن قضاء الجماعة بقرطبة ، وقد كان [ولي قضاء ماردة] (١٩٢) وغيرها
قبل ولايته لقضاء قرطبة ، وكان من خيار [من ولوا القضاء للأمير عبد الرحمن ، وهو
عم سليمان بن أسود] الذي ولي قضاء قرطبة .

وكان [يروى عن الفقيه أبي عثمان سعيد بن] عثمان الأعنقي⁽²⁾ (١٩٣) عن محمد بن وضاح
أنه [كان يقول : ولي القضاء أربعة ما ولي] القضاء في مملكة [الإسلام] مثلهم ، فاتصل
بهم [] / العدل في آفاقها : دحيم بن الوليد (١٩٤) بالشام ، والحارث بن مسكين (١٩٥) بمصر ،
وسخنون بن سعيد (١٩٦) بالقيروان ، وسعيد بن سليمان بقرطبة . [١٢٠٣]

فأما دحيم بن الوليد بن عبد الرحمن بن ابراهيم وهو المعروف باليتيم فكان⁽²⁾ من أهل
دمشق ، ولأه جعفر المتوكل على الله أيام رأى أن يفعل الخير أو يستصلح إلى الناس بعد
استفساد سلفه إليهم بالمحنة في خلق القرآن ، فقلده قضاء الشام في وقت لم يصح لي
تاريخه ، ومات غير ممتع بولايته سنة خمس وأربعين ومائتين بمدينة الرملة .

وأما الحارث بن مسكين فولاه جعفر أيضا قضاء مصر سنة سبع وثلاثين ومائتين ،
جاءته ولايته وهو بالإسكندرية ، فحبل إلى القسطنطينية ، فكان قاضي مصر إلى أن عزل
في ربيع الآخر سنة خمس وأربعين ومائتين .

وأما سخنون بن سعيد التُّونجي فإنه ولأه⁽³⁾ قضاء إفريقية محمد بن الأغلب التميمي⁽⁴⁾ (١٩٧)

(1) اعتمادنا في استكمال النص على مرجع ابن حبان هنا وهو كتاب الخشني : قضاة ص ١٧٠ - ١٠٨ ، فضلا عما
بق من الحروف خلال القطوع .
(2) ص : وكان .
(3) ص : ولي .

أميرها لجعفر المتوكل أيضا سنة أربع وثلاثين ومائتين ، فلم يزل قاضيا إلى أن توفى
في صدر رجب سنة أربعين ومائتين .

وأما سعيد بن سليمان الأندلسي فإنه ولّاه قضاء قرطبة أمير الأندلس عبد الرحمن بن
الحكم ، أحسبه في سنة أربع وثلاثين ومائتين - والشك منى - فلم يزل قاضيه إلى أن
مات الأمير عبد الرحمن سنة ثمان وثلاثين ومائتين ، وولّى الأمر بعده (1) ابنه الأمير محمد
ابن عبد الرحمن ، فأقره (2) على القضاء وعمِلَ له نحو سنتين إلى أن مات بقرطبة ، وهو
على قضائه . ولا أعلم (3) له عقباً (١٩٨).

وذكر عن أحمد بن عبد الله [بن أبي خالد أن الأمير عبد (4) الرحمن اختاره لجميل
الثناء عليه ، وأرسل فيه يستدعيه للقضاء ، فجلس للحكم في المسجد ، وعليه جبة صوف
بيضاء ، وفوق رأسه قلنسوة بيضاء من فضل جيبه ، فلما أن نظر (5) إليه الوكلاء الذين
يخاصمون عن الناس عند القضاة ازدروه واستغبوه ، وطلبوا الإنذار فيه ، فجاءوا في مغيبه
عن المسجد بقفّة مملوءة من قشور البلوط ، ووضعوها تحت الحصير الذي كان يجلس فوقه
فلما اقتربته عند استواء جلوسه أقض (6) عليه وتوحش من صوت احتكاكه ، فتحول عنه ،
ونظر إلى (7) القشور ، فأنكر مكانه ، وجلس على ملل بذلك ، [وذكر له أن الوكلاء فعلوا
ذلك وصحّ عنده ما قيل له فيهم .

فلما أتوه من بعد ذلك قال لهم : (8) يا معشر الخصماء ، [عيرتوني باني بلوطي] ،
وذلك ما لا خفاء به ! أشهد [على نفسي أنني بلوطي : عود والله صليب لا تفلون (9) فيه .
ثم حلف لهم بأثر كلامه هذا أن لا يخاصموا عنده سنة ، فكاد أن يورثهم الفقر] (١٩٩) .
[وذكر محمد بن عمر بن لبابة (10) (٢٠٠) عن محمد بن أحمد العتبي (٢٠١) قال :

-
- (1) ص : الأمير بعد . (2) ص : فأخبره . (3) ص : يعلم .
(4) الزيادة عن الحشني : القضاة ص ١٠٨ ، وقد جاءت العبارة في الأصل : أحمد بن عبد الله رحمن .
(5) ص : نضر .
(6) ص : أقصى . (7) كلمة مطموسة هنا لم نستطع تبينها ، ولعلها « موضع » .
(8) قمنا باستكمال النص معتمدين على بقايا حروف كلماته وعلى كتاب الحشني ، قضاة ص ١٠٩ .
(9) في كتاب الحشني (نفس الصفحة) : تفلوا ، وفي نفس النص (طبعة القاهرة) ص ٩٤ : تفلوا .
(10) التكملة عن الحشني ص ١١٢ .

٢٠٣ ب] / صَلَّى بنا يوماً سعيدُ بنُ سليمان القاضي صلاةَ الجُمُعَةِ في المسجد الجامع بقرطبة ، ثم خَرَجْنَا معه نَمْشِي نحو داره ، فلما انتهى إلى بابِ الفُرْنِ الذي كان يطْبُخُ فيه قال لصاحبِ الفُرْنِ : أَطْبَخْتَ (1) خبزتي ؟ فقال له : نعم . قال : فهَاتِيهَا . فناوله إِيَّاهَا ، فصَيَّرَهَا تحت عَضُدِهِ ، وَقَوْمٌ طَرِيقَةَ إلى داره ، ونحن نَمْشِي معه ، ونحن قد أَخْرَجْنَا دَوَابَّنَا إِجْلَالاً لَهُ ، حتى أَدْبَيْنَاهُ إلى منزله ، فسَلَّمْ عَلَيْنَا ودخل وانصرفنا عنه (٢٠٢).

وفي كتابِ القاضي أبي الوليد ابنِ الفَرَضِيِّ :

هو سعيد بن سليمان بن حبيب بن المعلّى بن إدريس بن محمد بن يوسف الغافقي البلوطي ، استقضاها الأمير عبد الرحمن بن الحكم مرتين (٢٠٣).

يحيى بن معمر الألهاني (٢٠٤) :

قال محمد بن حارث :

يحيى بن معمر بن عمران بن منير بن عبّيد بن أنيف الألهاني ، من العرب الشاميّين (٢٠٥) وكان من أهلِ إشبيلية ، مَنْزِلُهُ منها بِمَقْرَانَه (٢٠٦) ، قرية بقرب الحاضرة ، وعليها مَمَرٌ السَّابِلَةُ ، وكان في وقته فقيه إشبيلية وفارصها (2) ، وكانت له رحلة لَقِيَ فِيهَا أَشْهَبَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ (٢٠٧) ، وسمع منه ومن غيره من أهل العلم ، وكان وَرِعًا زَاهِدًا فَاضِلًا عَفَا مَقْبَلًا على عِمَارَةِ ضِيَعَتِهِ وَتَرْقِيحِ (3) مَعِيشَتِهِ ، فانتَهَى خَبْرُهُ إلى الأمير عبد الرحمن ، وقد احتاج إلى قاضٍ ، فاعْتَمَاهُ (4) للقضاء ، واستقدمه إلى قرطبة ، فقلّده قضاء الجماعة بها ، فصَدَقَ الظَّنُّ بِهِ ، واغْتَدَى من خير القضاة في قَصْدِ سِيرَتِهِ ، وَحُسْنِ هَدْيِهِ ، وصلابة قناته ، وإنفاذِ الْحَقِّ على من تَوَجَّهَ عَلَيْهِ ، لا يحفل لَوَمَةً لائِمٍ فِيهِ .

وكان إذا أشكل عليه أمرٌ من أحكامه واختلف عليه فيه فقهاء قرطبة تَنَأَى بِهِمْ ، وَكَتَبَ فِيهِ إلى مصر إلى أَصْبَغَ بْنَ الْفَرَجِ (٢٠٨) وغيره من نظرائه ، فيكشِفُهُمْ على وجه ما يريد

(1) ص : أصبحت .

(2) الفارض والفرضي هو القائم بقسمة الفرائض أي الموارث .

(3) ص : تربيح ، والصواب ما أثبتنا ، والترقيح هو إصلاح المعيشة ، وهو لفظ كثير الدوران في كلام ابن حبان

(4) في الأصل بغير إجماع .

ويطلب النجاة من تَخَلُّفٍ (1) الفقهاء عليه ، بُغْيَةً أَجْوِبَتِهِمْ فِي ذَلِكَ بِمَا يَعْمَلُ عَلَيْهِ ، فَكَانَ فقهاء قرطبة يحقِّدون ذلك عليه ، فيذمونه وَيَتَّبِعُونَ عَشْرَاتِهِ ، وَيُبَغِّضُونَهُ إِلَى [النَّاسِ] ، وكان أشدَّهم عليه زعيمُ الجماعة يحيى بن يحيى ، فهو الذي (2) سعى في تجريحه إلى أن عُزِلَ عن القضاء .

فذكر خالدُ [بن سعدٍ (٢٠٩)] قال : سمعت غير واحد من مشايخ أهل العلم يقول : كان (3) بين الشيخ يحيى بن يحيى وبين يحيى بن معمر [عداوةٌ شديدة] ، فَسَعَى يحيى بن يحيى في [عَزَلِ يحيى بن معمر القاضي عند الأمير عبد الرحمن رحمه الله ، وأقام عليه البَيِّنَاتِ] . [من أهل العلم والعدالة] .

[قال ابن عبد البر :]

وقديمٌ لَيْلَةَ عيدٍ ، وكانت تُوضَعُ للإمامِ عَنزَةٌ فِي الْمُصَلَّى (٢١٠) ، فباكر أهلُ الدِّهَانِ والحركة واصطفوا إلى العَنزَةِ ، ليختبروا خطبته وينتقدوا عليه ، فلما نظر إليهم عَرَفَ بهيئاتهم أنهم بالصفة التي كانوا بها (4) ، / ووقع في رُوعِهِ السبُّ الذي ذهبوا إليه ، فكادهم بأن قال : لِلْقَوْمَةِ : إني أرى الناس قد أزحموا حول العنزة ، فقدموها إلى القضاء لِيَسْتَوْسِعُوا ! فبادر القَوْمَةُ إلى تقديم العَنزَةِ حتى وَسَعَتْ ، فتكفَّروها واصطفوا حولها ، وتناقل ذوو الهيئات الذين نُقِلَتْ من سببهم - كما خُفَّ أولئك له - ومكثوا بمكانهم ، فَحَصَلَ الشيخ بحيلته على قُرْبٍ من لم تكن عليه مَوُونَةٌ من نُقْدِهِ ، واشحنفَرَ في خُطْبَتِهِ ، فكان ذوو التحصيل يَعْجَبُونَ مِمَّا فعله ، وَيَحْكُونَهُ كَثِيرًا عنه .

وذكر ابراهيمُ بن محمد بن باز (٢١١) قال :

لم يَزَلْ عَبْدُ الْمَلِكِ بن حبيب مُمَالِيًا للقاضي ابنِ مَعْمَرٍ مُخَالَفًا للشيخ يحيى بن يحيى فيه إلى أن عَصَاهُ ابنِ مَعْمَرٍ فِي الْقَضَاءِ لِرَجُلٍ يُعْنَى بِهِ ابْنُ حَبِيبٍ ، تَوَجَّهَتْ عَلَيْهِ فَتَوَى

(1) يعني بالتخلف هنا الاختلاف .

(2) كلمات مطموسة لم نستطع تبين شيء منها .

(3) استعنا في استكمال هذا النص بكتاب الحشني ص ٨٢ ؛ والنباهي : المرقبة العليا ص ٤٥ .

(4) استكلنا هذا النص عن ابن سعيد (المغرب ١ - ١٤٧) ، وقد جاءت القصة أيضا مع بعض الخلاف والاختصار

في كتاب الحشني ص ٨٥ .

تُوجِبُ القضاء له برأى أشهبَ ، وتوجّهتُ بضدّها عليه برأى ابن القاسم (٢١٢) ، أخذَ ابنُ معمرٍ فيه برأى ابن القاسم ، فلَفَّتَهُ ابنُ حبيبٍ عنهُ إلى رأى أشهبَ ، وكَلَّمَهُ أن يَأْخُذَهُ به ، فلم يَفْعَلْ ، وقال : ما أَغْدِلُ عن رأى ابن القاسم ، فهو الذى أفتيتمونى به مُنْذُ قَعَدْتُ هذا المَقْعَدَ (٢١٣) . وقَضَى على الرجل برأى ابن القاسم .

فَغَضِبَ عليه من يومئذ ابنُ حبيبٍ ، وظاهرَ يحيى بن يحيى ضِدَّهُ على مُطالَبَتِهِ ، ودَسَّسَ من رَفَعَ عليه إلى الأمير أنه لا يُحْسِنُ القضاء ، فَعَزَلَهُ فى آخر سنة تسع ومائتين ، وسَرَّحَهُ إلى بَلَدِهِ .

فَبَلَّغْنَا أنه لما أزمعَ الرحيلَ رَكِبَ بُغْيَلَتَهُ التى جاء بها ، ووَضَعَ خُرَيْجَهُ الذى ساقه تحته وقال لمن شِيعَتِهِ من صديقه : يا أهل قرطبة . أَقْلُوا علينا اللُّومَ ، فكما جئناكم كذلك ننصرف عنكم !

وذكر عثمان بن سعيد الزاهد (٢١٤) قال :

لما احتضِرَ يحيى بن معمرٍ بإشبيلية وأيقن بالموت قال لمولى له من أهل الصّلاح كان يَنْصَحُهُ : أَقِيمْ عليك بالله أَجَلَ الأقسامِ إِذا أنا مُتُّ إِلا ما ذهبتَ إلى قرطبة ، فَقِفْ بيحيى ابن يحيى وقل له : ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ (٢١٥) . ففَعَلَ مَوْلَاهُ ما أَمَرُهُ ، وأَبْلَغَ يحيى ما به تَقَرَّرَهُ . قال : فبكى يحيى حتى أَخْضَلَ لحيته ، وقال : [إنا لله وإنا إليه]^(١) راجِعُونَ ! ما أَظُنُّنا إِلا خُدِعْنَا فى الرجلِ ووُثِيَّ [بيننا وبينه] . ثم تَرَحَّمَ عليه واستغفر له [(٢)] .

[قال القاضى أبو الوليد ابن الفَرَضِيِّ * :

قال خالد بن سعد : سمعت أحمد بن خالد (٢١٦) يقول : كانت ليحيى بن معمر رحلةٌ لقي فيها أشهبًا^(٣) بن عبد العزيز ، وسمِعَ منه ، وولى القضاء بقرطبة سنة تسع ومائتين

(١) التكملة عن الحشنى : قضاة ص ٨٩ ؛ والنهايى : مرقبة ص ٤٥ .

(٢) التكملة عن المصدرين المذكورين فى الحاشية السابقة .

(٣) التكملة عن كتاب ابن الفرضى ، ترجمة رقم ١٥٥٣ .

بعد سعيد بن بشير⁽¹⁾ (٢١٧) في أيام عبد الرحمن بن الحكم ، وعَجَلَ صَرْفَهُ بِالْأَسْوَارِ بْنِ عُقْبَةَ
الوالي بعده سنة عشر ومائتين .

ذكر ذلك ابن عبد البر ، ولم يَذْكُرْ أَنَّهُ أُعِيدَ إِلَى الْقَضَاءِ مَرَّةً ثَانِيَةً .

/ وَحَكَّى ابْنُ حَارِثٍ أَنَّ الْأَمِيرَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَعَادَهُ إِلَى الْقَضَاءِ مَرَّةً ثَانِيَةً ، وَذَلِكَ الصَّحِيحُ [٢٠٤ب]
والدليل عليه أن يحيى بن معمر صلى بالناس صلاة الخُسُوفِ بِقَرْطَبَةَ ، وَهُوَ قَاضٍ ، فِي
مَسْجِدِ أَبِي عُمَانَ مِنَ الرَّبِيعِ الْغَرْبِيِّ سَنَةَ ثَمَانِ عَشْرَةَ وَمِائَتَيْنِ . رَوَى ذَلِكَ أَحْمَدُ بْنُ خَالِدٍ عَنْ
ابْنِ وَضَّاحٍ قَالَ : صَلَّيْتُ الْخُسُوفَ مَعَ يَحْيَى بْنِ مَعْمَرٍ سَنَةَ ثَمَانِ عَشْرَةَ وَمِائَتَيْنِ (٢١٨) .

الْأَسْوَارُ بْنُ عُقْبَةَ (٢١٩) :

قال محمد بن حارث :

هُوَ أَبُو عُقْبَةَ الْأَسْوَارُ بْنُ عُقْبَةَ النَّضْرِيُّ ، وَكَانَ مِنْ أَهْلِ جَبَّانَ ، فَاسْتَقْدَمَهُ الْأَمِيرُ
عَبْدَ الرَّحْمَنِ إِلَى قَرْطَبَةَ ، وَوَلَاهُ قَضَاءَ الْجَمَاعَةِ بِهَا ، أَشَارَ بِهِ عَلَيْهِ يَحْيَى بْنُ يَحْيَى عِنْدَ عَزْلِ
ابْنِ مَعْمَرٍ . وَكَانَ مِنْ أَهْلِ التَّحَرِّيِّ وَالتَّوَضُّعِ وَحُسْنِ السِّيَرَةِ وَاقْتِفَاءِ السَّلَفِ ، حَتَّى إِنَّهُ كَانَ
يَتَصَرَّفُ - زَعَمُوا - فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ ، وَيَحْمِلُ خُبْرَهُ إِلَى الْفُرْنِ بِنَفْسِهِ ، وَعَلَى ذَلِكَ فَمَا سَلِمَ
مِنْ فُقَهَاءِ قَرْطَبَةَ . وَهُوَ الَّذِي ابْتَنَى الْمَسْجِدَ الَّذِي يَعْرِفُ بِمَسْجِدِ الْأَسْوَارِ فِي الزُّقَاقِ الْكَبِيرِ
بِقَرْطَبَةَ .

وقال ابن عبد البر :

الْأَسْوَارُ بْنُ عُقْبَةَ ، كَانَ رَجُلًا صَالِحًا عَاقِلًا فَاضِلًا مُسَمِّيًا حَسَنَ الْحُكْمِ مُسْتَقِيمَ الْقَضَاءِ
وَكَانَ الْفَقِيهَ مُحَمَّدَ بْنَ عَيْسَى الْأَعْشَى (٢٢٠) كَثِيرَ الدُّعَابَةِ لَا يَضْبِرُ عَنْهَا ، فَكَانَ يَقُولُ
لِلْأَسْوَارِ قَبْلَ أَنْ يَلِيَ الْقَضَاءَ : كَيْفَ حَالُكَ يَا أَبَا عُقْبَةَ ؟ - مَفْتُوحَةُ الْعَيْنِ مَثْقَلَةٌ (٢٢١) - ،
فَلَمَّا وَلى الْقَضَاءَ أَنَاهُ مُحَمَّدُ بْنُ عَيْسَى ، فَشَهِدَ عِنْدَهُ مَعَ آخِرِ مَنْ أَهْلَ الْقَبُولِ ، فَأَعْلَمَ
[بِرَدِّ اسْمِ مُحَمَّدٍ] (٢) دُونَهُ ، وَقَالَ لِلْمَشْهُودِ لَهُ : زِدْنِي بَيِّنَةً ! وَذَلِكَ بِمَحْضَرِ الْأَعْشَى .

(١) كذا في الأصل ، والذي جاء في ابن الفرضي الموضع المذكور في الحاشية السابقة : سعيد بن محمد بن بشير .

(٢) في الأصل قطع ذهب ببعض حروف هذه الكلمات ولو أننا نظرنا كما أثبتنا .

فقال له : أَظُنُّكَ - أَكْرَمَكَ اللهُ - لمَ تَقْبَلُ شهادتي ! فقال له : أَنْتَ - أَكْرَمَكَ اللهُ - جَادٌ في شهادتك هذه أو هازل ؟ فَإِنِّي أَعْرِفُكَ كَثِيرَ الْهَزْلِ ، فَعَرَّفَنِي إِنْ كُنْتَ صَدَعْتَ بِهَا عَنْ حَقٍّ ، فَمِثْلُكَ لَا تُرَدُّ شهادتُهُ ، وَإِنْ كَانَتْ مِنْ أَهْزَالِكَ⁽¹⁾ فَقَدْ وَقَفْتُهَا . فقام عنه الأعمش مُنْقَطِعَ الْحُجَّةِ . فكان يقول بعد ذلك : قَاتَلَ اللهُ الْأَسْوَارَ ! فلقد قَطَعَ بِي عَنْ كَثِيرٍ مِمَّا كُنْتُ أُسْتَرِيحُ إِلَيْهِ مِنَ الدُّعَابَةِ بعد مجلسي معه .

وَأَنشُدْ⁽²⁾ : [من المتقارب]

[٢٠٥] / وَتَحَسَّبُ مِنْ خِيْبِهِ أَنَّهُ / تَرَاهُ عَنِ النَّاسِ فِي غُرْبَةٍ
وما ذاك مِنْهُ - فلا تَأْمُنُوهُ - إِلَّا لِتُمْكِنَهُ الْوَثْبَةُ
رَأَيْتُ لَهُ نَاطِرِي هِرَّةً / تَرَأَى لَهَا الْفَأْرَ فِي ثُقْبَةٍ

أبرهيمُ بنُ العباسِ القُرَشِيُّ⁽³⁾ (٢٢٢) :

قال محمد بن حارث :

هو ابراهيم بن العباس بن عيسى بن عمّار بن الوليد بن عبد الملك بن مروان ، يكنى أبا العباس ، استقضاه الأمير عبد الرحمن بن الحكم بمشورة يحيى بن يحيى ، فكان محموداً في قضائه ، عادلاً في حكومته ، متواضعاً في أحواله ، غَيْرَ مُتَصَنِّعٍ⁽³⁾ ولا مُتَرَفِّعٍ .

حكى محمد بن عمر بن لبابه قال :

كان القاضي أبو العباس المرواني رُبَّمَا جَلَسَ في بيته يقضي بين الناس ، وَإِنْ جَارِيَتُهُ لَتَنَسِجُ في كِسْرِ الْبَيْتِ .

(1) ص : أهزلك .

(2) ذهبت في قطوع آخر الورقة بتيه هذه العبارة التي تتضمن اسم الشاعر صاحب القطعة التالية والأبيات الأولى منها ، ولو أننا نظن أن قائلها ينبغي أن يكون يحيى بن الحكم الغزال فهي بأسلوبه أشبه وإلى شعره أقرب . ومن الواضح أنها في هجاء القاضي الأسوار بن عقبة .

(3) كذا في الأصل ، وفي كتاب القضاة للخشي (ص ٩٠) ، ويحتمل أن تكون أيضا « متصنع » - أراد أن يقابل بها « مترفع » الآتية بعد .

قال :

وكانت ولايته سنة أربع عشرة أو خمس عشرة

وذكر محمد بن وضاح قال .

هو إبراهيم بن العباس إلى الشيخ يحيى بن يحيى جدياً ، وعول على رأيه ، فوجد أعداؤه السبيل إلى ذمه والسعاية عليه ، من باب انقطاعه إلى يحيى ورضا يحيى عنه من بين من لم يزل يسخطه من القضاة قبله ، فوشوا الوقائع (1) فيهما (2) إلى الأمير عبد الرحمن ، وانتصحوه في تالفهما ، وقالوا إن إبراهيم لا يقبل من الناس إلا من أشار عليه يحيى بقبوله ولا يفصل في حكومة إلا عن أمره ، فقد استمال الناس إليه ، فلهم فيه هوى شديد ، وطمعه قوى في أن يصير الأمر في يده ، فشغل بال الأمير جدياً ، ووهمه في دغل الشيخ يحيى بن يحيى على انحطاطه في شعبه وعزوه لإرادته .

فأحضر ضده عبد الملك بن حبيب وخلا به ، وقال له :

— قد تعلم يدي عندك ، وأنا مكترث لأمر كبير أريد أن أسألك عنه ، فاصدقني فيه .

فقال : نعم ، لا يسألني الأمير — أعزه الله — عن شيء إلا صدقته عنه .

قال : فإنه رُفِعَ إلينا عن قاضينا إبراهيم وعن صديقه يحيى بن يحيى أنهما يعملان

علينا في هذا الأمر (٢٢٣) .

فقال له عبد الملك (3) :

— [قد علم] (3) الأمير ما بيني وبين يحيى من التباعد ، ولكنني لا أقول إلا [الحق] :

ليس يجيء [(3) من عند يحيى] إلا ما [يجيء مني] (3) ، فمكانه من الدين مكانه ، [وكل]

(1) كذا ، ولها وجه من التأويل واضح ، وقد تكون « فسدوا الرقاق » .

(2) ص : فيها .

(3) استكلنا هذا النص من كتاب القضاة للخشي ص ٩٢ .

ما رُفِعَ عليه إليك فباطِلٌ . وأما القاضى فلا ينبغى للأمير أن يَشْرَكَهُ فى عَدْلِهِ من يَشْرَكَهُ فى نَسَبِهِ .

فَعَزَلَهُ الأميرُ حينئذٍ عن القضاء [(٢٢٤)] .

[وقال محمد بن حارث :

أخبرنى بعض العلماء قال :

[٢٠٥ب] قَدِمَ موسى بن حُدَيْرٍ (٢٢٥) عن الحَجِّجِ [وكان فى الغاية من] (١) - / النِّبَالَةِ ، ودعاهُ

الأمير عبد الرحمن إلى الخلعة ، فأبى عليه ، ولزِمَ الانقباضُ ، فبُئِيَ بعد مُدَيِّنَةٍ بامرأةٍ من جيرانِهِ استَعَدَّتْ عليه القاضى إبراهيم ، وذكَّرتُ أنه ظَلَمَها فى دارِها تُلاصِقُهُ .

فأرسل فيه إبراهيم وأخَصَرَهُ إلى مجلسِهِ ، ووقفهُ على دَعْوَى المرأةِ ، واقتضى جوابَهُ .

فقال له : أَوَكُلُّ - أعزك الله - عندك من يُخَاصِمُها عَنى .

فقال : لا بُدَّ لَكَ أن تقولَ بما عندك من إقرارٍ أو إنكارٍ ، ثم تُوكِّلَ بعد ذلك على

خُصومتِكَ من تشاء .

فقال موسى : لا ، بل أذاكِرُ نفسى ، وأقدمُ من يُجَابُ عَنى بما أَحَقُّهُ (٢) من أمرِها .

فأبى إبراهيمُ أن يَقْبَلَ منه ، واضطَّرَّهُ إلى تعجيلِ جوابِهِ فى مجلسِهِ ، واشتدَّ عليه .

فلما لَمْ يَجِدْ من الجوابِ بُدًّا ، وقد حَيِيَ والتَّطَيَّ ، قال (٣) :

أو خَيْرٌ من ذلك - أَصْلَحَكَ اللهُ - ؟ أقولُ إنَّ جميعَ ما تَدَّعِيهِ هذه المرأةُ حَقٌّ ، وهى

فى دعواها مُصَدِّقَةٌ لا اغْتِراضَ عندى عليها . فلا سبيلَ لَكَ إلىَّ !

فقام وهو قد احْتَمَلَ على إبراهيم حِقْدًا عَظِيمًا حَمَلَهُ على أن سَعَى عليه ، وأزَهَفَ حيلَتَهُ

لمطالِبَتِهِ .

(١) كلمات يفتضيا السياق أو شيء فى معناها .

(٢) ص : أحقه . (٣) ص : فقال .

وابتداً فكتب إلى الأمير عبد الرحمن يذكر له أنه تعقب رد أمره فيما كان أراد عليه من معاودة العمل ، ورأى أنه قدح في صدق طاعته ، وفريضة ولائه ، وسأله تقليد الخزانة التي كانت مضمار أمانته ، فأعجب الأمير ذلك من اعترافه ، وولاه الخزانة ، فتصرف فيها تصرفاً (1) أذناه منه ، فانبسط إليه في غير شيء ، ثم سأله في بعض الأيام الخلوّة له يذكره ، فأجابه إليها ، فقال له :

— صحّ عندي أن القاضي إبراهيم بن العباس يُخاطب في مجلس نظره بأن (2) يقال له : « يابن الخلائف » وأن له اسماً يُضغى لقلوب العامة إليه !

فلم يملك الأمير عبد الرحمن حين وقرت الكلمة أذنه أن عزّل إبراهيم .

قال محمد بن حارث :

وسمعتُ الأمير وليّ [عهد المسلمين] (3) (٢٢٦) ابن الناصر لدين الله يقول إنه سمع الحاجب موسى بن محمد بن حدير (٢٢٧) يقول إن موسى بن حدير عمه دسّ امرأة من مواليه [فوقفت للقاضي على طريقه] (3) فنادته : يابن الخلائف ! [فكان ذلك سبباً لعزل إبراهيم] قال أحمد [بن عبد البر] (4) :

[هو جدّ بني أبي صفوان ، وكان عاقلاً فاضلاً مُسمّياً ، وكان عبد الرحمن قد عزّم على أن يؤلّي القضاء بعد الأسوار رأس الفقهاء يحيى بن يحيى ، فامتنع ، وأشار بإبراهيم بن العباس على] / عبد الرحمن ، فولاه القضاء ، فاستقلّ به ، وأقسط (5) في حكمه (٢٢٨) ، [٢٠٦] وأسرف في طواعيته للشيخ يحيى بن يحيى والوقوف عند حدّه ، حتى لحقتهم معاً تهمّة

(1) ص : تصرفاً . (2) ص : أن .

(3) استكلنا هذا النص من كتاب القضاة للخشني ص ٩٤ .

(4) استكلنا هذا النص مما نقله ابن سعيد عن ابن عبد البر في المغرب ١ - ١٤٨ .

(5) كذا في الأصل ، ولا نستبعد أن تكون محرفة عن « وقسط » . انظر تعليقنا على هذا الموضع .

التواطؤ عند الأمير عبد الرحمن ، فسارع في صرفه عن القضاء ، وذلك آخر سنة ثلاث عشرة ومائتين .

قال :

وكان يكتب للقاضي إبراهيم عبد الملك بن الحسن زونان الفقيه (٢٢٩) ، أشار به عليه يحيى بن يحيى .

محمد بن سعيد (٢٣٠) :

قاضي للأمير عبد الرحمن بن الحكم ، لم يذكره محمد بن حارث ، وذكره أحمد بن عبد البر ، فقال :

القاضي محمد بن سعيد ، يكنى أبا عبد الله ، وكان أصله من كورة البيرة ، وكان معرفة للشيخ يحيى بن يحيى ، وكان ينزل به يحيى ببكده أيام كان يضرب بالتجارة أول أمره ، بلا علمه^(١) ومعرفة ، فأشار به على الأمير عبد الرحمن ، فولاه قضاء الجماعة أول سنة أربع عشرة ومائتين ، فاستقل به ، وكان جميل المذهب في قضائه ، حسن السمعة والهيئة ، إلا أنه كان طاعة ليحيى بن يحيى لا يعدل به أحداً ، وكان إذا اختلف عليه الفقهاء لم يعدل عن يحيى مغيلاً .

فاتفق أن وقعت له قصة شاورهم فيها ، تفرد الشيخ يحيى بن يحيى بقول خالفته^(٢) فيه جماعتهم ، فأرجأ القضاء فيها حياة من جماعتهم ، وأردفته قصة أخرى شاورهم فيها [بعد]^(٣) توقيفه للأول ، وقد اغضب بذلك يحيى . فلما آتاه كتابه بهذه الردافة صرفه عن رسوله ، وقال له :

— ما أفك له ختاماً ، ولا أشير عليه بشيء ، إذ قد توقف عن القضاء لفلان بما أشرت به عليه وعافه .

(١) ص : عليه .

(٢) ص : خالفتم .

(٣) كلمة مطموسة في الأصل ، ولعلها كما أثبتنا .

فلما انصرف إليه رسوله وعرفه بقوله قلىق منه ، وركب من قوره إلى يحيى بن يحيى ،
فقال له :

– لم أظن أن الأمر يبلغ بك فى توقفى عن القضاء لفلان بفتواك هذا المبلغ الذى
قد غيرك . وهذا مقام المعتذر إليك ، فسوف أقضى له غير⁽¹⁾ يورى إن شاء الله تعالى !

فقال له يحيى : وتفعل ذلك صدقا ؟

قال : نعم .

فقال له يحيى بن يحيى :

– يا هذا ، هجت الآن غضبى ! فإنى ظننت إذ خالفنى أصحابى أنك توقفت مُستخيراً
لله ، متخيراً فى الأقوال . فأما إذ⁽²⁾ صرت تتبع الهوى وتقضى برضا مخلوق ضعيف فلاحير
فما تجىء⁽³⁾ به ، ولا فى إن رضىته منك . فارفع مُستغفياً من ذاتك ، فإنه أستر لك ،
وإلا رقت فى عزلك !

فرفع يستغفى ، فعزل عن القضاء .

يُخَامِرُ بْنُ عُثْمَانَ الشَّعْبَانِيَّ^(٢٣١)

قال ابن حارث :

هو⁽⁴⁾ يُخَامِرُ بْنُ عُثْمَانَ بْنِ حَسَّانَ بْنِ يُخَامِرِ بْنِ عُثْمَانَ بْنِ عُبَيْدِ بْنِ أَفْنَانَ بْنِ وَدَاعَةَ بْنِ
عُمَرَ الشَّعْبَانِيَّ .

وقال عبد الله بن يوسف المعروف بابن الفرضي .

(1) كذا ، ولها وجه واضح من التأويل ، على أنه يحتمل أيضاً أن تكون « غد » .

(2) ص : إذا . (3) ص : يحيى .

(4) ص : هذا .

بل هو معافى (٢٣٢) .

قال ابن حارث : لا أعرف له كنية . وقال غيره : كنيته أبو مخارق (1) .

وهو أخو معاذ بن عثمان القاضي (٢٣٣) وعم سعد بن معاذ الفقيه (٢٣٤) ، وهم من أهل جيان (٢٣٥) من قرية الأشعوب (٢٣٦) . وكان انتسابهم في العرب إلى جذام فيما أحسبه ، وهم - فيما قيل - من جنود قنسرين (2) ، وولي الأمير عبد الرحمن بخامر هذا قضاء الجماعة بقرطبة ، ولم يك أهلاً له ، ولا راجح الوزن ، ولا حاضر اليق [ين] ، ولا واسع الب [صيرة] فيه ، [وعامل الناس بخلق صعب ، ومذهب وعير ، وصلاية جاوزت المقدار ، فتسلط عليه الألسن ، وكثرت فيه المقالة] (3) .

[٢٠٦ ب] / وانبرى له شاعر قرطبة في ذلك الزمان يحيى بن الحكم الغزال منتبهك الأعراض ، ومخزي الرجال ، فأكثر هجوه وذمه ، ووصفه بالبله والجهل ، فندر بذكره . فمن قوله شعر له : [من الطويل]

فُسُبْحَانَ مَنْ أَعْطَاكَ بَطْشًا وَقُوَّةً وَسُبْحَانَ مَنْ وَلى الْقَضَاءَ يُخَامِرَا

وقوله من أخرى : [من الطويل]

فَقُلْتُ لَهُ : كَلَّفْتَنِي غَيْرَ صَنَعَتِي كَمَا قَلَّدُوا فَضَلَ الْقَضَاءِ يُخَامِرَا

فَأَصْبَحَ قَدْ حَارَتْ بِهِ طُرُقُ الْهَوَى يُكَابِدُ لُجْيًا مِنَ الْبَحْرِ زَاخِرَا

فَقُلْتُ : لَوْ اسْتَعْفَيْتَ مِنْهَا ، فَقَالَ لِي سَأَفْصَحُ مَا قَدْ كَانَ ذَلِكَ (4) مُغَايِرَا

فَقُلْتُ لَهُ : رَأْسُ الْفُضُوحِ إِقَامَةٌ عَلَيْنَا كَذَا مِنْ غَيْرِ عِلْمٍ مُكَابِرَا

وَحَبْطُكَ فِي دِينِ الْإِلَهِ عَلَى عَمَى خِبَاطَةَ سَكْرَانٍ تَكَلَّمَ سَادِرَا

(1) ص : مخاق ، والأرجح أن تكون كما أثبتنا .

(2) ص : فلسطين ، والصواب ما أثبتنا ، وهو ما جاء في كتاب الحشني ص ٩٥ ، وانظر تعليقنا على هذا الموضع

(3) ما أثبتناه بين حواصر اعتمادنا فيه على ما بقى من خلال القطوع وعلى ما استخلصناه من نص الحشني المذكور في

الحاشية السابقة

(4) ص : ذلك ، واللفظ على كل حال قلق .

فَلَنْ تَحْمِلَ الصُّخْرَ الدُّبَابُ وَلَنْ تَرَى السُّدَّ
وقوله فيه : [من المجتث]

لَقَدْ سَمِعْتُ عَجِيبًا من آيَدَاتِ يُخَامِرٍ
قَسْرًا عَلَيْهِ غُلَامٌ طَهَ وَسُورَةَ غَافِرٍ
فَقَالَ : مَنْ قَالَ هَذَا ؟ هَذَا لَعَمْرِي شَاعِرٌ !
أَرَدْتُ صَفَعَ قَفَاهُ فَخِفْتُ صَوْلَةَ جَائِرٍ
أَتَيْتُ يَوْمًا بَيْتِي مُسْتَعْبِرًا مُتَحَاسِرًا⁽¹⁾
فَقُلْتُ : قَوْمُوا اذْبَحُوهُ فَقَالَ : إِنِّي يُخَامِرُ !

وكان الغزالُ بذيئًا مُنتَهكًا للأعراضِ

: قال ابن حارث :

وحدثنى الأميرُ وليُّ العهدِ الحَكَمُ بنُ النَّاصِرِ لدينِ الله - وقد جرى ذكرُ يُخَامِرٍ وما وصفِ
من بَلَهِهِ وَغَفَلَتِهِ - قال :

أَلْقَى عَبْدُ اللَّهِ بنُ الشُّورِ (٢٣٨) الشَّاعِرُ يَوْمًا بَيْنَ سِحَاءَاتِ يُخَامِرِ بنِ عَثْمَانَ التِّي كَانَ يُنَادِي
بِهَا الْخِصُومَ لِلتَّقَدُّمِ إِلَيْهِ سِحَاءَةً مَكْتُوبًا عَلَيْهَا « يُونُسُ بنُ مَتَّى » و « الْمَسِيحُ بنُ مَرْيَمَ » ،
وخرَجَتِ السِحَاءَةُ إِلَى يَدِهِ ، فَأَمَرَ أَنْ يُدْعَى لَهُ بِهَا ، فَهَتَفَ الْهَاتِفُ : يُونُسُ بنُ مَتَّى ، وَالْمَسِيحُ
ابنُ مَرْيَمَ ! وَاتَّصَلَ الْهَاتِفُ بِخَارِجِ الْمَجْلِسِ ، وَلَا مُجِيبَ ، إِلَى أَنْ صَاحَ ابْنُ الشُّمَيْرِ : إِنْ
نُزُولَهُمَا مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ ؟ .. ثُمَّ تَنَاوَلَ سِحَاءَةً فَكَتَبَ فِيهَا :

يُخَامِرُ مَا تَبَنَّفَكَ تَأْتِي بِفِضْحَةٍ
دَعَوْتَ ابْنَ مَتَّى وَالْمَسِيحَ بنَ مَرْيَمًا
فَثَوَّبَ فِينَا ثُمَّ نَادَاكَ صَائِحٌ :
فإِنَّهُمَا لَمَّا عَلَى الْأَرْضِ يُعْلَمَا

(1) ص : متجاسر ، ولعلها كما أثبتنا ، أي « متصنعا للحسرة » .

قَفَاكَ قَفَا جَحْشٍ وَوَجْهَكَ مُظْلِمٌ
 وَعَقْلُكَ مَا يَسْوَى مِنَ الْبَعْرِ دِرْهَمًا
 فَلَا عِشْتَ مَوْدُودًا وَلَا رُحْتَ سَالِمًا
 وَلَا مِتَّ مَفْقُودًا وَلَا مِتَّ مُنْزِلِمًا

فلم يلبث الفقهاء أن أطبقوا على ذمِّ يُخَايِرٍ وقَدْحِهِ (1) ، وثارَتِ العامَّةُ به ، فتألَّب عليه قومٌ رَفَعُوا [فيه إلى الأمير عبد الرحمن يشكونه إليه ، فلما كَثُرَ ذلك] (2) على الأمير أمرَ الوزراءَ بالشهادة [والنَّظَرِ في أمرِ يُخَايِرٍ ، فذُكِرَتْ عنه أشياء مَدَارُهَا على قَلَّةِ المداراة] وتركِ حُسْنِ المعاملة .

[قال محمد] بن حارث : وأخبرني [محمد بن عبد الملك بن أيمن (٢٣٩)] قال :

فلما أتى الفتى إلى يُخَايِرَ بعزله من عند الأمير رحمه الله قال له يخامر على رؤوس الناس : قُلْ لِلْأَمِيرِ - أَصْلَحَهُ اللهُ - إِذْ وَلَّيْتَنِي أَمْرَتَنِي أَنْ أَتَحَفَّظَ مِنَ السَّلْسِلَةِ السُّوءِ ، وَالْيَوْمَ تَعَزَّلْتَنِي بِبَغْيِهَا عَلَيَّ ! فلما بلغ الفتى قوله إلى الأمير قال : قَبَّحَهُ اللهُ ! ذكر أسرارنا على رؤوس الناس ! [.

[١٢٠٧] [وكان الأمير عبد الرحمن قد ضاق بيحي بن يحيى والفقهاء الضالِّين] (3) / معه في كلِّ ما يُشير به ولا يخالفون عن أمره ، فكان الأمير عبد الرحمن يكره تَأَلُّبَهُمْ وَيَقْلَقُ مِنْهُمْ وَيُسَمِّيهِمْ « سَلْسَلَةَ السُّوءِ » . فلما ولى يخامر بن عثمان القضاء حَفَّظَهُ مِنْهُمْ وَسَمَّاهُمْ لَهُ هَذَا الْاسْمَ ، فَتَجَنَّبَهُمْ (4) يُخَايِرَ ، وَأَخَذَ (5) حِذْرَهُ مِنْهُمْ ، فلم يلبث أن تَمَالَأُوا عَلَيْهِ ، فَأَفْشَوْا ذَمَّهُ ، وَأَبْدَوْا عَيْبَهُ (6) ، وَكَرَّهُوهُ إِلَى النَّاسِ ، وَأَعْمَلُوا أَقْلَامَهُمْ فِيهِ إِلَى الْأَمِيرِ حَتَّى أَمَرَ بِعَزْلِهِ فَلَمَّا أَنْ جَاءَهُ الرَّسُولُ فَضَحَ سِرَّهُ بِالْقَوْلِ الَّذِي تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ ، فزاد في كُرْهِهِ لَهُ .

(1) في الأصل كلمة غير واضحة لعلها كما أثبتنا .

(2) استكلنا هذا النص مع المحافظة على ما بقى من كلماته خلال القطوع من كتاب القضاة للخشي ص ٩٥ - ٩٦ .

(3) استكلنا هذه العبارة بما يفهم من السياق في أول الصفحة التالية .

(4) ص : فتحبيهم . (5) ص : وأخذوا .

(6) ص : عيبه .

وقال ابنُ عبد البرُّ :

القاضي يُخامرُ بن عثمان ، لا أحفظُ له كُنيةً ، وأصله من جيان ، ولأه الأمير عبد الرحمن القضاء سنة عشرين ومائتين ، وكان رجلاً فاضلاً عفاً خيراً ، غير أنه كانت فيه عُجْبةٌ (1) وجَفَاءٌ (2) . لَمَّا بَلَأَ أَمْرَ الْحُكُومَةِ بِقَرْطَبَةَ وَنَظَرَ إِلَى قَدْرِ الشَّيْخِ ابْنِ يَحْيَى عِنْدَ (3) أَهْلِهَا وَغَلَبَتْهُ عَلَى نَفْسِهِمْ وَطَوَاعِيَّتَهُمْ لَهُ ضَاقَ صَدْرًا بِهِ ، فَكَتَبَ إِلَى الْأَمِيرِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ : « إِنِّي قَدِمْتُ إِلَى قَرْطَبَةَ ، فَوَجَدْتُهَا أَمِيرَيْنِ (4) : أَمِيرَ الْأَخْيَارِ ، وَأَمِيرَ الْأَشْرَارِ . فَأَمَّا أَمِيرُ الْأَخْيَارِ فَيَحْيَى بْنُ يَحْيَى ، وَأَمَّا أَمِيرُ الْأَشْرَارِ فَأَنْتَ » . فَاسْتَجَفَّاهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ وَأَمَرَ بِعَزْلِهِ .

وأعادَ على القضاء سعيدَ بن سليمان ، فلم يَزَلْ سعيدٌ قاضيًا من آخرِ سنة عشرين ومائتين إلى آخرِ سنة سبعٍ وعشرين ، فإنه تُوْفِيَ بها ، واستَقْضَى الأمير عبد الرحمن مكانه عليُّ بن أبي بكرٍ الكلابيُّ .

عليُّ بن أبي بكرٍ الكلابيُّ (٢٤٠) :

قال ابن عبد البرُّ :

هو عليُّ بن أبي بكرٍ القَيْسِيُّ ، يُكْنَى أبا الحسن ، وهو جدُّ عليِّ بن محمد بن الباسِ (٢٤١) استقضاهُ الأميرُ عبد الرحمن سنة سبعٍ وعشرين . أشارَ به الشيخُ يحيى بن يحيى ، وقلَّما كان الأميرُ عبد الرحمن يُوكِّى قاضيًا إلا عن مشورةِ يحيى بن يحيى ورضاه ، ولذلك ما كُثِرَتِ القضاةُ في أيامه ، إذ كان الشيخُ يحيى بن يحيى يشيرُ بالقاضي منهم بعد القاضي ، فإذا أنكرَ على القاضي منهم شيئًا قال له : استعْفِ مِنَ الْأَمِيرِ وَإِلَّا رَفَعْتُ فِي عَدِّ [زُلِكَ] .

وكان عليُّ [بن أبي] بكرٍ [شريفَ النفسِ ، حَسَنَ السُّمْتِ ، على اعتدالٍ واستقامةٍ حالٍ ، ولم يَزَلْ قاضيًا وصاحبَ صلاةٍ إلى أن تُوْفِيَ في سنة إحدى وثلاثين ومائتين . وقد

(2) ص : وحيا .

(4) ص : أمير ابن .

(1) ص : غنجية .

(3) ص : عبد .

قيل إنه صرّفه سنة تسع وعشرين ومائتين قبل وفاته ، وولّى مكانه محمد بن زياد بن عبد الرحمن اللخميّ [(1)] .

[وقال محمد بن حارث :

[٢٠٧ب] علي بن أبي بكر [(2)] / بن عبّيد الكلابيّ يلقب [بيوانش] [(3)] (٢٤٢) ، وهو من أهل قبرة (٢٤٣) .

معاذ بن عثمان الشّعبانيّ (٢٤٤) .

قال محمد بن حارث :

ولّى الأمير عبد الرحمن بن الحكم قضاء الجماعة معاذ بن عثمان الشّعبانيّ ، وكان من أهل جيان ، فكان قاضياً بقرطبة سبعة أشهر (٢٤٥) ، ثم عزّله ، وكان السبب في عزّله - زعموا تعجيله بالحكومة ، وأنه أخصى عليه في مدّته تلك سبعون قضية أنفذها ، فاستكثرت منه ، وخيف عليه الزلّل ، فعجّل عزّله (٢٤٦) . وقد كان - فيما سمعنا به - حسن السيرة ، لينّ العريكة (4) ، خالّق الناس بغير خلقي يخامر أخيه ، وطلب التخلّص منهم ، فما استوى له ذلك .

وسمعت من يحكى عنه أنه كانت معه صحّة ضمير ، وسلامة قلب ، وكان لا يظنُّ بأحدٍ شراً . وكان قد ولى الأقباس (٢٤٧) بقرطبة رجلاً أحسن الظنّ به ، فلما بلاه (5) أكذب ظنّه ، فقال فيه يحيى بن الحکم الغزاليّ : [من الطويل]

يَقُولُ لِي الْقَاضِي مَعَاذُ مُشَاوِرًا

- وَوَلَّى امْرَأً فِيهَا يَرَى مِنْ دَوَى الْعَدْلِ

(1) استكلنا هذا النص من ترجمة القاضي علي بن أبي بكر الكلابي في التكلة (ط - الأركون وبالطيا ، رقم ٢٢٦٤ ، وينص ابن الأبار على أنه ينقل هذه الترجمة من كتاب ابن حيان ، كذلك استأنسنا فيها بنص المغرب لابن سعيد (١ / ١٥٠) وهو ينقل في هذا الموضع عن ابن عبد البر مرجع ابن حيان هنا ، ولو أن نصه كالعادة شديد الإيجاز .

(2) استكلنا النص هنا من كتاب الحشّي ص ٩٧ .

(3) إضافة عن الحشّي .

(4) ص : الحركة .

(5) ص : أبلاه .

قعيدك⁽¹⁾ ماذا تحسب المرء صانعا ؟

فَقُلْتُ : وماذا⁽²⁾ يَفْعَلُ الدُّبُّ فِي النُّحْلِ ؟

يَدُقُّ خَلَائِهَا وَيَأْكُلُ شَهْدَهَا

وَيَتْرُكُ لِلذَّبَّانِ⁽³⁾ مَا كَانَ مِنْ فَضْلِ (٢٤٨)

وللغزالي في عدلتي من عدول معاذ : [من الطويل]

أَتَاكَ أَبُو حَفِصٍ وَيَخِيَّ بِنُ مَالِكِ

فَأَهْلًا وَسَهْلًا [بِالْوَعْيِ]⁽⁴⁾ وَالْمَعَامِعِ

رَجَالُ إِذَا صَبَّوْا عَلَيْكَ شَهَادَةً

حَكَّتْ فِيكَ وَقَعِ الْمُرْهَفَاتِ الْقَوَاطِعِ

اقسولُ لِدِيكِي إِذْ رَأَيْتُ وُجُوهُهُمْ :

تَعَزُّ فَقَدْ جَاءَتْكَ إِخْدَى الْفَجَائِعِ !

رَنَا وَاسْتَهَلَّتْ عِنْدَ ذَلِكَ دُمُوعُهُ

وَقَالَ : كَثِيرًا مَا أَفَاضُوا مَدَامِي

وقال ابن عبد البر :

هو معاذ بن عثمان أخو يخامر بن عثمان ، يُكْنَى أبا عبد الله ، أصله من كورة جيان ، وكان عابداً ناسكاً .

أخبرني من سمع سعد بن معاذ (٢٤٩) يقول : كان معاذ بن عثمان من الأبدال (٢٥٠) ، وكانوا يعدونه مجاب الدعوة . يُذَكَّرُ أَنَّهُ أَنَاهُ يَوْمًا رَجُلٌ مُتَّظَّمٌ مِنَ الْحَاجِبِ ابْنِ رُسْتَمٍ (٢٥١) ويقولُ إِنَّهُ اغْتَصَبَهُ مَالًا لَهُ ، فَقَالَ لَهُ : خُذْ طَابِعًا وَامْضِ بِهِ نَحْوَهُ ، فَتَصَدَّ لَهُ وَقُلْ لَهُ : « هَذَا طَابِعٌ

(1) ص : تعيدك ، ولعل الصحيح ما أثبتنا ، وقد ورد مكان هذه في كتاب الحشني (ص ٩٩) : « فديتك » .

(2) ص : وهذا . (3) ص : اللدبان .

(4) زيادة أضفناها لكي يستقيم البيت وزنا ومعنى ، ونظفها لا تخرج عما أثبتنا .

القاضي» . فإذا هو رَكِبَ [فاجْبِذَهُ بِكُلِّ قُوَّةٍ عِنْدَكَ]⁽¹⁾ ، فاضْرِبْ بِيَدِكَ عَلَى عِنَانِهِ وَلَا تَفَارِقْهُ
حَتَّى يَصِيرَ إِلَيْنَا ،
فَإِنَّهُ أَهْيَبُ لَكَ .

(3) فَأَخَذَ الرَّجُلُ الطَّابِعَ ، وَمَضَى [بِهِ إِلَى الْحَاجِبِ]
(3) وَقَدْ تَقَدَّمَ

[٢٠٨] / وتشهدوا عنده لا أشهدته لكم ،⁽⁴⁾ (2) الرجلُ بين يديه ماشاء ، وهذا وكيلي
نُصِيرُهُ إِلَيْهِ ، وَيُنْصِفُهُ بِمَا يَدْعِيهِ . فَاتُوا الْقَاضِيَ فَأَعْلَمُوهُ ، فَأَخَذَ لِلرَّجُلِ بِحَقِّهِ .

وكان تَقَلَّدُ مُعَاذَ الْقَضَاءِ سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَثَلَاثِينَ وَمِائَتَيْنِ ، فَعَمِلَ عَلَيْهِ ثَلَاثَةَ أَعْوَامٍ ،
وَمَاتَ وَهُوَ يَلِيهِ سَنَةٌ أَرْبَعٌ وَثَلَاثِينَ وَمِائَتَيْنِ بَعْدَ مَهْلِكِ الشَّيْخِ يَحْيَى ، فَوَلَّى مَكَانَهُ مُحَمَّدُ
ابن زِيَادٍ اللَّخْمِيُّ⁽⁵⁾ .

محمد بن زياد اللخمي :

قال محمد بن حارث :

ثم وَلَّى الْأَمِيرُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ قَضَاءَ الْجَمَاعَةِ بِقَرْطَبَةَ بَعْدَ مُعَاذِ بْنِ عُمَانَ مُحَمَّدَ بْنَ زِيَادٍ
ابن عبد الرحمن بن زُهَيْرٍ اللَّخْمِيِّ ، ومحمد هذا هو والِدُ الْقَاضِي الْحَبِيبِ بْنِ زِيَادٍ (٢٥٣) .
وكان محمد حَسَنَ السُّبُورَةِ ، مَحْمُودَ الْوَلَايَةِ ، رَفِيعَ الْبَيْتِ فِي الْعُلَمَاءِ بِقَرْطَبَةَ ، وَسَمِعَ مِنْ
مُعَاوِيَةَ بْنِ صَالِحٍ (٢٥٤) سَمَاعًا كَثِيرًا (٢٥٥) .

(1) كلمات مطموسة في الأصل ، اعتمدنا في إثباتها على بقايا حروفها .

(2) كلمات ذهبت في قطوع الورقة بقدر ما تركنا من بياض .

(3) ذهبت في قطوع آخر الورقة كلمات بقدر ما تركنا من بياض .

(4) أصاب السطر الأول من هذه الصفحة طمس شديد لم نستخلص خلاله إلا ما أثبتنا من كلمات . ومع ذلك فنحن
وسعنا أن نتصور بقية الخبر ، فنحن اعتقدنا أن الرجل المتظلم أخذ الطابع وفعل ما أمره به القاضي ، فاعترض الحاجب ابن رستم
وهو في موكبة وعلى ملاء من الناس وطلب إليه أن يصير معه إلى مجلس القاضي ، ويبدو أن الحاجب لم يمتنع ولم يعترض ولكنه
اعتذر عن عدم مرافقة الرجل ، غير أنه أمر بتصيير وكيله إلى القاضي مع الرجل ووعده بإنفاذ كل ما يحكم به القاضي معاذ
والانصياع له ، وأشهد الناس على ذلك .

(5) ص : الخمي .

وقال لي محمد بن عبد الله بن أبي عيسى (٢٥٦) :

لما احتضِرَ يحيى بن يحيى أَسْنَدَ وصِيَّتَهُ^(١) في أداءِ دَيْنٍ وبيعِ مالٍ إلى محمد بن زيادٍ ، وكان القاضي يَوْمَئِذٍ ، فكانت وصِيَّتُهُ في ذلك الوجهِ خاصَّةً .
قال (٢) :

وهو الذي صَلَّى على يَحْيَى ، فَذُكِرَ أن ابنه إسحق بن يحيى (٢٥٧) تَقَدَّمَ يَتَقَدَّمُهُ للصلاة :
يُكَبِّرُ ابنُ زيادٍ ، وَيُكَبِّرُ إسحقُ تِلْوَهُ ، وَجَرَى على ذلك في التسليم بعد تسليم ابن زياد .
فلَمَّا وُورِيَ يحيى وَبَخَّ ابنُ زيادٍ إسحق على ما فَعَلَهُ ، وقال له :
.. مَنْ أَقَدَمَكَ عَلَيَّ هَذَا ؟

فقال له إسحق :

.. مَنْ قَدَمَكَ أَنْتَ للصلاة على أبي ؟

فقال له ابن زياد :

.. أَمْرُ الصَّلَاةِ إِلَى دُونِكَ ، وَمَعَ هَذَا فَإِنَّ أَخَاكَ - يَعْنِي عُبَيْدَ اللَّهِ (٢٥٨) - دَعَانِي إِلَى ذَلِكَ ، وَهُوَ - مَعَ فَتَايِهِ^(٣) - أَرشَدُ مِنْكَ . أَمَا وَاللَّهِ لَوْلَا حِفْظِي لِمُصَاحِبِ الحُفْرَةِ لَأَدْبَتُكَ !

وكان عُبَيْدُ اللَّهِ بنُ يَحْيَى يومئذ ابنَ سَبْعِ عَشْرَةَ سَنَةً ، فكانَ ثَنَاءَ محمد بن زياد يومئذٍ عليه أول أسباب سُؤدده ، وما زال ابنُ زيادٍ له على تكريمٍ ومَبَرَّةٍ .

وذكرَ أحمدُ بن زياد (٢٥٩) عن مُحَمَّد بن وَضَّاح قال :

شَهِدَ شَاهِدٌ عِنْدَ القَاضِي مُحَمَّد بن زيادٍ بِشَهَادَةٍ على المَعْرُوفِ بِغُرَابٍ - وكان جاهلاً عَاتِيًا - . فنَقَلَ غُرَابٌ لِمُحَمَّد بن زياد :

(١) ص : وصية .

(٢) يبدو لأول وهلة أن ضمير « قال » هنا يعود على ابن أبي عيسى الذي نقل الخشني عنه الخبر السابق ، ولكن هذا غير صحيح ، فالخشني يستد روايته في هذا الموضع إلى « بعض رواة الأخبار » (قضاة ص ١٠٠) ، ويعقب عليه بقوله إنه حكى هذه القصة لمحمد بن عبد الله بن أبي عيسى « فلم يعرفها » ، وقال : كان عبید الله من أشد الناس إعظاماً لأخيه إسحق ، وكان يأخذ بركابه إذا أراد أن يركب ، فما أدري إن كان فعل مثل هذا » (قضاة ص ١٠١) .

(٣) ص : فنائه .

- ومن شهد عليّ - أضلحك الله - ؟ فما أحسبه الليث بن سعد (٢٦٠) !

فقال له ابن زياد :

- [وما ذكر الليث بن سعد ها هنا ؟ !

فأمر به - وذلك في المسجد ، وهو والى الشرطة - فقنع أسواطاً ،

قال : فكان ذلك من فعله صواباً .

قال ابن وضاح :

وابن القاسم يرى أن يعزّر السلطان الرجل في المسجد بالسوط ، وسحنون يابى ذلك (٢٦١).

قال :

ولما ولي سحنون بن سعيد القضاء حمل الضرب على الذي لا يريد غرم ما عليه وهو

ملي بعد أن حبسه [(١)] ، - فقال (٢) له :

- من أين أخذت الضرب ، وإنما كنا نعرف الحبس حتى يغرّم ؟

فقال :

- من حديث النبي صلى الله عليه وسلم في قوله « مَطْلُ الْعَيْنِ ظُلْمٌ » ، فإذا كان ظالماً

كما سماه (٣) رسول الله صلى الله عليه وسلم أدبته (٢٦٢) .

وذكر بعض الرواة قال :

بينما القاضي محمد بن زياد يوماً يسائر الفقيه محمد بن عيسى الأعشى (٢٦٣) إذ لقيا

رجلاً يتما يد سكرًا (٤) ، فأمر ابن زياد الأعوان بأخذه ، وحمله ليقم عليه الحد ، ففعلوا .

وانتهى محمد بن زياد من طريقه إلى مكان ضيق تقدم فيه ، واستأخر عنه صاحبه

الأعشى ، فدنا إلى الغلام الذي كان يمسك السكران ، فقال له : يقول لك القاضي أطلق

(١) التكلة عن الحشى : قضاة ص ١٠١ .

(٢) كذا في الأصل ، وفي كتاب الحشى : فقيل . ويبدو أن ابن حيان ذكر اسم موجه السؤال إلى سحنون فيما ذهب

من النص في تلوع آخر الصفحة السابقة ، فبنى الفعل للمعلوم من أجل ذلك .

(٣) في الأصل بعد هذه الكلمة لفظ الجلالة « الله » وهو زائد لا موضع له .

(٤) ص : سكران .

الرَّجُلَ . فَفَعَلَ . وانتهى الأعمشى مع ابن زيادٍ إلى موضِعِهِ ، ثم سَلَّمَ عليه . وفارقه ابن زياد ، فدعا بالسَّكرانِ ، فقال له غلامُهُ : أَمَرَنِي عنكَ الفقيهُ أبو عبد الله بإِطلاقِهِ ، ففعلتُ ، ولم أَنهِنهُ . فقال : أَوْ فَعَلَهَا ؟ فِيهِ من فَعَلَاتِهِ ! وابتسم ، وقال (1) : لَعَمْرِي لقد أَحَسَنَ !

قال ابن حارث :

وما أَعْرِفُ لما أتَى (2) عن القضاةِ والحكَّامِ في هذا الباب من الإغضاء عن السُّكَّارِي (3) والتغافلِ لهم وجهاً يتسِعُ لهم القولُ فيه ، وَيَنْسَأُ (4) لهم العُدْرُ فيه إلا وجهاً واحداً : وهو أن حَدَّ السُّكرانِ من بين الحدودِ كُلِّها لم يَنْصَهُ الكتابُ المُنزَّلُ ، ولا وَرَدَ فيه حديثٌ ثابتٌ عن النبي صلى الله عليه وسلم .

وإنما ثَبَتَ أَنَّ النبي صلى الله عليه وسلم (5) أتَى برجلٍ قد شَرِبَ ، فَأَمَرَ أصحابَهُ أن يَضْرِبُوهُ على مَعْصِيَتِهِ ، فَضْرِبَ بالنُّعالِ وبأَطرافِ الأُرْدِيَةِ (6) .

وتوفى صلى الله عليه وسلم ولم يَحُدِّ في ضَرْبِ السُّكرانِ حَدًّا يُلْحَقُ بسائِرِ الحدودِ . فلما نَظَرَ أبو بكر الصديق رَضِيَ اللهُ عنه في ذلك بَعْدَ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم واستشار أصحابه قال له عَلِيُّ بن أبي طالب رحمه الله إِنَّهُ مَنْ شَرِبَ سَكِرَ ، ومن سَكِرَ هَذَى ، ومن هَذَى افْتَرَى ، ومن افْتَرَى وَجَبَ عليه حَدُّ الافتراءِ ، فَأَرَى أن تَضْرِبَ الشاربَ ثمانين : حَدُّ المُفْتَرِي . فَقبِلَ ذلك منه هُوَ والصَّحابةُ (7) رحمةُ اللهِ عليهم .

وَذَكَرَ الحديثُ أَنَّ أبا بكرٍ الصُّدِّيقَ رَضِيَ اللهُ عنه قال عِنْدَ مَوْتِهِ : ما شَيْءٌ في نَفْسِي منه شَيْءٌ غيرُ حَدِّ الخمرِ ، فإنه شَيْءٌ لم يَفْعَلَهُ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، وإنما هو شَيْءٌ رأيناه بَعْدَهُ (٢٦٤) .

(1) ص : قال .

(2) ص : السُّكرانِ ، ولا بأس بها لو كان الضمير الوارد بعد ذلك للغائب المفرد ، أما وهو للجمع (لم) فقد اقتضى ذلك التصحيح .

(3) في كتاب الحشنى : يتسع .

(4) بعد هذا اللفظ كلمة « أنه » في الأصل ، وهي زائدة لا حاجة للسياق إليها .

(5) ص : الأرية .

(6) ص : الأرية .

وقال ابن عبد البر :

مُحَمَّدُ بن زياد بن عبد الرحمن [يَكْنَى] (1) أبا عبد الله ، [وهو والدُ] الحبيب
ابن زياد القاضي . كان رجلاً عاقلاً [راويةً عن يحيى ، ولكنه لم يكن حافظاً ، وأبقاهُ
الأمير محمدُ على القضاء حتى تُوفِّيَ ابنُ زياد] (٢٦٥).

[قال محمد بن وضاح] :

[٢٠٩] / وكان محمد بن زياد أحدَ العقلاءِ الحُلماءِ الأُدباءِ . لقد أتيتُ يوماً معه ومع رجلٍ
من قُرَيْشٍ إلى عيادةٍ (2) مريضٍ من إخوانه ، فاستأذَنَ عليه ، وسألَتُ بنا خادمُهُ ، فقال (3)
لها قولي لمولاي : هذا فلانُ القُرَيْشيُّ والفقيرُ ابنُ وضاحٍ ومحمدُ بن زيادٍ بالبواب . آخرُ
نفسه وقدَّمنا ، وكُنِيَ عَنَّا وتَسَمَّى هُوَ ، فاستحسننا أدبَهُ واستبْرغناه .

وقال محمد بن حارث :

لم يُنْقَمِ (4) من محمد بن زياد في ولايته شيءٌ فيما ذكره روايةُ الأخبارِ غيرُ دالةٍ كانتُ
تظهرُ من زوجته تكفَّاتٍ (٢٦٦) تبينُ أثرها عليه على ما يفعله بعضُ الزوجاتِ الحظيَّاتِ
ببعولهنَّ ، فمن قبلها وجدَّ السبيلُ إلى عيبه .

وقال ابن عبد البر :

لم يزل محمد بن زياد على القضاء والصلاة معاً بقرطبة إلى أن هلكَ الأميرُ عبدُ الرحمن
ابن الحكم ، وقد استكملَ بعددِ قضاةٍ عليها عشرةُ قضاةٍ ، وهم :
مَسْرُورٌ (5) بن محمد مولاةُ ؛ سعيدُ بن سليمان ؛ يحيى بن مَعْمَرٍ (6) الألهاني ؛ الأسوارُ بن
عُقْبَةَ ، إبراهيم بن العباس المرواني ؛ محمد بن سعيد ؛ يُخَامِرُ بن عثمان ؛ عليُّ بن أبي بكر ؛
مُعَاذُ بن عثمان ؛ مُحَمَّدُ بن زياد - رحمة الله عليهم أجمعين .

(1) استكلنا هذا النص عن ابن سعيد (المغرب ١ / ١٥٠) ، وهو ينقل بدوره عن ابن عبد البر مرجع ابن حيان
هنا ، ولو أننا نظن ابن سعيد قد تصرف فيه ببعض الاختصار كما هي عادته .

(2) ص : عيادة . (3) ص : وقال .

(4) ص : ينم .

(5) ص : مسروق . (6) ص : ممز .

الوفاة لأولي النباهة في دولة الأمير عبد الرحمن بن الحكم

سنة سبع ومائتين :

تُوفى فيها - على خلاف⁽¹⁾ من الرواة - فطيس بن سليمان . وقيل بل في سنة سبع وتسعين ومائة في حياة الأمير الحكم .

وفطيس لقبه ، واسمه عثمان ، ثم صار هذا اللقب فيهم اسماً علماً تنازعوه لنباهة⁽²⁾ حامليه جدهم باني بيتهم ذلك (٢٦٧) . ذكر ذلك الوزير عيسى بن فطيس (٢٦٨) .
وغريب بن عبد الله الثقفي بطليطلة (٢٦٩) .

سنة ثمان ومائتين :

فيها هلك عبد الله [المعروف] بالبلنسي [بن الأمير] عبد الرحمن بن معاوية [الداخلي (٢٧٠) ، بعداً]⁽³⁾
/ تُوفى قبلهما في هذه السنة أيضاً⁽⁴⁾ .

[٢٠٩ب]

(1) ص : أحلاف . (2) ص : لنباهة .

(3) هذا هو كل ما استطعنا استخلاصه من كلمات خلال قطوع آخر الورقة ، ولا بد أن الكلام في بقية هذه العبارة عن الأحداث التي سبقت موت عبد الله البلنسي مباشرة ، وقد فصلها ابن الأبار بإسهاب في الترجمة التي أفردتها له معتمداً على ابن حيان (انظر الحلة السيرة ٣٦٣/٢ - ٣٦٤) ، ولو أننا نعتقد أن الذي ورد هنا في باب الوفيات - طبقاً لمنهج ابن حيان في الكتابة ومع مراعاة أن الذي ذهب في القطوع لا يتجاوز سطرأ أو سطرين - ليس إلا إشارة موجزة سريعة ، إذ لا بد أن ابن حيان يحيل على ما فصله من أخبار عبد الله البلنسي في الجزء الخاص بالتأريخ على نسق السنين (تحت سنة ٢٠٨) فيما مر من الكتاب ولهذا فلنا أن نعتقد أن تمام العبارة يمكن أن يكون شيئاً في هذا المعنى : « . . . بعد ما كشف وجهه بالمصيبة واحتل بلنسية مستنفرأ إليه كثيراً من أهلها ، وكان قد عزم على الفصول إلى قرطبة في يوم سبت وأعدهم عليه ، فضربت الریح الباردة ، وسقط مفلوجاً بعد أن خطب الجمعة بأصحابه ، واحتملوه إلى مكان مضطربة ببلنسية فات هناك في هذه السنة » .

(4) واضح أنه سقط كذلك في قطوع آخر الصفحة السابقة اسماً اثنين من وفيات سنة ٢٠٨ ، ولا بد أن أحدها هو مسرور بن محمد بن سعيد بن بشير قاضي الجماعة بقرطبة الذي توفي في آخر سنة ٢٠٨ كما سبق أن أشار إلى ذلك ابن حيان في أخبار قضاة الأمير عبد الرحمن بن الحكم .

وفيها تُوفِّي حُسَيْنُ بن عاصِمِ الثَّقَفِيُّ⁽¹⁾ (٢٧١) .

وفي كتاب القاضي ابن الفرضي :

حُسَيْنُ بن عاصِمِ بن كَعْبِ بن محمد بن عَلْقَمَةَ بن خَبَّابِ بن مُسْلِمِ بن عَدِيِّ بن [مُرَّة]⁽²⁾ ، عُرِفَ بِالثَّقَفِيِّ ، يَكْنَى أبا الوليدِ ، قرطبي حسيبٌ ، ابن عاصِمِ المعروفِ بِالْعُرْيَانِ صاحبِ الأميرِ الدَّاخلِ عبدِ الرحمنِ بنِ مُعَاوِيَةَ ، سُمِّيَ بِذلكَ لِأَنَّهُ أَوَّلُ من عَبَرَ نَهْرَ قُرْطَبَةَ إلى أصحابِ يُوْسُفَ الفِهْرِيِّ بين يَدَيِ عبدِ الرحمنِ بنِ معاوية ، وهو عُرْيَانُ ، فَلَزِمَهُ اللَّقَبُ . وكانت لحسينِ رِحْلَةٌ سمع فيها من ابنِ القاسمِ وابنِ وهبِ (٢٧٢) وأشهبِ ومُطَرَفِ (٢٧٣) وابنِ نافعِ (٢٧٤) ونُظَرَائِهِمْ . ووليَ السُّوقَ للأميرِ محمدِ بنِ عبدِ الرحمنِ ، فكانَ شديدًا على أهلِها في القِيمِ ، يَضْرِبُ البَاعَةَ ضَرْبًا شديدًا مُبْرَحًا ، فكانَهُ سَقَطَ بِذلكَ عن أن يَرَوِيَ النَّاسَ عنه ، وتُوفِّيَ صَدْرَ أبامِ الأميرِ محمدِ (٢٧٥) مَنَّةً ثلاثِ وسِتِّينَ ومائتينَ (٢٧٦) .

سنة تسع ومائتين :

فيها تُوفِّيَ الحاجِبُ القائدُ الكاتبُ عبدُ الكريمِ بنِ عبدِ الواحدِ بنِ مُغِيثِ .
وعبدُ الله الأَحَدَبُ النُّحْوِيُّ المُعَلِّمُ⁽³⁾ (٢٧٧) ، وكان له وَضْعٌ في النحوِ .

سنة عشر ومائتين :

فيها توفي الحاجبُ عبدُ الرحمنِ بنِ غانِمِ في الحَبِيسِ .
ومالِكُ بنِ القَتَيْبِ (٢٧٨) في المُطَبِّقِ (٢٧٩)⁽³⁾ .
وفتَحُ بنِ الفَرَجِ الأَزْدِيُّ الرَّشَّاشُ⁽⁴⁾ (٢٨٠) بالمشرقِ .
وحجَّاجُ المَغِيلِيّ الكاتبُ (٢٨١) كاتبُ التَّرْصِيبِ ، وهو من موالِي يَزِيدَ بنِ طَلْحَةَ العَبْسِيِّ (٢٨٢)

(1) من الغريب أن ابن حيان يذكر وفاة الفقيه حسين بن عاصم في سنة ٢٠٨ ، ثم ينقل بعد ذلك ترجمة له عن ابن الفرضي يقول فيها إن وفاته كانت سنة ٢٦٣ ، دون أن يستحق ذلك تعقيباً من ابن حيان ، على بعد ما بين الرأيين من خلاف ، على أن ما ذكره ابن حيان أولاً هو ما رأى صوابه وإن لم يجد بأساً في أن يثبت رأى ابن الفرضي . وقد عرضنا في تعليقنا على هذا الموضوع للآراء المتعارضة في وفاة حسين بن عاصم فلينظر في مكانه .

(2) إضافة عن تاريخ ابن الفرضي ، ترجمة رقم ٣٤٩ ، وهو مرجع ابن حيان هنا .

(3) ص : المطبق .

سنة إحدى عشرة ومائتين :

وليد بن أمية بن يزيد (٢٨٣) .

وسفيان بن عبدربه الحاجب .

وسعيد بن القاضي محمد بن بشير المعافري .

وفي كتاب القاضي [أبي الوليد ابن الفرضي] (1) :

هو سعيد بن قاضي الجماعة بقرطبة محمد بن بشير بن شراحيل - ويقال سرافيل -
أصولهم من مدينة باجة . وكان سعيد هذا رجلاً صالحاً عاقلاً ، سمع من يحيى بن يحيى
وغيره ، واستقضاها الأمير عبد الرحمن بعد والده ، وتوفي [حَسْبَمَا] (2) قاله الرازي
سنة عشر ومائتين (٢٨٤) .

سنة اثنتي عشرة ومائتين :

[فيها توفي عيسى بن دينار بن وا] قد الغافقي (3) ، يكنى أبا محمد ، أصله من
طليطلة ، وسكن [قرطبة ، وكانت له فيها رياسة بعد انصرافه من] المشرق ، وكان
ابن القاسم يُعَظَّمُهُ وَيُجَلُّهُ وَيُصِفُهُ بِالْفِيقِ وَالْوَرَعِ ، وكان لا يُعَدُّ في الأندلس أفقاً منه في
نظرائه [(٢٨٥)] .

/ أبو زياد إبراهيم بن زرعة الأندلسي مولى قريش ، روى عنه سحنون ، وتوفي بإفريقية [٢١٠]
في هذه السنة (٢٨٦) .

سنة ثلاث عشرة ومائتين :

محمد بن موسى الغافقي ، مولى لهم ، وقد ولي الوزارة والكتابة (٢٨٧) .

(1) إضافة يقتضها السياق ، وقد وردت هذه الترجمة فعلا في كتاب ابن الفرضي ، ترجمة رقم ٤٧١ .

(2) مطموسة في الأصل ، لا يكاد يبين إلا بعض حروفها .

(3) استكلنا هذه الترجمة من ترجمة عيسى بن دينار في كتاب ابن الفرضي ، رقم ٩٧٣ ، والديباج المذهب لابن

فرحون ص ١٧٨ - ١٧٩ .

إبرهيم بن محمد بن مُزَيْن (٢٨٨) .

عبد الخالق بن عبد الجبار الباهلي قاضي طَلَيْطَلَة (٢٨٩) .

سنة ست عشرة ومائتين :

فيها مات عبد الرحمن بن عبد الحميد بن غانم في الحبس^(١) ، على اختلاف .

سنة سبع عشرة ومائتين :

فَرَجُ بن مَسْرَة بن سالم (٢٩٠) .

سنة تسع عشرة ومائتين :

العباس بن عبد الله القرشي المرواني .

وَجَهْوَرُ بن يوسف بن بُخْت الفارسي الوزير .

وقال الرازي : هلكا معا في سنة عشرين بعدها .

سنة عشرين ومائتين :

الفقيه قَرَعُوسُ بن العباس بن قَرَعُوس الفقيه راوية مالك بن أنس رحمه الله .

وفي كتاب القاضي [ابن الفرضي]^(٢) :

قَرَعُوسُ بن العباس بن قَرَعُوس بن عُبَيْدِ بن مَنصُور بن محمد بن يوسف الثَّقَفِي ،
يكنى أبا الفضل ، وقيل أبا محمد ، قديم نبيه فقيه ، رحل فسمع من مالك بن أنس
وسفيان الثوري وابن جريج^(٣) وابن أبي حازم والليث وغيرهم ، فلم يتحقق بالحديث ،
وتحقق بالمسائل على مذهب مالك وأصحابه ، وكان متدينا ورعا فاضلا . وكان ممن أتتهم
في أمر الهيج (٢٩١) ، فَوَقَاهُ اللهُ ، وتوفي في أيام الأمير عبد الرحمن سنة عشرين ومائتين (٢٩٢) .

(١) ص : الحسن ، والصواب ما أثبتنا .

(٢) زيادة يقتضيها السياق ، وقد ترجم ابن الفرضي لقرعوس هذا حتى رقم ١٠٨٢ .

(٣) ص : جريج ، والصواب ما أثبتنا .

ومحمد بن كُليب بن ثعلبة بسرقسطة (٢٩٣) .

وحندون بن فطيس (1) (٢٩٤) .

على اختلاف في ابن كُليب وابن فطيس ، ورواؤه في أنهما هلكا سنة ست وعشرين بعدها .

وهلك إبراهيم بن عتبة ، وحزب بن بلديس ، وعبد الرحمن بن صبيح وأصحابهم الطليطليون في المطبق بقرطبة (٢٩٥) .

سنة إحدى وعشرين ومائتين :

فيها مات حبيب بن سليمان والد الفقيه ع [بد الملك بن حبيب ، وكان في عداد فقهاء قرطبة] (2) (٢٩٦) .

حارث بن أبي [سعد ، مولى الأمير عبد الرحمن بن معاوية ، يُكنى أبا عمر (٢٩٧) ، رحل فسمع من ابن القاسم وابن كنانة (٢٩٨) وغيرهما من المدنيين والمصريين ، وهو جد بني حارث الذين كانت فيهم الخطط . وولى الشرطة الصغرى ولم يزل عليها إلى أن توفى] (3) .

[ومحمد بن عيسى بن عبد الواحد بن بُخَيْح المَعْفَرِيُّ المعروف بالأعشى (٢٩٩) ، من أهل قرطبة ، يكنى أبا عبدالله ، رحل سنة تسع وسبعين] (4) / ومائة ، فسمع من سُفْيَانَ (٣٠٠) ، [٢١٠ب] ووَكَيْع (٣٠١) ، وَيَحْيَى الْقَطَّان (5) (٣٠٢) ، وغيرهم من المدنيين والعراقيين ، وكان الغالب عليه الحديث والأثر ، وكان عاقلاً سرياً جواداً ، وكانت فيه دُعَابَةٌ فاشيةٌ ، وله فيها أخبارٌ محفوظةٌ ، وكان من الأجواد المتصدقين ، وممن جمَعَ الفقه إلى رواية الحديث . وفي موته اختلاف : قيل سنة إحدى وعشرين ، وقيل بل سنة اثنتين بعدها .

(1) ورد اسم هندون بن فطيس في الأصل بعد العبارة التالية ، وكان حقه أنه يتقدم فأعدنا ترتيب العبارتين إلى ما يلزم به المنطق .

(2) استكلنا هذا النص من ترجمة حبيب بن سليمان في التكلة لابن الأبار ، رقم ٨٧ (ط . كوديرا) .

(3) البقية من ترجمة حارث بن أبي سعد في كتاب ابن الفرضي ، رقم ٣٢٤ .

(4) استكلنا النص من ترجمة محمد بن عيسى الأعشى في كتاب ابن الفرضي ، رقم ١١٠٠ .

(5) ص : القطا .

سنة ثلاث وعشرين بعدها :

فيها توفي أبو محمد بن خالد جد بني عَمَّار المُرَادِيِّين بقرطبة (٣٠٣) .

سنة أربع وعشرين ومائتين :

محمد بن خالد بن مَرْتَنِيْل (1) المعروف بالأشج ، صاحب الصلاة بقرطبة ، وكان على الصلاة والشرطة معا ، وتوفي وهو ابن اثنتين وسبعين سنة (٣٠٤) .

وفي كتاب ابن الفرضي :

أبو عبد الله محمد بن خالد الأشج ، مولى الأمير عبد الرحمن بن معاوية ، يعرف بابن مَرْتَنِيْل (2) ، قرطبي نبيه ، رحل فسمع من ابن القاسم وأشهب وابن نافع ونظرانهم من المدنيين والمصريين ، وكان الغالب عليه الفقه ، ولم يكن له علم بالحديث ، وولى الشرطة للأمير عبد الرحمن ، وولى الصلاة أيضا . وفي موته خلاف : قيل سنة عشرين ، وقيل سنة أربع وعشرين .

سنة خمس وعشرين ومائتين :

الوليد بن عبد الخالق بن عبد الجبار بن قيس الباهلي قاضي طليطلة (٣٠٥) .

سنة ثمان وعشرين ومائتين :

فيها مات أبو عبد الله بن محمد بن سعيد الزجالي المعروف بـ « الأضمعي » ، صنيعة الأمير عبد الرحمن ، وهو حامل بعد الوزارة والكتابة والقيادة ، على اختلاف ، وقيل إنه توفي سنة اثنتين وثلاثين ومائتين بعدها (٣٠٦) .

سنة تسع وعشرين ومائتين :

وكان [فيها موت] (3) يحيى بن مَعْمَر الألهاني الذي [كان] (3) قاضي الجماعة .
ويحيى بن موسى (٣٠٧) .

(3) زيادة يقتضيا السياق .

(2) ص : مرتيل .

(1) ص : برتيل .

سنة ثلاثين ومائتين :

[عبد الله بن الغازي]⁽¹⁾ بن قيس (٣٠٨) .

قال ابن الفرضي في كتابه :

عبد الله بن الغازي [بن قيس ، من أهل]⁽²⁾ قرطبة ، وقد⁽³⁾ كان عالماً باللغة والغريب والعربية ، [بصيراً بقراءة نافع بن أبي نعيم (٣٠٩) ، روى عنه ثابت بن حزم السرقسطي (٣١٠) وابنه قاسم (٣١١) وغيرهما]⁽⁴⁾ .

[٢١١]

سنة اثنتين وثلاثين ومائتين :

[فيها مات زونان]⁽⁵⁾ الفقيه ، وكان مولى رسول الله صلى الله عليه [وسلم] ، واسمُهُ عبدُ الملك بن الحسن (٣١٢) .

[قال] ابن الفرضي :

هو عبد الملك بن الحسن بن محمد بن زريق بن عبيد الله بن أبي رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يُكنى أبا مروان ، وقيل أبا الحسن ، يعرف بزونان ، روى عن صغصعة ابن سلام (٣١٣) ، وكان مُفتياً في أيام الأمير عبد الرحمن ، وكان له رحلة سمع فيها ابن القاسم وأشهب وابن وهب وغيرهم من المدنيين ، وكان يذهب أولاً إلى مذهب⁽⁶⁾ الأوزاعي (٣١٤) - وكان الفقه⁽⁷⁾ أغلب عليه - ثم تحول إلى مذهب مالك . وهلك سنة اثنتين وثلاثين ومائتين .

(1) ما استكلناه في هذه الترجمة نقلناه عن ابن الفرضي ، رقم ٦٣٢ ، وهو مرجع ابن حيان هنا .

(2) قطوع في الأصل أكلناه فيها بما يقتضيه السياق .

(3) قطع في الأصل بقدر كلمة .

(4) استكلنا هذه العبارات من ترجمة ابن الغازي عند ابن الفرضي .

(5) إضافة يقتضيهما السياق اعتمدنا فيها على ترجمة زونان في كتاب ابن الفرضي رقم ٨١٣ .

(6) ص . مذاهب .

(7) ص : الفقيه .

سنة أربع وثلاثين ومائتين⁽¹⁾ :

وعميدُ الفقهاء⁽²⁾ شيخُ قرطبة يحيى بن يحيى الليثي ، هلك لثمان بقين من رجب منها ،
وله ثنتان وثمانون سنة (٣١٥) .

وقال أحمد بن محمد الرازي :

بل عشية⁽³⁾ الأربعاء لثمان بقين من ذى حجة منها .

وفي كتاب ابن الفرضي :

هو يحيى بن يحيى بن كثير بن وهلال بن تسمال⁽⁴⁾ بن منقايا ، أضله من برابر⁽⁵⁾
مضمودة ، يتولى بني ليث^(٣١٦) ، يكنى أبا محمد ، وكان كبير الأكابر بقرطبة ، سمع
فيها لأول نشأته من زياد بن عبد الرحمن^(٣١٧) الموطأ ، [ثم رحل إلى المشرق ، فسمع الموطأ
من مالك بن أنس]⁽⁶⁾ غير أبواب من الاعتكاف شك في سماعها من مالك ، فأثبت روايته
فيها عن زياد عنه . ورحل إلى مالك وهو يومئذ ابن ثمان وعشرين⁽⁷⁾ سنة ، فسمع منه ،
ومن نافع بن [أبي]⁽⁸⁾ نعيم ، وسمع بمكة من سفیان بن عيينة ، وبمصر من الليث بن سعد ،
وابن وهب ، وابن القاسم ، وغيرهم .

وقدم إلى الأندلس بعلم كثير ، فعادت فتيا الأندلس بعد عيسى بن دينار إلى رأيه
وقوله ، وكان يُفتى برأى مالك صرفاً لا يَعدُّوه إلا في القنوت في الصبح فإنه تركه لرأى
الليث ، وترك يحيى من رأى مالك أيضا الأخذ باليمين مع الشاهد ، وأخذ بقول الليث
في ترك ذلك وإيجاب شهيدين ، وكان أيضا لا يرى بعثة الحكّمين عند تشاجر الزوجين ،
فكان ذلك مما يُنكرُ عليه^(٣١٨) . وكان يحيى يُفضّلُ بالعقل على علمه .

(1) إضافة يقتضيا السياق ، إذ هذه هي السنة التي توفي فيها يحيى بن يحيى ، ويبدو أن اسما أو أكثر سقط قبل اسم يحيى .

(2) ص : الفقيه .

(3) ص : عشيا .

(4) كذا في الأصل ، والذي جاء في كتاب ابن الفرضي في ترجمة يحيى (رقم ١٥٥٤) : وسلاس بن ثمل وهو أصح

نما جاء في الأصل .

(5) زيادة يقتضيا السياق اعتمادنا فيها على ما ذكره ابن الفرضي

(6) ص : البرابر .

(7) زيادة تم بها صحة الاسم .

(8) هذا اللفظ مكرر في الأصل .

وقال محمد بن عمر بن لبابة :

فقيه الأندلس عيسى بن دينار ، وعالمها عبد الملك بن حبيب ، وعاقلها يحيى ابن يحيى .

وكان يحيى ممن أتهم بالإجلاب في الهيج ، فهرب إلى طليطلة ، ثم استأمن الأمير الحکم ، [فأمته]⁽¹⁾ ، وانصرف [إلى ق] برطبة .

[٢١١ ب]

/ سنة خمس وثلاثين ومائتين :

محمد بن سعيد بن رستم الوزير الحاجب ، في صفر منها .

وأخوه القاسم قبله .

والشريف يحيى بن سليمان بن الأمير عبد الرحمن بن معاوية ، وكان من الجلساء (٣١٩)

والغمر بن يحيى بن عبد الغافر⁽²⁾ بن أبي عبدة (٣٢٠) .

وخطاب العاز (٣٢١) .

وأبو اليسول الشاعر سعيد [بن] يعمر بن علي العبدى بسر قسطة (٣٢٢) .

والأخ بكر بن الأمير الحكم بتدمير ، وكان قائدا بها ، فورد بذلك كتاب أمية بن سليمان⁽³⁾ عامل تدمير ، فخرج زيدان الفتي الكبير للنظر في إحصاء تركته والاحتياط عليها (٣٢٣) .

ومروان بن عبد الله⁽⁴⁾ الزجالي (٣٢٤)

وعبد الله بن محمد بن جابر (٣٢٥) .

(1) استكلنا بقية الكلمات معتمدين على ما سلم من حروفها خلال القطوع .

(2) ص : . . بن عبد الله العامر ، وقد أصلحنا الاسم على الصورة التي أثبتنا بعد مقابلته على ما ذكره ابن الأبار في حديثه عن نسب هذه الأسرة في معرض الكلام عن جهور بن عبيد الله بن الغمر بن يحيى المذكور هنا (انظر الحلة السراء ٢٤٥ / ١) .

(3) ص : سلمن .

(4) ص : بن عبد الله الملك الزجالي ، ويبدو أن للناسخ كان مترددا في كتابة الاسم بين « عبد الله » و « عبد الملك » فأصلحناه بما أثبتنا بعد أن رأينا في حديث ابن حبان عن محمد بن سعيد الزجالي رأس هذه الأسرة أنه أعقب ولدين اسم أحدهما حامد واسم الآخر عبد الله ، ولم يذكر له ابنا باسم عبد الملك .

والشريف أمية الأعشى بن هشام بن الأمير الحكم (٣٢٦) .

وسعيد بن حسان الفقيه بقرطبة (٣٢٧) في جمادى الأولى منها .

وفي كتاب القاضي ابن الفرضي :

سعيد بن حسان مولى الأمير الحكم بن هشام ، يكنى أبا عثمان ، قرطبي نبيه ، رحل إلى المشرق سنة سبع وسبعين ومائة^(١) ، فروى عن عبد الله بن نافع (٣٢٨) ، وعبد الله بن عبد الحكم (٣٢٩) ، وأشهب بن عبد العزيز ، ومنه استكثر ، وسمع منه سماعه عن مالك ، وكتب رأيه وغير ذلك من أحاديثه ، وانصرف سنة أربع ومائتين ، وكان فقيهاً في المسائل حافظاً لها ، مشاوراً مع الشيخ يحيى بن يحيى وعبد الملك بن حبيب وقاسم بن هلال ، وكان منقطعاً إلى مؤاخاة يحيى ، أخذاً بهديه ، معظماً له ، ركباً سنه ، لا يخالفه في شيء يراه ، قد غلب عليه مع ذلك حفظ رأي أشهب عن مالك واختياره ، وتفرد بروايته عنه ، وكان على فقهه^(٢) زاهداً فاضلاً ورعاً ، وتوفي في أيام الأمير عبد الرحمن بن الحكم سنة ست وثلاثين ومائتين^(٣) ، بعد خليله يحيى بن يحيى بعامين .

والأخ سعيد الخير بن الأمير الحكم (٣٣٠) في ربيع الآخر .

ومحمد بن حيون بن أبي عبدة أخو حمدون (٣٣١) .

ونصر الفتي الخصي خليفة الأمير عبد الرحمن الغالب على دولته ، في شعبان منها .

وعمر بن حفص بن أبان .

سنة سبع وثلاثين ومائتين :

الوزير عبد الواحد بن يزيد الإسكندراني ، وقد نيف على الثمانين سنة والفقيه

قاسم بن هلال القيسي (٣٣٢) . من [كتاب ابن الفرضي] :

(١) كذا ورد التاريخ في كتاب ابن الفرضي الذي يعتمد ابن حبان عليه هنا ، ومع ذلك فإننا نظن أن هناك خطأ

في هذا التاريخ وأن الصواب « سنة سبع وتسعين ومائة » . أنظر تمليقنا على هذا الموضع .

(٢) ص : فقه :

(٣) لم يفعل الناسخ هنا فيما يبدو بين وفيات سنتي ٢٣٥ و ٢٣٦ ، إذ نراه يذكر وفاة سعيد بن حسان في هذه

الآخيرة بينما يعنون للفقرة بسنة ٢٣٥ السابقة لها . وربما سقط بين الأسماء المذكورة عنوان السنة التالية .

قاسم بن هلال بن فرقد بن عمران⁽¹⁾ القيسي ، يكنى أبا محمد ، قرطبي تفقه [على زياد] بن عبد الرحمن ، ورحل ، فسمع من ابن القاسم وابن وهب [وغير واحد] من المصريين والمد [نيين من من أصحاب مالك ، وكان عالماً بالمسائل] ، ولم يكن له علم بالحديث [، وكان رجلاً معقلاً وقوراً ، حدث عنه [بنوه وغيرهم]⁽²⁾ .

سنة ثمان وثلاثين ومائتين :

/ علي بن نافع الملقب بزرياب ، مولى المهدي العباسي ، في ربيع الأول من سنة ثمان [٢١٢] وثلاثين ومائتين ، هلك قبل وفاة الأمير عبد الرحمن بأربعين يوماً (٣٣٣) .

وفيهما مات هارون بن سالم ، يكنى أبا عمر (٣٣٤) ، قرطبي قديم ، سمع من عيسى بن دينار ويحيى بن يحيى ، ورحل إلى المشرق ، فلقى أشهب بن عبد العزيز (٣٣٥) وروى عنه ، وسمع من أصبغ بن الفرَج ، وعلي بن معبد (٣٣٦) ، وسخون ، وغيرهم . وكان منقطع القرين في الفضل والزهد والعلم ، وكان يقال فيه إنه مُجَابُ الدعوة . وكان يحفظ المسائل حفظاً حسناً ، إلا أن العبادة كانت أغلبَ عليه ، وقد كانت تُعرف كرامته وإجابته في غير ما شيء ومات على ذلك حدثاً في الأربعين من عمره ، وكانت كتبه موقفةً عند أحمد بن خالد (٣٣٧) ، وكانت بينه وبينه قرابة من طريق أمه ، وتوفي فيما ذكره أحمد سنة ثمان وثلاثين ومائتين وفيها مات الأمير عبد الرحمن بن الحكم ليلة الخميس لثلاث بقين من ربيع الآخر منها وقد تقدم ذكر ذلك في مكانه .

(1) في كتاب ابن الفرضي : عمر .

(2) اعتمدنا في ملء فجوات هذا النص على ما بقى من حروفه وعلى ترجمة قاسم بن هلال في كتاب ابن الفرضي ،

ذكر نخصال من مناقب الأمير عبد الرحمن بن الحكم
لم تمر في عرض أخباره

قال أحمد بن محمد الرازي :

كان الأمير عبد الرحمن مُقَدِّمَ الطبقة في البلاغة ، مَطْبُوعًا في الكتابة ، مُقْتَدِرًا على ما حاول من سَنِيّ البيان المنثور والمنظوم ، مُؤَثِّرًا⁽¹⁾ لمن يُحْسِنُهَا ، مُقَرَّبًا⁽²⁾ بوسيلتهما ، وكان له التوقيع الوجيز والقريض المُسْتَحْسَنُ .

فِيمَا⁽³⁾ شَهَرَ من وَجَزِ تَوْقِيْعِهِ⁽⁴⁾ :

توقيع له إلى بعض من سألَهُ من مَوَالِيِهِ تَوَلِيَّتَهُ عَمَلًا لم يَكُنْ من أَهْلِهِ :

« مَنْ لَمْ يَعْرِفْ⁽⁵⁾ وَجَّةَ مَطْلَبِهِ كان الحرمان أولى به . »

وَوَقَّعَ إلى ابْنِهِ المُنْدِرِ (٣٣٨) - وكان من بين وَلَدِهِ بليغًا مُفَوِّهاً - ، فَكَتَبَ إليه يسأله أن يَأْذَنَ له في اعتلاء المِنْبَرِ بالبلدِ الذي كان يَلِيهِ له ليقِمَ الجُمُعَةَ وَيَخْطُبُهُمْ ، لِيُخَيِّ رُسُومَ سَلْفِهِمْ وَيُنَوِّهَ به في اتِّبَاعِهِمْ . فَوَقَّعَ على ظَهْرِ كِتَابِهِ :

« قَالَتِ الحِمْيَرُ : لو كان الكلامُ من فِضَّةٍ ، لكان الصَّمْتُ من ذَهَبٍ ، وإني لأشْفِقُ عليك مما تُحْسِنُهُ ، فكيفِ مما تُؤْهِمُ عليك بَعْضُ التَّقْصِيرِ فيه ؟ » / بِمُلْجِمِ سَدَاهُمَا⁽⁶⁾ وَمُقْتَدِحِ زِنَادِهِمَا⁽⁷⁾ وَمُجَارِيهِمَا في مِضْمَارِ باطِلِهِمَا : زَرِيَابِ المَغْنَى ، تالي وَحَى الشيطان ،

[٢١٢ب]

(1) ص : مشورا .

(2) ص : مرتبا .

(3) ص : بما .

(4) ص : ترفيعه .

(5) كذا ورد هذا اللفظ في المغرب لابن سعيد ١ / ٤٦ ؛ ونفح الطيب للمقرئ ١ / ٣٢٥ ؛ وفي البيان المغرب

لابن عذاري ٢ / ٩٣ ؛ و « أخبار مجموعة » ص ١٣٩ ؛ وأعمال الأعلام لابن الخطيب (الطبعة الثانية) بيروت سنة ١٩٥٦ ص ١٩ : « يصب » .

(6) ص : بملحى يشداها .

(7) ص : زيادها .

وثالثُ أثنائيُّ السلوانِ ، ما له من مُتعةٍ نعيمٍ تَمْلِكُ القلوبَ ، وتَصُورُ⁽¹⁾ [إليها] ⁽²⁾الآذانُ ، لو أن حياً⁽³⁾ يَسْلَمُ من الحَدَثَانِ .

جَرَتْ لهذا الأميرِ المُتَرَفِّفِ معهم في مجاليسِهِ ومشارِبِهِ⁽⁴⁾ نوادرُ أخبارٍ ، تُؤنِسُ زَهْرَ الرُّؤْيُوسِ غِيبَ القِطَارِ ، وهي مَبْثُوثَةٌ في الناسِ ، على أن رُسُومَ الباطِلِ إلى بِلَى وأنْدِرَاسِ⁽⁵⁾ (٣٣٩) قرأت في كتاب مُعاوية⁽⁶⁾ بن هشام الشَّيبِنِيِّ⁽⁷⁾ قال (٣٤٠) :

من أبتدع مكارم الأمير عبد الرحمن بن الحكم الدالة على سُروهِ ورفعةِ نفسه وفرط استحيائه ورقةِ وجهه التي لم يَكُنْ يَعدِلُهُ فيهنَّ أحدٌ من أهلِ بيته أن أخضرَ يوماً مالا كثيراً أتاه من بعض النواحي جلس لإيعابه في بَدْرِهِ ، وقد أمرَ خَدَمَهُ الصَّقَالِبَةَ بِتَوَلَّى ذلك ونضدِهِ بين يديه إلى أن يأمرَ برفعه إلى بيت المال ، فأخذوا في ذلك على عَيْنِهِ .

واعترته سنةٌ غَضَّ لها من طَرْفِهِ ، خالها بعضُ شُرَهَائِهِمْ نِعَاسًا ، فمدَّ يده إلى بَدْرَةٍ من ذلك المالِ ، اختلَسَها حينَ غَفَلَةٍ من أصحابِهِ ، فَصَيَّرَهَا⁽⁸⁾ في حِضْنِهِ ، والأميرُ ينظرُ إليه ، فلما أكملوا نضدَ البَدْرِ أمرَهُمْ بإعادةِ عَدِّهَا ، فأصابوها تَنقُصُ تلك البَدْرَةَ المختلَسَةَ ، فتراموا بِسَرِقِهَا ، واشتدَّ بينهم التنازُعُ فيها ، فلما أكثروا قال لهم الأميرُ :

— حَسْبُكُمْ ! كُفُّوا عن ذِكْرِهَا ، فقد أخذها من لا يَرُدُّهَا ، وراهِ من لا يَفْضَحُهَا .
فإيَّاه وإياكم عن العودِ لثلثها ، فإنَّ كَبِيرَ الذَّنْبِ يَهْجُمُ عن⁽⁹⁾ استِنْفَادِ⁽¹⁰⁾ العَفْوِ اِرْفَعُوا المالَ وأقِلُّوا المَقَالَ .

(1) أي تميل وتنمط

(2) زيادة يقتضيا السياق .

(4) ص : ومساربه .

(5) سقط أول هذه الفقرة في قطوع أسفل الصفحة السابقة ، ولكن السياق يدل على أن المؤلف كان في ذكر اثنين من ذوى الصلة الوثيقة والحظوة المتمكنة من الأمير عبد الرحمن ، إذ أننا نرى الحديث في أول الصفحة عن ثالث هذين الاثنين « مجاريهما في مضمار باطلهما » : زرياب المغنى ، ونرجح أن هذين الاثنين اللذين كانا موضوع الحديث الذاهب أوله في قطوع الصفحة السابقة إنما هما حظيتة « طروب » الأثيرة لديه من بين نسائه ، وحاجبه « أبو الفتح نصر الحضي » خليفته المقدم على جميع خاصته . أما المؤرخ الذي ينقل ابن حيان هذا الخبر - فالأسلوب هنا ليس أسلوب ابن حيان - فقد ذكرنا في تعليقتنا على هذا الموضوع أنه لا بد أن يكون الشاعر عبادة بن ماء السماء .

(6) ص : معاوية .

(7) ص : الشيبلى .

(8) كلمة مطموسة في الأصل لا يبين إلا بعض حروفها ، ولعلها كما أثبتنا .

(9) في المغرب لابن سعيد (٤٦ / ١) : على .

(10) ص : استفاد .

فاشْتَدَّ عَجَبُ مَنْ سَمِعَ بِهِ مِنْ سَعَةِ كَرَمِهِ وَشِدَّةِ حَيَاةِهِ .

وَقَرَأَتْ فِيهِ :

كَانَ مَكَانَ الْأَمِيرِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ مِنْ صِلَةِ الرَّجْمِ وَالْحُنُوِّ عَلَى الْقَرَابَةِ عَلَى حَالٍ لَمْ يُسَاوِهِ فِيهَا أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ ، وَكَانَ قَدْ اخْتَصَّ فَوْقَهُمْ جَمِيعًا أَخَاهُ أَبَا عَثْمَانَ سَعِيدَ الْخَيْرِ [بَنَ] (1) الْأَمِيرِ الْحَكِيمِ ، فَحَبَاهُ بِصِدَاقَتِهِ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ إِخْوَتِهِ مِنْ وَقْتِ نَشَأْتِهِمَا أَيَّامَ أَبِيهِمَا ، فَلَمَّا أَنْ صَارَ الْأَمْرُ إِلَيْهِ تَضَاعَفَ اخْتِصَاصُهُ لِسَعِيدٍ ، وَأَنْسَهُ بِهِ ، وَمِبَاطَنَتُهُ إِيَّاهُ ، وَإِلْطَافُهُ لَهُ ، فَصَارَ يُنَادِمُهُ وَيَخْلُو بِهِ وَيَتَصَرَّفُ مَعَهُ فِي مَغَازِيهِ وَصُيُودِهِ ، وَلَا يَصْبِرُ عَنْهُ ، حَتَّى اغْتَلَّتْ حَالُ سَعِيدٍ فِي أَهْلِ بَيْتِهِ ، وَحَسَدَوْهُ عَلَى مَا أُتِيحَ لَهُ مِنَ الزُّلْفَى إِلَى الْأَمِيرِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ [وَكَانَ سَعِيدٌ فِي ذَاتِهِ سَيِّدًا جَوَادًا] (2) .

[٢١٣] / تَذَكِيرٌ لِلشَّامَتَيْنِ ، وَعِظَةٌ لِلْمُتَفَكِّرِينَ ، وَذَلِكَ أَنْ قَعَدَ فِيهِ فِي بَعْضِ خَلَوَاتِهِ لِلأُنْسِ مَعَ جَوَارِيهِ وَاللَّيْثَانِ بِأَغَانِيهِ ، عَلَى اسْتِعْدَادِ كَانٍ مِنْهُ لِيَوْمِهِ ذَلِكَ وَاحْتِفَالٍ فِي تَهْيِئَتِهِ (3)

فَبَيْنَمَا هُوَ مُنْغَمِسٌ فِي نِعْمَتِهِ ، لَاهٍ بِحَبْرَتِهِ ، إِذْ انْهَارَتْ تِلْكَ السُّتَارَةُ (٣٤١) السَّامِيَةُ الَّتِي كَانَتْ عَلَّاهَا عَلَى مَجْلِسِهِ الَّذِي كَانَتْ قَاعِدًا فِيهِ مِنْ دَاءِ اسْتَبْطِنَهَا لَمْ يَشْعُرْ بِهِ لَمَّا أَرَادَهُ اللَّهُ مِنْ عَرَضِ قُدْرَتِهِ عَلَيْهِ ، فَخَرَّ الْمَجْلِسُ عَلَى مَنْ كَانَتْ فِيهِ مِنْ نِسَائِهِ وَخَدَمِهِ ، وَسَحَقَهُمْ سَحَقًا ، وَقَضَى اللَّهُ بِنَجَاتِهِ مِنْ بَيْنِهِمْ بِأَدَقِّ سَبَبٍ ، مِنْ قِبَلِ جَائِزَةِ (٣٤٢) صَلْبِيَّةٍ مِنْ جِيزَانَ (4) الْمَجْلِسِ تَعَرَّضَتْ فَوْقَهُ ، فَأَمْسَكَتْ عَنْهُ أَذَى الْهَدْمِ ، وَنَجَتْ تَحْتِهَا هُوَ وَجَارِيَةٌ لَهُ حَظِيَّةٌ كَانَتْ قَدْ أَجْلَسَهَا إِلَى جَنْبِهِ كَانَتْ تُسَمَّى « مُنْتَهَى الْمُنَى » أُمُّ وَلَدِهِ مَرْوَانَ ، نَجَتْ بِنَجَاتِهِ ، وَمَلَكَتْ جَمِيعُ جَوَارِيهِ أَشْنَعَ هَلَاكِ ، وَكُنَّ أَرْبَعٌ عَشْرَةَ جَارِيَةً .

فَارْتَجَتْ الْمَدِينَةَ مِنْ شِنَاعَةِ قِصَّتِهِ ، وَاتَّصَلَ خَبْرُهُ بِأَخِيهِ الْأَمِيرِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، فَسُرَّ بِخُلُوصِهِ سُرُورًا هَوَّنَ عِنْدَهُ جَمِيعَ مَا أَصَابَهُ ، وَهَنَّاهُ بِهِ أَصْحَابُهُ ، وَاسْتَدْعَى سَعِيدًا إِلَى نَفْسِهِ

(1) زيادة يقتضيهما السياق .

(2) هذا هو كل ما استطننا استخلاصه من ألفاظ من خلال قطوع آخر الورقة .

(3) الحديث في هذه الفقرة التي ذهب أولها في قطوع الصفحة السابقة عن حادث وقع لسعيد الخير بن الحكيم أخى الأمير

عبد الرحمن و كاد يذهب ضحية له بينما كان في مجلس سمر وغناء أقامه في دار جديدة البناء على ما يظهر .

(4) ص : حائرة . . حيران ، وانظر تحقيقنا لهذا اللفظ في التعليق ذى الرقم المذكور

فَسَلَاةٌ عَلَى مَا أَصَابَهُ ، وَأَخْلَفَ عَلَيْهِ بِكُلِّ جَارِيَةٍ هَلَكَتْ ثَمْتَيْنِ ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ ثَمَانِيَّ وَعَشْرِينَ جَارِيَةً بِمَا لَهُنَّ مِنْ نَسَبٍ وَكِسْوَةٍ ، وَدَفَعَ إِلَيْهِ مَالًا وَاسِعًا يُعِيدُ (I) لَهُ بِنَاءَهُ ، وَيَطْرُدُ بِهِ شَعَثَهُ ، فَاعْتَدَلَتْ حَالُ سَعِيدٍ ، وَجُبِرَ كَسْرُهُ ، وَاتَّصَلَتْ أَلْفُتُهُ بِالْأَمِيرِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَبَابْنِهِ الْأَمِيرِ مُحَمَّدٍ بَعْدَهُ .

وَطَالَتْ حَيَاتُهُ إِلَى أَنْ تُوُفِيَ فِي أَيَّامِ الْأَمِيرِ مُحَمَّدٍ صَدْرَ رَبِيعِ الْآخِرِ سَنَةِ أَرْبَعِينَ وَمِائَتَيْنِ (٣٤٣) فَأَرْسَلَ الْأَمِيرُ مُحَمَّدٌ بِكَفَنِهِ وَخَنُوطِهِ وَطِيبِهِ مِنْ عِنْدِهِ ، وَعَهَّدَ إِلَى بَنِيهِ وَإِخْوَتِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ وَوُزَرَائِهِ وَأَهْلِ خِدْمَتِهِ بِشُهُودِهِ وَالْمَشِي بَيْنَ يَدَيْ نَعْشِهِ .

ذِكْرُ الْمَجَاعَةِ

وَقَالَ ابْنُ هِشَامٍ الشَّيْبَانِيُّ :

نَالَتْ أَهْلَ الْأَنْدَلُسِ مَجَاعَةٌ شَدِيدَةٌ صَدَرَ أَيَّامِ الْأَمِيرِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ سَنَةَ سَبْعٍ وَمِائَتَيْنِ (٣٤٤) وَكَانَ سَبَبُهَا انْتِشَارَ الْجَرَادِ بِالْأَرْضِ وَلَحْسَهُ [الْغَا] لَاتٍ وَتَرَدَّدَهُ بِالْجِهَاتِ ، فَنَالَتْ النَّاسَ مَجَاعَةٌ عَظِيمَةٌ ، [كَفَى حَدَّهَا الْأَمِيرُ بِإِطْعَامِ] (٢) الضُّعَفَاءِ وَالْمَسَاكِينِ مِنْ أَهْلِ قَرْطَبَةَ ، / فِيهِمْ بِاسْمِ أَيُّوبَ الْعَابِدِ الْمُسْتَجَابِ ، بَعْدَ أَنْ تَصَفَّحَ وَجوهَ النَّاسِ حَوْلَهُ ، [فَلَمْ تَقَدْ] نَحْ [٢١٣] ب ، عَيْنُهُ عَلَيْهِ ، فَنَادَى بِاسْمِهِ مُسْتَحْلِفًا لَهُ بِاللَّهِ أَنْ يَبْرُزَ إِلَيْهِ ، فَلَمَّا أَكْثَرَ مِنْ [الْإِرْجَاءِ] نَافٍ بِهِ بَرَزَ وَدَنَا مِنْهُ ، فَاجْتَهَدَ يَحْيَى فِي الدُّعَاءِ ، وَأَيُّوبُ يُؤْمِنُ وَيُنَادِي (٣) رَبِّهِ فَسُقِيَ النَّاسُ لِيَوْمِهِمْ . وَغَابَ (٤) أَيُّوبُ فَلَمْ يَظْهَرْ .

وَمَضَى ذِكْرُ هَذَا الْخَبَرِ عَلَى اخْتِلَافِ الرُّوَاةِ فِي تَارِيخِ عَامِهِ (٥) وَاسْمِ الْإِمَامِ الْمُسْتَسْقَى (٦)

(١) ص : يَد .

(٢) هَذَا هُوَ أَقْصَى مَا اسْتَطَعْنَا اسْتِخْلَافَهُ خِلَالَ قَطْعِ آخِرِ الصَّفْحَةِ .

(٣) ص : وَنَادَى .

(٤) ص : وَغَابَ .

(٥) ص : عَلَيْهِ .

(٦) ص : الْمُسْتَقَى . هَذَا وَبَقِيَّةُ الْخَبَرِ تَفْسِيرٌ لَنَا أَوَّلُهُ الَّذِي ضَاعَ فِي قَطْعِ آخِرِ الصَّفْحَةِ السَّابِقَةِ ، فَيَلْوُزُخُ بِشَيْءٍ مِنْ صَلَاةِ اسْتِسْقَاءِ أَهْلِ الْمُسْلِمِينَ فِي قَرْطَبَةَ فِي عَامِ تِلْكَ الْمَجَاعَةِ الشَّدِيدَةِ الَّتِي أَصَابَتْ الْأَنْدَلُسَ فِي سَنَةِ ٣٤٧ هـ . عَلَى مَا ذَكَرَ فِي نَهَايَةِ الصَّفْحَةِ الْمَسَاضِيَةِ ، وَكَانَ إِمَامَ الْمُصَلِّينَ فِيهَا . هُوَ مَنْ يُسَمَّى ابْنَ حِيَانَ « يَحْيَى » وَلَا يَدُ أَنْ يَكُونَ يَحْيَى بْنُ يَحْيَى . الْفَقِيهَ الْمَشْهُورَ (وَقَدْ يَكُونُ أَيْضًا يَحْيَى بْنُ مَعْمَرِ الْأَهْلَانِيِّ الْإِشْبِيلِيِّ قَاضِيِ الْجَمَاعَةِ لَوْلَا أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَتَوَلَّى الْقَضَاءَ فِي هَذِهِ السَّنَةِ) . وَيَذَكِّرُ ابْنَ حِيَانَ فِي نَهَايَةِ هَذَا الْخَبَرِ أَنَّ هُنَاكَ خِلَافًا فِي الْعَامِ الَّذِي أُدِيَتْ فِيهِ صَلَاةُ اسْتِسْقَاءِ هَذِهِ وَفِي إِمَامَتِهَا ، وَهَذَا صَحِيحٌ إِذْ أَتَانَا بِحَدِيثِ الْخَبَرِ =

وقرأت بِحَظِّ عِبَادَةِ الشَّاعِرِ (٣٤٥) قال :

كان الشريف دَحُونُ [بن]^(١) الوليدِ ، واسمُهُ حبيبُ بن الوليد بن حبيب الداخلِ إلى الأندلس (٣٤٦) بن عبد الملك بن عُمَر بن الوليد بن عبد الملك بن مروان ، ودَحُونُ لَقَبٌ له غَلَبٌ^(٢) عليه ، ويكنى أبا سليمان (٣٤٧) . وكان من سَرَاقِ بني مروانَ بالأندلس وعُلَمَائِهِمْ وأدبائِهِمْ ، ووُلِدَ أَيَّامَ الأَمِيرِ الدَّاخِلِ [في] حياة جَدِّه حبيب بن عبد الملك الداخلِ أيضاً ، وجَدُّه الذي رَبَّاهُ وأَدَّبَهُ ، إذ تُوفِّي أبوه الوليدُ في حياة أبيه ، فَكَفَلَهُ بَعْدَهُ جَدُّه حبيبُ الذي هو والد جماعة هذا البَطْنِ الحَبِيبِيِّ^(٣) من بني أُمَيَّةَ بالأندلس ، فَنَشَأَ^(٤) حبيبُ دَحُونُ هذا فيهم فقيهاً فاضلاً عالماً أديباً شاعراً مُحَسِنًا .

وكانت له رحلة إلى المشرق في أيام الأمير عبد الرحمن بن الحكم ، حَجَّ فيها ولَقِيَ عِلِيَّةَ أهلِ الحديث ، فَكَتَبَ عَنْهُمْ ، وَقَدِمَ إلى الأندلس بعلمٍ كثير ، فَذَهَبَ إلى نُشْرِهِ^(٥) ، فكان يَتَحَلَّقُ في المسجد الجامعِ بقرطبة ، وهو يَلْبَسُ الوَشْيَ الهِشَامِيَّ^(٦) (٣٤٨) وما شاكله ، فتكاثَرَ النَّاسُ عليه ، فَكَرِهَ ذلك الأميرُ عبدُ الرحمن ، وأَوْصَى إليه بِتَرْكِ التَّحَلُّقِ ، وقال له : إنك جَدُّ كِسْرِ^(٧) من قُرَيْشٍ ومِنَّا بحيث تَعَلَّمَهُ ، ولا يَصْلُحُ هذا الأَمْرُ بِكَ^(٨) فَدَعَهُ ! فَتَرَكَ ذلك .

قال :

وَجَرَتْ لِذَحُونٍ فِي سَفَرَتِهِ مَعَ وَالِي بَنِي العَبَّاسِ بِدِمَشْقَ - بَيْتِ سَلْفِهِ - قِصَّةٌ طَرِيفَةٌ

= التالى في كتاب المغرب لابن سعيد (١ / ١٤٦ - ١٤٧) في معرض الكلام عن القاضي مسرور بن محمد : « وخطب في الاستسقاء ، فقال : يا أيوب البلوطى ، عزمت عليك حيث كنت لتقومن . فلم يقم إليه بعد أن أقسم عليه في الثالثة ، وقال : يا هذا . أشهرتني ! أما كنت أدعو حيث أنا ؟ ثم رفع القاضي رأسه فقال : اللهم إنا نستشفع إليك بوليك هذا . وألح بالدعاء وكثر الضجيج والبكاء . فلم ينصرفوا إلا وأحذيتهم في أيديهم من كثرة المطر . وطلب أيوب بعد ذلك فلم يوجد . وابن سعيد ينقل هذا الخبر عن ابن عبد البر . أما ما ورد هنا فلسنا نعرف عن نقله ابن حيان ، ونحن نرى بعض الخلاف في التفاصيل بينه وبين نص ابن سعيد . وهذا هو ما يشير إليه ابن حيان بقوله : « على اختلاف الرواة في تاريخ عامه واسم الإمام المستسقى » .

- | | |
|-----------------------------|--|
| (١) زيادة يقتضيا السياق . | (٢) ص : لب . |
| (٣) ص : الحسن . | (٤) ص : فنس ، بلا إعجام . |
| (٥) ص : نثرة . | (٦) في نفع الطيب للمقرئ (٣ / ٢٥٩) : الشامى |
| (٧) كذا في الأصل . | (٨) ص : إلاموتك . |

حكاهما إسحاق بن سلمة (٣٤٩) عن ابنته وكليه عبدة بنت بشر بن دحون (٣٥٠) عن أبيها بشر (٣٥١) قال :

دَخَلَ أَبِي دَحُونُ إِلَى مَدِينَةِ دِمَشْقَ - وَطَنِهِمْ [الْأَقْدَمِ] (١) - فِي رِحْلَتِهِ إِلَى الْمَشْرِقِ ، وَعَامِلُهَا يَوْمَئِذٍ لِأَبِي إِسْحَاقَ الْمُعْتَصِمِ عُمَرُ بْنُ قَرَجِ الرُّخَجِيِّ مَوْلَى بَنِي الْعَبَّاسِ (٣٥٢) ، فَاتَّفَقَ أَنْ وَافَقَ كَوْنَهُ بِهَا أَيَّامَ غَلَاةٍ نَزَلَ بِأَهْلِهَا [وَارْتِفَاعُ] سَعْرِ [ضَجُّوا مِنْهُ ، فَأَخَذَ] الرُّخَجِيُّ بِضَبْطِهِمْ : بِأَنْ أَمَرَ بِإِزْعَاجِ مَنْ عِنْدَهُمْ [مِنَ الطَّارِئِينَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ] الْبِلَادِ وَالْغُرَبَاءِ . [وَجَعَلَ] عَلَى كُلِّ مَنْ أَخَذَ مِنْ أَبْنَاءِ السَّبِيلِ [بَعْدَ انْقِضَاءِ الْأَجَلِ الَّذِي ضَرَبَهُ لَهُمْ أَنْ يَحِلَّ] بِهِ أَشَدُّ الْعِقَابِ [(٢)] .

[فَابْتَدَرَ الْغُرَبَاءُ الْخُرُوجَ عَنْهَا ، وَأَقَامَ دَحُونُ لَمْ يَتَحَرَّكَ ، فَجِيءَ بِهِ إِلَى الرُّخَجِيِّ بَعْدَ الْأَجَلِ ، فَقَالَ لَهُ :

- مَا بِأَلَيْكَ عَصَيْتَ أَمْرِي ؟ أَوْ مَا سَمِعْتَ نِدَائِي ؟

فَقَالَ لَهُ دَحُونُ : [(٣)]

[٢١٤]

/ - ذَلِكَ قُدْرَ لَأَنِّي ابْنُ بَجْدَتِيهَا ! وَانْتَمَى لَهُ .

قَالَ الرُّخَجِيُّ :

- صَدَقْتَ وَاللَّهِ ! مَا أَنْتَ فِيهَا بِغَرِيبٍ ، وَإِنَّكَ لِأَخَقُّ بِالْإِقَامَةِ فِيهَا مِنَّا . فَأَقِمْ مَا أَحْبَبْتَ وَانصِرْفَ إِذَا شِئْتَ .

وَذَكَرَ إِسْحَاقُ بْنُ سَلْمَةَ عَنْ أَحْمَدَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْحَبِيبِيِّ عَنْ جَدِّهِ قَالَ :

(١) إضافة عن المقرئ : نفع الطيب ٣ / ٢٥٩ .

(٢) أكلنا النص بالمعنى معتدين على ما ورد في الموضع المشار إليه في ذلك من النفع ومع مراعاة ما بقى من النص خلال القطوع والفجوات .

(٣) عن نفع الطيب للمقرئ .

لما حجَّ حبيبٌ دَحُونُ اجتمع بمكة مع ابن عمه محمد بن يزيد بن مسلمة ، وكان
مُعَلِّمًا ببلده بالشام بحالٍ حَسَنَةٍ ، فَوَهَبَ له محمد جاريةً تُسَمَّى عابِدةَ (٣٥٥) ، وكانت
سَوَدَاءَ (١) حَالِكَةً من رَقِيقِ المدينة ، وكانت تَرَوِي عن مالك بن أنسٍ وغيره من العلماء
شُيُوخِها ، فتُسَنَدُ عَشْرَةَ آلافِ حَدِيثٍ عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فقَدِمَ بها دَحُونُ إلى
الأندلس ، وهو قد أُعْجِبَ بِعِلْمِها وفَهْمِها ، فاتَّخَذَهَا لِفِرَاشِهِ ، فَوَلَدَتْ له بِشْرًا (٢) ابْنَهُ .

(١) ص : سردا .

(٢) ص : بشر .

الدَّاخلون إلى الأمير عبد الرحمن من قَوْمِهِ

وفي كتاب معاوية بن هشام الشَّيْنَسِيِّ :

من وُجوه من دَخَلَ إلى الأندلس من بني مروان أبو القاسم بَكَار⁽¹⁾ بن عبد الواحد⁽²⁾ بن داود بن سليمان بن عبد الملك بن مروان ، دخلها أيام الأمير عبد الرحمن بن الحكم ، ودَخَلَ معه ابنُ أخيه أبوسعيد مَسْلَمَةُ بن عبد الملك بن عبد الواحد بن داود بن سليمان بن عبد الملك (٣٥٦) فَكَّرَمَهُمَا الأميرُ عبد الرحمن وَرَحَّبَ بهما وأنزلهما وأحسن إليهما وأَقَطَهُمَا ، وأجرى لكل واحدٍ من الرزق بالمُشَاهَرَةِ ثلاثين ديناراً⁽³⁾ .

ودخل بعدهما من أهل بيتهما إلى الأمير عبد الرحمن أيضا سنة ست وثلاثين ومائتين سَلَمَةُ بن عبد الملك بن عبد الواحد بن داود بن سليمان ، فأجرأهُ مُجْرَأَهُمَا ، وقد [انقَرَضَ]⁽⁴⁾ الآن عَقِبُ سَلَمَةَ هذا .

قال :

ودخل الأندلس من هؤلاء الروائيَّة أيام الأمير عبد الرحمن بن الحكم أَصْبَغُ بن محمد بن هشام بن محمد بن سعيد الخير بن عبد الملك بن مروان ، فأنزله الأمير عبد الرحمن ، وكرمه وأقطعه ، فألقى عصاه بالأندلس وأنسل ، فَعُرِفَ وَلَدُهُ ببني السَّعِيدِيِّ ، وهم بإسبيلية^(٣٥٧) .

(1) في الأصل : أبو القاسم بن بكار ، وواضح أن لفظ « ابن » زائد لا محل له .

(2) ص : عبد الرحمن ، وهو تحريف .

(3) ص : دينار .

(4) كلمة مطبوسة في الأصل تدل بقايا حروفها على أنها كما أثبتنا .

[ما قيل في رثاء الأمير عبد الرحمن بن الحكم]⁽¹⁾

وَوَجَدْتُ بِخَطِّ أَبِي بَكْرٍ [عُبَادَةَ]⁽²⁾ الشاعر لِيَطَاهِرِ بْنِ حَزْمٍ (٣٥٨) الشاعر من قصيدة
يرثي بها الأمير عبد الرحمن [وَيُهْنِي]⁽²⁾ الأمير محمداً ابنة بالخلافة : [من الطويل]

[٢١٤ ب]

- / سَقَى⁽³⁾ اللَّهُ قَبْرًا بِالنَّخِيلِ غَمَامَةً
تَكَادُ إِذَا حُلَّتْ عُرَاهَا تَفْطُرُ
رَأَى اللَّهُ إِذْ وَلَّى الْأَمِيرَ مُحَمَّدًا
لَكُمْ عِصْمَةً يَأْيُهَا النَّاسُ فَاشْكُرُوا
فَمَا نَطَقَ الْأَقْوَامُ فِيهِ قَنَاعَةً
وَهُمْ فِي أَبِي بَكْرٍ - لَعَمْرِي - كَثُرُوا
تَبَسَّمَتِ⁽⁴⁾ الدُّنْيَا إِلَيْهِ وَأَقْبَلَتْ
إِلَيْهِ قُلُوبُ النَّاسِ لَا تَتَأَخَّرُ

وخرج إلى مديح فأطال .

ولعبد الله بن بكرٍ المُنْبِزِ بِالنُّذْلِ⁽⁵⁾ (٣٥٩) في ذلك : [من المتقارب]

أَلَا إِنَّ فِي الدَّهْرِ لِلْمُبْصِرِينَ عَجَائِبُ تَبْهَرُ⁽⁶⁾ أَنْظَارَهَا
تَسُورُ الْمَنَائِبَا فَمَا مِنْ عَزِيزٍ يُدَافِعُ بِالْعِزِّ تَسْوَارَهَا !
وَكَانَ بِالْأَمِيرِ سِرَاجَ الْعُلَا يَسُوسُ الْبِلَادَ وَأَقْطَارَهَا
عَلَى حِينٍ أَحْكَمَ رَيْبَ الدُّهُورِ - وَعُرِفَ⁽⁷⁾ الْأُمُورِ وَإِنْكَارَهَا

(1) أضفنا هذا العنوان للملائمة للسياق .

(2) كلنتان مطبوعتان في الأصل ، لا تظهر منهما إلا بقايا حروف .

(3) ذهب قى قطوع آخر الصفحة السابقة بيتان أو ثلاثة أبيات مما اختاره ابن حيان من قصيدة طاهر بن حزم .

(4) ص : تسمت ، ولا يستقيم بها الوزن ولا المعنى ، وهي بغير شك تحريف عما أثبتنا .

(5) المسر بالبدل ، بلا إصجاب . (6) رهس .

(7) ص : وعون ، وهي تحتمل أن يكون القسم هكذا « وعون الأمور وأبكارها والعون جمع عوان ، والأبكار

جمع بكر ، ويكون المقصود المعتاد المسألوف من الأمور والحادث الطارئ الذي لا سابقة له .

أَتَتْهُ مَنِيَّتُهُ بَغْتَةً وَقَدْ كَانَ فِي الْأَرْضِ جِبَارَهَا
فَوَسَّدَ بَعْدَ وَثِيرِ الْحَشَايَا خِلَالَ الْمَقَابِرِ أَحْجَارَهَا
وَحَلَّاهُ أَنْصَارُهُ مُفْرَدًا وَقَدْ كَانَ بِالْأَمْسِ أَنْصَارَهَا
فَلِلَّهِ مَا اسْتَوْدَعَتْ فِي النَّخِيلِ أَكْفُ الرُّجَالِ وَمَنْ زَارَهَا

وَمِمَّا يُسْتَلْحَقُّ

فِي بَابِ الْوَفَاءِ فَوْقَ هَذَا

فِي ذِكْرِ عَيْسَى بْنِ دِينَسَارٍ (٣٦٠) :

قال محمد بن حارث :

رحل عيسى فأدرك أصحاب مالك متوافرين ، فسمع ن ابن القاسم كبيرهم ، واقتصر عليه ، فاعتلت في الفقه طبقتة ، وكان من أهل الزهد الياس ، والدِّينِ الكاملِ ، مع قوته في التفقه لمالك وأصحابه ، فلقد كان ابن وضاح يقول : هو الذي علم أهل الأندلس الفقه . توفي سنة اثنى عشرة ومائتين (1) .

[وفي ذكر حارث بن أبي سعد] (2) :

وتوفي الفقيه أبو عمر حارث بن أبي سعد (3) سابق مولى (4) الأمير عبد الرحمن (٣٦١) ، رحل فسمع من ابن كنانة ، وولاه الأمير الحكم بن هشام الشرطة الصغرى ، فكان أول من وليها ، وأقره الأمير عبد الرحمن عليها . توفي سنة إحدى وعشرين ومائتين .

(1) ص : إحدى وعشرين ومائتين ، وهو بغير شك سهو من الناسخ ، ولعله خلط بين هذه السنة وسنة وفاة حارث ابن أبي سعيد المذكور في الفقرة التالية ، فن المعروف أن عيسى بن دينار توفي سنة ٢١٢ ، وقد ذكره ابن حبان من قبل في حديثه عن وفيات تلك السنة ، وما كان ابن حبان ليفوته مثل ذلك .

(2) أضفنا هذا العنوان لأن السياق يقتضيه .

(3) ص : أبو عمرو حارث بن أبي سعيد ، وقد أصلحناه بما هو معروف من إسم هذا الفقيه وكنيته .

(4) ص : مولى .

وفي ذكر الشيخ يحيى بن يحيى⁽¹⁾ (٣٦٢) :

أنه [رَحَلَّ رَحْلًا] تَيْنِ [من الأندلس : سَمِعَ في الأولى من مالك بن أنس والليث
ابن سعد] ومن ابن وهب وغيرهم ، واقتصر [في الثانية على عبد الرحمن بن القاسم] ،
وبه تفقة ، [وإليه انتهت الرياسة في العلم بالأندلس على عهد الأمير عبد الرحمن]
[٢١٥] / ابن الحكم ، وتوفى في أيامه من غير تحديد لتاريخه .

(1) استمنا في استكمال هذا للنص الذي عدت عليه فطوح آخر الورقة بترجمة يحيى بن يحيى الليثي في الديباج المذهب لابن
لرحسون ص ٣٥٠ ، فضلا عما بقى من حروفه .

التعليقات

(١) هو موسى بن موسى بن فرتون بن قسى أشهر أفراد هذه الأسرة المعروفة باسم بن قسى التي ملكت الثغر الأعلى (سرقسطه وما حولها) منذ القرن الثاني الهجري حتى أوائل القرن الرابع . وقد كان جده الأعلى « قسى » قومى (كونت) الثغر الأعلى في أواخر أيام القوطيين ، فلما افتتح المسلمون الأندلس لحق بالشام ، وأسلم على يدى الوليد بن عبد الملك وانتمى إلى ولاته . وتعاقد بنو قسى على رياسة الثغر الأعلى ، فكان مطرف بن موسى بن فرتون بن قسى (أخو موسى المذكور) هو آخر الولاة المسلمين على بنبلونة ، إذ ثار به أهلها وقتلوه في سنة ١٨٣ هـ / ٧٩٨ م . أما موسى فقد ظل على الطاعة للأمير عبد الرحمن الأوسط بن الحكم متولياً له تطيلة ، وأرنيط ، بينما كان ابنه لب بن موسى عاملاً كذلك على برجة ، وذلك حتى سنة ٨٤١/٢٢٦ حينما ولي الأمير عبد الرحمن عبد الله بن كليب بن ثعلبة على سرقسطه وأخاه عامر بن كليب على تطيلة ، فتمرض هذان بالإيذاء لموسى ، وأغاروا على أمواله وضياعه ، كما شتموا بالأذى أموال ونقه بن ونقه ، أمير بنبلونة النصارى ، وهو أخو موسى بن موسى لأمه ، فكان ذلك سبب انقباض موسى عن الطاعة . وفي سنة ٨٤٢/٢٢٧ خرج المطرف ابن الأمير عبد الرحمن بن الحكم بالصائفة إلى بنبلونة ، فتخلف موسى عن الخروج معه ، وندب لذلك ابنه فرتون بدلا منه ، فكان تقاعد موسى بما أغضب المطرف ، فلما قفلت الصائفة ولي حارث بن بزيع سرقسطه ، فكشف وجهه بالعداء لموسى وتولى محاربهه ، ولكن هذا تمكن من أسره في موضع على نهر إبرة يعرف باسم بلمة Palma . وفي سنة ٨٤٣/٢٢٨ غزا عبد الرحمن ابن الحكم الثغر الأعلى بنفسه ، وتوجه لمهاجمة موسى بن موسى وحلفائه النصارى من أهل بنبلونة وجليقية وألبه وشرطانية ، فسارع موسى إلى الإعلان بالطاعة ، وانعقد له الأمان على أن يسجل له على ولاية أرنيط ، وأطلق موسى في نظير ذلك حارث بن بزيع من أسره . وفي سنة ٨٤٤/٢٢٩ عاد موسى إلى خلع الطاعة ، فخرج إليه الأمير عبد الرحمن وحاربه وحاصره ، وحينئذ طلب الأمان من جديد ، فانعقد له في السنة التالية ، غير أنه عاد إلى الخلاف مرة أخرى في سنة ٨٤٧/٢٣٢ ، فأخرج إليه الأمير صائفة أرغمة على الإذعان . وولاه الأمير مدينة تطيلة سنة ٨٤٩/٢٣٥ ، غير أنه عاد إلى العصيان في آخر هذه السنة ، وعاث في أحواز تطيلة وطرسونة وبرجة ، فأخرج إليه عبد الرحمن القائد عباس بن الوليد الطليل ، فعاد موسى إلى الطاعة ، وسلم ابنه اسماعيل رهينة ، وقبل منه الأمير عبد الرحمن ، وعقد الأمان له ولأخيه لأمه جرسية بن ونقه صاحب بنبلونة وفي سنة ٨٥١/٢٣٧ - ٨٥٢ اشترك موسى في وقعة البيضاء المجاورة لمدينة بقرية من بلد بنبلونة حيث دار قتال عنيف بين المسلمين والبيزنطيين ، وكان له في هذه المعركة بلاء حسن جعل الأمير عبد الرحمن يوليه في السنة التالية على سرقسطه مضافة إلى أعماله ، واستقامت طاعته حينما ولي الإمارة محمد بن عبد الرحمن على أثر وفاة والده عبد الرحمن الأوسط ، ففي سنة ٨٥٦/٢٤١ كتب الأمير إليه بمحشد أهل الثغور والدخول بهم إلى ألبه والقلاع ، فاضطلع بهذه الغزوة وفتح كثيراً من حصون العدو . وفي السنة التالية (٨٥٧/٢٤٢) عهد إليه الأمير محمد بغزو برشلونة ، فافتتح في غزوته هذه حصن طراجة من آخر أحواز برشلونة . ومن أخماس غنيمته هناك زيدات الزوائد في المسجد الجامع بسرقسطه . وفي سنة ٨٦٠/٢٤٦ غزا الأمير محمد بالصائفة إلى جرسية بن ونقه صاحب بنبلونة وأوقع به ، ويبدو أن موسى بن موسى قد ضجر لذلك وأبدى امتعاضه ، فكتب إلى الأمير يذكر ما ناله ونال أهل بلده من النصب لمروور الغزوات المتوجهة إلى جليقية على بلده ، ويسأل أن يكون دخول

المسكر على غير ناحيته ، فأسمعه الأمير بذلك ، ولو أنه تأذى به ورأى فيه بوادر عصيان جديد يوشك موسى بن موسى أن يعلنه ، ويظهر أن الأمير محمداً أراد أن يعزله عن الثغر ، وحينئذ جاهر موسى بالخلاف ، بل إنه حاول أن يمد نفوذه على ثغر طليطلة ونواحيه ، فسمي في عقد مصاهرة بينه وبين صاحب وادي الحجارة إزراق بن منتيل بن سالم ، إذ زوجه بابنته ، وكان إزراق من أهل بيت عرفوا بالولاء والإخلاص لإمراء بني أمية ، فأزعج ذلك الأمير ، وحاول أن يفسد هذا الصهر ، فلم يتم له ، غير أنه حدث بعد ذلك بين موسى بن موسى وزوج ابنته إزراق ما أدى إلى اشتعال الحرب بينهما ، فأغار موسى على وادي الحجارة ، ولكن إزراق خرج إليه فأصابه بجراح أدت إلى وفاة موسى في تطيلة بعد ذلك بقليل في سنة ٨٦٢/٢٤٨ . وخلفه على ملك الثغر ابنه قرتسون .

عن موسى بن موسى انظر ما سيورده ابن حبان في هذا الجزء ، وفيه أخبار كثيرة لم تكن معروفة من قبل ، وابن عذارى : البيان المغرب (بتحقيق كولان وليق بروفسال) ٨٧/٢ ، ٩٥ - ٩٧ ؛ جغرافية العذرى ص ٢٩ - ٣٠ ؛ ابن حزم : جهرة الأنساب ، الطبعة الثانية ص ٥٠٢ - ٥٠٣ (حيث يورد جدول نسب كامل لبني قسي) ؛ ابن القوطية : تاريخ ص ٦٣ ، ٩٨ - ١٠٠ ؛ ابن خلدون : العبر (ط . بيروت) ٢٨٠/٤ - ٢٨١ ، ٢٨٣ - ٢٨٤ ؛ ابن الأثير : الكامل ٢٦٧/٥ - ٢٦٩ ، ٢٧٩ ؛ النويري : نهاية الأرب (نشر جاسبار ريمرو) ص ٢٠٠ - ٢٠١ ، ٢٠٣ ؛ ابن سعيد : المغرب ٣٦/١ ، ٤٩ ؛ المقرئ : نفع الطيب ٣٢٣/١ ؛ ليق بروفسال : تاريخ أسبانيا الإسلامية ٢١٤/١ - ٢١٨ ، ٣١٢ - ٣١٦ ، وانظر في هذا المرجع الأخير جدول نسب القسويين في الورقة المقابلة لصفحة ٣٨٨ ، وقد اعتمد فيها على ما أورده ابن حزم بصفة خاصة .

(٢) عبد الله بن كليب بن ثعلبة بن عبيد الجذامى ، وهو من أسرة ذات رئاسة ونباهة منذ فجر الإسلام في الأندلس كما أشار إلى ذلك ابن حزم في البهجة (ص ٢٩٥) . وجده ثعلبة بن عبيد كان من وجوه أهل فلسطين (أى ساكنى ثلوثة وإنجزيرة الخضراء) وإن لم يكن من كبار قوادهم ، وكان له دور بارز في تأييد عبد الرحمن بن معاوية الداخل ، وارتفعت مكانته لديه ، إذ عهد إليه بعدة مهام عسكرية كبرى مثل محاصرة سرقسطة عند ثورة سليمان بن يقطان الأعرابي والחסين ابن يحيى الأنصارى بها سنة ١٦٤-٧٨١ ، وتوفى على ما يظهر في أيام هشام بن عبد الرحمن (انظر أخبار مجموعة ص ٩١ ، ١١٢ - ١١٣ ؛ ابن القوطية : تاريخ ، ص ٦ ، ٣٠ ، ٤١ ؛ العذرى : جغرافية ص ٢٥ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، مخطوط الإسكوريال رقم ١٦٧٣ ، ص ٢٤١) . واشتهر بعد ذلك من أفراد هذا البيت عبد الله بن كليب بن ثعلبة المذكور وإخوته عامر وعبد الملك وعبد الرحمن . وتولى الأولان القيادة لعبد الرحمن الأوسط ، فاستصل عبد الله بن كليب على سرقسطة ، وعامر على تطيلة في سنة ٨٤١/٢٢٦ ؛ وكانت عداوتهما لبيت موسى بن موسى القسوى سببا في انقباض هذا عن الطاعة وعزل الأمير إياه ، وفي سنة ٨٤٢/٢٢٧ عزل عبد الله بن كليب عن سرقسطة ، ويبدو أنه انتقل إلى تطيلة بعد ذلك (العذرى : جغرافية ص ٢٩ - ٣٠) ، وفي سنة ٢٣٠-٨٤٥ كان عبد الله من بين القواد الذين عهد إليهم بقتال الهوس (النورمانيين) حينما حلوا بإشبيلية (ابن عذارى : بيان ٨٧/٢ ، العذرى : جغرافية ص ١٠٠) . وذكر ابن الأثير أن عامر بن كليب ولي على طليطلة ثم صرف عنها بأخيه عبد الله (الحلة : السراء ، نشر دوزى ص ٨٨) ونشر الدكتور حسين مؤنس ، ١٦١/١ ، وربما كانت طليطلة هنا تحريفا عن « تطيلة » (أما الأخ الثالث محمد بن كليب فإن ابن حبان نفعه سيذكره في عداد وزراء عبد الرحمن بن الحكم قائلا إنه كان على الشرطة قبل تولية الوزارة ، بل إنه ولي هذه

(٤) لسنا نعرف الكثير عن القائد محمد بن يحيى بن خالد هذا ، وجل ما وصلنا عنه هو ما جاء في كتاب المقتبس نفسه لابن حيان ، فقد ذكر أنه كان من قواد الحملة التي رأسها عبيد الله بن عبد الله البلسي صاحب الصوائف إلى بنبلونة سنة ٨٤٢/٢٢٧ ، وأنه كان قائد الحملة الموجهة لعقاب موسى بن موسى القسوي في سنة ٨٤٤/٢٢٩ ، وإن كان ابن حيان يسميه « محمد بن يحيى الوزير » فقط (انظر « نصوص جديدة من كتاب المقتبس » بقلم ليني بروفنسال وغرسيه غومس ، مجلة « الأندلس » ، سنة ١٩٥٤ ، ص ٢٩٦ ، ٣٠٢) . وسيذكر ابن حيان بعد قليل في أخبار سنة ٢٣٤ أن صائفة هذه السنة كانت بقيادة عبد الواحد الإسكندراني مضيفا إلى ذلك : « ودبر الوزير يحيى بن خالد » ، ولا ندرى ما إذا كان يحيى بن خالد المذكور هنا هو والد محمد بن يحيى القائد المشار إليه أو شخصا آخر . وقد ورد اسم « يحيى بن خالد » أيضا في « البيان المغرب » لابن عذارى (٩٠/٢) ، وجاء في هذا النص أنه كان واليا على الثغر الأعلى في سنة ٢٣٧ حينما قام بتأحيته رجل ادعى النبوة ، وعلى كل حال فقد يكون يحيى بن خالد وابنه محمد - إذا صح أنه ابنه - من نسل عبيد الله ابن خالد الذي كان أحد القائمين بدعوة عبد الرحمن الداخل عند جوازه من المشرق إلى الأندلس .

(٥) عن بنبلونة Pamplona عاصمة ولاية نبرة Navarra (التي كانت من ممالك إسبانيا النصرانية على عهد المسلمين) انظر ابن عبد المنعم الحميري : الروض المعطار ص ٥٥ - ٥٦ من النص العربي و ٧٠ من الترجمة الفرنسية ، وكذلك مقال ليني بروفنسال في دائرة المعارف الإسلامية (تحت مادة Pampelune) ١٠٩١/٣ ، والمراجع الواردة في هذين المصدرين .

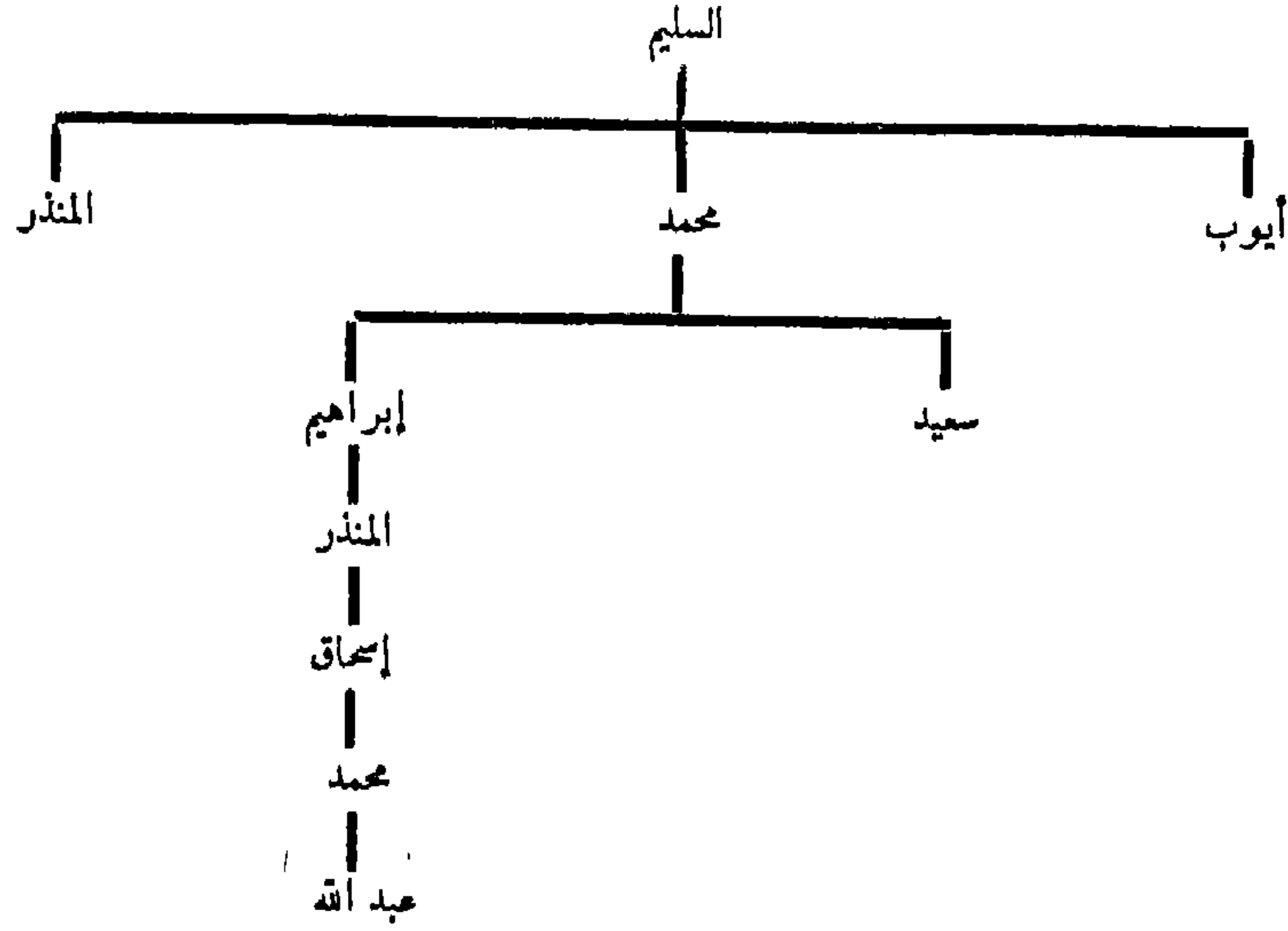
(٦) كان حارث بن بزيع المذكور من كبار قواد عبد الرحمن الأوسط بن الحكم . وقد تحدث صاحب « أخبار مجموعة » بالتفصيل عن أولية أبيه بزيع وصلته بعبد الرحمن بن معاوية الداخل (انظر ص ١٠٩) ، فقال إنه لما قام حيوة ابن الملامس بالثورة في إشبيلية على الأمير عبد الرحمن ، وثار معه عبد الغافر اليحصبي ودارت الهزيمة على هذين في سنة ١٥٤ قام عبد الرحمن بشراء عدد من العبيد من حسن بلاوهم في المعركة ، وكان من بينهم بزيع والد حارث بن بزيع هذا ، ويبدو أنه عهد إليه ببعض مناصب القيادة بعد ذلك . أما حارث فقد ظهر أمره في أيام عبد الرحمن الأوسط بن الحكم ، فقد عهد إليه الأمير بقيادة الجيش الذي توجه من قرطبة إلى الثغر الأعلى حينما أعلن موسى بن موسى بالعصيان في سنة ٨٤٢/٢٢٧ ، فالتقى به في برجه ، وظهر حارث على موسى ، ثم فتح برجة وأسر فيها لب بن موسى ، وحاصر تطيلة بعد ذلك حتى أخرج عنها موسى بن موسى ، ثم انصرف حارث إلى سرقسطة مقر ولايته . وكان يخرج بعد ذلك إلى أرنيط المرة بعد المرة لكي يرهق موسى بن موسى ، غير أن هذا تمكن أخيراً من نصب كمين له في موضع « بلمة » على نهر إيره ، فأوقع به هناك وأسر ، وأقام حارث أسيراً لديه مدة تسعة أشهر . فغزا الأمير عبد الرحمن إلى بنبلونة في نفس السنة لكي يقتص من فعل موسى بقائه حارث ، وفي السنة التالية (٨٤٣/٢٢٨) وجه إلى موسى غزوة أخرى ، فصالحه هذا وأطلق سراح حارث بن بزيع . ولا نعرف بعد ذلك عن هذا القائد إلا ما يذكره ابن حيان هنا من ولايته على طليطلة وعزله عنها في نفس هذه السنة (٨٤٧/٢٣٢) ثم ما يذكره ابن عذارى من أنه كان في سنة ٨٥٦/٢٤١ عاملاً للأمير محمد على قلعة رباح وطلبيرة . هذا ويذكر ليني بروفنسال في تاريخه أنه كان من قبل في سنة ٨٣٠/٢١٥ والياً على ماردة وأنه كان يتولى « دار الفراز » بقرطبة . (عن حارث ابن بزيع انظر مقال ليني بروفنسال وغرسيه غومس : نصوص جديدة من كتاب المقتبس ، ص ٢٩٨ ، العذري : جغرافية

ص ٣٠ ؛ ابن عذارى : البيان ٢/٩٥ ؛ ابن الأثير : الكامل ٥/٢٦٨ - ٢٦٩ ؛ النويرى : نهاية الأرب ص ٢٠٠-٢٠١
لبنى بروفنسال : تاريخ ١/٢٠٨ ، ٢١٦ ، ٢٥٧ ، ٢٩٢) .

(٧) محمد بن السليم بن أبي عكرمة جعفر بن يزيد بن عبد الله مولى سليمان بن عبد الملك ، وكان أول من عرف من هذا البيت هو جده أبا عكرمة جعفر بن يزيد الذي عقد بقناته لواء عبد الرحمن بن معاوية الداخل قبل موقعة المصارة التي دارت بينه وبين يوسف بن عبد الرحمن الفهري (انظر ابن القوطية : تاريخ ص ٢٦) ، وأما محمد بن السليم هذا هو وأخوه أيوب ابن السليم فقد كانا من كبار قواد عبد الرحمن الأوسط . وسيذكر ابن حيان محمد بن السليم في عداد وزراء هذا الأمير قائلا إنه كانت له مع الوزارة خطط يرتزق عليها في كل شهر ثلاثمائة دينار . وولى محمد بن السليم المدينة في أيام عبد الرحمن الأوسط على ما يفهم من نص للخشي (كتاب القضاة ص ٩٠) . وقد استقر بنو السليم على ما يظهر في كورة شذونة ، وإلى محمد المذكور هنا تنسب «مدينة ابن السليم» التي يذكر ابن عبد المنعم الحميري أنها هي نفسها «مدينة شذونة medina sidonia

(الروض المعطار ص ١٦٢ - ١٦٣ ، والترجمة الفرنسية ص ١٩٥ . وقد ظن لبنى بروفنسال في مقال عن هذه المدينة في دائرة المعارف الإسلامية ٣/٥٠٠ أن «مدينة ابن السليم» هي التي تسمى الآن Grazalema في ولاية قادس Gadiz ، على أنه عدل عن هذا الرأي بعد اطلاعه على نص الروض المشار إليه قبل ذلك) . كذلك ذكر الإدريسي هذه المدينة في «نزهة المشتاق» (النص العربي ص ١٧٧ والترجمة الفرنسية ص ٢١٥) . واشتهر من بني السليم بعد ذلك نفر من الرجال ، بينهم سعيد بن محمد بن السليم الذي ولي الحجابة للأمير عبد الله بن محمد بعد أن كان واليا على السوق ثم وزيراً وتوفي سنة ٣٠٢ (ابن حيان : المقتبس ، نشر أنطونيا ص ٤ ، ٥ ، ٥٣ ؛ ابن عذارى : البيان ٢/١٥١ ، ١٦٧ ؛ ابن القوطية : تاريخ ص ١٠٦) ؛ وسعيد بن المنذر بن السليم الذي كان من قواد عبد الرحمن الناصر (ابن القوطية : تاريخ ص ١١٥) ومنذر بن إبراهيم بن محمد بن السليم الثائر في المدينة المنسوبة إليهم من كورة شذونة في أيام الأمير عبد الله ابن محمد (انظر ابن حيان : المقتبس ، نشر أنطونيا ص ٢٣ - ٢٤ ؛ ابن عذارى : البيان ٢/١٣٥ ؛ لبنى بروفنسال : تاريخ ١/٣٤٢) ؛ وأخيراً حفيد هذا المذكور : محمد بن إسحاق بن منذر بن إبراهيم الذي ولي قضاء الجماعة في قرطبة وتوفي سنة ٣٦٧ (أنظر في ترجمته ابن الفرضي : تاريخ ، رقم ١٣١٧ ؛ الحميدى : جذوة المقتبس ، رقم ٢١ ؛ الخشي : كتاب القضاة ص ٢٠٧ ؛ القاضي عياض : ترتيب المدارك ٤/٥٤١ - ٥٤٩ ؛ النباهي : المرقبة العليا ص ٧٥ - ٧٧ ؛ ابن فرحون : الديباج المذهب ، ص ٢٦٠ - ٢٦٢) ؛ ثم ابنه عبد الله بن محمد بن إسحاق الذي توفي سنة ٤٠٢ (ابن بشكوال الصلة ، رقم ٥٦٥) . وفيما يلي جدول بنسب من عثرنا عليهم من بني السليم :

جعفر بن محمد بن عبد الله



(٨) ابن حيان هو المؤرخ العربي الوحيد الذي فصل لنا هذه الأحداث التي نجد لها صدى في المدونات المسيحية القديمة وإن لم تكن على ما نرى لدى ابن حيان من الضبط والدقة . أما غليالم بن برنات بن غليالم المذكور هنا فلا بد أن يكون القومس (الكونت) Guillaume (أو Guillen) بن Bernard بن Guillaume نبيل فرنسي ، كان جده رسميه غليالم هو الذي يحمل لقب « دوق تولوز Duc de toulouse » ، ويعرفه الأدب الملحمي الفرنسي في العصور الوسطى باسم « غليالم ذي الأنف القصير Guillaume au-Court Nez » وكان قائداً لحامية أربونة Narbonne حينما اشتبك في معركة عنيفة مع القائد الأندلسي عبد الملك بن مغيث في صيف سنة ١٧٧/٧٩٣ في أيام الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل ، وقد انتهت هذه المعركة بهزيمة ساحقة للجيش الفرنسي الذي كان يقوده غليالم المذكور (انظر ليني بروفنسال : تاريخ ١/١٤٥ - ١٤٦ . والمراجع المذكورة) . أما ابنه برنات بن غليالم فنحن نعرف من أخباره أنه خلف أباه على إمارة هذا الجزء من جنوب فرنسا وأن الملك الفرنسي لدويق بن قارله (المعروف بلويس الورع) عهد إليه بالدفاع عن برشلونة Barcelona حينما حاصرتها جيوش قرطبة بقيادة عبيد الله بن عبد الله البلنسي سنة ١٩٧/٨١٣ (ليني بروفنسال : نفس المرجع ١/٢١١) . وأما غليالم بن برنات المذكور في نص ابن حيان وحفيد غليالم الأكبر فقد أعلن العصيان على ملك الإفرنج (فرنسا) ، وتحالف مع أمير قرطبة عبد الرحمن الأوسط كما يذكر ابن حيان هنا ، وكما أشار إلى ذلك بشكل عارض مبهم المؤرخ القرطبي المسيحي « سان إيولوجيو San Eulogio » في كتابه اللاتيني « تاريخ القديسين Memoriale sanctorum » ، إذ ذكر أن الأمير عبد الرحمن بن الحكم وعد غليالم هذا بأن يمينه ويمده لو أنه ثار على ملك فرنسا (انظر ليني بروفنسال : تاريخ ١/٢١٢ ، حاشية رقم ١) . وقد كان الخبر الذي أورده إيولوجيو القرطبي موضعاً لتشكك الباحثين الأوربيين المحدثين ، ولكن نص ابن حيان الذي بين أيدينا يؤكد بصفة قاطعة فضلاً عن أنه يزيدنا بيانا وتفصيلا حول علاقات عبد الرحمن بن الحكم بالقومس الإفرنجي ، بل ويضيف إليه ما يذكر من سفارته إلى قرطبة ومحالته للأمير الأندلسي ، هذا ولو أن ابن حيان قد أخطأ في اسم الملك الإفرنجي الذي ثار عليه غليالم كما سنرى بعد

ومن الغريب بهذه المنجبة أن ليني بروفنسال الذي اهتم ببيان علاقات قرطبة بمملكة الإفرنج (فرنسا) لم يشر إلى هذه الأحداث وإن كان قد نبه إلى ما ذكره المؤرخ المسيحي إيولوخيو بهذا الصدد ، مع أنه اطلع على هذه القطعة من كتاب « المقتبس » . وسوف يورد ابن حيان مزيداً من أخبار غليالم المذكور هذا في سرده لأحداث سنة ٨٤٨/٢٣٤ - ٨٤٩ .

(٩) ذكرنا في الحاشية السابقة أن ابن حيان أخطأ في اسم ملك الفرنجة هذا ، فالواقع أن لدويق بن قارله بن بين (وهو المعروف باسم لدويق أو لويس الورع Ludovico-pio = Louisle Pieux ابن شارلمان charlemagne بن بين Pepin) كان قد توفى قبل هذه الأحداث بسنوات ، فقد ولي ملك بلاده ما بين سنتي ٨١٤ و ٨٤٠ م . (١٩٨ - ٢٢٥ هـ) ، وأعقبته وفاته ثلاث سنوات نشبت فيها الحرب الأهلية في أراضي الإمبراطورية الكارولنجية بين أبناء لويس الورع ، وأخيراً تولى العرش قارله (شارل المعروف بلقب الأصلح Lechauve Charles) رابع أبناء لويس الورع ، فحكم هذه البلاد ما بين سنتي ٨٤٣ و ٨٧٧ م . (٢٢٨ - ٢٦٤ هـ) . فحق الاسم إذن أن يكون « قارله بن لدويق ابن بين » . وربما لم يكن الأمر خطأ من ابن حيان الذي كان واسع الاطلاع على أحوال الممالك الأوربية المسيحية ، وإنما تقديماً وتأخيراً من النساخ ذوي المعرفة المحدودة بأسماء من يكتبون ، ولا سيما إذا كانت أسماء أجنبية غريبة .

(١٠) عن أيوب بن السليم راجع ما كتبناه من قبل عن بني السليم (حاشية رقم ٧) ، وسنرى بعد ذلك أن ولايته طليطلة لم تطل ، إذ عزل عنها في السنة التالية (٢٣٤) .

(١١) أشار ابن الأثير إلى هذه الغزوة التي سير عبد الرحمن على رأسها ولده المنذر ، وزادنا بيانا عنها ، إذ ذكر أنها توجهت إلى ألبه Alava (الكامل ٢٨٥/٥) .

(١٢) سيتحدث ابن حيان عن عبد الواحد بن يزيد الإسكندراني هذا بمزيد من التفصيل ، فن ذلك حديثه عن أوليته وصلته بالأمير عبد الرحمن ، إذ يقول إنه قدم إلى الأندلس حدثاً متظرفاً ، وكان يشدو شيئاً من الغناء ، فاتصل بالحاجب عيسى بن شهيد ، فلما رأى هذا منه نجابة وكفاية نصحه بأن يمسك عن الغناء ويكتفى بأدبه وفضله ، ففعل ، وأوصله الحاجب إلى الأمير عبد الرحمن ، فأعجب به وقربه ، ثم ولاء المدينة ، ورفاه بعد ذلك إلى الوزارة والقيادة (انظر كذلك ابن القوطية : تاريخ ص ٧٤ - ٧٥ ؛ وأخبار مجموعة ص ٨٥) . وفي سنة ٢٢١ أرسله عبد الرحمن إلى طليطلة حينما خالفت عليه ، ففتحها في تلك السنة ، وفي سنة ٨٤١/٢٢٦ وجه عبد الرحمن صائفة إلى جليقية وجعل على رأسها ابنه المطرف وأسند القيادة إلى عبد الواحد الإسكندراني (انظر ابن عذاري : بيان ٨٤/٢ ، ٨٦) . ويذكر العذري أنه أبل بعد ذلك في قتال الجوس (النورمانيين) عند نزولهم على سواحل إشبيلية في سنة ٨٤٤/٢٣٠ - ٨٤٥ (انظر جغرافية العذري ص ٩٩ ؛ ليني بروفنسال ٢٠٦/١ ، ٢١٢ ، ٢٢٣) . ونحن نعلم مما سيذكره ابن حيان أن عبد الواحد بن يزيد الإسكندراني توفى سنة ٢٣٧ عن نيف وثمانين سنة . وقد كان من نسله حفيد له تولى الوزارة والكتابة كان اسمه عبد الواحد بن محمد بن عبد الواحد ، وتوفى أيام عبد الرحمن الناصر سنة ٣٠٩ (ابن عذاري : بيان ١٨٢/٢) .

(١٣) عن جزيرتي ميورقة Mallorca ومنسورقة Menorca انظر المسادين الواردين في «الروض المعطار» (ص ١٨٥ ، ١٨٨ من النص و ٢٢٤ ، ٢٢٨ من الترجمة الفرنسية ، والمقال الذي كتبه عنهما المستشرق زايبولد Seybold في دائرة المعارف الإسلامية ١/٦٣٠ - ٦٣١ تحت مادة «جزر البليار Balears») والدراسة القيمة التي كتبها المستشرق الإسباني ألبرو كامبانير إى فورتس بعنوان (مخطط تاريخي لجزر البليار في ظل الحكم الإسلامي » ، ط . بالمسادي ميورقة سنة ١٨٨٨ .

(١٤) أشار ابن عذارى إلى هذه الأحداث في جزيرتي ميورقة ومنسورقة (بيان ٢/٨٩) ، ولو أنه أوجز كلام ابن حيان إيجازاً شديداً .

(١٥) عن برشلونة Barcelona في العصر الإسلامي وعلاقتها بالدولة الأندلسية انظر المقال الذي كتبه زايبولد في دائرة المعارف الإسلامية ١/٦٧٢ والمادة التي أفردها لها ابن عبد المنعم الحميري في الروض المعطار (ص ٤٢ من النص العربي و ٥٣ من الترجمة الفرنسية) .

(١٦) جرنندة Gerona هي عاصمة إحدى مقاطعات ولاية قطلونية Catalunya في الطرف الشمالي الشرقي من إسبانيا على مقربة من الحدود الفرنسية ، وهي تقع على بعد ١٠٠ كم إلى الشمال الشرقي من برشلونة (انظر النص الذي نقله ليلى بروفنسال عن البكري في ملاحق كتاب الروض المعطار لابن عبد المنعم الحميري ، ص ٢٤٦ ، ٢٤٨ من الترجمة الفرنسية) .

(١٧) هو عبيد الله بن يحيى بن خالد ، ويبدو أنه كان أخاً لمحمد بن يحيى بن خالد الذي ذكره ابن حيان من قبل ، وسيعود ابن حيان إلى ذكره في أخبار سنتي ٢٣٦ و ٢٣٧ ، كما سيذكره من بين وزراء الأمير عبد الرحمن بن الحكم . وقد كان على ما يذكر ابن حيان واليا على طرطوشة من أعمال الثغر الأعلى ، ويبدو أنه ظل واليا على الثغر كذلك في أيام الأمير محمد على ما يفهم من نص لابن عذارى في البيان في ذكر أحداث سنة ٢٤٧ (٢/٩٧) .

(١٨) تقع طرطوشة tortosa قرب مصب نهر إبره في البحر الأبيض المتوسط على مسافة تبلغ مائتي كيلو متر إلى الجنوب الشرقي من سرقسطة . انظر ما كتبه عن هذه المدينة ليلى بروفنسال في دائرة المعارف الإسلامية ٤/٨٥٦ - ٨٥٧ ، وانظر الروض المعطار ص ١٢٤ من النص العربي و ١٥١ من الترجمة الفرنسية .

(١٩) بيت بني بسيل من أكبر بيوتات الموالى الأمويين من أهل الشام ، وكان أول من دخل الأندلس منهم عبد السلام ابن بسيل الرومي المعروف بالشيخ ، كان بسيل أبوه مولى الشام بن عبد الملك على ما يذكر ابن الأبار أو لعبد الله بن معاوية على ما يذكر المقرئ (وواضح من الاسم : « بسيل » (Basilius) والنسبة : « الرومي » أنه كان من أصل بزنطي نصراني) . وكان دخول عبد السلام بن بسيل إلى الأندلس في أيام عبد الرحمن بن معاوية الداخل مع ابنه عبد الواحد

ويحيى ، فاستعمله عبد الرحمن على إشبيلية وشذونة ومورور والجزيرة الخضراء وماردة وغيرها ، وولاه الوزارة ، وتصرف ابنه يحيى في العمالات أيضا ، إذ ولي على جيان في أيام عبدالرحمن بن الحكم . أما محمد بن عبد السلام فقد تصرف أيام الحكم ابن هشام في العمالات أيضا ثم ولي الوزارة والمدينة والكتابة والحيل وغيرها من الخطط ، وسيذكره ابن حيان في حديثه عن وزراء الأمير عبد الرحمن بن الحكم (انظر ابن الأبار : الحلة السراء ١/٣٧١ - ٣٧٢ المقرئ : نفع ٤/٤٥) .
وأما يوسف بن بسيل المذكور في هذا النص فنحن نعرف عنه - فضلا عما يذكره ابن حيان هنا من ولايته على طليطلة سنة ٢٣٤ - أنه كان من كبار رجالات الدولة في أول أيام الأمير محمد ، وسيفصل ابن حيان دوره في تأييد محمد في محاولته الاستيلاء على الأمر بعد موت والده عبد الرحمن - على خلاف في ذلك بين المؤرخين - ويفهم من نص للخشني : كتاب القضاة ص ١٣٤) أنه ولي في أيام الأمير محمد على شذونة . (انظر كذلك ابن القوطية : تاريخ ص ٨٠) . وقد اشتهر عدد كبير من أفراد هذا البيت ممن تولوا مناصب كبرى في الدولة على ما سنرى من أخبار ابن حيان في هذا الكتاب نفسه .

(٢٠) سترجم ابن حيان لهذين القاضيين في حديثه الآتي عن قضاة الأمير عبد الرحمن .

(٢١) لم يرد اسم « طوطالقة » المذكورة هنا في أي مرجع أندلسي ، والغريب أن الجغرافي الوحيد الذي أفرد لها مادة خاصة هو المشرقى ياقوت الحموى الرومى في « معجم البلدان » (٤/٥٠ ، ط . بيروت سنة ١٩٥٧) ، وقد ضبطها بضم الطاء الأولى وكسر اللام ، وقال إنها بلدة بالأندلس من إقليم باجة فيها معدن فضة خالصة ، ثم إنه من ينسب إليها عبد الله (كذا وصواب الاسم : عبيد الله) بن فرج الطوطالقي النحوى ، روى عن أبي على القالى وأبي عبد الله الرياحي (كذا والصواب الرباحي ، بالباء) وابن القوطية وتحقق بالأدب واللغة وألف كتابا متقنا في اختصار المدونة ، وتوفى سنة ٣٨٦ .
على أن ياقوت من الحجج الثقات في كل ما يكتبه عن الأندلس ، وهو ينقل دائما عن مصادر وثيقة طيبة . أما الترجمة فقد نقلها عن الصلة لابن بشكوال (رقم ٦٥٩) . وأما اسم الموضوع وتحقيق مكانه فلا بد أنه نقله - كالعهد به - من جغرافية أحمد بن محمد الرازى التي لم يصل إلينا نصها كاملا . ومن المعروف أن هذه الجغرافية قد ترجمت من العربية إلى البرتغالية على يد القس البرتغالى جيل بيريس Gil Peres بتكليف من ديونيس Dionis ملك البرتغال بمعاونة أحد المسلمين وهو « محمد المريرف » .
وعن هذه الترجمة نقلت إلى اللغة الإسبانية وضمت إلى « تاريخ إسبانيا العام المؤلف سنة ١٣٤٤ م . » (انظر عن جغرافية الرازى وترجماتها المفقودة والباقية كتاب الدكتور حسين مؤنس : تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ، مدريد سنة ١٩٦٧ ص ٦١ والحاوية رقم ١) . ونحن نجد الإشارة إلى طوطالقة في نص الترجمة الإسبانية التي نشرها بسكوال دي جايانجوس تحت عنوان Memoria sobre la tenticidad de la Cronica denominada del Moro Rasis .
(ط . مدريد سنة ١٨٥٢) ص ٥٤ ، ولو أن الاسم حرف إلى Tocania (وفي مخطوط آخر Totarrique وهو أقرب إلى الاسم العربي) . أما الترجمة البرتغالية التي عثر على نصها أخيراً ونشرت في لشبونة سنة ١٩٥٤ فقد ورد فيها الاسم صحيحا : « totalica » ، وذكر أنها من أعمال كورة باجة Bega (في البرتغال الحالية وأصبحت تدعى بمد ذلك toucānique) . انظر بحث ليني بروفنسال : « صفة الأندلس » لأحمد الرازى محاولة لإعادة بناء أصلها العربي ، مجلة الأندلس ، المجلد الثامن عشر ، سنة ١٩٥٣ ، ص ٨٨ .

E. Lévi — Provençal : La «Description de l'Espagne» d'Ahmad Al-Razi.
Essai de reconstitution de l'original arabe et traduction Française, Al-Andalus, Vol. XVIII, 1953, p. 88.

(٢٢) كذا في الأصل ، ولم نهند إلى تحقيق يطمأن إليه لاسم هذا الموضع .

(٢٣) لم نعتز على « أروش » هذه في المراجع الجغرافية الأندلسية ، غير أنها وردت عرضاً في بعض كتب التراجم ، فقد أشار إليها ابن بشكوال في كتاب « الصلة » (ص ٥٧٥ ، ترجمة ١٢٧٩) فقال إنها : « من بلاد الغرب » ، واضطرب في تحديد موضعها ابن الأبار ، فقال مرة إنها « من عمل قرطبة » (التكملة ، ط . كوديرا ، ص ٣٩ ، ترجمة ١٢٢) ، وقال في موضع آخر من نفس الكتاب « إنها من الثغر الغربي ، ويقال هي من عمل قرطبة » . هذا ونظن أن أروش هذه هي التي ذكرها ابن غالب في القطعة التي نشرت من كتابه « فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس » (بتحقيق الدكتور لطفى عبد البديع) ص ٢١ ، قائلاً إنها من مدائن كورة باجة (ولو أنها جاءت في الأصل المنشور « أروش » وتبدو لنا محرقة عما ذكرنا) . ثم عثرنا بعد ذلك على نص آخر لابن حيان من كتاب « المقتبس » نفسه يقول فيه في معرض ذكر أخبار سنة ٣٦٣ إن فيها « ولي صاحب الشرطة خال الأمير هشام رائق بن الحكم قيادة بطليوس مجموعة له إلى رمكب (كذا) وأروش ومدلين وأم جعفر إلى ما في يده من فحص البلوط » (انظر القطعة التي قام بنشرها من المقتبس الأستاذ عبد الرحمن علي الحجي ، بيروت سنة ١٩٦٥ ص ١٤٩) ، وقد ورد في الترجمة الإسبانية الجغرافية أحمد الرازي (وهي التي أشرنا إليها في الحاشية السابقة ، ط . مدريد ١٨٥٢ ، ص ٥٤) ذكر لقلعة من أعمال باجة دعيت Aroques مجاورة لطوطالقة التي علقنا عليها في نفس الحاشية السابقة ، ولا بد أن تكون هي « أروش » الواردة في نص ابن حيان ، وأن تكون هي البلد الذي يعرف اليوم باسم Aroche (وهي مدينة رومانية قديمة كان يطلق عليها باللاتينية اسم Arucei Vetus وتقع اليوم في مقاطعة ولبة Huelva المتاخمة لحدود البرتغال الجنوبية ، وهي تبعد بنحو تسعين كيلومتراً إلى شرق باجة وبنحو خمسة وعشرين كيلومتراً إلى الشرق من حدود البرتغال الحالية .) انظر عن هذه البلدة مجمع مادوث الجغرافي .. (٥٩٠/٢ - ٥٩١) .

(٢٤) باجة Boga بلد يقع اليوم في جنوب البرتغال إلى الجنوب الشرق من الأشبونة Lisboa وعلى بعد ١٨٠ كم من هذه العاصمة ، وعلى مسافة ٦٦ كم من الحدود الفاصلة اليوم بين إسبانيا والبرتغال (انظر عنها المسادة الواردة في الروض المطار ص ٣٦ من النص العربي و ٤٥ من الترجمة الفرنسية) .

(٢٥) لم نجد اسم بكر بن سلمة هذا فيما بين أيدينا من المراجع التي تحدثت عن الثوار المستنزلين من ناحية الغرب في أوائل أيام عبد الرحمن الناصر ، ولعله أحد صفار المنتزعين في هذه الجهة ، على أننا نعرف من الثوار في غرب الأندلس على أيام الأمير عبد الله بن محمد من يسميه المؤرخون بكر بن يحيى بن بكر الذي اقتعد مدينة شنتمرية من كورة أكشونة (انظر ابن حيان : المقتبس ، ط . أنطونيا ص ١٥ - ١٦ ؛ ابن عذاري : بيان ١٣٧/٢) ، ويذكر ابن عذاري بعد ذلك في أخبار سنة ٣١٧ أن عبد الرحمن الناصر بعد غزوته لباجة انتقل منها قاصداً إلى مدينة أكشونة فدخلها بعد أن أصاب أموالاً خلف بن بكر (بيان ٢٠٠/٢ - ٢٠١) ، وقد أشار أيضاً إلى غزوة عبد الرحمن الناصر إلى أكشونة واستنزاله لصاحبها خلف بن بكر هذا صاحب التاريخ المجهول المؤلف في أخبار عبد الرحمن الناصر ، والذي قام بنشر نصه العربي الأستاذان

ليون بروفنسال وغرسيه غومس مع ترجمة إسبانية في مدريد - غرناطة سنة ١٩٥٠ ص ٨١ من النص العربي و ١٥٥ من الترجمة
E. lévi — provençal, E. Garcia Gomez : una Cronica anonima de Abd
Al-Rahman III al-Nasir, Madrid — Granada, 1950.

فلعل بكر بن سلمة هذا من نفس تلك الأسرة التي ينتمي إليها خلف بن بكر المذكور في هذين المصدرين .

(٢٦) طرسونة tarazona بلد من أعمال سرقسطة يبعد بنحو ٢٢ كم إلى الجنوب الغربي من تطيلة . انظر المادة
الواردة عنها في كتاب « الروض المطار » ص ١٢٣ من النص العربي و ١٥٠ من الترجمة الفرنسية .

(٢٧) برجة (بضم الباء) بلدة من أعمال طرسونة المتقدمة الذكر انظر ما ورد عنها في جغرافية العذري ص ٣٣ ، ٤٤ ،
١٥٥ ؛ والمادة الواردة في معجم مادوث الجغرافي ٤/٤٠٦ . هذا وينبغي التمييز بين برجة هذه و « برجة » أخرى
(بكسر الباء) Berja من عمل مدينة المرية .

(٢٨) كان تاريخ أسرة بنى ونقة أول الأسر الحاكمة في مملكة نبرة Navarra - وهي التي يطلق المؤرخون المسلمون
عليها اسم مملكة بنبلونه Pamplona (نسبة إلى قاعدتها) أو بلاد البشكنس Vascones أو البشاكسة نسبة إلى ساكنيها -
تاريخياً يحيط به الغموض ، إذ أن المراجع المسيحية في العصور الوسطى لم تترك لنا عن أصول هذه الأسرة وملوكها إلا أخباراً
قليلة متضاربة لا يوثق في صحتها ، ولعل أول ضوء يلقى على تاريخ هذه الأسرة وعلى مطلع هذه الدولة المسيحية إنما هو بفضل
تلك الأخبار التي يسوقها لنا ابن حيان في « مقتبسه » .

ويذكر المؤرخون المسيحيون أن مؤسس هذه الدولة في بنبلونه بعد خروجها من أيدي المسلمين في سنة ٧٩٨/١٨٣ هو
ونقه المعروف في المدونات النصرانية باسم Inigo Jimenez وإن كانت سنوات حكمه لم تعرف على وجه التحديد .

ولأخذ من أخبار ابن حيان أن ونقه هذا خلف ثلاثة أبناء كانوا يتلقبون بألقاب الإمارة في بنبلونه ، هم : ونقه بن
ونقه Inigo Iniguez ؛ وغرسيه Garcia ، وفرتون Fortun . ولكن الملك كان على ما يبدو في يد أولهم ونقه
المذكور هنا . وقد كان ثلاثتهم إخوة لأمير الثغر الأعلى موسى بن موسى بن فرتون بن قسي الذي سبق أن ترجمنا له (حاشية
رقم ١) ، إذ أن أباهم ونقه كان قد تزوج من أرملة موسى بن فرتون بعد وفاته ، وهذا هو ما جعل موسى بن موسى
يحالف إخوته لأمه هؤلاء عند ثورته على عبد الرحمن بن الحكم في سنة ٢٢٦-٨٤٦ ، فقد كانت غارات عبد الله بن كليب
حامل سرقسطة وأخيه عامر عامل تطيلة على أموال موسى وتعرضهما بالأذى لونغه بن ونقه أخى موسى لأمه هي السبب في
انقباض موسى عن الطاعة . فلما وجه عبد الرحمن بن الحكم قائده حارث بن بزيع لمحاربة موسى خرج هذا إليه فقاتله واستعان
بإخوته لأمه أمراء بنبلونه ولاسيما غرسيه بن ونقه ، فهزموا حارث بن بزيع في موقعة بلمه وأسروه في سنة ٢٢٧/٨٤٢ .
فلما علم عبد الرحمن الأمير بذلك عظم عليه ، فخرج إلى موسى بنفسه في السنة التالية ، والتقى الأمير بموسى وبني ونقه ومن
التف بهم من البشكنس والجيلقيين والشرطانيين وأوقع بهم جميعاً هزيمة ساحقة قتل فيها فرتون بن ونقه الذي يسميه ابن حيان
« بطل بنبلونه بلا مدافع » ، وبمقتضى الأمير برأسه لترفع بقرطبة . أما غرسيه بن ونقه وابنه غلند فقد تمكنا من الفرار بعد

أن أصيبا بجراحات شديدة . وكان من نتائج هذه الحملة أن موسى بن موسى طلب الأمان فاتفق له ولأخيه ونقه بن ونقه ، على أن يقر هذا الأخير على بلدة (بنبلونة) ويؤدى إلى عبد الرحمن بن الحكم سبعمائة دينار كل عام يوردها على عمال الثغر . وظل ونقه بن ونقه بعد ذلك أميراً على بنبلونة حتى توفي سنة ٢٣٧-٨٥٢ بعد أن أصابه فالج عطله . فولى مكانه ابنه غرسية الذى صاهره موسى بن موسى إذ زوجه من ابنته أوروية (أو Aurea oria) . وفى سنة ٨٥٩/٢٤٥ كان خروج المجوس (النورمانيين) على سواحل الأندلس وغارتهم بعد ذلك على بنبلونة حيث أسروا غرسية بن ونقه هذا ، فابتك نفسه منهم بعد أن أدى إليهم سبعين ألف دينار ودفع إليهم بعض أبنائه رهائن . ولم يكذب يخرج من أسر المجوس حتى قام بمحالفة أردون ملك أستوريش Asturias وجليقية Galicia ، ناقضا بذلك عهده مع عبد الرحمن بن الحكم ، فوجه إليه الأمير محمد - وكان قد خلف أباه على الملك فى سنة ٨٥٢/٢٣٨ - صائفة اقتحمت بلاد بنبلونة وعاشت فى بساطها ، وأسرت فى حصن قشتيل ولداً لغرسية يدعى فرتون الأنقر ، فحملته عساكر المسلمين إلى قرطبة حيث ظل فى الحبس عشرين سنة ثم رد إلى بنبلونة حيث حكم بعد أبيه غرسية فى تاريخ لا نعرفه على وجه التحديد . وإن كان لابد أن يكون بعد سنة ٨٧٠/٢٥٦ التى نعرف من أخبار ابن حيان أن غرسية كان لا يزال حيا فيها . ونحن نعرف كذلك مما يذكر ابن حيان أن غرسية بن ونقه هذا قد زوج ابنة له من مطرف بن موسى بن موسى الذى كان واليا على وشقة حتى ثار عليه أهلها بتدبير من عمرو بن عمرو ابن عمرو فى سنة ٨٧٣-٢٥٩ . وقبض عمرو بن موسى على زوجته هذه بنت ملك بنبلونة فيمن قبض عليه من أهل مطرف وبنيه .

وعن بنى ونقه هؤلاء انظر ما سيرد فى ثنايا هذا الكتاب ؛ وكذلك ابن حزم : جمهرة الأنساب ص ٥٠٢ - ٥٠٣ (فى معرض الكلام عن نسب بنى قسى) ؛ العذرى : جغرافية ص ٢٩ - ٣٠ ، ٦٢ ، ٩٨ ؛ ابن عذارى : بيان ٩٧/٢ ؛ ابن الأثير ٢٦٨/٥ - ٢٦٩ ، ٢٩٩ - ٣٠١ ، هذا فضلا عن مقال لى بروفنسال وغرسية غومس : « نصوص مخطوطة من المقتبس لابن حيان ، فى مجلة الأندلس ، المجلد التاسع عشر ، سنة ١٩٥٤ ، ص ٢٩٨ - ٣٠٠ ؛ وانظر عن نسب بنى ونقه لى بروفنسال : تاريخ ، الجزء الأول ، الجدول المقابل لصفحة ٣٨٨ (وإن كان ينبغى إعادة النظر فى بعض تفاصيل شجرة النسب المذكورة إذ أن بروفنسال لم يستفد من كثير الأخبار والمعلومات الجديدة التى يقدمها لنا هذا الجزء من المقتبس) ، وكتاب أجواد وبليه عن « تاريخ أسبانيا فى العصور الوسطى ٤٩٧/١ - ٥٠٠ ؛ ومقال الراهب خوستو بيريث دى أوريل عن « القديم والجديد حول أصول مملكة بنبلونة » ، مجلة الأندلس ، المجلد التاسع عشر ، سنة ١٩٥٤ ، ص ٤٢ - ١ :

Fr. Justo Pérez de urbel : Lo viejo y 10 nuevo sobre el origen del reino de Pamplona, Al-Andalus, Vol. XIX, 1954, pp. 1 - 42.

(٢٩) أورد ابن حيان اسم هذا القائد أكثر من مرة فى ثنايا هذا الكتاب ، ولو أن الناسخ كتب نسبه « الطليل » مرة و « الطلبي » مرات ، ولم نستطع أن نتحقق من صحة هذه النسبة وأى قراءتها أصوب ، إذ أن الاسم لم يرد فى أى مرجع آخر باستثناء ما جاء فى الكامل لابن الأثير فى معرض الحديث عن أخبار سنة ٢٣٥ من أن « عباس بن الوليد الطليل » خرج إلى نواحي تدمير لمحاربة نفر من المنتزعين كانوا قد اجتمعوا وقدموا على أنفسهم رجلا اسمه محمد بن عيسى بن سابق ، فوطى عباس بلدهم وأوقع بهم ثم أصلحهم وعاد (الكامل ٢٨٥/٥) ، وقد عاد ابن حيان إلى ذكر عباس بن الوليد المذكور فى حديثه عن قواد الأمير عبد الرحمن ، إذ قال إنه كان كثير التردد بالصوائف ، كما أنه ذكر فى أخبار سنة ٢٣٧ أن فيها كان ابتداء تعذيب عباس « الطلبي » وأخيه وغيرهما فى استخراج الأموال التى غلواها ، وكان جميعهم من صنائع نصر الحصى .

(٣٠) اسماعيل بن موسى القسوى المذكور في هذا الموضع كان قد ولي على سرقسطة في حياة أبيه موسى بن موسى ، فلما توفي هذا سنة ٢٤٨ (٨٦٢) ظل على هذه المدينة ، ثم ثار في أيام الأمير محمد مع إخوته بنطيلة سنة ٢٥٨ (٨٧٢) وتقدم إلى سرقسطة فدخلها هو وأخوه لب ، وقبضا على عامل السلطان بها وأبنائه ، ثم خرج إسماعيل إلى حصن منت شون Monzon وأعلن العصيان ، فغزته الصوائف ، ثم انقبض إلى لاردة ، فقبض عليه عبد الله بن خلف بن راشد عامل بربطانية Boltana بحصن منت شون ودفنه إلى الأمير محمد في غزاته سنة ٢٥٩ ، فلما قفلت الصائفة أطلقه الأمير محمد . فانصرف إلى حصن منت شون ، وأعمل الخيلة على ابن راشد حتى صاهره وزوجه من ابنته ، ولكنه لم يلبث أن غدر به وقتله هو وجميع أبنائه وتغلب على بربطانية ، وترددت في أثر ذلك الصوائف عليه بين سنتي ٢٦٥ ، ٢٦٨ (٨٧٩ - ٨٨٢) فطلب اسماعيل الصلح ، غير أنه عاد إلى النكث ، فحاصره المنذر بن الأمير محمد وهاشم بن عبد العزيز حصار شديدا . وخرج اسماعيل ابن موسى بعد ذلك مع بني عمه لقتال ابن أخيه محمد بن لب بن موسى ، فلما توسطوا قلهرة Calahorra اجتمعوا به ، فهزمهم وأسر اسماعيل بن موسى وبني عمه وحبسهم حتى أسلم إليه اسماعيل سرقسطة وقطيلة وبلتيرة Valtierra وكان ذلك في سنة ٢٧٠ (٨٨٣ - ٨٨٤) ، ثم إن محمد بن لب أطلقهم وأخرج إسماعيل بن موسى إلى حصن منت شون ، فبقى به حتى توفي سنة ٢٧٦ (٨٨٩) . انظر عن إسماعيل بن موسى ما سيرد عنه في ثنايا هذا الكتاب وكذلك المقتبس (ط - ملتشور أنطونيا) ص ٨٧ ؛ وابن حذارى : البيان ١٠١/٢ ؛ العذرى : جغرافية ص ٣١ - ٣٤ ، ٦١ ، ٦٣ ؛ ابن حزم : جمهرة الأنساب ص ٤٦٧ - ٤٦٨ ؛ ابن الأثير : الكامل ٢٦٩/٥ .

(٣١) لعله خالد بن يحيى بن عمارة أخو القائدين عبيد الله بن يحيى عامل طرطوشة والوزير محمد بن يحيى اللذين سبقت الإشارة إليهما (انظر الحاشية رقم ٤) .

(٣٢) قد يكون محمد بن الوليد هذا أعماً للقائد عباس بن الوليد الطليل أو الطلي الذي أشرنا إليه من قبل (راجع الحاشية رقم ٢٩) ، فنحن نعرف مما سيذكره ابن حيان في أخبار سنة ٢٣٧ أنه كان لعباس المذكور أخ تعرض للعذاب والمصادرة باعتبارهما كانا من صنائع نصر الخصى .

(٣٣) يبدو أن مطرف بن نصير هذا هو الذي أصبح بعد ذلك من أهل ثقة الأمير محمد بن عبد الرحمن ، فسئرى أن ابن حيان سيروى عنه بعد ذلك أخباراً تدل على مدى اهتمام الأمير محمد بشغوره ، وثرى الأمير فيها يمهد إليه بيمض المهمات ذات الشأن ، وربما كان هو نفسه العامل على الجزيرة الخضراء في سنة ٢٤٧ (٨٦١) عند مهاجمة الجيوش الأردمانيين (النورماند) لها ، كما ثرى فيما كتبه العذرى عن تلك الغارة في جغرافيته (ص ١١٩) .

(٣٤) لم يرد اسم ميمونة هذه في جدول النسب الذى أفرده ابن حزم لبني قسي في الجمهرة .

(٣٥) هو نهر Guadiana الذى تقع عليه بطليوس Badajoz وماردة Mérida ، ويفصل في جزئه الأدنى عند انتهائه إلى مصبه بين إسبانيا والبرتغال .

(٣٦) نهر شنيل Genil الذي تقع عليه مدينة غرناطة هو أحد فروع « الوادي الكبير » نهر قرطبة ، وهو نهر صغير ، بالغ الأندلسيون وأهل غرناطة خاصة في تصوير قيمته ، حتى إنهم جعلوا اسمه مرادفا لقولهم « ألف ليل » ، وذلك لأن حرف الشين كما يقول لسان الدين بن الخطيب يساوي عند أهل المغرب عدد « ألف » ، فعنى « شنيل » إذن : « ألف ليل » ، وبذلك ذكره بعض شعراء غرناطة (انظر المقرئ : نفع ١/٢٤٢ ؛ وانظر حول اشتقاق هذا اللفظ وتفسيره ما كتبه رينهارت دوزي في مجموعة « أبحاثه »

R. Dozy : Recherches sur l'histoire politique et littéraire de l'Espagne pendant le Moyen Ages, Leyden, 1849.

(٣٧) إستجة Ecja ، تقع على وادي شنيل إلى الجنوب الغربي من قرطبة بينها وبين إشبيلية ، وتبعد عن قرطبة بنحو خمسين كيلو متر ، وهي الآن من أعمال إشبيلية ، وأما قنطرتها المذكورة في النص فقد كانت من أشهر معالمها ، وقد هدمها القائد بدر الحاجب في سنة ٣٠٠ (٩١٢) بعد أن فتح المدينة في مستهل إمارة عبد الرحمن الناصر ، وكان أهل إستجة قد خالفوا وخلموا الطاعة . (انظر عن إستجة وقنطرتها المسادة الواردة في الروض المظلل لابن عبد المنعم الحميري ص ١٤ من النص العربي و ٢٥ من الترجمة الفرنسية ، وكذلك المسادة التي كتبها زايبولد في « دائرة المعارف الإسلامية » ١/٢ ، والمراجع المذكورة في هذين الموضعين) .

(٣٨) أشار إلى خبر هذا السيل أيضا ابن عذارى ، بيان ٢/٨٩ ؛ وابن الأثير : الكامل ٥/٢٨٥ .

(٣٩) ذكرنا في شحاشية هذا الموضع أن الاسم ورد هكذا في الأصل ، ونلاحظ أن النسخ كثيرا ما يخطئون ويحرفون في كتابة الأسماء النصرانية التي لم يتعودوا كتابتها ، ولانستبعد أن يكون لفظ « أردميس » الذي جاء في الأصل محرفا عن كلمتين هما « برمند القس » ، ولو كان الأمر على ما نظن لا تفتق تماما مع ما نعرفه من تاريخ الأسرة الحاكمة في جليقية Gallola وأشتوريش Asturias ، فالذكر هنا - فيما أحسب - هو « رذمير » . (Radimiro=Ramiro) بن برمند (Vermundis=Vermuds) المشهور بلقب « القس El Diacano » ، وهو الذي خلف على عرش أشتوريش الملك أذفنش (ألفونسو الثاني Alfonso II الملقب بالعفيف El Gasto) وقد حكم بين سنتي ١٧٥ و ٨٢٢٧ . (٧٩١ - ٨٤٢ م .) أما رذمير المذكور هنا فقد ولي العرش سنة ٢٢٧ (٨٤٢) وظل يحكم مدة ثمان سنوات حتى ٢٣٥ (٨٥٠) ، ثم خلفه ابنه أردون Ordono I الذي حكم بين سنتي ٢٣٥ (٨٥٠) و ٢٥٢ (٨٦٦) . ونلاحظ بصفة عامة أن ابن حيان في الغاية من الدقة والضبط عند حديثه عن ملوك إسبانيا المسيحية وأمرائها وأحداث دولها وتواريخها . (انظر عن حكم رذمير بن برمند كتاب أجوادو بليه : تاريخ إسبانيا في العصور الوسطى ١/٤٨١) .

(٤٠) ذكرنا في التعليل على هذه الكلمة أنه من الأرجح أن تكون محرفة عن « الحرس » ، ويعنى المؤرخ بها هؤلاء المماليك الذين كان ألحكم بن هشام والد عبد الرحمن قد استكثر منهم حتى بلغ عددهم خمسة آلاف ، وكانوا يسمون الحرس لمجتهم (انظر ابن سعيد : المغرب ١/٣٩ ؛ ابن الأثير : الكامل ٥/٢٠٣ ؛ المقرئ : نفع ١/٣٢٠ ؛ ابن خلدون :

المير (٢٧٧/٤) . وربما دلنا على صحة هذا التوجيه الذي ارتأيناه في قراءة الكلمة أن عدداً من هؤلاء « الحرس » كانوا قد أخرجوا إلى الثغر الأعلى مع حارث بن يزيد حينما أسره موسى بن موسى بعد موقعة بلمة سنة ٢٢٧ (٨٤٢) ، فلما توجه إليه الأمير عبد الرحمن في السنة التالية أطلق ابن يزيد « ومن كان أسره من الحرس » (انظر العذري : جغرافية ص ٣٠) هذا وسيرد اللفظ بالخاء المعجمة بعد قليل .

(٤١) سيذكر ابن حيان « أبا العاصي الحكم الاشثياق » (كذا) من بين من سيورد أسماهم من أبناء الأمير عبد الرحمن ابن الحكم ، ولم يورده ابن حزم بين من ذكر من ولد هذا الأمير إذ أن عقبة كان قد انقرض في عهده ، ونحن نعرف أن عبد الرحمن كان يكل إلى ابنه الحكم هذا بعض المهام العسكرية ومناصب الحكم في حياته ، من ذلك إخراج إياه في سنة ٢٢٤ (٨٣٩) إلى دار الحرب وأمره له بالتجول في الثغور وتفقدتها (انظر ابن عذاري : بيان ٨٥/٢) ، وولايته كورق إلييرة وتدمير كما نرى من نص ابن حيان هنا ، وقد عهد إليه أخوه الأمير محمد تمثل ذلك ، فابن حيان نفسه سيذكر في أخبار سنة ٢٣٩ (٨٥٣) أن محمداً أخرج أخاه الحكم إلى طليطلة بالصائفة فاحتل قلعة رباح وأمر ببنيان سورها واسترجاع من فر من أهلها (انظر ، كذلك البيان ٩٤/٢ ، وكذلك ليني بروفنسال ٢٩٢/١)

(٤٢) كانت إلييرة *Elvira* (*Liberris* الرومانية) من كبريات حواضر الأندلس ، وبها نزل جند دمشق من العرب ، ثم غربت في الفتنة التي شبت في أيام الأمير عبد الله بن محمد وانتقلت عاصمة إقليمها إلى غرناطة *Granada* (انظر عن إلييرة المسادة التي كتبها زابولد في دائرة المعارف الإسلامية ٢٦/٢ - ٢٧ ؛ والروض المعطار ص ٢٩ من النص العربي و ٣٧ من الترجمة الفرنسية ؛ وابن الخطيب : الإحاطة ، بتحقيق الأستاذ محمد عبد الله عنان ، ٩٩/١ وما بعدها) .

(٤٣) تنسب كورة تدمير إلى الملك الذي كان يحكمها في أيام الفتح العربي للأندلس *Teodomiro* ، وقد نزلها جند مصر ، وانتقلت عاصمتها بعد ذلك إلى مدينة مرسية في أيام عبد الرحمن بن الحكم سنة ٢١٠ (٨٢٥) . (انظر المسادة التي كتبها عنها ليني بروفنسال في دائرة المعارف الإسلامية ٨٤٨/٤ ؛ الروض المعطار ص ٦٢ من النص و ٧٨ من الترجمة وكتاب جاسبار ريمرو : مرسية الإسلامية ، سرقطة سنة ١٩٠٥ :)

Mariano Gaspar Remiro : Historia de Murcia Musulmana, Zaragoza 1905.

(٤٤) نظن أن سعداً المذكور هنا هو أخو خزر بن مؤمن الذي ذكره ابن حيان في معرض الحديث عن غزوة حيد الله ابن عبد الله البلنسي إلى الثغر الأعلى في سنة ٢٢٧ (٨٤٢) ، إذ يفهم من نص المقتبس أن خزر بن مؤمن هذا كان من جملة قواد عسكر السلطان في تلك الغزوة ، وكان من بينهم أيضاً محمد بن يحيى بن خالد وموسى بن موسى القسوي ، فلما انتهت الغزوة نشب الخلاف بين خزر وموسى وتفاقم حتى أدى الأمر بعد ذلك إلى خروج موسى على الطاعة ومباينته بالحلمان (انظر مقال ليني بروفنسال وغرسية غومس : « نصوص مخطوطة من المقتبس لابن حيان » ، ص ٢٩٨) . واسم خزر بن مؤمن هذا هو الذي ورد في الكامل لابن الأثير (٢٦٧/٥) ونهاية الأرب للتويري (ص ٢٠٠) محرفاً إلى « جرير بن موفق » ، وقد وصفه كلاهما بأنه كان « من أكابر الدولة » .

(٤٥) كوره ريه هي المنطقة التي أصبحت مدينة مالقة (Malaga) عاصمتها في جنوب شرق شبه الجزيرة ، وهي كلمة مأخوذة من اللاتينية ، والأصل في ضبطها تشديد الياء وضمها ، إذ هي تقابل Regio ومعناها « الملكية » ، وقد أورد هذا التفسير ابن سعيد في المغرب (بتحقيق الدكتور شوق ضيف ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٦٤ ، ٤٢٣/١) إذ قال إن معنى ريه عند النصارى « سلطنة » . وقد نزل هذه الكورة جند الأردن بعد الفتح العربي . انظر مادة (ريه) في الروض المعطار ص ٧٩ من النص و ٩٩ من الترجمة ، وكذلك المسادة التي كتبها ليلى بروفنسال في دائرة المعارف الإسلامية ١٢٢٦/٣ ، وبمبحث دوزي لأصل هذا اللفظ واشتقاقه في مجموعة « أبحاثه » ، الطبعة الثالثة ٣١٧/١ - ٣٢٠ ؛ وأخيراً البحث الذي صدر به جين روبلس كتابه « تاريخ مالقة الإسلامية » (الطبعة الثانية مدريد سنة ١٩٥٧) :

Guillén Robles : Historia de Malaga Musulmana, Madrid, 1957.

(٤٦) انظر تعليقنا على اسم سعد أخى خزر المذكور هنا في الحاشية السابقة ، رقم ٤٤ .
(٤٧) الجزيرة الخضراء أو جزيرة أم حكيم هي التي تعرف الآن باسم **Algeciras** ، وتقع في أقصى الطرف الجنوبي لإسبانيا مطلة على مضيق جبل طارق ومواجهة لمدينة سبتة على الساحل الإفريقي . انظر عنها المسادة الواردة في الروض المعطار ص ٧٣ من النص و ٩١ من الترجمة ومقال زايبولد في دائرة المعارف الإسلامية ٢٧٩/١ .

(٤٨) عن ثورة حبيب البرنسي هذا انظر ابن عذارى : بيان ٨٩/٢ - ٩٠ ؛ ابن الأثير : الكامل ٢٨٨/٥ . (وهو يسميه حبيبة البربري) . أما البرنسي فهو نسبة إلى « البرانس » وهم بطن كبير من البربر يقابلون « البر » . انظر مادة « بربر Berberes » التي كتبها رينيه باسيه René Basset في دائرة المعارف الإسلامية ٧٢٣ - ٧١٦/١ .

(٤٩) هو أبو الفتح نصر بن أبي الشمول ، كان أبوه من نصارى قرمونة ، ثم اعتنق الإسلام في أيام الحكم بن هشام الرضوى على ما يبدو ، وكان الحكم قد خصى عدداً من ذوى الجمال من أهل قرطبة ، فكان نصر المذكور من بينهم ، وعلت منزلته من عبد الرحمن بن الحكم حتى أصبح يتصرف باسمه في أمور الدولة ، وارتفع نجمه بعد ذلك حينما عهد إليه الأمير بقيادة الجيوش التي زادت المحوس الأردمانيين (النورماند) عن الأندلس عندما نزلوا بسواحل البلاد سنة ٢٣٠ (٨٥٠) ، وكان نصر يمالئ طروبا خطية الأمير عبد الرحمن على تولية ابنها عبد الله العهد بدلا من أخيه محمد كبير أبناء الأمير ، ومن أجل ذلك حاول أن يسم مولاة في الخبر الطويل الذي سيقصه ابن حيان بعد في تفصيل ودقة ، ولكنه لم يصرعه في هذه المحاولة سنة ٢٣٦ (٨٥٠ - ٨٥١) .

عن نصر هذا انظر ابن حزم : جمهرة الأنساب ص ٩٦ ؛ ابن سعيد : مغرب ٤٩/١ ، ٥١ ، ١١٤ ، ١٢٤ ، ٣٣١ ؛ ابن القوطية : تاريخ ص ٧٦ - ٧٧ ؛ ابن خلدون : العبر ٢٨٢/٤ - ٢٨٣ ؛ المقرئ : نفع ٣٢٧/١ ؛ الحشني : كتاب القضاة بقرطبة ص ١١١ ، وانظر كذلك ليلى بروفنسال : تاريخ ٢٢٣/١ - ٢٢٥ ، ٢٧٥ - ٢٧٧ .

(٥٠) هو أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز بن إبراهيم بن عيسى بن مزاحم المعروف بابن القوطية ، وهو لإشبيل الأضل ، كان جده الأعلى مولى لعمر بن عبد العزيز بن مروان ، وأما لقبه الذي عرف به « ابن القوطية » فيرجع إلى كونه من ذرية سارة القوطية حفيدة غيطشة witzza ملك القوط قبل لذريق الذي في عهده فتح العرب الأندلس ، وكان عالما بالنحو واللغة متقدما فيهما وله في ذلك كتب حفظ لنا بعضها ، وقدم إلى الشورى وتصرف في الخطط الجليلة ، وتوفي سنة ٣٦٧ (٩٧٧) . ومن كتبه « تاريخ افتتاح الأندلس » الذي حققه باسكوال دي جايا نجوس ونشره خوليان ريبيرا مع ترجمة إسبانية في مدريد سنة ١٩٢٦ ، وفيه يتناول تاريخ الأندلس منذ الفتح العربى حتى نهاية عهد الأمير عبد الله بن محمد .

انظر في ترجمته : ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ، رقم ١٣١٦ ؛ الحميدى : جذوة المقتبس ، رقم ١١١ ؛ الضبي : بنية الملتبس ، رقم ٢٢٣ ؛ القاضى عياض « أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي : ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ، بتحقيق الدكتور أحمد بكير محمود ، ط . بيروت ١٩٦٧-١٩٦٨ ، ٥٥٣/٢-٥٥٥ ؛ ابن خاقان بمطبع الأنفس ص ٥٨ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ١/٦٤٩ ؛ المقرئ : نفع ٤/٧٣ - ٧٤ ؛ ابن فرحون : الديباج المذهب ص ٢٦٢ - ٢٦٣ ؛ وانظر عن كتب ابن القوطية كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربى ، ترجمة الدكتور عبد الحلیم النجار ، القاهرة ١٩٦٢ ، ٣/٨٩ - ٩١ ؛ بونس بويجس : المؤرخون والجغرافيون الأندلسيون ، ط . مدريد ١٨٩٨ ، ص ٨٣ - ٨٧ ؛ جونثال بالثيا : تاريخ الفكر الأندلسى ، ترجمة الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ٢٠٢ - ٢٠٦ . وقد اعتمد عليه ابن حيان في مواضع عديدة من كتاب المقتبس سواء هذه القطعة التى بين أيدينا أو القطعة الأخرى التى نشرها الراهب ملتشور أنطونيا في باريس سنة ١٩٣٧ حول إمارة عبد الله بن محمد (انظر ص ٣ ، ٧ ، ٨٦ ، ١٢٩) . ونلاحظ بمقابلة ما ينقله ابن حيان في هاتين القطعتين عن ابن القوطية على النص المطبوع في مدريد أن نقول ابن حيان مفصله تفصيلا مسببا يؤكد لنا صحة ما ذهب إليه خوليان ريبيرا من أن كتاب « تاريخ افتتاح الأندلس » ليس من إنشاء ابن القوطية ، وإنما هو أقرب إلى أن يكون سماعا دونه عنه بعض من كان يحضر مجالسه من المولعين بالأخبار (انظر تاريخ الفكر الأندلسى ص ٢٠٣) ، فخير مصرع نصر الفنى الذى أورده ابن حيان هنا مثلا لا يرد في النص المطبوع إلا على صورة مقتضبة موجزة لا تكاد تتجاوز بضعة سطور ، بينما هو لدى ابن حيان على ما يرى من التفصيل (انظر هذا الخبر في كتاب ابن القوطية ص ٧٦ - ٧٧) .

(٥١) عن طروب جارية الأمير عبد الرحمن بن الحكم وحظيته انظر ابن القوطية : تاريخ ص ٦١ ، ٧٦ ، ٧٩ - ٨٠ ابن عذارى : بيان ٢/٩٢ ؛ ابن سعيد : مغرب ١/٤٦ - ٤٧ ؛ ابن حزم : طوق الحمامة ، ص ٥ ؛ المقرئ : نفع ١/٣٢٦ - ٣٢٧ ؛ وقد أفرد ابن الأبار لها ترجمة في كتاب النكلة (بتحقيق جونثال بالثيا والأراكون) رقم ٢٨٥٥ ، وذكر أنه إليها ينسب المسجد الواقع بصدر الربض الغربى بقرطبة ؛ وانظر كذلك ليني بروفنسال : تاريخ ١/٢٧٥-٢٧٨ .

(٥٢) هو يونس بن أحمد الحرانى الطبيب . انظر في ترجمته : ابن أبى أصيبعة (ط . القاهرة سنة ١٨٨٢) ٢/٤٢ (وقد نشر الأستاذان نور الدين عبد القادر وهنرى جاهيم من هذا الكتاب الباب الثالث عشر في طبقات الأطباء بإفريقيه والأندلس ، الجزائر سنة ١٩٥٨ ، انظر ص ٢٣) ؛ جمال الدين على بن يوسف القفطى : إخبار العلماء بأخبار الحكماء ، ط . ليزج سنة ١٩٢٣ ، ص ٣٩٤ - ٣٩٥ ؛ أبوداود سليمان بن حسان بن جلجل الأندلسى : طبقات الأطباء والحكام ،

بتحقيق الأستاذ فؤاد سيد ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ٩٤ - ٩٥ ؛ صاعد الطليطل : طبقات الأمم ، ط . بيروت سنة ١٩١٢ ، ص ٧٨ . هذا وقد كان ليونس الحراني المذكور ابنان يسميان أحمد وعمر اشتغلا بالطب أيضا في أيام عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر (انظر ترجمتهما في كتاب ابن أبي أصيبعة ، نشر تور الدين عبد القادر وجاهيه ص ٢٣ - ٢٥) .

(٥٣) كذا جاءت الكلمة في الأصل : « سور الملوك » ، وسيرد بعد ذلك في نص آخر لابن حيان : « سنون الملوك » وقد يكون اللفظ تحريفا لكلمة « بسون » ، ويعلق الأستاذ فؤاد سيد في بعض حواشيه على كتاب ابن جلجل (ص ٩٤) حل هذا اللفظ فيقول إن « البسون » سم مركب يدعى بأسماء مختلفة ، وهي كلمة لم ترد في المعاجم العربية ، وقد تكون مأخوذة من الإسبانية Pocton أى شراب (Polson بالانجليزية والفرنسية) . انظر في تحقيق هذه الكلمة دوزي : ملحق المعاجم العربية ، ط . باريس - ليدن ١٩٢٧ ، ٨٧/١ ؛ وفرانسكو سيموليت : معجم الألفاظ الإيبيرية واللاتينية المستمدة بين المستعربين ، ط . مدريد ١٨٨٨ ، ص ٤٦٢ .

(٥٤) أشار ابن القوطية إلى هذه الجارية إشارة عابرة (تاريخ ص ٧٧) وأفرد لها ابن الأبار ترجمة في كتاب التكلة (تحقيق بالثيا وألاركون) رقم ٢٨٥٦ ، ولو أن كليهما سميها « فخرأ » ، وعلى ذلك قرأها ليني بروفنسال حينما تعرض لذكرها في تاريخه ٢٦٧/١ . وقد أضاف ابن الأبار أن لها مسجداً رفيعاً من أمهات المساجد بقرطبة ، وأنها أم أبي الوليد بشر الأديب الشاعر بن الأمير عبد الرحمن بن الحكم الذي ترجم له ابن الأبار (الحلة السيرة ١٢٦/١) .

(٥٥) هو يحيى بن الحكم البكري الحياتي المعروف بالغزال ، ولد في نحو سنة ١٥٦ (٧٧٣) وتوفي قريبا من سنة ٢٥٠ (٨٦٤) ، وولاه الأمير عبد الرحمن قبض الأعرشار ببلاد مروان على ما يذكر ابن دحية ، ثم اضطلع ببسفارتين عهد بها إليه الأمير : الأولى إلى بلاط تيوفيل ملك بيزنطة ، والثانية إلى ملك الهوس (النوربند) ، وكانت له كذلك رحلة إلى بلاد المشرق ، وقد احتفظت لنا المراجع الأندلسية بجملة طيبة من شعره ، ويضيف ابن حيان إلى ما نعرف قطعة صالحة .

في ترجمة الغزال وأخباره ومنتخبات شعره انظر الحميدى : جذوة رقم ٨٨٧ (ص ٣٥١ - ٣٥٣) وكذلك ص ١٨٧ و ٢١٢ ؛ الضبي : بنية ، رقم ١٤٦٧ ؛ ابن دحية الكلبي : المطرب من أشعار أهل المغرب ، ط . القاهرة سنة ١٩٥٤ بتحقيق الأستاذ ابراهيم الإيباري ، ص ١٣٣ - ١٥١ ؛ الخشني : كتاب القضاة ، ص ٩٥ ، ٩٩ ؛ ابن عذارى : البيان ٩٣/٢ ؛ ابن سعيد : المغرب ١/٣٢٤ ، ٥٧/٢ ؛ الثعالبي : يتيمة الدهر ٥٦/٢ ؛ ابن خلدون : المغرب ٤/٢٨٢ ؛ المقرئ : نفع ١/٢٦٢ ، ٣٢٤ ، ٢١/٣ - ٢٩ .

ومن الدراسات الحديثة : مجموعة أبحاث دوزي (Recherches) ٢/٢٦٧ (الطبعة الثالثة) ؛ بونس بويجس : المؤرخون والجغرافيون الأندلسيون ، ص ٣٨ - ٤٥ ؛ بالثيا : تاريخ الفكر الأندلسي (ترجمة حسين مؤنس) ص ٥٥ - ٥٦ ؛ نيكل : الشعر الأندلسي (ط . بلتيمور سنة ١٩٤٦) ، ص ٢٤ - ٢٧ ؛ ليني بروفنسال : تاريخ ١/٢٥٢-٢٥٤ ، ٢٧٢ - ٢٧٥ ، وكذلك مقاله « سفارات متبادلة بين قرطبة وبيزنطة Un échange d'ambassades entre Cordoue et Byzance » الذي ضمنه كتابه « الإسلام في المغرب والأندلس Islam d'Occident » ص ٧٩ - ١٠٧ ؛ ومقال الدكتور حسين مؤنس : غارات النورمانيين على الأندلس بين سنتي ٢٢٩ و ٢٤٥ (٨٤٤ - ٨٥٩ م)

في « مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية » (مايو ١٩٤٩ ، المجلد الثاني ، العدد الأول) ، وكتاب الباحث الإنجليزي
ألين عن سفارة الغزال إلى بلاط النورمان (الفايكنج) :

W.E.D. Allen : the Poet and the Spae - wife. An attempt to reconst-
ruct Al-Ghazal's embassy to the Vikings, London, 1960.

(وانظر ما كتبه في عرض هذا الكتاب ونقده في « صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد » ، المجلدين التاسع والعاشر
لسنتي ١٩٦١ - ١٩٦٢ ، ص ٤٢٠ - ٤٢٤ من القسم العربي) ؛ والدكتور إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي ،
عصر سيادة قرطبة ص ١١١ - ١٢٢ (وانظر بصفة خاصة ص ٢٨٩ - ٢٩٠ حيث يورد قطعاً جديدة للغزال نقلها عن بهجة
المجالس لابن عبد البر) ، كذلك أضاف الدكتور إحسان عباس إلى مانعته من شعر الغزال مادة أخرى طيبة بنشره « كتاب
إلتشيبات من أشعار أهل الأندلس » لأبي عبد الله محمد بن الكتاني الطيب ، بيروت ١٩٦٦ ، وقد وردت فيه قطع أخرى
لغزال لم تكن معروفة من قبل (انظر ص ١٢١ ، ١٦٣ ، ١٨١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٤ ، ٢٥٧ ، ٢٦٦) .

(٥٦) عن « منية نصر » انظر المسادة التي أفردها لها ابن عبد المنعم الحميري في « الروض المطار » ص ١٨٧ من
النص و ٢٢٦ - ٢٢٧ من الترجمة الفرنسية ، وقد ذكر فيها أنها قرية (أو ضاحية) قريبة من قرطبة موقية على النهر ،
وذكر ليني بروفنسال في تعليقه على هذا الموضوع أنها كانت تقع في غربي قرطبة على ضفة الوادي الكبير قريباً من مقابر الربض ،
وقد أهتم بها بعد ذلك الأمير عبد الله بن محمد وشيد قصورها ومبانيها على ما يذكر ابن حيان نفسه في « المقتبس » (نشر
أنطونيا) ص ٣٨ - ٣٩ ؛ ويذكر ابن حيان في موضع آخر من نفس الكتاب (القطعة التي نشرها الأستاذ عبد الرحمن
الحجبي ص ٢١) أن الخليفة الحكم المستنصر أنزل في قصور هذه المنية أعضاء السفارة التي رأسها « بون فيل » والقادة عليه
من « بريل » أمير برشلونة في سنة ٣٦٠ (٩٧١) . وانظر عن لفظ « المنية » واستخدامه في الأندلس ليني بروفنسال ؛
الأندلس في القرن العاشر ، ص ٥٢ والحاشية رقم ١ .

(٥٧) كانت هذه المقابر تحمل اسم (الربض) تذكيراً بشورة الربض المشهورة التي نشبت ضد الحكم بن هشام
في سنة ٢٠٢ (٨١٨) والتي كان من عواقبها أن أمر الحكم بهدم كل مباني هذه المنطقة وتركها خلاء ، وهكذا تحولت
منذ أيامه إلى مقابر ، وكان الحكم قد أوصى خلفائه بالألا يسمحوا بأن يعاد البناء فيها ، فاحترم من تلاه من أمراء بني أمية
تلك الوصية ، ولم يرتفع فيها بناء حتى نهاية الدولة . وقد أورد ابن حيان في القسم الخاص بالحكم بن هشام « الربض »
من كتاب المقتبس (وهو الذي لا يزال مخطوطاً) في الورقة ٢٤٦ ظ (على ما يذكر ليني بروفنسال) نصاً طريفاً حول
وصية الحكم المشار إليها ، فقال إنها ظلت محترمة مدة قرنين من الزمان حتى أيام الخليفة هشام بن الحكم المؤيد حينما كان
يضطلع بأمور الدولة الحاجب العامري المظفر عبد الملك بن المنصور بن أبي عامر ، إذ سمح للناس بالبناء هناك ، واتفق أن
مر الخليفة هشام المؤيد بهذه المقابر فرأى الناس شارعين في عمارتها ، فغضب وأرسل إلى الحاجب المظفر رسالة يلومه فيها أشد
القوم هل سماحه للناس بمجارة الربض على ما في ذلك من مخالفة لوصايا أسلافه وانتهاك ما جرى به التقليد ، وطلب إلى الحاجب
أن يأمر بهدم ما بنى هناك ، فأنصاع عبد الملك لتلك الرغبة ، وأمر بهدم كل ما ارتفع من بناء وتسويته بالأرض كما كان .
بل إن هذا التقليد استمر حتى بعد سقوط الدولة المروانية وظل جارياً محترماً حتى سقوط قرطبة في أيدي المسيحيين ، يشهد
بذلك قول ابن الأبار في الحلة السيرة (ط . دوزي ص ٣٨ - ٣٩ ، ٤٤/١ ط . مؤنس) في معرض الحديث عن الحكم

ابن هشام وإخاده ثورة الربض : « وهو الذى أوقع بأهل الربض ، فنسب إليه ، وأمر بهدمه وتعطيله ، وصير ذلك وصيته فيمن خلفه وعهداً على بنيه ما كان لهم سلطان فى الأندلس ، فلم يعمر ولا اختطت فيه دار إلى آخر دولتهم ثم بعدها إلى أن ملك الروم قرطبة يوم الأحد الثالث والعشرين من شوال سنة ٦٣٣ (١٢٣٦ م .) ، وأقام على ذلك نحواً من أربعائة سنة وثلاثين سنة ، ولا أعلمه إلا كذلك إلى اليوم » . وقد أكد ابن سعيد كذلك هذا الخبر (المغرب ١/٤٢) . وعن مقابر الربض انظر ليني بروفنسال : تاريخ ٣/٣٨٠ - ٣٨١ ؛ والأندلس فى القرن العاشر ص ٢٠٩ .

(٥٨) زرياب هو أبو الحسن على بن نافع مولى أمير المؤمنين المهدي العباسي وتلميذ المغنين المشهورين ابراهيم الموصل وابنه اسحاق ، قدم إلى الأندلس سنة ٢٠٦ (٨٢١) فقربه عبد الرحمن بن الحكم إليه وارتفع مكانه عنده ، وأورث صناعة الغناء بالأندلس بنيه وعدداً كبيراً من تلاميذه وقيانه ، كما أدخل إلى هذه البلاد جملة من التقاليد الحضارية الشرقية . وتوفى زرياب سنة ٢٣٨ (٨٥٢) قبل وفاة الأمير عبد الرحمن بأربعين يوماً . انظر فى ترجمته وأخباره المقرئ : نفع الطيب ١/٣٢٢ ؛ ٢/٢١٥ ؛ ٣/٢٧ ؛ ٤/١١٧-١٢٩ ، ٥/١٤٩ (ومعظم أخبار المقرئ مما نقله عن ابن حيان) ؛ ابن القوطية : تاريخ ص ٥٩ ، ٦٨-٦٩ ؛ الخشني : كتاب القضاة ص ١٢ ؛ ابن خلدون : مقدمة (ط . القاهرة بدون تاريخ) ص ٣٥٧ ؛ القاضي عياض : ترتيب المدارك ٣/٤٥ ؛ الحميدى جذوة ص ١٣٧ ، ١٦٢ ، ابن دحية : المطرب ص ١٤٧ ، ١٥٢-١٥٣ ، ابن عبد ربه ؛ العقد الفريد (ط . محمد سعيد العريان) ٧/٣٦ ، ٨٠ ، ١٤٥/٨ ؛ ابن حزم : طوق الحمامة ص ١١٦ ؛ ابن سعيد : المغرب ١/٤٧ ، ٥١ ؛ ٢/٩٦ ؛ الزبيدي : طبقات النحويين والفويين (بتحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ١٩٥٥) ، ص ٢٩٢ ؛ ومن الدراسات الحديثة انظر خوليان رينيرا : موسيقى مدائح العذراء ، ط . مدريد ١٩٢٢ ، ص ٥٣ - ٥٧ .

(Julian Ribera y tarrago:La musica de las cantigas)

وليني بروفنسال : تاريخ ١/٢٦٨ - ٢٧٢ ؛ وأخيراً الدراسة التى أفردها له الدكتور محمود أحمد الحفنى بعنوان « زرياب أبو الحسن على بن نافع موسيقار الأندلس » ، مجموعة أعلام العرب رقم ٥٤ ، ط . القاهرة ، بدون تاريخ .

(٥٩) هو أبو بكر الحسن بن محمد بن مفرج بن حماد بن الحسين المعافري المعروف بالقبشى ، من أهل قرطبة ، كان محدثاً ومؤرخاً ، وهو صاحب كتاب « الاحتفال فى تاريخ أعلام الرجال » فى أخبار الخلفاء والقضاة والفقهاء ، وهو الكتاب الذى يروى عنه ابن حيان هنا . ولد سنة ٣٤٨ (٩٥٩) وتوفى سنة ٤٣٠ (١٠٣٩) . انظر ترجمته فى : ابن بشكوال : الصلة رقم ٣٠٨ ؛ وكذلك بونس بويجس : المؤرخون والجغرافيون الأندلسيون ص ١١٩ والمراجع المذكورة فى هذا الموضوع ؛ جونثال بالثيا : تاريخ الفكر الأندلسى (ترجمة مؤنس) ، ص ٢٧٥ . وقد كان لكتاب ابن مفرج مكانة كبيرة لدى المؤرخين الذين تلوه فكثرت اعتمادهم عليه ونقلهم منه ، كما نرى فى كتاب الصلة لابن بشكوال وفى « الإحاطة » لابن الخطيب (انظر مقدمة الإحاطة ، مخطوطة المجمع التاريخى الملكى بمدريد ، ورقة ٦ ب ، وطبعة الأستاذ محمد عبد الله عنان ١/٩١) ، وفى المطرب لابن دحية (ص ١٥١) . وسرى ابن حيان ينقل عنه كثيراً فى ثنايا هذه القطعة من « المقتبس » كما نقل عنه أيضاً فى القطعة الخاصة بالأمير عبد الله (نشر أنطونيا ، ص ٥ ، ٧ ، ٣٦) . أما عن نسبة هذا المؤرخ « القبشى » فهى ترجع إلى « عين قبش » (بضم العين . وفتح الباء المشددة) وهو حى كان يقع فى غرب قرطبة ، وسوف نعلق على هذا الاسم فى موضعه .

(٦٠) اعتمد ابن حيان في هذا النص على كتاب الجمهرة لابن حزم ص ٨٧ - ٨٨ ، ولو أن الأصل الذي يعتمد عليه ابن حيان فيها يبدو أكثر تفصيلاً بكثير من النص المطبوع ، ويدلنا على هذا أن النص الذي بين أيدينا قد يكون اختصاراً للكتاب الأصلي . وقد انتهى الدكتور حسين مؤنس إلى مثل هذا الرأي في بعض تعليقاته على نص الحلة السираه (١٢٦/١ ، حاشية ١) بمناسبة ترجمة بشر بن الأمير عبد الرحمن بن الحكم ، وذلك حينما رأى ابن الأبار ينقل عن جهمزة الأنساب نصاً لم يرد أصلاً في النسخة المطبوعة .

(٦١) هذه الإشارة إلى « أسامة أهل الذمة » ذات قيمة كبيرة في التعريف بطائفة كبيرة من طوائف المجتمع الأندلسي والمقصود بها من اعتنقوا الإسلام من العجم أو النصارى . وكان الأندلسيون يستخدمون في التعبير عن هؤلاء لفظي « الأسامة » و « المسالمة » ، وقد استعمل ابن الفرضي في تراجم كتابه تعبيراً مشابهاً للذي نقله ابن حيان هنا عن ابن حزم ، إذ ذكر في ترجمته عبد الله بن عمر بن الخطاب الإشبيلي أنه « كان من مسالمة الذمة فلائاً إشبيلية علماً وبلاغة ولساناً حتى شرقت به العرب » (تاريخ علماء الأندلس ، رقم ٦٤٧) ، وابن حيان كثيراً ما يستخدم لفظ « المسالمة » في القطعة الخاصة بالأمير عبد الله من كتاب « المقتبس » . وقد استبلغ في دراسة هذا اللفظ ودلالته الدكتور حسين مؤنس في كتابه « فجر الأندلس » (طبعة القاهرة ١٩٥٩) ، ص ٤٢٩ - ٤٤٧ .

(٦٢) قرمونة Carmona . مدينة تقع في مقاطعة إشبيلية وعلى بعد ٣٥ كيلو متر إلى الشمال الشرقي منها ، واسمها من أصل لاتيني (Carmo) إذ كانت من المدن التي اختطها الرومان ، وكانت من القواعد الأندلسية الكبيرة على عهد المسلمين . انظر في وصفها ياقوت : معجم البلدان ١٩٦/٤ ؛ وابن عبد المنعم الحميري : الروض المعطار ص ١٥٩ من النص و ١٩٠ من الترجمة الفرنسية ، وكذلك المسادة التي كتبها زايبولد في دائرة المعارف الإسلامية ٨٤٩/١ والمراجع المذكورة في هذين المصدرين الأخيرين .

(٦٣) البيضاء (بالإسبانية Albelda) حصن صغير أنشأه موسى بن موسى القسوى على بعد عدة كيلو مترات إلى جنوب مدينة « لكروى » (Logrono) الحالية ، وهي الآن مدينة صغيرة تقع على بعد ٩١ كيلو متر إلى الشمال الغربي من تطيلة ، ويتردد ذكر « البيضاء » في الحوليات المسيحية ، إذ تذكر أنه لم يكده موسى بن موسى يتم بناءها حتى حاصرها ملك جليقية وأشتوريش أردون (ordono I) فخرج موسى للقائه ودارت بين المسلمين والنصارى معركة حامية تعرف في الحوليات المسيحية باسم موقعة « كلايخو Clavijo » وتقول هذه الكتب إن المسلمين أصيبوا فيها بهزيمة منكرة وإن موسى أصيب بجراحات شديدة وقتل فيها زوج ابنته غرسيه ، وتحدد المراجع المسيحية هذه المعركة بسنة ٨٢٤٥ . (٨٥٩ - ٨٦٠ م .) ، على أن المراجع الإسلامية لا تذكر شيئاً عن ذلك مما يشكك في صحة هذا الخبر وإن كان بعض الباحثين الأوروبيين المحدثين عادوا إلى تأكيد وقوعها في السنة المذكورة ، مثل سانشث ألبرنوث Sanchez Albornoz وبيريث دي أوربل Pérez de Urbel (أنظر ليني يروفنسال : تاريخ ٣١٤/١ - ٣١٥ والمراجع المذكورة في الحواشي ، وكذلك ييريث دي أوربل في مقاله « القديم والجديد حول أصول مملكة بنباونة » في مجلة الأندلس ، المجلد التاسع عشر ، سنة ١٩٥٤ ، ص ٢٠ - ٢٦) . ويرى هذا الباحث الأخير أن هناك موقعتين دارتا لدى مدينة البيضاء : الأولى

هي التي يتحدث ابن حيان عنها هنا والتي أحرز فيها موسى بن موسى انتصاراً باهراً على الجاشقيين سنة ٢٣٧ (٨٥١)
والثانية هي التي وقعت بين موسى وأردون ملك جليقية ومنى فيها هزيمة فادحة ، وكانت بعد المعركة الأولى بنحو ثمان سنوات ،
ويرى بيريث دى أوربل أن المراجع العربية قد سكنت عن ذكر تلك المعركة ، على أننا نستبعد ذلك إذ لو صح حدوث
تلك المعركة لما سكنت عن ذكرها ابن حيان الذي لم يضرب صفحاً أبداً عن جميع ما دار من وقائع سواء أكانت للمسلمين
أم عليهم .

(٦٤) بقيرة (بالإسبانية *Vigura*) تقع على بعد كيلو مترات قليلة إلى جنوب البيضاء ، وهي الآن من عمل
مدينة « لكروي » (لوجرنو *Logrono*) (انظر ياقوت : معجم البلدان ٢/٢٥٣ وقد قال إنها معدودة في أعمال
تطيلة ، وقد احتفظ لنا العذري عنها بنص بالغ القيمة عرض فيه تاريخ إنشائها وظروفه ، فقال : إن مؤسسها هولب بن موسى
ابن موسى القسوي ، أنشأها بعد أن انصرف من قرطبة منطلقاً من أسر الأمير عبد الرحمن بن الحكم ، وقال إنه لما بلغ
إحوة لب إنشاء هذا الحصن عسكروا إليه فخرج إليهم وهزمهم ، ولكنهم تمكنوا بعد ذلك من القبض عليه في قلعة *Calahorra*
ثم أطلقوه بعد ذلك ، فتوجه إلى بقيرة ، وبنى بها حتى مات (انظر جغرافية العذري ص ٣١ - ٣٢) . وذكر ما حدث
في معجمه الجغرافي (٥٨/١٦ - ٥٩) أن الأمير عبد الله بن محمد سجن فيها عيين كانا يتوليان سرقة وتطيلة ، على أننا
لا نعرف من أين استمد هذه الأخبار إذ لم نجد ما يؤكدها في المراجع العربية . هذا وقد اختص أحد المؤرخين الأندلسيين
بقيرة بكتاب خاص ، وهو أبو عبد الله بن المؤذن الوشقي صاحب « تاريخ بقيرة » ، وكان هذا الكتاب من بين الكتب
التي سردها ابن الخطيب في مقدمة (الإحاطة) في كلامه عن تواريخ الأقاليم والمدن : انظر الإحاطة ، تحقيق الأستاذ محمد
عبد الله عنان ، ص ٩١ ، وعن ابن المؤذن الوشقي وتاريخه انظر بونس بويجس : المؤرخون والجغرافيون الأندلسيون ص ٣٩٥

(٦٥) الجاشقيون هم أهل المنطقة المعروفة في الفرنسية باسم *Gascogne* (بالإسبانية *Gascuna*) وهي الواقعة
في جنوب غرب فرنسا فيما وراء جبال البرقات (البيرنيه) .

(٦٦) أشار ابن الأثير في إيجاز إلى معركة « البيضاء » هذه ، وقال إنها كانت مشهورة بالأندلس (الكامل ٥/٢٩١) .

(٦٧) ينقه بن ينقه *Inigo Iniguez* هو الذي سبق أن تحدثنا عنه عند التعليق على بنى ينقه ملوك بنبلونة
(رقم ٢٨) ، وقد كان تاريخ هذه الأسرة مجهولاً غامضاً إلى حد كبير في المدونات المسيحية حتى جل ابن حيان في
« المقتبس » كثيراً من غفائاه . وثيقه (أو وثقه) المذكور هو أخو موسى بن موسى القسوي لأمه ، إذ أن أباه المعروف
باسم *Inigo Jimenez* كان قد تزوج من أرملة موسى بن فرتون بعد وفاته . وابن حيان في نصه الوارد هنا هو الوحيد
الذي يحدد لنا تاريخ وفاة ينقه المذكور بسنة ٢٣٧ (٨٥١ - ٨٥٢) ، ويرجح بيريث دى أوربل في مقاله عن « القديم
والجديد حول أصول ملكة بنبلونة » (ص ١٨ - ١٩) أن ينقه كان يبلغ نحو سبعين سنة حينما أدرسته الوفاة بعد هذا الفالج
الذي أصابه . وقد كان ينقه بن ينقه مصاهراً لأخيه لأمه موسى بن موسى القسوي ، إذ أنه زوجه من ابنة له تدعى « أسونا »
(*Assona*) ، وهي أم ولده لب بن موسى الذي يتحدث ابن حيان عن أحداثه ووقائعه في الفرع الأعلى . ويعرف ينقه

ابن ينفه المذكور هنا في المدونات المسيحية باسم *Inigo Arista* ، ومعنى لفظ *arista* في الإسبانية القديمة « الحجر اليابس » ، ومن هنا يرى بيريث دي أوربل في مقاله الذي أشرنا إليه (ص ١٨ حاشية ١) أنه ربما كانت في هذا اللقب الذي أطلق عليه إشارة إلى الفالنج الذي عطله مدة قبل وفاته :

(٦٨) راجع حول غرسيه بن ونقه الذي يذكر ابن حيان هنا أنه خلف أباه على إمارة بنبلونة سنة ٢٣٧ (٨٥١-٨٥٢) ماسبق أن أوردناه عن بني ينقه في الحاشية رقم ٢٨ ، ونضيف إلى ذلك أخبارا وإفانا بها العذرى في جغرافيته حيث يذكر خبر أمر المجوس له عند انتهائهم إلى حائط بنبلونة في سنة ٢٤٥ (٨٥٩) وافتدائه منهم بسبعين ألف دينار بعد أن ارتهن بعض ولده (ص ١١٩) ، ثم خبر مظاهره لب بن موسى له حينما ثار بأرنيط واستولى على تطيلة وسرقسطة والثغر كله (ص ٣١) ، ومظاهرة عمروس بن عمر الثائر بالثغر له وللشرطانيين في سنة ٢٥٧ (٨٧١) ، (ص ٦٢) ، وسيذكر ابن حيان فيما يلي مزيداً من أخباره . وعلى كل حال فإن هذه الأخبار التي أمدنا بها ابن حيان والعذرى تضيف الكثير إلى المعلومات الغامضة المتناقضة الواردة في المدونات المسيحية ، فقد كان الشائع في كتب التاريخ الإسبانية المسيحية أن غرسيه ابن ينقه قد توفى في سنة ٨٤٣ م . (٢٢٨ - ٢٢٩ هـ) ، وقد ثبت بعد ظهور نص ابن حيان خطأ هذا الرأي ، كذلك يذكر بيريث دي أوربل في مقاله الذي أسلفنا الإشارة إليه عن أصول ملكة بنبلونة (ص ٢٨ حاشية ٤) أنه لا يوجد أي ذكر لغرسيه بن ينقه في المدونات المسيحية بعد سنة ٨٦٠ م (٢٤٥ - ٢٤٦ هـ) ، مما حمل الباحثين المحدثين على أن يرجعوا وفاته حول هذا التاريخ بينما نرى الآن أن المؤكد هو أن وفاته لاحقه لسنة ٨٧١ (٢٥٧) .

(٦٩) ذكر خبر هذه الثورة التي نشبت في الثغرابن عذارى : البيان ٩٠/٢ (ولو أنه يسمى حامل الثغر يحيى بن خالد ، ولعله خلط بين عبيد الله بن يحيى (بن خالد) المذكور هنا وأبيه يحيى) ؛ وابن سعيد : المغرب ٥٠/١ ، وابن الأثير : الكامل ٢٩١/٥ . وقد عرض لدراسة هذه الثورة الباحث الإسباني ميغيل أسين بلاثيوس في بحثه عن « ابن مسرة القرطبي ومدرسته *Ibn masarra y su escuela* في مجموعة « الأبحاث المختارة *obras escogidas* » (مدريد ، سنة ١٩٤٦) ٢٩/١ - ٣٠ ، وأشار إلى التشابه بين تعاليم هذا الثائر في النهى عن قص الشارب والأظافر وبين بعض التعاليم الفيشاغورية القديمة ، كما أورد احتمال أن يكون لنزعة ذلك المعلم في تأويل القرآن صلة بالدعايات الشيعية التي كانت تضطرب خلال ذلك الوقت في الشمال الإفريقي والأندلس . (انظر كذلك بحثنا عن « التشيع في الأندلس » ، في صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية ، المجلد الثاني سنة ١٩٥٤ ص ١٠٠) .

(٧٠) انظر عن هذين القاضيين ما سيورده ابن حيان في آخر هذا القسم من أخبار قضاة الأمير عبد الرحمن .

(٧١) عن « تربة الخلفاء » أو « روضة الخلفاء » هذه هي المقبرة الملكية التي كانت ملحقة بقصر الخلافة المواجه للمسجد الجامع بقرطبة انظر ليني بروفنسال : الأندلس في القرن العاشر ص ٢٢٢ ؛ نفس المؤلف : تاريخ ١٣٨/١ ، ١٩١ ؛ جورج مارسيه : موجز لتاريخ الفن الإسلامي *George Marcais manuel d'art musulman, Paris 1926* الجزء الأول ، ص ٢٤٢ .

(٧٢) ذكرهما ابن حزم في حديثه عن ولد الحكم بن هشام الربضي (جمهرة الأنساب ص ٨٨ - ٩٠) . أما « المغيرة ابن الحكم » فهو الذي تنسب إليه « منية المغيرة » ، وهي ريف من أرباض قرطبة يقع في شرقها إذ كان بها منزله . وقد

ذكر ابن حزم أن أباه الحكم كان قد ولاء العهد بعد أخيه عبد الرحمن ، ولكن هذا لم يلبث أن خله ، وأيد هذا الخبر ابن عذارى في البيان (٧٧/٢) فقال: إن الحكم حينما اشتد به المرض سنة ٢٠٦ أخذ البيعة لابنه عبد الرحمن ثم للمنيعة من بعده فبيع للأخوين في دار عبد الرحمن بن الحكم (وانظر كذلك نصح الطبيب للمقرى ٣٢٢/١ ، وليلى بروفنسال : تاريخ ١٩٠/١ وعن المنية المنسوبة للمنيعة انظر ما كتبه ليلى بروفنسال أيضا في كتاب « الأندلس في القرن العاشر » ص ٢٠٥) .

وأما أمية بن الحكم فإننا نعرف بما يذكره ابن عذارى (بيان ٨٤/٢) أن عبد الرحمن أخاه عهد إليه بقيادة الحملة التي غزت طليطلة في سنة ٢١٩ (٨٣٤) وحاصرتها حصاراً شديداً ، وأورد ابن حزم في الجمهرة (ص ٨٩ - ٩٠) أسماء جملة من ذرية أمية بن الحكم هذا .

(٧٣) هو أبو عبد الملك أحمد بن محمد بن عبد البر القرطبي ، من موالى بني أمية ، كان بصيراً بالحديث والفقه ، وله كتاب في « الفقهاء بقرطبة » ، وكان وثيق الاتصال بعبد الله بن عبد الرحمن الناصر ، فلما اتهم عبد الله بمحاولة خلع أبيه واغتياله قبض على ابن عبد البر معه وأودع السجن ، بل إن الناصر اتهمه بأنه هو محرض ابنه على هذه المحاولة لطمعه في أن يتولى قضاء الجماعة ، وتوفى ابن عبد البر في سجنه سنة ٣٣٨ (٩٥٠) ، وقيل إنه خنق في السجن . وعلى كتاب ابن عبد البر في فقهاء قرطبة كان أكثر اعتماد ابن الفرضي في تاريخ علماء الأندلس حتى إنه نقل عنه في أكثر من مائة وثلاثين موضعاً ، وكذلك ابن سعيد في كثير من المواضع التي تحدث فيها عن قضاة قرطبة (انظر المغرب ١٤٣/١ - ١٥٥) ، وابن حيان كما سنرى في الفصل المتعلق بذلك . (انظر ترجمة ابن عبد البر في ابن الفرضي : تاريخ ، رقم ١٢٠ ، القاضي عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الثاني ص ٤٢٠ - ٤٢١ ؛ ابن فرحون : الديباج المذهب ص ٣٧ ؛ وانظر في محنته وموته القاضي عياض (في الموضوع المذكور) وابن الأبار : الحلة السيرة ص ١٠٦ (ط . دوزي) و ٢٠٧/١ - ٢٠٨ (ط . مؤنس) ، وكذلك بونس بويجس : المؤرخون والجغرافيون ص ٥٨ - ٥٩) .

(٧٤) هو أبو عبد الله محمد بن وضاح بن بزيع القرطبي مولى الأمير عبد الرحمن بن معاوية ، روى بالأندلس ، ثم رحل إلى المشرق رحلتين سمع فيهما من كبار الزهاد والمحدثين ويعتبر هو وبق بن مخلد القرطبي مدخل علم الحديث والبصر بطرقه وعلمه إلى الأندلس . ولد في سنة ١٩٩ أو ٢٠٠ (٨١٤ - ٨١٥) وتوفى سنة ٢٨٧ (٩٠٠) . انظر في ترجمته ابن الفرضي : تاريخ ، رقم ١١٣٤ : الحميدي : مجلدة ، رقم ١٥٢ ؛ ابن فرحون : الديباج المذهب ص ٢٣٩ - ٢٤١ ؛ الضبي : بغية رقم ٢٩١ ؛ ابن خبير : فهرسة ص ١٢٦ - ١٢٧ ، ١٣٧ - ١٣٨ ، ١٥٠ ؛ وبونس بويجس : المؤرخون والجغرافيون ص ٤٩ ؛ لوثب أورثيث : دخول المذهب المسالكي إلى الأندلس ص ١٠٢ - ١٠٦ ، ١٠٩ - ١١٣ .

(٧٥) باب الجنان من أبواب قصر قرطبة الجنوبية ، وهو يطل على نهر الوادي الكبير وعلى مقبرة الربض أو صحراء الربض كما سيذكر ابن حيان ، وهو الفضاء الواسع الممتد إزاء القصر الخلابي ، ويفصله عنه مجرى الوادي الكبير ، وهو الذي كان الحكم بن هشام قد أمر بهدم مبانيه وتسويته بالأرض بعد ثورة الربض كما سبق أن ذكرنا في حاشية سابقة (رقم ٥٧) . انظر عن باب الجنان : ليلى بروفنسال : تاريخ ١٤٦/١ ، ١٣١/٢ .

(٧٦) الكندي جمع كدية (بضم الكاف وسكون الدال) معناها الربوة . وهناك مواضع كثيرة في إسبانيا مازالت تحمل هذا الاسم العربي حتى الآن باقياً بنفس صورته الأوطى : Alcudia ، ونجدها منتشرة في لقتن Alicante .

والمرية Almeria والجزر الشرقية Islas Baleares وقادس Cadiz وقشتليون Castellon وغرناطة Granada وبلنسية Valencia (انظر دراسة أسين بلاثيوس عن الأعلام الجغرافية الإسبانية ذات الأصول العربية ص ٥٦) :

Miguel Asin Palacios : Contribucion a la toponimia arabe de Espana,
Madrid Granada, 1944.

أما القنبانية (بالإسبانية Campina) فالمقصود بها هنا الحقول الواسعة الممتدة في جنوبي قرطبة ، والاسم لاتيني الأصل مشتق من لفظ Campus (بالإسبانية Campo) أى الحقل .

(٧٧) سوف يورد ابن حيان جملة من أخبار أبناء الأمير محمد ، غير أننا لا نجد بينهم أحمد المذكور هنا وراوية هذا الخبر المتعلق بوفاته جده الأمير عبد الرحمن . على أن ابن حزم في كلامه عن ولد الأمير محمد ذكر أنهم كانوا ثلثاً وثلاثين ذكراً ، وأشار من بينهم إلى أحمد المشار إليه هنا ، وإلى من بقى حتى عهده (أى عهد ابن حزم) من ذريته ، وكان بعضهم قد انتقل في ذلك الوقت إلى جزيرة ميورقة وبعضهم إلى قلعة رباح . (انظر جبهة الأنساب ، الطبعة الثانية بتحقيق الأستاذ عبد السلام هارون ، القاهرة ١٩٦٢ ، ص ٩٩) . وفيما عدا ذلك لم تحتفظ لنا المراجع بشئ عن أحمد هذا .

(٧٨) سترجم ابن حيان بعد ذلك ترجمة مفصلة للحاجب عيسى بن شهيد عند الحديث عن حجاب الأمير عبد الرحمن .

(٧٩) كانت وظيفة « الراشدة » من وظائف قصور الخلافة في ظل بني أمية وقصور كبار رجالات الدولة ، وقد أشار ليني بروفنسال في حديثه عن وظائف القصور وطبقات أهل الخدمة فيها إلى أنه يبدو من بعض نصوص المقتبس (القطعة التي لا تزال مخطوطة والخاصة بعهد الأميرين الحكم بن هشام وابنه الأمير عبد الرحمن وهي المتصلة بالقطعة التي نشرها ، ورقة ١٩٤ وجه) أن قصر الأمير كان يشتمل على عدد كبير من القائمات بالخدمة من النساء ترأسهن « قهرمانة » وتتلوها الوصيفات والطاهيات و « الراشدات » أى المدبرات ، ويبدو من هذا النص أن الراشدات كن ذوات الصلة المباشرة بالأمير القائمات على رأسه وأنه كانت لهن الرياسة على من يدعوهن المؤرخ « الخزانات » (بتشديد الزاي) أى الأمينات اللاتي يعهد إليهن بحفظ الخزائن المختلفة مثل « خزانة الكسوة » المذكورة هنا . (انظر ليني بروفنسال : تاريخ ٤٠٠/٣ ، حاشية ٣) .

(٨٠) اصطلاح « العريف » من الاصطلاحات الشائعة في الحديث عن النظم الإدارية الأندلسية ، ويبدو أنه كان يستخدم أولاً في التنظيم العسكري الطبقي ، فنحن نجد صاحب كتاب « أخبار مجموعة » (ط . مدريد سنة ١٨٦٧ بتحقيق لافونتي الكنترا مع ترجمة إسبانية ص ١٢٩ من النص العربي و ١١٦ - ١١٧ من الترجمة) يذكر أن حرس الأمير الحكم بن هشام الربضي يتألف من أثنى رجل مقسمين إلى عشرين فرقة كل منها من مائة رجل على رأس كل منهم « عريف » (انظر كذلك ليني بروفنسال : تاريخ ١٨٩/١ - ١٩٠ ، ٧٢/٣ - ٧٣) . على أن الاصطلاح اتسع بعد ذلك إلى الدلالة على رئيس مجموعة من الخدام أو رؤساء الحرفيين أو الصناع (انظر ليني بروفنسال : نفس المرجع ٧٨/٣ ، ٣٠٢) دون أن يعنى ذلك عدم استخدامه في التنظيم العسكري الطبقي ، ويدل على ذلك شيوعه في كتاب ابن حيان نفسه للدلالة على رؤساء الفرق العسكرية الصغيرة (انظر القطعة التي نشرها من « المقتبس » الأستاذ عبد الرحمن الحجى ص ٤٥ ، ٤٩ ، ١١٨ ، ١٥٣ ، ١٩٦ ، ٢٢٣) ، وأما في النص الذي بين أيدينا فإن « عريف الخياطين » هو رئيس المشتغلين بهذا العمل في داخل القصر الملكي

كما هو واضح ، ولابد أنه كان هناك عرفاء آخسرون يرأسون طوائف الحرفيين من كانوا يقومون بالخدمة في القصر . وقد انتقل لفظ « العريف » من العربية إلى الإسبانية دون كبير تحريف في صورة Alarife وإن كان قد أصبح مقتصرأ على الدلالة على رئيس البنائين . (وانظر كذلك الدكتور حسين مؤنس : فجر الأندلس ص ٤٦٤) .

(٨١) سوف يفرد ابن حيان فصلا للكلام عن آل الرازي وأولية بيتهم في الأندلس .

(٨٢) يختلف ما ذكره ابن حيان هنا عما يقوله ابن عذارى (البيان ٨١/٢) ، إذ يذكر هذا المؤرخ في معرض الحديث عن نقش خاتم الأمير عبد الرحمن بن الحكم أنه كان له خاتم باسمه ، فتلغ ، فأمر بطلبه ، ولكنه لم يجده ، فأعاد نقش خاتم جده عبد الرحمن بن معاوية الداخل وكانت عبارته « عبد الرحمن ، بقضاء الله راض » ، ثم بعث في عبد الله بن الأشمر الشاعر فأمره بأن يقول شعراً بما ينقش فيه ، فقال :

خاتم للملك أضحى حكه في الناس ماضى
عابد الرحمن فيه بقضاء الله راض

فاستحسن عبد الرحمن البيتين وأمر بنقشهما في الخاتم ، وسوف يكون هذا النقش هو الذى سيستخدمه عبد الرحمن الناصر (أنظر ابن عذارى : بيان ١٦١/٢) .

(٨٣) يخالف هذا المدد ما ذكره ابن حزم في كتابيه جهرة الأنساب (بتحقيق الاستاذ عبد السلام هارون ص ٩٨) ونقط العروس في تواريخ الخلفاء (بتحقيق الدكتور شوق ضيف في مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ، سنة ١٩٥١ ، ص ٧٥) من أن عدد أبناء الأمير عبد الرحمن كان مائة : خمسون ذكراً وخمسون أنثى . وقد نقل هذا الخبر عن ابن حزم بن سعيد في المغرب (٤٥/١) ، والمقرئ في النفيح (٣٢٥/١) . أما أسماؤهم فإن ابن حزم لم يذكر منهم - كعادته في الجهرة - إلا من كان لهم عقب وذرية في عصره ، فهو لا يورد أسماء من انقرض نسلهم ، ولذا فإنه اكتفى بتسجيل أسماء الأربعة الذين أعقبوا وبقيت ذريتهم إلى أيامهم وهم : الأمير محمد ، المطرف ، المنذر ، هشام .

(٨٤) انظر ما سبق أن كتبناه عن الحكم المذكور في التعليق رقم ٤١ .

(٨٥) ذكره ابن حزم في القائمة التي أشرنا إليها في الحاشية السابقة من بين من أعقب من ولد الأمير عبد الرحمن بن الحكم (جهرة ص ٩٨) ، إذ قال إن هناك أربعة بنين ذكوراً ينتهى نسبهم إلى عبد الله بن المطرف المذكور ، وأضاف ابن حزم إلى ذلك أن المطرف هو الذى ينسب إليه فحص مطرف بين دور الربض الشرقى بقرطبة ، وهو المعروف أيضاً بفحص ابن بسيل . وقد اشترك المطرف في كثير من الحملات والصوائف في عهد والده عبد الرحمن (انظر ليلى بروفنسال : تاريخ ٢٠٦/١) .

(٨٦) ذكره ابن حزم كذلك من بين من أعقبوا (جهرة ، الموضوع المشار إليه من قبل) ، وقال إن خمسة رجال بقوا من عقبه ينتهى نسبهم إلى مروان بن المنذر المذكور وإنهم كانت لهم ثروة وحال ظاهرة وآداب وخير ، ثم انقرضوا ولم يبق

لم عقب إلا من رجل واحد منهم ، كذلك ذكر ابن حزم من نسل المنذر هذا الشاعر أبا الحكم المنذر بن سعيد بن المنذر ابن مروان بن المنذر بن مروان بن الحكم . هذا وسيذكر ابن حيان عند سرده أحداث إمارة محمد على السنين في الكلام عن سنة ٢٤٢ (٨٥٦ - ٨٥٧) أن الأمير وجه أخاه المنذر بن عبد الرحمن بالصائفة الى طليطلة فحاصرها وانتسف معاشها وأورد ابن عذاري هذا الخبر أيضا (البيان ٩٦/٢) إلا أنه جعل المنذر المذكور ابن الأمير محمد لا أخاه . وقد قاد المنذر كثير آمن الحملات في أيام أبيه عبد الرحمن بن الحكم (انظر ليني بروفنسال : تاريخ ٢٠٧/١ ، ٢٦٧ ، ٢٨١) . وقد أورد المقرئ في نفع الطيب (١١٤/٥ - ١١٧) أخبار طريفة عن المنذر المذكور تصور أخلاقه وطباعه ومحاورات بينه وبين أبيه الأمير عبد الرحمن ، وقصصا أخرى تصور كرم نفسه بعد أن امتحنه أبوه وتمهده بالتأديب ، ثم قطعتين من شعره . وأورد ابن الأبار في كتاب « التكلة » (رقم ١١٠٤) ترجمة لواحد من عقبه هو المنذر بن عبد الرحمن بن عبد الله بن المنذر المذكور ، وهو المعروف باسم المذاكرة للكثرة ما كان يطلب بها أصحابه ، وترجمة أخرى للمنذر بن سعيد بن عبد الملك بن المنذر الذي كان بدوره أديبا متفتنا روى عن أبي يحيى زكريا بن بكر بن الأشج ديوان شعر أبي الطيب المتنبي وكانت وفاته سنة ٤١٢ (١٠٢١ - ١٠٢٢) . (انظر التكلة ، رقم ١١٠٦) .

(٨٧) ذكره ابن حزم فيمن ذكر من بين المعقبين من ولد الأمير عبد الرحمن (جمهرة ص ٩٨) ، وسوف يورد ابن حيان نفسه في هذا الجزء من المقتبس . خبراً ينقله من كتاب معاوية بن هشام الشيبني يسنده ابراهيم إلى أبيه هشام بن عبد الرحمن المذكور ، وهو حول منافسة الأمير محمد لأخيه هشام في جارية يبدو أن الأمير تعشقها قبل أن يصل إلى الإمارة ثم طلبها نفسه بعد ذلك فأرسل إلى أخيه هشام يستهديه إياها في خبر طويل ، ويتبع معاوية بن هشام تلك القصة بقوله : إن هشام المذكور كان من أهل العلم والبصر بالعربية والحديث مكثراً من الرواية عن يحيى بن يحيى وغيره وإن أباه الأمير عبد الرحمن كان قد نصبه للصلاة على جنائز أهل قصره . وقد نقل ابن الأبار بعض هذه الأخبار عن كتاب ابن حيان في ترجمة بشر بن الأمير عبد الرحمن (الحلة السيرة ١٢٦/١) .

(٨٨) كذا ورد هذا الاسم بالكنية فقط : « أبو عثمان » ، ونحن نرجح أن صحته « عثمان » فقط ، فهناك من أبناء الأمير عبد الرحمن من يحمل اسم عثمان ، وهو لم يرد في هذه القائمة فلا بد أن يكون الناسخ قد اضطرب في كتابة هذه الأسماء المتوالية فأضاف « أبو » إلى الاسم المذكور . أما « عثمان بن عبد الرحمن » الذي نشير إليه فيشهد به الحميدى الذي ترجم له في الجلود (رقم ٧٠٤) قائلاً : إنه كان شاعراً أديباً أورد بعض شعره أبو عامر بن مسلمة ، وإلى هذه الترجمة أشار ابن الأبار في موضعين من الحلة السيرة (١٢٦/١ ، ٣٦٧/٢) ، إلا أن ابن الأبار ينص على أن الرازي لم يذكره في كتاب « الاستيعاب في الأنساب » من تأليفه .

(٨٩) سيذكر ابن حيان عند سرده لأحداث إمارة محمد على نسق السنين أن سعيد بن عبد الرحمن المذكور كان في طليطلة عند وفاة والده عبد الرحمن وأن عامل المدينة يومئذ كان حارث بن بزيع ، وذلك حينما انتهكت أهل طليطلة وغلغوا الطاعة فأسروا عاملهم حارث بن بزيع ، وهرب سعيد ناجياً بنفسه .

(٩٠) أبو محمد عبد الله هو ابن حظية عبد الرحمن الأثرية إليه من بين نسله ، وهو الذي حاولت أمه وصنيعتها نصر

الخصى أن يولياه الخلافة في الخبر الذي سبق لابن حيان أن قصه عند الحديث عن مهلك نصر ، وسيزيدنا ابن حيان بياناً عن ذلك عندما يفصل خبر تولي محمد الإمارة والظروف التي أحاطت بذلك .

(٩١) ذكرنا في حاشية هذا الموضع أن الكلمة مطموسة في الأصل وأنا نرجح أن تمام الاسم هو « أبان » ، فقد نص الرازي في كتاب « الاستيعاب في الأنساب » على أن أبانا هذا كان من بين أبناء الأمير عبد الرحمن (وذلك فيما نقله ابن الأبار في الحلة السيرة (١٢٦/١ ، ٣٦٦/٢) ، ويضيف ابن الأبار إلى ذلك قوله : إن ابن حزم ذكره أيضا في جمهرة الأنساب ووصفه بالشعر ، ولكننا لم نعثر على هذه الإشارة في النص المطبوع من الجمهرة . وقد ذكر ابن الأبار في موضع آخر (التكلة ، ترجمة رقم ٢٨٥٤) أن عبد الرحمن أنجب أبانا هذا من جاريته قلم .

(٩٢) يبدو أن عدد الذكور من أبناء الأمير عبد الرحمن كان أكبر فعلا مما يذكره الرازي ، وقد يكون ابن حزم على حق حينما أوصل العدد إلى خمسين (كما أشرنا إلى ذلك في التعليق رقم ٨٣) ، أو على الأقل إلى خمسة وأربعين كما يقول ابن عذارى (بيان ٨١/٢ وهذا هو الرقم الذي ارتضاه ليني بروفنسال في تاريخه ٢٦٧/١) ، وذلك لأن هناك أسماء أبناء لعبد الرحمن بن الحكم لم ترد في القائمة التي يعتمد ابن حيان فيها على الرازي مثل بشر الذي ترجم له ابن الأبار في الحلة (١٢٦/١) قائلا : إن ابن حزم ذكره في الجمهرة (ولو أننا لا نجد أي إشارة إليه في النص المطبوع) ونقل قطعة من شعره أنشدها أبو عمر بن فرج في كتاب « الحقائق » ، وربما تكون أسماء أخرى قد سقطت كذلك قياساً على اسم بشر المذكور .

(٩٣) هو معاوية بن هشام بن محمد بن هشام بن الوليد بن الأمير هشام بن عبد الرحمن بن معاوية الداخل القرطبي ، ويعرف بابن الشبانسي أو الشيبانسي أو الشبانسية ، كان أديبا أخباريا تاريخيا فصيحا ، وكان أبوه من رجالات الدولة الأموية توفي على ما يذكر ابن عذارى (بيان ١٦٩/٢) في سنة ٣٠٠ (٩١٢) كذلك كان عمه معاوية بن محمد بن هشام من جلة الفقهاء والعلماء وكانت وفاته في سنة ٢٩٨ (٩١٠ - ٩١١) . (انظر ابن الأبار : تكلة رقم ١٠٧٧ ؛ وابن عذارى : بيان ١٥٥/٢) ؛ ونعرف أنه كان لمعاوية المذكور أخ كان يدعى محمداً بن هشام القرشي ويعرف أيضا باسم « ابن الشبانسية » كان عاملا لعبد الرحمن الناصر على كورة شذونة ، وتوفي سنة ٣١٦ (٩٢٨) وهو لا يزال متوليا عملها (انظر ابن عذارى : بيان ٢١٣/٢) . أما معاوية فقد كتب تاريخاً في دولة قومه بني مروان ، وهو الكتاب الذي يعتمد عليه ابن حيان في هذه القطعة من المقتبس وفي القطعة الأخرى التي نشرها أنطونيا (انظر ص ٣٧ - ٣٨ ، ١٠٢ - ١٠٣ ، ١٣٨) ، ولابن الشبانسية تأليف في نسب العلوية وغيرهم من قریش سماه « التاج السني في نسب آل علي » ، ولم يحفظ لنا ابن الأبار في ترجمة له سنة مولده ولا وفاته ، وإن كان الغالب على الظن هو موته خلال عهد عبد الرحمن الناصر أي في النصف الأول من القرن الرابع الهجري (انظر ابن حزم : جمهرة الأنساب ص ٩٦ ؛ ابن الأبار : التكلة رقم ١٠٧٨ ؛ الحلة السيرة ٤٠/١ ، ١٢٥ ؛ ابن سعيد : المغرب ١١٥/١ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، بتحقيق عنان ١٠٧/١ ؛ وانظر كذلك بولس بويجس : المؤرخون والجغرافيون ص ١٢٥ ، ليني بروفنسال وغرنيه غومس : تاريخ مجهول المؤلف لعصر عبد الرحمن الناصر ، مدريد - غرناطة سنة ١٩٥٠ : *El. Mévi — provençal, El. Garcia Gomez : una Crónica* : *anonima de Abd Al-Rahman, III, Madrid — Granada, 1950.* انظر المقدمة ص ٢٠ - ٢١)

(٩٤) أشار ابن حزم إلى العاصم بن محمد هذا من بين المعتمدين من ولد هذا الأمير (الجمهرة ص ٩٩) ، كذلك ذكره

صاحب القطعة التي نشرها بروقنسال وغرسيه غومس حول تاريخ عبد الرحمن الناصر (وهي التي أسلفنا الإشارة إليها في التعليق السابق) في معرض الكلام عن بيعة عبد الرحمن بن محمد الناصر في سنة ٣٠٠ (٩١٢) بعد وفاة جده ، إذ قال إن أول من بايعه كانوا أعمامه أولاد الأمير عبد الله وتلامه إخوة جده أبناء الأمير محمد ، وهم العاصي وسليمان وسعيد وأحمد (انظر النص المذكور ص ٢٩ وص ٩٢ من الترجمة الإسبانية) .

(٩٥) نقل ابن الأبار في الحلة (١٢٦/١) هذا النص والأبيات الثلاثة التالية عن ابن حيان ، وأثنى على حكم مؤلفنا ونقده لشعر يعقوب بن عبد الرحمن المذكور ، ثم أورد ابن الأبار أبياتا أخرى له نقلها من كتاب « الخدائق » لابن فرج البلياني . هذا وقد أورد المقرئ في نفع الطيب (١١٨/٥ - ١١٩) بعض أخبار يعقوب بن عبد الرحمن ومنتخبات أخرى من شعره ، وفي هذه الأخبار ما يؤكد ما ذكره ابن حيان هنا عن كرمه إلى حد الإسراف .

(٩٦) يبعد أن يكون هذا اللفظ كما رسم في الأصل : « كلهن » اسما لإحدى بنات الأمير عبد الرحمن ، ونلاحظ عند مراجعة هذه القائمة أنه ينقصها اسم من أهم أسماء أولئك البنات وأعظهن صيتا ومكانة ، ونعني بها « البهاء » ، وكانت من خيرة نساء بني أمية ، من أهل الزهد والعبادة والتبتل ، وكانت تكتب المصاحف وتحبها (أي توقفها) على المساجد ، وينسب إليها مسجد البهاء من مساجد ربض الرصافة ، وتوفيت في صدر دولة عبد الرحمن الناصر في سنة ٣٠٥ (٩١٧ - ٩١٨) فلم يتخلف أحد عن جنازتها (انظر في ترجمتها ابن الأبار : تكملة ، ط . بالنشيا والأركون ، رقم ٢٨٥٨ ؛ ابن عذاري : البيان ١٧٦/٢) ، ولهذا فإننا لا نستبعد أن يكون لفظ « كلهن » الوارد في الأصل تحريفا عن اسم « البهاء » .

(٩٧) تكرر هذا الاسم من قبل ، ومع ذلك فقد يكون عبد الرحمن - مع هذه الكثرة الهائلة في عدد بناته - قد أطلق نفس الاسم على اثنتين منهما ، وهو شيء رأينا أمثلة له في نفس القائمة المذكورة .

(٩٨) أشار ابن عذاري إلى السيدة علية بنت عبد الرحمن بن الحكم وقال : إنها توفيت في سنة ٣١٠ (٩٢٢ - ٩٢٣) ، ولابد أن حياتها طالت كثيرا حتى إنها أدركت عهد عبد الرحمن الناصر الذي كان بمثابة أبناء أحفادها . (انظر البيان المغرب ١٨٣/٢) .

(٩٩) هو عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث ، وجده هذا الداخلى إلى الأندلس مع طارق بن زياد هو مغيث بن الحارث ابن حويرث بن جبلة بن الأيهم الفسافي الذي يدعى « مغيث الرومي » ، وهو الذي اطلع بفتح قرطبة (انظر المقرئ : نفع ١١/٤ - ١٣) ، أما عبد الواحد بن مغيث فقد كان حاجبا لعبد الرحمن بن معاوية الداخلى ثم لهشام ابنه ، وكانت وفاته في أيام الحكم الربضي في سنة ١٩٩ (٨١٤ - ٨١٥) ، (انظر ابن سعيد : المغرب ٤٤/١) ، وقد أعقب ثلاثة أبناء كان لهم مكانة عظيمة في أيام هشام بن عبد الرحمن وابنه الحكم ، وهم عبد الملك وعبد الكريم وعبد الحميد ، أما الأولان فقد توليا القيادة في أيام هذين الأميرين ، وولى الأمير هشام عبد الكريم على كورة جيان ، ثم أغزاه في سنة ١٧٨ (٧٩٤) إلى ألبة والقلاع ، كما وجه أخاه عبد الملك إلى إفرنجة فأنهيا إلى أرض العدو وأئخنا فيها وأصابا غنائم كثيرة ، وفي السنة التالية (١٧٩ - ٧٩٤) قاد عبد الكريم حملة على أشتوريش فوصل إلى أستورقة وانتحتها . ولما ولى الحكم ابن هشام الإمارة وجه عبد الكريم إلى سرقسطة عند ثورة بهلول بن مرزوق ها فأوقع به ، وفي سنة ١٩٦ (٨١٢) استطاع أن يستنزل عمرو بن يوسف الثائر بالشعر الأعلى ويقدم به على قرطبة ، وعهد إليه الحكم حينئذ بولاية سرقسطة

وتطيلة ووشقة ، وفي سنة ٢٠٠ (٨١٦) غزا إلى بلاد ألبه والبشكنس ، فأوقع هزيمة ساحقة بجيوش أذفنش (الفونسو الثاني) ملك أشتوريش ، وكان له بعد ذلك مقام محمود في إخماد ثورة الربض سنة ٢٠٢ (٨١٨) ، وهو الذي توسط في استسلام وعقد الأمان لهم . وفي سنة ٢٠٨ (٨٢٣) عاد إلى قيادة الحملة التي توجهت إلى ألبه والقلاع ووصلت إلى جرنيق **Guernica** ، وأخيراً توفي سنة ٢٠٩ (٨٢٤) بعد أن تقلب في أعلى مناصب الدولة ، إذ ولي القيادة والكتابة والوزارة فضلاً عن الحجابة (وهي بمثابة رئاسة الوزراء) معظم أيام الحكم الربضي وثلاث سنوات من إمارة عبد الرحمن الأوسط ، ويسميه ليني بروفنسال بحق أعظم رجال دولة الحكم على الإطلاق ، والواقع أنه كان يجمع خصالاً قل أن تتوفر كلها في واحد من رجال الدولة ، فقد كان عسكرياً ممتازاً وسياسياً محنكاً وكاتباً أديباً عالمياً ، وكان على حد قول الرازي « أكل من ولي الحجابة لبني مروان » .

انظر في ترجمة عبد الكريم بن مغيث وأخباره : ابن الأبار : الحلة السيرة ١٣٥/١ - ١٣٦ ؛ ابن عذارى : بيان ٤٨/٢ ، ٦٤ - ٦٥ ، ٦٩ ، ٧٥ ، ٨٠ - ٨٢ ؛ ابن القوطية : تاريخ ص ٤٥ ، ٦١ - ٦٢ ، ٧٤ ؛ الخشي : كتاب القضاة ص ٧٣ ؛ ابن سعيد : المغرب ٤٠/١ ، ٤٤ ، ٥٠ ، ابن الخطيب : الإحاطة (تحقيق الأستاذ عنان) ٤٨٨/١ ؛ أعمال الأعلام ص ١٢ ، ١٩ ؛ المقرئ : نفع ٣١٧/١ ، ٣١٩ ، ٣٢٢ - ٣٢٤ ، ٢٢٦/٤ ؛ ليني بروفنسال تاريخ ١٤٣/١ - ١٤٤ ، ١٥٥ - ١٥٦ ، ١٦٦ - ١٦٨ ، ١٧٤ ، ١٧٦ ، ١٨٧ ، ٢٠٢ - ٢٠٣ ، ٢٨٦) .

هذا ولم يفرد ابن حيان ترجمة هنا لعبد الكريم بن مغيث إذ يغلب على الظن أنه فعل من قبل في الجزء الخاص بإمارة الحكم ابن هشام التي قضى الشطر الأعظم من حياته فيها . أما عبد الحميد بن مغيث فسيأتى ذكره في الكلام عن إمارة محمد بن عبد الرحمن .

(١٠٠) هو سفيان بن عبد ربه المصمودي (من مصمودة إحدى قبائل البربر) ، ذكر ابن القوطية الظروف التي أحاطت بولايته الحجابة فقال : إنه لما توفي عبد الكريم بن مغيث في صدر ولاية عبد الرحمن الأوسط (سنة ٢٠٩ - ٨٢٤) تنافس الوزراء كلهم في خطة الحجابة ، فأخذت الأمير ضجرة أقسم معها ألا يولى واحداً منهم ، ثم أمر بالإقراع بين الخزان (جمع خازن وهو المتولى للشؤون المالية في الدولة) فخرجت القرعة إلى (ورد الاسم في الأصل خطأ : « مهران ») ، فولاه الحجابة ، ويزيدنا ابن القوطية بعد ذلك تعريفاً به فيقول : إنه كان من البربر لا فذيم له (أي أنه لم يكن من أسرة عربقة في مناصب الخدمة) وكان له بالإمير عبد الرحمن اتصال وهو ولد (أي قبل أن يتولى الإمارة) ، وظل سفيان على الحجابة حتى وفاته سنة ٢١١ (٨٢٦) على ما سيذكر ابن حيان في الوفيات ، ويقول ابن حزم : إن نسل سفيان بن عبد ربه قد باد في وقته وانقرض فلم يمد منهم بقية . أنظر ابن القوطية : تاريخ ص ٦٢ ، ٦٨ ؛ ابن سعيد : مغرب ٥٠/١ ؛ ابن عذارى : بيان ٨٠/٢ ؛ ابن حزم : جمهرة ، ص ٥٠٠ ، وقد نقل كلامه صاحب كتاب مغاخر البربر (بتحقيق ليني بروفنسال ، ط . الرباط سنة ١٩٣٤) ص ٨٠ .

(١٠١) يوافقنا ابن حيان بأخبار قيمة عن خطة من أهم خطط الدولة في ظل أمراء بني أمية ، وهي خطة الخزانة التي كان متقلداً يدعى « الخازن » ، ونحن نرى من هذا النص أن ظهور هذه الخطة قد بدأ في أيام الحكم بن هشام أي في أواخر القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) ، ثم أخذت قواعدها تستقر ومعالمها تتحدد في أيام عبد الرحمن الأوسط ، وقد كانت وظيفة الخازن أشبه ما تكون بالعمل الذي يتولاه الآن وزراء المالية أو الخزانة . ولم يكن يعهد بهذا المنصب دائماً إلى فرد واحد ،

مل في كثير من الأحيان إلى مجموعة من الرجال يرأسهم « الخازن الأكبر » ، غير أن المصادر لا تمدنا بالكثير عن تفاصيل أعمال الخزان وكيفية تسييرهم لها وحدود سلطاتهم . ويذهب ليبي بروفنسال في تاريخه (٣١/٣ - ٣٢) إلى أن السبب في قلة المعلومات المتوفرة لدينا عن عمل « الخزان » يرجع إلى أن وظائف الخزانة كانت تسند في الغالب إلى غير المسلمين من الذميين ، وإذا كان صحيحاً أن من بين متقلدي وظائف الخزانة في الأندلس عدداً من المسيحيين واليهود فإننا لا نعتقد أن العادة جرت بذلك ، ولو أننا تأملنا أسماء الذين تولوا هذا العمل منذ ظهوره نظاماً إدارياً محدداً في الأندلس حتى عهد عبد الرحمن الناصر مثلاً ، وهذه هي الحقبة التي تقعد خلالها هذا النظام واستقرت أصوله لوجدنا أن الكثرة العظمى من المسلمين .

(١٠٢) لم يذكر ابن القوطية اسم مرتيل بن عفان هذا بين أسماء من تولوا الخزانة للأمير عبد الرحمن بن الحكم ، وهم عنده : موسى بن حدير شيخ الخزان ، وابن بسيل الملقب بالفهاز ، وطاهر بن أبي هارون ، وسفيان بن عبد ربه (تاريخ ص ٦٢) ولم نجد فيما بين أيدينا من مراجع أي إشارة إلى مرتيل بن عفان المذكور .

(١٠٣) « باب السدة » هو الباب الرئيسي لقصر الخلافة بقرطبة المطل على ضفة الوادي الكبير وعلى القنطرة . وقد كان القصر مواجهاً للمسجد الجامع بقرطبة ، وكان له خمسة أبواب أعظمها وأهمها باب السدة المذكور الذي كان يواجه « الرصيف » أي الطريق المرصوف الذي يحاذي ضفة النهر ، ومنه كان يدخل ضيوف السلطان وزواره ، ومن هنا كانت دعوته باسم « باب السدة » وكان أمام هذا الباب سارية عارية جرت العادة بأن تعرض فوقها أهم الغنائم التي كان أمراء قرطبة وخلفاؤها يحوزونها في حملاتهم العسكرية ، كما أصبح من المعتاد أن تعلق فوقها رؤوس من يظفرون بهم من الأعداء سواء أكانوا من زعماء الممالك المسيحية في « دار الحرب » أو الثائرين المسلمين الخطيرين على سلامة نظام الحكم ، أما الأبواب الأربعة الباقية فهي « باب الجامع » المفضى إلى المسجد الجامع الذي تفصله عن القصر « المحجة العظمى » وهي التي تمتد بعد ذلك إلى القنطرة ، ثم « باب الجنان » ، « باب الوادي » الواقع في نفس الجانب الذي جعل فيه باب السدة ، وأخيراً الباب الشمالي وهو المعروف باسم « باب قورية » . وقد شاع في الأندلس بعد ذلك استخدام اصطلاح « باب السدة » وإطلاقه على الأبواب الرئيسية/الكبرى للقصور قياساً على باب السدة في قصر الخلافة بقرطبة . انظر مقال العالم الأثري ليوبولدو توريس بلباس : « باب السدة في قرطبة وأبواب السدة في شرق الأندلس » ، ومجلة الأندلس ، المجلد السابع عشر ، سنة ١٩٥٢ ، ص ١٦٥ - ١٧٥ .

Leopoldo Torres Babas : «Bab al-Sudda» y les zudas de la Espana orien-
Al-Andalus, Vol. XVII, 1952.

(١٠٤) أسرة بني شهيد من أكبر الأسر الأندلسية وأثرها وأشهرها في عصر الإمارة والخلافة ، وقد تصرف أفرادها خلفاء بني أمية في الخطط الكبرى من القيادة والكتابة والوزارة والحجابة إلى انقراض الدولة المروانية . وتنتمي هذه الأسرة إلى شهيد بن عيسى بن شهيد بن الوضاح ، وقد نسبهم ابن الأيباري في « الحلة » إلى قبيلة أشجع بن ريث بن غطفان ، أي أنه جعل لهم نسبا عربياً خالصاً ، ولكن غيره من المؤرخين مثل الرازي وابن حبان في هذا النص يذكرون أن جددهم كان مولياً لمعاوية ابن مروان بن الحكم ، ولعل هذا هو الصواب ، فابن حزم لم يشر إليهم بشيء في حديثه عن استقرار الأندلس من قبيلة أشجع ، ويقول المقرئ : إن شهيد بن عيسى بن شهيد كان من سبي البرابر وقيل إنه رومي ، وكان الوضاح مع الضحاك بن قيس في وقعة مرج راهط... أما شهيد بن عيسى فقد دخل الأندلس في أيام عبد الرحمن بن معاوية الداخل ، وكان وثيق الصلة بالأمير الأموي

إلى حد نرى معه عبد الرحمن يستخلفه على قصره حينما يعزم على الخروج لإخاد ثورة عبد الغفار اليمصبي في سنة ١٥٤ (٧٧١) . ثم أسند عبد الرحمن بن معاوية إلى شهيد بعض المهام العسكرية الكبرى فأبل فيها أحسن البلاء ، كان منها خروجه لقتال وجيه الفسافي الذي ظاهر شقيقا بن عبد الواحد الدعي الفاطمي على ثورته بين سنتي ١٥٠ و ١٦٠ (٧٦٧ - ٧٧٧) (انظر : أخبار مجموعة ص ١١١) ، وولى القيادة كذلك في أيام الأمير هشام بن عبد الرحمن ، فقد أسند إليه هذا الأمير إخضاع تحير التي كان سليمان بن عبد الرحمن الداخل أخو الأمير قد أشعل فيها نار الثورة ، فأنجح المهجة بنجاح (ابن عذارى : بيان ٦٣/٢) .

وأما الحاجب عيسى بن شهيد المذكور هنا ، فإن ترجمة ابن حيان له والأخبار التي سيوردها في ثنايا هذا الكتاب تعتبر أوفى ما كتب عنه ، ونحن نعرف - فضلا عن ذلك - أنه وكل إليه بعض مناصب القيادة في أثناء غزو الجوس (النورماند) لإشبيلية في سنة ٢٣٠ (٨٤٥) ، كذلك نعرف أنه ولى الكتابة والحجابة لعبد الرحمن الأوسط وسنوات من إمارة خليفته محمد ، ويحدد ابن عذارى ولايته الحجابة بسنة ٢١٨ (٨٢٣) وهي ولاية استمرت بنير انقطاع حتى وقاته سنة ٢٤٣ (٨٥٧ - ٨٥٨) . (انظر ابن الأبار : الحلة ٢٣٧/١ - ٢٣٨ ؛ ابن عذارى : بيان ٨٠/٢ ، ٨٤ ، ٨٧ ، ٩٣ ؛ ابن القوطية : تاريخ ص ٦٢ ، ٧٤ - ٧٥ ؛ العذري : جغرافية ، ص ٩٩ ، ابن سعيد : مغرب ٥٠/١ ؛ المقرئ : نفع ٤٥/٤ ؛ وانظر كذلك ليني بروفسال : تاريخ ٢٨٦/١ - ٢٨٧ ؛ الأندلس في القرن العاشر ص ١٠١ - ١٠٣) . هذا وقد ولى الحجابة أيضا للأمير محمد : أمية بن عيسى بن شهيد ، وسيورد ابن حيان بخلة من أخباره في موضعه .

(١٠٥) خطة الخيل - ومتوليا يدعى « صاحب الخيل » - تعنى وظيفة الإشراف على شؤون الخيل وكل ما يتصل بملازمها وأدواتها في التنظيم العسكري الجيش في ظل الدولة الأموية ، وقد كانت من أرفع خطط الدولة ، وكثيراً ما كان يتولاها قواد كبار يعهد إليهم بقيادة الصوائف . وقد أفادنا ابن حيان نفسه في غير موضع من كتاب القتيبي (القطعة التي نشرها الأستاذ عبد الرحمن الحجى ، بيروت ١٩٦٥) بتفاصيل شائعة عن هذه الخطة ، ونفهم مما أورده في بعض هذه المواضع أن « صاحب الخيل » كان من يعهد إليهم بترتيب الكتاب وتنظيم المساكن (ص ٤٧) وأنه كثيراً ما كان يضطلع بقيادة الحملات العسكرية إلى دار الحرب (ص ٩٢) وأن مكانته في البروة كانت تل مكانة « صاحب المدينة » (وهو بمثابة الحاكم العام للمدينة) ، وتحت كان أصحاب الشرطة العليا والوسطى وأصحاب الخزونات (في الأصل : الخزول ، ونظماً تحريفاً لمسا ذكرنا) والخزانات (ص ٣٠ ، ٩٤) ، وكان مقر عمل صاحب هذه الخطة ما يعرف باسم « دار الخيل » وفيها متصرفون يعملون تحت رياسة المضطلع بها يعرفون باسم « الوكلاء » (ص ١٥١ ، ١٨٩ ، ١٩٧) ، هذا وسوف يرد في هذا الجزء من المقتبس ما يلقى أضواء جديدة على هذه الخطة في أثناء الحديث عن بعض من تولوها .

(١٠٦) خطة النظر في المظالم « أو أحكام المظالم » من الخطط القضائية التي كان لها في الأندلس وضع خاص ليس مماثلاً تماماً لما جرى به العمل في المشرق ، وإذا كانت هذه الخطة قد ظهرت في عصر مبكر في دولة بني أمية بالأندلس فإن معالمها لا تتضح وواجباتها لا تتحد إلا في القرن الرابع الهجري في ظل الخلافة المروانية ، ويبدو من استقراء النصوص حولها أن صاحبها كان في مرتبة أدنى من قاضي الجماعة (الذي يقابل قاضي القضاة في المشرق) ، وأنه على الرغم من ذلك كان ينظر في القضايا الباجلة التي لا تتحمل بطء الإجراءات القضائية العادية وتمقيدها ، وتصور لنا حدود هذه الوظيفة قصة يرويها ابن عذارى (البيان ٣١٠/٢ - ٣١١) يذكر فيها أن رجلاً من العامة وقف عليه بمجلسه فاستصرخه على أحد الفتيان والصقالبة الذين كانوا يقفون على رأسه فقال : إنه ظلمه في معاملة كانت بينهما وأنه دعاة إلى القاضي فلم يأت (وكان القاضي

هو عبد الرحمن بن فليس) فغضب المنصور ولام قاضي الجماعة على تهاونه ثم أمر فتاه بأن ينزل ويساوى خصمه الشاكي في المقام ، وأمر صاحب شرطته بأن يحمل الرجلين إلى « صاحب المظالم » حتى ينظر في القضية وينفذ فيها حكمه ، وكثيراً ما كان « النظر في المظالم » يضم إلى اختصاص قاضي الجماعة كما نستخلص من بعض تراجم القضاة . (وانظر في هذه الخطة كتاب ليث بروفنسال : تاريخ ١٤٦/٣ - ١٤٧) .

(١٠٧) الصوائف (جمع صائفة ، مشتقة من « الصيف ») ، هي الحملات التي جرت عادة أمراء بني أمية وخلفائها على توجيهها إلى « دار الحرب » خلال فصل الصيف . وقد استقر تقليد هذه الحملات حتى أصبحت وظيفة ثابتة يعهد بها إلى أحد القواد الكبار أو إلى واحد من أفراد الأسرة الحاكمة ، وكثيراً ما كان الأمير أو الخليفة نفسه هو الذي يضطلع بقيادتها ، وكان الاستعداد لها يبدأ في شهر يوثيه ، وكانت قيادة الجيش تتكتم دائماً أخبار الطريق الذي ستتهجه حملة الصائفة حتى تكون ضرباتها مفاجئة للعدو ، وقد افتننا المراجع الأندلسية بكثير من التفاصيل حول هذه الحملات وفي القطع المنشورة من « مقتبس » ابن حيان وفي هذه القطعة مادة طيبة حول الصوائف التي أصبحت على طوال أيام الدولة الأموية وفي ظل العامرين بعدم تقليداً محترماً سنوياً . وقد بقي لفظ « الصائفة » في اللغة الإسبانية بعد أن انتقل إليها من العربية في صورة « aceifa » .

(١٠٨) أفادنا ابن حيان في هذه الصفحات التي يفرد لها تراحم وزراء الأمير عبد الرحمن وحجابه وفي كثير من القصص التي سترد بعد ذلك في معرض الحديث عن وزراء الأمير محمد بتفاصيل جديدة كثيرة حول النظم الإدارية وخطط الدولة العليا في ظل أمراء بني أمية . فنحن نرى في هذه الترجمة الخاصة بعيسى بن شهيد كيف كانت خطتنا الحجابية والوزارة وكان الأمير عبد الرحمن بن الحكم هو أول من فخم الدولة ورتب رسومها وأبينها كما ينص على ذلك ابن حيان بعد قليل ، ويقول ابن خلدون في الكلام عن خطة الوزارة بالأندلس : « وأما دولة بني أمية بالأندلس فأبقوا اسم الوزير في مدلوله أول الدولة ، ثم قسموا خطته أصنافاً وأفردوا لكل صنف وزيراً ، فجعلوا لحسان المسال وزيراً ، ولترسيل وزيراً ، وللنظر في حوائج المتظلمين وزيراً ، وللنظر في أحوال أهل الثغور وزيراً ، وجعل لهم بيت يجلسون فيه على فرش منضدة لهم ، وينفذون أمر السلطان هناك كل فيما جعل له ، وأفرد للتردد بينهم وبين الخليفة واحد مهم ارتفع عنهم مباشرة السلطان في كل وقت ، فارتفع مجلسه عن مجالسهم ، وخصوه باسم الحاجب ، ولم يزل الشأن هذا إلى آخر دولتهم » (المقدمة ، ط . المكتبة التجارية الكبرى ، بدون تاريخ ، ص ٢٣٩ - ٢٤٠) ، فوظيفة الحاجب التي يتحدث عنها ابن حيان هنا في ترجمته لعيسى بن شهيد هي التي تقابل في اصطلاحنا الحديث « رئيس مجلس الوزراء » (انظر كذلك عن هذه الوظيفة ليث بروفنسال : تاريخ ١٨/٣ - ٢٢ ؛ والدكتور أحمد مختار العبادي : دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ، الإسكندرية سنة ١٩٦٨ ، ص ١٤٢ وما بعدها) .

(١٠٩) أسرة بني رستم التي ولي بعض أفرادها الوزارة والقيادة والحجابه للأمويين في الأندلس تنتهي إلى عبد الرحمن بن رستم الفارسي مولى الفهر بن يزيد بن عبد الملك بن مروان ، وهو مؤسس الدولة الرستمية في تاهرت بالمغرب الأوسط (جمهورية الجزائر الحالية) ، وكانت هذه الدولة تدين بتعاليم الإباضية إحدى فرق الخوارج ، ونحن نعلم أن العلاقات بين هذه الدولة الخارجية المذهب والأمويين أصحاب قرطبة كانت تتميز دائماً بالمودة والصداقة ، على الرغم من تمسك الأمويين بمذهب أهل السنة ونفورهم من جميع البدع المذهبية ، فقد كان أمراء قرطبة يحكم عدوتهم للعباسيين وعالمهم الأغلبية في أفريقية ولدولة الأدارسة

الشيعة في المغرب الأقصى يرون من السياسة أن يؤيدوا الرستميين الخوارج ويظاهروهم على جيرانهم أعداء الأمويين التقليديين . وفي سنة ٢٠٧ (٨٢٢ - ٨٢٣) قدم على عبد الرحمن بن الحكم بقرطبة بنو عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم صاحب تاهرت فاستقبلوا استقبالاً فخماً أنفق فيه الأمير الأندلسي ألف ألف دينار (على ما يذكر ابن سعيد في المغرب ١/٤٨) ، ويبدو أن بعض بني رستم قد استقروا منذ هذا التاريخ في الأندلس ، بل إن صلتهم بهذه البلاد قد تكون سابقة لهذا التاريخ ، فابن الأبار يذكر أن أول من دخل الأندلس منهم هو سعيد بن محمد بن عبد الرحمن بن رستم حفيد منشي الدولة ، واتصل ابنه محمد بن سعيد بعبد الرحمن بن الحكم قبل ولايته الإمارة وحينما كان يلي لأبيه الحكم عمل شذونة في جنوب الأندلس ، واستقر محمد هذا في ناحية الجزيرة الخضراء ، فلما ولي عبد الرحمن الإمارة اصطنعه واستقدمه وتصرف له في الوزارة والقيادة وغيره من مناصب الدولة . وفي سنة ٢١٤ (٨٢٩) عهد إليه عبد الرحمن بحكم الثغر الأدي (طليطلة) حينما نشبت ثورة هاشم الضراب ، ثم كتب إليه الأمير يعنفه ويتهمة بالتقصير في محاربة هذا الثائر ، فتقدم ابن رستم والتقى بهاشم ، ووقعت حرب شديدة أبلى فيها ابن رستم خير البلاد حتى هزم هاشمًا وقتل آلافًا من معه (ابن عذاري : بيان ٢/٨٣) ، وكان ابن رستم المذكور أحد القواد الذين صدوا هجمات الجوس (النورمانديين) عند نزولهم بإشبيلية سنة ٢٣٠ (٨٤٤ - ٨٤٥) (ابن عذاري بيان ٢/٨٧ - ٨٨ ؛ العذري : جغرافية ص ٩٩ - ١٠٠) وقد توفي محمد بن سعيد بن رستم المذكور - على ما سيذكر ابن حيان نفسه بعد قليل حينما يتحدث عن الوفيات في عهد عبد الرحمن - في سنة ٢٣٥ (٨٤٩ - ٨٥٠) . ويذكر ابن الأبار - نقلاً عن الرازي - أنه كان أديباً حكيمًا شاعرًا لاعباً بالشطرنج .

أما عبد الرحمن بن رستم الذي يذكر ابن حيان في هذا النص أنه ولي الوزارة والحجابة فترة ما فقد رجح ليبي بروفنسال أن يكون ابنًا أو أخًا لمحمد بن سعيد بن رستم المذكور آنفًا . (انظر ابن القوطية : تاريخ ص ٦٢ ؛ ابن الأبار : الحلة ٢/٣٧٢ - ٣٧٣ ؛ ليبي بروفنسال : تاريخ ١/٢٠١ ، ٢٢٣ - ٢٢٤ ؛ ٢٤٦ ، ٢٧٠ ؛ وعن الرستميين انظر دائرة المعارف الإسلامية تحت هذه المادة ؛ وكذلك مقال الأستاذ محمد بن تاويت : دولة الرستميين أصحاب تاهرت ، في صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمديرية ، المجلد الخامس سنة ١٩٥٧ ص ١٠٥ - ١٢٨ ، وانظر بصفة خاصة ص ١١٦ ، حاشية ٣)

(١١٠) بيانة Baena بلدة تقع على بعد ٦٤ كيلو متر إلى الجنوب الشرق من قرطبة ، وكانت قديماً من أعمال مدينة قبرة Cabra (انظر ابن عبد المنعم الحميري : الروض المعطار ص ٥٩ من النص و ٧٤ من الترجمة الفرنسية والحاشية الواردة في هذا المرجع) .

(١١١) هو عبد الرحمن بن عبد الحميد بن غانم ، وأبوه عبد الحميد بن غانم كان رأس أسرة اشتهر كثير من أفرادها وتولوا أرق المناصب في الدولة الأموية . وكان عبد الحميد بن غانم من موالى عبد الرحمن بن معاوية الداخل ومن كبار رجالات دولته ، وأهدى إليه هذا الأمير جارية كانت له ثم وقعت في أسر أبي زيد عبد الرحمن بن يوسف الفهري عند هجومه على قرطبة أثناء الحرب الدائرة بينه وبين عبد الرحمن بن معاوية في سنة ١٣٨ (٧٥٦) ، فلما استنفذها الأمير الأموي كرهها فأهداها إلى عبد الحميد بن غانم ، فهي أم ولده عبد الرحمن المذكور هنا . وعهد إليه الأمير الداخل بقيادة فرق الرجالة ، كما أسند إليه بعض المهام العسكرية الكبرى مثل تكليفه إياه بالقبض على يحيى بن يزيد بن هشام اليزيدي الثائر على الأمير عبد الرحمن (انظر « أخبار مجموعة » ص ١٠٩ - ١١٠) .

أما عبد الرحمن بن عبد الحميد فقد ولي الوزارة والحجابة للحكم بن هشام ثم لابنه عبد الرحمن خلال فترة قصيرة كما يذكر ابن حيان هنا ، وسوف يذكر هذا المؤرخ عند كلامه عن الوفيات أنه مات في الحبس سنة ٢١٠ (٨٢٥ - ٨٢٦) ، ولسنا نعرف الظروف التي أحاطت بنكبة عبد الرحمن بن غانم حتى أدت به إلى الوفاة في الحبس .

على أننا سنرى في الجزء الخاص بالأمير محمد أن ابنه وليد بن عبد الرحمن بن غانم كان مقرباً من الأمير فولى عدة مناصب كبرى ، منها خطنا المدينة والوزارة وقيادة الجيوش ، وكذلك ابنه محمد وعبد الرحمن اللذان ارتفع شأنهما في أيام عبد الله ابن محمد وحفيده عبد الرحمن الناصر أول خلفاء الأندلس .

انظر ابن القوطية : تاريخ ص ٦٢ ؛ وانظر عن بني غانم عامة ابن الأبار : حلة ١٤١/١ ، ١٦٢ ، ٣٧٤/٢ .

(١١٢) يختلف ما نقله ابن حيان عن ابن القوطية هنا عما نراه في النص المنشور لهذا الكتاب (تاريخ ص ٦٢) ، إذ نجد فيه أن عيسى بن شهيد إنما حجب للأمير محمد نحو العامين فقط . والذي ذكره ابن حيان هو الصواب . ونكرر هنا ما سبق أن أشرنا إليه من التنبيه على أن النص المنشور لابن القوطية لا يمثل الكتاب الحقيقي الذي ألفه هذا المؤرخ والذي ينقل عنه ابن حيان . (راجع تعليقنا السابق رقم ٥٠) .

(١١٣) أحمد بن محمد المذكور هنا هو الجغرافي المؤرخ أحمد بن محمد بن موسى الرازي صاحب التاريخ الذي يعتمد ابن حيان كثيراً عليه . وسوف نعلق عليه في موضعه .

(١١٤) هو العباس بن عبد الله بن عبد الملك بن عمر بن مروان بن الحكم المرواني القرشي . وجدته عبد الملك بن مروان هو الداخل إلى الأندلس قادماً من مصر على عبد الرحمن بن معاوية الداخل سنة ١٤٠ (٧٥٧ - ٧٥٨) ، وكان قد أتى في عشرة من بني هاربا من اضطهاد العباسيين وتنكيلهم بقايا الدولة الأموية في المشرق . فولاه عبد الرحمن على إشبيلية ، وولى ابنه عبد الله - والد المذكور هنا - على مورور Moron ، وأغنى كلاهما في حرب يوسف بن عبد الرحمن الفهري المنازع لعبد الرحمن بن معاوية في السلطنة ، ولما زحف أهل إشبيلية على الأمير الأموي طالبين بثأر أبي الصباح اليحصبي أبل عبد الملك بلاء حسناً في قتالهم ، وكذلك ابنه عبد الله ، فأحفظاه عبد الرحمن وزوج ابنته كنزة من ابنه هشام ولي عهد الأمير وقدمه واستوزر أبناءه عبد الله وإبراهيم وحكما . (انظر « أخبار مجموعة » ص ٩٦ - ٩٩ ؛ ابن الأبار : الحلة السيرة ٣٦/١ - ٣٨ ، ٥٦ - ٥٧ ، ٦٠ ؛ ابن عذارى : البيان ٤٩/٢ ؛ المقرئ : نفع ٥٩/٤ - ٦٠) .

أما العباس بن عبد الله القرشي أو المرواني فقد تقلب كذلك في كثير من مناصب الدولة الكبرى ، إذ ولاه الأمير هشام بن عبد الرحمن على باجة Beja على ما نستخلص من نص لابن القوطية (ص ٤٥) ، ونذبه هنا إلى أن الاسم ورد في النص المطبوع « العباس بن عبد الله المروزي » وهو تحريف صوابه « المرواني » ، ثم ولي الوزارة وقيادة الجيوش كذلك للحكم بن هشام الربضي (ابن عذارى : بيان ٦٨/٢ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، بتحقيق الأستاذ عتار ٤٨٧/١) ، وقد روى الخشني عنه أخباراً تدل على مكانته العظيمة لدى الحكم بن هشام (انظر كتاب القضاة ص ٤٧ - ٤٨ ، ٥٢) ، وكذلك النباهي : المرقبة العليا ، ص ٤٦ - ٤٧ ، ١٩٣ ؛ وأخبار مجموعة ص ١٢٧) . وقد ظل على القيادة والوزارة في عهد

عبد الرحمن الأوسط بن الحكم حتى وفاته سنة ٢١٩ (٨٣٤) كما سيذكر ابن حيان في باب الوفيات . وقد أورد ابن حزم في الجمهرة (ص ١٠٧ - ١٠٨) نصاً طريفاً عن هذه الأسرة عدد فيه كثيراً من أسماء من اشتهروا منهم طوال أيام الدولة الأموية والمعقبين منهم حتى عصره . وسيورد ابن حيان في هذا الجزء من المقتبس أخبار بعض هؤلاء سنمعلق على كل واحد منهم في موضعه . هذا ونلاحظ أن الحشني في بعض المواضع من كتابه والنهاي يذكران العباس المترجم له هنا باسم « العباس بن عبد الملك » لا عبد الله كما هي صحة الاسم ، مما يشكك في أن المذكور في تلك المواضع شخص آخر ، ولكن ينبغي ألا يتوهم شيء من ذلك ، فهذان المؤلفان إنما ينسبانه في تلك المواضع بلده عبد الملك لا لأبيه ، ولعل ذلك لشهرة عبد الملك بن عمر المرواني مؤسس هذا البيت من بيوت الرياسة المروانية في الأندلس .

(١١٥) الوليد بن عبد الله القرشي المذكور فيما يغلب على ظننا هو أخو العباس بن عبد الله الذي أسلفنا الحديث عنه في التعليق السابق .

(١١٦) هو عبد الرؤف بن عبد السلام بن ابرهيم بن يزيد بن عبد الله بن جابر بن عمر بن أيوب مولى مروان ابن الحكم ، كان من كبار رجالات الموالى الأمويين بالأندلس ، وكان جده الأكبر عبد الله بن جابر قاضياً لعمر بن عبد العزيز بالشام ، وأول من دخل الأندلس من هذه الأسرة هو أبوه عبد السلام بن ابرهيم وأخوه أبو المفوز وعقبة ، فتنازلوا بها وخدموا أمراء بني أمية وتصرفوا في الولايات ، وكان أبو الدهاث عبد السلام أميناً للأمير عبد الرحمن بن معاوية الداخلى بكورة إلبيرة . أما عبد الرؤف المذكور فتدلى طليطلة ونواحيها للأمير عبد الرحمن بن الحكم الأوسط سبعة أعوام وتصرف في غير ذلك من الكور ، ثم استوزره عبد الرحمن في آخر أيامه ، واستوزره الأمير محمد بن عبد الرحمن أيضاً ، وتوفى في أيامه وهو وال للوزارة ، وسنرى من حديث ابن حيان بمناسبة ولاية الأمير محمد أنه كان يلقب بالبواب ، إذ كان يتولى حراسة باب الجنان من أبواب قصر قرطبة القبلية (أى الجنوبية) في أواخر أيام عبد الرحمن الأوسط ، وقد رأى الأمير محمد في تلك القصة من أمانته وضبطه ما جعله يقره على عمله حينما ولي مقاليد الحكم في سنة ٢٣٨ (٨٥٢) . انظر كذلك ابن القوطية : تاريخ ص ٨١ - ٨٢) . وكان للدرية عبد الرؤف هذا مكانة عالية في الدولة الأموية . فقد ولي ابنه عبد الوهاب الكور المحنثة وغيرها في أيام الأمير محمد وابنيه المنذر وعبد الله وتوفى بإشبيلية وهو عامل عليها . (انظر ابن الأبار : الحلة ١/ ٢٤٠ - ٢٤١) ، كذلك نعرف مما ذكره ابن حيان نفسه في القطعة الخاصة بإمارة عبد الله من كتاب المقتبس (ص ٥٠ - ٥١) أن عمر بن حفصون الناصر بكورة ريه كان قد أظهر الانقياد والطاعة في أول ولاية عبد الله ابن محمد ، فقبل منه الأمير سنة ٢٧٥ « ٨٨٨ » وسجل له على عمل كورة ريه ولكنه أشرك معه في حكمها عبد الوهاب بن عبد الرؤف المذكور ، وتظاهر عمر بن حفصون بالقبول ولكنه لم يلبث أن عاد إلى النكث وخلع الطاعة وطرده عبد الوهاب وتفرد بكورة ريه . ونعرف كذلك من أخبار هذه الأسرة ما يذكره صاحب القطعة مجهولة المؤلف في تاريخ عبد الرحمن الناصر عن محمد بن عبد الوهاب بن عبد الرؤف ، إذ يذكر أن أول غزوة غزاها عبد الرحمن سنة ٣٠٠ (٩١٢) كانت إلى حصن المتلون الذي كان الناصر سعيد بن هذيل معتصماً به ، فضرب عبد الرحمن عليه الحصار ومازال به حتى استأمن ابن هذيل وأسلم الحصن بعد أن أرهقه الحصار ، فقبل منه عبد الرحمن وولى على الحصن عاملاً من قبله هو محمد بن عبد الوهاب المذكور (انظر ص ٣٦ من النص العربي و ٩٩ من الترجمة الإسبانية) . ويزيدنا ابن الأبار أن محمد بن عبد الوهاب ولي كورة جيان ومات بها . وأخيراً نعرف من أفراد هذه الأسرة الوزير أبا وهب عبد الوهاب بن محمد بن عبد الوهاب

ابن عبد الرووف الذي اختصه ابن الأبار بترجمة طويلة ذكر فيها أن عبد الرحمن الناصر استوزره وصرفه في الولايات وكان بصيراً بالعربية والنحو ، شديد التكبر ، وأورد جملة من شعره (الحلقة ١/٢٤٠ - ٢٤٤ ؛ الزبيدي : طبقات النحويين واللغويين بتحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم ص ٣٢١) . كذلك ترجم ابن الأبار لأخيه غالب بن محمد بن عبد الوهاب الذي ولي خطة العرض وكان كاتباً للحكم المستنصر قبل أن يلي الخلافة ، وأورد قطعاً من شعره (الحلقة ١/٢٤٤-٢٤٥) . وانظر عن هذه الأسرة بوجه عام لبي بروفنسال : الأندلس في القرن العاشر ص ١٠٣ .

(١١٧) عن أسرة بني السليم انظر تعليقتنا السابق رقم ٧ .

(١١٨) عن أسرة بني بسيل انظر تعليقتنا السابق رقم ١٩ .

(١١٩) عن عبد الواحد بن يزيد الإسكندراني انظر التعليق رقم ١٢ .

(١٢٠) لاشك في أن عبد العزيز بن هاشم المذكور هنا هو والد الوزير المشهور هاشم بن عبد العزيز الذي كان أكثر وزراء الأمير محمد خظوة لديه وقرباً منه وأخيه أسلم بن عبد العزيز الذي ولي قضاء الحماجة لعبد الرحمن الناصر . وقد اختلف المؤرخون في نسب هذه الأسرة المشهورة على ما سنفصله بعد عند التعليق على اسم هاشم بن عبد العزيز ، ويبدو لنا أنها من رهن عبد الله بن خالد الذي كان من أعظم أعوان عبد الرحمن بن معاوية الداخل عند قدومه إلى الأندلس وسيرد فيما بعد أن عبد العزيز بن هاشم هذا كان يلقب بسعاد .

(١٢١) هو أبو الحجاج يوسف بن بخت الفارسي مولى عبد الملك بن مروان بن الحكم ، دخل الأندلس في طاعة بلج ابن بشر القشيري سنة ١٢٣ (٧٤١) ، وكان من رؤساء الموال الأمويين بكورة دمشق (أي إلبيرة *Elvira*) هو وعبيد الله ابن عثمان وعبد الله بن خالد ، وكانوا قد حضروا واقعة شقندة *Secunda* مع يوسف بن عبد الرحمن الفهري والصميل بن حاتم ، وكان لهم فيها بلاء عظيم ، فكانوا من يوسف بأشرف المنازل ، ولما ترددت الأنباء بمزيمة عبد الرحمن بن معاوية على الجواز إلى الأندلس ووقد سفروا إلى هذه البلاد انضم يوسف بن بخت إلى هذه الدعوة وكان من القادمين بأمر عبد الرحمن المروجين لدعوته ، وهو الذي أخذ له بيعة جند الأردن (ريه أو مالقة *Malaja*) . ولما هاجز عبد الرحمن البحر أقبل عليه عبيد الله بن عثمان وعبد الله بن خالد ، فنقلاه إلى قرية طرش *Torrox* منزل أبي الحجاج يوسف بن بخت وأتاه هذا ، فانثالت عليه الموال الأموية كلها ، وعرف له عبد الرحمن فضل سابقته بعد أن تمهد له الأمر ، فولاه حجابته ، وكان يستخلفه على قصر قرطبة عند غيابه ، ولمسامت عبد الرحمن الداخل وخلفه ابنه هشام ظل قريب المكانة منه ، فعهد إليه الأمير ببعض مناصب القيادة ، فكان هو قائد الحملة التي توجهت إلى جليقية في سنة ١٧٦ (٧٩٢) ، فالتق ببرمود *Vermudo* الملقب بالكبير ملك جليقية وأشتوريش وألحق به هزيمة ساحقة ، وبلغ النوى في هذه الغزوة على ما يذكر بعض المؤرخين ٣٩,٠٠٠ (كذا ، وفيه مبالغة كبيرة بغير شك) . وتوفى بعد ذلك بطليطلة في تاريخ لا نعرفه على وجه التحديد .

وكان ليوسف بن بخت ذرية ناهية أولها ابنه جهور بن يوسف الذي كان وزيراً للأميرين الحكم بن هشام الربضي

وابنه عبد الرحمن ، ويسميه صاحب « أخبار مجموعة » (شيخ الوزراء) في أيام عبد الرحمن الأوسط ، وتوفي على ما سيذكر ابن حيان في باب الوفيات في سنة ٢١٩ أو ٢٢٠ (٨٣٤ - ٨٣٥) .

والذي ورد في النص من أن « يوسف بن بخت » كان من وزراء عبد الرحمن بن الحكم يبدو لنا أمراً عسيراً على التصديق إذ هو يقتضى أن يكون عمر أبي الحجاج يوسف قد طال حتى جاوز المائة بكثير ، وهو شئ لو كان صحيحاً للاحظه أحد ممن تحدثوا عنه وسجلوه ، ثم إننا لم نر أحداً من المؤرخين أثبت كونه وزيراً لعبد الرحمن الأوسط - فيما عدا النص الذي بين أيدينا - إلا ابن القوطية في تاريخه (ص ٦٢) ، بينما تقف الأخبار التي جمعناها عنه عند غزوته السالفة الذكر الجليقية في سنة ١٧٦ (٧٩٢) . وأرجح الظن عندنا هو أن هناك سهواً من الناسخ في هذا المكان - فنحن نحسن الظن بمؤرخنا ابن حيان وبمجمعه في هذا الموضع وهو أحمد بن محمد الرازي ، وكلاهما من أهل الضبط والتحقيق - وأن المقصود هنا ليس يوسف ابن بخت وإنما هو ابنه جهور بن يوسف بن بخت الذي توفي كما ذكرنا بين سنتي ٢١٩ و ٢٢٠ ، لا سيما وأن سائر المراجع تذكر جهور بن يوسف المذكور بين وزراء الأميرين الحكم وابنه عبد الرحمن . (انظر في أخبار يوسف بن بخت وابنه جهور أخبار مجموعة ص ٦٦ ، ٧٦ ، ٨٥ ؛ ابن القوطية ص ٢٣ ، ٣٨ ، ٦٢ ؛ ابن عذارى : بيان ٢-٤٥ - ٤٦ ، ٦٣ - ٦٤ ؛ ابن الأبار : الحلة ٢/٣٧٥ ؛ المقرئ : نفع ١/٣١٦ ، ٤/٣١ ، ٤٥ ، ٥١ ؛ ليني بروفنسال : تاريخ ١/١٤٣ ؛ حسين مؤنس : فجر الأندلس ص ٢٣٧ ، ٣٩٨ ، ٤٠٠ ، ٦٦٦ ، ٦٦٨) . وقد توارث بنو جهور البختيون هؤلاء مناصب الوزارة وكهريات الخطط لأمرأى بنى أمية وخلفائهم كما سوف نرى عندما يعرض ابن حيان في هذه القطعة نفسها لنفر منهم .

(١٢٢) سوف يترجم ابن حيان لعبد الله بن أمية هذا ترجمة مفصلة في معرض الحديث عن كتاب الأمير محمد .

(١٢٣) هو حسن بن عبد الغافر بن أبي عبدة حسان بن مالك بن عبد الله بن جابر ، وكان عبد الله بن جابرمملوكاً لمروان ابن الحكم أبل يوم مرج راهط بلاط حسنا في صفوف الجيش المرواني مما خلل مروان على أن يمن عليه بإعتاقه ، وكان أول من دخل الأندلس من هذه الأسرة هو أبوه عبدة حسان بن مالك جد المذكور هنا ، دخل سنة ١١٣ (٧٣١) ، وكان له أولاد قتلوا بالمشرق ، لم يبق منهم إلا عبد الغافر لصغر سنه ، فنشأ في المشرق مع عبد الرحمن بن معاوية وتأدب معه ، فلما قدم بدر مولى عبد الرحمن إلى مواليه الشاميين بالأندلس لتهديد أمره في هذه البلاد استراح بخبره إلى أبي عبدة فاستجاب له على الفور ، ووجه ابنه عبد الغافر إلى عبد الرحمن وأيده على أمره . فلما تولد الملك للدخول استوزر أبا عبدة وقدمه على جيوشه ، ثم استعمله على إشبيلية قائداً بها ، وعهد إليه بالتضييق على أهل باجة الثائرين على سلطته ، وأبدى أبو عبدة كفاية وحزماً وانتقاد له غرب الأندلس كله فظل يحكم هذه الرقعة خمسة أعوام حتى توفي بإشبيلية . أما عبد الغافر بن أبي عبدة والد الوزير المذكور هنا فإنه تصرف في الوزارة كذلك لعبد الرحمن ، ثم عهد إليه الأمير هشام بن عبد الرحمن عند ولايته بقيادة الشرطة ، ويبدو أن عمره طال حتى أدرك إمارة الحكم بن هشام الربضي فكان صاحب أختامه ، وهي وظيفة استقل بها من قبل في عهد هشام بن عبد الرحمن . وكان أخوه عبد العزيز يشرکه أيضاً في الوزارة للحكم الربضي .

عن أبي عبدة حسان بن مالك انظر ابن عذارى : بيان ٢/٤٨ ؛ ابن القوطية : تاريخ ص ٣٨ ، أخبار مجموعة ص ٧٦ المقرئ : نفع ٤/٤٥ ؛ ابن خلدون : العبر ٤/٣٤٣ ؛ والدكتور حسين مؤنس : فجر الأندلس ص ٤٠٩ .

وقد تكاثرت سلالة الوزير أبي عبدة وأبنائه في الأندلس وتولى الكثيرون منها أعلى مناصب الدولة ، على أنهم من الكثرة بحيث لا نستطيع استيفاءهم في هذا التعليق ، وما يزيد في عسر الأمر أن المؤرخين الذين أشاروا إليهم يكتبون برفع أنسابهم إلى أبي عبدة دون تحديد لشجرات النسب وتسلسله مما لا يمكننا من التعرف على مدى قرابة بعضهم لبعض . ويكفى أن نذكر هنا أن ابن حيان في الجزء الخاص بالأمير عبد الله من كتاب « المقتبس » (نشر أنطونيا ، ص ٥ - ٦) يقول : « ومن الغريب أن اجتمع في بيت الوزارة في أيامه أربعة رجال من وزرائه أقارب من بيت واحد من صميم الموالي آل أبي عبدة حسان بن مالك هم : أبو عثمان عبيد الله بن محمد بن أبي عبدة ، وأبو العباس أحمد بن محمد بن عيسى بن أبي عبدة ، وسالم ابن علي بن أبي عبدة ، وعبد الرحمن بن حمدون بن أبي عبدة المعروف بدحيم » . وقد كان أشهر هؤلاء القائد أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي عبدة الذي يعتبر من عباقرة القادة العسكريين والذي ظل طيلة أيام الأمير عبد الله يتردد بالحملات على الثائرين والناكثين بغير انقطاع ، فلما مات الأمير عبد الله وخلفه حفيده عبد الرحمن ظل في خدمته وما زال يتردد بالحملات حتى استشهد أخيراً في سنة ٣٠٥ . (٩١٧) في موقعة قاشتره مورشي Castro muros بعد أن أبلى أعظم البلاء ويل القائد أبا العباس في الشهرة أبو عثمان عبيد الله بن محمد بن الفمر بن يحيى بن عبد الغافر بن أبي عبدة الذي تصرف للأمير عبد الله بن محمد في الكور وحجاية الأولاد والمدينة والخيل والقيادة ، واستأذن في الحج فأدى الفريضة وعاد فلزم داره واخل ذكره بعد ذلك بتدبير من بدر بن أحمد الخصى الصقل وصيف الأمير ، وقد ولي كورة جيان وظل يتردد بالحملات على الثوار ، وكان له فضل بناء كثير من الحصون منها حصن أندوشر Andujar ، وقد روى لنا ابن حيان في المقتبس كثيراً من أخبار حملاته (الحلة السراء ١٤٦/١ - ١٤٧ ؛ المقتبس ، نشر أنطونيا ص ٦ ، ٤٨ ، ٥١ - ٥٢ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٣ ، ١٠٦) ، وكانت وفاته في سنة ٢٩٦ (٩٠٩) .

ولاسم عبيد الله بن محمد الفمر المذكور أهمية خاصة في التاريخ الأندلسي ، إذ من صلبه ينحدر الرئيس أبو الحزم جهور أول ملك من ملوك الطوائف في قرطبة ومؤسس دولة الجهورية التي حكمت عاصمة الأندلس القديمة بعد انتشار سلك الدولة المرورية . فأبو الحزم جهور هو ابن محمد بن جهور بن عبيد الله بن محمد المذكور .

ونود بهذه المناسبة أن نصحح خطأ في نسب بني جهور وقع فيه بعض المؤرخين القدماء وأوقع في اللبس والاضطراب كثيراً من الباحثين ، فالنسب الذي أوردناه هو الصحيح وهو الذي أثبتته ابن حيان نفسه (كما ينقل عنه ابن بسام : الذخيرة ، القسم الأول : الجزء الثاني ص ١١٧) ، وهو الذي اتفق عليه كذلك ثقات المؤرخين القدماء قريبو المهدي بملك الأسرة الجهورية ، مثل الحميدى (جلوة المقتبس ، ترجمة رقم ٣٥٨ ص ١٧٦ وكذلك ص ٢٦ وأغلب الظن أنه ينقل في هذا الموضع - كما ينقل في كثير من صفحات كتابه - عن أستاذه ابن حزم وهو ما هو من الضبط والمعرفة الدقيقة بأنساب رجال الدولة المرورية وأخبارهم ، وعن الحميدى ينقل الضبي في بنية الملتمس ص ١٣ و ص ٢٤٣ - ٢٤٤ ، ترجمة ٦٢٣ ، وعبد الواحد المراكشي في المعجب ص ٥٧) ، وابن بشكوال في كتاب الصلة (ترجمة رقم ٢٩٧ ص ١٣٢) ، وابن الأبار في الحلة (٢٤٥/١) ، وهو ينقل هذا النسب عن كتاب أحمد بن محمد بن موسى الرازي « الاستيعاب » في أنساب موالى بني أمية) ، ولكننا مع ذلك نطالع في كتابي « البيان المغرب » لابن عذارى المراكشي و « أعمال الأعلام » لابن الخطيب نسباً مغايراً لما ذكرنا . أما ابن عذارى فيذكر نسب أبي الحزم جهور أول ملك دولة بني جهور في قرطبة على النحو التالي :

جهور بن محمد بن جهور بن عبد الملك بن جهور بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن الغمر بن يحيى بن عبد الغافر بن يوسف بن بخت بن أبي عبدة « (البيان ١٨٥/٣) .

ولو قارنا بين الجدول الأول الذي أثبتناه (عن ابن حيان والحميدى - أو ابن حزم - وابن بشكوال والرازي) وبين جدول ابن عذارى (ولستأ ندرى من أين نقله فهو لا ينص على مصدره هنا) لوجدنا أن ابن عذارى أضاف إلى سلسلة النسب الأولى خمسة أسماء لا أقل وهي : « عبد الملك بن جهور » الذى وضعه بين جهور الأكبر وعبيد الله (وهو هنا يحرف الاسم كذلك إلى عبد الله) ، ثم « أحمد » بين عبيد الله المذكور ومحمد ، وأخيراً « يوسف بن بخت » بن عبد الغافر وأبي عبدة .

ويضيف ابن عذارى إلى ذلك توضيحاً يقول فيه إن جده بخت بن أبي عبدة كان من الفرس مولى لعبد الملك بن مروان ، ودخل يوسف بن بخت إلى الأندلس قبل دخول عبد الرحمن بمدة وكان أحد كبار الموالى بقرطبة . (البيان ١٨٥/٣-١٨٦) .

أما ابن الخطيب فهو يذكر هذا النسب على النحو التالى : « أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور بن عبيد الله بن أحمد ابن محمد بن الغمر بن يحيى بن عبد الغافر بن يوسف بن بخت بن أبي عبدة » (أعمال الأعلام ص ١٤٧) ، ثم يضيف كلمة عن دخول جدهم « يوسف بن بخت بن أبي عبدة إلى الأندلس وعظيم أثره وسعة باعه » . . إلى آخره . وبتأمل هذا الجدول نرى أن ابن الخطيب كان أكثر « تواضعاً » ، فهو لم يزد على سلسلة النسب التى أوردناها أولاً إلا ثلاثة أسماء : « أحمد » ابن عبيد الله ومحمد ، ثم « يوسف بن بخت » بن عبد الغافر وأبي عبدة .

وقد بدأ أمر هذا النسب الملتف المعقد مشكلة أمام الدكتور حسين مؤنس حينما رأى ابن الأبار يترجم فى الحلة السيرة (٣٧٥/٢) للوزير محمد بن عبد الملك بن جهور بن يوسف بن بخت ، فعلق على هذا النسب قائلاً : « يلاحظ التناقض بين ما يذكره ابن الأبار هنا من أن جهور من أحفاد يوسف بن بخت وما قاله قبلاً من أن الجهاورة من أحفاد حسان بن مالك المعروف بأبي عبدة . وإلى أن نعث على الجزء الأول من تاريخ ابن حيان لن نستطيع القطع فى الموضوع » . (حاشية رقم ١) .

ويبدو لنا أن الدكتور حسين مؤنس - وهو بدوره مؤرخ واع مدقق - لم يكتب هذا الكلام عما سماه « تناقض » ابن الأبار إلا وفى ذهنه سلسلتا النسب اللتان أوردتهما ابن عذارى وابن الخطيب ، وإلا فإن الأبار لم يتناقض فى شئ ، فهو لم يذكر أبداً أن لأسرة يوسف بن بخت أدنى صلة بالجهاورة الذين قدر لهم أن يحكموا قرطبة . أما ما يقوله الدكتور مؤنس من أن علينا أن نتنظر حتى نعث على الجزء الأول من تاريخ ابن حيان حتى نستطيع القطع فى الموضوع فإن الأمر أيسر مؤونة من هذا ، وفى وسعنا أن نقطع فيه دون حاجة إلى هذا الانتظار ، بل يكفيننا أن نتأمل ما تجمع لنا من أخبار هذه النسبة من المراجع ونقارن بينها ونقوم هذه الأخبار بما تستحقه من ثقة .

فن الواضح بعد ما نقلناها أن هناك بيتين من كبار بيوتات الموالى الأمويين وجدا فى الأندلس منذ عصر مبكر : هما بيت يوسف بن بخت الفارسى مولى عبد الملك بن مروان بن الحكم ، الداخلى فى طالمة بليج بن بشر القشيري سنة ١٢٣ (٧٤١) (انظر تعليقنا السابق رقم ١٢١) ، وبيت أبي عبدة حسان بن مالك الداخلى إلى الأندلس فى سنة ١١٣ (٧٣١) ، وقد كان لمؤسى هذين البيتين دور كبير فى تمهيد دولة عبد الرحمن بن معاوية الداخلى عند قدومه إلى الأندلس وبلاءه عظيم فى توطيد

دعائم الدولة المروانية والكفاح ضد الثائرين بها الساعين لتقضيها ، مما جعل عبد الرحمن يصطنع كلا الرجلين ويختصهما بشقته ، ومضى ذلك تقليداً في أسرته فجرى أمراؤها على اصطناع رجال من بني أبي عبدة وبني بخت حتى نهاية دولتهم تقريبا . وهما أسرتان مختلفتان متميزتان تماما ، ولكن تصادف أن تسمى أفراد من كليهما باسم جهور ، أولهم جهور بن يوسف بن بخت ثم حفيد هذا : جهور بن عبد الملك بن جهور البختي ، وكلاهما تولى الوزارة ، أما الأسرة الثانية ؛ بيت أبي عبدة فأول من تسمى فيها باسم جهور هو ابن عبيد الله بن محمد بن الغمر ، وتبعه حفيده أبو الحزم جهور أول من ولي ملك قرطبة بعد انقراض عقد الدولة المروانية ومنشئ دولة الجهاورة .

وكان هذا الاتفاق في اسم (جهور) بين أفراد من البيتين هو الذي جعل الأمر مختلطاً ويلتبس على ابن عذارى وابن الخطيب فيخلطان في نسب الجهاورة هذا التخليط الغريب ، فابن الخطيب يقحم اسم يوسف بن بخت بين عبد الغافر وأبي عبدة ، ويجعل بختا ابن أبي عبدة ، ثم يمضي متحدثا عن يوسف المذكور وأعماله ، فضلا عن إقحام اسم « أحمد » في موضع آخر ، ولذلك علة هو أنه وجد في بيت بني أبي عبدة أجداد الجهاورة اسم مشهور الذكر طائر الصيوت هو القائد أحمد بن محمد بن عيسى ابن أبي عبدة الذي كان أعظم قواد الأمير عبد الله بن محمد وعبد الرحمن الناصر من بعده ، ولعله أعظم من أنجهم الأندلس من القيادة المسكرين على الإطلاق ، فلم ير ابن الخطيب بأسا في أن يقحمه في سلسلة النسب التي أوردتها . أما ابن عذارى فقد كان تخليطه أشد ، فهو فضلا عن الأسماء التي أقمعها موافقا ابن الخطيب فيها أضاف من حصيلته اسمين آخرين هما « عبد الملك بن جهور » ولا شك في أن ذلك راجع إلى أن من بين البختيين وزيرا أشتهر في أيام الأمير عبد الله بن محمد هو « جهور بن عبد الملك » وابنا له يدعى عبد الملك بن جهور ولي الوزارة لعبد الرحمن الناصر ، فلم ير ابن عذارى بدوره بأسا - وقد اختلط عليه أمر الأسرتين - في أن يضيف « عبد الملك بن جهور » إلى جدول نسب بني أبي عبدة .

هذا وقد وقع لي بروفنسال في هذا الخلط أيضا حينما نسب بعض وزراء عبد الرحمن الناصر البختيين إلى بني أبي عبدة (انظر كتابه الأندلس في القرن العاشر ص ١٠٠ - ١٠١) .

(١٢٤) جاء في النص المنشور من كتاب ابن القوطية موجز هذه الفقرة ، وقد اختصرت في أقل من سطرين ، وسنورده فيما يلي حتى يتجلى مدى الفرق بين هذا النص المطبوع ، وما ينقله ابن حيان عن ابن القوطية : « وعبد الرحمن أول من رتب اختلاف الوزراء الى القصر والتكلم في الرأي على ما هو جار إلى اليوم » (انظر تاريخ افتتاح الأندلس ص ٦١) . وما يورده ابن حيان حافل بتفاصيل على أكبر جانب من القيمة والخطر في بيان ترتيب جلوس الوزراء والطريقة التي كان يجري بها اتصال الأمير أو الخليفة بوزرائه ، وهي أشبه ما تكون بما نعرفه في عصرنا الحاضر من الاتصال بين رئيس الدولة وأجهزة الحكم المختلفة .

(١٢٥) عن عبد العزيز بن هاشم انظر تعليقنا السابق رقم ١٢٠ .

(١٢٦) ربما كان عبد الواحد بن يزيد الإسكندراني من أول من عهد إليهم بمنصب « صاحب المدينة » فيما نعرف ، فالكثير من هذه الخلط التي استقرت رسومها بعد ذلك في ظل خلافة بني أمية وتأصلت في الأندلس حتى نهاية الإسلام في تلك البلاد إنما بدأت في الظهور والتحدد في أيام عبد الرحمن بن الحكم الأوسط ، إذ كان هو الذي أعطى الدولة المروانية رونقها

ونظم آيينها ورتب طبقات الخدمة فيها . أما خطة المدينة فيبدو أنها كانت بمثابة الحكم والإشراف على الأمن العام فيها ، وصاحب المدينة في قرطبة كان هو حاكمها العام أو « محافظها » كما نقول اليوم في مصر . وكان أصحاب الشرطات الثلاث : الشرطة العليا والوسطى والسفلى يخضعون له ويأتمرون بأمره ، وإن كنا لم نستطع حتى الآن أن نميز تمييزاً واضحاً بين اختصاصات صاحب المدينة وأصحاب الشرط المذكورة . ويذكر ليني بروفنسال نقلاً عن ابن حيان في القسم المفقود من « المقتبس » الذي يؤرخ فيه لعصر الأمير الحكم الربضي بن هشام ومعظم إمارة عبد الرحمن الأوسط (ورقة ١٤٢ وجه) أن « والي المدينة » في عهد هذا الأمير الأخير كان يتقاضى وظيفة أو مرتباً شهرياً يبلغ مائة دينار . وقد كان هناك خلال عصر الأمانة الأموية صاحب واحد للمدينة ، فلما اتسعت خطط قرطبة وامتد العمران فيها بعد إعلان الخلافة وبناء مدينة الزهراء ، أصبح هناك صاحب لمدينة الزهراء مستقل العمل عن صاحب المدينة في قرطبة ، وحدث مثل ذلك حينما بنى المنصور بن أبي عامر مدينة الزاهرة ، إذ عين لها « صاحب مدينة » خاص أيضاً . وسوف يرد في هذا الجزء الذي نشره من « المقتبس » من أخبار من ولوا هذه الخطة ما يوضح لنا الكثير من جوانبها وتفاصيل أعمالها ، وفي الجزء الذي نشره الأستاذ عبد الرحمن الحجى المتعلق بسنوات من حكم الخليفة الحكم المستنصر تفاصيل أخرى على أكبر قدر من الخطر والطرافة ، ويكفي أن نذكر أن ابن حيان يشير إلى هذه الخطة أو المتقلدين لها في أكثر من ثلاثين موضعاً في هذا الجزء الصغير من كتابه . وما يجدر بالذكر أن هذه الخطة الأندلسية قد انتقلت إلى إسبانيا المسيحية المجاورة كما انتقل كثير من النظم بأوضاعها ورسومها وأسماؤها العربية بحكم التفوق الحضارى للمسلمين الأندلسيين على جيرانهم في دول إسبانيا المسيحية ، فإذا بنا نجد منذ أواخر القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) في ملكتي نبرة Navarra وأرغون Aragon منصبا إدارياً قضائياً مقابلاً لخطة « صاحب المدينة » في الأندلس الإسلامى وكانوا يسمونه zabalmedina أو مختصراً في صورة Zalmedina (وهما لفظان مأخوذان من مقابلتهما العربى كما هو واضح) ، ثم تطورت تسمية هذه الوظيفة فدعى متوليها Justicia Mayor وقد أفرد المستشرق الإسباني خوليان ريبيرا Julian Ribera هذه الخطة في ملكة أرغون بدراسة تاريخية بديعة أثبت فيها أصولها العربية الأندلسية في كتابه « أصول خطة » الخوستيثيا » في أرغون » ، ط . سرقطة سنة ١٨٩٧ :

Julian Ribera y Tarrago : Origenes del Justicia de Aragon, Zaragaza, 1897.

انظر كذلك ليني بروفنسال : تاريخ ١٥٨/٣ - ١٥٩ .

(١٢٧) وردت هذه الفقرة وقد اختصرت كذلك اختصاراً شديداً ولحقها كثير من التحريف والتشويه في النص المطبوع من كتاب ابن القوطية (ص ٧٤ - ٧٥) . هذا وقد أورد المقرئ في نفع الطيب (٨٢/٥) خبراً جرى بين الإسكندراني هذا ومحمد بن سعيد الزجال يفهم منه كيف كان اشتغال الإسكندراني في شبابه بالغناء مريباً له كما قال له الحاجب عيسى بن شهيد . يقول المقرئ : « وحضر [الزجال] مع الوزير عبد الواحد بن يزيد الإسكندراني في مجلس فيه رؤساء فعرض عليهم فرس مطهم ، فتشل فيه عبد الواحد بقول امرئ القيس :

* بريد السرى بالليل من خيسل بربرا *

فهم الزجال بأنه عرض بأنه من البربر ، فلم يحتمل ذلك ، وأراد الجواب فقال مدبجاً لمسا أرادته ومعرضاً : أحسن عندي من ليل يسرى ب فيه على مثل هذا يوم على الحال التي قال فيها القائل :

ويوم كفل الرمح قصر طسوله دم الزرق حنا واصطفاق المزاهبر

ولما عرض للإسكندراني بأنه كان يشهد مجالس الراحة في أول أمره ومعرفة الغناء .

(١٢٨) أورد لنا ابن حيان في هذا النص أخباراً جديدة لم تكن معروفة من قبل عن أولية بيت أمية ابن يزيد الذين توارثوا الكتابة والوزارة وغيرها من المناصب الكبرى لأمرأه بن مروان . أما الأول أمية بن يزيد فقد دخل الأندلس في طالمة بلج بن بشر القشيري من الشاميين في سنة ١٢٣ (٧٤١) ، فاتصل بخالد بن زيد كاتب يوسف ابن عبد الرحمن الفهري ووزيره ، وتلمذ عليه واشتغل بالكتابة تحت نظره ، فلما تولد ملك الأندلس لعبد الرحمن بن معاوية الداخل صار خالد بن يزيد إلى كتابته ، غير أنه نفر بعد ذلك عن القرار بالأندلس وسأل الإذن بالخروج إلى المشرق ، ولعله فعل غضبا لمولاه يوسف بن عبد الرحمن حينما أوقع به عبد الرحمن الداخل وقتله ، فأذن له الأمير ، واستكتب بعده أمية بن يزيد واشتمل عليه لكونه من مواليه ، ويروي ابن الأبار هنا خبراً يصور مدى وفاء أمية بن يزيد لأستاذه خالد ، إذ يقول إن الأمير عبد الرحمن أمره بأن يكتب كتاباً بسراج خالد وإخراجه من الأندلس فأبى أمية ذلك وقال : معلمى وولى الإحسان قبل يكون أول شئ يجرى له على يدى الكتابة بخروجه عن أهله وماله ؟ ! وارتفعت مكانة أمية بعد أن استقل بالكتابة وأصبح في عداد ما يشاورهم الأمير ويؤثر آراهم ، وقيل إنه كان من أهموا في ثورة يحيى بن يزيد الهشامى ، فاتفق أن مات قبل قتل اليزيدى وإطلاع عبد الرحمن على ما كان خافيا من أمر تلك المؤامرة (انظر ابن الأبار : الحلة ٣٧٣/٢ ؛ نفس المؤلف ؛ إعتاب الكتاب ص ٧١ - ٧٢ ؛ ابن عذارى : بيان ٥٨/٢ ؛ المقرئ : نقح ٤٥/٤) ، وكانت وفاة أمية في سنة ١٥٤ (٧٧١) هل ما يذكر ابن حيان هنا .

وأعقب أمية بن يزيد ولداً هو محمد بن أمية الذى اشتغل بالكتابة أيضاً للأميرين هشام وابنه الحكم ، غير أنه اتهم بالميل إلى عمه سليمان بن عبد الرحمن بن معاوية الذى بدأ ثورته على هشام أخيه وواصلها في عهد الحكم ، بل إنه كان على ما يظهر هو المعرض لسليمان على مواصلة المصيان والثورة ، ويروي ابن سعيد بهذه المناسبة عن « تاريخ ابن حيان » نفسه نصاً له أهميته فيما نحن بصدده ، إذ يقول : « وكان سليمان قد هم بالركون [أى إلى الطاعة والانقياد] حتى كتب إليه ابن أمية :

لا تقبلن عهداً لا وفاء لها إن المدير عليك الرأى شيطان

إن الصدور التى استعذبت أولها أعجازها لك إن حصلت خطبان

كيف المقام بأرض ليس يملكها ذاك المبرأ من نقص سليمان »

(المغرب ٧١/١ - ٧٢ . وإنما أوردنا هذا النص الذى ينقله ابن سعيد عن « المقتبس » لأنه قد يكون من بين ما ذهب فى القطع الذى لحق آخر الصفحة التى جاء فيها ذكر بنى أمية بن يزيد من الأصل المخطوط ، وبهذا يكون مكملًا للفجوة التى لحقت هذا الموضوع كما نهنا على ذلك فى هذا الموضوع من حواشى تحقيق النص) . وكانت وفاة محمد بن أمية بن يزيد فى سنة ٢٢٦ (٨٤١) على ما يذكر ابن حيان وهو شامل معزول عن الكتابة .

أما عبد الله بن محمد بن أمية بن يزيد فقد ولى الكتابة والوزارة للأميرين عبد الرحمن بن الحكم وابنه محمد ، وتصرف قبل الوزارة فى الولاية والعرض (ابن الأبار : الحلة ٣٧٣/٢) ، وأثنى عليه ابن القوطية وقال إن الأمير محمداً عند ولايته

أقره على الكتابة فتصرف فيها نحو عامين (٢٣٨ - ٨٥٢/٢٤٠ - ٨٥٥) ، ثم أقعدته علة عن الركوب أعواما أقام الخدمة فيها قومس بن أنتنجان إلى أن توفى عبد الله سنة ٢٤٦ (٨٦٠ هـ) ، فولى قومس الكتابة بعده (انظر ابن القوطية : تاريخ ص ٦٢ ، ٨٢ ، ٨٥ ؛ وابن الأبار : حلة ٣٧٣/٢) .

واشتهر من بيت بني أمية هؤلاء بعد عبد الله المذكور إبنائه : محمد الذي ولى الوزارة لعبد الرحمن بن محمد الناصر وتوفى سنة ٣٠٩ (٩٢١ - ٩٢٢) (انظر ابن عذارى : بيان ١٨٢/٢) ؛ وعبد الملك بن عبد الله بن أمية الذي سيقص علينا ابن حيان في هذا الجزء من « المقتبس » جملة من أخباره ، ونعرف منها أن الأمير محمداً وولاه « الكتابة العليا » بعد وفاة حامد بن محمد الزجاجي ، ولم يكن يستكمل أدواتها مما أثار عليه حسد كثير من رجالات الدولة وتشنيعهم عليه ، وكان أشدهم في ذلك الوزير هاشم بن عبد العزيز ، ولكن الأمير محمداً تمسك به ولم يقبل فيه قول أعدائه ومنافسيه ، ثم ولى الوزارة والقيادة للأمير عبد الله بن محمد ، وقتله المطرف بن الأمير عبد الله في سنة ٢٨٢ (٨٩٥) في خبر طويل يقصه ابن حيان في الجزء الذي نشره أنطونيا من المقتبس (انظر ص ٧٩ ، ٨٢ ، ١٠٨ ، ١١١ ؛ ابن عذارى : البيان ١٢٤/٢ ، ١٥١ ، ١٥٢ ؛ العذري : جغرافية ص ١٠٣) . ثم مروان بن عبد الملك بن عبد الله بن أمية الذي ولى القيادة بعد أبيه حتى سقط عليه الأمير عبد الله فقبض عليه وبجبهته ثم قتله سنة ٢٨٤ (٨٩٧) (المقتبس ص ٤ ، ١١٤ ، ١١٨ ، ١٢٢) .

كذلك يبدو أنه كان من أفراد هذا البيت وليد بن أمية بن يزيد الذي سيذكره ابن حيان في الجزء الخاص بالوفيات ، قائلاً إنه توفى سنة ٢١١ (٨٢٦ - ٨٢٧) وإن كان مؤرخنا لا ينص صراحة على أنه من هذا البيت ولا يزيدنا بيانا بشئ من أخباره .

(١٢٩) لعله يعنى محمد بن موسى الفائق الذي سيشير إليه ابن حيان عند كلامه عن الوفيات في آخسر هذا الفصل ، وسيذكر المؤرخ في ذلك الموضع أنه ولى الوزارة وللكتابة وأنه توفى سنة ٢١٥ (٨٣٠) ولم نجد في المراجع الأخرى ما يزيدنا بيانا عنه .

(١٣٠) لم نعتز في المراجع الأخرى ما يزيدنا معرفة بكليب الكاتب هذا ، فيما عدا إشارة عابرة وردت في « الجهرة » لابن حزم (ص ٩٤) جاء فيها أن من بين ولد عبد الرحمن بن معاوية الداخل رجلا يدعى مسلمة ، وكان يلقب بكليب ، وإليه تنسب أرحى كليب بقرطبة على الوادي الكبير ، ووصفه ابن حزم بأنه « الكاتب » وقال إن عقبه انقرض في سنة ٤٢٢ (١٠٣١) في خبر طريف يدل به ابن حزم على فائدة علم النسب (الجهرة ص ٦ ، ٩٤) فلعل « كليب الكاتب » الذي يذكره ابن حيان هو نفس الذي يتحدث عنه ابن حزم .

(١٣١) لم يرد هذا الخبر عن محمد بن سعيد الزجاجي في النص المنشور من كتاب ابن القوطية ، وقد سبق أن نهنا قبل ذلك إلى أن ابن حيان إنما يرجع إلى أصل أوسع بكثير من ذلك الذي وصل إلينا .

(١٣٢) في ترجمة محمد بن سعيد الزجاجي وأخباره (وما ذكره ابن حيان هنا يعتبر أوفى ما كتب عنه) انظر : الزبيدي

طبقات اللغويين والنحويين ص ٢٨٣ ؛ ابن الأبار : إعتاب الكتاب ص ١٧٢ - ١٧٤ ؛ ابن سعيد : المغرب ١/٣٣٠-٣٣١
المقرى : نفع ٥/٨١ - ٨٢ ؛ السيوطى : بغية الوعاة ؛ مفاخر البربر ص ٧٦ .

(١٣٣) نفزة إحدى قبائل البتر من البربر ، والبربر ينقسمون إلى بطنين كبيرين : البتر والبرانس ، والأولون ينتمون إلى مادغيس الأتر بن بركان (انظر مفاخر البربر ص ٧٦) ، وقبيل نفزة ينتمى إلى نفرأو (ويوضح ابن حزم هنا نطق هذه الكلمة فيقول : بالسین بین الزای والشین ، أى أنه حرف أقرب إلى الـ (J) الانجليزية أو الفرنسية التى نكتبها اليوم هكذا « ج ») بن لوى الكبير بن زجيك بن مادغيس « أو مادغس » ابن بر (الذى يسميه صاحب مفاخر البربر : بركان) (انظر ابن حزم : جمهرة الأنساب ، ص ٤٩٥ - ٤٩٧ ؛ ومفاخر البربر فى الموضوع المشار إليه قبل ؛ وابن خلدون : العبر ٦/٩٠) . أما بنو يطففت (والتسمية عند ابن حزم « يطوفت » وعند ابن خلدون « تطوفت ») فهم من ولد نفرأو المذكور ، ومع ذلك فإن ابن حزم جعل بنى الزجاليين لا من نفزة وإنما من مديونة بن تمزيت بن ضرى بن زجيك بن مادغس (جمهرة ص ٥٠٠) . ووافق صاحب مفاخر البربر ما يذكره ابن حيان فى النص من أن الزجاليين ينتمون إلى نفزة (ولو أن لفظ « الزجالي » ورد فى هذا الموضوع خطأ : « الرجال ») .

(١٣٤) عبد الملك بن قريش بن على بن أصمع الباهل المعروف بالأصمعى هو اللغوى المشهور المتوفى بمرور من خراسان سنة ٢١٦ (٨٣١) ، وكان معروفا بحضور البديهة وقوة الذاكرة ، تروى عنه نوادر كثيرة فى هذا الباب (انظر فى ترجمته : ابن الأبارى : نزهة الألباب ص ١٥٠ - ١٧٢ ؛ الزبيدى : طبقات ص ١٨٣ - ١٩٢ ؛ الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ١٠/٤١٠ - ٤٢٠ ؛ الذهبى : العبر فى خبر من غير ١/٣٧٠ ؛ السيوطى ؛ بغية الوعاة ، ص ٣١٣ ؛ وراجع بروكلمان : تاريخ الأدب العربى ، ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار ٢/١٤٧ - ١٥١) .

(١٣٥) ليس من المعقول ما يذكره ابن حيان هنا من أن محمد بن سعيد الزجالي كتب للأمير محمد بن عبد الرحمن ، إذ أنه توفى - كما سيذكر ابن حيان نفسه - فى سنة ٢٣٢ أو فى ٢٢٨ ، أى قبل أن يلى محمد الإمارة بست سنوات على الأقل ولسنا نظن أن مثل هذا التناقض يغيب على ابن حيان ، وربما يكون فى العبارة سقط وأن تكون صحتها : « وكتب [ابنه] لابنه محمد بعده » .

(١٣٦) سيذكر ابن حيان جملة من أخباره فى هذا الجزء من المقتبس . وانظر كذلك ابن القوطية ؛ تاريخ ص ٨٣-٨٥ ، ابن سعيد : المغرب ١/٣٣١ ؛ المقرى : نفع ٥/٨٢ - ٨٣ . وقد عرف من ولده من يسميه ابن عذارى « أحمد بن حامد الزجالي » المتوفى سنة ٣١٩ (٩١٣) فى أيام عبد الرحمن الناصر ، دون أن يوضح لنا المنصب الذى كان يتولاه (البيان ٢/٢٠٦) .

(١٣٧) فى ترجمة عبد الله بن محمد الزجالي المذكور انظر الخشنى : قصة ص ١٥٨ ، ١٧٣ ابن القوطية ؛ تاريخ ص ١٠٤ ؛ ابن حيان : المقتبس (نشر أنطونيا) ص ٦ ؛ ابن عذارى : البيان ٢/١٢٠ ، ١٥٢ ، ١٥٨ ، ١٦٥ ؛ ابن الأبار : إعتاب الكتاب ص ١٧٢ - ١٧٤ ويذكر ابن الأبار فى هذه الترجمة نقلا عن « المقتبس » لابن حيان أن الأمير عبد الله بن محمد كان قد عزل عبد الله بن محمد الزجالي عن خطى الوزارة والكتابة فى بعض أوقاته لموجدة وجدها عليه ثم أقامه

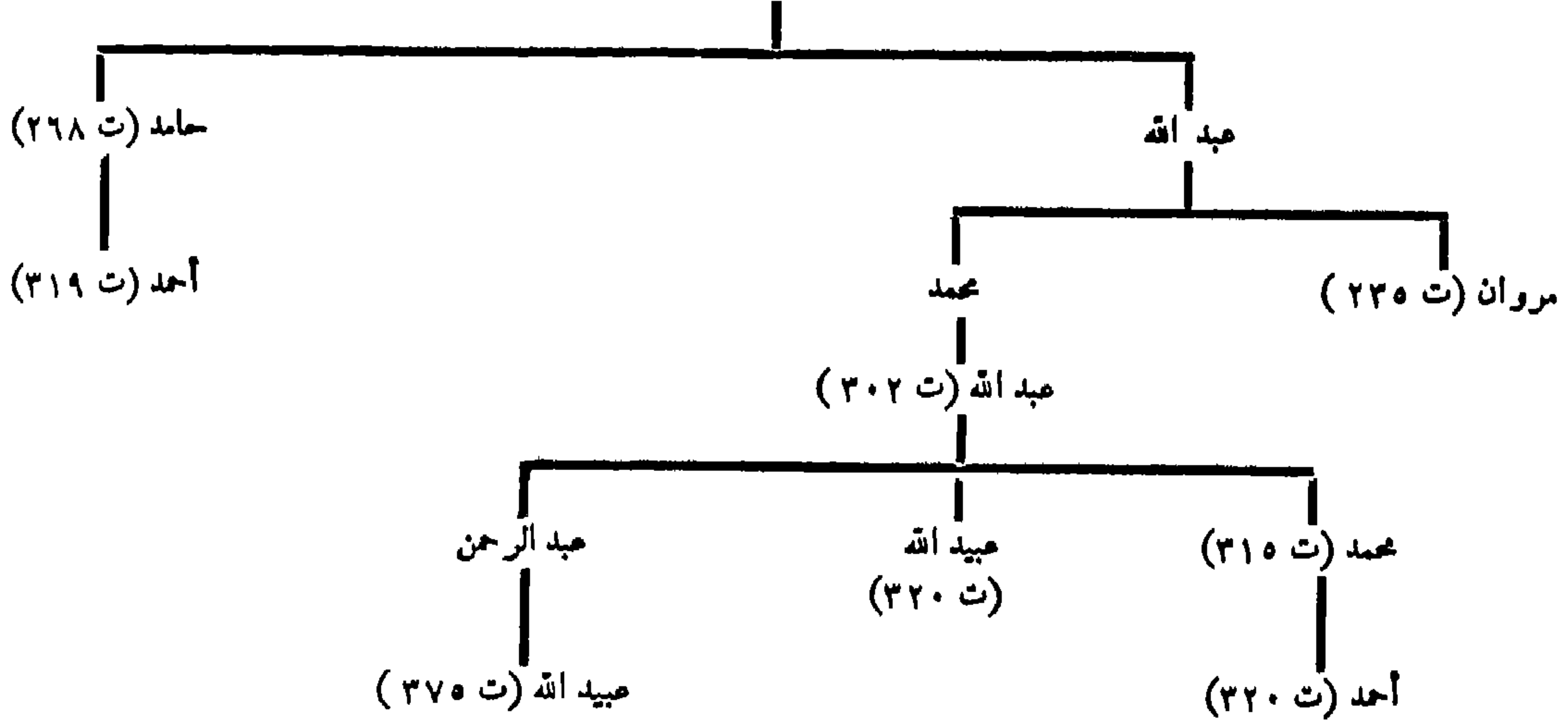
بعد مديدة وأعادته الى خطته وكان محبباً للناس فأبدوا فرحاً لرجعته . ثم يروى قطعتين لابن عبد ربه تصوران ذلك ؛ والقطعة مجهولة المؤلف في تاريخ عبد الرحمن الناصر ص ٤٧ من النص العربي و ١١٤ من الترجمة .

(١٣٨) عبد الرحمن بن عبد الله بن محمد الزجالي ، ذكره ابن عذارى في مواضع عديدة من البيان ، فقال إنه ولي خطة العرض في سنة ٣٠٨ (٩٢٠ - ٩٢١) ، وولى الخزانة لعبد الرحمن الناصر في سنة ٣١٦ (٩٢٨) . (انظر البيان ١٥٩/٢ ، ١٨٠ ، ١٩٧) . هذا وقد ذكر ابن عذارى كذلك أيضاً له يدعى محمد بن عبد الله بن محمد الزجالي ولى خزانة المال في سنة ٣٠٧ (٩١٩ - ٩٢٠) والوزارة لعبد الرحمن الناصر في سنة ٣١٤ (٩٢٦) وتوفى في السنة التالية . (البيان ١٧٥/٢ ، ١٩٢ ، ١٩٥) . أما « مهمات سنة ٣٢٩ » التي يشير ابن حيان إلى تقديم عبد الرحمن بن عبد الله الزجالي فيها بتكليف من الخليفة عبد الرحمن الناصر فلم نستطع أن نعرف أى نوع من المهمات يعنى المؤرخ ، فالراجع التاريخية التي بين أيدينا تصمت عن تفسير ذلك . وأغلب الظن أنها كانت من قبيل السفارات التي وجه بها عبد الرحمن الناصر إلى بعض جيرانه ، ربما في الشمال الافريقي .

(١٣٩) الواقع أن الذين نبهوا من هذا البيت البربري الأصل كثيرون أشار ابن حيان هنا إلى بعضهم وذكر آخرين في مواضع أخرى من كتابه ، وفي غير كتاب ابن حيان من كتب التاريخ والتراجم أخبار كثيرة عن زجالين ولوا مناصب كبرى في الدولة أو اشتهروا بالعلم والفقه ، نذكر من بينهم مروان بن عبد الله الزجالي الذي سيذكره ابن حيان نفسه في وفيات سنة ٢٣٥ (٨٤٩ - ٨٥٠) ؛ وأحمد بن محمد الزجالي الذي يذكر صاحب القطعة المجهولة المؤلف في تاريخ الناصر (ص ٨٣ من النص و ١٥٧ من الترجمة) أن الخليفة عبد الرحمن ولاء على مدينة إشبيلية ؛ وعبيد بن عبد الله الزجالي (ويبدو أنه أخو عبد الرحمن ومحمد المذكورين في الحاشية السابقة) وقد ولى في أيام عبد الرحمن الناصر خطة العرض والتحليل والمواريث والبيان (ابن عذارى : بيان ١٩٣/٢ ، ١٩٥ ، ١٩٩ ، ٢٠٨) وكانت وفاته سنة ٣٢٠ (٩٣٢) عن إحدى وأربعين سنة ؛ وعبيد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله الزجالي الذي كان وزيراً للحكم المستنصر (القاضي عياض : ترتيب المدارك ، تحقيق الأستاذ محمد بن تاويت الطنجي ، الرباط ١٩٦٥ ، ترجمة رقم ١١٣٦ = ٥٥٣/٢ من طبعة بيروت) حيث يرد الاسم عبد الله ، وهذا هو نفسه الذي يترجم له ابن الفرضي في تاريخه (رقم ٧٣٠) باسم أبي بكر عبد الله ابن عبد الله الزجالي ، وقال انه كان وزيراً للحكم المستنصر وإنه كان زاهداً عابداً وكانت وفاته سنة ٣٧٥ (٩٨٥ - ٩٨٦) وقد أشار ابن حيان في جزء آخر من « المقتبس » نفسه إلى « عبيد الله بن عبد الله الزجالي » ذاكراً إياه من بين وزراء الحكم المستنصر (نشر الحجي ، ص ٨٢) . وفيما يلي جدول تقريبي بأنسب من عثرنا على أخبارهم من بيت الزجالين .

محمد بن سعيد الزجالي

(توفي سنة ٢٢٨ أو ٢٣٢)



وفي أواخر أيام الدولة الأموية نسمع عن وزير من أسرة الزجاليين اشتهر بكنيته وإن اختلف فيها المؤرخون : فابن بسام يدعوه أبا الوليد الزجالي (الذخيرة ، القسم الأول ٢٨٧/١) ، وابن خاقان يدعوه أبا مروان (قلائد العقيان ص ١٥٢ وعنه نقل المقرئ في النفع ٢-١٦١) ، وقد أعطى هذا الوزير اسمه للحير (أو المتزء المعروف في خارج باب اليهود أو باب الهدى في قرطبة . وفي ديوان ابن قزمان المتوفى سنة ٥٥٥ (١١٦٠) زجلان في مدح من يدعوه أبا الوليد الزجالي (انظر ديوان ابن قزمان ، بتحقيق نيكل ، مدريد سنة ١٩٣٣ ، رقم ٢٢ (ص ٥٥-٥٧) و ٨٩ (ص ٢١٢-٢١٤) .

وأخيراً ينبع من بني الزجالي على أيام الموحدين أديب يجدد ذكرى أباؤه هو أبو يحيى عبيد الله بن أحمد بن محمد بن أحمد ابن محمد بن عبيد الله الزجالي الذي ولد بقرطبة سنة ٦١٧ أو ٦١٨ (١٢٢٠ - ١٢٢١) ودرس بها ثم تنقل في بعض مدن الأندلس واستقر أخيراً في مدينة مراكش حتى وفاته سنة ٦٩٤ (١٢٩٥) . وهو صاحب كتاب « رى الأوام ومرعى السوام في نكت الخواص والعوام » ، وهو يشتمل على مجموعة ضخمة من أمثال العوام في الأندلس أفردتها بالدراسة الباحث المغربي الدكتور محمد بن شريفة في رسالته التي تقدم بها للحصول على إجازة الدكتوراه من كلية الآداب بجامعة القاهرة ، وقد ألحق الدكتور بن شريفة بدراسته نص الجزء الخاص بالأمثال العامية بعد أن حققه تحقيقاً علمياً ممتازاً . وقد أفدت من هذه الدراسة في بعض ما كتبه حول الزجاليين ، فقد استوفى الدكتور بن شريفة الكلام في ذلك في الجزء الأول من دراسته المذكورة (الفصل الأول ص ١ - ٥٠ من النسخة المكتوبة على الآلة الكاتبة ، سنة ١٩٦٨) . وقد تفضل المؤلف بإهدائي مشكوراً هذه النسخة من بحثه القيم الذي نرجو أن ينشر قريباً .

(١٤٠) لا تعرف في إسبانيا اليوم مدينة ولا إقليم بهذا الاسم ، مع أن في كتب الجغرافيين الأندلسيين ما يدل على أنها كانت مدينة أزلية « (أى قديمة الإنشاء) بمقربة من إستجة Aclja . ومنطقة تاكرونا (أو تاكرنا كما تعرف في الشائع) هي التي تشمل اليوم الإقليم الجبلي المحيط بمدينة رنده Ronda الواقعة على بعد نحو مائة كيلو متر إلى غرب مالقة

Malga (انظر مادة « تاكرنا » في الروض المعطار لابن عبد المنعم الحميري ص ٦٢ من النص العربي و ٧٨ من الترجمة الفرنسية ، وما كتبه تحت هذه المسادة ليبي بروفنسال في « دائرة المعارف الإسلامية » ٦٦٣/٤ .) وقد بحث راينهارت دوزي هذا اللفظ وبناء في الطبعة الثالثة من مجموعة أبحاثه (Recherches ٤٣/٢) واقترح في تفسيره أن يكون المقطع « تا » اسم الإشارة في اللغة البربرية و « كرونا » اللفظ اللاتيني Corona الذي يعنى التاج إشارة إلى الجبال العالية في هذه المنطقة ، وهو تفسير لا يخلو من تكلف ولو أن الثابت هو أن اسم « تاكرونا » شائع في كثير من جهات المغرب وإن كان يطلق بصور متغايرة ، وأشهر هذه المواضع « تكرونه » في تونس . (انظر كذلك تعليق الدكتور حسين مؤنس على هذا الموضوع في تحقيقاته على الحلة السيرة لابن الأبار (٢٤٢/٢) .

(١٤١) أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف الأزدي المعروف باسم ابن الفرضي ، ولد في قرطبة سنة ٣٥١ (٩٦٢) وقرأ بها على أبي عبد الله بن مفرج ويحيى بن مالك بن عائذ وغيرهما من الشيوخ ، ورحل إلى المشرق سنة ٣٨٢ (٩٩٢) فأخذ بمكة ومصر والقيروان ، ثم عاد إلى بلده بعد أن جمع علماً كثيراً ، واشتغل بالتأليف ، فصنف كتابه « تاريخ علماء الأندلس » (الذي نشره المستشرق الإسباني فرانسيسكو كوديرا سنة ١٨٩٠ في مدريد) ، وكتاباً في « أخبار شعراء الأندلس » وجمع في « المؤلف والمختلف » كتاباً أثني عليه ابن بشكوال ، وكذلك على كتابه « مشته النسبة » . وحدث عنه المحدث أبو عمر بن عبد البر وكان صديقاً له واشترك معه في كثير من شيوخه ، وقتل ابن الفرضي في الفتنة البربرية حينما اقتحم البربر قرطبة سنة ٤٠٣ (١٠١٣) ، وأثني عليه ابن حيان - فيما ينقل عنه ابن بشكوال - فقال إنه كان جاعاً للكتب وتقلد « قراءة الكتب » في عهد الدولة العامرية واستقضاه محمد بن هشام المهدي بكورة بلنسية . (انظر في ترجمته : ابن بشكوال الصلة ، رقم ٥٦٧ ؛ الحميدي : جذوة رقم ٥٣٧ ؛ الضبي : بغية ، رقم ٨٨٨ ابن بسام : الذخيرة ، القسم الأول ١٣٠/٢ ابن خاقان : مطمح ص ٦٥ - ٦٦ ؛ ابن سعيد : المغرب ١٠٣/١ - ١٠٤ ؛ ابن خلكان : وفيات ٤٧٩/١ ؛ المقرئ : نفع ٣٢٩/٢ - ٣٣١ .

ومن الدراسات الحديثة انظر بونس بويجس : المؤرخون والجغرافيون ص ١٠٥ - ١٠٨ ؛ نيكل : الشعر الأندلسي ص ٣١ - ٣٢ ؛ الدكتور حسين مؤنس : تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ، مدريد ١٩٦٧ ، ص ٩٩ - ١٠١ .

وقد ضاعت معظم كتب ابن الفرضي ولم يبق لنا منها إلا « تاريخ علماء الأندلس » الذي نشر عدة مرات والذي كان رأس القائمة التي تتابعت فيها معاجم تراجم الرجال تذييلاً على كتابه ابتداء من ابن بشكوال صاحب « الصلة » حتى ابن الخطيب الفرناطي صاحب « عائد الصلة » ، كذلك أمكن العثور على نسخة خطية وحيدة من كتاب « مشته النسبة » له ويعمل الآن على تحقيقها وإعدادها للنشر الأستاذ رشاد عبد المطلب .

والنص الذي ينقله ابن حيان هنا عن محمد بن سعيد الزجاجي ليس مما ورد في « تاريخ علماء الأندلس » ، وهذا واضح بما ذكره ابن حيان من أنه قرأه في كتاب ابن الفرضي « المؤلف في طبقات أهل الدولة والأدب بالأندلس » ولا نعلم ما إذا كان هذا هو العنوان الحقيقي للكتاب أم أن ابن حيان ذكره بالمعنى ، فالترجمون لابن الفرضي لم ينصوا على كتاب له بهذا العنوان ، وإنما ذكروا « أخبار شعراء الأندلس » (انظر فضلاً عن تراجم ابن الفرضي حاجي خليفة : كشف الظنون ١٦٥/٢ وربما كان هو نفسه الذي ذكره ابن حيان وإن كان بعنوان مغاير بمض الشيء .

(١٤٢) علق الدكتور محمد بن شريفة في دراسته التي أسلفنا الإشارة إليها عن كتاب « رى الأوام » ومؤلفه أبي يحيى الزجاجي على قول ابن الفرضي هنا « . . هؤلاء الزجاجيين المقحمين في بيوت الشرف بقرطبة » وعلى قول ابن حيان السابق « من غير قدم في الدولة » بأن في هذا الكلام « لونا من الهجاء لا معنى له » ، ويضيف الكاتب إلى ذلك : « ونحسب أن الذي أملاه هو التنافس المعروف بين العصبيتين الأندلسية والبربرية ، وينبغي أن ننتبه إلى أن الرجلين كتبوا هذا الكلام في ظروف ما يسمى بالفتنة البربرية وأعقابها ، ولعل ابن الفرضي رحمه الله ذهب ضحية هذا القوم وشبهه في حق البربر . وأما ابن حيان فإن وقوعه في الأعراض من لوازم كتابته ، وعبارته في حق الزجاجيين تعتبر هيئة إذا قورنت بما قاله في بيوتات أندلسية أخرى (القسم الأول من الدراسة ص ٨) . وفي رأينا أن كل هذا تحميل للعبارات أكثر مما تحمل وتأويل لها في ظل ذلك الصراع القديم بين العصبيتين الأندلسية والبربرية تأويلا لا يخلو من اعتساف . فابن الفرضي وابن حيان حينما قالا هذا البيت لم يكن له قدم في الدولة ولأنهم « مقحمون في بيوت الشرف بقرطبة » لم يقصدا بذلك هجاء ولا تنقصا ، وإنما كان كلامهما تقريراً لحقيقة تاريخية واقعة ، وهي أن الزجاجيين لم يكونوا من أسر الموالى الذين ارتبطوا ببني أمية منذ الفتح كما كان الأمر في معظم بيوتات كبراء الدولة وأعيانها من أمثال بني مغيث وبني حدير وبني شهيد وبني أبي عبدة وغيرهم ، وإنما كانوا حديثي عهد بخدمة السلطان ، وعبارة ابن الفرضي صريحة في ذلك : « لم يكن هؤلاء الزجاجيين . . قبل جدهم محمد قدم رياسة ولا سالف محبة للسلطان » ، وليس هذا من الثلب ولا الوقوع في الأعراض في شيء ، ولا معنى لأن نسرف في التأويل ، فنقول إن كلام ابن الفرضي وابن حيان قد أملتته ظروف « الفتنة البربرية » ، فأغلب الظن أن أولهما قد كتب هذه العبارة قبل أن تندلع نيران الفتنة بسنوات طويلة ، وأما ثانيهما فلعله كتبه بعد أن مضت سنوات أخرى عليها . ولانظن أن ابن الفرضي ذهب ضحية مثل هذا القول « في حق البربر » ، إذ أن هؤلاء ما كانوا لينقبوا في كتب ابن الفرضي وأمثاله بحثاً عن عبارات مثل هذه لكي يتكلموا بأصحابها ، والأمر أولاً وأخيراً أيمر مؤتومة من كل ذلك . والترجمة التي أثبتتها ابن حيان ونقل بعضها عن ابن الفرضي حافلة بعبارات الثناء على محمد بن سعيد الزجاجي ، بل إننا نلمح فيها الإعجاب بشخصيته وخلالها ولسنا نرى فيها من « الثلب والوقوع في الأعراض » قليلاً ولا كثيراً .

(١٤٣) ورد الشطر الأول من هذا البيت في كتاب الثعالبي : التمثيل والمحاضرة ، تحقيق الأستاذ عبد الفتاح محمد الحلو ، القاهرة سنة ١٩٦١ ، ص ٩ ، وجاء البيت كاملاً في عيون الأخبار لابن قتيبة ١/٢٦٤ ؛ وقد ذكر الدكتور محمد بن شريفة في تحقيقه لهذا البيت أن أبا يحيى الزجاجي قد أورده في طليعة الأبيات التي يتمثل بها في كتابه « رى الأوام » (انظر ص ٥ من دراسته) .

(١٤٤) نقل هذا الخبر ابن الأبار في إعتاب الكتاب (ص ١٧٤) وابن سعيد (مغرب ١/٣٣٠) والمقرئ (نفع ٥/٨١ - ٨٢) .

(١٤٥) روى أبو الفرج الإصبهاني في كتاب الأغاني (١٦٩/١٨) قصة وقعت بين البحترى وأبي تمام تكاد تكون هي نفسها التي تقص هنا عن محمد بن سعيد الزجاجي والشاعر الذي أنشده قصيدة يمدحه بها ، فقد روى البحترى أنه دخل على أبي سعيد محمد بن يوسف الثغري ، فأنشده قصيدته التي أولها :

• أ أفاق صب من هوى فأيقا •

فصر أبو يوسف بها ، وكان في مجلسه رجل رفيع نبيل المجلس ، فلما فرغ البحترى من إنشاده أقبل عليه الرجل فوبخه وأتهمه بأن ذلك الشعر له وأن البحترى منتحل له ثم اندفع فأشده أكثر القصيدة واضطرب الشاعر وتحوير وجعل يحلف بكل محرجة من الإيمان بأن الشعر له لم يسمعه من أحد ، فلم ينفعه ذلك ، ولامه أبو سعيد على انتحاله شعر غيره وقال إنه كان له من قرابته منه ما يفنيه عن ذلك ، وشرع البحترى في الخروج يجر رجله وهو منكسف البال ، فابلى باب الدار حتى رده الغلام إلى المجلس ، فأقبل الرجل عليه قائلاً إن الشعر له ثم دعاه إليه وعانقه وضمه ، وعرفه بنفسه ، فاذا به أبو تمام الطائي ، ولزمه البحترى منذ ذلك اليوم وأخذ عنه واحتذى فنه . (انظر كذلك شرح الشريشي على مقامات الحريري ، بتحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل ابراهيم ٩٠/١ - ٩١) .

(١٤٦) سوف نعرض لمؤمن بنى سعيد ومظان ترجمته فيما بعد .

(١٤٧) أورد ابن سعيد هذا الخبر في المغرب ٣٣١/١ .

(١٤٨) ذكر المقرئ أيضا هذه القصة في النفح ٨٢/٥ - ٨٣ .

(١٤٩) لم نهند إلى ما يزيدنا بيانا عن هذا الشاعر ، على أننا رأينا أربعة من أبيات هذه القطعة في كتاب « التشبيهات من أشعار أهل الأندلس » للشيخ أبي عبد الله محمد بن الكتاني الطبيب (بتحقيق الدكتور إحسان عباس ، بيروت ١٩٦٦ ، ص ٢٥٤ - ٢٥٥) مع فروق في الرواية اثبتناها في موضعها من حواشي تحقيق النص . وقد نسبها ابن الكتاني إلى من يسميه « محمد بن فرج » دون مزيد بيان . وقد حاول الدكتور إحسان عباس محقق الكتاب أن يعرف من هو محمد بن فرج هذا ، فسبق إلى ظنه أنه ينبغي أن يكون من بنى فرج الجيانيين المعروفين ، وهم أحمد وسعيد وعبد الله أبناء محمد بن فرج ، وأضاف الدكتور إحسان إلى ذلك أنه إذا لم يكن في الاسم خطأ أو إيجاز فإنه قد يكون محمد بن فرج والد بنى فرج المذكورين ولو أن المصادر لم تذكر له علاقة بأدب ولا شعر ، ونخم كلامه أخيراً بأن الحميدى ترجم لمن يسميه محمد بن الفرغ بن عبد الوليد الأنصاري الطليل (رقم ٧٩) وهو فقيه أورد له الحميدى بيتين من الشعر . وأخيراً ختم الدكتور إحسان تعليقه بقوله إنه على كل حال يظن أن « محمداً » سهو وأن الصواب « أحمد » وبذلك يكون هذا الشاعر هو صاحب كتاب الحدائق نفسه . (انظر فهرست الشعراء ص ٣٣٠) . على أن نص ابن حيان يفئنا عن هذا العناء ، فهو يورد اسم الشاعر كاملاً ونسبه ، ونلاحظ أن هذه هي أول مرة نسمع فيها باسم هذا الشاعر ، إذ لا تسعفنا المراجع الأخرى المعروفة لنا حتى الآن بأى شيء عنه ، ولكنه على كل حال ليس من بنى فرج الجيانيين المعروفين ، وإنما هو شاعر متقدم عاش في منتصف القرن الثالث الهجري على ما يرى من هجائه لحامد الزجالى المتوفى سنة ٢٦٨ (٨٨١ - ٨٨٢) . أما نسبة هذا الشاعر : « البلسارى » فلم نهند إلى وجه في تأويلها ، إلا إذا كانت محرفة عن « الشبلارى » ، وحينئذ يكون نسبة إلى « شبلار » أحد أرباض قرطبة (أى أحيائها) . وقد اختلف المؤرخون في ضبط هذا اللفظ ، أما ابن القوطية (تاريخ ص ٢٩) فقد جعله بضم الشين والباء وتشديد اللام ، وأما ابن بشكوال (الصلة ، بتحقيق السيد عزت العطار الحسينى ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ٤٥٥) والمقرئ في النفح (١٣/٢) فيضبطانه بفتح الشين وسكون الباء ، وقد جاء ذكر هذا الربض أيضا في المقتبس لابن حيان دون ضبط (نشر عبد الرحمن الحجي ص ٢٠٩) ، ومع ذلك فإن الباحث اللغوى الإسباني فرانسكو سيمونيت رأى أن الصواب في ضبط هذا اللفظ إنما هو بفتح الشين وضم الباء المخففة ، إذ هو مشتق من كلمة Sabula اللاتينية ، ومعناها الرمل ، فهو

آت من لفظ Sabular أى المكان الكثير الرمل (Sabularia باللاتينية الدارجة المتأخرة ومثل Sablière بالفرنسية)
انظر كتاب سيمونيهت : معجم الألفاظ الإيبيرية واللاتينية المستخدمة بين المستعربين ، مدريد ١٨٩٧ ، ص ٥٧٣ :
Francisco Simonet : Glosario de voces ibéricas y latinas usadas entre los mozarabes
Madrid, 1897.

وانظر كذلك ليني بروفنسال : تاريخ ٣/٣٧٠ ، حاشية رقم ١ .

(١٥٠) الزجاجه تسمية كانت شائعة في قرطبة تطلق على هؤلاء الزجاجيين من سلالة محمد بن سعيد الكاتب الوزير ،
وقد كان هناك ربض في قرطبة يدعى « ربض الزجاجه » يقع بين باب عامر وباب اليهود (الذى سمي بعد ذلك باب الهدى)
ومقبرة تحمل نفس هذا ، فضلا عن ذلك المتزه المشهور الذى كان يعرف باسم « حير الزجاجى » انظر ليني بروفنسال :
(تاريخ ص ٣٣٥ ، ٣٨٢) .

(١٥١) لهذا النص قيمة خاصة ، إذ هو يلقى أضواء على خطة من الخطط السلطانية في ظل الدولة الأموية بالأندلس
في عصر مبكر ، وهى خطة الشرطة التى لا نعرف عنها الكثير . فابن حيان يفيدنا هنا بأسماء ثلاثة من أوائل أصحاب الشرطة
كان أحدهم يتولى هذه الخطة قبل ذلك في أواخر أيام الأمير الحكم بن هشام-الربضى الذى ولى الإمارة في أواخر القرن الثانى
المجربى والسنوات الست الأولى من القرن الثالث . ونذكر بهذه المناسبة أنه على الرغم من تعدد الإشارات في المراجع التاريخية
الأندلسية التى بين أيدينا وفي معاجم التراجم إلى من ولوا الشرطة في ظل أمراء بنى أمية وخلفائهم فإننا لا نعرف إلا القليل عن
حدود هذه الخطة واختصاصاتها . صحيح أن بعض المؤرخين المتأخرين - وأهمهم ابن سعيد (حسبما ينقل عنه المقرئ في النسخ
٢٠٣/١) وابن خلدون (في المقدمة ص ٢٥٦ - ٢٥٧) - قد أفردوا خطة الشرطة بالكلام ، مع إشارات محددة واضحة إلى
عملها وحدودها وواجباتها في الأندلس تحت حكم بنى أمية ، ولكن هذه المصادر ينبغى أن تستخدم في حذر واحتراس ،
فابن سعيد وابن خلدون - وإن كانا من أهل المعرفة الواسعة والتحقيق فيما يتصل بالتاريخ الأندلسى - لا يخرجان عن كونهما
مؤرخين متأخرين بعد بهما العهد عن دولة بنى أمية ، ولا يؤمن مع ذلك أن يعتسفا الحكم أو يشوب حديثهما نظر إلى واقع
أحوال تلك النظم في عصرهما بعد أن أصابها تطور كبير على طول قرون عديدة من تعاقب العصور وتقلب الدول .

ويبدو من نص ابن حيان الوارد هنا أن خطة الشرطة كانت معروفة في الأندلس قبل عبد الرحمن الأوسط ، ولكن إلى
هذا الأمير يرجع الفضل في إدخال تعديلات جديدة مهمة على هذا النظام ، فابن سعيد يقول في المغرب (٤٦/١) إنه « هو الذى
میز ولاية السوق من أحكام الشرطة المسماة بولاية المدينة ، فأفردها وصير لوالها ثلاثين دينارا في الشهر ولوالى المدينة مائة
دينار » ، على أن هذا النص نفسه مضطرب غامض ، فهو لا يبين لنا مدى العلاقة بين « صاحب المدينة » (وهكذا كان يسمى
المضطلع بهذه الخطة لا « والى المدينة ») و « صاحب الشرطة » ، إذ أنهما كانتا خطتين متميزتين وإن كانت أعمالهما متداخلة
فهى متصلة بالمحافظة على الأمن ، غير أن المراجع لم تفدنا في التعرف على تحديد اختصاصات كل منهما وواجباته ، وكل ما يبدو
لنا هو أن صاحب المدينة كان أعلى مكانة من صاحب الشرطة وأوسع اختصاصا ، ويقول ابن سعيد في وصف عمل هذه
الخطة (حسبما نقله المقرئ في النسخ ٢٠٣/١) : « وأما خطة الشرطة بالأندلس فإنها مضبوطة إلى الآن ، معروفة بهذه السمة ،
ويعرف صاحبها في السن العامة بصاحب المدينة وصاحب الليل ، وإذا كان عظيم القدر عند السلطان كان له القتل لمن وجب عليه

دون استئذان السلطان ، وذلك قائل ، ولا يكون إلا في حضرة السلطان الأعظم ، وهو الذي يحد على الزنا وشرب الخمر ، وكثير من الأمور الشرعية راجع إليه ، قد صارت تلك عادة تقرر عليها رضا القاضي ، وكانت خطة القاضي أوقر وأتق عندهم من ذلك . « . ومرة أخرى نجد هنا الخلط وعدم التحديد بين خطى الشرطة والمدينة ، كما أننا لا نعرف بدقة مدى صلة خطة الشرطة بالقضاء .

على أن المشكلة في التعرف على حقيقة خطة الشرطة لا تنتهي عند هذا الحد ، بل إن لدينا ذلك التجديد الذي أدخله عليها عبد الرحمن الأوسط نفسه ، إذ هو الذي فرع الشرطة إلى نوعين : الشرطة العليا ، والشرطة الصغرى ، وإلى هذا التعديل تشير تلك العبارة الواردة في أول الصفحة رقم ١٩٩ ب بعد قطوع كثيرة أصابت أسفل الصفحة السابقة والتي رسمت كلماتها هكذا « وقتا تفرعت فيه أيامه شرطة العدو » (! ؟) ، وقد ذكرنا في حاشية هذا الموضوع أننا لم نهتد إلى وجه مقبول في تأويل هذه العبارة ، ولا بد أن تحريفاً شديداً قد لحق ألفاظها أو سقط منها شيء ، ومع ذلك فإننا نعتقد أنها تشير إلى ذلك التفرع في أنواع الشرطة ودرجاتها . أما الفرق بين الشرطتين فإن لابن خلدون نصاً صريحاً حول هذه الناحية يقول فيه (مقدمة ص ٢٥١ - ٢٥٢) : « ثم عظمت نباهتها [أى نباهة خطة الشرطة] في دولة بنى أمية بالأندلس ، ونوعت إلى شرطة كبرى وشرطة صغرى ، وجعل حكم الكبرى على الخاصة [أقحمت هنا كلمة « والدهاء » وتبدو لنا زائدة لا معنى لها] وجعل له الحكم على أهل المراتب السلطانية والضرب على أيديهم في الظلمات وعلى أيدي أقاربهم ومن إليهم من أهل الجاه ، وجعل صاحب الصغرى مخصوصاً بالعامية [ربما كان هنا موضع « والدهاء »] ونصب لصاحب الكبرى كرسي بباب دار السلطان ورجال يتبوؤون المقاعد بين يديه ، فلا يبرحون عنها إلا في تصريفه . وكانت ولايتها للأكابر من رجالات الدولة حتى كانت ترشيحاً للحجاجة والوزارة . (انظر كذلك تعليق ليني بروفنسال على هذه العبارة في تاريخه ١٥٥/٣ - ١٥٦ وتعليق الدكتور حسين مؤنس في الحاشية رقم ٢ على نص في الحلة ٢٣٣/١ - ٢٣٤) .

غير أن هناك خطة أخرى ظهرت على وجه التحديد في سنة ٣١٧ (٩٢٩) ابن عذارى : البيان ٣٠٣/٢ ط . بيروت) فأضافت تعقيداً جديداً على المسألة ، تلك هي خطة الشرطة الوسطى ، وهي خطة أفادتنا المراجع الأندلسية بأسماء بعض من تولوها ، ومن بينهم الحاجب المشهور محمد بن أبي عامر في مبدأ ظهور أمره وبزوغ نجمه على أيام الخليفة الحكم المستنصر وقبل أن يترقى في المناصب حتى يصل إلى الحجر على الخليفة والاستئثار بالسلطة كلها . ولكن هذه المراجع لم تفدنا بشيء عن واجبات « الشرطة الوسطى » واختصاصاتها . وقد حاول ليني بروفنسال (تاريخ ١٥٦/١ - ١٥٧) استكناه حقيقتها فقال إن ما يظهر له هو أن ضخامة الدولة واتساع العمران في قرطبة وازدياد عدد السكان في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر - كل ذلك أدى إلى ظهور طبقة جديدة أشبه بما يسمى اليوم الطبقة الوسطى « أو البورجوازية » تقف بين الخاصة أو الأرستقراطية والعامية أو الدهاء ؛ وكانت هذه الطبقة تتألف من « الأعيان » والتجار وصغار الموظفين والمتقنين لبعض الخطط الإدارية والقضائية الصغرى ، ومن ظهرت الحاجة إلى شرطة جديدة تتلاءم مع هذه الطبقة حديثة العهد بالظهور ، فكانت هذه « الشرطة الوسطى » .

ورأى بروفنسال الذي أثبتناه هنا وجيه قد لا يخلو من الصواب ، ولكننا لم نر في المراجع ما يؤيده . والذي يبدو لنا بعد استقراء ما ورد عن الشرطة بفروعها الثلاثة وسير من تولوها خلال النصف الثاني من القرن الرابع الهجري هو أن هذه

هذه الخطط قد تحولت إلى حد ما إلى ألقاب تشريفية ، فأصبحت تدل على التنويه أكثر مما تدل على واجبات وظيفية بعينها . ونقول « إلى حد ما » لأنه ليس معنى كلامنا أن الخطة وأعمالها قد اختفت وإنما أصبحت تسند إلى شخصية من كبار رجالات الدولة تنويها به وتعبيراً عن ترقيته ورفع مكانته ، ويكون لهذه الشخصية الإشراف الأعلى عليها، ولكنه لا يباشر واجباتها بنفسه بل ينتدب لها من يرضاه . ونحن نرى مصداقاً لذلك في حديث ابن حبان نفسه في الجزء الخاص بسنوات من خلافة الحكم المستنصر بالله (القطعة التي نشرها الأستاذ الحجى) حيث نقرأ مثلاً عن صاحب الشرطة العليا - وهو هشام بن محمد بن عثمان المصحف - وهو في الوقت نفسه قائد طرطوشة وكوره، يلمنسية (ص ٢٠ - ٢١) ، وفي موضع آخر نرى صاحباً للشرطة العليا يخاطب بتقديمه من قيادة مدينة لاردة إلى مدينة سرقسطة وتطلبة وأعمالها (ص ٦٨) ، وآخر وظيفته الحقيقية هي قيادة الجيوش بحيان (ص ٧٢) ، أو قيادة الأساطيل (ص ٨٠ ، ٨٧ ، ٨٩) . أما الشرطة الوسطى فنعرف عن أشهر من تولوها وهو محمد بن أبي عامر (الحاجب المنصور فيما بعد) أنه قدم إلى هذه الخطة مجموعة إلى ما كان بيده من خطة المواريث والقضاء بإشبيلية وكالة ولي العهد الأمير هشام والسكة (ص ٧٢) . فكيف كان ابن أبي عامر يجمع بين كل تلك الوظائف في وقت واحد ؟ أغلب الظن أن حكم « الشرطة الوسطى » التي كان ابن أبي عامر يتولاها لا يختلف كثيراً عن حكم خطة القضاء على إشبيلية ، فإنه كما نعرف كان مقيماً دائماً خلال تلك السنوات في قرطبة ، ولا نعلم أنه غادرها إلى إشبيلية ولا أنه تولى فيها خطة القضاء بصفة فعلية . . وإنما كان ذلك من قبيل التنويه والتشريف ، بينما كان في إشبيلية قاض يصرف فيها شئون خطته فعلاً ، فولاية قضاء إشبيلية لا تزيد عن كونها ولاية نظرية فيها من معاني التفخيم أكثر مما فيها من تصرف حقيقى في عمل من الأعمال . ومثل هذا يمكن أن يقال عن خطة أخرى أسندت إلى ابن أبي عامر في سنة ٣٦٢ (٩٧٣) وهي « قضاء القضاء » بالعدوة (أى في شمال المغرب الأقصى) مع أنه كان قد أوفد إلى هناك في مهمة أنجزها وعاد بعدها إلى قرطبة على الفور . وأما « الشرطة الصغرى » فنحن نسمع عن وال لها كان في الوقت نفسه قاضياً على الثغر وخازناً (ص ١٠٦) . وفي نص آخر نرى اثنين أو ثلاثة يدعون بأصحاب الشرطة في وقت واحد مع أن بعضهم لم يكونوا يقيمون في قرطبة أصلاً (ص ١١٩) . كل هذا يدل على أن كثيراً من تلك الخطط سواء فيها القضاء أو الشرطة بأنواعها قد تحولت إلى مجرد ألقاب أو وظائف « فخرية » كما نقول الآن . حتى بعض الخطط الصغرى مثل خطة « العرض » لحقها مثل ذلك ، فابن حبان يذكر (ص ١٧٧) أن الخليفة أراد الإنعام على الأديب الشاعر محمد بن حسين الطنبى الذى قفل من المغرب مع القائد غالب فولاه خطة « العرض » ، ولا نظن أن الطنبى كان يباشر هذه الوظيفة فعلاً ، ولكن هذه التولية كما ينص المؤلف نفسه كانت من قبيل « التكريم » . وقد كانت الشرطة العليا أعلى مكاناً بطبيعة الحال من الوسطى في نسق هذه الألقاب التشريفية . فابن حبان يذكر أن الخليفة قدم عبد العزيز بن حكم التجبى في سنة ٣٦٤ (٩٧٥) من الشرطة الوسطى إلى الشرطة العليا مع توليته على دروكة في الثغر الأعلى (ص ٢٢٥) وهو في واقع الأمر لم يباشر أعمال هذه ولا تلك ، وإلا فن أين له أن يكون صاحب الشرطة في قرطبة وهو في الوقت نفسه متولٍ لحكم بلد شاسع البعد عن العاصمة في الثغر الأعلى ؟ كل ذلك يدعونا إلى أن نعيد النظر في الأحكام التي قالها الباحثون المحدثون عن خطة الشرطة في تلك الفترة (النصف الثانى من القرن الرابع) على ضوء ما ذكرناه من أنها كانت وظائف تنويه وتشريف أشبه بالألقاب منها بالأعمال . وعلى كل حال فالمسألة جديرة بأن تطرح على البحث من جديد .

(١٥٢) سبق أن علقنا على اسم كليب هذا في الحديث عن بيت بنى كليب بن ثعلبة بن عبيد (انظر التعليق رقم ٢) .

(١٥٣) لعل المذكور هنا هو أبو عثمان سعيد بن عياض الطليطل الذى ترجم له ابن الفرضى (رقم ٤٧٧) وقال إنه

رحل إلى المشرق فسمع بإفريقية من قاضي القيروان عبد السلام بن سعيد المعروف بسحنون ، وكان من أهل المسائل والفتيا . وترجم له القاضي عياض في ترتيب المدارك (١٦١/٣) ونقل عن ابن أبي دليم أنه ولي قضاء طليطلة وصلاتها ، وعن الخشني أنه قتل أهل طليطلة .

(١٥٤) خطة الرد من الخطط القضائية التي تميز بها الأندلس . وقد أفادنا ليبي بروفسال في تاريخه (١٤٣/٣ - ١٤٥) بمعلومات قيمة استقاها من كتاب « الأحكام الكبرى » الذي لا يزال مخطوطا بعد لأبي الأصبغ عيسى بن سهل الأسدي القرطبي . وهو مؤلف عاش في القرن الخامس الهجري (بين سنتي ٤١٣ و ٤٨٦-١٠٢٢-١٠٩٣) أي أنه معاصر تقريبا لابن حيان وقريب المهدي بالنظم القضائية السائدة في قرطبة الخلافة . ويذكر ليبي بروفسال عن ابن سهل أن الرد كان من بين الخطط الستة التي تخول لتقليديها سلطة إنفاذ الأفضية وهي : القضاء ، والشرطة ، والمظالم ، والرد ، والمدينة ، والسوق . ويعمل ابن سهل تسمية هذه الخطة فيقول : « وإنما كان [صاحب الرد] يحكم فيما استراهه القضاة وردوه عن أنفسهم ، ولكن الذي لا نعرفه على وجه التحقيق هو ما إذا كان لصاحب الرد سلطة الفصل في تلك القضايا التي يستريها القضاة و « يردونها » عن أنفسهم ، أم أن هناك سلطة أخرى هي التي لها سلطة الحكم النهائي . والمؤكد على كل حال هو أن « صاحب الرد » كان أدنى منزلة من قاضي الجماعة ، يدل على ذلك وضعه ومجلسه في الاحتفالات والمناسبات الرسمية ، إذ كان يأتي في الترتيب بعد قاضي الجماعة مع « الحكام » وهم أصحاب الشرطة وصاحب السوق (انظر المقتبس ، نشر عبد الرحمن الحجى ص ١٩٨) وكان يسند إلى « صاحب الرد » أيضا في بعض الأحيان الخروج إلى الكور لمطالعة رعاياها والكشف عن سير عملها والتحقيق في شكاياتهم من العمال (نفس المرجع ص ١٠٠ ، ١٠٤) .

(١٥٥) سترجم ابن حيان لحارث المذكور فيما بعد .

(١٥٦) أورد ابن عذارى مجمل هذه الفقرات الأخيرة في « البيان » (٨٠/٢) ، وسيرجم ابن حيان ليحيى بن يحيى في نهاية هذا الفصل .

(١٥٧) ورد هذا النص مع خلاف طفيف في بعض ألفاظه وزيادات أضافها ابن حيان في نص ابن القوطية المطبوع (ص ٥٨ - ٥٩) . هذا وسيورد ابن حيان ترجمات مفصلة لكل هؤلاء القضاة ولحمل من أخبارهم .

(١٥٨) هو هشام بن محمد بن هشام بن الوليد بن الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل المتوفى سنة ٣٠٠ (٩١٢) ، وقد سبق أن أشرنا إليه في سياق ترجمتنا لابنه المورخ معاوية بن هشام بن الشيبينسى (انظر تعليقنا رقم ٩٣) .

(١٥٩) أبو القاسم أصبغ بن خليل القرطبي ، فقيه على مذهب الإمام مالك ، كان عالما بالشروط والوثائق ، ودارت عليه الفتيا بالأندلس خمسين عاما ، سمع بالأندلس من الغازي بن قيس ويحيى بن مضر ويحيى بن يحيى الليثي تلاميذ الإمام مالك والرواة عنه ، ثم رحل إلى المشرق ، فسمع بمصر من أصبغ بن الفرغ وبإفريقية من قاضي القيروان عبد السلام بن سعيد المشهور بسحنون تلميذ الفقيه المصري الكبير عبد الرحمن بن القاسم . وكان شديد التعصب لمذهب مالك قليل العلم بالحديث

اللغة ، وكانت وفاته سنة ٢٧٣ « ٨٨٦-٨٨٧ » . انظر في ترجمته ابن العرشي ، رقم ٢٤٥ ؛ الحميدى : جذوة ، رقم ٣٢٣
الجشنى : القضاة ص ١٠٤ - ١٠٥ ؛ القاضي عياض : ترتيب المدارك ١٤٢/٣ - ١٤٤ ؛ ابن فرحون : الديقاج المذهب
ص ٩٧ ؛ النباهى : المرقبة العليا ص ٥٥ - ٥٦ ؛ وانظر ما كتبه عنه القس لويس أورتيث في دراسته القيمة عن « دخول
المذهب المالكي إلى الأندلس » ، مدريد سنة ١٩٣٠ ، ص ٦٠ - ٦١ ، ١٢٠ - ١٢٤ :

José Lopez ortiz : La recepcion de la escuela Malequi en Espana, Anurio
de historia del derecho espanol, tomo VII, Madrid, 1930, pp. 1 - 167.

(١٦٠) تقسيم الأندلس إلى موسطة وشرق وغرب كان شائعا في كتابات الأندلس منذ قديم . ويقصد بالموسطة المنطقة
التي تقع لاني وسط شبه الجزيرة بالضبط، ولكن المنطقة التي تتوسط ما كان للمسلمين من هذه البلاد، وتقع في مركزها العاصمة
قرطبة . وهو تقسيم تقريبي قصد منه التوضيح ، وقد جرى عليه بعض المؤلفين فيما بعد نذكر منهم أبا الحسن علي بن بسام
(ت ١١٤٧/٥٤٢) حين قسم كتابه « الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة » إلى ثلاثة أقسام أفرد لكل منها جزأين : قسم
لكل من هذه الأجزاء الثلاثة الكبرى : الموسطة والغرب والشرق (انظر مقدمة ابن بسام في الجزء الأول من القسم الأول
ص ١١ وما بعدها) ، وتلا ابن بسام في هذا التقسيم أبو الحسن علي بن سعيد في كتابه المغرب (انظر ما ينقله عنه المقرئ
في نفع الطيب ٢١٠/١ ، وتعليق الدكتور حسين مؤنس على هذا التقسيم في كتابه عن الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ،
مدريد ١٩٦٧ ص ٤٩٣ - ٤٩٤) . ويبدو أنه في حالات « الاستنفار » أو تعبئة الجنود للغزو كان هناك تقسيم جغرافي
متبع في الأندلس مشابه لما ذكرناه إلى موسطة وشرق وغرب ، ولو أننا لا نعرف تفاصيله ، وسنرى مظهراً لذلك في نص
سيورده ابن حيان في هذا الجزء نفسه من « المقتبس » ناقلاً إياه عن معاوية بن هشام الشيبينسي عن « عدة الأجناد والمطوعة
المستغفرين من أهل كورة الموسطة » ، على أننا نشك في مدى دقة هذا التعبير : « كورة الموسطة » ، فلنا نعرف في التقسيم
الإداري للأندلس ما يمكن أن يطلق عليه اسم كورة الموسطة ولا ذكر أحد من الجغرافيين ، والأغلب هو أن هذه التسمية فيها
الكثير من التجوز والتساهل ، والمقصود بها المناطق الواقعة في وسط الأندلس والمحيطة بالعاصمة قرطبة (انظر عن اصطلاح
الكورة ومكانه من المصطلحات الجغرافية الإدارية الدكتور حسين مؤنس : فجر الأندلس ص ٥٧٦ - ٥٧٧) .

(١٦١) يقصد به « المدونة » في الاصطلاح العسكري الأندلسي الجنود النظاميون المسجلون في « ديوان الجند »
تميزاً لهم على طبقات الجنود الأخرى مثل « الحشم » (أي المرتزقة) و « المطوعة » (أي المتطوعين) . . الخ . وهم الذين
كانت الدولة تستدعيهم حينما يخرج أمر بـ « الاستنفار » أي التعبئة وذلك طبقاً لما هو مسجل في « ديوان الجند » من
أسمائهم ورتبهم . (انظر ليني بروفنسال : تاريخ ٦٧/٣ - ٦٨) .

(١٦٢) كانت المادة قد جرت فعلاً بأن الأمير إذا خرج إلى غزو يطيل فيه الغياب عن قرطبة استخلف على قصر الخلافة
(المواجه للمسجد الجامع) واحداً من أبنائه ، وكان لهذا المستخلف مجلس في سطح القصر لا يغادره ليلاً ولا نهائراً ولا يخرج
منه البتة ، يؤكد ذلك خبر يقصه ابن حزم في « طوق الحمامة » « نشر الأستاذ حسن كامل الصيرفي ، القاهرة سنة ١٩٥٠ ،
ص ١٤٤ - ١٤٥) بمناسبة خروج الأمير عبد الرحمن في بعض غزواته واستخلافه ابنه محمداً على سطح القصر . وانظر كذلك
ابن القوطية (تاريخ ص ٨٦) حيث يذكر أن الأمير محمداً استخلف ولد له عند خروجه إلى بعض مغازيه وأبقاه في السطح .

وقد بقى مجلس السطح هذا الذى كان الأمير أو الخليفة يشرف منه على الرصيف محترما له مكانته وهيئته حتى أواخر أيام الدولة المروانية حتى بعد إنشاء عبد الرحمن الناصر ضاحيته الملكية الفخمة فى مدينة الزهراء ، فابن حيان يصف لنا فى جزء آخر من « المقتبس » (نشر الحجى ص ٢٢١) كيف كان الخليفة الحكم المستنصر بالله يقف على مجلس سطح القصر المذكور لكى يستعرض جيوشه التى كانت خارجة لغزو حصن غرماج من الثغر الأوسط فى سنة ٣٦٤ (٩٧٥) . ونأخذ مما يذكره ابن حيان فى هذا الموضع أن مجلس السطح كان يقع فوق « باب السدة » (الباب الرئيسى لقصر الخلافة أنظر ما سبق أن كتبناه من « باب السدة » ، التعليق رقم ١٠٣) ، وأنه كان المكان الذى اعتاد الخلفاء أن يطلوا منه عندما كانوا يريدون الظهور لعامة الشعب (انظر المقتبس ، نفس الجزء ص ٢٣٣) .

(١٦٣) ذكرنا فى حاشية هذا الموضع أن الاسم جاء فى الأصل « عبد الله » وأنا نرجح أن الصواب « عبيد الله » ، فهو الذى اشتهر من أبنائه وطارصيته وورث مكانة أبيه فى الفقه والعلم وعظم الجاه لدى أمراء بنى أمية . وسترجم لعبيد الله هذا فيما بعد .

(١٦٤) أبو عبد الله محمد بن يوسف بن مطروح البكرى القرطبى الملقب بالأعرج ، روى بالأندلس عن الغازى ابن قيس وعيسى بن دينار الطليل ، وبمصر عن أصبغ بن الفرج ، وبالمدينة عن مطرف بن عبد الله ، وولى الصلاة فى أيام الأمير محمد ، وكانت الفتيا تدور عليه وعلى أصبغ بن خليل وعبد الأعلى بن وهب ، وتوفى سنة ٢٧١ (٨٨٤ - ٨٨٥) . انظر فى ترجمته ابن الفرضى : تاريخ ، رقم ١١١١ ؛ الحميدى : جذوة ، رقم ١٥٨ ؛ ابن القوطية : تاريخ ص ٩٤-٩٥ ، الخشنى : قضاة ص ١١٤ - ١١٥ ، ١٣١ - ١٣٢ ؛ ابن فرحون : ديباج ص ٢٦٤ - ٢٦٥ ؛ القاضى عياض : ترتيب المدارك ١٤١/٣ - ١٤٢ ؛ وانظر كذلك لوپث أورتيث : دخول المذهب المالكي إلى الأندلس ، ص ١٢١ ، ١٢٦ .

(١٦٥) سيتحدث ابن حيان عن محمد بن حارث هذا بمزيد من التفصيل عند الكلام عن محنة بقى بن مخلد إذ أنه كان أحد ثلاثة من الفقهاء تعصبوا عليه واشتدوا فى طلبه ، وسيأتى ذكر ذلك فى موضعه .

(١٦٦) أبو زيد عبد الرحمن بن إبراهيم بن عيسى بن يحيى بن يزيد القرطبى مولى معاوية بن أبى سفيان المعروف بابن تارك الفرس ، سمع بالأندلس من يحيى بن يحيى ، ورحل فى أيام عبد الرحمن بن الحكم إلى المشرق ، فسمع من شيوخ المالكية فى المدينة : ابن كنانة وابن المساجشون ومطرف بن عبد الله ، وله من سبأه هذا ثمانية كتب تعرف باسم « ثمانية أبى زيد » وكان مقدما فى الشورى والفتيا ، وتوفى سنة ٢٥٨ أو ٢٥٩ (٨٧٢ - ٨٧٣) . انظر فى ترجمته ابن الفرضى : تاريخ ، رقم ٧٧٩ ؛ الخشنى : قضاة ص ١٠٤ - ١٠٥ ؛ الحميدى : جذوة رقم ٥٩١ ؛ القاضى عياض : ترتيب المدارك ١٤٨/٢ - ١٤٩ ؛ ابن فرحون : ديباج ص ١٤٧ - ١٤٨ ؛ لوپث أورتيث : دخول المذهب المالكي إلى الأندلس ص ٧٧ - ٧٨ ، ١٢٥ - ١٢٦ ، ١٥١ - ١٥٢ .

ويعتبر أبو زيد « ابن تارك الفرس » وعبد الملك بن حبيب أكبر ممثلين لاتجاه يمكن أن نسميه « مدنيا » فى داخل المالكية الأندلسية ، ونعمى بذلك أن الجليل الأول من المالكيين الأندلسيين كانوا يعتمدون فى علمهم على شيوخهم المصريين من

تلاميذ مالك بن أنس من أمثال عبد الرخن بن القاسم وعبد الله بن وهب وأشهب بن عبد العزيز ثم على الجيل التالي لهؤلاء مثل أصبغ بن الفرغ والحارث بن مسكين وبنو عبد الحكم ، وظل هذا هو الاتجاه الغالب لا على مالكية الأندلس وحدهم ، بل كذلك في إفريقية (تونس) . على أنه كان هناك رد فعل لهذا الاتجاه تزعمه هذان الفقيهان : أبو زيد وعبد الملك بن حبيب من أجل العودة إلى مالكية أهل المدينة باعتبارهم الأصل وغيرهم الفرع ، على أن ذلك الاتجاه المدنى لم يقدر له نجاح كبير في الأندلس ، وظل المسالكيون الأندلسيون متمسكين بما أخذوه عن شيوخهم المصريين من ابن القاسم فطبقات الفقهاء بعده . وقد بحثنا هذا الجانب من تاريخ المالكية الأندلسية بالتفصيل في بحثنا عن « التيارات الثقافية الشرقية وأثرها في تكون ثقافة الأندلس (دراسة بالإسبانية ، مدريد ١٩٦٧) » ، ص ١٠٢ - ١٠٣ .

(١٦٧) أبو وهب عبد الأعلى بن وهب بن عبد الأعلى القرطبي مولى قرطش ، سمع من يحيى بن يحيى ، ورحل ، فسمع من مطرف بن عبد الله بالمدينة ، ومن أصبغ بن الفرغ بمصر ، ومن سحنون بن سعيد بإفريقية ، وكان يشاور في الأحكام مع يحيى بن يحيى وسعيد بن حسان وعبد الملك بن حبيب وأصبغ بن خليل ، وكان يتهم بالميل إلى الاعتزال ، فكان أصحابه يحيى بن يحيى وابن حبيب وأبراهيم بن حسين بن عاصم يطعنون عليه بذلك أشد الطعن ، وكانت وفاته في سنة ٢٦١ أو ٢٦٢ (٨٧٥ - ٨٧٦) . انظر في ترجمته ابن الفرضي ، رقم ٨٣٥ ؛ الحميدى : جذوة ، رقم ٦٥٣ ؛ الخشني : قضاة ص ١٠٤ - ١٠٥ ؛ القاضي عياض : ترتيب المدارك ١٣٨/٣ - ١٤٠ ابن فرحون ص ١٧٣ ؛ النباهي : مرقبة ص ٥٥ - ٥٦ ؛ وانظر كذلك لوبث أورتيث : دخول المذهب المالكي إلى الأندلس ، ص ١٢٤ - ١٢٦ ، ١٤٥ - ١٤٦ ؛ وأسين بلاثيوس : ابن مسرة القرطبي ومدرسته (مدريد ١٩٤٦) ص ٢٨ - ١٨٠ (ولأن الاسم ورد خطأ «عبد العلي» بدلا من «عبد الأعلى») ؛ وانظر كذلك بحثنا عن «التيارات الثقافية الشرقية» ص

(١٦٨) سترجم ابن حيان لبقى بن مخلد ترجمة ضافية فيما بعد .

(١٦٩) سبق أن علقنا على اسم محمد بن وضاح ؛ انظر رقم ٧٤ .

(١٧٠) أبو زكريا يحيى بن أبراهيم بن محمد بن أبراهيم بن مزين مولى رملة بنت عثمان بن عفان ، قرطبي أصله من طليطلة ، روى بالأندلس عن عيسى بن دينار ومحمد بن عيسى الأعشى ويحيى بن يحيى والغازي بن قيس ، ورحل في أيام الأمير عبد الرحمن ابن الحكم ، فلقى بالمدينة مطرف بن عبد الله وأخذ عنه الموطأ ، وسمع بالعراق ومصر ، وله عدة كتب ذكرها ابن الفرضي بالتفصيل ، ومن أجلها كتاب في «تفسير الموطأ» يعد من الكتب التي أصلت المذهب المالكي في الأندلس ، وكانت وفاته في سنة ٢٥٩ أو ٢٦٠ . انظر في ترجمته ابن الفرضي : تاريخ ، رقم ١٥٥٦ ؛ الحميدى : جذوة ، رقم ٨٨٠ ؛ القاضي عياض : ترتيب المدارك ١٣٢/٣ - ١٣٤ ؛ ابن فرحون : ديباج ص ٣٥٤ - ٣٥٥ . وقد أفادنا ابن الأبار بمعلومات طيبة عن أصل هذه الأسرة وبعض رجالاتها ، فقال إنهم كانوا من أكشونية Oxonora في غرب الأندلس (البرتغال الحالية) ، وكان أولهم نباهة أبراهيم بن مزين «الكاتب» الذي ولي إمارة طليطلة عدة سنوات في أيام عبد الرحمن الداخل ، وتلاه ابنه محمد (جد المترجم له) الذي يذكر من بين تلاميذ الإمام مالك بن أنس وكان قد ولي القضاء في قرطبة فترة قصيرة في سنة ١٧٠ (٧٨٦) ثم استعفى من منصبه ورحل لأداء فريضة الحج ولتلقى العلم ، وكانت وفاته سنة ١٨٣ (٧٩٩)

(انظر في ترجمة ابن الأبار : تكملة رقم ٣٠١ ؛ المقرئ : نفع ٢٦٩/٣) . وسكن ابرهيم بن محمد (والد المترجم له) قرطبة وكان يتعاقب مع الحجاب وجلة الوزراء والقواد في أيام الحكم بن هشام ، ثم ولي إمارة طليطلة التي وليها جده من قبل أعواما متصلة (انظر ابن الأبار : الحلة السيرة ٨٨/١) ، وكانت وفاته في سنة ٢١٣ (٨٢٨) على ما سيذكر ابن حيان في باب الوفيات وعلى الرغم من تنقل بعض أفراد هذه الأسرة في مختلف كور الأندلس فإن جماعها قد استقر على ما يبدو في موضعهم الأول في أكشونة ، إذ أننا نعرف أنهم تولوا رئاسة مدينة شلب Silves (في جنوب البرتغال الآن) بعد انقراط عقد الخلافة الأموية وتغلب ملوك الطوائف ، فكانت لهم هذه الإمارة الصغيرة يتعاقبون عليها حتى خلع آخرهم عنها وهو عيسى بن محمد بن عيسى الملقب بالمظفر - وهو من ولد يحيى بن ابرهيم المترجم له (على خلاف في نسبة) - على يد المعتضد بن عباد سنة ٤٤٥ (١٠٥٣ - ١٠٥٤) ثم قتله المعتضد وملك من يده مدينة شلب (انظر ابن عذاري : بيان محمد ١٩٢/٣ - ١٩٣ ، ٢١٣ ، ٢٩٦ ، ٢٩٨) . وكان لعيسى بن محمد المذكور آخر أمراء بني مزين ولد يدعى أبا بكر محمداً الكاتب ، له كتاب في تاريخ الأندلس بقيت منه قطع متفرقة في بعض المصادر الأندلسية المتأخرة ، وقد اعتمد عليه ابن الأبار في كتاب « الحلة » (انظر ١٧/٢ - ١٨ ، مع تعليق مفيد للدكتور حسين مؤنس في هذا الموضوع ؛ ١١٦ ، ١٢٩ ؛ وانظر ما كتبه عنه بونس بويجس في كتابه عن المؤرخين والجغرافيين في الأندلس ، ص ١٧١) .

وراجع أخيراً ما قاله ابن حزم في رسالته عن ابن مزين المترجم له وحول مؤلفاته (ولو أنه يسميه أبا إسحاق ابرهيم ابن مزين ، والصواب يحيى بن ابرهيم بن مزين) حيث يقول في معرض الفخر بالمؤلفين الأندلسيين : « ومنها كتاب أبي إسحاق ابرهيم بن مزين في تفسير الموطأ والكتب المستقصية لمعاني الموطأ وتوسيل مقطوعاته من تأليف ابن مزين أيضا ، وكتابه في رجال الموطأ وما لمالك عن كل واحد منهم من الآثار في موطئه » (المقرئ : نفع ١٦٢/٤) .

(١٧١) أبو القاسم أبان بن عيسى بن دينار بن واقد القارظي ، وهو ابن الفقيه المالكي المشهور عيسى بن دينار صاحب كتاب « الهداية » ، تلمذ على أبيه وغيره من شيوخ الأندلس ، ثم رحل إلى المشرق فسمع من سحنون بن سعيد قاضي القيروان ، وسمع بالمدينة من ابن كنانة ومطرف بن عبد الله وابن المساجشون ، وكان من الفقهاء الصالحين . وذكر عنه بعض مترجميه أنه ولي قضاء طليطلة ، ولكن المعروف هو أن الأمير محمد بن عبد الرحمن طلب إليه أن يتولى قضاء جيان فأبى ولج في الإباء ، فأمر محمد بإكراهه على العمل وأن يوكل به نفر من الحرس يحملونه إلى حضرة جيان فيجلسوه هناك مجلس القضاء ، فحكم بين الناس يوماً واحداً ثم هرب . غير أنه كان من الفقهاء المشاورين في أيام الأميرين عبد الرحمن ابن الحكم وابنه محمد . وكانت وفاة أبان في سنة ٢٦٢ (٨٧٦) . انظر في ترجمته ابن الفرضي ، رقم ٥١ ؛ الحيدى ، رقم ٣١٨ ؛ الخشي : قضاة ص ١٦ ، ١٠٤ - ١٠٥ ؛ القاضي عياض : ترتيب المدارك ١٥٠/٣ - ١٥١ ؛ النباهي : مرقبة ص ١٢ - ١٣ ، ٥٥ - ٥٦ ؛ ابن فرحون : ديباج ص ٩٨ ؛ وانظر كذلك لويس أورثيث : دخول المذهب المالكي ص ١٢٤ - ١٢٦ ، ١٥٢ ، ١٥٦ .

(١٧٢) أبو مروان عبيد الله بن يحيى بن يحيى بن كثير اللبي القرظي ، سمع بالأندلس من أبيه الفقيه المشهور يحيى ابن يحيى تلميذ الإمام مالك بن أنس ، ورحل إلى المشرق حانجا وتاجراً ، وسمع ببغداد ومصر ، وكان عظيم المسال والجاه ، مقبلاً في المشاورة في الأحكام منفرداً برئاسة الفقهاء ، وطال عمره حتى تنابت في الأندلس أجيال من تلاميذه ، وكان آخر

من بقى من الرواة عن أبيه يحيى . وتوفى سنة ٢٩٨ (٩١٠ - ٩١١) . انظر في ترجمته ابن الفرضى : تاريخ ، رقم ٧٦٢ ؛ الحميدى جذوة ، رقم ٥٨١ ؛ الخشنى : قضاة ص ٩ - ١١ ، ٤١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٧٠ ، ٨٣ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٩٣ ؛ ابن القوطية : تاريخ ص ١٠٦ ، ابن حيان : المقتبس (نشر أنطونيا) ص ٧ - ٩ ، ٩٥ ، ابن سعيد : المغرب / ١٥٣ ، ١٥٥ ، ابن فرحون ديباج ص ١٤٦ ؛ النباهى : مرقبة ص ٤٨ ، ٥٠ ، ٧٤ ؛ وراجع كذلك لوبث أورتيث : دخول المذهب المالكي ص ١٢٦ - ١٢٧ ، ١٥٢ - ١٥٥ .

(١٧٣) أبو مروان عبد الملك بن حبيب بن سليمان الإلبيري ، من موالى عباس بن مرداس السلمى ، سمع بالأندلس من صعصعة بن سلام الدمشقى والغازى بن قيس وزياد بن عبد الرحمن اللخمي المعروف بشبطون ، ورحل سنة ٢١٦ (٨٣١) إلى المشرق ، فسمع بالمدينة من ابن المساجشون ومطرف بن عبد الله وابراهيم بن المنذر الحزامى ، وبمصر من أصبغ بن الفرغ وأسد بن موسى ، وكان من موطنى المذهب المالكي فى الأندلس وإن كان من متزعمى الاتجاه إلى الأخذ بأراء شيوخ المدنيين من المالكية دون المصريين ، ولكن اتجاهه لم يقدر له النجاح ، وقد أصبح لابن حبيب مكانة عظيمة فى الأندلس ، وكان من المشاورين لدى القضاة ، وهذا ما أوجد تنافسا شديداً بينه وبين يحيى بن يحيى الليثى ، على أنه كان يتميز على يحيى وأصحابه من الفقهاء بالتمكن من علوم كثيرة إلى جانب الفقه وكان غزير التأليف فيها جميعا ، إذ له مؤلفات فى الفقه والتاريخ واللغة والطب ، وإن كان علمه بالحديث قليلا . وتوفى سنة ٢٣٨ (٨٥٢) .

راجع في ترجمته : ابن الفرضى : تاريخ ، رقم ٨١٤ ؛ ابن القوطية : تاريخ ص ٦ ، ١٩٤ - ١٩٦ ، ٢٠٣ - ٢٠٥ ، ٢١١ - ٢١٣ ؛ الخشنى : قضاة : ص ٥٤ ، ٨٢ ، ٨٨ ، ٩٢ ، ٩٩ ، ١٠٤ - ١٠٥ ؛ الزبيدى : طبقات ص ٢٨٢ - ٢٨٣ ؛ الحميدى : جذوة ، رقم ٦٢٨ ؛ الفتح بن خاقان : مطمح الأنفس ص ٣٦ ؛ الضبى : بغية ، رقم ١٠٦٣ ؛ القاضى عياض : ترتيب المدارك ٣-٣٠ - ٤٧ ؛ ابن سعيد : المغرب ٢/٩٦ ؛ ابن فرحون : الديباج ص ١٥٤ - ١٥٦ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة (مخطوطة الإسكوريال رقم ١٧٦٣) ص ٢٦٤ - ٢٦٥ ؛ النباهى : مرقبة ص ٢ - ٣ ، ٨ - ٩ ، ١٥ ، ٥٠ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ١٥١ ، ١٧٩ ، ١٨٨ ؛ ابن عذارى : بيان ٢/١١٠ - ١١١ ؛ المقرئ : نفع الطيب ٢/٢١٤ - ٢١٧ ؛ ياقوت الرومى : معجم البلدان ١-٣٢٣ ؛ ابن حجر العسقلانى : لسان الميزان ٤/٥٩ - ٦٢ ؛ السيوطى : بنية الوعاة ص ٣١٢ .

ومن الأبحاث الحديثة انظر دائرة المعارف الإسلامية ٢-٤٠٢ (وهو مقال قصير قليل القيمة) ، بروكلمان : تاريخ الأدب العربى (الترجمة العربية ٣/٨٦ - ٨٧ ؛ بونس بويجس : المؤرخون والجغرافيون الأندلسيون ص ٢٨ - ٣٨ ؛ جوفثالث بالنتيا : تاريخ الفكر الأندلسى ص ١٤١ - ١٤٤ من الأصل و ١٩٣ - ١٩٦ من ترجمة الدكتور حسين مؤنس ، لوبث أورتيث : دخول المذهب المالكي ص ٨٢ - ٩٤ ؛ نيكل : الشعر الأندلسى ص ٢٣ - ٢٤ ؛ دوزى : مقدمة طبعته للبيان المغرب (١٨٤٨-١٨٥١) ص ١٣ ؛ ومجموعة أبحاثه (الطبعة الثالثة) ص ٢٨-٣٤ ؛ ودراستنا عن « التيارات الثقافية المشرقية » ص ١٠٣-١٠٤ ؛ وقد قنا بدراسة ترجمة عبد الملك بن حبيب و « تاريخه » الذى ما زال مخطوطا فى مكتبة « البودليانا » بأوكسفورد فى مقالنا عن « مصر والمصادر الأولى للتاريخ الأندلسى » فى صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، المجلد الخامس سنة ١٩٥٧ ، وانظر بصفة خاصة ص ١٨٩-٢٠١ ، وكذلك ص ٢٢١-٢٤٣ حيث نشرنا الفصول

إلى المدينة وأكثر اتصالاً بها ، وهذا هو ما جعل الفقيه عبد الملك بن حبيب يؤثره على سابقه ويمده « أرفق بالناس » وأقرب إلى قضاء حوائجهم ، على ما في عبور القنطرة من خطر الازدحام وما في جواز النهر على المراكب من خطر الفرق . وكانت « منية نصر » قرية من مصلى الربض المذكور ، إذ كانت تقع على نفس الضفة اليسرى للوادي الكبير (انظر تعليقنا رقم ٥٦) .

وإذا كان الأمير عبد الرحمن قد صوب زأى عبد الملك بن حبيب في البروز إلى مصلى المصاراة وإيثاره على مصلى الربض فليس معنى ذلك أن صلوات الإستسقاء والعيدين قد انقطعت إقامتها في هذا المصلى الأخير ، فنحن نعرف من أخبار سنة ٣٠٢ (٩١٥) في أول أيام عبد الرحمن الناصر أن صلوات الاستسقاء أقيمت في هذا المصلى خمس مرات في أيام مختلفة بعد أن توالى القحط وانقطع المطر . وفي سنة ٣١٧ (٩٢٩) تكرر المحل واستمر احتباس الفيث ، فعهد الخليفة عبد الرحمن بالاستسقاء في المسجد الجامع وفي مصلى الربض ومصلى المصاراة معا (انظر ابن عذارى : البيان المغرب في أخبار هاتين السنتين ، وكذلك مقال تورينس بلباس للذي أشرنا إليه من قبل عن « المصلى والشريعة في المدن الأندلسية ، ص ١٧١) .

ولكى يتبع القارئ ما يقوله ابن حيان في هذا الخبر فإننا أوردنا في ملحقات هذا النص في آخر الكتاب خريطة لقرطبة بينا فيها المواضع المذكورة في السياق : مصلى الربض ومصلى المصاراة ومنية نصر والقنطرة وقصر الخلافة وجنان القصر .

(١٧٥) ورد هذا الخبر وثلاثة من الأبيات المروية هنا في ترتيب المدارك للقاضي عياض ٤٧/٣ ؛ ونفح الطيب للدمري ٢/٢١٤ ، مع اختلاف طفيف في قراءة بعض الألفاظ .

(١٧٦) هو أبو بكر عبادة بن عبد الله بن عبادة المعروف بابن ماء السماء الشاعر المشهور ، وسيأتي التعليق على اسمه وعلى مغان ترجمته في موضعه .

(١٧٧) في « ترتيب المدارك » للقاضي عياض (٣٥/٣ - ٣٦) ثبت واف بأسماء توألف عبد الملك بن حبيب ، وكذلك في ترجمته التي أوردتها أبي الفرضي .

(١٧٨) القاسط هو الظالم وهو عكس المقسط أى العادل .

(١٧٩) يعنى كتاب « الاحتفال في تاريخ أعلام الرجال » لأبي بكر الحسن بن محمد بن مفرج القبشى (انظر تعليقنا السابق رقم ٥٩) .

(١٨٠) عن مسرور بن محمد انظر ابن الفرضي ، رقم ١٤٢٨ ؛ الخشني : قضاة ص ٧٨ - ٧٩ ؛ أبي سعيد : المغرب ١/١٤٦ - ١٤٧ .

(١٨١) يعنى قاضى الجماعة أبا عبد الله محمد بن سعيد بن بشير ، كان كاتباً في حدائمه لابراهيم بن عبد الملك بن عمر ابن مروان بن الحكم في باجة ، ثم كتب لقاضى الجماعة في أيام هشام بن عبد الرحمن بن معاوية : المصعب بن عمران ،

وخرج بعد ذلك حاجا فلقى مالك بن أنس وطلب العلم بمصر أيضا ، ثم انصرف فلزم ضيافته بباجة ، فلما مات المصعب بن عمران أشير على الحكم بن هشام بأن يستقضى محمد بن بشير مكانه ، فولى القضاء ، وكان من خيرة من تولوه . وصرف عن القضاء ثم وليه مرة ثانية ، وكانت وفاته سنة ١٩٨ (٨١٣-٨١٤) . انظر ترجمته وأخباره في الخشني : قصة ص ٥١-٦٧ : ابن القوطية : تاريخ ص ٤٤-٤٥ ، ٥٦-٥٧ ؛ الضبي : بنية ، رقم ٦٩ ؛ القاضي عياض : ترتيب المدارك ٤٩٣/٢-٥٠٥ ؛ ابن الأبار : تكملة رقم ٣٠٢ ؛ ابن سعيد : المغرب ١/١٤٤-١٤٥ ؛ النباهي : مرقبة ص ٤٧-٥١ ؛ المقرئ : نفع ٣٤٣/٢-٣٤٩ ؛ ومن الأبحاث الحديثة لويس أورتيت : دخول المذهب المالكي إلى الأندلس ص ٦٠ ، ٦٧-٦٨ .

(١٨٢) محمد بن أحمد بن عبد الملك بن سلام معتق الأمير هشام بن عبد الرحمن ، يعرف بابن الزراد القرطبي ، روى عن محمد بن وضاح ومحمد بن عبد السلام الخشني وابن هلال ، ورحل إلى المشرق ، وكان يهتم بأخبار الزهاد والعباد ، وكان كثير الحكاية عن ابن وضاح وتوفي سنة ٣٠٤ أو ٣٠٥ (٩١٦-٩١٨) ، عن ابن وضاح والخشني يعتمد عليه في كثير من أخبار قضاة قرطبة . انظر ترجمته في ابن الفرضي : تاريخ رقم ١١٦٥ ؛ الحميدي : جنوة ، رقم ٧ .

(١٨٣) كذا جاء الاسم أيضا في تاريخ ابن الفرضي ، رقم ٣٢٨ ، وابن سعيد : المغرب ١/١٤٦ ؛ أما الخشني (قصة ص ٧٨) فيسببه حامد بن محمد بن سعد بن اسماعيل بن حامد بن عبد اللطيف الرعيني الشدوني . وذكر ابن الفرضي أنه توفي سنة ٢٠٧ (٨٢٢-٨٢٣) ، ونقل عنه هذه الترجمة أيضا ابن الأبار في التكملة ، رقم ٩٤ .

(١٨٤) أبو الجعد أسلم بن عبدالعزيز بن هاشم القرطبي أخو الحاجب هاشم بن عبد العزيز ، ولد سنة ٢٣١ (٨٤٥-٨٤٦) وسمع بالأندلس من يقي بن مخلد ، ورحل إلى المشرق سنة ٢٦٠ (٨٧٤) ، فلق بمصر أصحاب الإمام الشافعي ومحمد بن عبد الحكم ويونس بن عبد الأعلى وغيرهم ، وولى قضاء الجماعة مرتين في أيام عبد الرحمن الناصر ، وكان أميل إلى مذهب الشافعي منه إلى مذهب مالك ولو أنه في أفضيته كان يحكم بما جرى به العمل في الأندلس طبقا للمذهب المالكي . وتوفي أسلم في سنة ٣١٩ (٩٣١) . انظر في ترجمته ابن الفرضي : تاريخ ، رقم ٢٧٨ ؛ الحميدي : جنوة ، رقم ٣٢٢ ؛ الخشني : قصة ص ١٨٢-١٨٨ ، ١٩٠-١٩١ ؛ ابن الخطيب : الاطحة (بتحقيق الأستاذ محمد عبد الله عنان ١/٤٢٧-٤٣٠ ؛ النباهي : مرقبة ص ٥٧-٥٨ ، ٦٣ ؛ أبي سعيد : المغرب ١/١٥٤-١٥٥ .

(١٨٥) أسلم بن عبد العزيز يسند روايته هنا إلى أبيه عبد العزيز بن هاشم بن خالد الذي سبق لابن حيان أن ذكره . من بين وزراء الأمير عبد الرحمن بن الحكم ، وذكر ابن حيان في موضع آخر من هذه القطعة من المقتبس أن عبد العزيز بن هاشم هذا كان يلقب بسعاد ، ولم نعرف من أخباره أكثر من هذه الإشارات . انظر تعليقنا على هذا الاسم فيما سبق (رقم ١٢٠) .

(١٨٦) لسنا نعرف على وجه التحديد ما يقصد به «أبي الخير هنا من أن» جماعة من موالى الخلفاء سموا بأسماء العرب» وأن «الأمير أنكر عليهم ذلك بفضل أنفته وأكد فيه نهيه» . فلسنا نعرف أن للعرب أسماء اختصت بها دون الموالى . وقد

استعرضنا أسماء بيوت موالى بنى أمية وغيرهم بالأندلس وأسماء كثير من ذراريهم فلم نر فيها ما يدل على فروق جوهرية بينها وبين أسماء العرب الخالص التي أورد لنا ابن حزم مئات النماذج فيها في كتابه « جهرة أنساب العرب » ، ولم نر في المراجع الأندلسية - بخلاف هذا النص - ما يدل على أن أمراء بنى أمية قد ضاقوا ذراعا بهذه الأسماء . وما أكثر ما نجد حتى في سلاسل الأسر المسيحية الأصول من يتسمون بأسماء محمد وأسماء صحابة الرسول عليه الصلاة والسلام (والأسماء الشائعة بين خلفاء بنى أمية مثل معاوية ويزيد ومروان وعبد الملك وهشام والوليد والحكم والأصبغ وعبد العزيز وعبد الرحمن وسليمان دون أن يبدو ذلك غريبا لأحد . صحيح أنه عرفت في فترة متأخرة من أيام دولة بنى أمية وأيام الدولة العنبرية أسماء شاعت بين الفتيان والصقالب مثل مبارك ومظفر وواضح وخيران وزهير وليبيب وفاتن وغيرها ، ولكننا لا نعرف أن هذه الأسماء فرضت فرضا ولا أن هؤلاء ممنوا من استخدام غيرها . والواقع أن اسم « مسرور » المذكور هنا أشبه فعلا بهذه الأسماء ، ولكننا لم نر لهذه الظاهرة أمثلة كبيرة تؤكد ما يذكره راوى هذا الخبر . والغريب أن هذا الراوى نفسه وهو عبد العزيز بن هاشم ما ينتمى هو بدوره إلى إحدى أسر موالى بنى أمية (بنى عبد الله بن خالد) ولا نعرف أن اسمه هو ولا أسماء آبائه وأجداده قد أثارت في نفوس موالىة الأمويين استنكاراً ولا أنفة .

(١٨٧) في التعليق السابق أشرنا إلى غرابة ما يذكره راوى الخبر عن استنكار الأمير لتسمى جماعة من موالى الخلفاء بأسماء العرب . وأغرب منه ما يذكر هنا من أن والد القاضي مسرور - واسمه محمد - كان مولى من عشاق أحد أمراء بنى أمية دون تعيين اسمه . ونحن نعرف أن مسروراً هذا كان ابن محمد بن سعيد بن بشير قاضى الجماعة للأمير الحكم بن هشام . ووجه الغرابة في هذا الخبر أن كل من ترجحوا لمحمد بن بشير لم يذكروا شيئاً عن ولاته ، بل إنهم أكدوا كونه عربياً صريح النسب ، ينتهى إلى قبيلة معافر اليمنية ، وأن أصله من الجند النازلين بباجة حينما وزع أبو الخطاب الكلبي عرب الأندلس على الكور المجتدة فخص الجند المصريين منهم كورتان : تدمير (مرسية) وباجة في غرب الأندلس ، ولهذا فإن القاضى عياض مثلاً يذكر في عقب ذلك في ترجمته (ترتيب المدارك ٤٩٣/٢) أن « عداة في عرب مصر » . ولم تكن كلمة « الجند » تطلق إلا على العرب الخالص . ولم يشر أحد من ترجم محمد بن بشير إلى أنه كان مولى عشاق لأحد ، ولو كان صحيحاً أنه مولى للفت ذلك نظر من ترجحوا له واختصوه بالملاحظة ، كما فعل المؤلفون دائماً حينما وقموا على خبر قاض من الموالى . وقد رأينا ذلك في ترجمة القاضى عمرو بن عبد الله بن ليث الملقب بالقبة الذى ولاء الأمير محمد بن عبدالرحمن قضاء الجماعة ، فحمد بن حارث الحشنى يقول في ترجمته : « كان مولى ، وهو أول من وثى قضاء الجماعة للخلفاء من الموالى » فشق ذلك على العرب . . وتكلموا فيه ، فبلغ ذلك الأمير محمداً رحمه الله فقال : وجدت فيه ما لم أجد فيهم » . (كتاب القضاة ص ١١٧ - ١١٨) . وهذا النص نفسه يدلنا على أن أول من نال خطة القضاء من الموالى كان في زمن الأمير محمد في حدود سنة ٢٥٠ أو ٢٥١ (٨٦٤ - ٨٦٥) وأن ذلك آثار ثائرة العرب . كذلك ترجم ابن بشكوال في الصلة (رقم ٦٣٧ لفتيه من نسل محمد بن سعيد بن بشير يدعى عبد الله بن ابراهيم وعاش بين سنتى ٤١٤ و ٤٩٨ ، فقال في رفع نسبه إنه معافى ، ولم يذكر ولاء له . هذا والمؤرخ الوحيد فيما نعرف الذى ذكر أن محمد بن بشير كان من الموالى هو ابن عبد البر كما رأينا فيما سبق أن نقله عنه ابن حيان في هذه القطعة من المقتبس في أول الكلام عن قضاء الأمير عبد الرحمن بن الحكم . وقد لفت هذا الخلاف نظر ابن حيان ، فقال : « وما من اختلافهم قبيح » ، ولو أنه لم يدل برأى قاطع في الموضوع .

ونرى هنا مظهراً آخر من مظاهر غرابة هذا الخبر الذى يستند ابن حيان إلى قاضى الجماعة أسلم بن عبد العزيز .

(١٨٨) عن سعيد بن سليمان البلوطى أو الغافقى انظر - فضلا عما أورده ابن حيان هنا - ابن الفرضى : تاريخ ، رقم ٤٧٥ ؛ الحشى : قضاة ص ١٠٧ - ١١٣ ؛ ابن القوطية : تاريخ ص ٧١ - ٧٢ ، ١٠٢ ؛ ابن سعيد : مغرب ١٤٧/١ ؛ القاضى عياض : ترتيب المدارك ٢١/٣ ، ٤٣ ؛ النباهى : مرقبة ص ٥٤ .

(١٨٩) فحص البلوط El Valle de los Pedroches كورة تضم السهل المنبسط الممتد فى شمال غربى قرطبة ، وكانت أهم مدنها على عهد الإسلام فى الأندلس بطروش أو بطروج Pedroche . وغافقى (التى أصبحت تدعى اليوم Belacazar) . انظر ياقوت : معجم البلدان ٣٦٥/٤ ؛ الإدريسى ص ١٧٥ ، ابن عبد المنعم الحميرى : الروض المعطار ، ص ١٤٠ - ١٤٣ من النص العربى و ١٦٨ - ١٧١ من الترجمة الفرنسية ؛ الحلة السراء ، بتحقيق الدكتور حسين مؤنس ١٧٩/٢ والتعليق رقم ١ .

(١٩٠) أبو أيوب سليمان بن أسود بن سليمان الغافقى القرطبى ، ولى قضاء الجماعة فى أيام الأمير عبد الرحمن بنى الحكم وابنه محمد مرتن ، وكان آخر قضاة . ترجم له ابن الفرضى : تاريخ ، رقم ٥٤٧ ؛ الحشى ص ١٢٦ - ١٤١ ، ١٤٤ - ١٥٤ ؛ ابن القوطية : تاريخ ٧٢ - ٧٣ ، ١٠١ ؛ ابن سعيد : مغرب ١٥١/١ - ١٥٢ ؛ النباهى : مرقبة ص ٥٦ - ٥٩ .

(١٩١) كان حصن غافقى على عهد المسلمين قاعدة كورة فحص البلوط التى مر التعليق على اسمها . وهو منسوب إلى قبيلة غافقى بن الشاهد بن علقمة بن عك بن عدنان التى يقول عنها ابن حزم : « ودارهم بالأندلس معروفة باسمهم فى الجوف فى شمال قرطبة » (جبهة ص ٣٢٨) ، وهو يعنى بذلك حصن غافقى المذكور ، ويضيف ابن حزم إلى ذلك أنه كان منهم أمير الأندلس عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى صاحب الغزوات المشهورة فى أفرنجية (فرنسا) والذى استشهد أخيراً فى بلاط الشهداء (موقعة بواتيه) . وقد أفرد صاحب « الروض المعطار » مادة لغافقى (ص ١٣٩ من النص العربى ، وانظر تعليق ليني بروفنسال على هذا الموضع فى ترجمته الفرنسية للروض ص ١٦٧ حيث يقول إنه لم يمكن تحديد موقع هذا الحصن الآن ، إذ أنه اندثر ولم يبق ذكر لاسمه العربى القديم) . على أن الباحث الإسبانى فليكس إيرنانديث جنمينث قد أعاد دراسة هذا العلم الجغرافى فى بحث طريف بالغ القيمة ، وانتهى من هذه الدراسة إلى أن هذا الحصن قد احتفظ مدة طويلة باسمه العربى محرفاً بعد أن استولى عليه المسيحيون فى صورة Gahet ثم Gahete ، ثم استبدل بهذا الاسم اسم آخر أصبح هو الجارى حتى اليوم وهو Belalcazar ويصدق اليوم على قسرية صغيرة تتبع بلدة (إينوخوسا دل دوكى Hino josa del Duque) وعلى بعد ثمانية كيلومترات من هذه البلدة . وهى تقع على بعد نحو مائة كيلومتر إلى الشمال الغربى من قرطبة . انظر :

Felix Hernandez Jimenez : Estudios de Geografia historica espanola,
VII : Gafiq, Gahet, Gahete . = Belalcazar, Al-Andalus, IX, 1944, pp. 71 -
109.

(١٩٢) تقع ماردة mérida فى غرب الأندلس على بعد نحو مائتى كيلومتر إلى شمال إشبيلية (انظر الروض المعطار . ص ١٧٥ من النص و ٢١٠ من الترجمة ، وكذلك مقال ليني بروفنسال عنها فى دائرة المعارف الإسلامية ٣/٥٢٧ والمراجع الواردة فى هذين الموضعين) .

(١٩٣) أبو عثمان سعيد بن عثمان الأعناق (أو العناق) القرطبي ، ولد سنة ٢٣٣ (٨٤٧ - ٨٤٨) وسمع بالأندلس من محمد بن وضاح ويحيى بن ابراهيم بن مزين ومحمد بن عبد السلام الخشني ، ورحل إلى المشرق ، فلق جماعة من أصحاب الحديث منهم نصر بن مرزوق ، وسمع في مصر على يونس بن عبد الأعلى ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم والحارث بن مسكين وغيرهم ، وأخذ عنه الكثيرون في الأندلس ، وتوفي سنة ٣٠٥ (٩١٧) . انظر في تربيته ابن الفرضي : تاريخ ، رقم ٤٨٤ الحميدي : جذوة ، رقم ٤٧٣ ؛ القاضي عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الثاني ٩٠ ، ١٣٣ ، ١٤٩ ؛ الضبي : بغية ، رقم ٨٠٣ ؛ ابن عداري : بيان ١٧٩/٢ ؛ ابن فرحون : ديباج ص ١٢٣ ؛ المقرئ : نفح ٣٨٩/٣ ؛ والقطعة مجهولة المؤلف في تاريخ عبد الرحمن الناصر ، ص ٥٦ من النص العربي و ١٢٥ من الترجمة الإسبانية .

(١٩٤) أبو سعيد عبد الرحمن بن ابراهيم الدمشقي المعروف بدعيم قاضي فلسطين والأردن . ولد سنة ١٧٠ (٧٨٧-٧٨٦) وسمع من سفيان بن عيينة وابن مسلم وغيرهما ، وتوفي سنة ٢٤٥ (٨٥٩ - ٨٦٠) . انظر في تربيته الذهبي : العبر في خبر من غير ، ط . الكويت ١٩٦٠ ، ٤٤٥/١ .

(١٩٥) أبو عمرو الحارث بن مسكين بن محمد بن يوسف ، مولد محمد بن زياد بن عبد العزيز بن مروان ، فقيه مصري مشهور ، تلمذ على الطبقة الأولى من أصحاب الإمام مالك المصريين من أمثال عبد الرحمن بن القاسم وعبد الله بن وهب وأشهب بن عبد العزيز ، وكان فقيها ورعا زاهدا ، وولي قضاء مصر ، وتوفي سنة ٢٤٥ (٨٥٩ - ٨٦٠) . انظر في تربيته : أبا عمر محمد بن يوسف الكندي : قضاة مصر ، ط . روما سنة ١٩٠٨ ، ص ١٤١-١٤٨ ؛ القاضي عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الأول ص ٥٦٩ - ٥٧٧ ؛ ابن فرحون : ديباج ص ١٠٧ ؛ السيوطي : حسن المحاضرة ٣٠٨/١ ؛ ١٤٤/٢ .

(١٩٦) أبو سعيد عبد السلام بن سعيد التنوخي المعروف بسحنون ، فقيه افرريقية المشهور ، تلمذ بمصر على عبد الرحمن ابن القاسم وثفقه به ، وجمع من سمعه كتاب « المدونة » التي أصبحت تعد من أمهات كتب الفقه المالكي ، وولي قضاء القيروان ، وتوفي سنة ٢٤٠ (٨٥٤) . وترجماته في كتب الطبقات والرجال . أكثر من أن يحال فيها على كتاب بعينه . ويكنى أن نشير هنا إلى أهمها : الخشني : طبقات علماء افرريقية ، ط . الجزائر ١٩١٤ ، ص ٢٢٧ - ٢٣٦ ؛ أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم القيرواني : طبقات علماء افرريقية وتونس ، تحقيق الأستاذين علي الشابي ونعيم حسن الياني ، تونس سنة ١٩٦٨ ص ١٨٤ - ١٨٧ (وانظر قائمة المراجع الوافية التي أوردتها المحققان في حاشية هذا الموضوع) ؛ عبد الرحمن ابن محمد الدباغ : معالم الإيمان ، ط . تونس ١٣٢٢ هـ . ٨ ، ٤٩/٢ - ٦٨ ؛ المالكي : رياض النفوس ، بتحقيق الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٥١ ، ٢٤٩/١ - ٢٩٠ ؛ القاضي عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الأول ص ٥٨٥ - ٦٢٦ ؛ ابن فرحون : ديباج ، ص ١٦٥ - ١٦٦ ؛ النباهي : مرقبة ص ٢٨ - ٣٠ وانظر بروكلمان : تاريخ الأدب العربي (الترجمة العربية) ٢٨٠/٣ - ٢٨٤ .

(١٩٧) ولي أبو العباس محمد بن الأغلبي على افرريقية فيما بين سنتي ٢٢٦ و ٢٤٢ (٨٤١ - ٨٥٦) .

(١٩٨) ورد النص المتقدم في كتاب القضاة للحشني (ص ١٠٧ - ١٠٨) ولكن النصين ليسا متطابقين تماما . ويبدو أن ابن حيان لم يعتمد هنا على أصل مكتوب موثق لكتاب الحشني ، ولعله اعتمد في إثباته على ذاكرته ، بدليل قوله عن تاريخ ولاية سعيد بن سليمان القضاء للأمير عبد الرحمن : « أحسبه في سنة أربع وثلاثين ومائتين - والشك مني - » . فالذي جاء في نص الحشني المطبوع يختلف عما هنا اعتلافا له قيمته : « قال محمد (ابن حارث الحشني) : ولم أسمع بتاريخ ولايته القضاء مني كان ، غير أنه كان بلا شك بعد سنة أربع وثلاثين ومائتين » (ص ١٠٨) .

(١٩٩) ورد هذا النص أيضا في ترجمة سعيد بن سليمان في كتاب الحشني (ص ١٠٨ - ١٠٩) مع اختلافات قليلة إلا أنها تدل على أن ابن حيان إما كان يعتمد على ذاكرته في النقل عن تقدمه من المؤرخين أو أنه كان يعتمد إعادة صوغ النصوص وكتابتها طالما احتفظ بجوهر معناها ، ومن أمثلة تلك الاختلافات أن الحشني يستخدم لفظ « الأقرو ف » في المكان الذي استعمل ابن حيان فيه لفظ « القلسوة » .

هذا وعلينا أن ننبه هنا إلى شيء تميز به النظام القضائي في الأندلس ، مما يدلنا عليه النص الذي بين أيدينا ، ونعني به وجود هذه الطائفة من « الوكلاء الذين يخاصمون عن الناس عند القضاة » ، وهم الذين يسميهم بعد ذلك « الخصماء » (ويسمى الحشني « الخصوم ») ، ويبدو أن هؤلاء كانوا يتخذون من عملهم حرفة يتكسبون بها ، بدليل ما يذكره المؤرخ بعد ذلك من أن القاضي حلف ألا يخاصمه وا عنده سنة « فكاد أن يورثهم الفقر » ، وعمل هؤلاء « الوكلاء » أو « الخصماء » يكاد أن يكون مطابقا تماما لتمثل « الهامين » في نظمتنا القضائية الحديثة على ما نرى من وصف هذا النص له .

(٢٠٠) أبو عبد الله محمد بن عمر بن لبابه القرطبي مولى عثمان بن عبيد الله بن عثمان ، روى عن عبد الأجل بن وهب وأبان بن عيسى بن دينار ومحمد بن وضاح ويحيى بن ابراهيم بن مزين ومحمد بن أحمد العتبي وغيرهم ، وكان مشاورا في أيام الأمير عبد الله بن محمد ، ثم انفرد بالفتيا في أول أيام عبد الرحمن الناصر ، وولى الصلاة بقرطبة ، وكان مولده سنة ٢٢٥ (٨٤٠) ، وتوفي سنة ٣١٤ (٩٢٦) . انظر في ترجمته ابن الفرضي : تاريخ ، رقم ١١٨٧ ؛ الحميدي : جذوة ، رقم ٦١٠ ؛ الضبي : بغية ، رقم ٢٢٢ ؛ ابن القوطية : تاريخ ص ٢ ؛ الحشني : قضاة ص ٣٦ - ٣٧ ، ٦٥ ، ٩٠ ، ١١٢ ، ١٢٨ ، ١٣٦ - ١٣٧ ، ١٦١ - ١٧٧ ، ١٨٠ ، ١٨٧ ؛ ابن حيان : المقتبس (نشر أنطونيا) ص ٧ - ٨ ، ٤٧ ؛ القاضي عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الثاني ص ١٤٥ - ١٤٦ ؛ ابن فرحون : ديباج ص ٢٤٥ - ٢٤٦ ؛ النباهي : مرقبة ص ٥٠ ، ٢٠٤ - ٢٠٥ ؛ ومن الأبحاث الحديثة : بونس بويجس : المؤرخون والجغرافيون الأندلسيون ص ٤٥ ؛ لوپث أورثيث : دخول المذهب المالكي ص ١٥٢ - ١٥٥ .

(٢٠١) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن أبي عتبة القرطبي مولى آل عتبة بن أبي سفيان ، سمع بالأندلس من يحيى بن يحيى وطبقته ، ورحل فسمع من سحنون بن سعيد بالفريقية ومن أصبغ بن الفرج بمصر ، وهو صاحب كتاب « المستخرجة » الذي يعتبر من أمهات كتب الفقه المالكي بالأندلس والمغرب ، وتوفي سنة ٢٥٤ أو ٢٥٥ (٨٦٨ - ٨٦٩) انظر في ترجمته ابن الفرضي : تاريخ ، رقم ١١٠٢ ؛ الحميدي : جذوة ، رقم ٥ ؛ الضبي : بغية ، رقم ٩ ؛ ابن القوطية : تاريخ ، ص ٨١ ؛ ابن فرحون : ديباج ص ٢٣٨ - ٢٣٩ ؛ القاضي عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الثاني ص ١٤٤ -

١٤٦ ؛ المقرئ : نفع ٤١٤/٢ - ٤١٥ ، ١٦٤/٤ ؛ ومن الأبحاث الحديثة بروكلمان : تاريخ الأدب العربي (الترجمة العربية) (٢٨٤/٣ - ٢٨٥ ؛ لويس أورتيت : دخول المذهب المالكي ص ١٤٣ - ١٥٢) وفي هذا الكتاب بحث واف جمع فيه المؤلف كل ما يتعلق بنشاط العتيبي في ميدان الفقه وأورد تحليلا طيبا لما يقى من مادة كتاب « المستخرجة » أو « المتببية » والقطع المخطوطة منها في شتى مكتبات العالم .

(٢٠٢) ورد هذا الخبر في كتاب القضاة للخشني مع اختلافات طفيفة (ص ١١٢) .

(٢٠٣) جاء هذا النص في الترجمة التي أفردها ابن الفرضي لسليمان (رقم ٤٧٥) .

(٢٠٤) في ترجمة أبي بكر يحيى بن معمر الألهاني الإشبيلي انظر ابن الفرضي : تاريخ ، رقم ١٥٥٣ ؛ الحميدى : جذوة ، رقم ٩٠٤ ؛ ابن حزم : جمهرة ص ٤٣٣ ؛ القاضي عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الثاني ص ٥١ - ٥٥ ؛ ابن سمي : المغرب ١/١٤٧ - ١٤٨ ؛ الخشني : قضاة ص ٩٨ - ١١٠ ؛ النباهي : مرقبة ص ٤٤ - ٤٥ ، ١٤٢ ، ١٥٧ ؛ ومن الأبحاث الحديثة لويس أورتيت : دخول المذهب المالكي ص ٦٨ - ٦٩ ، ٨١ - ٨٢ ، ٨٤ .

(٢٠٥) ذكر ابن حزم في الجمهرة (ص ٤٣٣) أن بيت القاضي يحيى بن معمر ينتسب إلى حمير ، وأن جده الأعلى حوشب ذا ظليم بن عمرو الألهاني الحميري قتل مع معاوية بصفين . أما الداخل منهم إلى الأندلس فقد كان جد يحيى المباشر عمران بن منير بن حوشب ذي ظليم ، مع طالعة بليج بن بشر القشيري من أهل الشام .

(٢٠٦) كذا أيضا تسميته الموضع في كتاب الخشني (قضاة ص ٧٩) : مفرانة . ولو أنه قال في التعريف به إنها « حارة » من طرف الحاضرة لا « قرية » كما يذكر ابن حيان هنا ، ونرجح أن يكون الاسم في كلا الموضعين محرفا عن « مفرانة » (بالقاف) ، والقاف والغين كثير ما تلتبس في المخطوطات المغربية والأندلسية إذ أن كليهما تكتب بنقطة مفردة من أعلى . ولا بد أن (مفرانة) هذه هي نفسها « مقرينة » التي يفردها ابن سعيد فصلا في كتاب المغرب (٢٨٨/١) تحت عنوان « كتاب النسرينة » ، في حلي قرية مقرينة » ، وقال عنها إنها « قرية في نطاق حضرة إشبيلية » كان ينتسب إليها الشاعر الشاح الزجال أحمد المقريني المعروف بالكساد . ويبدو أنها كانت في البدء ضاحية من ضواحي إشبيلية ، فلما اتسع عمران هذه المدينة اتصلت بها وأصبحت من أحيائها ، وما زالت كذلك حتى اليوم . وقد كان هناك باب من أبواب سور إشبيلية يطل على هذا الحي ويحمل اسم « باب مفرانة » أشار إليه ابن الأبار في معرض الكلام عن خروج ابن عمار وزير المعتمد بن عباد من إشبيلية إلى مرسية (الحلة السراء ٢/١٤٠) ، وقد ذكر الدكتور حسين مؤنس في التعليق على هذا الموضع أن هذا الاسم نسبة إلى قصر روماني قديم كان هناك يدعى قصر مكاروريوس macarius وأنه مازال قسم من السور العربي القديم باقيا هناك حتى اليوم) . وقد أشار ليفي بروفنسال إلى باب مفرانة أو مقرينة وذكر أنه كان من أبواب إشبيلية الشمالية وكان يقع إلى الغرب من « باب قرطبة » (انظر تاريخه ٣/٣٣٧ - ٣٣٨ والخريطة التي أوردتها لإشبيلية في القرن العاشر الميلادي) .

(٢٠٧) أبو عمرو أشهب بن عبد العزيز القيسي العامري ، الفقيه المصري المعروف تلميذ مالك بن أنس والليث بن سعد ، انتهت إليه رئاسة المذهب المالكي بمصر بعد وفاة عبد الرحمن بن القاسم سنة ١٩١ (٨٠٦) ، وعليه تلمذ كثير من فقهاء مصر وأفريقية والأندلس ، وتوفي سنة ٢٠٤ (٨١٩) . انظر في ترجمته القاضي عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الأول ٤٤٧ - ٤٥٣ ؛ ابن فرحون : الديباج ص ٩٨ - ٩٩ ؛ السيوطي : حسن المحاضرة ، بتحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل ابراهيم ، القاهرة ١٩٦٧ ، ١ - ٣٠٥ ؛ وعن أثر فقه أشهب في الأندلس انظر بحثنا عن « التيارات الثقافية الشرقية .. » ص ١٣٤ ، ١٣٨ - ١٣٩ .

(٢٠٨) أبو عبد الله أصبغ بن الفرغ بن سعيد بن نافع مولى عبد العزيز بن مروان ، الفقيه المصري المعروف ، صاحب جلة أصحاب مالك المصريين من أمثال عبد الله بن وهب وأشهب بن عبد العزيز ، على أنه كان أكثر تفقهه بابن القاسم ، ورأس مالكية مصر بعد وفاة أشهب ، وتوفي سنة ٢٢٥ (٨٤٠) . انظر في ترجمته القاضي عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الأول ص ٥٦١ - ٥٦٥ ؛ ابن فرحون : ديباج ص ٩٧ ؛ السيوطي : حسن المحاضرة ١/٣٠٨ ؛ وانظر عن أثره في مالكية الأندلس بحثنا عن « التيارات الثقافية الشرقية .. » ص ١٣٦ - ١٣٧ .

(٢٠٩) أبو القاسم بن خالد بن سعد القرطبي ، كان من أئمة الحديث في الأندلس بصيراً بعلومه وطرقه ورجاله ، وله كتاب في رجال الأندلس ورواة الحديث فيه ألفه للحكم المستنصر ، وكان الحكم كثير الإعجاب به يضمه في مصنف كبار أهل التجريح والتعديل المشاركة من أمثال يحيى بن معين . وتوفي خالد سنة ٣٥٢ (٩٦٣) . انظر في ترجمته ابن الفرضي : تاريخ ، رقم ٣٩٦ ؛ الحميدى : جدوة ، رقم ٤٠٩ ؛ الضبي : بغية ، رقم ٦٩٥ ؛ وانظر بونس بويجس : المؤرخون والجغرافيون الأندلسيون ص ٦٨ - ٦٩ .

(٢١٠) العنزة (بفتحتين) هي العصا القصيرة . ووضع هذه العصا للإمام في المصلى يراد به تحديد المكان الذي يقوم فيه لكي يؤم المصلين ، ويدل هذا على أن المصليات كانت تخلو من المحاريب الثابتة كما سبق أن ذكرنا في تعليق سابق (انظر رقم ١٧٤) .

(٢١١) أبو إسحاق ابراهيم بن محمد بن باز القرطبي المعروف بابن القزاز ، سمع من يحيى بن يحيى الليثي وسعيد بن حسان وأبي زيد بن ابراهيم وغيرهم من شيوخ المالكية بالأندلس ورحل إلى المشرق فأخذ بمصر عن يحيى بن عبد الله بن بكير وأبي الطاهر أحمد بن أبي السرح وأخذ بأفريقية عن فقيها المشهور سحنون بن سعيد ، فلما عاد إلى الأندلس أصبح من الفقهاء المشاورين المقدمين في الفتيا ، على أنه فيما يبدو أثر حياة الجهاد ، فخرج إلى مجريط (مدريد) للرباط ومعه خمسة من تلاميذه القرطبيين منهم ابنه أحمد وأبو عبد الله محمد بن عبد البر وأحمد بن خالد وأحمد بن أبي زرعة ، ولكنه مرض في الطريق إلى مجريط ، فحمله تلاميذه إلى طليطلة حيث أدرسته الوفاة سنة ٢٧٤ (٨٨٧) . انظر في ترجمته ابن الفرضي : تاريخ ، رقم ١٠ ؛ الحميدى : جدوة ، رقم ٢٥٨ ، ابن الأبار : تكللة (بتحقيق ابن أبي شنب وألفريد بيل) ط . الجزائر ١٩ ، رقم ٢ ابن فرحون : ديباج ص ٨٤ ، ومن الأبحاث الحديثة : محمود على مكى : مدريد العربية ، القاهرة ١٩٦٧ . ص ١١٧ .

(٢١٢) أبو عبد الله عبد الرحمن بن القاسم العتقى ، فقيه مصر المشهور ، تلمذ على الإمام مالك بن أنس وأطال صحبته وحفظ فقهه ، وكانت له رئاسة المالكية في مصر حتى وفاته سنة ١٩١ (٨٠٧) ، وعليه تفقه كبار رجال المذهب المالكي في مصر وأفريقية والأندلس وموطو دعائم هذا المذهب في جميع تلك الأقطار من أمثال أستاذ بن الفرج والحارث ابن مسكين ، وسحنون بن سعيد ، ويحيى بن يحيى وعيسى بن دينار . ومن سماعه جمع سحنون كتاب « المدونة » ، وعيسى ابن دينار كتاب « الهداية » . انظر في ترجمته ترتيب المدارك للقاضي عياض ، المجلد الأول ص ٤٣٣ - ٤٤٧ ؛ وابن فرحون ديباج ص ١٤٦ - ١٤٧ ؛ والسيوطي : حسن المحاضرة ١/٣٠٣ ؛ ومن المراجع الحديثة بروكلمان : تاريخ الأدب العربي (الترجمة العربية) ٣/٢٨٠ ؛ وعن تأثير عبد الرحمن بن القاسم في مالكية الأندلس انظر بحثنا عن « التيارات الثقافية المشرقية » ص ١٣٤ - ١٣٨ .

(٢١٣) يصور هذا الخبر مدى التزام الفقهاء الأندلسيون بأراء عبد الرحمن بن القاسم وتمسكهم بها أشد تمسك . وقد فوه بذلك المؤرخون الأندلسيون منذ قديم وافتخروا به حتى إن أبا الوليد اسماعيل بن محمد الشافعي يقول في رسالته في فضل الأندلس : « وأهل قرطبة أشد الناس محافظة على العمل بأصح الأقوال المالكية ، حتى إنهم كانوا لا يولون حاكما إلا بشرط ألا يعدل في الحكم عن مذهب ابن القاسم » (المقرئ : نفع الطيب ٤/٢٠٢) . وقد أحصى الفقيه أبو إسحاق الفرناطي في القرن الثامن الهجري المسائل التي خالف فيها الأندلسيون مذهب ابن القاسم ، فلم تتجاوز ثمانى عشرة مسألة (انظر لويس أورتيت : دخول المذهب المالكي إلى الأندلس (الملحق ص ١٦٩ - ١٧٠ حيث نقل هذه المسائل عن مخطوطة الإسكوريال رقم ١٠٧٧ ، ورقة ١٢٣٤) .

(٢١٤) هو أبو سعيد عثمان بن سعيد بن كليب الإلبيري ، كان موصوفا بالزهد وولى الصلاة بمحاضرة إلبيرة ، وحدث عنه محمد بن أحمد بن مفرج وغيره ، وكانت وفاته سنة ٣٤٠ أو ٣٤١ (٩٥١ - ٩٥٣) . انظر ترجمته في ابن الفرضي : تاريخ رقم ٨٩٨ ؛ القاضي عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الثاني ص ٥٥ ، ٤٤٤ ؛ الحشني : قضاة ص ٨٤ ، ٨٩ .

(٢١٥) القرآن الكريم ، سورة الشعراء ، آية رقم ٢٢٧ .

(٢١٦) أبو عمر أحمد بن خالد بن يزيد المعروف بابن الجباب القرطبي ، سمع بالأندلس من محمد بن وضاح والحشني وأبراهيم بن محمد بن باز وغيرهم ، ورحل إلى المشرق ، فلق كثيرا من أصحاب الحديث ، وعاد فكان إمام وقته في الأندلس في الفقه والحديث والعبادة ، وتوفى سنة ٣٢٢ (٩٣٤) . انظر ترجمته في ابن الفرضي : تاريخ ، رقم ٩٤ ؛ الحميدي : جذوة ، رقم ٢٠٤ ؛ ابن فرحون : ديباج ص ٣٤ - ٣٥ .

(٢١٧) من الغريب أن ابن حيان لم يترجم لسعيد بن بشير هذا بين من ترجم لهم من قضاة الأمير عبد الرحمن بن الحكم مع أن ابن الفرضي والحشني - وهما من مصادر ابن حيان في هذا الجزء - يثبتان ولايته للقضاء . أما ابن الفرضي فإنه قد أفرد بترجمة خاصة ، فضلا عن أنه ذكر ولايته القضاء في معرض الكلام عن يحيى بن معمر الألهاني (ترجمة رقم ١٥٥٣) ، ومن نصه استكلنا ما ذهب في قطوع آخر الورقة من مخطوطة « المقتبس » كما يرى في المتن . وأما الحشني فإنه اختصه كذلك

بترجمة قل في كتابه ترجمة أبيه محمد بن بشير المتوفى سنة ١٩٨ هـ . (انظر تعليقتنا السابق رقم ١٨١) . على أن ابن حيان ترجم مع ذلك لأخيه مسرور محمد بن بشير الذي ولى أيضا قضاء الجماعة للأمير عبدالرحمن (انظر تعليقتنا السابق رقم ١٨٠) . واسم سعيد المذكور هنا هو سعيد بن محمد بن سعيد بن بشير بن شراحيل المعافري ، كان معينا لأبيه أيام ولايته القضاء للأمير الحكم بن هشام ، وذكر الخشني أن سبب ولايته القضاء هو حفظه لوديعة أودعها عنده ربيع القومس وستره إياها عن الأمير على الرغم من توعده بالعقاب كل من ستر شيئا لهذا الرجل ، وأورده بعد ذلك طائفة أخرى من أخباره . على أن ابن حيان سوف يذكره بعد ذلك عند حديثه عن وفيات سنة ٢١١ ناقلا خبره عن ابن الغرضي والرازي . وأما عن تاريخ ولاية سعيد بن محمد بن بشير للقضاء فإن ابن حيان سوف يذكر أن الأمير عبد الرحمن استقضاء بعد والده ، وكذلك قال ابن الغرضي في ترجمته والقاضي عياض في أحد قوليه ، وهو أمر يبدو لنا عسيرا على التصديق إذ أن أباه توفي سنة ١٩٨ (٨١٣ - ٨١٤) أي في أيام الحكم بن هشام وقبل ولاية عبد الرحمن ابنه بثمانية أعوام . ويذكر القاضي عياض في موضع آخر أن الحكم إنما عهد بقضاء الجماعة بعد وفاة محمد بن بشير إلى الفرّج بن كنانة الشذوني ، وهذا أولى بالتصديق . انظر في ترجمة سعيد بن محمد بن بشير : ابن الغرضي : تاريخ ، رقم ٤٧١ ؛ ابن القوطية : تاريخ ، ص ٤٥ ، ٥٨ ؛ الخشني : قضاة ص ٦٧ - ٧١ ؛ القاضي عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الأول ص ٤٩٥ ، ٥٠٥ ، ٥٣٨ ؛ المجلد الثاني ص ٢٧ - ٢٨ ؛ النباهي : مرقة ، ص ٢١ .

(٢١٨) ذكر الخشني هذا الخبر في ترجمة يحيى بن معمر (ص ٨١ - ٨٢) وكذلك ابن الغرضي في ترجمة (رقم ١٥٥٣) والمقصود هنا بالكسوف إنما هو كسوف الشمس ، ولعل ما جاء في النص من لفظ « الكسوف » الوارد مرتين إنما هو تحريف للكسوف . وقد وصف ابن عذارى هذا الحدث بقوله : « وفي سنة ٢١٨ كان الكسوف العظيم الذي توارث معه الشمس وبدت الأظلام ، وكان ذلك قبل زوال الشمس في أواخر رمضان » ، وهذا التاريخ يقابل في التقويم الميلادي النصف الأول من شهر أكتوبر سنة ٨٣٣ . أما الخشني فينقل عن محمد بن وضاح قوله : « صليت صلاة الكسوف مع ابن معمر في الجامع بقرطبة سنة ثمان عشرة ومائتين ، فصلّى وأحسن الصلاة ، ولم يقم الصلاة ، وطول في صلاته ، بدأ بالصلاة ضحى ، وقوم في القائلة (في الأصل : القابلة وهو تحريف) وقد تجلّت الشمس ، وكنافى زمن الصيف » . ونص ابن حيان الذي ينقله عن الخشني يختلف قليلا عما جاء في نص الكتاب المطبوع الذي بين أيدينا ، فهو أدق تحديداً للمسجد الذي أدت فيه صلاة الكسوف ، إذ هو ينص على أنه مسجد أبي عثمان بالربض الغربي ، بينما لفظ « الجامع » في النص المطبوع يوحي بأنه مسجد قرطبة الجامع . أما ما جاء في كتاب الخشني من أن ذلك وقع « في زمن الصيف » فهو محل نظر ، إذ أن النصف الأول من أكتوبر لا يعتبر زمن صيف وقد خلا ما نقله ابن حيان من هذه الإشارة .

أما مسجد أبي عثمان المذكور فقد أشار إليه الخشني في كلامه عن القاضي محمد بن بشير إذ قال إنه « كان يقضى في سقيفة معلقة بقبلى مسجد أبي عثمان ، وكانت داره في الدرب الذي يقبل ذلك المسجد » (كتاب القضاة ص ٥٤ - ٥٥) ، ونقل ليو بروفنسال عن القطعة المتعلقة بالأمير الحكم بن هشام من كتاب المقتبس (ورقة ١٢١ ظ) تحديداً أوفى لمكان هذا المسجد فقال إنه كان في مدخل « الربض الغربي » وفي حذاء قصر الخلافة ، كذلك ذكر المؤرخ الفرنسي أن ابن حيان أشار في موضع آخر من كتاب المقتبس أثناء الحديث عن إمارة عبد الرحمن بن الحكم (ورقة ١٧٨ ظ) فقال إنه لما شرع الأمير في الزيادة المنسوبة

إليه بالمسجد الجامع بقرطبة في سنة ٢١٨ (٨٣٣) نقلت صلاة الجمعة إلى مسجد أبي عثمان المذكور (انظر ليني بروفسال : تاريخ ١٢٩/٣ ، ٣٧٦) .

(٢١٩) عن الأسوار بن عقبة انظر ابن الفرضي : تاريخ ، رقم ٢٧٧ ؛ الخشني : قضاة ، ص ٨٥ - ٨٦ ؛ ابن القوطية ص ٥٨ ؛ القاضي عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الثاني ص ٢٤ ، ٥٣ ابن سعيد : المغرب ١/١٤٨ . وقد ذكر ابن الفرضي وابن سعيد أن الأسوار ظل على القضاء حتى وفاته سنة ٢١٣ (٨٢٨) وهما ينتقلان هذا الخبر عن ابن عبد البر . أما الخشني - ويتابعه على رأيه القاضي عياض - فإنه يذكر أنه عزل عن القضاء ثم رأى الأمير إعادته إليه فأبى واعتذر بضعف بدنه وكبر ولده .

(٢٢٠) سيفرد ابن حيان ترجمة لحمد بن عيسى الأعشى عند الكلام عن الوفيات .

(٢٢١) في ترتيب المدارك للقاضي عياض (٢٤/٢) : « بفتح العين والقاف » .

(٢٢٢) في ترجمة ابراهيم بن العباس المرواني انظر الخشني : قضاة ص ٨٩ - ٩٤ ؛ ابن حزم : جهرة ص ٩٠ (وهو يورد في هذا الموضع نسب ابراهيم الكامل على نحو ما ذكر ابن حيان تماما) ؛ القاضي عياض : ترتيب المدارك ٢/٢٠ ، ٣٨ - ٣٩ ؛ ابن سعيد : المغرب ١/١٤٨ - ١٤٩ ؛ النباهي : مرقبة ص ١٥ ؛ ابن القوطية : تاريخ ص ٥٨ - ٥٩ . وانظر التعليق القادم رقم ٣٤٧ حيث سنورد مكانه في جدول نسب أسرته المروانية .

(٢٢٣) من الواضح أن المقصود هو أن القاضي ابراهيم بن العباس إنما اتهم بأنه يسمى إلى تدبير مؤامرة تؤدي إلى أن يستأثر بإمارة الأندلس دون عبد الرحمن بن الحكم ، وذلك اعتماداً على شرف نسبه ، إذ أن جده الأعلى هو الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك الذي فتحت الأندلس في عهده ، ومن هنا توجهت التهمة على القاضي وعلى صديقه يحيى بن يحيى الذي لحقته الريبة في أنه قد يكون من الساعين في الدعوة له واستئلاف القلوب حوله .

(٢٢٤) عاق النباهي على خبر عزل ابراهيم بن العباس المرواني عن القضاء برأى عبد الملك بن حبيب بأن هذا الفقيه إنما قاس فتواه على اعتذار الإمام محمد بن إدريس الشافعي عن ولاية القضاء وكان أمير المؤمنين قد عرضها عليه وعزم عليه في ذلك ، فاعتذر بأمر منها أن قال له : « إن هذا الأمر لا يصلح له من يشركك في نسبك » ، (فالمعروف أن نسب الشافعي ينتهي إلى هاشم بن عبد المطلب بن عبد مناف) ، فقبل الخليفة اعتذاره وأقلع عنه (انظر المرقبة العليا ص ١٥) .

(٢٢٥) موسى بن حدير مولى عبد الرحمن بن معاوية الداخل رأس بيت من أئمة بيوت الموالي الأمويين من توارثوا كبرى مناصب الدولة في ظل أمراء بني أمية وخلفائهم . وكان أبوه حدير بواباً على باب السدة في أيام الحكم بن هشام حينما نشبت ثورة الربض سنة ٢٠٢ (٨١٧) ، ويذكر ابن القوطية عنه أنه رفض أن يصدع بأمر الإمام الحكم حينما كلفه بأن يضرب رقاب الفقهاء الثائرين (تاريخ ص ٥٥ - ٥٦) . أما موسى بن حدير المذكور هنا فقد ولي الخزانة الكبرى على ما يذكر ابن حيان هنا ، وكما يقول أيضاً الخشني (قضاة ص ٩٢ - ٩٣) وابن القوطية (تاريخ ص ٥٩ ، ٦٢ ، ٦٨)

وقد توارث بيت بني حدير بعد ذلك كبريات الخطط إلى نهاية الدولة الأموية . ولسنا في معرض استقصاء رجال هذا البيت ، ولكننا ننبه هنا إلى ضرورة التفريق بين ثلاثة منهم يطلق عليهم جميعاً اسم موسى بن حدير : أولهم هو موسى صاحب الخزائن الذي ذكرناه وهو جد هذا البيت المشهور ، والثاني هو حفيده موسى بن محمد بن موسى بن حدير ، وهو الملقب بالزاهد ، وكان اخبارياً حافظاً لتاريخ دولة موالية بني أمية أديباً شاعراً ذا بديهة وروية ، وكان من ندماء الأمير عبد الله بن محمد (انظر ابن حيان : المقتبس نشر أنطونيا ص ٣٤ - ٣٥ ؛ وابن الأبار : الحلة السيرة ١/٢٣٥ - ٢٣٦) ، والثالث هو الحاجب الوزير أبو الأصبع موسى بن محمد بن سعيد بن موسى بن حدير ، ولى المدينة في أيام الأمير عبد الله بن محمد سنة ٢٩٣ (٩٠٦) وظل في هذا المنصب حتى وفاة الأمير عبد الله وخلافة عبد الرحمن الناصر ، وفي سنة ٣٠٩ (٩٢١-٩٢٢) قدمه الناصر على الحجابة ، فبق فيها حتى وفاته سنة ٣١٩ (٩٣١) . (انظر في ترجمته ابن حيان : المقتبس ، نشر أنطونيا ، ص ١٤٢ - ١٤٣ ؛ ابن الأبار : الحلة ص ٢٣٢ - ٢٣٧ ؛ الحميدى : الجذوة ، رقم ٧٨٧ ؛ ابن عذاري : البيان المغرب ٢/١٨٢) .

(٢٢٦) يعنى الحكم بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد ، وهو الذى ولى الخلافة بعد وفاة أبيه عبد الرحمن الناصر في سنة ٣٥٠ (٩٦١) ، وتلقب بالمستنصر بالله ، وتوفى سنة ٣٦٦ (٣٧٧) . ومن المعروف أنه كان عالماً واسع الاطلاع ، وقد نقل الخشني عنه في عديد من المواضع في كتاب القضاة كما نرى هنا ، ونقل عنه كذلك غيره من العلماء مثل ابن الفرضي في غير موضع . ويقول عنه ابن حيان نفسه - فيما ينقل عنه ابن الأبار في الحلة (٢٠٢/١) : « وكان مع هذا كثير التهم بكتبه والتصحيح لها والمطالمة لغوائدها ، وقلما تجد كتاباً كان في خزائنه إلا وله فيه قراءة ونظر من أى فن كان من فنون العلم : يقرؤه ويكتب فيه بخطه ، إما في أوله أو في آخره أو في تضاعيفه ، نسب المؤلف ومولده ووفاته والتعريف به ، ويذكر أنساب الرواة له ، ويأتى في ذلك بفرائب لا تكاد توجد إلا عنده ، لكثرة مطالعته وعنايته بهذا الفن ، وكان موثقاً به مأموناً عليه ، صار كل ما كتبه حجة عند شيوخ الأندلسيين وأئمتهم ، ينقلونه من خطه ويحاضرون به وينقل المقرئ كذلك عن ابن الأبار قوله عن الحكم : « عجباً لابن الفرضي وابن بشكوال كيف لم يذكره وقلما يوجد كتاب من خزائنه إلا وله فيه قراءة أو نظر » (نفع الطيب ١/٣٧١) .

(٢٢٧) الحاجب موسى المذكور هنا هو الذى أشرنا إليه في آخر تعليقنا السابق رقم ٢٢٥ ، ونسبه الكامل هو موسى بن محمد بن سعيد بن موسى بن حدير .

(٢٢٨) كذا جاء في الأصل : « وأسطق حكمة » ، والنص منقول عن كتاب أحمد بن عبد البر ، غير أن ما نراه في كتاب المغرب لابن سعيد (١٤٨/١) - وهو بدوره ينقل عن نفس المصدر - يختلف عما جاء هنا اختلافاً كاملاً ، بل هو على العكس تماماً ، اذ يقابل هذه العبارة لدى ابن سعيد : « فأحسن الحكم » ، بينما يقول ابن حيان إنه « أفسط » أى ظلم وجر ، ولهذا فقد ذكرنا في حاشية هذا الموضوع أن اللفظ ربما كان محرفاً عن « قسط » أى عدل وأحسن . وذلك لأننا لم نر أحداً من ترجموا لبرهيم بن العباس يثمه بالجر ، وكل ما أخذوا عليه هو طواعيته ليحيى بن يحيى والتمطاطة في شعبه .

(٢٢٩) سيفرد ابن حيان ترجمة لزونان الفقيه في الجزء الخاص بالوفيات .

(٢٣٠) لم ينص على ولاية محمد بن سعيد الإلبيري القضاء إلا أحد بن عبد البر ومن نقل عنه مثل ابن حيان هنا والنباهي في المرقبة ص ١٥ . أما الخشني فإنه يقول بعد الفراغ من الكلام عن سعيد بن سليمان آخر قضاة الأمير عبد الرحمن وأول قضاة ابنه محمد على رأيه : « وجدت في تسميته المستخرجة من ديوان القضاء أنه تلا سعيد بن سليمان في القضاء محمد بن سعيد ، فلا أدري إن كان محمد بن سعيد بن سليمان أو غيره . ولم أجد له خبراً ولا سمعت له عند من أدركت من العلماء ذكراً ، حاشي اسمه ، فإنه موضوع مع جملة أسماء قضاة الجماعة في التسمية المستخرجة من الديوان » (قضاة ص ١١٣) . ونظن أنه مادام الخشني قد رأى هذا الاسم فعلا في وثيقة مستخرجة من ديوان القضاء بوصفه قاضياً للجماعة فلا بد أن تكون ولايته للقضاء صحيحة ، لاسيما وقد نص عليها مؤرخون آخرون مثل ابن عبد البر وابن حيان الذي ينقل عنه . ويبدو أن جهل الخشني وابن القوطية بخبر هذا القاضي راجع إلى أنه لم يبق في القضاء إلا فترة قصيرة عزل بعدها . (انظر ابن سعيد : المغرب ١/١٤١) . وقد أشار القاضي عياض في معرض الكلام عن فضائل يحيى بن يحيى إلى القاضي محمد بن سعيد ولكنه لم يعينه بالاسم ، بل ذكره بصفته : « قاضيا من قضاة قرطبة سباه جميل المذهب كان أشار بن يحيى بن يحيى فكان طاعة له في قضائه لا يعدل عن رأيه » (ترتيب المدارك ١/٥٣٩) .

(٢٣١) ترجم ليخامر بن عثمان وذكر ولايته للقضاء كل من ابن الفرضي : تاريخ ، رقم ١٦٤٤ ؛ والخشني : قضاة ص ٩٤ - ٩٧ ؛ وابن سعيد : المغرب ١/١٤٩ - ١٥٠ .

(٢٣٢) الذي ورد في تاريخ ابن الفرضي في نسبة القاضي يخامر « الم . . » ، ويبدو المؤلف قد كتب أولا « المعافري » فعلا ، ثم بدا له في رأيه فأراد أن يحذف هذا اللفظ ويصححه مثبتا « الشعباني » كما جاءت عند الخشني . ويدل على ذلك أننا نراه يثبت نسبة « الشعباني » في ترجمة سعد بن معاذ ابن أخي القاضي يخامر ثم يقول : « المصحح عنه في النسب عن غير أحمد » . ونفهم من هذا أن النسخة التي اعتمد عليها ابن حيان من كتاب ابن الفرضي كانت قد كتبت قبل أن يدخل المؤلف عليها هذا التصحيح الذي ينص على أنه أخذه من مؤرخ آخر غير أحمد (بن عبد البر) ، ولعل هذا المؤرخ هو نفسه محمد بن حارث الخشني .

(٢٣٣) سترجم ابن حيان لمعاذ بن عثمان فيما بعد .

(٢٣٤) أبو عمر سعد بن معاذ بن عثمان بن حسان بن يخامر الشعباني القرطبي ، وأصله من جيان ، وتولى أبوه معاذ وعمه يخامر قضاء الجماعة بقرطبة ، رحل إلى المشرق فروى بمصر عن محمد بن عبد الله بن عبد الحكم وأخيه سعد ويونس بن عبد الأعلى وغيرهم ، وعاد إلى بلده ، فكان رأسا في الفتيا ، وكان يتحلق إليه في المسجد الجامع بقرطبة ويسمع منه ، وتوفي سنة ٣٠٨ (٩٢٠ - ٩٢١) . انظر في ترجمته ابن الفرضي ، تاريخ ، رقم ٥٣٥ ؛ الحميدي : جذوة ، رقم ٤٦٢ ؛ الخشني : قضاة ، ص ٩٤ ، ١٨٥ ؛ ابن فرحون : ديباج ص ١٢٥ ؛ وانظر أخيراً ابن حيان : المقتبس ، نشر أنطونيا ، (ص ٧ - ٨) .

(٢٣٥) جيان Gaen مدينة تقع إلى شرق قرطبة وتبعد عنها بنحو مائة كيلومتر وإلى شمال غرناطة وتبعد عنها بمثل هذه المسافة . انظر عنها المادة التي كتبها زايولد في دائرة المعارف الإسلامية ٢/٦٠٨ - ٦٠٩ ، ومادة الروض المعطان ص ٧٠ - ٧٢ من النص العربي و ٨٨ - ٩٠ من الترجمة ، والمراجع المذكورة في هذين الموضعين .

(٢٣٦) الذى جاء فى كتاب الخشنى (ص ٩٤) : « قلمة الأشعث » لا « الأشعوب » كما ورد فى نص ابن حيان هنا ، على أن مؤرخنا فى موضع آخر من كتاب المقتبس (نشر أنطونيا ص ١١٥) يكتب « قلمة الأشعث » موافقا للخشنى ، وذلك فى معرض الحديث عن غزوة قادها هشام بن عبد الرحمن بن الحكم والقائد ابن أبي عبدة إلى تدمير سنة ٢٨٣ (٨٩٦) وبدأ فيها بقتال سعيد بن هذيل الثائر بحصن المتلون Monléon من كورة جيان ، ويقول ابن حيان فى هذا الموضوع إن القائدين نزلا على « قلمة الأشعث » وأوقعا بما يحيط بها من بسائط وزروع . على أن الاسم ورد فى موضعين من تاريخ ابن الفرضى بصورة أخرى هى « قلمة الأشعب » ، وإن كان هذا المؤلف قد اضطرب فى تحديد الكورة التى كانت تتبعها هذه القلمة ، فهى فى الموضوع الأول (ص ١٩٤) « من كورة إلبيرة » ، وجاء ذكرها فى معرض الحديث عن رجل ينتمى إلى آل سعد بن معاذ الذين كان منهم القاضى يخامر بن عثمان المذكور هنا ، وأما فى الموضوع الثانى (ص ٣٥١) فإن ابن الفرضى جعل « قلمة الأشعب » هذه تابعة لجيان ، والحديث فيه عن رجل كان من تلاميذ سعد ابن معاذ الفقيه . ولم تعنا المراجع الأخرى على تحديد موضع هذه القلمة ولا تحقيق صحة اسمها ولو أنه يغلب على ظننا أنها لا بد أن تكون واقعة على حدود كورق جيان وإلبيرة . وهذا هو ما جعل ابن الفرضى ينسبها مرة إلى هذه ومرة إلى تلك .

(٢٣٧) يشير المؤرخ بقوله « من جند قنسرين » إلى ما يعرف باسم الأجناد ، وهى فرق الجنود الشاميين الذين كانوا قد قدموا إلى الأندلس فى طالمة بليج بن بشر القشيري فى سنة ١٢٣ (٧٤١) ، فلما قدم أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي واليا على الأندلس قرر توزيعهم على الكور مشاركين فى بعضها للبلديين الأول ، وراعى فى تفريقهم أن يسكن كل جند منهم منطقة تشبه من ناحية البيئة الجغرافية القطر الذى أتوا منه من أقطار الشرق العربى : فأسكن جند مصر فى كورق أكشونية وباجة وبعضهم بكورة تدمير (مرسية) ، وأنزل جند دمشق فى إلبيرة (غرناطة) ، وجند الأردن فى رية (أرشلونة ومالقة) ، وجند فلسطين فى شذونة ، وجند قنسرين فى جيان ، وجند حمص فى إشبيلية ولبلة . فالإشارة هنا إلى « جند قنسرين » يقصد بها أولئك العرب الشاميون الذين نزلوا فى كورة جيان منذ أيام أبي الخطار الكلبي . أنظر حول « الأجناد » و « الكور المجندة » نص ابن الإبار فى الحلة السيراء ١/٦١ - ٦٣ وتعليق الدكتور حسين مؤنس على هذا الموضوع ، وكذلك ليني بروفنسال تاريخ ١/٤٩ ؛ وحسين مؤنس : فجر الأندلس ص ٣٦٠ .

(٢٣٨) هو عبد الله أو عبد الرحمن بن الشمر بن نعيم الذى كان شاعر عبد الرحمن بن الحكم ونديمه ومنجمه . انظر فى ترجمته وأخباره : ابن عبد ربه : العقد الفريد (ط . سعيد العريان) ٢/٣٦٤ . ٥/٢٥٥ - ٢٥٦ ؛ الخشنى : قضاة ص ٩٥ - ٩٦ ؛ ابن القوطية : تاريخ ص ٦٠ ؛ أخبار مجموعة ص ١٣٧ ؛ الزبيدي : طبقات ص ٢٨٠ ؛ ابن الفرضى تاريخ رقم ٦٨٩ ؛ الحميدى : جذوة رقم ٥٠٥ ؛ الضبى : بغية رقم ٨٤٥ ؛ ابن عذارى : بيان ٢/٨١ ، ٨٥ - ٨٦ ، ٩٢-٩٣ ؛ ابن سعيد : مغرب ١/٤٧ ، ٥٠ - ٥١ ، ١١٥ ، ١٢٤ - ١٢٧ ؛ ابن الأبار : الحلة ١/١١٦ - ١١٨ ؛ ابن الخطيب أعمال الأعلام ص ١٨ ؛ المقرئ : نفع ٤/١٢٦ ، ٥/١٤٧ ؛ وانظر أخيراً البحث المتمتع الذى اختص به هذا الشاعر الأستاذ إلياس تيريس ساداى فى مجلة الأندلس ، المجلد الرابع والعشرين ، سنة ١٩٥٩ ، ص ٤٤٩ - ٤٦٣ :

Elias terés Sádaba : Ibn al-Samir, Poeta astrologo en la corte de Abd al Rahman II, Al-Andalus, vol XXIV, 1959, pp. 449 - 463.

(٢٣٩) أبو عبد الله محمد بن عبد الملك بن أيمن بن فرج القرطبي ، ولد سنة ٢٥٢ (٦٨٦) ، وسمع بالأندلس من محمد بن وضاح ومحمد بن عبد السلام الخشني ومحمد بن إبراهيم بن باز وابن مطروح وغيرهم ، ورحل سنة ٢٧٤ (٨٨٧-٨٨٨) إلى المشرق ، فسمع بمصر ومكة وبغداد واتي كبار محدثي المشرق من أمثال أحمد بن زهير بن حرب وعبد الله بن أحمد بن حنبل والترمذي ، وعاد إلى الأندلس ، فكان مقدا في الشورى والفتوى ، وولى الصلاة ، وله كتب أكثرها في الحديث من بينها مصنف اعتبره ابن حزم من أحسن ما ألف في هذا الباب . وتوفي سنة ٣٣٠ (٩٤٢) . انظر في ترجمته : ابن الغرضي ، رقم ١٢٢٨ الحميدي ، جذوة ، رقم ٩٨ ؛ ابن فرحون : ديباج ص ٣٢٠ ؛ المقرئ : نفع ٦/٣ - ٧ ، ١٦٣/٤ . وقد اعتمد الخشني كثيراً عليه في أخبار قضاة قرطبة . وانظر من الأبحاث الحديثة لوبث أورتيث : دخول المذهب المالكي ص ١١٥ - ١١٦ .

(٢٤٠) لم يذكر القاضي علي بن أبي بكر الكلبي هذا إلا الخشني (قضاء ٩٧) وليس فيه أكثر مما هو وارد هنا ، وابن سعيد في المغرب (١٥٠/١) حيث يكتب بذكر اسمه فقط ، وابن الأبار في التكلة (ط . أراكون وبالشيا ، ترجمة رقم ٢٢٦٤) حيث ينص على نقله ما وصل إليه من خبر هذا القاضي عن ابن حيان .

(٢٤١) انفرد ابن حيان دون الخشني وابن سعيد وابن الأبار بإثبات هذه العبارة التي تشير إلى أن قاضي الجماعة علي ابن أبي بكر الكلبي أو القيسي كان جداً لعلي بن محمد بن الباسة المذكور هنا . وقد بحثنا في كتب التراجم عن « ابن الباسة » هذا فلم نجد له ذكراً ، مع أن عبارة ابن حيان - أو ابن عبد البر الذي ينقل عنه ، تدل على أن ابن الباسة كان شخصية مشهورة يعنى اسمه عن التعريف به . وقد كان القاضي علي بن أبي بكر - كما سنرى في نص ابن حيان - يحمل لقباً عجمياً هو « يوانش Johannes » (انظر التعليق التالي) ، وها نحن أولاً نرى أن حفيده علي بن محمد المذكور هنا سوف يحمل بدوره لقباً عجمياً آخر هو « ابن الباسة » ، ويظهر أنه يقابل Paso أو pasa (من اللاتينية Passa أي الزبيب) .

وإذا كنا لم نوفق إلى العثور على ترجمة أو إشارة إلى علي بن محمد بن الباسة المذكور - وهو ينبغي أن يكون قد عاش في زمن لا يتجاوز العصر الذي عاش فيه المؤرخ أحمد بن عبد البر مرجع ابن حيان هنا ، أي نحو منتصف القرن الرابع الهجري فإننا بالتفتيش في المراجع الأندلسية المتأخرة قد عثرنا على بعض من تسموا بهذا الاسم أشهرهم على الإطلاق المهندس الكبير شيخ العرفاء أحمد بن باسة الذي يعتبر من عباقرة المهندسين المماريين الأندلسيين ، وقد كشف لنا كتاب « المن بالإمامة على المستضعفين » للمؤرخ ابن صاحب الصلاة في تاريخ الدولة الموحدية عن بعض جلائل أعماله ، منها بناؤه لمدينة جبل طارق واستحكاماتها في سنة ٥٥٥ (١١٦٠) في عهد عبد المؤمن بن علي (المن بالإمامة ، بتحقيق الأستاذ عبد الهادي التازي ، بيروت ١٩٦٤ ، ص ١٣٩) ، وبناؤه لقصور قرطبة واستصلاح مبانيها القديمة وترميمها في سنة ٥٥٧/١١٦٢ (ص ٢٠٦) وبناؤه لقصور البحيرة في إشبيلية سنة ٥٦٧/١١٧٢ (ص ٤٦٧) ، وأخيراً قيامه في نفس السنة ببناء المسجد الجامع الكبير بإشبيلية وصومعته الكبرى الباقية حتى اليوم والمعروفة باسم « الخير الدا la Giralda » ، وهي تعتبر إلى الآن تحفة من تحف الفن المماري (ص ٤٧٤ ، ٤٨٢) . ويبدو أن ابن باسة المذكور هو الذي بنى كذلك منار حسان في مدينة الرباط ومنار الكتبية في مراكش ، إذ هما ينتميان إلى نفس طراز صومعة جامع إشبيلية التي أشرنا إليها . وقد أورد الأستاذ عبد الهادي التازي محقق كتاب « المن بالإمامة » في حاشية ص ١٤٠ تعليقا طريفاً قال فيه إن أسرة « باسة » لا تزال معروفة إلى اليوم

بالمغرب وإليها ينتسب بنو باسه الذين يتوارثون مناصب القيادة في ناحية مدينة تادلة أو تادالا (بجنوب المغرب) ومنهم إلى الآن بمدينة فاس بعض البنائين المهرة من يعتمدهم القصر الملكي في مبانيه .

كذلك ينبغي أن نشير إلى أسرة اشتهرت في مملكة النصارين بغرناطة تحمل اسم « بنى باسه » وعرف أفرادها بالبراعة في علوم الهيئة (الهندسة) وصناعة الآلات الفلكية ، ويذكر ابن الخطيب منهم أحمد بن حسن بن باصة الأسلمي المؤقت بالمسجد الأعظم بغرناطة ، وكان أبوه شيخ الجماعة في هذا الفن أيضا وانتقل إلى غرناطة من شرق الأندلس ، وكانت وفاته في سنة ٧٠٩ (١٣٠٩ - ١٣١٠) . (انظر ابن الخطيب : الإحاطة في أخبار غرناطة ، بتحقيق الأستاذ محمد عبد الله عنان ٢١١/١) . ومن الأسرة نفسها حسن بن محمد بن باسه رئيس المؤقتين بالمسجد الأعظم بغرناطة وكان كذلك إماما في علم الحساب والهيئة ماهرأ في التعديل (التقاويم الفلكية) ، وتوفي بغرناطة سنة ٧١٦ (١٣١٦) . (نفس المرجع ص ٤٧٦) . وعلى الرغم من أن الاسم هنا بالصناد بدلا من السين فإن هذين المهندسين الغرناطيين يبدوان لنا من نفس الأسرة التي ينتمى إليها المهندس الممارى أحمد بن باسه « شيخ العرفاء » وباني قصور اشبيلية ومسجدها الجامع على أيام الموحدين .

ونحنم هذا التعليق بالإشارة إلى شخصية متقدمة على هذا العصر أشار إليها ابن حيان نفسه ، وكان لها - وهذا من عجيب الموافقات - صلة بالمباني والقصور ، ولو أن الأمر هنا على العكس إذ هو مرتبط بالهدم والتجريب لا بالبناء والتعمير ، ونعني بهذه الشخصية من يدعوها ابن حيان « ابن باشه » - هذه المرة بالشين - واصفا إياه بأنه « هدام القصور ومبور المعمور » ويقول ابن حيان - فيما ينقل عنه ابن بسام في « الذخيرة » إن أبا الوليد محمد بن جمهور ثاني ملوك الجهاورة وأصحاب قرطبة بعد انقطاع دولة بني أمية منها كان قد استوزر ابن السقاء القرطبي وأسلم إليه تدبير أمور قرطبة ، وكان ابن باشه المذكور من صنائع ابن السقاء فقدمه هذا « بلجم آلات ما تهدم من القصور المعطلة (يقصد قصور بني أمية المهجورة وما بقى منها بعد الفتنة) ، فاغتنب عليها أعظم آفة . . . فعاث فيها عياث النار في يبيس العرفج ، وباع آلاتها من رفيل المرمر ومشمع العمد ونضار الخشب وصافي الحديد والرصاص ببيع الإدبار » ، ويفصل ابن حيان بعد ذلك ما فعله ابن باشه من بيع أنقاض قصور بني أمية لرسول ملوك الطوائف وما غله من ثروة وأموال من وراء ذلك (انظر ابن بسام : الذخيرة ، القسم الأول ١١١/٢ - ١١٣) . ولسنا نعرف ما إذا كان لابن باشه المذكور صلة بابن الباسه حفيد قاضي الجماعة بقرطبة من ناحية ، وبابن باسه شيخ العرفاء على عهد الموحدين من ناحية أخرى ، ولو صح ذلك لكان من غريب المفارقات أن ينحدر المهندس المبقرى معمر قرطبة ومرمم قصورها وباني صروح اشبيلية ومسجدها الجامع من صلب ابن باشه مثلوب ابن حيان « هدام القصور ومبور المعمور » على حد تعبيره ! . .

(٢٤٢) هذا اللقب الذي وضع للقاضي على بن أبي بكر الكلابي : « يوانش » يقابل في اللاتينية *Iohannes* وهو الذي أصبح يقابل في اللغات الأوروبية الحديثة : *Juan* في الإسبانية ، و *Jean* في الفرنسية ، و *John* ، و *Giovanni* في الإيطالية . وإطلاق مثل هذا اللقب اللاتيني على قاض للجماعة عربي الأصل فيما يبدو - إذ لم يذكر أحد من ترجم له أنه كان من الموالى ذوى الأصول العجمية - يدل على صحة تلك الحقيقة التي أكثر المستشرقون الإسبان من الحديث عنها ، وهي شيوع اللغة العجمية الطينية في الأندلس كما يدعوها المؤلفون الأندلسيون أو اللاتينية الدارجة الشائعة في إسبانيا، والتي أدت بعد ذلك

إلى مولد اللغة الإسبانية أو القشتالية (بين جميع أوساط الأندلسيين المسلمين حتى الأمراء والفقهاء والنبلاء) . انظر على سبيل

المثال كتاب المستشرق خوليان ريبييرا : محاضرات ورسائل ، ٢٩/١ وما بعدها :
Julian Ribera y tarraga : Disertaciones y opusculos, Madrid, 1928, I, p. 29 ...

على أنه مما يلفت النظر هنا في لقب « يوانش » أنه لم يكن نبذاً مما اعتدنا أن نراه على غيره من الأندلسيين ، أى صفة معينة تحدد شخصية المنبوز أو تبرز جانباً من جوانب عيوبه الجسمية أو الخلقية مثل قولهم « البطرة شقة Petra Secca الحجر اليابس » أو « ألمه ماله Alma Mala = النفس الخبيثة » أو « المعزيلة El Magrilla = الهزيل المعروق . . . » الخ ، ولكنه إسم عادي كثير الشيوع في الأوساط الإسبانية القديمة والحديثة فلماذا اختير هذا اللقب نبذاً لذلك القاضي الجليل الذي لم يذكر إلا بخير . ؟ لسنا نعرف من أخبار على بن أبي بكر الكلابي ما يعين على إيضاح هذه النقطة .

(٢٤٣) قبرة Cabra . بلدة صغيرة من أعمال قرطبة ، وهي تقع منها على بعد نحو سبعين كيلو متر إلى الجنوب الشرق منها . انظر عنها المادة الواردة في « الروض المطار » ص ١٤٩ - ١٥٠ من النص و ١٧٨ - ١٧٩ من الترجمة والمراجع المذكورة في هذا الموضع .

(٢٤٤) عن معاذ بن عثمان الشيباني انظر الخشني : قضاة ص ٩٧ - ٩٩ ؛ ابن سميذ : المغرب ١/١٥٠ ؛ النباهي : مرقبة ص ٥٥ ؛ ابن القوطية : تاريخ ص ٥٩ ؛ ابن الأبار : تكملة ، ترجمة رقم ١١٦٤ .

(٢٤٥) الذي جاء في كتاب الخشني (ص ٩٧) : « سبعة عشر شهراً » .

(٢٤٦) علق الخشني على هذا الخبر فقال إن هذه الحكاية عن السبب في عزل القاضي معاذ بن عثمان - فيما يرى - مدخولة لأنه لا ينكر تنفيذ الأفضية وكثرتها مع حضور الحق ، فإذا صححت فإنها قد تكون من تحامل الفقهاء ، إذ « كلما طالت الحصومات كان أنفع لهم » (الخشني : قضاة ص ٩٨) .

(٢٤٧) « الأحباس » في الاصطلاح المغربي والأندلسي - وتسمى كذلك الجبوس - هي التي نعرفها في الشرق باسم « الأوقاف » أى ما يوقف أو يحبس على أغراض الخير والبر من الأموال . وقد كان الإشراف على هذه الأوقاف من عمل القضاة ، غير أن القاضي كان ينتدب له من يراه صالحاً للنظر على الأوقاف . (انظر في الوقف في الإسلام دائرة المعارف الإسلامية ٤/١١٥٤ - ١١٦٢) وفي نظام الأوقاف في الأندلس لبني بروفنسال : تاريخ ٣/١٣٣ - ١٣٤) . ويبدو أن النظر على الأوقاف كان دائماً مثيراً للريبة وشبهة الإثراء الحرام . فابن الفرضي يترجم في تاريخه لفتيحه يدعى محمد بن سعيد بن قرط كان قاضي الجماعة أبو بكر محمد بن إسحاق بن السليم قد قدمه إلى النظر في الأوقاف ، فبقى عليها طوال مدة قضااته ثم جانباً كبيراً من مدة خلفه محمد بن يتيق بن زرب ، ثم عزله عنها ، وأثار عليه هذا النظر قضية طويلة عزل فيها وذهب فيها أكثر ماله حتى إنه مات فقيراً في سنة ٣٨١ (٩٩١) . (انظر تاريخ ، رقم ١٣٦٠) .

(٢٤٨) شاع في الأندلس ضرب المثل في الإفساد والتدمير بفعل الدب في غلایا النحل على نحو لم نر له مثيلاً في المشرق ويفسر هذا بأن الدب من الحيوانات المسألوفة في الأندلس كالشأن به في مختلف بلاد أوروبا ، حتى إن رسم الدب أصبح يؤلف جزءاً من رنك (أو شارة) مدينة مدريد المميز لها ، إذ يرسم واقفاً وهو يتناول ثمراً من شجرة برقوق برى ، وأصبح تعبير « الدب والبرقوق البرى El oso y el madrono » علماً على عاصمة إسبانيا حتى اليوم ، وإنما كان ذلك بسبب كثرة الدببة في جبال « وادي السرمل Sierra La Guadarrama » القريبة من مدريد (انظر كتابنا عن « مدريد العربية » ص ٢٢) .

أما المثل الذي يضربه الغزال هنا بفعل الدب في النحل فإننا نراه في الأندلس حتى المصور المتأخرة متخذاً صورة عامية ، فقد جاء ضمن أمثال العوام الأندلسية التي استخرجها الدكتور محمد بن شريفة من كتاب « رى الأوام ومرعى السوام في نكت الخواص والعوام » لأبي يحيى عبيد الله بن أحمد الزجالى القرطبي (عاش بين سنتي ٦١٧ و ٦٩٤/١٢٢٠ - ١٢٨٥) ، وذلك على الصورة الآتية « اشما عمل الدب يعجب للجباح » ومعناه : أى شئ يعمله الدب فإنه يعجب الجباح - بتشديد الباء أى جانى النحل ومشتاره - ، ويفسر الدكتور محمد بن شريفة المثل بأن الدب يتسبب في تدمير خلايا النحل البرية التي تكون في الجبال فتتول إلى النحال ، وقد يكون المقصود أن الدب لا يفتأ يتتبع خلايا النحل ويتشمم مواقعها ، فيدل بذلك جامعى النحل على أمكنة الخلايا ، فينتفعون بذلك . وقد أورد محقق النص في تعليقه على هذا المثل مثلاً إسبانيا ورد في المجموعة التي جمعها « كليسر Kleiser » ، وهذا نصه : *A donde hallo un panal, vuelve el oso a husmear*

أى « حيثما وجد الدب خلية نحل فإنه لا يلبث أن يعود إلى تشمها » (انظر نص الأمثال المستخرجة ، رقم ١٧٣ ، ص ٤١ من المنسوخ على الآلة الكاتبة) .

ويبدو أن التمثيل بتدمير الدب لخلايا النحل كان شائعاً في الأدب الإسباني القديم فعلاً ، فنحن نجد تعبيراً قريباً مما يذكره الغزال في أبياته في مسرحية بعنوان إيوفيميا *Eufemia* كتبها أحد رواد المسرح الإسباني وهو « لوبي دى رويدا Lope de Rueda » (المتوفى سنة ١٥٦٠ م) يقول فيها على لسان أحد شخصيات الرواية إنه ليس هناك رجل ولا امرأة في كل القرية يتحدث عن أمه خيراً مما يتحدث به النحل عن الدب . انظر « مسرح لوبي دى رويدا » في مجموعة « الكتاب الكلاسيكيون في الأدب الإسباني » ، بتحقيق وشرح مورينو فيليبا ، ط . مدريد سنة ١٩٤٩ ، المجلد التاسع والخمسون ، ص ٩ *Lope de Rueda : Teatro, ed. J. Moreno Villa, Colección clásicos Castellanos, No. 59, Madrid, 1949.*

وعن هذا المؤلف المسرحى انظر ما كتبناه في مقالنا « المسرح الإسباني في القرن السابع عشر » ، في مجلة « المهلة » ، العدد ١٦ ، أبريل ١٩٥٨ ص ٤١ - ٥١ ، وانظر بصفة خاصة ص ٤٢ - ٤٣ .

أما أبيات الغزال الواردة في نص ابن حيان فقد جاءت أيضاً في ترجمة القاضى معاذ بن عثمان في كتاب الخشنى : قضاة ص ٩٩ وتكلمة ابن الأبار ، رقم ١١٦٤ ؛ وفي العقد لابن عبد ربه (ط . لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة) ٢١٧/٣ ، مع فروق طفيفة في الرواية .

(٢٤٩) عن الفقيه سعد بن معاذ انظر تعليقنا السابق رقم ٢٣٤ .

(٢٥٠) عن لفظ « الأبدال » وما فسره به المحدثون والمتصوفة انظر بحث أسين بلاثيوس عن « ابن مسرة القرطبي ومدرسته » ، ص ١٨٦ ، حاشية رقم ١ ؛ وكذلك نفس المؤلف عن محيى الدين بن عربى المرسى تحت عنوان *El Islam cristianizado* (ط . مدريد ١٩٣١) ص ٤١ ، ٣٢٩ ، وعاد هذا المستشرق الإسباني الذى تخصص في دراسة التصوف الإسلامى إلى شرح نظرية « الأبدال » الصوفية في أحد تعليقاته على ترجمته الإسبانية لكتاب محيى الدين ابن عربى « رسالة القدس » (ط . مدريد - غرناطة ١٩٣٣) :

Miguel Asin Palacios : Vidas de Santones andaluces, Madrid - Granada, 1933.

واعتمد أسين بلاثيوس في شرح هذه النظرية على ما ورد في « الفتوحات المكية » لابن عربي (٧/٢-١١) حيث يقول في ترتيب المقامات الصوفية إنها تبدأ « بالقطب » ، يليه « إمامان » يخلفانه عند موته ، ثم أربعة « أوتاد » في جهات العالم الأربع ، ويلهم سبعة « أبدال » كل منهم في واحد من أقاليم الأرض السبعة ، وبعدهم اثنا عشر نقيباً يختص كل منهم بواحد من أبراج الفلك الاثني عشر ، ثم ثمانية « نجباء » لطبقات السماء . (انظر ترجمة « رسالة القدس » ص ١٣٦ ، حاشية رقم ٢) هذا وقد تتبعنا في بحثنا عن التيارات الثقافية المشرقية وأثرها في تكون ثقافة الأندلس « من اصطلاح الأندلسيون على تسميتهم بالأبدال من صوفية بلادهم وزهادها (انظر ص ١٥٧ والحاشية رقم ٤) .

(٢٥١) عن الحاجب ابن رسم انظر ما سبق أن أورده ابن حيان في ترجمته وتعليقنا رقم ١٠٩ .

(٢٥٢) محمد بن زياد بن عبد الرحمن بن زياد بن عبد الرحمن بن زهير ، انتهى نسبه إلى جزيلة بن لحم ، وأبوه هو زياد المعروف بشبطون صاحب الإمام مالك وأول من أدخل الموطن إلى الأندلس ، وقد أعقب زياد المذكور ابنتين محمداً ، وأحد تولى كلاهما قضاء الجماعة في قرطبة . وكان محمد أكثر الرواية عن معاوية بن صالح الحضرمي أو الشامي الذي ولى القضاء في أيام عبد الرحمن الداخل ، ومعاوية بن صالح هو جده لأنه ، وولى قضاء الجماعة بعد سعيد بن سليمان البلوطي . وجمعت له معها الصلاة ، واختلف الرواة في تخليه عن هذا المنصب ، فقال بعضهم مثل ابن القوطية إنه استعفى ، وقال آخرون مثل الخشني والنباهي إنه عزل بسبب قضية ابن أخى عجب في خبر طويل . ويذكر الحميدى والضبي أنه مات بعد سنة ٢٤٠ (٨٥٤ - ٨٥٥) بيسير . انظر ترجمته في ابن القوطية : تاريخ ص ٧١ ؛ الخشني : قضاة ص ٩٩ - ١٠٦ ؛ ابن الفرضي رقم ١٠٩٦ ؛ الحميدى : جدوة ، رقم ٥٥ ، الضبي : بغية ، رقم ١٢٠ ؛ ابن سعيد : مغرب ١/١٥٠ ؛ النباهي : مرقبة ص ٥٥ - ٥٦ ؛ ومن المراجع الحديثة لوبث أورتيت : دخول المذهب المسالك ص ٧٠ ، ٧٩ ، ١٠٢ . وانظر تعليقنا الآتي رقم ٣١٧ حول بيت بني زياد .

(٢٥٣) أبو القاسم أحمد بن محمد بن زياد المعروف باسم الحبيب ، وهو ابن المتقدم ذكره في التعليق السابق . تلمذ على محمد بن وضاح وعلى أبيه محمد وعمه أحمد وكلاهما ولى قضاء الجماعة ، وكان أول نباهته أنه كان من الفقهاء المشاورين في أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن (ت سنة ٨٨٦/٢٧٣) وهو لا يزال شاباً بعد ، ثم أم بالناس صلاة الاستسقاء في عهد المنذر بن محمد (٢٧٣ - ٨٨٦/٢٧٥ - ٨٨٨) فسق الناس واستبشروا به . ولما ولى الأمير عبد الله بن محمد الإمارة ولاة قضاء الجماعة لأول مرة في سنة ٢٩١ (٩٠٤) بعد وفاة محمد بن سلمة ، وكان غنياً مولاً إذ كان قد اشتغل بالتجارة من قبل بتصحيحه قاضي الجماعة سليمان بن أسود . وهو أول قاض لم يقبل فتياً من فقيه إلا إذا نصها بخط يده ، فتألفت له من فتاوى الفقهاء عدة مجلدات . واعتمد في الفتيا على محمد بن وليد وابن أيمن استغناء عن أبي صالح أيوب بن سليمان ومحمد بن عمر بن لبابة ، وكان متباعداً عنهما . وظل على القضاء هذه المرة حتى وفاة الأمير عبد الله في سنة ٣٠٠ (٩١٢) ، فلما ولى عبد الرحمن (الناصر) ظل الحبيب بن زياد على القضاء فترة يسيرة ، ثم عزل في نفس السنة ، وخلفه أسلم بن عبد العزيز (٣٠٠ - ٩١٢/٣٠٩ - ٩٢١ أو ٩٢٢) ، ثم عزل أسلم وأعيد الحبيب بن زياد إلى القضاء وجمع له مع الصلاة ، وكانت عودته إلى المنصب في هذه المرة بفضل صلته بالحاجب بدر . وظل على القضاء والصلاة حتى توفي غير معزول في سنة ٣١٢ (٩٢٤-٩٢٥) . وانتقده ابن عبد البر فقال إنه أهان خطة القضاء وابتذلها بركوبه إلى السلطان . انظر ترجمته الخشني : قضاة

ص ١٧٤ - ١٨٢ ، ١٨٨ - ١٩٠ ؛ ابن حيان : المقتبس (نشر أنطونيا) ص ٧ ؛ ابن الفرضي : رقم ١٣٣ ؛
ابن سعيد : مغرب ١/١٥٥ ؛ القاضي عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الثاني ص ٤٤٠ ؛ ابن فرحون : ديباج ص ٣٣ .
وانظر تعليقنا الآتي رقم ٣١٧ .

(٢٥٤) معاوية بن صالح الحضرمي الحمصي الشامي فقيه محدث مشهور ، قدم إلى الأندلس في سنة ١٢٣ (٧٤٠)
في طالعة بلج بن بشر القشيري على ما يبدو ، واستقر أولا في مالقة حيث قام ببناء المسجد الذي قدر له أن يحمل اسمه في قصبتها
ثم انتقل إلى اشبيلية حيث اتصل بآخر بولاية الأندلس لبنى أمية : يوسف بن عبد الرحمن الفهري . وحينما قدم عبد الرحمن
ابن معاوية الداخل قربه وأحظاه وعهد إليه بعدة مهام كبرى منها العودة إلى الشام لكي يرافق أختين كان الأمير قد تركهما
بالمشرق عند فراره إلى الأندلس ، ولبت مدة في طريقه في مصر حيث روى عنه كبار فقهاء مثل الليث بن سعد ، ورحل إلى
الحجاز لأداء فريضة الحج ، وسمع منه كبار فقهاء المدينة ومحدثي العراق الذين انثالوا عليه ليأخذوا عنه أحاديثه ، ومن بين
من سمع منه فقيه المدينة الأكبر مالك بن أنس وسفيان الثوري ومحمد بن عمر الواقدي . وعاد إلى الأندلس في نحو سنة ١٤٢
(٧٥٩) فولاه عبد الرحمن الداخل القضاء بعد وفاة قاضيه يحيى بن يزيد ، وظل يل هذه الخطة حتى رحلته الثانية إلى المشرق
في سنة ١٥٤ (٧٧١) ، وكان هدفه في هذه الرحلة هو تأدية فريضة الحج ، وكان يرافقه فيها صهره زياد بن عبد الرحمن
اللخمي المعروف بشبطون . على أنه أسمع الحديث في مصر والحجاز أيضا . ولما عاد إلى الأندلس ولاء عبد الرحمن القضاء
من جديد إلا أنه كان يعاقب بينه وبين عمرو بن شراحيل . وتوفي بقرطبة سنة ١٧٨ (٧٩٤ - ٧٩٥) في عهد الأمير
هشام بن عبد الرحمن . وقد استخرجنا هذه الترجمة « التقريرية » من ركام الأخبار المتضاربة المتناقضة عن حياة معاوية بن صالح
بما ورد في المراجع المشرقية والأندلسية ، ويعتبر معاوية بن صالح « مدخل علم الحديث إلى الأندلس » على حد قول يحيى بن يحيى
الليثي ، وبلغ من مكانته في هذا العلم أن محدثا عراقيا هو زيد الحباب المكي دخل إلى الأندلس قادما من العراق لكي يسمع
منه أحاديثه ، ولو أن الأرجح هو أن يكون قد سمع منه في المدينة لا في الأندلس . على أن الثابت هو أن عدداً من أكبر
علماء الحديث مثل ابن حنبل والبخاري قد ذكراه في كتبهما . وعلى الرغم من هذه المكانة فإن ذكرى معاوية بن صالح قد
اندثرت أو كادت في الأندلس ، وضاعت أحاديثه ، على أن المحدثين الأندلسيين اجتهدوا - في فترة متأخرة نسبياً - في جمع
هذه الأحاديث ، فأورد ابن عبد البر جملة منها في كتاب « جامع بيان العلم وفضله » ، ثم أفردها الأديب الأندلسي ابن الأبار
البلنسي « المتوفى سنة ٦٥٨-١٢٦٠) بكتاب خاص : « المدخل الصالح في حديث معاوية بن صالح » .

انظر في تربيته وأخباره من الكتب المشرقية : الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ٨/٤٤٢ ؛ محمد بن الطاهر بن علي المقدسي
المعروف بابن القيسراني : الجمع بين كتابي نصر الكلاباذي وأبي بكر الإصبهاني في رجال البخاري ومسلم ، ط . حيدرآباد
١٣٢٣ (١٩٠٤) ص ٤٩١ ؛ الذهبي : ميزان الاعتدال في نقد الرجال ، القاهرة ١٣٢٥ (١٩٠٦) ٣/١٧٩ ؛ ابن
حجر العسقلاني : تهذيب التهذيب ، حيدرآباد ١٣٢٥ ، ٢٠٩/١٠ ؛ صفى الدين أحمد بن عبد الله الخزرجي : خلاصة تهذيب
الكامل ، القاهرة ١٣٢٢ ، ص ٤٢٦ ؛ ومن الكتب المغربية والأندلسية : ابن القوطية : تاريخ ص ٣٤ ، ٤٣ - ٤٤ ؛
الحشني : قضاة من ٣٠ - ٤٢ ؛ ابن الفرضي ، رقم ١٤٤٣ ؛ الحميدى : جذوة ، رقم ٧٩٦ ؛ الضبي : بنية ، رقم ١٣٣٨
ابن سعيد : مغرب ١/١٠٢ ، ١٤٣ - ١٤٤ ؛ ابن الأبار : معجم أصحاب أبي علي الصديقي ص ١٨٠ ؛ القاضي عياض :
ترتيب المدارك ، المجلد الأول ص ٢٥٨ ، ٣٤٩ - ٣٥٠ ، ٣٥٢ ، ٣٦٧ ، ٥١٠ ؛ ابن عبد المنعم الحميري : الروض

المطار ص ١٧٨ ؛ ابن فرحون : ديباج ١١٨ ؛ النباهي : مرقبة ٤٣ ، ٥٥ المقرئ : نفع ٤/٤٦ ؛ ومن الأبحاث الحديثة انظر لوبث أورتيث : دخول المذهب المالكي ص ٢٠ ، ٣٦ - ٤٠ ، ٥٩ ، ٦٢ ، ٧٩ ، ١٠٦ ؛ ومحمود مكي : التيارات الثقافية المشرقية ص ٦٢ - ٦٤ .

(٢٥٥) ليس سماع محمد بن زياد اللخمي من معاوية بن صالح أمراً مستبعداً ، فعاوية المذكور هو جده لأمه ، إذ كان زياد المعروف بشبطون متزوجاً من ابنة معاوية . وقد توفي هذا على ما رجحناه في سنة ١٧٨ (٧٩٤ - ٧٩٥) . (انظر في تحقيق سنة وفاة معاوية بن صالح : الحميدي : جذوة ص ٣١٨ - ٣٢٠ ، وبجنا عن التيارات الثقافية المشرقية ص ٦٣ ، حاشية رقم ١) ، ونحن نعرف أن محمد بن زياد توفي بعد سنة ٢٤٠ بمدة يسيرة . ولكنا نشك في أنه سمع منه كثيراً - على الأقل مباشرة - فقد توفي معاوية بن صالح قبل وفاة محمد بن زياد بنحو خمس وستين سنة على الأقل ، ولم يعرف عن ابن زياد طول عمر مفرط ، فإذا كان حقاً ما يذكر هنا من أنه سمع على جده معاوية بن صالح فلا بد أنه كان صغيراً جداً حينئذ ، ولعل المقصود هنا هو أنه توفرت له مادة كبيرة من أحاديث معاوية بن صالح وربما يكون قد نقلها عن أبيه زياد شبطون الذي كان صهره على ما رأينا .

(٢٥٦) محمد بن عبد الله بن يحيى بن يحيى الليثي المعروف بابن أبي عيسى ، ينتهي نسبه إلى الفقيه المشهور يحيى ابن يحيى صاحب الإمام مالك بن أنس وأحد من يرد إليهم أكبر الفضل في توطيد المذهب المالكي في الأندلس . ولد في سنة ٢٨٤ (٨٩٧) وسمع من عم أبيه عبيد الله بن يحيى ومن محمد بن عمر بن لبابة ، ثم رحل إلى المشرق سنة ٣١٢ (٩٢٤) فدخل مصر وسمع بمكة من ابن المنذر والعقيلي وابن الأعرابي ، وكان حافظاً جامعاً للسنن متصرفاً في علم الإعراب ومعاني الشعر ، شاعراً مطبوعاً ، بصيراً بالفقه . وشاوره القاضي أحمد بن بقى ، وولاه عبد الرحمن الناصر القضاء في إلبيرة وجيان وبجاجة وطليلة وغيرها . ثم ولي قضاء الجماعة بقرطبة بعد ابن أبي طالب الأصبحي في سنة ٣٢٦ (٩٣٨) ، وجمعت له الصلاة بعد ذلك مع القضاء ، وكان يشاور مع الوزراء دون أن يتلقب بالوزارة ، ويتصرف في السفارات التي كان عبد الرحمن الناصر يوجهها إلى العدو وغيرها من الأقطار ، كما كان كثيراً ما يخرج إلى الثغور ويتصرف في إصلاح ما وهى منها ، وعلى يده بنيت مدينة سالم قاعدة الثغر الأوسط ، تولى ذلك مع غالب الصقلي مولى عبد الرحمن الناصر . وخرج في إحدى هذه المهمات في صدر سنة ٣٣٨ (٩٤٩) فلما جاوز طليطلة اعتل في قرية من أعمالها ، ثم أدركته وفاته في سنة ٣٣٩ (٩٥٠) . انظر ترجمته في الحشني : قضاة ص ٢٠٢ - ٢٠٦ ؛ ابن الفرضي : رقم ١٢٥١ ؛ الفتح بن خاقان ؛ مطمح الأنفس ص ٥٢ - ٥٦ ؛ القاضي عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الثاني ص ٤٠٥ - ٤١٢ (وفي هذين المرجعين الأخيرين أخبار طريفة ونوادير للقاضي ابن أبي عيسى منها حكاية وقعت له مع المعتوه ابن شمس الضحى نأخذ منها أنه كان يلقب بنبز عجمي هو « El Magrilla المغريلة » أي المهزول أو المعروق باللاتينية الدارجة الشائعة في كلام الأندلسيين المسلمين ، وهو ما تعنيه هذه اللفظة في اللغة الإسبانية حتى اليوم ، كذلك نعرف أن أباه وجده كانا يلقبان كذلك بنبزين عجميين آخرين) ؛ النباهي : مرقبة ص ٥٩ - ٦٣ ؛ مفاخر البربر ص ٦٠ ؛ ابن فرحون : ديباج ص ٢٦٥ - ٢٦٦ المقرئ : نفع ٢/٢٢٠ - ٢٢٢ .

(٢٥٧) أبو اسماعيل أو أبو يعقوب إسحاق بن يحيى بن يحيى الليثي القرطبي ، سمع من أبيه يحيى بن يحيى ، وكان أكبر من أخيه عبيد الله وإن كان أدنى منه منزلة ومكانة . وكانت وفاته سنة ٢٦١ (٨٧٥) . انظر ترجمته في ابن الفرضي : رقم ٢٢٢ ؛ الحميدى ، رقم ٣١١ ؛ وانظر كذلك لوبث أورتيث : دخول المذهب المالكي ص ٧٠ - ١٢٧ .

(٢٥٨) عن عبيد الله بن يحيى بن يحيى المتوفى سنة ٢٩٨ (٩١٠ - ٩١١) انظر تعليقنا السابق رقم ١٧٢ .

(٢٥٩) أغلب الظن أن أحمد بن زياد المقصود هنا ليس أحمد بن زياد بن عبد الرحمن اللخمي الذي ولي القضاء للأمير محمد بن عبد الرحمن وتوفى في رحلة له إلى المشرق وهو في مصر سنة ٢٥٠ (٨٦٤) (انظر ترجمته في الخشني : قضاة ص ١١٤ - ١١٧ ؛ ابن الفرضي ، رقم ٥٦ - ويلاحظ أن ابن الفرضي يجعل وفاته خطأ في سنة ٢٠٥ بدلا من ٢٥٠) ، وإنما هو أحمد بن محمد بن زياد الملقب بالحبيب الذي ولي أيضا قضاء الجماعة وتوفى سنة ٣١٢ (٩١٣ - ٩٢٥) (انظر تعليقنا السابق رقم ٢٥٢) ، فأحمد بن زياد من طبقة متقدمة على ابن وضاح ، أما ابن أخيه الحبيب بن زياد فهو الذي كان من طبقة تلاميذ ابن وضاح وأصحابه .

(٢٦٠) الليث بن سعد الإمام المصري المشهور ، ولد في قلقشندة ودرس في مصر على شيوخها ، ثم انفرد بمذهب فقهي خاص به ونو أن أصحابه المصريين لم يقوموا به فاندثر بعد موته بقليل . وتوفى سنة ١٧٥ (٧٩١ - ٧٩٢) . وقد تلمذ عليه كثير من أهل إفريقية والأندلس فضلا عن المصريين . انظر في ترجمته : ابن خلكان وفيات الأعيان ٣/٢٨٠ - ٢٨١ ؛ الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ٣/١٣ - ١٤ ؛ أبو نعيم الإصبهاني : حلية الأولياء ٧/٣١٨ - ٣٢٧ ؛ ابن قسري بردي : النجوم الزاهرة ٢/٨٢ ؛ السيوطي : حسن المحاضرة ١/٣٠١ - ٣٠٢ . وقد كان لمذهب الليث الفقهي - على الرغم من انتشاره في مصر - أثر باق في مالكية الأندلس ؛ إذ اتبعوه في ثلاث من المسائل الأربع الكبرى التي خالفوا فيها مذهب مالك (انظر حول هذه الناحية بحث لوبث أورتيث : دخول المذهب المالكي ص ٢١ - ٢٤ ؛ وقد زدنا دراسة هذا الجانب تفصيلا في بحثنا عن « التيارات الثقافية المشرقية » ص ١٢٤ - ١٣٢) ، كذلك كان لليث بن سعد وتلاميذه نفوذ كبير على أول ما كتبه الأندلسيون في ميدان التاريخ ، وقد استوفينا دراسة هذا الجانب في بحثنا عن « مصر والمصادر الأولى لتاريخ الأندلس » في صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، المجلد الخامس سنة ١٩٥٧ (بالإسبانية) ص ١٥٧ - ٢٤٨ ، أنظر بصفة خاصة ص ١٧٤ - ١٨٨ :

Mahmud A. Makki : Egipto y los orígenes de la historiografía arabigo-española, RIEI, Madrid, 1957, pp. 157 -- 248.

ولمزيد من المراجع حول الليث بن سعد انظر طبقات علماء إفريقية وتونس ، تحقيق الأستاذين على الشاب ونعيم حسن اليافي تونس ١٩٦٨ ، ص ٥٨ - ٧١ وقائمة المراجع المثبتة في حاشية ص ٥٨ ، وكذلك الدكتور محمد كامل حسين : أدب مصر الإسلامية ، عصر الولاة ، الطبعة الأولى ص ٤٥ - ٥٠ .

(٢٦١) ورد هذا النص في كتاب القضاة للحشني (ص ١٠١) ، غير أن ما يذكره ابن وضاح من أن فقيه القيروان وقاضيها سحنون بن سعيد كان يأبى أن يعزى السلطان الرجل في المسجد بالسوط يختلف عما نعرفه من سلوك سحنون وسيرته ، فالذي نص عليه المترجمون لسحنون من المؤرخين الأفارقة - وهم أعلم بأخبار قاضيهم وفقههم الأكبر - هو أنه كان يضرب في الجامع بالدرية أي بالسوط وماخف من التأديب ولعل الذي يقصده ابن وضاح هو أنه كان لا يقيم الحدود في المسجد ، إذ أن الثابت هو أن سحنون كان إذا أقام الحدود أخرجهم من المسجد (انظر المالكي : رياض النفوس ، بتحقيق الدكتور حسين مؤنس ٢٧٧/١ ؛ والقاضي عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الأول ص ٦٠١) .

(٢٦٢) ورد هذا الخبر في كتاب الحشني أيضا (ص ١٠١ - ١٠٢) ، وهو ما تؤكد لنا سيرة سحنون في قضائه . ويبدو أن ما يذكره ابن وضاح من أن سحنون حمل الضرب على الذي لا يريد غرم ما عليه وهو مل بعد أن حبسه - إنما هو إشارة إلى ما فعله قاضي القيروان مع ابن أبي الجواد الذي كان واليا على القضاء قبله ، فالقاضي عياض يقول في ترجمة سحنون : « وخاصم ابن أبي الجواد رجل بين يدي سحنون ، فحكم له على ابن أبي الجواد ، وحبسه وقال له : إن لم تؤد ضربتك بالسوط وقال : ما عندي مال . فيقال إنه أخرجته وضربه في جمعة بالسياط مائة سوط ، وقيل أكثر من ذلك » (ترتيب المدارك ، المجلد الأول ص ٦٠١) . ونجد في كتاب « رياض النفوس » للمالكي إضافة قيمة على ذلك ، إذ ينص على أن سحنون أشار بضرب من يصطنع الإفلاس على القاضي محمد بن زياد : « وقد جاء في كتاب سحنون إلى محمد بن زياد قاضي قرطبة يأمره بالشد والمعاينة لمن تفالس وتكرار الأدب والضرب عليه حتى يؤدي أو يموت . قال له : وبذلك أخذت ابن أبي الجواد : ضربته أربعين ومائة ذرة وأوقفته يوم الجمعة للناس في صحن الجامع ، وسوف أضربه أبداً حتى يؤدي تحت الذرة أو يموت » (رياض النفوس ٢٨١/١) .

(٢٦٣) سترجم ابن حيان ل محمد بن عيسى الأعشى المذكور عند الكلام عن الوفيات على نسق السنين .

(٢٦٤) ورد خبر محمد بن زياد والأعشى مع السكران ثم تعليق الحشني عليه في كتاب القضاة (ص ١٠٢ - ١٠٤) .

(٢٦٥) لا يبدو صحيحاً ما ينقله ابن حيان هنا عن ابن عبد البر من أن محمد بن زياد بقى على القضاء والصلاة في أخريات أيام الأمير عبد الرحمن بن الحكم وأن الأمير محمداً أقره على هاتين الخطين حينما ولي الإمارة بعد موت أبيه . فهذا يخالف ما نعرفه من أن الأمير عبد الرحمن عزله عن القضاء في أعقاب القضية المعروفة التي اتهم فيها ابن أخى عجب محظية الأمير الحكم بن هشام (انظر خبر هذه القضية في الحشني : قضاة ص ١٠٤ - ١٠٥ ، والنباهي : مرقبة ص ٥٥ - ٥٦) . والثابت أن محمد ابن زياد عاد في أيام الأمير محمد إلى تولي خطة الصلاة كما يذكر الحشني (قضاة ص ١٠٦) وكما يؤكد الخبر الطويل الذي سيرويه ابن حيان عن غناية الأمير محمد بتنظيم زيادة أبيه عبد الرحمن بن الحكم في المسجد الجامع بقرطبة ، وفيه سري أن محمد بن زياد كان يلي خطة الصلاة حينئذ . أما القضاء فلم يمد إلى ولايته . وإن كان الأمير محمد قد عرض عليه فأبى (الحشني : قضاة ص ١٠٦) .

(٢٦٦) يسمى الحشني زوج محمد بن زياد هذه « كفات » لا « تكفات » كما هي هنا (قضاة ص ١٠٦) ، ويبدو أنها كانت من أصل بربري ، وأن التاء الأولى هي علامة التأنيث في اللغة البربرية . وليست هذه هي المرة الأولى التي نسمع فيها

بهذا الاسم ، فقد ذكر المقرئ في النسخ (٣١٢/١ - ٣١٣) نقلا عن ابن حيان في الغالب أن عبد الرحمن بن معاوية الداخل في قرارة من العباسيين وجوازه إلى الأندلس مر بإفريقية فنزل بقبيلة مغيلة ولبأ إلى شيخ من رؤساء البربر يدعى أبا قررة وانسوس ، فاستقر عنده زمنا ، ولما فتش رسل عبد الرحمن بن حبيب دار وانسوس بحثا عن عبد الرحمن خبأته امرأته « تكفات » تحت ثيابها . فلما توطد الأمر لعبد الرحمن في الأندلس سار إليه أبو قررة وانسوس وأهله فأكرمهم عبد الرحمن . ويقص المقرئ بعد ذلك نادرة وقعت بين عبد الرحمن الداخل وتكفات البربرية زوج وانسوس . وتؤكد هذه القصة رأينا في أن صواب اسم زوجة محمد بن زياد هو « تكفات » كما ذكر ابن حيان لا « كفات » كما هو عند الخشني ، وأنها كانت امرأة بربرية .

(٢٦٧) هو أبو سليمان فطيس بن سليمان بن عبد الملك بن زيان ، دخل الأندلس في أيام الأمير عبد الرحمن بن معاوية الداخل ، فضمه إلى ابنه هشام وكتب له حتى إذا ولي هشام الإمارة ولاء السوق وكورة قبرة ثم الوزارة ، ولما ولي الحكم ابن هشام أمضاه على ذلك واستكتبه ، وكان له مقام محمود في ثورة الربض ، ونقل ابن الأبار في ترجمته عن أحمد بن محمد الرازي أنه رأى اسم فطيس بن سليمان في ديوان للأمير الحكم أول اسم وأن راتبه كان خمسمائة دينار (انظر ابن الأبار : الحلة السيرة ٣٦٥/٢ ، ابن عذارى : بيان ٦١/٢ ، ٦٨ - حيث ورد الاسم في الأصل « فطيس بن عيسى » والصواب « ابن سليمان » - ابن سعيد : المغرب ٤٤/١ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، نشر الأستاذ محمد عبد الله عنان ص ٤٨٨) . وقد كان فطيس المذكور باني بيت من أكبر بيوتات الأندلس شرفا ونباهة وترددت فيهم الخطط والمناصب حتى نهاية دولة بني أمية . وأما ما يذكره ابن حيان من خلاف الرواة حول تاريخ وفاة فطيس المذكور فإن ابن سعيد وابن الأبار يتفقان على أنه توفي في أواخر أيام الحكم بن هشام ، وقد نص ابن سعيد على وفاته سنة ١٩٨ (٨١٣ - ٨١٤) .

(٢٦٨) لا بد أن المقصود هنا هو الوزير عيسى بن فطيس بن أصبغ بن عيسى بن فطيس بن سليمان ، ففطيس بن سليمان موضوع التعليق السابق إذن هو جد جده . وقد كان هذا البيت مكانة وشهرة واشتغال بخدمة أمراء بني أمية ، ولكننا لا نعرف إلا القليل من أخبارهم ما بين مؤسس الأسرة فطيس بن سليمان المتوفى في أواخر القرن الثاني الهجري أو أوائل الثالث وبين من اشتهروا من البيت المذكور في أيام عبد الرحمن الناصر في أوائل القرن الرابع . فن بين من برزوا منهم مثلا حمدون بن فطيس الذي روى الخشني عنه خبراً مع القاضي محمد بن بشير والفقير يحيى بن يحيى يدل على نباهته ورفعة مكانته ، غير أنه يظهر أن هذا الخبر وقع وأبوه فطيس بن سليمان لا يزال على قيد الحياة (انظر كتاب القضاة ص ٦٤) . ولا نعرف بعد ذلك من رجالات هذه الأسرة إلا فطيس بن أصبغ والد الوزير عيسى المذكور هنا ، وقد أفادنا ابن عذارى عنه بجملة أخبار قيمة منها أنه تولى خطة البيازرة في سنة ٣٠٠ (٩١٢) ، ثم عمل في اشبيلية في السنة التالية ، وفي سنة ٣٠٤ (٩١٦-٩١٧) ولي الخزانة ، وفي ٣١٥ (٩٢٧) ولي الوزارة ، ثم عزل عنها في السنة التالية ، وفي ٣٢٠ (٩٣٢) ولي على المدينة (انظر البيان المغرب تحت السنوات المذكورة) .

أما ابنه عيسى بن فطيس فيذكر ابن عذارى أيضا انه ولي في سنة ٣١٥ (٩٢٧) على الخزانة ، ثم عزل عنها في السنة التالية (البيان المغرب ٢٩٢/٢ ، ٢٩٦ ، ط . بيروت) ، وترجم له ابن الأبار في « إعتاب الكتاب » ، (ص ١٩٠) فأضاف إلى ما عرفه عنه أنه ولي الكتابة العليا في حياة أبيه فطيس في تاريخ لم يحدده ابن الأبار من خلافة عبد الرحمن الناصر ، وإن كان يبدو

أن ذلك كان في سنة ٣١٥ (٩٢٧) حينما كان أبوه فطيس قد رفع إلى الوزارة . ويقول ابن الأبار إن عبد الرحمن الناصر عزل جميع وزرائه لسبب أنكره عليهم في سنة ٣٢٩ (٩٤١) فيما عدا اثنين ، وحينئذ ولي عيسى بن فطيس الوزارة مكان أبيه مضافة إلى الكتابة ، ثم عزله عنهما جميعاً بعد خمسة أيام من جمعهما له ، غير أنه عاد في آخر سنة ٣٣٠ (٩٤٢) فاستدعاه وورده إلى الوزارة وتمادى له ذلك مع زيادة الخطوة إلى آخر خلافة الناصر . كذلك ذكر ابن الأبار في ترجمة أخرى له أنه كانت له رواية في الحديث عن القاضي أحمد بن بقر بن مخلد (التكملة ، نشر ألكون وبالنثيا ، رقم ٢٣٩٠) ، وقد نقل ابن عبد الملك المراكشي هذه الترجمة نفسها دون أن يضيف إليها شيئاً (انظر الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة ، بتحقيق الدكتور إحسان عباس ، ط . بيروت ١٩٦٥ ، السفر الخامس ، رقم ٩٢٨) .

وكان لعيسى المذكور أخ يدعى أحمد ولاء عبد الرحمن الناصر النظر في كتب الثغور والسواحل والأطراف سنة ٣٤٤ (٩٥٥ - ٩٥٦) ، وفي سنة ٣٥٥ (٩٦٦) عهد إليه الحكم المستنصر بإقامة الأسطول بنهر قرطبة واتخاذ المراكب على هيئة مراكب الجوس (النورماندين) توتقيا لما كان منتظراً من هجومهم على سواحل الأندلس (انظر ابن عذاري : البيان المغرب ٣٣٩/٢ ، ٣٥٦ ، ط . بيروت) .

ومن بني فطيس رجل لا نعلم مدى قرابته للوزير عيسى هو أصيبغ بن محمد بن فطيس الذي ولاء الحكم المستنصر في سنة ٣٦٠ (٩٧١) نصف كورة رية (مالقة) وقد نقل ابن حيان بهذه المناسبة نص كتاب الحكم المستنصر إليه بتوليته (انظر المقتبس : نشر الحجى ص ٧٧) .

ومن أبناء عيسى بن فطيس ممن ولوا الخطط أحد الذي كان والياً للشرطة العليا في سنة ٣٦٢ (٩٧٣) في أيام الحكم المستنصر (ابن حيان : المقتبس ، نشر الحجى ص ١١٩) .

وأشهر من عرف بعد ذلك من هذا البيت في أواخر أيام الدولة الأموية قاضي الجماعة عبد الرحمن بن محمد بن عيسى بن فطيس ، حفيد الوزير عيسى ، ولد في سنة ٣٤٨ (٩٦٠) وولى قضاء الجماعة بين سنتي ٣٩٤ و ٣٩٥ (١٠٠٤ - ١٠٠٥) في عهد الحاجب عبد الملك المظفر بن المنصور بن أبي عامر ، وكانت وفاته في أول الفتنة البربرية سنة ٤٠٢ (١٠١٢) . (انظر ترجمته في ابن بشكوال : الصلة ، رقم ٦٨٢ ؛ القاضي عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الثاني ص ٦٧١ - ٦٧٢ ؛ ابن فرحون ؛ الديباج ص ١٥٠ ؛ النباهي : مرقبة ص ٨٧ ؛ ابن سعيد : المغرب ٢١٦/١ - وانظر الحاشية حيث أورد الدكتور شوقي ضيف مزيداً من المراجع) .

وعن أسرة بني فطيس أنظر كذلك ليني بروفنسال : الأندلس في القرن العاشر ص ١٠٣ - ١٠٤ .

(٢٦٩) أبو عبد الله غريب بن عبد الله الثقفى الطليطل ، أصله من قرطبة وسكن طليطلة ، وكان شاعراً زاهداً ، ويقال إن خروجه من قرطبة كان بسبب وقوعه في أمرائها وإعلانه بجورهم ، وقد تزعم في طليطلة من كان بها من الثائرين المتمردين على بني أمية . وكان من أهل الحكمة والدهاء ، فكان الثائرون الطليطليون يستندون إلى رأيه على نحو لم يجعل للحكم

ابن هشام مطعما فيهم طيلة حياته . وقد اختلف ابن القوطية وابن حيان في سنة وفاته ، فبينما يذكر الأول أنه توفي في أيام الحكم قبل وقعة الحفرة التي ذهب ضحيتها ألوف من ثوار طليطلة في سنة ١٨١ (٧٩٧) أو في سنة ١٩١ (٨٠٧) - إذا بابن حيان يذكر كما نرى هنا أنه توفي سنة ٢٠٧ (٨٢٢ - ٨٢٣) في أول أيام عبد الرحمن بن الحكم . وقد نقل ابن الأبار القولين دون أن يرجح واحداً منهما . (انظر في ترجمته وأخباره وبعض شعره : ابن القوطية : تاريخ ص ٤٦ ؛ الحميدى ، رقم ٧٥٥ ؛ الضبي : بغية ، رقم ١٢٨١ ؛ ابن الأبار : تكلية ، نشر الأراكون وبالنشيا ، رقم ٢٤٨٩ ؛ ابن سعيد : المغرب ٢/٢٣ - ٢٤ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكلمة ، السفر الخامس ، رقم ٩٩٥ ؛ ابن الكتاني : التشبيهات من أشعار أهل الأندلس ص ٢٨٣ ؛ المقرئ : نفع ٦/٧٤ - ٦٥ ؛ وكذلك ليني بروفنسال : تاريخ ١/١٥٧) .

(٢٧٠) عبد الله المعروف بالبلنسي بن عبد الرحمن بن معاوية الداخل ، كان أبوه عبد الرحمن قد عهد إليه بتسليم الأمر لواحد من أخويه سليمان أو هشام بعد موته ، وكان سليمان عاملاً على طليطلة وهشام على ماردة ، على أن يكون الأمر لمن يسبق أخاه في الوصول إلى قرطبة ، فلما قدم هشام سلم عبد الله إليه القصر وبايعه ، ثم استوحش من هشام فخرج إلى سليمان بطليطلة زمناً ، ثم ورد إلى قرطبة بلا عهد ولا أمان ، فقبله هشام ، وطلب عبد الله بعد ذلك الخروج إلى المدونة ، فأذن له هشام ، وخرج سليمان كذلك ، فلما توفي هشام سنة ١٨٠ (٧٩٦) وولى الإمارة ابنه الحكم عاد عبد الله إلى الأندلس وولاه الحكم على شرق الأندلس كله فكان في عمله بلنسية وتدمير (مرسية) وطرطوشة وبرشلونة ووشقة . واستقر في بلنسية حتى نسب إليها . وقدم بعده أخوه سليمان ، ثم نازعا الحكم وحاربا ، فهزم سليمان وقتل في إلبيرة سنة ١٨٤ (٨٠٠) . أما عبد الله فأدى الطاعة على ألا يطاء للحكم بساطاً ، وظل كذلك حتى توفي الحكم وولى ابنه عبد الرحمن سنة ٢٠٦ (٨٢٢) ، فأخبر عنه بيعته والتوى بالطاعة ، ثم كشف وجهه بالمعصية وجمع جيشاً كبيراً من أهل بلنسية وتدمير عازماً على السير إلى قرطبة ، ولكنه أصيب بغالغ أقمده ، ولم يلبث أن توفي سنة ٢٠٨ (٨٢٣) بعد أن كتب إلى عبد الرحمن نادماً على ما فعل وموصياً إياه بأهله وبيته . انظر في ترجمته وأخباره : ابن حزم : جمهرة ص ٩٤ - ٩٥ ؛ ابن الأبار : الحلة ٢/٣٦٣ - ٣٦٤ ؛ ابن سعيد : المغرب ١/٣٩ - ٤٠ ، ٤٧ - ٤٨ ، ٤٤٦/٢ ؛ ابن عذارى : البيان ٢/٦١ - ٦٣ ، ٦٩ - ٧١ - ٧٤ ؛ وانظر كذلك ليني بروفنسال : تاريخ ١/١٤٠ - ١٤١ ، ١٥٢ - ١٥٣ ، ١٩٧ - ١٩٨ .

هذا وقد كان لعبد الله المذكور ابن يدعى عبيد الله كان من المستمسكين بالطاعة ، وكان من كبار رجالات الأمويين وأعظم قوادهم ، وهو المدعو بصاحب الصوائف لتكرره بالغزوات على الممالك المسيحية في الشمال .

(٢٧١) ذكرنا في حاشية هذا الموضوع الخلاف الكبير بين ما يثبت ابن حيان في ترتيب الوفيات على السنين من موت الفقيه حسين بن عاصم في سنة ٢٠٨ (٨٢٣) وبين ما يذكره ابن الفرضي في الترجمة التي نقلها عنه ابن حيان نفسه من وفاته في سنة ٢٦٣ (٨٧٦ - ٨٧٧) . والحقيقة أن هذه مشكلة لم تلفت نظر أحد من أصحاب كتب التراجم من قبل ، باستثناء القاضي عياض الذي عرض في ترجمته لحسين بن عاصم تلك الآراء المتضاربة وأخضعها لميزان نقدي جدير بالإعجاب والثناء ، وسوف نعيد فيما يلي بحث هذه المسألة تحقيقاً لتراجم أفراد هذا البيت من بيوت الشرف بقرطبة :

أما حسين بن عاصم - ونضرب صفحاً عن الخلاف حول ما يلي ذلك من نسبه بين المؤرخين فهو خلاف على غير طائل - فإلى جانب ترجمة ابن الفرضي (رقم ٣٤٩) المنقولة في نص ابن حيان والمتسببة في كل هذا الاضطراب نجد أن الحميدى

قد أورد له ترجمة قصيرة (جلوة ، رقم ٣٧٤) لا تكاد تفيدنا بشئ* ، فهي تقتصر على القول بأنه فقيه مات بالأندلس (!) وبأن الذي قال ذلك هو محمد بن حارث الخشني . ويزيد المسألة اضطرابا والباحث حيرة أن أصحاب كتب الرجال يترجمون أيضا لمن يدعونه ابرهيم بن حسين بن عاصم الثقفي - وهو يبدو لأول وهلة ابنا لهذا المذكور - فيقول عنه ابن الفرغى إنه سمع من أبيه ومن غيره وإن له رحلة سمع فيها وتصرف في أحكام الشرطة والسوق أيام الأمير محمد وتوفى سنة ٢٥٦ (٨٧٠) (انظر ابن الفرغى ، رقم ٣ ، وكذلك ابن فرحون : تبصرة الحكام ١١٤/٢) ، ويضطرب الحميدى في اسمه فيدهوه مرة ابرهيم بن حسين بن عاصم ومرة أخرى ابرهيم بن عيسى بن عاصم ، ولكنه يتفق بعد ذلك مع ابن الفرغى في أنه توفى سنة ٢٥٦ (جلوة ، رقم ٢٧١) .

وبذلك تمثل أمامنا المشكلة : إذا صح ما يقوله ابن الفرغى من أن حسين بن عاصم كانت له رحلة سمع فيها من ابن القاسم وابن وهب وأشهب ومطرف وابن نافع فإنه لا يحتمل أن تكون الحياة قد طالبت به حتى يتوفى في سنة ٢٦٣ ، فابن القاسم مثلا توفى سنة ١٩١ (٨٠٧) ، وعبد الله بن نافع توفى سنة ١٨٦ (٨٠٢) ، أى قبل وفاة ابن عاصم بأكثر من خمس وسبعين سنة ، فإذا قدرنا السن التي رحل فيها ابن عاصم لكى يتم له سماع من ذلك الفقيه المدنى يعتبر به في حدود أشياخه بثلاثين سنة كان معنى ذلك أنه قد توفى عن أكثر من مائة سنة ، ولو صح هذا لكان جديراً بأن يسجله من ترجموا له ، إذ هو مما يجاوز المسألوف .

ولعل القاضى عياضاً هو المؤرخ الوحيد الذى تنبه بملكته النقدية إلى ما في هذا الرأى من إبعاد ، فقد آثر القول بأن وفاة حسين بن عاصم كانت في سنة ٢٠٨ « فيما ذكر أصحاب التاريخ » (والإشارة هنا إلى ابن حبان بغير شك . واحتج عياض لذلك بأن حسين بن عاصم كان في سن عيسى بن دينار ، ومن المعروف أن عيسى توفى سنة ٢١٢ (٨٢٧) ، وبأن كلا من عبد الملك بن حبيب (ت ٢٣٨ = ٨٥٢) والعتبي (ت ٢٥٥ = ٨٦٩) أدخلوا سماعه في كتابيهما ، فقد كان ابن عاصم إذن في هداد شيوخهما . ويذكر عياض بعد ذلك عنه خبراً طريفاً وقع له أثناء مقامه بمصر ، هو أنه لما توفى شيخه ابن القاسم (في سنة ١٩١ - ٨٠٧) كان قد بقيت عليه مقابلة كتبه بأصول ابن القاسم بعد أن أتم سماعه منه ، وكانت هذه الأصول لدى الفقيه المصرى أصبغ بن الفرغ ، فتوجه إلى أصبغ وقال له : أنت خلف أبى عبد الله (أى ابن القاسم) ، فلو خلّيت نفسك قرأت عليك ما بقى على . فقال له أصبغ : وأشهب وابن وهب شيخان حيان ؟ فقال له : أنت عندي أجل . فأسمعه ، فلما تم له مراده قال له : إنما ذهبت إلى المقابلة لصحة كتبك ، وأما السماع فلا نحب ذلك ، فإن أقدم منك سماعاً وعناية . (يريد أنه أراد مقابلة سماعه من ابن القاسم على أصبغ بن الفرغ لتصحيح صوله فحسب ، ولكنه كان يرى نفسه أرفع من أن يأخذ عن أصبغ ، إذ كان يعد نفسه أعلى طبقة منه في صحبة ابن القاسم وأقدم منه في الأخذ عنه) . (انظر ترتيب المدارك المجلد الثانى ص ٢٨ - ٣٠) . فإذا كنا نعرف أن أصبغ بن الفرغ ولد بعد سنة ١٥٠ وتوفى سنة ٢٢٥ (٨٤٠) وأن حسين بن عاصم كان يعد نفسه أقدم طبقة منه فإننا نستنتج أن من العسير على التصديق أن تكون وفاته في سنة ٢٦٣ ، وإلا فإن سنة تكون قد تجاوزت المسائة بنحو عشرين سنة على الأقل .

ومن هنا ننهى إلى أن التاريخ الصحيح لوفاة حسين بن عاصم هو سنة ٢٠٨ ، وأن ابن الفرغى لابد أن يكون قد خلط بينه وبين ابنه ابرهيم الذى لم تسلم ترجمته بدورها من التخليط والاضطراب ، فقد سبق أن أوردنا ما قاله عنه ابن الفرغى

(رقم ٣ ؛ والحميدى : جذوة ، رقم ٢٧١ ؛ والقاضى عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الثانى ص ١٤٦ - ١٤٧) من أنه ولى الشرطة والسوق في أيام الأمير محمد وأنه اشتهر بالقسوة المفرطة حتى أسقط العلماء الأخذ عنه بسببها . وكل هؤلاء المؤرخين يتفقون على موته سنة ٢٥٦ . ولكن لنا اعتراض على هذا التاريخ ، وهو أن الخشنى قص عنه خبراً استشهد به على قسوته الشديدة ، وذكر الخشنى في أول هذا الخبر « أن الأمير محمداً حدثت في أيامه مجاعة شديدة ، فكثرت فيها التطاول من الفسدة لفضل ما كانوا فيه من ضر السنة ، وكثرت الشكوى بذلك إلى الأمير رحمه الله وكثر عليه من الحكام استطلاع رأيه في الصلب والقطع وما أشبهه ، فولى السوق حينئذ إبراهيم بن حسين بن عاصم ، وأمره بالاجتهاد وعهد إليه بالتحفظ ، وأذن بالتنفيذ في القطع والصلب بلا مؤامرة منه ولا استئذان » (انظر بقية الخبر في الخشنى ؛ قضاة ص ١٧٨ - ١٧٩) . ونحن نعرف أن المجاعة المذكورة كانت سنة ٢٦٠ (٨٧٤) ، فلا بد أن وفاة إبراهيم بن حسين بن عاصم تلت هذا التاريخ ، ويغلب على ظننا أنها كانت في سنة ٢٦٣ التي ذكرها ابن الغرضى سنة وفاة لأبيه حسين بن عاصم ، وأن ترجمتى الأب والابن قد إختلطا عنده ، فلفق منهما ترجمة واحدة .

هذا وقد كان بيت بنى عاصم من السيوت التي ترددت فيها الخلعط والمناصب الكبرى طوال أيام بنى أمية . وقد عرضنا في السطور السابقة لحسين بن عاصم وابنه إبراهيم ، ونضيف إلى هذين سعيد بن عاصم أخا الفقيه حسين الذى ذكر ابن الأبار ناقلاً خبره عن الرازى وابن حيان أنه ولى قضاء الجماعة للأمير الحكيم بن هشام (التكملة ، ط . الأراكون وبالنثيا ، رقم ٢١٢ وابن عبد الملك المراكشى : الذيل والتكملة ، بقية السفر الرابع ، رقم ٨٣ ، ولو أن الخشنى والنباهى لا يشيران إليه في كتابهما عن القضاة) .

ومنهم عبد الله بن حسين بن عاصم أخو إبراهيم ، وقد ولى الشرطة مثل أخيه في عهد الأمير محمد ، وكان شاعراً رقيقاً . وسيورد ابن حيان بعض أخباره وقطعا من شعره في هذا الجزء من المقتبس . (وانظر ترجمته كذلك في ابن سعيد : المغرب ١٠١/١ - ١٠٢ ؛ الحميدى : جذوة ، رقم ٥٦٠ ؛ الفسى : بنية ، رقم ٩٣٨ ؛ ابن الكتاني : كتاب التشبيهات ص ٨٩ المقرئ : نفع ٢٣١/٤ .

ومنهم سعيد بن عبد الملك بن سعيد بن عاصم الذى سيذكر ابن حيان في هذه القطعة من « المقتبس » أن الأمير محمداً ولاء الطراز ثم نكبه ، وابنه عبد الواحد الذى ترجم له ابن الأبار فقال إنه نظر في الفقه وأراد أحد أمراء الأندلس (دون أن يعين من هو) أراده للخدمة ، فلم يجدوا مطية تحمله لضخامة جسمه « إذ كان فائت الغلظ خارجاً عن ترتيب الآدميين » (التكملة ، ط . الأراكون وبالنثيا ، رقم ٢١٦٦ ؛ وكذلك الذيل والتكملة ، السفر الخامس ، رقم ١٤١) .

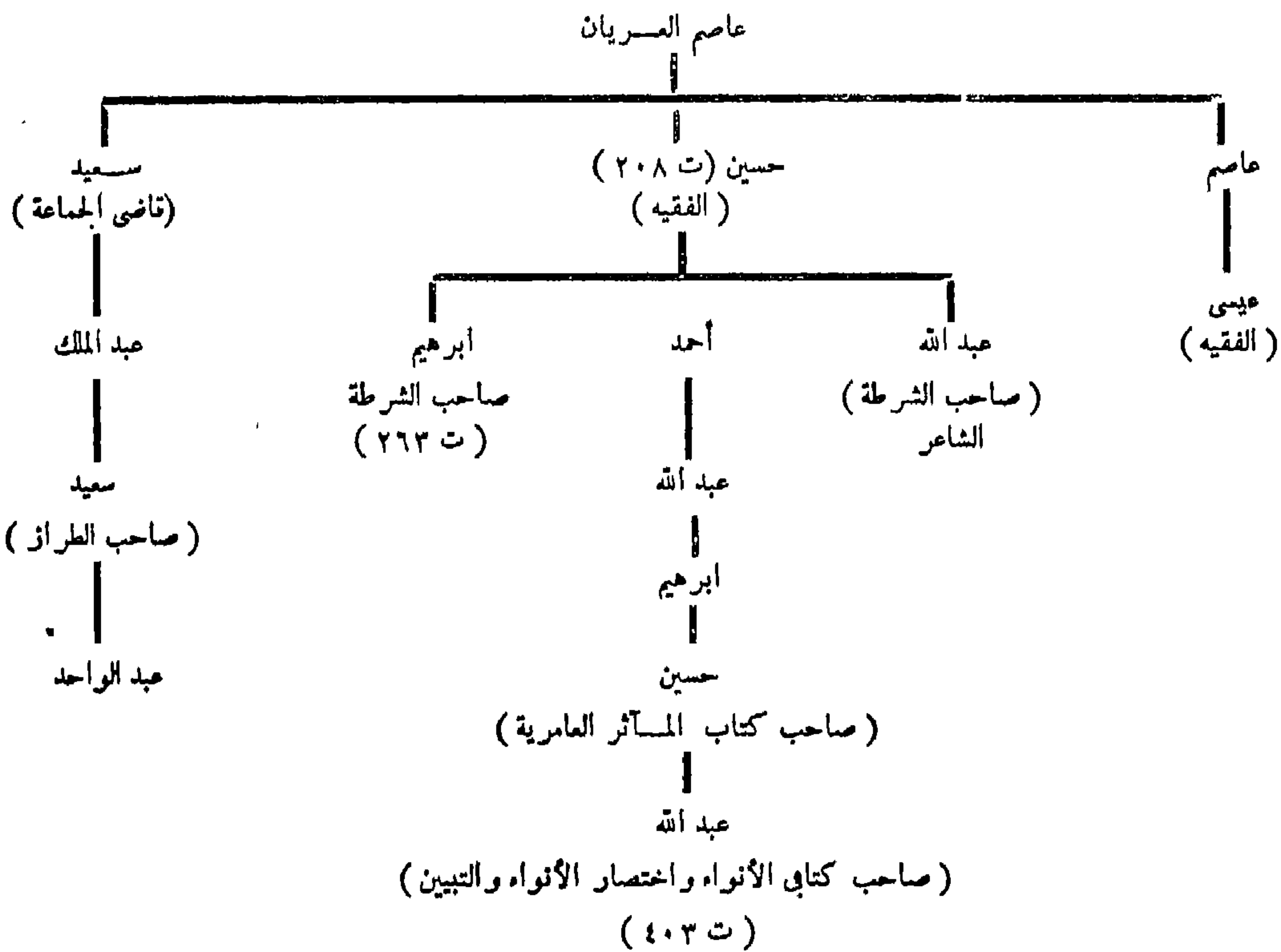
ونعرف بعد ذلك من هؤلاء حسين بن محمد بن عاصم - وهو نسب مختصر لا بد أن تكون قد سقطت فيه أسماء بين محمد وعاصم - ، وقد نص ابن عذارى على أن الخليفة عبد الرحمن الناصر ولاء خزانة السلاح في سنة ٣١٤ (٩٢٦) . (البيان المغرب ٢٨٩/٢ - ط . بيروت) .

ومنهم حسين بن إبراهيم بن عبد الله بن أحمد بن حسين بن عاصم الذى ألف كتاباً عن دولة المنصور بن أبي عامر وبنيه بعنوان « المآثر العامرية » ، ولا نعرف سنة وفاته على وجه التحديد . (ابن الأبار : تكملة ، رقم ٧٣ ؛ ابن بشكوال :

صلة رقم ٣٢٤ ؛ الحميدى : جذوة ، رقم ٣٧٥ الضبي : بنية ، رقم ٦٥٨ ؛ ابن حزم : « رسالة في فضل الأندلس »
 في المقرئ : نفع ١٦٧/٤ ؛ وانظر بونس بويجس : المؤرخون والجغرافيون الأندلسيون ، ص ١٢٢ ، وهذا البحث يجعل
 وفاته في سنة ٤٥٠ دون أن يذكر مصدراً لهذا التاريخ ولا دليلاً على ترجيحه له .

ويظهر أنه كان لهذا الأخير ابن يدعى عبد الله بن حسين كان من أصحاب أبي علي القالي وولى كذلك الشرطة مثل كثير
 من أهل بيته ، وله تأليف في الأنواء وآخر في اختصار « البيان والتبيين » للجاحظ . وقتل في الفتنة البربرية سنة ٤٠٣
 (١٠١٢ - ١٠١٣) . (انظر ابن الأبار : تكللة ١٢٧٧ ؛ ابن عبد الملك : الذيل والتكلة ، رقم ٣٧٠) .

وفيما يلي جدول تقريبي بأسماء من عثرنا عليهم من أفراد هذه الأسرة وأنسبهم :



هذا وقد كان عاصم الملقب بالمرينان من كبار موالى بنى أمية ، قدم على عبد الرحمن بن معاوية الداخل عند حلول هذا
 بالأندلس مع من وفد عليه من الأموية ، وقد كان عبد الرحمن حفيواً به إذ كان من القيسية القليلين الذين ظاهروا على يوسف
 ابن عبد الرحمن الفهري ووفدوا عليه ، وكان من بينهم كذلك أخوه عمران . أما تسميته بالمرينان فهي تعود إما لتجرده في
 سراويله لقتال يوسف الفهري كما يقول صاحب « أخبار مجموعة » أو لما يذكره معظم المؤرخين من تقحمه في نهر قرطبة
 هارياً وتقحم الناس وراءه . وقد عهد إليه عبد الرحمن في موقعة المصارة (سنة ١٣٨ = ٧٥٦) بقيادة رجاله بنى أمية ومن
 التحق بهم من البربر . وولاه عبد الرحمن بعد ذلك على طليطلة زمناً ما « انظر في أخباره ابن القوطية : تاريخ ص ٢٨ :
 أخبار مجموعة ص ٧٦ ، ٨٢ ، ٨٧ ، ١٠٤ ؛ ابن سعيد : مغرب ١٠١/١ ؛ المقرئ : نفع ٤٥/٤ .

(٢٧٢) أبو محمد عبد الله بن وهب بن مسلم القرشي بالولاء ، فقيه مصر ومحدثها المشهور ، أخذ عن الليث بن سعد ومالك بن أنس وسفيان الثوري وسفيان بن عيينة ، وبلغ عدد شيوخه نحو أربعائة ، وصحب مالكا ثلاثين سنة ، وكان هو وابن انقاسم وأشهب بن عبد العزيز أشهر من وطدوا مذهب مالك في مصر وأفريقية والأندلس ، وله كتابا الجامع والموطأ وتفسير موطأ مالك وغيرها من الكتب ، وكانت وفاته سنة ١٩٧ (٨١٢ - ٨١٣) . (انظر في ترجمته القاضي عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الأول (ص ٤٢١ - ٤٣٣) ؛ ابن فرحون : ديباج ص ١٣٢ - ١٣٣ ؛ وانظر مزيداً من مراجع ترجمته في : طبقات علماء افريقية وتونس ، ص ٤٤ ، الحاشية رقم ١) .

(٢٧٣) أبو مصعب مطرف بن عبد الله الهلالي ابن أخت الامام مالك بن أنس وأحد كبار أصحابه المدنيين ، صحب مالكا سبع عشرة سنة ، ومات سنة ٢٢٢ (٨٣٧) . انظر ترتيب المدارك ، المجلد الأول ص ٣٥٨ - ٣٦٠ ؛ وابن فرحون : ديباج ص ٣٤٥ - ٣٤٦ .

(٢٧٤) هناك اثنان من أصحاب مالك يدعيان بابن نافع : أولهما أبو محمد عبد الله بن نافع المعروف بالخزومي مولى بني مخزوم واشتهر بلقب « الصائغ » ، والثاني هو عبد الله بن نافع الزبيرى القرشي المتوفى سنة ٢١٦ (٨٣١) والأول هو المقصود هنا بغير شك ، وقد لازم عبد الله بن نافع « الصائغ » هذا مالكا أربعين سنة ، وكانت له منزلة عظيمة لدى الأندلسيين ، فقد أدخل العتبي سماعه في « المستخرجة » وأثنى عليه محمد بن وضاح وقال إنه أفضل أصحاب مالك ، وكذلك محمد بن عمر بن لبابة ، وله تفسير على الموطأ رواه عنه يحيى بن يحيى ، وروى عنه عبد الملك بن حبيب وكانت وفاته بالمدينة سنة ١٨٦ (٨٠٢) . انظر في ترجمته القاضي عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الأول ص ٣٥٦ - ٣٥٨ ؛ ابن فرحون : ديباج ص ١٣١ .

(٢٧٥) قول ابن الفرضي عن وفاة المترجم له سنة ٢٦٣ إنها كانت في « صدر » أيام الأمير محمد يبدو غريبا لمن يتأمل ، فقد ولى الأمير محمد سنة ٢٣٨ ، وبقى أميراً للأندلس خمساً وعشرين سنة حتى ٢٧٣ ، فإذا هو المترجم له قد توفى بعد مرور خمس عشرة سنة من ولاية الأمير فإن هذا التاريخ لا يجوز أن يعتبر « في صدر أيامه » ، بل هو أقرب إلى آخرها منه إلى أولها .

(٢٧٦) أوضحنا من قبل ما في هذه الترجمة من التناقض . وأغلب الظن أن السطور الأخيرة منها ابتداء من « وولى السوق للأمير محمد . . » حتى النهاية إنما هي من ترجمة ابراهيم بن حسين بن عاصم لا من ترجمة أبيه حسين . انظر تعليقاتنا السابق رقم ٢٧٠ .

(٢٧٧) كذا ورد الاسم في الأصل ، ونظن أن « عبد الله » ليس إلا تحريفا لاسم « عبد الواحد » ، إذ جاء في طبقات النحويين واللغويين « لأبي بكر الزبيدي ذكر لمن يدعوه « أبا الغمر عبد الواحد بن سلام المعروف بالأحدب » ، وقال فيه إنه كان من أهل العلم بالنحو والتأديب ، وكانت وفاته سنة ٢٠٩ (٨٢٤ - ٨٢٥) (انظر ص ٢٧٩) ، فلا بد أن يكون هذا هو المعنى هنا . وقد نقل ابن الفرضي في تاريخه كلام الزبيدي ، وأضاف أنه كان من أهل قرطبة وأنه كان مؤدبا بالنحو وله فيه كتاب مؤلف بأيدي الناس . ونقل هذه الترجمة السيوطي في بغية الوعاة (ص ٣١٦) . وترجم ابن

الأبار لمن سماه « عبد الواحد المعلم » وإن كان لا يدري ما إذا كان هو عبد الواحد بن سلام النحوي الذي ذكره ابن الفرضي أم غيره (التكملة ، ط . الأركون وبالثنيا ، رقم ٢١٦٥ ، واختصر ابن عبد الملك لطراكشي هذه الترجمة ذاتها في كتاب الذيل والتكملة ، السفر الخامس ، رقم ١٥١ .

(٢٧٨) لم نر في المراجع الأخرى أى إشارة إلى مالك بن القتيل هذا ، على أننا وجدنا في المغرب لابن سعيد (٤٢/١) ذكراً لمن يسميه المؤلف « مهاجر بن القتيل » يقول عنه ابن سعيد إن الخارجين من قرطبة بعد أن فشلت ثورة الربض في سنة ٢٠٢ (٨١٧) قد كاتبوه بعد أن لحق جمهورهم بطليطلة ، وكان قد لحق بدار الحرب (أى ببلاد النصارى) وولوه عليهم فصار معه منهم خمسة عشر ألفاً ، ومضوا في البحر إلى الاسكندرية فاحتلوها ومازالوا بها حتى أخرجهم منها عبد الله ابن طاهر عامل الخليفة المسامون العباسي على مصر إلى جزيرة إقريطش . فلعل مالك بن القتيل هذا أخ لذلك الزعيم الثائر على الحكم بن هشام ، ولعله أودع السجن من أجل ذلك حتى توفي في سنة ٢١٠ (٨٢٥ - ٨٢٦) المذكورة .

(٢٧٩) كان في قرطبة حيسان كبيران ، واحد على مقربة من المسجد الجامع ، بشهادة الجغرافي الرحالة ابن حوقل الذي زار الأندلس في أيام عبد الرحمن الناصر خلال القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) (انظر ابن حوقل : صورة الأرض ، طبعة كرامرز ، ١١٣/١) ، والثاني هو المطبق المذكور هنا ، وكان في نفس مبنى قصر الخلافة ، إلا أنه كان في جوف الأرض ، وكان يحين المطبق هو المعد للسجناء مدى الحياة ، ويبدو أنه هو نفسه الذي كان يطلق عليه أيضاً اسم « الدويرة » (تصغير الدار) . انظر ليني بروقنسال : تاريخ ١٥٩/٣ - ١٦٠ .

(٢٨٠) فتح بن الفرغ الرشاش هو واحد من إخوة ثلاثة عرف كلهم باسم « الرشاش » وكانوا من موالى بني أمية : الأول هو أبو عثمان سعيد بن الفرغ ، نقل ابن سعيد عن ابن حيان في ترجمته قوله إنه كان من آدب الناس في زمانه وأحفظهم للغة والشعر ، وكان شديد التقدير في كلامه ، وضرب به المثل في الفصاحة ، ويقال إنه كان يحفظ أربعة آلاف أرجوزة . وكان قد رحل إلى المشرق وحج ودخل بغداد وروى عن كبار علمائها ، ثم سكن مصر مدة ، وكذلك القيروان ، حتى بلغه أن عبد الرحمن الحكم ولي إمارة الأندلس وكانت بينهما وصلة قديمة ، فوفد عليه ، فاختنق به الأمير وقربه وأكثر الرشاش من مدحه ، وذكر ابن حيان أنه لحقته سعاية عند نصر الخصى أثير عبد الرحمن بن الحكم فأمر بضربه ، وذكره معاوية بن هشام الشيبيني وعبادة الشاعر والحجاري ، ووصفه هذا بالتقدير . وأورد ابن سعيد شعراً له في مدح الأمير عبد الرحمن وفي هجاء ابن الشعر الشاعر . وأكثر ما وصلنا من شعره في باب الهجاء . انظر ترجمته وبعض أخباره وشعره في ابن سعيد : مغرب ١١٤/١ - ١١٥ ؛ ابن الفرضي : رقم ٤٨٦ (ويذكر في هذه الترجمة أنه كان مشاوراً في أيام الأمير محمد) ؛ الزبيدي : طبقات ص ٢٨٥ ؛ السيوطي : بغية ص ٢٥٦ ؛ ابن السكاني : التشبيهات ص ٢٥٣ ، ٢٥٩ ، ٢٦٣ ؛ ومن الأبحاث الحديثة كتابنا عن التيارات الثقافية الشرقية ص ٢٦٣ .

والثاني هو محمد بن الفرغ المعروف بالذراع ، ويقصد بذلك ابتكاره لوحدة قياسية هو الذراع الذي أصبح ينسب إليه فيقال « الذراع الرشاشي » ، روى بقرطبة عن يحيى بن يحيى الليثي الفقيه ، ولكنه وجه جل اهتمامه إلى الرياضيات ، فنجح فيها ، وقد خلد اسمه بهذا الذراع الذي اخترعه واصطلح أهل الأندلس على القياس به ، ويبلغ طول الذراع الرشاشي ضعف الذراع

الذي جرى به العمل في المشرق والذي كان يدعى « المأمونى » نسبة إلى الخليفة المأمون ، ويبلغ طوله ٧١,١ سم . ، وينقسم إلى ثلاثة أشبار ، أى أن طول الشبر ٢٣,٧ سم ، والشبر ينقسم بدوره إلى ثلاث قبضات ، طول القبضة ٧٩ مليمتر . وهذا الذراع « الرشاشى » قاس الإدريسي والبكرى مثلاً أطوال المعالم الأثرية التي تحدثنا عنها في كتابيهما. مثل المسجد الجامع بقرطبة ومنارة الإسكندرية وغير ذلك . وفي ترجمة محمد بن الفرغ الذارع انظر ابن الفرضى : رقم ١١٣١ ، أما عن الذراع الرشاشى فانظر ليني بروفنسال : تاريخ ٢٧٣/١ ؛ ٢٤٨/٣ - ٢٤٩ ؛ وقد أعاد المستشرق الإسباني فيلكس إيرنانديث خيمينث بحث هذه المسألة بحثاً مستفيضاً مستنداً إلى نصوص جديدة ومصححاً بعض الأخطاء الشائعة حول التقدير المضبوط للذراع الرشاشى ووحداته ، وذلك في كتابه الصغير الذى يحمل عنوان « الذراع فى الكتابات التاريخية العربية حول المسجد الجامع بقرطبة :

Felix Hernandez Gimenez : El codo en la historiografía arabe de la Mezquita Mayor de Cordoba. contribucion al estudio del monumento Madrid, 1961.

انظر بصفة خاصة ص ٩ - ١٠

والأخ الثالث من هؤلاء الرشاشين هو الفتح بن الفرغ المذكور هنا فى نص ابن حيان والمتوفى بالمشرق سنة ٢١٠ (٨٢٥ - ٨٢٦) ، ولم يفدنا عنه ابن حيان بأى شئ يلقى ضوءاً على حياته وسيرته فيما عدا ما يفهم من أنه كان شخصية بارزة معروفة ، إذ استحق تاريخ وفاته أن يسجل فى وفيات « أولى النباهة » كما عنون ابن حيان لهذا الفصل . ولم نجد فى المراجع الأندلسية عن فتح بن الفرغ هذا شيئاً إلا سطوراً أوردها ابن الأبار فى التكملة (ط . الأركون وبالنشيا رقم ٢٤٩٧) وابن عبد الملك المراكشى فى الذيل والتكملة (السفر الخامس ، رقم ١٠١٧) وكلاهما ينقل عن ابن حيان دون أن يضيفا عليه شيئاً .

(٢٨١) لسنا نعرف عن حجاج المغيل هذا « كاتب الترسيل » فى غير كتاب ابن حيان إلا إشارات مقتضبة وردت ، فى بعض ما كتب حول إمارة الحكم بن هشام الربضى ، فقد ذكره ابن عذارى من بين كتاب الحكم الثلاثة (بيان ٦٨/٢) ونوه به ابن سعيد فى المغرب (٤٤/١) فقال إنه كان شاعراً ، على أن سنة وفاته عند ابن سعيد تخالف ما ذكر هنا ، فهى ١٩٨ (٨١٣ - ٨١٤) . أما مغيرة التى ينتسب إليها هذا الكاتب فهى قبيلة بربرية ، وجدهم مغيل بن فاتن بن جانا (زناة) ومواضعهم فى العدة المغربية بمجبل وانشرىش من عمل تاهرت (المغرب الأوسط أو الجزائر الحالية) ، وبالمغرب الأقصى ما يلى تامسنا (انظر مفاخر البربر ص ٤٩) ، وذكر ابن حزم من بيوت مغيرة فى الأندلس بنى إلياس رهط الوزير أحمد ابن إلياس ، وبنى زروال الأمراء بالمتنانية (جهرة ص ٤٩٩) .

(٢٨٢) أبو خالد يزيد بن طلحة العيسى الإشبيلى ، تلمذ على الفقيهين محمد بن أحمد العبى ويحيى بن ابراهيم بن مزين ، وحلى الراوية المحدث محمد بن عبد السلام الخشنى ومحمد بن عبد الله بن الغازى ، وكان من أجلة فقهاء إشبيلية بصيراً باللغة والنحو والشعر ، موصوفاً بالبلاغة والخطابة ، وكان يعرف من أجل ذلك بيزيد الفصيح ، وقد نقل الزبيدى بعض أخباره (طبقات ص ٢٩٤ - ٢٩٦ ، ٣١٣) ، ونص ابن الفرضى على أنه لم يقف على عام وفاته ولا وجد ذلك مقيداً عند أحد من أهل موضعه (انظر تاريخ ، رقم ١٦٠٦ ، وكذلك ابن حيان : مقتبس ، نشر أنطونيا ص ١٤ ، والسيوطى : بنية ص ٤١٧) .

وأورد ابن حيان في الموضوع المشار إليه خبراً طريفاً في جدل وقع في مجلس إبراهيم بن حجاج أمير أشبيلية بينه وبين أبي محمد العذري الأعرابي حول لفظ « سود » وهل هو بالواو أو الياء ، ووصفه ابن حيان في هذا الخبر بأنه كان « من أشهر من بغرب الأندلس من العلماء بالعربية » . هذا ويبدو من الغريب أن يكون حجاج المغيرة المتوفى سنة ٢١٠ (٨٢٥ - ٨٢٦) كما يقول ابن حيان أو في سنة ١٩٨ (٧١٣ - ٨١٤) كما يقول ابن سعيد من موالى يزيد بن طلحة الذي يبدو أن وفاته تأخرت عن وفاة حجاج بنحو نصف قرن . ولهذا فإن من الأرجح أن ما يعنيه ابن حيان هو أن المغيرة كان من موالى هؤلاء العباسيين رهط يزيد بن طلحة الإشبيلية ، لا موالاه هو على وجه الخصوص . ويبدو أن آل طلحة العباسيين كانوا يسكنون مورور على ما يفهم من نص للزبيدي في ترجمة النحوي جودي بن عثمان (ت ١٩٨ = ٨١٣ - ٨١٤) . طبقات النحويين واللغويين ص ٢٧٨) .

(٢٨٣) لابد أن يكون وليد المذكور ابناً لأمية بن يزيد كاتب عبد الرحمن الداخل المتوفى سنة ١٥٤ (٧٧١) . انظر ما سبق أن كتبناه عن بيت بنى أمية بن يزيد في تعليقنا السابق رقم ١٢٨) ، ولم نجد في أي مرجع آخر شيئاً يتصل بوليد بن أمية المذكور .

(٢٨٤) وردت هذه الترجمة فعلاً مع خلاف طفيف في تاريخ ابن الفراهي ، رقم ٤٧١ ، وقد كان حقها أن تقدم فتلحق بوفيات سنة ٢١٠ لا في سنة ٢١١ كما نرى في الأصل . وقد سبق أن علقنا على اسم سعيد بن محمد بن بشير وترجمته والاختلاف بين المؤرخين حول ولايته للقضاء في الفصل الخاص بقضاة الأمير عبد الرحمن (انظر تعليقنا السابق رقم ٢١٧ والمراجع الواردة فيه) .

(٢٨٥) يبدو أن ابن حيان اعتمد في ترجمته لعيسى بن دينار على ابن الفرضي (ترجمة رقم ٩٧٣) ، إذ يتفق ما سلم من نص ابن حيان هنا من خلال قطوع الورقة مع ما أورده ابن الفرضي ، وقد تكون الترجمة أكثر تفصيلاً مما أثبتناه ، على أن ابن حيان اعتبر ما ذكره عن عيسى غير كاف في التعريف به ، فاستلحق في نهاية الفصول الخاصة بالأمير عبد الرحمن أخباراً أخرى متعلقة به سترد في موضعها . وانظر كذلك في ترجمة عيسى بن دينار : الحميدى : جذوة ، رقم ٦٧٨ ؛ القاضي عياض ترتيب المدارك ، المجلد الثاني ص ١٦ - ٢٠ (ولعلها أوفى ما بين أيدينا من تراجمه) ؛ ابن سعيد : مغرب ٢/٢٤ ؛ ابن فرحون : ديباج ص ١٧٨ - ١٧٩ ؛ المقرئ نفع ٢/٢١٥ ، ٤٢٥٢ ، ١٦١/٤ - ١٦٢ ؛ وانظر من الأبحاث الحديثة كتاب لويس أورتيث : دخول المذهب المالكي ص ٧٥ - ٧٨ والمراجع الواردة في هذه الصفحات ؛ وكتابنا عن التيارات الثقافية المشرقية ص ١٣٥ - ١٣٦ .

(٢٨٦) ترجم لابراهيم بن زرعة المذكور كل من ابن الفرضي (تاريخ ، رقم ٢) والحميدى (جذوة ، رقم ٢٧٨) ترجمة لا تزيد عما نجده في نص ابن حيان إلا ما ذكرناه من نقلهما خبره عن أبي سعيد ابن يونس المصري ، وأضاف ابن الفرضي أنه لم يعرف له في الأندلس خبراً وإنما قدمه لتقدم وفاته . وقد أنعمنا النظر في كتب طبقات الفقهاء في إفريقية في المواضع الخاصة بأخبار قاضي القيروان وفتيها سحنون بن سعيد لكى . نتحقق مما ذكر هنا من أنه كان ممن روى سحنون منهم ، فلم نجد له ذكراً .

(٢٨٧) لم نجد فيما بين أيدينا من المراجع أي إشارة لمحمد بن موسى مولى الغافقيين المذكور هنا باعتباره ممن ولوا الوزارة والكتابة . والغريب أن هذا الاسم والنسبة ينطبقان تماما على كاتب ووزير مشهور كان وثيق الصلة بالأمير محمد بن عبد الرحمن ونعى به محمد بن موسى الغافق الذي سيذكر ابن حيان في نفس هذه القطعة من « المقتبس » جملة طيبة من أخباره ولاسيما في الأحداث التي أحاطت باستيلاء محمد على مقاليد الإمارة بعد وفاة أبيه ، غير أن محمد بن موسى المذكور لا يمكن أن يكون هو المقصود هنا ، إذ أن وفاته في سنة ٢١٣ (٨٢٨) تزيل كل لبس وخلط بين الرجلين . والتوجيه الوحيد لمسا يذكره ابن حيان هنا هو أن يكون محمد بن موسى المتوفى سنة ٢١٣ من نفس هذه الأسرة التي تعرف في التاريخ الأندلسي باسم « بني موسى الوزير » وقد استقرت في اشبيلية ، وكان نسبهم في غافق ، وكانوا من عرب الشام ثم من جند فلسطين ، وسكنوا في ناحية الجزيرة ، ولكن بني موسى المذكورين استقروا في اشبيلية . ومنهم كان عبيد الله بن موسى الغافق القرطبي الذي ولاه الحكم بن هشام قضاء الجماعة بعد الفرج بن كنانة سنة ٢٠١ (٨١٦ - ٨١٧) على ما يذكر ابن الفرضي والخشني (انظر ترجمة عبيد الله بن موسى في ابن الفرضي : رقم ٧٥٩ ؛ والخشني : قضية ص ٧٧ - ٧٨) ، وسوف يزيدنا ابن حيان بيانا عن أصل هذه الأسرة عند حديثه عن محمد بن موسى الغافق كاتب الأمير محمد ووزيره ، إذ أن في نسبهم خلفا قديما فقد كانوا يؤكدون نسبهم العربي الخالص ، والخشني يوافقهم على ذلك في الترجمة التي أفردها للقاضي عبيد الله بن موسى ، بينما كان بنو عبد الرحمن بن عبد الله الغافق عامل الأندلس في عصر الولاة ينكرون ذلك عليهم ويقولون إن بني موسى كانوا من أهل الذمة من مواليهم ، وظل هذا الخلاف بين البيتين حتى حسنه محمد بن موسى وزير الأمير محمد فدعا بني عبد الرحمن الغافق إلى أن يخلطوهم بأنفسهم ويصهروا إليهم .

وعلى ذلك يكون محمد بن موسى الغافق الذي يذكر ابن حيان وفاته سنة ٢١٣ من نفس تلك الأسرة التي برز منها بعد ذلك سمي وزير الأمير محمد وكاتبه ، والتي كان منها قاضي الجماعة للحكم بن هشام : عبيد الله بن موسى ، بل إنه ربما كان أخا لنفس هذا القاضي .

(٢٨٨) هو ابراهيم بن محمد بن ابراهيم بن مزين القرطبي ، أحد أفراد أسرة بني مزين المشهورة التي كان أصلها من طليطلة وإن كانوا قد سكنوا أكشونة واستقروا فيها . وكان ابراهيم هذا يتماقب مع الحجاب وجلة الوزراء والقواد في أيام الحكم بن هشام ، ثم ولاه على طليطلة أعواما متصلة . وقد ترجم له ابن الأبار في الحلة (٨٨/١) وأورد بيتين من شعره ولكنه لم يذكر عام وفاته الذي يفيدنا عنه ابن حيان هنا وهو ٢١٣ (٨٢٨) . وانظر كذلك تعليقنا السابق عن بني مزين (رقم ١٧٠) بمناسبة الحديث عن الفقيه يحيى بن ابراهيم بن مزين ، وهو ابن ابراهيم المذكور هنا .

(٢٨٩) هو عبد الخالق بن عبد الجبار بن قيس بن عبد الله بن عبد الرحمن بن قتيبة بن مسلم الباهلي ، وجده الأعلى قتيبة ابن مسلم هو القائد المشهور الذي كان عاملا على خراسان في دولة بني أمية بالمشرق . وقد استقرت في الأندلس من ذريته بقية كبيرة كانت موزعة بين جيان وطليطلة ووادي الحجارة على ما يذكر ابن حزم (جمهرة ، ص ٢٤٦) ، وقد ولي عهد الخلق القضاء بطليطلة في أيام الحكم بن هشام الربضي حتى عزل سنة ٢٠٥ (٨٢٠ - ٨٢١) فيها يذكر ابن حارث الخشني ، وينقل ابن الأبار في الترجمة التي أفردها له قولاً آخر في وفاته يختلف عما يذكره هنا ، وهو أنه مات سنة ١٩٨ (٨١٣ - ٨١٤) . (التكملة ، نشر ألاكون وبالشيئا ، رقم ٢١٩٦) . ولنا ندرى هل أخطأ ابن الأبار في النقل عن ابن حيان ،

أم تناقض ابن حيان ، وربما كان هناك قولان في وفاته نقلهما المؤرخ كما وقعنا إليه . وقد كان عبد الخالق المذكور جد أسرة تكررت فيها خطة القضاء ، فكان ابنة الوليد قاضيا (وسوف يذكره ابن حيان) ، وكذلك حفيده أحمد بن الوليد عبد الخالق ، وولي جميعهم قضاء طليطلة (انظر ترجمة هذا الأخير في ابن الفرضي : رقم ٥٩) وأخوه عبد الخالق بن الوليد الذي ترجم له ابن الأبار : تكملة ، ط . الأركون وبالنثيا ، رقم ٢١٩٧ ؛ وانظر كذلك في هذه الأسرة كلها القاضي عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الثاني ص ١٦٢ .

(٢٩٠) لابد أن فرج بن مسرة بن سالم المذكورة هنا وفاته في سنة ٢١٧ (٨٣٢) هو نفسه الذي يسميه ابن حزم فرج بن سالم ناسبا إياه إلى جده . وسالم المذكور هو سالم بن ورعمال بن وكذات المصمودي من موالي بني مخزوم ، ويظهر أنه أول من دخل الأندلس فيمن دخلها من البربر عند الفتح ، وقد استقر بيته في المنطقة الجبلية من الثغر الأوسط في هضبة وسط شبه الجزيرة ، وإلى سالم بن ورعمال تنسب « مدينة سالم » التي تحمل حتى اليوم اسمها العربي في صورة *Medinaceli* (على بعد ١٥٣ كيلو متر إلى الشمال الشرقي من مجريط (مدريد) ونحو مائة كيلو متر إلى شمال وادي الحجارة) . أما حفيده (أو ابنه في رأي ابن حزم) الفرّج بن مسرة بن سالم فهو الذي تنسب إليه « مدينة الفرّج » التي كانت تسمى أيضا « وادي الحجارة » (وهي مازالت كذلك تحمل اسمها العربي : *Guadalajara*) ، وتقع على مسافة ٥٦ كيلو متر إلى الشمال الشرقي من مدريد ، وقد ظلت وقتنا طويلا تعرف باسمها : وادي الحجارة ومدينة الفرّج حتى في كتابات المؤرخين المسيحيين (كما نرى في كتاب « تاريخ العرب » للأسقف دون رودريجو - الفصل التاسع والثلاثين - حيث يدعوها باللاتينية *Medinae Alfaragel*) وإن كان الاسم الأول هو الذي شاع وغلب عليها حتى أيامنا هذه ، وقد حاول جايانجوس أن يجد تفسيراً لاسم « مدينة الفرّج » فظن أن كلمة « الفرّج » تعني « الفرّجة » أو الشق في الأرض ، وبهذا ترجمها عند نشره لنص جغرافية أحمد بن موسى الرازي انظر :

Pascual de Gayangos : Memoria sobre la autenticidad de la cronica denominada del foro Rasis, p. 48, nota, 4.

ولم يكن المستشرق الإسباني يعرف أن الفرّج هو اسم علم وأنه منشأ المدينة فاصطلح على تسميتها باسمه . (انظر كذلك ابن عبد المنعم الحميري : الروض المعطار ص ١٩٣) . وقد أشار ابن عذارى في البيان المغرب إلى قائد يدعو فرج بن مسرة بمناسبة فتحه لحصن « القلعة » في أرض العدو سنة ٢١٠ (٨٢٥ - ٨٢٦) . (انظر البيان ٨٢/٢) ولنا نذكر في أن فرج ابن مسرة هذا هو نفسه المذكور هنا في نص ابن حيان . ويعقب ابن عذارى إشارته تلك بقوله إن مسرة - ولعله يعنى أباه - كان عاملا على جيان .

وقد احتفظ بنو سالم المذكورون هنا برياستهم في منطقة الثغر الأوسط الممتدة بين طليطلة ومدينة سالم زمنا طويلا وكان منهم كثير من عمال مدنها وقوادئ فورها طوال أيام الدولة الأموية (انظر حول هذه الأسرة ابن حزم : جمهرة ص ٥٠١ ؛ وكذلك كتابنا « مدريد العربية » ص ٨٨ - ٩٠) .

(٢٩١) يقصد بالهيج ثورة الربض المشهورة التي شبت ضد الحكم بن هشام في ١٣ رمضان سنة ٢٠٢ (٢٥ مارس سنة ٨١٨) والتي اشترك فيها عدد كبير من الفقهاء مثل يحيى بن يحيى الليثي وطالوت بن عبد الجبار وعيسى بن دينار الطليطلي وقرعوس المذكور . انظر عن هذه الثورة ما كتبه ليبي بروفنسال في تاريخه (١٦٥/١ - ١٦٩) .

(٢٩٢) اختصر ابن حيان هذه الترجمة من كتاب ابن الفرغى ، رقم ١٠٨٢ ؛ وانظر كذلك عن قرعوس بن العباس الحميدى : جذوة ، رقم ٧٨٠ ؛ القاضى عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الأول ص ٤٩٢ - ٤٩٣ : ابن فرحون : ديباج ص ٢٢٦ ؛ ومن الدراسات الحديثة انظر لويث أورثيث : دخول المذهب المالكي ص ٦٠ ، ٦٢ ، ٨٣ ؛ وكتابنا عن التيارات الثقافية المشرقية ص ١٠١ . وقد نقل عياض في ترتيب المدارك تحقيقا طيبا للفقير أبي محمد بن حزم حول ما تردده كتب التراجم عن الشيوخ الذين لقيهم قرعوس . فن بين من يذكرون من هؤلاء الشيوخ ابن جريج وسفيان بن سعيد الثوري ، كما نرى في نفس هذه الترجمة التي يعتمد ابن حيان فيها على كتاب ابن الفرغى . ويعلق ابن حزم على ذلك بدقته وافتداه في ميدان النقد : « من المحال أن يروى قرعوس عن ابن جريج ، إذ مات ابن جريج سنة خمسين ومائة ، وقرعوس مات سنة عشرين ومائتين . ولم يطل عمر قرعوس طولا يحتمل هذا . وكذلك وفاة سفيان سنة إحدى وستين » (ترتيب المدارك ٤٩٣/١) . والحقيقة هي أن معاجم التراجم تحفل بأمثال هذه المفارقات التي لا تستقيم على المقابلة التاريخية ولا تثبت أمام أى مناقشة بنطقية ، ولكن المؤلفين يجرون على تناقلها وإثباتها حتى تصبح في حكم المسلمات دون أن يعنوا أنفسهم - كما فعل ابن حزم ونفر غيره من النقاد المتشبهين - بإخضاعها لميزان نقدي قويم .

(٢٩٣) لا بد أن يكون حمدون بن فطيس هذا المتوفى سنة ٢٢٠ (٨٣٥) أو ٢٢٦ (٨٤١) ابنا لعثمان ابن سليمان الملقب بفطيس والذي كان كاتباً ووزيراً لهشام بن عبد الرحمن وابنه الحكم حتى وفاته سنة ١٩٨ (٨١٣) - ٨١٤ (٨١٤) أو ٢٠٧ (٨٢٢ - ٨٢٣) . (انظر ما كتبناه عن فطيس المذكور في تعليقتنا رقم ٢٦٧) . وأما حمدون ابنه فهو بغير شك الذي ذكره الخشني في خبر قصه عن القاضى محمد بن بشير قاضى الجماعة في أيام الأمير الحكم ، إذ يقول إن حمدون ابن فطيس تظلم من محمد بن بشير في شئٍ حكم به عليه إلى الأمير الحكم ، فسأل الأمير أن يعقد مجلساً للفقهاء لبحث ذلك الحكم وإعادة النظر فيه ، وطلب إلى يحيى بن يحيى أن يحضر هذا المجلس ، فنصحته يحيى بالألا يفعل ، وقال له إن كان يصبر على ذلك فليستشر أولاً شيخ الفقهاء يحيى بن مضر القيسي ، فاستحيا حمدون « وكان حليماً دمثاً » وكف عن جمع الفقهاء . (الخشني : قضاة ص ٦٤) . وإذا صح ما يرويه الخشني هنا فإن هذه الواقعة ينبغي أن تكون قد حدثت قبل سنة ١٨٩ (٨٠٥) ، وهي السنة التي قامت فيها ثورة الفقهاء الأولى وكان من عواقبها أن قبض على يحيى بن مضر وصلب .

(٢٩٤) عن محمد بن كليب بن ثعلبة انظر تعليقتنا السابق عن بنى كليب (رقم ٢) .

(٢٩٥) لم نجد فيما بين أيدينا من المراجع شيئاً عن هؤلاء المذكورين ، ولا بد أنهم كانوا من زعماء المتمردين في طليطلة من قبض عليهم في أيام الحكم بن هشام حينما فتحها سنة ١٩٩ (٨١٤) وسحق الثورة فيها واستزل بعض زعمائها فأوردتهم سجن المطبق . ويبدو من أسماء هؤلاء الطليطليين أنهم كانوا من المولدين ، ويلفت النظر من بينهم اسم « حرب بن بلدس » ، إذ يبدو لنا أن اسم أبيه بلدس هذا لا بد أن يكون من الأسماء العجمية الشائعة بين المولدين والمستعربين ، وهو يقابل Valde's الذي لا يزال مستخدماً في إسبانيا حتى اليوم .

(٢٩٦) هو حبيب بن سليمان بن هارون بن جلهمة بن عباس بن مرداس السلمى القرطبي ، كما ذكر نسبه ابن الفرغى في نسب ابنه الفقيه عبد الملك بن حبيب ، ونقل القاضى عياض عن خط الحكم المستنصر في نسبه أنه حبيب بن ربيع بن سليمان ،

وكذا قال أبو علي الغساني . واختلف فيما إذا كان عربيا صحيح النسب من سليم أو من مواليهم ، فقال بالرأى الأول محمد ابن حارث الخشني وقال ابن الفرضي إنه كان من الموالي ، ويبدو أن هذا هو الأرجح . وذكر عياض أن حبيبا المذكور كان يعرف بالمعصار : كان يعصر الأذهان ويستخرجها . وكان أصلهم من طليطلة ، ثم انتقل أبوه سليمان إلى قرطبة ، وولد له ابنه حبيب فيها وبها نشأ وأصبح عن عداد فقائها ، فلما شبت ثورة الربض سنة ٢٠٢ (٨١٨) انتقل هو وإخوته إلى البيرة ، ومن هنا عرف ابنه الفقيه المشهور عبد الملك بالإلبيري . وعلى الرغم من أن حبيب بن سليمان كان يعد من الفقهاء فإنه لم يعثر له على رواية . انظر في ترجمته ابن الأبار : تكملة ، رقم ٨٧ ؛ القاضي عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الثاني ص ٣٠ - ٣١ (في ترجمة ابنه عبد الملك بن حبيب) .

(٢٩٧) انظر في ترجمة حارث بن أبي سعد ابن الفرضي : رقم ٣٢٤ ؛ الحميدي : رقم ٣٩٨ ؛ القاضي عياض : ترتيب المدارك ٢/٢٢ ؛ ومن الدراسات الحديثة لوبث أورتيث : دخول المذهب المالكي ، ص ٧٩ . ولهذا النص قيمة خاصة ، إذ فيه إشارة إلى تولي حارث بن أبي سعد « للشرطة الصغرى » ، ولعله أول من تولي هذا المنصب فيما نعرف ، ويدلنا ذلك على أن الشرطة قد تفرعت في أيام عبد الرحمن الأوسط إلى كبرى وصغرى كما بدا لنا من نص لابن حيان مرفى هذه القطعة من المقتبس عند الكلام عن أصحاب شرطة عبد الرحمن بن الحكم ، ولو أن التحريف الذي لحقه لم يسمح لنا بقراءة يطمأن إليها تماما . وقد جاء في النص المذكور أيضا أن حارث بن أبي سعد ولي أيضا خطة الرد مجموعة له مع الشرطة الصغرى ، وهذه خطة جديدة يبدو أنها ظهرت كذلك في أيام الأمير عبد الرحمن الأوسط (وانظر تعليقنا السابق رقم ١٥١) .

ونلاحظ أخيراً فيما يتعلق باسم حارث بن أبي سعد أن كنية أبيه (واسمه سابق) تكتب هكذا في ترجماته التي وصلت إلينا (مثل ما كتبه عنه ابن الفرضي والقاضي عياض) ، فإذا ترجم هؤلاء لابنه محمد - وكان أيضا من ولاية الشرطة - كتبوا هذه الكنية هكذا : « أبو سعيد » مما يجعلنا في شك من أمر الصواب فيها . ولعل ما أثبتناه هنا هو الصحيح .

(٢٩٨) أبو عمرو عثمان بن عيسى بن كنانة مولى عثمان بن عفان من فقهاء المدينة أصحاب الإمام مالك ، انتدبه مالك لمناظرة الفقيه القاضي أبي يوسف في مجلس هارون الرشيد ، وهو الذي تصدر مجلس مالك بعد وفاته . وكانت وفاته سنة ١٨٦ (٨٠٢) . انظر في ترجمته القاضي عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الأول ص ٢٩٢ - ٢٩٣ .

(٢٩٩) انظر ترجمة محمد بن عيسى الأعشى في كتاب ابن الفرضي ، رقم ١١٠٠ ؛ الحميدي ، رقم ١٠٦ ؛ الخشني : قضاة ص ١٠ ، ٥٨ ، ٨٦ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ؛ المقرئ : نفع ٢/٢٦٧ - ٢٦٨ ؛ ومن الأبحاث الحديثة لوبث أورتيث : دخول المذهب المالكي ص ١٠٢ ؛ وكتابنا عن التيارات الثقافية المشرقية ص ١٨٤ . ويلاحظ أن الأعشى كان من أول من تأثر من الأندلسيين بفقه أهل العراق ، ولا سيما بمذهب أبي حنيفة ، وهو مذهب لم يأخذ به من أهل الأندلس إلا أشخاص معدودون ، وإلى هذا التأثر بالمذهب الحنفي يرجع تساهل الفقيه محمد بن عيسى الأعشى في شراب النبيذ (كما رأينا في الخبر الذي قصه ابن حيان من قبل مع القاضي محمد بن زياد بن عبد الرحمن حينما تطوع الأعشى بإطلاق سراح سكران قبض عليه القاضي ليقم الحد عليه) . ويذكر الأعشى من بين من عرض عليهم القضاء فأبوا من قبوله ، وكان صاحب نوادر وفكاهات أورد ابن حيان طرفاً منها من قبل .

(٣٠٠) أبو محمد سفيان بن عيينة الهلالى الكوفى المكي ، ولد سنة ١٠٧ (٧٢٥ - ٧٢٦) ، فقيه محدث عداده في تابعى التابعين ، سمع من الزهري وعمرو بن دينار والشعبي وغيرهم ، وروى عنه الأعمش ووكيع بن الجراح والشافعي وغيرهم من أئمة الفقهاء والمحدثين . وتوفى سنة ١٩٨ (٨١٣ - ٨١٤) .
انظر في ترجمته العبر للذهبي ٣٢٦/١ .

(٣٠١) وكيع بن الجراح الرؤاسي ، ولد سنة ١٢٩ (٧٤٦ - ٧٤٧) ، وروى عن أبي حنيفة وأبي يوسف ، وهو من أكبر محدثي الكوفة ، وروى عنه ابن حنبل وابن المبارك ويحيى بن معين وغيرهم . وتوفى سنة ١٩٧ (٨١٢ - ٨١٣) .
انظر في ترجمته طبقات علماء إفريقية لأبي العرب بن تميم ص ١٨٥ ، حاشية ٢ والمراجع المثبتة .

(٣٠٢) يحيى بن سعيد بن فروخ التميمي المعروف بالقطان ، من كبار أئمة الحديث العراقيين ، ويعتبر من أئمة الجرح والتعديل ، روى عن هشام بن عروة ، واعتبره القاضي عياض ممن روى عن مالك من عداد أقرانه ، وكانت وفاته سنة ١٩٨ (٨١٣ - ٨١٤) . انظر الخزرجي : خلاصة تذهيب الكمال ص ٣٦٣ ؛ ترتيب المدارك ، المجلد الأول ص ٢٥٨ .

(٣٠٣) لم نهند إلى شخصية أبي محمد بن خالد هذا ولا على ما يشير إلى بيت بني عمار المراديين بقرطبة الذين ينحدرون من نسل ابن خالد المذكور ، وإن كانت إشارة ابن حيان تدل على أن هذا البيت كان من بيوت الشرف المشهورة في قرطبة على أننا نعرف أن بني مراد - ونسبهم ينتهي إلى يحابر (وهو مراد) بن مالك بن أدد . . . بن كهلان بن سبأ - كانوا يسكنون إقليما من أقاليم قرطبة يعرف بكورة مراد ، في غرب قرطبة بينها وبين إشبيلية ، وفي هذه الكورة حصن يعرف باسم حصن مراد (انظر ابن سعيد : مغرب ٢٣٢/١ ؛ ياقوت : معجم البلدان ٤/٤٧٤) . وقد أشار ابن حزم إلى نسب بني مراد (بجمهرة ص ٤٠٦ - ٤٠٧) ولكنه لم يذكر منازلهم بالأندلس ، غير أن ابن غالب نص عنه أنه كان منهم خلق كثير يعرفهم بالكورة التي تنسب إليهم : « وهم [من عرب الأندلس] من ينتسب إلى مراد بن مالك بن أدد ، وحصن مراد بين قرطبة وإشبيلية مشهور . قال ابن غالب : وأعرف بمراد منهم خلقا كثيرا » (انظر المقرئ : نفع ٢٧٦/١ ؛ وانظر كذلك بحث الأستاذ إلياس تيريس سادابا عن « الأنساب العربية في الأندلس » في مجلة « الأندلس » المجلد الثاني والعشرين سنة ١٩٥٧ ص ٦٨ من الفصلا :

Elias Teres Sadaba : Linajes arabes en al-Andalus, segun la « Yamhara » de Ibn Hazm.
Al-Andalus, Vol. XXII, ano 1957.

وإذا كنا لم نهند إلى أسرة تحمل اسم بني عمار من قبيلة مراد المذكورة فإن لنا توجيها في ذلك نعتقد أنه قد لا يبعد عن الصواب ، فراد رأس القبيلة التي تنسب إليها الكورة والحصن المذكوران ليس إلا ابن عم لعنس بن مذحج بن أدد . . . ابن كهلان بن سبأ . ونحن نعرف من هؤلاء العنسيين أسرة كبيرة عريقة الشرف في الأندلس تحمل اسم بني عمار ، إذ ينتهي نسبها إلى الصحابي المشهور عمار بن ياسر العنسي رضي الله عنه ، وكان من أول من اعتنق الإسلام وعذب في سبيله . وأول من دخل من ولده الأندلس حفيده عبد الله بن سعد بن عمار ، وكانت له حظوة لمكانه من إيمانة بقرطبة ، ويقول ابن الخطيب إن داره كانت معروفة بقرب القنطرة ، وقربه يوسف بن عبدالرحمن الفهري آخر أمراء الأندلس قبل تجديد الدولة

الأموية فيها . فلما قدم عبد الرحمن بن معاوية الداخل عهد إليه يوسف بمحاربته للشارع القديم بين بني أمية وبني عمار بن ياسر منذ حرب صفين . ولكن عبد الرحمن هزمه وقتله (انظر ابن حزم : جبهة ص ٤٠٦ ؛ ابن سعيد : المغرب ٢-١٦١ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة - نشر الاستاذ محمد عبد الله عنان - ٢٢٢/١ ؛ المقرئ : فصح ٣/٩٦ ؛ ٤/٦١ ؛ وبحسنا عن « التشيع في الأندلس » ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، المجلد الثاني سنة ١٩٥٤ ، ص ٩٧) . وقد كان لبني عمار هؤلاء بيت كبير من بيوت الشرف بقرطبة ، وإن كانت منازلهم في قلعة من أعمالها تقع بينها : بين جيان وإلبيرة هي « قلعة يحصب » التي عرفت بعد ذلك باسم قلعة بني سعيد نسبة إلى سعيد بن الحسن بن عثمان بن محمد بن عبد الله بن سعد بن عمار ابن ياسر (وظلت تحمل هذا الاسم حتى بعد استيلاء المسيحيين عليها ، إذ كانت تدعى *Alcala de Abenzaide* ثم غير اسمها فأصبح *Aecala la Real* أي القلعة الملكية وهو الاسم الذي جرى عليها حتى اليوم . وإلى هؤلاء ينتسب بنو سعيد المشهورون الذين كان منهم علي بن موسى بن سعيد مؤلف كتاب المغرب في حل المغرب (انظر ابن حزم : جبهة ص ٤٠٦ ؛ المغرب ٢/١٦١ ؛ المقرئ : فصح ١/٢٧٦) .

فلعل ابن حيان نسب بني عمار بن ياسر القرطبيين الذي كان منهم بنو سعيد المذكورون إلى مراد ، إذ كانوا أبناء عمومهم .

(٣٠٤) انظر ترجمة ابن مرتيل الأشج في ابن الفرضي ، رقم ١٠٩٩ ؛ الخشني : قضاة ص ٦٣ ؛ الحميدي ، جذوة ، رقم ٤٣ ؛ القاضي عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الثاني ص ٢٦ - ٢٧ ؛ ابن فرحون : ديباج ص ٢٣١ .

(٣٠٥) انظر في ترجمة الوليد بن عبد الخالق المذكور ابن الفرضي : رقم ١٥٠٢ ، وقد نقل خبره عن أحمد محمد الرازي ؛ وأبوه الذي ولي قضاء طليطلة أيضا هو الذي سبق أن أشار إليه ابن حيان في وفيات سنة ٢١٣ (٨٢٨) . انظر تعليقنا السابق رقم ٢٨٩ .

(٣٠٦) في ترجمة محمد بن سعيد الزجالي انظر ما سبق أن كتبناه في التعليق رقم ١٣٢ ، وفيما يتعلق بوفاته التي تزداد ابن حيان في تحديد تاريخها بين سنتي ٢٢٨ (٨٤٣) و ٢٣٢ (٨٤٦ - ٨٤٧) انظر ما سبق أن كتبناه في التعليق رقم ١٣٥ هل ما ذكره ابن حيان في ذلك الموضع من أنه « كتب لابنه [أي لابن عبد الرحمن الأوسط] محمد بعهده » ، وفي هذا تناقض واضح إذ أن الأمير محمداً ولي الإمارة في سنة ٢٣٨ (٨٥٢) ، وقد ذكرنا هناك أنه ربما كان في المباراة سقط وأن يكون تمامها « وكتب ابنه [أي ابن محمد بن سعيد الزجالي] لابنه محمد بعهده » .

(٣٠٧) لم أستطع التحقق من شخصية يحيى بن موسى هذا ، ولعله كان أخا محمد بن موسى النافق الذي ولي الوزارة والكتابة والذي ذكره ابن حيان من قبل في وفيات سنة ٢١٥ (انظر تعليقنا السابق رقم ٢٨٧) .

(٣٠٨) أسرة الغازي بن قيس القرطبي من الأسر التي كان لها إسهام كبير في الاشتغال بالعلم في الأندلس . وللغازي مكانة خاصة ولاسيما في فقهاء المالكية ، فقد كان أول من أدخل موطأ الإمام مالك إلى الأندلس قبل أن يدخل به زياد ابن عبد الرحمن اللخمي (شبطون) ويحيى بن يحيى اللخمي بعهده . وكان مشغولا بالتأديب في قرطبة في أيام دخول الإمام عبد الرحمن

ابن معاوية الداخل إلى الأندلس ، ثم رحل إلى المشرق فشهد تأليف الموطأ بالمدينة وأدرك نافع بن أبي نعيم القارئ وقرأ عليه ، فضلا عن أخذه عن فقهاء آخرين مثل عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي فقيه أهل الشام ، وكان عبد الرحمن الداخل يكرمه ويعظمه ويصله في منزله ، ويقال أن القضاء عرض عليه فأبى من قبوله . ويبدو أنه كان منصرفاً عن الاشتغال بالفقه والفتوى على الرغم من إسهامه المبكر في إدخال الموطأ ، فقد كان أكثر اهتماماً باللغة والنحو ، واستأدبه الأميران هشام بن عبد الرحمن وابنه الحكم بن هشام لأبنائهما ، وكان قد لقي بالمشرق كذلك الأصمعي ونظرائه ، ولهذا فقد جعله الزبيدي في الطبقة الأولى من طبقات اللغويين والنحويين بالأندلس . وكانت وفاة الغازي سنة ١٩٩ (٨١٤ - ٨١٥) . (انظر في ترجمته ابن القوطية : تاريخ ص ٣٤ ؛ ابن الفرضي ؛ ١٠١٣ ؛ الحميدي . رقم ٧٤٨ ؛ الضبي . رقم ١٢٧٢ ، ترتيب المدارك ، المجلد الأول ص ٣٤٧ - ٣٤٩ ؛ الزبيدي : طبقات ص ٢٧٦ - ٢٧٨ ؛ ابن فرحون : ديباج ص ٢١٩ وانظر ابن بشكوال : الصلة ١-١٠٨ ؛ ومن الدراسات الحديثة لوبث أورتيث : دخول المذهب المالكي ص ٦١،٥٥،٥٤ ؛ وقد عالجتنا مسألة دور الغازي بن قيس في إدخال الموطأ إلى الأندلس بالتفصيل في بحثنا عن التيارات الثقافية الشرقية ص ٩٩-١٠٠)

أما ابنه عبد الله بن الغازي المترجم هنا فقد كان أكثر اهتماماً من أبيه باللغة والشعر والخبر ، سمع من أبيه ورحل إلى المشرق فروى عن كبار علماء اللغة والأخبار هناك ، وأخذ عنه أهل الأندلس علماً كثيراً ، وكان ممن نشروا قراءة نافع ابن أبي نعيم التي أدخلها أبوه من قبل . وكانت وفاته سنة ٢٣٠ (٨٤٤ - ٨٤٥) . انظر ترجمته في ابن الفرضي : رقم ٦٣٢ الزبيدي : طبقات ص ٢٨١ ؛ القاضي عياض : ترتيب المدارك ١-٣٤٨ .

وقد كان لعبد الله هذا ابن يدعى محمداً سار على نهج جده وأبيه في الاشتغال بعلوم العربية والأخبار والشعر ، وسمع من أبيه ثم رحل إلى المشرق فلقى أبا حاتم السجستاني وأبا الفضل العباس بن فرج الرياشي وأبا إسحاق الزيادي وغيرهم من رواة الأخبار والأشعار وأصحاب اللغة فضلاً عن طائفة المحدثين . وأدخل إلى الأندلس علماً كثيراً من الشعر والغريب والخبر . ويقول ابن الفرضي إن أهل الأندلس أخذوا عنه « الأشعار المشروحة كلها رواية » ، ويبدو أن المقصود بهذا مجموعات من دواوين الشعراء الجاهليين والإسلاميين . وخرج في آخر عمره يريد الحج غير أنه توفي بطنجة في نحو سنة ٢٩٦ (٩٠٨ - ٩٠٩) كما يقول ابن الفرضي (ويبدو أن هنا خطأ من الناسخ وأن الصواب سنة ٢٧٦ (٨٨٩ - ٨٩٠) . انظر في ترجمته : ابن الفرضي ، رقم ١١٥٠ ؛ الزبيدي : طبقات ص ٢٨٢ ؛ القاضي عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الثاني ص ١٩٣ ؛ ومن الأبحاث الحديثة أنظر كتابنا عن التيارات الثقافية الشرقية ص ٢٦٩ - ٢٧٠ ، ٢٧٢ .

(٣٠٩) هو نافع بن عبد الرحمن بن ابراهيم ، أحد القراء السبعة ، وكان قارئاً أهل المدينة وأصله من إصبهان ، وكان يذكر أنه قرأ على سبعين من التابعين ، وإليه تنسب القراءة المعروفة باسمه . وتوفي سنة ١٦٩ (٧٨٥ - ٧٨٦) . انظر ابن الجزري : طبقات القراء ، ط . القاهرة ١٣٥٢ هـ : ٢/٣٣٤ - ٣٣٤ ؛ ابن حجر : تهذيب التهذيب ، ط . حيدر أباد سنة ١٣٢٥ هـ ، ٤٠٧/١٠ ، ٤٠٨ .

(٣١٠) أبو القاسم ثابت بن حزم العوفي السرقسطي ، سمع بالأندلس من محمد بن وضاح ومحمد بن عبد الله بن الغازي وغيرهما ، ورحل إلى المشرق مع ابنه قاسم ، فسمعا بمكة ومصر ، وكان عالماً بصيراً بالحديث والفقه والنحو والغريب

والشعر ، وتوفي سنة ٣١٣ (٩٢٥) . انظر في ترجمته ابن الفرضي ، رقم ٣٠٦ ؛ الحميدي ، رقم ٣٤٥ ؛ الزبيدي . طبقات ص ٣٠٩ (وهو يسميه ثابت بن عبد العزيز) ؛ السيوطي : بغية ص ٢٠٩ .

(٣١١) أبو محمد قاسم بن ثابت هو ابن المتقدم ذكره ، رحل مع أبيه إلى المشرق سنة ٢٠٨ (٨٢٣ - ٨٢٤) واشترك معه في سماعه ، وألف كتاب « الدلائل » في شرح غريب الحديث الذي كان موضع ثناء أبي علي القالي وافتخار أبي محمد ابن حزم . وكان قد عرض عليه القضاء بسرقسطة وأريد اكرامه عليه فدعا على نفسه بالموت ، فاستجاب الله له وتوفي سنة ٣٠٢ (٩١٤ - ٩١٥) فشكله أبوه ، وكان لم يكمل بعد كتاب « الدلائل » فأتمه أبوه ثابت . انظر في ترجمته وأخباره : ابن الفرضي ، رقم ١٠٦٠ ؛ الحميدي رقم ٧٧١ ؛ الزبيدي : طبقات ص ٣٠٩ ؛ النباهي مرقبة ص ١٣ ؛ السيوطي : بغية ص ٣٧٦ ؛ المقرئ : نفع ٢/٢٥٥ - ٢٥٦ ، ٤/١٦٤ (حيث ورد الاسم خطأ « عامر بن خلف » بدلا من قاسم بن ثابت) . وقد كان لكتاب الدلائل انتشار كبير في الأندلس يدل عليه ما كتبه ابن خيبر عن رواياته في فهرسة شيوخه (ص ١٩١ - ١٩٤) . وقد كان الشائع المعروف هو أن هذا الكتاب الجليل - الذي فضله ابن حزم على شرح غريب الحديث لأبي عبيد القاسم ابن سلام - قد ضاع واندر ، غير أن الحظ قد أسعدنا بأن اكتشفت أخيراً في المغرب مخطوطات جديدة منه مازالت تنتظر النشر . انظر عن هذا الكتاب تقريراً كتبناه عن رحلة قنا بها في المغرب بحثاً عن مخطوطات أندلسية جديدة في صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، المجلدين التاسع والعاشر ، سنتي ١٩٦١ - ١٩٦٢ ص ٤٥٠ من القسم العربي (وتحمل المخطوطة الجديدة من كتاب الدلائل رقم ١٩٨ ق ، وهذا الرمز الأخير يشير إلى ما عثر عليه من كتب في مجموعات الأوقاف والزوايا وهي الآن محفوظة في الخزانة العامة بالرباط) . وعن قاسم بن ثابت انظر كذلك كتابنا عن التيارات الثقافية المشرقية ص ١٥٦ ، ١٩٨ ، ٢٦٤ ، ٢٦٧ - ٢٦٨ ، ٢٧٧ .

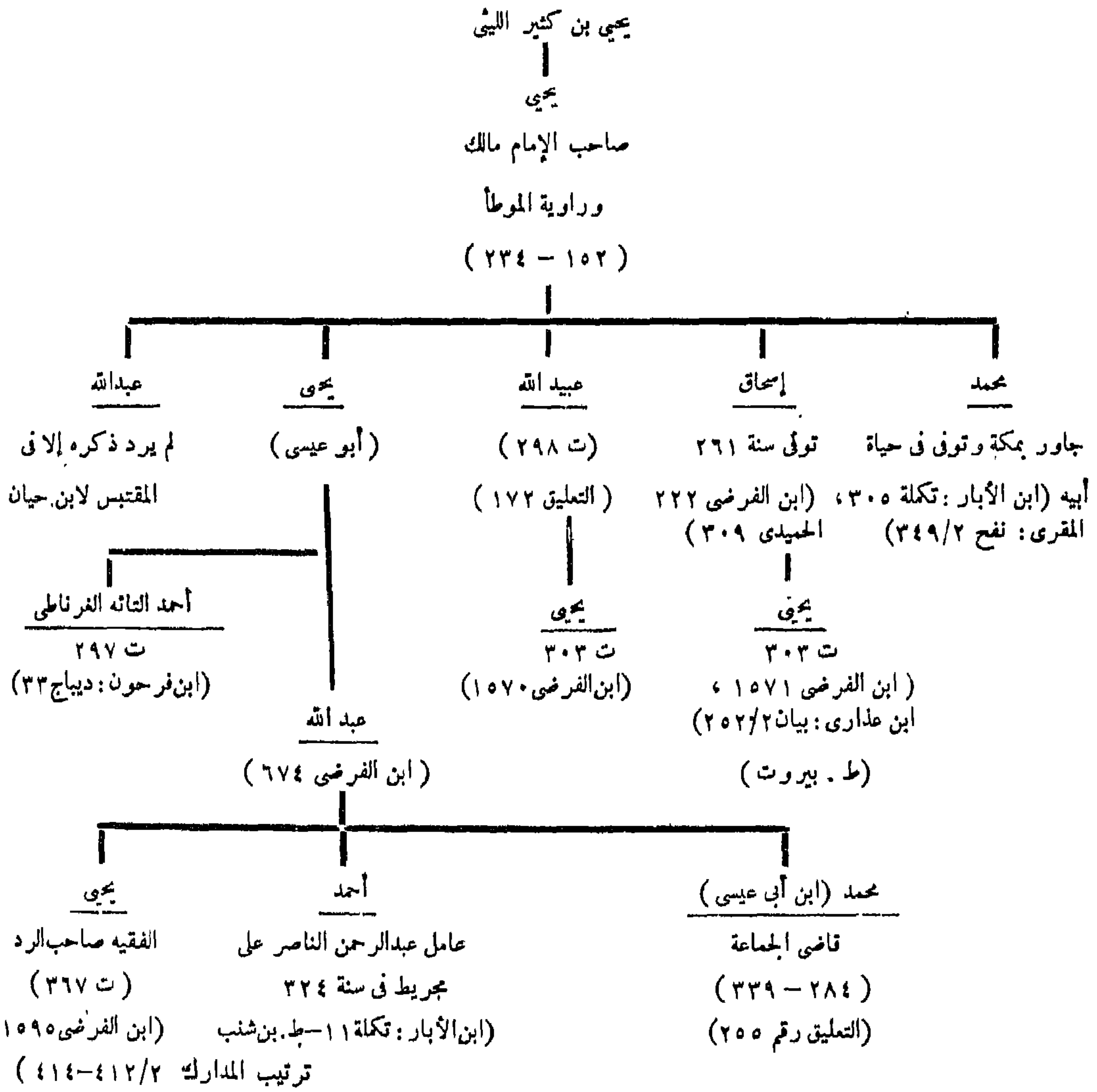
(٣١٢) في ترجمة الفقيه زونان انظر ابن الفرضي ، رقم ٨١٣ ؛ الحميدي ، رقم ٦٢٧ ؛ الخشني : قضاة ص ٨٢ ، ٩٩ ؛ القاضي عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الثاني ص ٢٠ - ٢١ ؛ ابن فرحون : ديباج ص ١٥٧ ؛ ومن المراجع الحديثة لويس أورتيث : دخول المذهب المسالكي ص ٨٠ - ٨١ ؛ وكتابنا عن التيارات الثقافية المشرقية ص ٦٧ .

(٣١٣) صعصعة بن سلام الدمشقي ، كان تلميذاً للأوزاعي إمام أهل الشام وغيره من فقهاء هذا القطر ، وكانت تدور عليه الفتيا أيام عبد الرحمن بن معاوية الداخل وابنه هشام ، وذلك قبل أن تتولد دعائم المذهب المسالكي في الأندلس ويحل محل مذهب الأوزاعي . وبفضل صعصعة بن سلام غرس الشجر في صحن المسجد الجامع بقرطبة ، وبقي ذلك تقليداً في مساجد الأندلس ، وهو ما يجوز في مذهب الأوزاعي وينكره مذهب مالك ، وتعتبر هذه هي البقية الوحيدة الباقية من مذهب الأوزاعي في الأندلس . وتوفي صعصعة على الأرجح سنة ١٩٢ (٨٠٨) في أيام الحكم بن هشام . انظر في ترجمته : ابن الفرضي ، رقم ٦٠٨ ؛ الحميدي : جذوة ، رقم ٥١٠ ؛ عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الأول ص ٥٥ ، ٣٤٨ ؛ وانظر من الأبحاث الحديثة لويس أورتيث : دخول المذهب المسالكي ص ٥٢ - ٥٣ ؛ وبحثنا عن التيارات الثقافية المشرقية ص ٦٦ - ٦٧ .

(٣١٤) أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي إمام أهل الشام ، وصاحب المذهب الفقهي المنسوب إليه ، ولد ببلبك سنة ٨٨ أو ٩٣ (٧٠٧ - ٧١٢) وتوفي سنة ١٥٧ (٧٨٤) في بيزوت. انظر في ترجمته دائرة المعارف الإسلامية ٥٣٣/١ والمراجع المثبتة في هذا الموضوع . وقد كان مذهب الأوزاعي هو الذي انتشر أولا في الأندلس ، وذلك بحكم الرابطة المتينة بين الأندلس وبلاد الشام وتجدد الدولة الأموية في الأندلس بحيث اعتبرت امتداداً لخلافتهم السابقة التي كانت قاعدتها دمشق . ومن هنا أخذ الأندلسيون في أول الأمر بمذهب الأوزاعي ولكن مذهب الإمام مالك بن أنس لم يلبث أن غلب على هذه البلاد منذ أواخر القرن الثاني الهجري وأوائل الثالث ، واندثر مذهب الأوزاعي فلم تبق منه في الفقه الأندلسي إلا مسألة واحدة ميزت المالكية الأندلسية حتى انتهاء الإسلام في هذه البلاد وهي استجازه غرس الشجر في صحن المساجد . انظر عن مذهب الأوزاعي في الأندلس لوبث أورثيث : دخول المذهب المالكي ص ٥٢ - ٥٣ ، وكتابنا عن التيارات الثقافية المشرقية ص ٦٤ - ٦٧ . هذا ويعتبر الفقيه عبد الملك بن الحسن المعروف بزونان والمترجم له هنا من معالم التحول المهمة من مذهب الأوزاعي إلى المذهب المالكي ، فقد بدأ حياته بصفته فقيها ومفتيا على مذهب الأوزاعي ، ولكنه لم يلبث أن تحول إلى المالكية التي غلبت على الشعب الأندلسي واستأثرت به ، وذلك مجازة لما اتفق عليه أهل بلده .

(٣١٥) هو الفقيه يحيى بن يحيى الليثي انظر ابن القوطية : تاريخ ص ٣٥ ، ٥١ ، ٥٨ ، ابن الفرضي ، رقم ١٥٥٤ الحميدي ، رقم ٩٠٨ ، القاضي عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الأول ص ٥٣٥ - ٥٤٧ (ولعلها أوسع ترجمة له) ، ابن سعيد : المغرب ٤٣/١ ، ٤٦ ، ٥٠ ، ١٤٨ ، ١٥٠ ، ١٦٣ - ١٦٥ ، المقرئ : نفح ٣١٨/١ ، ٢١٧/٢ - ٢٢٠ ، ٢٥٢ - ٢٥٣ ، ٣٤٤ ، ٤١٤ ، ٤١٩ ؛ الحشني : قضاة ص ١٢ - ١٣ ، ٣٧ ، ٥٠ ، ٦٣ - ٦٤ ، ٦٩ - ٧١ ، ٨٢ - ٨٤ ، ٨٧ ، ٨٩ - ٩٢ ، ١٠٠ ؛ ابن فرحون : ديباج ٣٥٠ - ٣٥١ ، ومن الأبحاث الحديثة انظر لوبث أورثيث : دخول المذهب المالكي ص ٦٥ وما بعدها ؛ وكتابنا عن التيارات الثقافية المشرقية ص ٩٣ - ٩٤ ، ١٠٢ - ١٠٣ ، ١٢٨ - ١٣١ ، ١٣٥ - ١٣٨ ، ١٦٦ - ١٦٧ .

وقد توارثت ذرية يحيى بن يحيى بعده رئاسة الفقه ومناصب الشورى والقضاء والقيادة فضلا عن الاشتغال بالعلم والتدريس وقد سبق أن ترجمنا لبعضهم . وسنورد فيما يلي جدولاً لأنساب من اشتهر منهم حتى منتصف القرن الرابع في ظل دولة بني أمية :



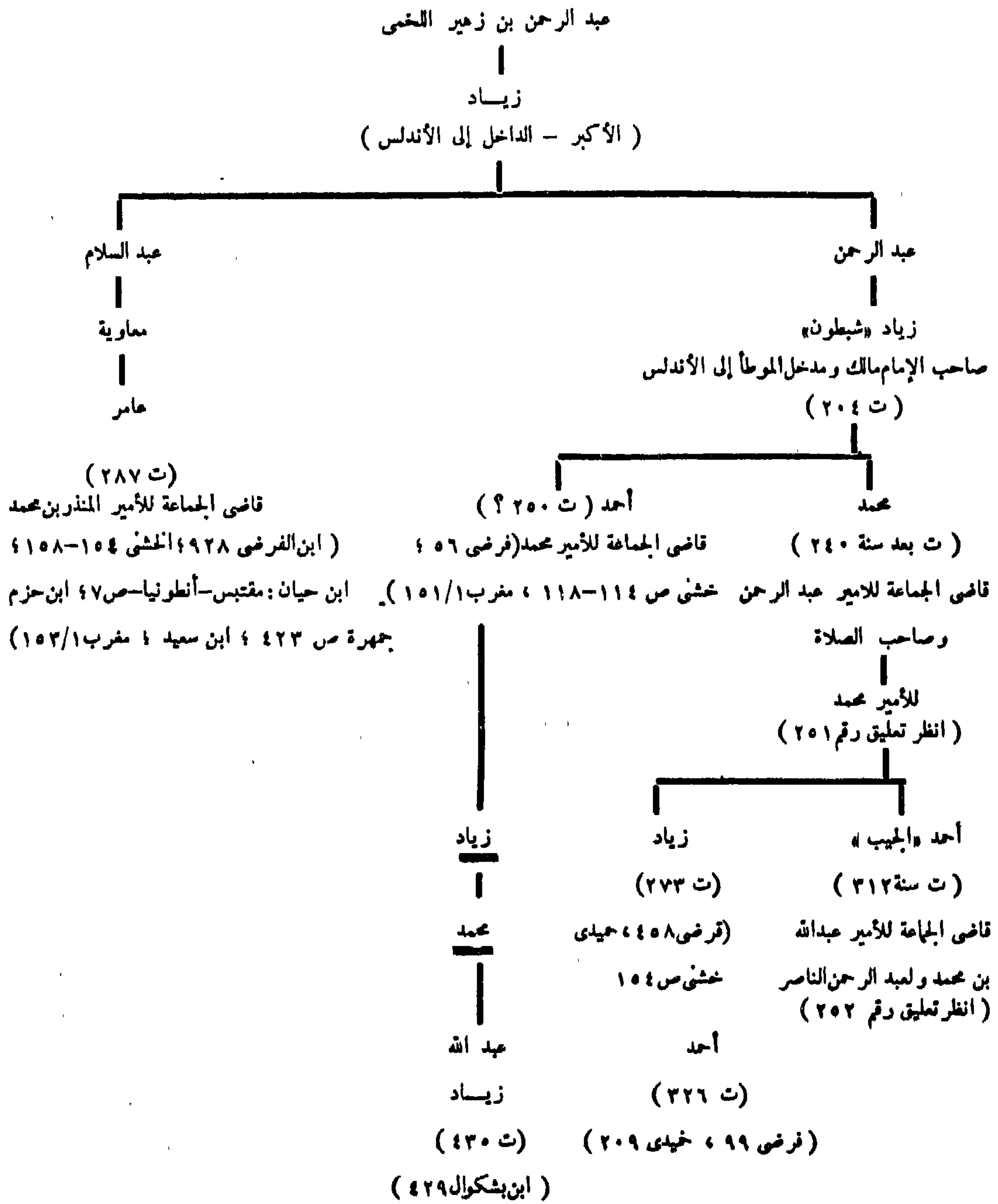
(٣١٦) انظر ابن حزم : جمهرة ص ٥٠٠ ، وابن الأبار : تكملة ، رقم ٢٠٣٢ (في ترجمة يحيى بن كثير بن وسلاس الليثي والد الفقيه يحيى) حيث يذكر أن وسلاس كان قد أسلم على يد يزيد بن عامر الليثي (ليث كنانة) ، فانتمسب إلى ليث بالخلف . انظر كذلك كتاب مفاخر البربر ص ٦٠ .

(٣١٧) زياد بن عبد الرحمن بن زياد بن عبد الرحمن بن زهير اللخمي من جزيلة بن نهم بن عدي ، المعروف بشبطون ، فقيه أندلسي مشهور يعتبر أول من أدخل موطأ مالك بن أنس في الأندلس محتثيا بما فيه من مادة فقهية (فقد كان الغازي بن قيس هو أول من دخل بهذا الكتاب قبل زياد ولكنه لم يعن بمادته الفقهية عناية زياد) ، وعلى زياد تلمذ يحيى بن يحيى وهو الذي وجهه إلى الرحلة للأخذ عن مالك . وكان قد أخذ في الأندلس عن معاوية بن صالح وكان زياد صهراً له إذ كان متزوجاً من بنته ، ورحل إلى المشرق فأخذ بمصر عن الليث بن سعد وموسى بن علي بن رباح وبمكة من سفيان بن عيينة

وبالمدينة عن مالك بن أنس وبه تفقه ، وعاد إلى الأندلس فشهّر فضله وعلمه وعرض عليه القضاء فامتنع عنه ، وكانت له منزلة من الأمير هشام بن عبد الرحمن ، وتوفى سنة ٢٠٤ (٨١٩ - ٨٢٠) . انظر في ترجمته ابن القوطية : تاريخ ص ٤٢ - ٤٣ ؛ الخشني : قضاة ص ١٠ ، ٣٥ - ٣٦ ، ٥٠ ، ابن الفرضي ، رقم ٤٥٦ ؛ الحميدي ، رقم ٤٣٩ ؛ القاضي عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الأول ص ٣٤٩ - ٣٥٣ ؛ النباهي : مرقة ، ص ١٢ ، ١٦ ، ١٠٨ ؛ ابن فرحون : ديباج ص ١١٨ ؛ المقرئ : نفح ٣١٩ ، ٣١٦/١ ؛ ٢١٧/٢ ، ٢٥١ - ٢٥٣ ؛ ومن الأبحاث الحديثة لوبث أورتيث : دخول المذهب المالكي ص ٦٢ - ٦٤ ؛ وبجشنا عن التيارات الثقافية المشرقية ص ٦٢ - ٦٣ ، ٦٥ - ٦٦ ، ٩٢ ، ٩٦ ، ٩٩ ، ١٠٠ - ١٢٨ .

هذا وقد أضاف ابن حزم وابن بشكوال إلى ما نعرفه عن بيت بني زياد وأوليتهم إضافات قيمة مهمة . أما ابن حزم (جهرة ص ٤٢٣) فقد ذكر أن زياد بن عبد الرحمن شبطون كان له عقب في قرطمة Cartama وشذونة ورية (مالقة) وأنه كان منهم قاضي الجماعة بقرطبة عامر بن معاوية بن عبد السلام بن زياد (الأكبر) وكان من أهل قرطمة ، وأنه كانت هناك حتى أيام ابن حزم بقية منهم ضخمة . وأما ابن بشكوال فقد ذكر في ترجمة زياد بن عبد الله ابن محمد بن زياد بن أحمد بن زياد شبطون (٣٤٥ - ٩٥٦/٤٣٠ - ١٠٣٩) أن أصل هذا البيت من الشام ، ومنزل زياد بها يعرف برقعة قبر ابراهيم عليه السلام قريب من غزة ، ويقال أيضا ان اسمها حمة . (انظر الترجمة رقم ٤٢٩ ، الجزء الأول ص ١٨٦ ؛ ويلاحظ أن ابن بشكوال يعتمد فيها على ابن حيان نفسه) .

وقد سبق لابن حيان أن أشار إلى اثنين من أعلام هذا البيت : محمد بن زياد شبطون قاضي الجماعة للأمير عبد الرحمن ابن الحكم (انظر تعليقنا رقم ٢٥١) ، وابنه أحمد بن زياد المعروف باسم الحبيب الذي ولي قضاء الجماعة مرتين : مرة أيام الأمير عبد الله بن محمد ، والثانية أيام عبد الرحمن الناصر (انظر تعليقنا رقم ٢٥٢) ، وبقى من ذلك البيت أعلام آخرون تولى الكثيرون منهم مناصب القضاء في الأندلس وتوارثوها حتى القرن الخامس الهجري . وسنورد فيما يلي جدولاً لأنساب من عثرنا على تراجمهم أو عرفنا طرفاً من أخبارهم حتى يسهل تتبع هذا البيت الذي كان له في الأندلس مكانة رفيعة وأثر ثقافي كبير :



(٣١٨) عن المسائل التي خالف فيها يحيى بن يحيى ومالك الأندلس بعهده مذهب الإمام مالك واتبعوا فيها مذهب غيره من الأئمة (وهي أربع أخذوا في ثلاث منها بمذهب الليث بن سعد وفي الرابعة بمذهب الأوزاعي) انظر النباهي : مرقبة ص ٥١ حيث أورد خلاصة لها ، وكذلك النص الجديد الذي نشره لوبث أورتيث ذبلا لكتابه عن دخول المذهب المالكي إلى الأندلس - عن كتاب للفقير أبي اسحاق الغرناطي ، مخطوطة الإسكوريال رقم ١٠٧٧ ورقة ٢٣٤ - ١ ، وراجع بحث لوبث أورتيث لهذه المسائل في ص ١٦٢ - ١٦٩ . وقد أعدنا دراسة هذه المسائل في كتابنا عن التيارات الثقافية الشرقية ص ١٦٣ - ١٦٧ مصححين بعض ما وقع فيه لوبث أورتيث من أخطاء .

أما هذه المسائل الأربع فهي : ترك الحكم بالشاهد الواحد مع اليمين ، ومذهب مالك على جواز الحكم به ، وإنما أوجب الأندلسيون شاهدين ، ثم ترك الحكم بالخلطة ، وإجازة كراه الأرض بجزء مما يخرج منها ، وقد اتبعوا في هذه المسائل الثلاث مذهب الليث بن سعد المصري . أما الرابعة فهي إجازة غرس الشجر في المساجد ، وقد اتبعوا فيها مذهب الإمام الأوزاعي فقيه أهل الشام ، ومذهب مالك يكره ذلك . وقد أصبحت هذه المسائل بما يميز مالكية الأندلس . هل أن هناك مسألتين أخريين ترك يحيى فيهما مذهب مالك وهما اللتان أشار إليهما ابن حبان هنا ، وهما ترك القنوت ، وقد اتبع يحيى في ذلك أيضا مذهب الليث بن سعد إذ أن مالكا لا يرى بأسا به ، غير أن مالكية الأندلس هنا خالفت يحيى في هذه المسألة وجرت على ما كان يقضى به رأى إمام أهل المدينة . (انظر بحثنا المفصل لهذه المسألة في دراستنا عن التيارات الثقافية الشرقية ص ١٦٦ - ١٦٧) . أما المسألة الأخرى فهي ترك بعث الحكيم عند تشاجر الزوجين ، وقد رفضت مالكية الأندلس فيها مذهب يحيى كذلك وثبتت ما جرى به العمل في مذهب الإمام مالك .

(٣١٩) لم يشر ابن حزم في حديثه عن أنساب بني أمية إلى يحيى بن سليمان هذا ، على الرغم من أنه تحدث عن ذرية سليمان بن عبد الرحمن الداخل (جهرة ص ٩٥) ، على أن ابن حزم في كتابه هذا إنما يسجل ذرية من أعقبوا وكان لم خلف باق في عصره ، أما من انقرضت أعقابهم فانه يضرب عنهم صفحا . وقد ذكر ابن حزم في الموضع الذي أشرنا إليه إنه لم يبق من ولد سليمان بن عبد الرحمن في عصره إلا رجلان ينتهي نسبهما إلى إبراهيم بن سليمان بن عبد الرحمن الداخل .

(٣٢٠) سبق أن تحدثنا عن بعض أعلام هذه الأسرة المشهورة التي ظلت تتوارث أعلى خطط الدولة طوال أيام الأمويين ثم ورثت ملكهم في قرطبة بعد انقراض الخلافة الروانية وقيام دول الطوائف حتى زال ملكهم على أيدي بني عباد أصحاب اشيلية ، وذلك في معرض الحديث عن حسن بن عبد الغافر بن أبي عبدة حسان بن مالك (انظر التعليق رقم ١٢٣) . أما الغمر بن يحيى عبد الغافر المذكور هنا والمتوفى سنة ٢٣٥ (٨٤٩ - ٨٥٠) فلم تفدنا المراجع الأخرى بشئ من أخباره ، وإن كان من المتوقع أن يكون قد ولم بعض المناصب الجليلة للأمير عبد الرحمن بن الحكم فقد كان جده وزيراً لعبد الرحمن الداخل وصاحب شرطة لابنه هشام ، ولعل أباه كان من كبار رجال الخدمة أيضا ، وقد أشار ابن حبان من قبل إلى أن عمه حسن بن عبد الغافر كان في عداد وزراء عبد الرحمن الأوسط .

(٣٢١) كذا ورد الاسم ، دون أن يزيدنا ابن حبان تعريفا به ، وربما كان المقصود هنا هو خطاب بن زيد الذي ولى الكتابة لهشام بن عبد الرحمن الداخل (ابن عذاري : بيان ٦١٦/٢) ، هل أننا نستبعد أن يطول عمر خطاب هذا حتى

يدرك أواخر أيام عبد الرحمن الأوسط . وربما كان خطاب المذكور من أسرة بني خطاب المشهورة بتدمير ، وكان أول من دخل الأندلس معهم عبد الجبار بن نذير في طالعة بلج بن بشر القشيري سنة ١٢٣ (٧٤٦) وأصهر إلى تدمير بن غندريس صاحب أوريولة ، واستوطن ابنه خطاب ناحية تدمير ، وكان من ولده خطاب بن محمد بن مروان بن خطاب (انظر العذري جغرافية ص ١٥) ، فلعله هو المذكور هنا .

(٣٢٢) لم نجد ذكراً لهذا الشاعر في المراجع الأخرى ، إلا ما جاء من ورود خبر وفاته في الكامل لابن الأثير (٢٨٥/٥) ، مسمياً إياه « أبا السول الشاعر سعيد بن يعمر بن علي » وهذا الاتفاق الغريب بين مؤرخ مشرق متأخر نسبياً مثل ابن الأثير وابن حيان له دلالة مهمة ، فهو يعنى اطلاع ذلك المؤرخ إما على نسخة من كتاب المقتبس لابن حيان ، أو على كتاب من المراجع التي يعتمد عليها ابن حيان في تاريخه مثل كتاب « الرازي » مثلاً ، ويبدو أن تاريخاً للرازي كان معروفاً متداولاً في المشرق ، وربما كان كتاب « أخبار ملوك الأندلس » الذي اعتمد على مقدمته الجغرافية إلى حد بعيد ياقوت بن عبد الله الرومي في كتابة المواد الخاصة بالأندلس من كتابه « معجم البلدان » .

(٣٢٣) لم تفدنا المراجع الأخرى بشيء عن هؤلاء المذكورين هنا في هذه الفقرة . أما بكر بن الأمير الحكم بن هشام أخو الأمير عبد الرحمن الذي كان قائداً بتدمير وتوفي في سنة ٢٣٥ (٨٤٩ - ٨٥٠) فلم نعث على شيء من أخباره ، بل إن ابن حزم لم يذكره في « الجمهرة » بين من ذكر من أبناء الحكم ، وكانوا على ما يذكر ثمانية عشر ذكراً ، وقد اعتدنا من ابن حزم ألا يذكر إلا أسماء من بقى لهم عقب في عصره ، وقد أشار ابن حزم نفسه إلى أنه لم يبق في أيامه عقب من أبناء الحكم إلا من أمية وعبد العزيز وسعيد الخير والأصمغ (جمهرة ص ٩٧) .

وأما أمية بن سليمان عامل تدمير في السنة المؤرخة فلا نعرف شيئاً عنه ، ويبدو أنه لم يبق طويلاً في منصبه هذا ، إذ أن ابن حيان قد سبق أن ذكر في أخبار سنة ٢٣٦ التالية (٨٥٠ - ٨٥١) أن الأمير عبد الرحمن ولي على تدمير ابنه الحكم بعد أن عزله عن كورة إلبيرة ، ثم لم يلبث في نفس السنة أن عزل الحكم عن تدمير وأعادته إلى كورة إلبيرة . (انظر عن الحكم ابن عبد الرحمن تعليقاتنا السابق رقم ٤١) .

وأما زيدان « الفقى الكبير » الذي يذكر ابن حيان أنه أخرج للنظر في إحصاء تركة بكر بن الحكم أخى الأمير والاحتياط عليها فلم نعرف عنه بدوره شيئاً ، ووصفه بالفقى الكبير يدل على أنه كان من الحصيان ذوى المناصب الكبرى في قصر الخلافة ، ولا بد أنه كان يلى في المرتبة نصراً الخصى أمير الأمير عبد الرحمن وخليفته في قصره ، فقد كان نصر لا يزال حياً بعد .

(٣٢٤) أشرنا في حاشية هذا الموضع إلى أن الناسخ كان في شك من الاسم متردداً بين « مروان بن عبد الملك » و « مروان بن عبد الله الزجاجي » ولا تميزنا المراجع الأخرى على إجلاله للغموض والاضطراب في الاسم ، كما أننا لا نعرف على وجه التحديد مدى قرابة مروان هذا لمحمد بن سعيد الزجاجي رأس أسرة الزجاجيين وباني شرف بيتهم . وقد ذكرنا في تلك الحاشية ما يفهم منه أنه ربما كان حفيداً لمحمد بن سعيد ، غير أنه من المستبعد أن يتوفى الزجاجي المعروف سنة ٢٢٨ أو ٢٣٢ ثم لا يطلو عمر حفيد له إلا مدة تراوح بين ثلاث سنوات وسبع .

(٣٢٥) لم نذكر لعبد الله بن محمد بن جابر هذا المتوفى سنة ٢٣٥ (٨٤٩ - ٨٥٠) في غير هذا الموضع من كتاب المقتبس ، ولم يورد ابن حيان نفسه مزيداً من أخباره . على أننا نعرف من الشخصيات المعروفة في أول أيام عبد الرحمن ابن الحكم من تدعوه المراجع « جابر بن مالك بن لبيد » الذي كان عاملاً على تدمير ثم أمره الأمير عبد الرحمن في سنة ٢١٠ (٨٢٥ - ٨٢٦) ببناء مدينة مرسية واتخاذها مقراً للولاية وقاعدة للعمال ، فجابر بن مالك المذكور هو الذي بنى مرسية وجعلها حاضرة كورة تدمير (انظر العذري : جغرافية ص ٦ ؛ ابن سعيد : مغرب ٤٨/١ ؛ ابن عبد المنعم الحميري : الروض المعطار ص ١٨١ ؛ ابن عذاري : بيان ٨٢/٢ - حيث يرد نفس الخبر غير أن ابن عذاري لم يذكر إلا « عامل تدمير » دون أن ينص على اسم جابر بن مالك) . ويبدو لنا أن عبد الله بن محمد بن جابر المذكور في وفيات سنة ٢٣٥ ربما كان من سلالة جابر بن مالك بن لبيد باني مرسية وأول عامل عليها .

(٣٢٦) لم تفقدنا المراجع الأخرى بشيء عن هذا الأموي المعتزلي إلى بيت الإمارة في الأندلس . أما أبوه هشام بن الحكم الرضبي فقد أفادنا عنه ابن حزم بنحبر قصير يقول فيه إنه كان أكبر أبناء الأمير الحكم ، ثم بلغ أباه أنه كان يتمنى موته ليل الأمر بعمده مكانه ، فحلف ألا يليه أبداً وقدم عليه أخويه عبد الرحمن والمغيرة . (جمهرة ص ٩٨) .

(٣٢٧) في ترجمة سعيد بن حسان القرطبي المتوفى سنة ٢٣٦ (٨٥١) انظر ابن الفرضي ، رقم ٤٧٠ ، الحميدي : رقم ٤٦٨ ؛ الخشني : قضاة ص ٨٢ - ٨٣ ، ٨٧ ؛ ابن القوطية ص ٣٥ ؛ الضبي : بغية ، رقم ٧٩٦ ؛ القاضي عياض ترتيب المدارك ، المجلد الثاني ص ٢١ - ٢٢ ؛ ومن الدراسات الحديثة لوبث أورتيث : دخول المذهب المالكي ص ٨١ - ٨٢ ؛ وكتابنا عن التيارات الثقافية الشرقية ص ١٣٨ .

وقد سبق أن ذكرنا في حواشي النص تعليقا على ما ذكره ابن الفرضي مرجع ابن حيان في هذه الترجمة من أن سعيد بن حسان رحل إلى المشرق سنة ١٧٧ أننا نرجح أن هناك خطأ وقع في التاريخ وأن الصواب فيما نعتقد هو « سنة ١٩٧ » ، هذا وإن كان نسا ابن حيان والقاضي عياض في ترتيب المدارك يتفقان مع ما يذكره ابن الفرضي ، ولذلك سببه الواضح وهو أن كليهما يعتمد على ترجمة سعيد بن حسان عند ابن الفرضي ، فتبعا خطئهما تقع عليه . والرأي الذي نذهب إليه في تحديد التاريخ هو الذي يثبتته كل من الحميدي في الجذوة والضبي في بغية ، وهو الذي يتفق مع المنطق والمقابلة التاريخية ، فلو أن سعيد بن حسان رحل إلى المشرق في سنة ١٧٧ (٧٩٣ - ٧٩٤) لأدرك في مصر فقيهيهما الكبيرين عبد الرحمن بن القاسم (ت ٨٠٦/١٩١) وعبد الله بن وهب (ت ٨١٢/١٩٧) ، بل لأدرك في المدينة مالك بن أنس نفسه (ت ٧٩٥/١٧٩) ، وما كان سعيد بن حسان ليترك الأخذ عن هؤلاء الأئمة ، بينما يتفق المترجمون له على أنه لم يسمع بمصر إلا من عبد الله بن عبد الحكم وأشهب بن عبد العزيز ، وبالمدينة من عبد الله بن نافع . وهذا يدل على أنه رحل بعد وفاة مالك والطبقة الأولى من أصحابه المصريين والمدنيين ، ويحملنا على أن نأخذ بالتاريخ الذي أورده الحميدي وهو سنة ١٩٧ ، وما أكثر ما تختلط كلمتا « سبغ » و « تسع » على نساخ المخطوطات العربية .

(٣٢٨) سبق أن أشرنا في تعليقنا رقم ٢٧٤ إلى أن هناك اثنين من أصحاب الإمام مالك بن أنس يعرفان باسم عبد الله ابن نافع : الأول أو الأكبر مولى بني مخزوم الذي اشتهر بلقب الصائغ المتوفى سنة ١٨٦ (٨٠٢) والثاني أو الأصغر الزبيرى

القرشي المتوفى سنة ٢١٦ (٨٣١) . وقد ذكرنا في الحاشية السابقة أن التاريخ الصحيح لرحلة سعيد بن حسان إلى المشرق هو سنة ١٩٧ (٨١٢) كما ذكر الحميدى لسنة ١٧٧ (٧٩٣ - ٧٩٤) كما جاء في كتاب ابن الفرضي . وما دام الأمر كذلك فلا بد أن عبد الله ابن نافع المقصود هنا هو الأصغر المتوفى سنة ٢١٦ (٨٣١) . وهو من ذرية الصحابي المعروف الزبير بن العوام (رضى الله عنه) ، ومن هنا عرف بنسبته : « الزبيرى » ، وأبوه نافع بن ثابت الذى كان من أكثر أهل زمانه إقبالا على العبادة . وسمع عبد الله من مالك بن أنس وغيره من شيوخ عصره ، وروى عنه الزبير بن بكار ويعقوب بن شيبة وكثير من المحدثين والفقهاء من البصرة والعراق وما وراءهما . أما من الأندلس فيذكر من تلاميذه يحيى بن يحيى الليثى وعبد الملك ابن حبيب فضلا عن سعيد بن حسان المذكور هنا ، ووثقه يحيى بن معين والبخارى والبزار ، وخرج عنه مسلم . وتوفى سنة ٢١٦ هـ عن سبعين سنة . انظر ترجمته في القاضى عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الأول ص ٣٦٥ - ٣٦٦ ؛ ابن فرحون : ديباج ص ١٣١ .

(٣٢٩) أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم بن أعين مولى امرأة من موالى عثمان بن عفان ، أبوه عبد الحكم رأس أسرة مشهورة توارثت العلم والجاه والثروة في مصر ولد سنة ١٥٥ هـ ٧٧٢ م وسمع من الليث بن سعد وعبد الله بن لبيعة ومن مالك ابن أنس وسفيان بن عيينة وغيرهم ، ثم تفقه على الطبقة التالية من أصحاب مالك المصريين مثل ابن القاسم وابن وهب ، وأكثر في الأخذ عن أشهب وأفضت إليه رياسة مالكية مصر بعد وفاته سنة ٢٠٤ هـ (٨١٩ - ٨٢٠) وكان صديقا للشافعي وعليه نزل حينما قدم مصر فأكرم مثواه وبالغ في بره . وله تواليف كثيرة منها المختصر الأصغر في شرح الموطأ ، والمختصر الأوسط في شرح كتب أشهب ، وهو الذى رواه سعيد بن حسان في الأندلس ، وشرحه أبو بكر الأبهري وكان له ذبوع كبير بين مالكية الأندلس . وكانت وفاته سنة ٢١٤ هـ (٨٢٩) . (انظر في ترجمته : القاضى عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الأول ص ٥٢٣ - ٥٢٨ ؛ ابن فرحون : ديباج ص ١٣٤) . هو والد محمد الفقيه المشهور الذى رأس مالكية مصر أيضا ، وعبد الرحمن المؤرخ صاحب كتاب « فتوح مصر » .

(٣٣٠) ذكره ابن حزم في الجمهرة (ص ٩٧) فيمن ذكر من أبناء الحكم بن هشام الربضى ، وقال إن جملة من ذريته من أبناء جعفر بن جعفر بن سعيد الخير المذكور كانوا بدائية ثم انقرضوا في أيام ابن حزم . كذلك ترجم الحميدى لشاعر من نسل سعيد الخير بن الحكم هو أحمد بن هشام بن عبد العزيز بن محمد بن سعيد الخير (جذوة رقم ٢٥٤) ، ونقل قطعة من شعره في وصف النرجس عن أبي الوليد الحميرى في كتابه « البديع في وصف الربيع » . وسيتحدث ابن حيان بعد صفحات عن سعيد الخير هذا ومدى تعلق أخيه الأمير عبد الرحمن به وإصفائه مودته ، على أن ابن حيان قد ناقض نفسه إذ يذكر هنا وفاته في سنة ٢٣٦ هـ (٨٥٠ - ٨٥١) بينما سراه بعد ذلك يقول إن حياته قد طالت إلى أن توفى في أيام الأمير محمد صدر ربيع الآخر سنة ٢٤٠ هـ (سبتمبر ٨٥٤) . ولا بد أن ابن حيان قد رجع في الموضوعين إلى مؤرخين مختلفين .

(٣٣١) هو بغير شك من أفراد أسرة بنى أبي عبدة المشهورة التي سبق أن تحدثنا عنها (انظر التعليق رقم ١٢٣) . أما حمدون بن حيون بن أبي عبدة (ولا بد أن هناك أسماء بين أبيه وجده الأكبر مؤسس الأسرة) فإن ابن حيان في « المقتبس »

(نشر أنطونيا ص ٦) ذكر من بين وزراء الأمير عبد الله بن محمد من يسميه عبد الرحمن بن حمدون بن أبي عبدة المعروف يدحيم ، ولعله ابن لحمدون المشار إليه هنا .

(٣٣٢) في ترجمة قاسم بن هلال القيسي انظر ابن الفرضي ، رقم ١٠٤٦ ؛ الحميدى ، رقم ٧٧٧ ؛ الخشني : قضاة ص ٦٢ (حيث يقص عنه محمد بن وضاح خبراً يدل على أنه كان يحضر مجلس شورى . قاضى الجماعة محمد بن بشير وكان إذ ذاك أحدث الجماعة سناً) ؛ القاضي عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الثاني ص ٢٧ ؛ الصبي : بغية ، رقم ١٠٣٨ ؛ وأنظر كذلك لوبث أورتيث : دخول المذهب المسالكى ص ٨٠ .

(٣٣٣) كانت وفاة زرياب على هذا التقدير يوم ٢٢ صفر سنة ٨٢٣٨ الموافق ١٤ أغسطس سنة ٨٥٢ ، وذلك لأن الأمير عبد الرحمن توفى يوم ٣ ربيع من هذه السنة ، وهو يقابل ٢٢ سبتمبر ٨٥٢ .

(٣٣٤) في ترجمة هارون بن سالم انظر ابن الفرضي ، رقم ١٥٢٨ ؛ الحميدى : جذوة رقم ٨٥٩ ؛ الصبي : بغية ، رقم ١٤١٧ ؛ القاضي عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الثاني ص ٤٨ - ٤٩ ؛ وأنظر كذلك لوبث أورتيث : دخول المذهب المسالكى ص ١٤٤ - ١٤٥ .

(٣٣٥) اتفق ابن الفرضي والقاضي عياض (وهو يضيف إلى ما قاله ابن الفرضي إضافات لها قيمتها في ترجمة هارون ابن سالم مما نقله عن ابن أبي دليم) على أن هارون المترجم له لقي أشهب بن عبد العزيز وروى عنه . ونقل ابن حيان ذلك كما وقع له عن ابن الفرضي . ولسنا ندرى كيف لم يتنبه ابن حيان إلى حقيقة تنقض هذا الزعم : وهى أن كل من ترجموا لهارون بن سالم أجمعوا على أنه توفى «حدثاً» في الأربعين من عمره ، فإذا كانت وفاته في سنة ٢٣٨ ، فلا بد أنه ولد سنة ١٩٨ هـ (٨١٣ - ٨١٤) ، ونحن نعلم أن أشهب بن عبد العزيز توفى سنة ٢٠٤ (٨١٩ - ٨٢٠) ، فهل رحل هارون بن سالم وروى عن الفقيه المصرى الكبير وهو لم يتجاوز ست سنوات ؟ وهذا في الحقيقة مثل على كثير من البعد عن الدقة والتثبت مما يقع في كتب التراجم التى يتناقل مؤلفوها الخبر بعضهم عن بعض دون أن يكلف واحد منهم نفسه مشونة مقابله على المنطق السليم أو الحقائق التاريخية البسيطة .

(٣٣٦) لم نستطع أن نعرف عن على بن معبد المذكور إلا أن اسمه على بن معبد بن شداد العميدى المصرى ، وأن القاضى عياض عده ممن روى عن الإمام مالك بن أنس وتلمذ عليه (ترتيب المدارك ، المجلد الأول ص ٢٧٢) ولكنه لم يفرد له ترجمة خاصة

(٣٣٧) عن أحمد بن مجالد انظر تعليقنا السابق رقم ٢١٦ .

(٣٣٨) سبق أن علمنا على اسم المنذر المذكور (انظر رقم ٨٦) .

(٣٣٩) ما بقى من هذا النص يبدو مما نقله ابن حيان عن أحد المؤرخين السابقين له ، فنحن نلاحظ أن هذا الأسلوب المسجوع المتكلف يختلف عن أسلوب ابن حيان الواضح الجزل ، ثم إن النزعة العصبية المتحاملة على عبد الرحمن بن الحكم أبعد

ما تكون عن الروح التي تسود كتابات ابن حيان الذي لم يكن يخفى إعجابه بأمرأه بنى أمية وتقديره لهم حتى بعد زوال دولتهم وانقراضها على أيامه . ونكاد نقطع بأن هذا النص إنما هو ما بقى من فقرات كتبها المؤرخ الشاعر أبو بكر عبادة بن ماء السماء الذي سينقل عنه ابن حيان بعد قليل ، فهو الذي تشتم من كتاباته رائحة انتشيع كما نبه على ذلك من ترجعوا له والتعصب على بنى أمية كما سيقول ابن حيان نفسه فيما بعد ، ثم أنه هو صاحب الأسلوب المسجع المنمق كما نرى من بعض الفقرات التي نقلها ابن حيان عنه في هذه القطعة نفسها في المقتبس وفي أجزاء أخرى من نفس هذا الكتاب (قارن النص الوارد هنا بالنص الذي احتفظ ابن حيان به من كلامه في القطعة التي نشرها ملتشور أنطونيا من المقتبس ص ١٠٥) .

(٣٤٠) وردت هذه القصة أيضا في « أخبار مجموعة » ص ١٣٦ ؛ ابن سعيد : مغرب ٤٦/١ ؛ ابن عذارى : بيان ٩٢/٢ .

(٣٤١) كان لفظ الستارة يطلق على المكان الذي تستر فيه الجوارى والقيان في قصور الأمراء والوجهاء ، واستخدم اللفظ بعد ذلك للدلالة على هؤلاء القيان المغنيات أنفسهن كما نرى في الاستعمالات التي أوردها راينهاردت دوزي في ملحق القواميس العربية (٦٣٢/١) ، ولكننا نرى اللفظ هنا مستخدما للدلالة على المكان المنسوب لقضاء حفلة سمر أو مجلس طرب وغناء .

(٣٤٢) يدل استخدام لفظ « الجائزة » هنا على أن المقصود بها هو لوحة طويلة من الخشب ، وقد رأينا في وصف المسجد الجامع بأقليش Uclés في كتاب ابن عبد المنعم الحميري هذا النص : « ومن العجائب البلاط الأوسط من مسجد جامع أقليش ، فإن طول كل جائزة من جوائزها مائة شبر وأحد عشر شبرا ، وهي مربعة منحوتة مستوية الأطراف » (الروض المعطار ص ٢٨ ؛ ونقل المقرئ هذا النص في نفع الطيب ٢١٣/١) . ولكن الاستعمال هنا يدل على أن اللفظ ينصرف إلى يشبه أن يكون سارية أو عموداً عالياً من الحجر أو الرخام . على أن الغريب هنا في نص ابن حيان أن نجد « جائزة » مجموعة على « جيزان » فهو جمع هيرمألوف . والصيغة التي جاءت في كلام ابن عبد المنعم الحميري وفي نفع الطيب هي « الجوائز » هي الأرب إلى الشائع المتعارف .

(٣٤٣) سبق أن أشرنا في التعليق رقم ٣٣٠ إلى تناقض ابن حيان ، إذ أورد اسم سعيد الخير بن الحكم بين من توفوا في سنة ٢٣٦ هـ (٨٥٠ - ٨٥١) ، بينما يذكر هنا أن حياته امتدت إلى أن أدرك أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن وتوفي في أول عهده سنة ٢٤٠ هـ (٨٥٤) ، وما يذكره ابن حيان والدقة في تحديد تاريخ الوفاة ثم وصف احتفال الأمير محمد في دفنه كل ذلك يدل على أن هذا التاريخ الثاني هو الأقرب إلى الصواب والمعقول .

(٣٤٤) أشار إلى هذه المجاعة ابن عذارى في البيان المغرب (٨١/٢) في أخبار سنة ٢٠٧ هـ (٨٢٢ - ٨٢٣) إذ قال : « وفيها كان بالأندلس جوع شديد مات به كثير من الخلق » . وقد أورد ابن دحية قصة عن الشاعر يحيى بن الحكم الغزالي تؤكد لنا خبر هذه المجاعة التي حدثت في أول أيام الأمير عبد الرحمن بن الحكم (أنظر المطرب ص ١٣٦) .

(٣٤٥) أبو بكر عبادة بن عبد الله بن محمد بن عبادة المعروف بابن ماء السماء ، وينتهي نسبه إلى قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري الخزرجي . وقد ذكر ابن حزم أنه كان عقب بالأندلس لسعد بن عبادة في ناحيتين : في قربلان وهي قرية من عمل مرسقطة ، وفي شذونة (انظر الجهمرة ص ٣٦٥ - ٣٦٦) ويبدو أن عبادة بن ماء السماء ينحدر من سلالة الفرع الأخير الذي استقر في شذونة وإن كان ابن حزم لم يشر إلى اتصال نسب عبادة بهم . وكان شاعراً وشاحاً مشهوراً ، وأشاد به ابن بسام وعده من أكبر من جددوا صناعة التوشيح وأدخلوا عليها تغييرات مهمة . وعاش خلال النصف الثاني من القرن الرابع الهجري وأوائل الخامس ، واتصل ببني جهور ملوك قرطبة بعد انهيار الخلافة المروانية ، ثم اختص ببني حمود العلويين وتوجه إليهم بمدائحهم وامت إليهم بصلة جده قيس بن سعد بن عبادة بجدهم علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - إذ كان والياً له على مصر ولهذا فقد اصطبغ شعره بالتشيع والتعصب على بني أمية . ولعبادة كتاب في أخبار شعراء الأندلس أثنى عليه ابن حزم وقال إنه كتاب حسن ، ويبدو أنه هو الذي ينقل عنه ابن حيان في مواضع عديدة من كتاب «المقتبس» سواء في هذه القطعة أو في غيرها من القطع المنشورة . وكانت وفاة عبادة بمالقة في سنة ٤١٩ هـ (١٠٢٨) كما يقول ابن حيان وابن شهيد أو في سنة ٤٢١ هـ (١٠٣٠) كما يقول ابن حزم ويوافقه على ذلك ابن بسام . انظر في ترجمة عبادة وأخباره ابن بشكوال : صلة ، رقم ٩٦٦ الحميدي ، رقم ٦٦٢ ؛ الضبي ، رقم ١١٢٣ ؛ ابن خاقان : مطمح ص ٩٥ ؛ الحميري : البديع في وصف الربيع ص ١٦ - ١٧ ، ١١١ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ؛ ابن بسام : ذخيرة ، القسم الأول ١/٢ - ١٢ ابن سعيد : المغرب ١/١١٥ ، ١٢٥ ، ١٧١ ، ١٦٨/٥ ، ١٦٦/٤ ؛ نفح الطيب ٤/١٦٨ ؛ وقد اختار ابن السكتاني الطيب من شعره مجموعة كبيرة في كتاب «التشبيهات» (انظر ص ٣٠٩ - ٣١٠) وانظر كذلك المقتبس لابن حيان ، نشر ملتشور أنطونيا ، ص ٣٠ ، ٣٥ ، ٦١ ، ٦٢ ، ١٠٥ (حيث ينقل عنه أخباراً ومنتخبات شعرية متعلقة بسعيد بن جودي والأمير عبد الله بن محمد وحديثاً مفصلاً عن الفتنة بين العرب والمولدين في إقليم البيرة) . ومن الأبحاث الحديثة راجع بونس بويجس : الجغرافيون والمؤرخون الأندلسيون ص ١١٠ - ١١١ (حيث تحدث عنه بصفته مؤرخاً) ؛ نيكل : الشعر الأندلسي ص ١٠٥ ، ٣٨٧ (حيث تحدث عنه بصفته شاعراً وشاحاً) ؛ وبجنا عن «التشيع في الأندلس» في صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، المجلد الثاني ، سنة ١٩٥٤ ص ١٤١ - ١٤٢ .

هذا وينبغي ألا يخلط بين هذا الشاعر وشاعر آخر كثيراً ما يشتبه اسمه به وهو محمد بن عبادة القزاز الذي كان من شعراء الطوائف أيضاً ومن أسهموا في صناعة التوشيح ، وكان من شعراء المعتصم بن صمادح ملك المرية وهو متأخر قليلاً عن ابن ماء السماء .

(٣٤٦) حبيب بن عبد الملك الداخل إلى الأندلس ، وبقيّة نسبه كما ذكر ابن حيان في النص ، دخل الأندلس في أيام عبد الرحمن بن معاوية الداخل فيمن دخل من فلول بني أمية عند استقرار الأمر لعبد الرحمن . وكانت له من مجدد الدولة المروانية مكلنة وحظوة ، فولاه عبد الرحمن طليطلة وأعمالها ، وروى له شعر يحرص فيه الداخل على أبي الصباح اليحصبي قائد اليمينية عند ثورته على عبد الرحمن . وكان من يشاورهم هذا الأمير ويشركهم في مهام الحكم ، وتوفي في أيامه أي قبل سنة ١٧٢ (٧٨٨) فحزن عليه حزناً شديداً . وحبيب هذا هو جد الحبيبين الذين كان لهم عدد وجاه وثروة في قرطبة وره

(مالقة) . انظر في ترجمته ونسبه وأخباره ابن حزم جهمرة ، ص ٨٩ - ٩٠ ؛ ابن الأبار : حلة ٥٩/١ - ٦٠ ؛ ابن سعيد : المغرب ٦٢/١ .

(٣٤٧) أبو سليمان حبيب بن الوليد بن حبيب القرطبي المعروف بدحون ، حفيد المتقدم ذكره في الحاشية السابقة . وقد نقل ابن الأبار ترجمته المذكورة هنا عن ابن حيان ، وأضاف إليها أنه توفي بعد سنة ٨٢٠ (٨١٥-٨١٦) بمدة في قرية له من أعمال قبرة *cabra* (انظر التكلة ، رقم ٨٦ ؛ وكذلك المقرئ : نفع ٢٥٨/٣ - ٢٥٩) . وقد ذكر ابن سعيد أن بني دحون كانوا أعيان بلسكونة *porcuna* (من أعمال قرطبة) وأنهم رأسوا بها (مغرب ٦٢/١) . وقد جمع المقرئ في النفع (الموضع الذي أسلفنا الإشارة إليه) كل ما كتبه المؤرخون السابقون عن دحون ، بما فيها معظم ما أورده ابن حيان عنه ، وترجم كذلك لابنه بشر ، وأورد قطعة من شعره .

وفضلا عن سيشير إليهم ابن حيان من أفراد بيت دحون الحبيبي هذا فإننا نعرف منهم كذلك اثنين لم نستطع أن نحقق اتصال نسبهما به وإن كنا نعرف أنهما من نسله : أما الأول فهو أبو محمد عبد الله بن يحيى بن أحمد بن دحون الفقيه القرطبي الذي توفي سنة ٨٤٣١ (١٠٣٩) . (انظر ترجمته في ابن بشكوال : صلة ، رقم ٥٨٩ ؛ القاضى عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الثاني ص ٧٢٩ - ٧٣٠) ؛ وأما الثاني فهو سعيد بن هشام المعروف بابن دحون ، من أهل بلسكونة موطن آبائه ، وكان أديبا عالما فقيها ، عاش في أيام المرابطين ، وأخبر الحجارى أنه لما دخل بلسكونة سأل عمه بها عن يتسم بالأدب وقول الشعر فدل عليه فوجده في قرية من قرأها في زى الفلاحين فتأنس به ، وروى بعض شعره ، ومنه قطعة في مدح قاضى قرطبة أبي عبد الله بن حمدان (انظر المقرئ : نفع ٢٥٩/٣ ؛ ابن سعيد : مغرب ٢٢٢/١ - ٢٢٣) .

وسنورد فيما يلي جدولاً لأنساب من عثرنا على تراجمهم أو بعض أخبارهم من أبناء حبيب بن عبد الملك بن عمر بن الخليفة الوليد بن عبد الملك جد هذا البيت المعروف بالحبيبيين وقرابتهم واعتمدنا فيه على جهمرة الأنساب لابن حزم (ص ٨٩ - ٩٠) وكتب التراجم الأخرى ، وعلى دراسة الأستاذ إلياس تيريس سادابا التي أشرنا إليها من قبل عن الأنساب العربية في الأندلس

ص ١٤ :

(٣٤٨) ذكرنا في حاشية هذا الموضع أن المقرئ أثبت هذه الكلمة « الشامى » لا « الهشامى » كما جاء في نص ابن حيان ، وقد آثرنا قراءة مؤرخنا وإن كنا لانعرف ما هية هذا « الوشى الهشامى » الذى كان يلبسه الشريف دحون حينما كان يتحلق في المسجد الجامع بقرطبة لإسماع الحدِيث النبوى الشريف ، ولا إلى أى هشام ينسب هذا الوشى ، ومع ذلك فن الواضح أن ابن حيان يعنى نوعاً فاخراً من اللباس ، وقد أكد صحة قراءتنا للوشى الهشامى لا الشامى كما ذكر المقرئ بيتاً للشاعر مؤمن بن سعيد من قصيدة قالها في وصف منية كنتش التى تأنق في بناؤها الأمير محمد بن عبد الرحمن وما كان فيها من مبالى فخمة (وسترد للقصيدة كلها في المجلد الثانى من هذه القطعة من كتاب المقتبس) :

ولابسة وشيا كأن رقيقة رقيق الهشامى العتيق المنضمد

(وقد أورد ابن السكتانى قطعة من القصيدة المذكورة وفيها هذا البيت في كتاب « التشبيهات من أشعار أهل الأندلس » بتحقيق الدكتور إحسان عباس ص ٦٦) ، وبيت مؤمن بن سعيد يؤكد ما ذكرنا من أن هذا « الهشامى » كان نوعاً فاخراً من الثياب المرشاة يضرب المثل برقته وجودته .

(٣٤٩) أبو عبد الحميد إسحاق بن سلمة القينى من أهل رية (مالقة) مؤرخ عالم أخبارى ، سمع من القرشى الحبيبي (أخذ بن عبد الله بن محمد بن مبارك ، من سلالة حبيب بن عبد الملك الذى ترجعنا له من قبل ، انظر رقم ٣٤٦) والمحدث وهب بن مسرة الحجارى ، وكان حافظاً لأخبار الأندلس معنياً بها ، وجمع كتاباً في أجزاء كثيرة في أخبار رية وحصونها وحروبها وفتاها وشعرائها ، وأثنى ابن حزم كثيراً على هذا الكتاب في رسالته في فضل الأندلس ، ويقول ابن الفرضى إنه جمع كتاباً في أخبار الأندلس أمره بجمعه الحكم المستنصر ، ولستنا نعرف ما إذا كان هذا هو نفس الكتاب الذى يشير إليه ابن حزم أو هو شئ غيره . وأما نسبه « القينى » فإنها ترجع إلى بطن من بطون قضاة ينتمون إلى القين وهو النعمان بن جسر القضاى ، ونص ابن حزم على أن دار بنى قين بالأندلس رية (مالقة) فمنهم بها عدد عظيم (جهرة ص ٤٥٤) ؛ وانظر في ترجمته ابن الفرضى ، رقم ٢٣٦ ؛ الحميدى ، رقم ٣٠٩ ؛ المقرئ : نفع ١٦٦/٤ ؛ وانظر كذلك بونس بويجس : الجغرافيون والمؤرخون الأندلسيون ص ١٠٠ .

(٣٥٠) ترجم ابن الأيبار لعبد هذه فقال أنها كانت تروى عن أبيها بشر بن دحون أسماره وأخباره وذكر أنه نقل خبرها عن ابن حيان عن إسحاق القينى (في الأصل المطبوع : القيشى ، وهو خطأ) . انظر التكملة ، بتحقيق الأركون وبالنيثا رقم ٢٨٥٩ ؛ والمقرئ : نفع ٢٦٠/٣ .

(٣٥١) ذكر ابن حزم بشر بن دحون هذا ، فقال إنه كان شاعراً (جهرة ص ٩٠) ، وترجم له ابن سعيد وقال إن الأمير عبد الرحمن بن الحكم سجنه ، ثم تشفع فيه ، فأطلق سراحه ، ورحل بشر إلى المشرق وحج وروى الحديث ، وعاد إلى الأندلس في صفة أخرى (المغرب ١/٦٢) ، ونقل ابن سعيد عن ابن الإمام صاحب سقط الجمان أن بشراً هذا كان من أهل الفروسية والأخلاق السلوكية والأدب ، ثم روى بعض شعره .

(٣٥٢) كان عمر بن فرج الرعيى حاملاً للمحتصم ثم للمتوكل الخليفةين العباسيين على الشام (انظر ابن الأثير : كامل ٢٨٠/٥) .

(٣٥٣) أبو القاسم أحمد بن عبد الله بن محمد بن مبارك بن حبيب بن عبد الملك المرواني المعروف بالخبزي القرطبي ، محدث معروف سمع من بق بن مخلد ومحمد بن وضاح وعبيد الله بن يحيى بن يحيى ، وكان يميل إلى الأخبار والأدب ، وتوفي سنة ٣٣٣هـ (٩٤٤ - ٩٤٥) . انظر في ترجمته ابن الفرضي ، رقم ١٠٤ ؛ الحميدي ، رقم ٢٢٠ .

(٣٥٤) أغلب الظن أنه محمد بن يزيد بن مسلمة بن عبد الملك ، وجده هو القائد الأموي المشهور مسلمة بن عبد الملك ابن مروان الذي كان واليا على العراقين وأرمينية ، وقد أشار ابن حزم في الجمهرة إلى يزيد فيمن أشار إليهم من ولد مسلمة ، ولكنه لم يذكر شيئا عن محمد المذكور (جمهرة ص ١٠٣) .

(٣٥٥) ترجم ابن الأبار لعابدة المدينة هذه ترجمة اعتمد فيها على ما يذكره ابن حيان من هنا خبرها (انظر التكملة ، بتحقيق ألكون وبالنشيا ، رقم ٢٨٥٠) ، وقد نقل المقرئ هذه الترجمة كما هي (نفع الطيب ٤ / ١٣٦) .

(٣٥٦) أورد ابن حزم في الجمهرة (ص ٩٠) اسم داود بن من ذكرهم من ولد سليمان بن عبد الملك بن مروان ، ولكنه لم يشر إلى بكار بن عبد الواحد حفيده ولا إلى ابن أخيه مسلمة بن عبد الملك ، على الرغم من أنه تحدث عن بعض من دخل الأندلس من ذرية سليمان بن عبد الملك ، وربما كان السبب في ذلك هو أن نسل هذين كان قد انقرض في أيامه ، وسوف ينص ابن حيان نفسه بعد ذلك عند الكلام عن سلمة بن عبد الواحد الداخل إلى الأندلس سنة ٢٣٦هـ (٨٥٠ - ٨٥١) على أن عقبه قد انقرض فعلا في أيامه .

(٣٥٧) الذي جاء في جمهرة الأنساب لابن حزم (ص ١٠٤) يختلف بعض الشيء عما ورد هنا ، فقد ذكر ابن حزم أنه دخل الأندلس ولد الأصيب والوليد وهشام بن محمد بن سعيد [الخبير] بن عبد الملك بن مروان (ولم يحدد ابن حزم تاريخ دخوله) ، وكان الأصيب المذكور على أخت عبد الرحمن بن معاوية الداخل وكان لولده رئاسة بالأندلس ، وكذلك كان لولد الوليد أخيه وهم المعروفون ببني عائشة . وأما بنو هشام فسكنوا إشبيلية . ولا بد أن ابن حزم يشير بكلامه هنا عن بني هشام الذين استقروا بإشبيلية إلى أبناء الأصيب بن محمد بن هشام الذي يذكر ابن حيان هنا أنه وفد إلى الأندلس على الأمير عبد الرحمن بن الحكم وكان جد هذا البطن الأموي المعروف ببني السعدي بإشبيلية .

(٣٥٨) لم نجد فيما بين أيدينا من المراجع ترجمة لطاهر بن حزم الشاعر المذكور ، على أن ابن حيان سيورد في ثنايا هذا الكتاب جملة من شعره تشهد بتقدمه في هذا المضمار على عهد عبد الرحمن بن الحكم وابنه محمد . كذلك أورد ابن الكتاني الطيب قطعة من شعر طاهر بن حزم في كتاب « التشبيهات من أشعار أهل الأندلس » رقم ٢١٩ ، ص ١١٧ . وللدكتور إحسان عباس في تعليقاته على هذا الكتاب تحقيق طيب لأسم هذا الشاعر وشخصيته (انظر ص ٣٠٨) ، وقد رجح الدكتور إحسان فيه أن يكون هو الذي سباه الزبيدي طاهراً دون أن يكل اسمه ولا نسبه وقال إنه كان بصيراً بالنحو والشعر والعروض وكان يؤدب بني هاشم وبني حدير (طبقات النحويين واللغويين ص ٣١٧) . وليس لنا اعتراض على هذا الفرض إلا كون الزبيدي قد جعل طاهراً المذكور في آخر الطبقة الخامسة من نحاة الأندلس ولغويها ، ومعظم من ترجم لهم من هذه الطبقة

كانوا ممن أدركتهم الوفاة في أوائل القرن الرابع الهجري ، بينما تدل القطع التي احتفظ لنا بها ابن حيان من شعر طاهر بن حزم على أنه كان مشهوراً بالشعر والأدب على عهد عبد الرحمن بن الحكم والأمير محمد أي خلال النصف الأول من القرن الثالث الهجري ، وقد كان حق الزبيدي - لو أنه كان يعني بترجمته طاهر بن حزم هذا - أن يجعله في الطبقة الثانية أو الثالثة على الأكثر .

(٣٥٩) أبو محمد عبد الله بن بكر بعد سابق الكلاعي أو البكري المعروف بالنذل ، لقب لقبه به قريعة مؤمن بن سعيد الشاعر في بعض أهاجيه له . كان مؤدباً بالنحو عالماً باللغة مبرزاً في الشعر ، وأدب أولاد الأمير عبدالرحمن بن الحكم ، ولنا نعرف تاريخ وفاته ولو أن الأرجح هو أنه توفي في أيام الأمير محمد . « انظر ترجمته وبعض شعره في ابن سعيد : مغرب ١١٣/١ - ١١٤ » . ولابد أنه هو نفس الشاعر الذي ترجم له ابن الأبار في التكملة (رقم ١٢٤٠) مسمياً إياه عبد الله بن بكر الكلاعي القرطبي الذي « يعرف بالقملة بالمعجمة » وقال إنه كان شاعراً محسناً مطبوعاً ، رأى الفقيه يحيى بن يحيى (المتوفى سنة ٨٢٣٤/٨٤٨) ، وقرأ ابن الأبار ذلك بخط أبي عمر بن عبد البر ، ثم ذكر أن ابن الفرضي ترجمه له في تاريخه (انظر رقم ٢٨٦) مسمياً إياه بكر بن عبد الله الكلاعي القرطبي وقال : إنه سمع من يحيى بن يحيى وغيره وكان مؤدباً لأولاد الخلفاء في النحو والشعر وإن ابنه محمد بن بكر روى عنه كثيراً ، وعلق ابن الأبار على ذلك بأنه وهم من ابن الفرضي . أما الزبيدي فقد وافق ابن الفرضي في تسميته « بكر بن عبد الله الكلاعي » ولكنه أضاف إلى ذلك لقبه الوارد عند ابن الأبار : « ابن القملة » (طبقات ص ٢٨٨ ، ونقل السيوطي عنه هذه الترجمة في البغية ص ٢٠٢) .

ويستوقف نظرنا هذا اللقب الذي كان ينهب به الشاعر ، وهو لقب نراه مرة بالعربية في صورة « النذل » عند ابن حيان وابن سعيد ، ومرة أخرى في صورة « القملة » بالمعجمة لدى الزبيدي وابن الأبار . وقد حاول فرانسكو سيمونيت في مقدمة « معجمه » الكبير التي درس فيها مدى نفوذ اللغة المعجمة (لطينية الأندلس أو اللاتينية الداريجة) وانتشارها بين الأندلسيين المسلمين - حاول أن يفسر هذا اللفظ فقال إنه الصورة العربية للفظ *El camello* (ومعناه « الحمل ») . (انظر سيمونيت : « معجم الألفاظ الإيبيرية واللاتينية الشائعة بين المستعربين » ، ص ٢٢ من المقدمة :

Francisco Simonet : Glosario de Voces ibericas y latinas usadas entre los mozarabes
Madrid, 1889, p. XXII.

وقبل خوليان ريبيرا هذا التفسير في مقدمة دراسته عن الزجاج ابن قزمان المدرجة في كتابه « محاضرات ورسائل » :

Julian Ribera y tarragó : Disertaciones y opúsculos, Madrid, 1928, I, p. 30

عل أن هذا التفسير يبدو لنا بعيداً عن الإقناع ، لاسيما وأنه لا سيمونيت ولا ريبيرا كانا يعرفان آنذاك نص ابن حيان ولا ابن سعيد الذي جاء فيه مقابل هذا النهب العربي ، وهو « النذل » ، إذ من الواضح أن هذا اللفظ ينبغي أن يكون الترجمة العربية للفظ « القملة » المعجمي .

وقد أعدنا النظر في هذه الكلمة فبدلنا فيها رأى نظرحه للمناقشة ، هو أن لفظ « القملة » محرف عن « القنلة » (بالنون لا بالميم) ، ويكون اللفظ حينئذ رسماً لكلمة *canalla* باللاتينية الداريجة (المشتقة من *Can, cania* باللاتينية

الفصحى ومعناها الكلب) ، والترجمة الدقيقة للكلمة الدارجة هي « النذل » ومازالت حتى الآن تستخدم بهذا المعنى في اللغة الإسبانية الحديثة في صورة Canalla . وهكذا نرى أن لفظ « النذل » الذي يستخدمه ابن حيان وابن سعيد لقبا للشاعر ينطبق تماما على « القنلة » الذي نحسب أنه محرف إلى « القملة » في كتابي الزبيدي وابن الأبار .

(٣٦٠) عن عيسى بن دينار انظر ما سبق لابن حيان أن كتبه عند ذكره في وفيات سنة ٢١٢ هـ (٨٢٧ - ٨٢٨) ، وانظر كذلك تعليقنا السابق رقم ٢٨٥ .

(٣٦١) راجع ما سبق أن قاله ابن حيان عن حارث هذا في وفيات سنة ٢٢١ هـ (٨٣٦) وتعليقنا عليه رقم ٢٩٧ . وقد سبق أن علقنا على اضطراب المترجمين له في كنية أبيه بين « أبي سعد » و « أبي سعيد » . وأما فيما يتعلق بالشرطة الصغرى التي وليها فانظر حول هذه الخطة ما سبق أن كتبناه في التعليق رقم ١٥١ .

(٣٦٢) عن يحيى بن يحيى الليثي انظر ما سبق أن كتبناه في تعليقنا رقم ٣١٥ .

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٣	تصدير
٧	تمهيد
٨	خلف بن حسين كاتب المنصور والد بن حيان
١٦	أبو مروان بن حيان - حياته (٣٧٧ - ٤٢٢ / ٩٨٧ - ١٠٣١)
٢٢	أساتذة ابن حيان
٢٣	ابن حيان والفتنة
٣٢	ابن حيان في ظل بني جهور (٤٢٢ - ٤٦٢ / ١٠٣١ - ١٠٧٠)
٣٥	ابن حيان ووظائف الدولة
٣٧	محنة ابن حيان
٣٨	عثرات في سلوك ابن حيان
٤١	أخبار عن صداقات ابن حيان وحياته الخاصة
٤٥	السنوات الأخيرة (٤٦٢ - ٤٦٩ / ١٠٧٠ / ١٠٧٦)
٤٥	ثقافة ابن حيان العامة
٥٠	تلاميذ ابن حيان
٥٣	كتب ابن حيان
٥٤	١ - المقتبس
٥٦	٢ - المتين
٦٢	٣ - اخبار الدولة العامرية
٦٥	٤ - البطشة الكبرى
٦٦	- كتب أخرى (٢)
٦٩	منهج ابن حيان في كتابة التاريخ
٧٢	مصادر ابن حيان
٧٢	(أ) مصادر المقتبس
٧٤	(ب) مصادر الدولة العامرية والمتين
٨٤	مكانة ابن حيان مؤرخا وخصائص كتابته التاريخية
٩٠	عقيدة ابن حيان وآراؤه السياسية
١٠٠	ابن حيان وقضية الثلب
١٠٤	ابن حيان أديبا
١٠٨	ابن حيان ناقدا
١١٤	ابن حيان في نظر المتأخرين

الصفحة	الموضوع
١١٨	المقتبس - مخطوطاته وما نشر منه
١٢٢	المخطوط
١٢٥	منهجنا في العمل
١٢٩	نماذج من مخطوطات الكتاب
١٤٩	ذكر مهلك نصر الخصى الكبير
١٦٣	صفة الأمير عبد الرحمن
١٦٣	تسمية ذكور أولاده
١٦٥	حجاب الأمير عبد الرحمن
١٦٥	سفيان بن عبد ربه
١٦٦	عيسى بن شهيد
١٦٨	وزراء الأمير عبد الرحمن
١٧٠	كتاب الأمير عبد الرحمن
١٧١	خبر الزجالى
١٧٦	أصحاب شرطة الأمير عبد الرحمن
١٧٧	قواد الأمير عبد الرحمن
١٧٧	قضاة قرطبة للأمير عبد الرحمن
١٨٦	نوادير من أخبار قضاة الأمير عبد الرحمن
١٩٠	يحيى بن معمر الأهلانى
١٩٣	الأسوار بن عقبة
١٩٤	إبراهيم بن العباسى القرشى
١٩٨	محمد بن سعيد
١٩٩	يخامر بن عثمان الشعبانى
٢٠٣	على بن أبى بكر الكلابى
٢٠٤	معاذ بن عثمان الشعبانى
٢٠٦	محمد بن زياد الخمى
٢١١	الوفاة لأولى النباهة في دولة الأمير عبد الرحمن
٢٢٢	ذكر خصال من مناقب الأمير عبد الرحمن
٢٢٥	ذكر الجماعة
٢٢٩	الداخلون إلى الأمير عبد الرحمن من قومه
٢٣١	ما يستلحق في باب الوفاة فوق هذا
٢٣٣-٢٥٤	التعليقات

رقم الايداع ١٠٢١٦ / ١٩٩٤
التراقيم الدولي ٠ - ٠٧٣ - ٢٠٥ - ٩٧٧ - I . S . B . N

طبع بمطابع مؤسسة دار التعاون للطبع والنشر